المجموعة غير الكاملة لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج



الأعمال غير الكاملة

لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

تصميم الغلاف: مصطفى جحا

الأعمال غير الكاملة
لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج

المجلد الثاني

قناديل
للتأليف والترجمة والنشر

واحترقت بيروت

(روايـــة)

ط ١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

وتُطل الذكريات:

وتبدو في الأفق غيمة بيضاء تحجب نور الشمس عن الأجساد الفارهة التي تحتضن الرمال البيضاء في خليج جونيه.

هناك في البعيد البعيد

كانت امرأة

تسير في الطريق

رغم قساوة الطريق وضراوة مرتاديه

فهي امرأة

ولكنها ليست كبقية النساء

عمرها آلاف السنين

وجسدها جسد صبية شابة لم تبلغ الثامنة عشر من العمر

ووجهها تبدو عليه آثار النعاس لكثرة ما سهرت طوال الليل

أناقتها مفرطة،

تستخدم من وسائل التجميل أغلاها وأفضلها، وكأنها تسير إلى حفلة عرس تقيمها غانية في ضاحية ملأى بأشجار الصنوبر.

تلتف من رأسها حتى أخمص قدميها بملابس تحمل أشهر دور الأزياء الباريسية، وتنتعل في قدميها خفاً شارك شفتيها حمرتهما القانية.

تبتلع الصمت، والصخب يعيش في أعماق أعماقها

أجمل ما فيها عيناها الواسعتان، وأهدابها الطويلة، وكأنها عندما تغمضهما تحاول أن تتذكر الماضي القريب والبعيد معا، فلطالما تجسدت أمانيها على أيدي رواد الليل وصنّاع الحياة وبائعي اللذة في الدروب الصغيرة، ومع هذا فهي أيضاً ذات أمجاد.

في الصناعة كان لها شأن ووزن،

وفي احتراف الكلمة كانت المجلية،

وفي نهل العلوم كانت السبَّاقة،

وفي الليل كانت مشرقة،

وفي النهار كانت تذوب.

روادها من جميع الطبقات جاءوا يتفرجون عليها كغانية، وعندما أصبحت امرأة لم ينسوها.

هي معطاء، ولهذا لا تبخل على من يعمل بما يرغب، لأنها تؤمن بالعمل ليلاً ونهاراً.

ولكنها اختارت الليل كمهنة، عشقت أسراره، وتجملت لرواده،

وتحيرت لأولئك الذين يقطعون أنفاسهم جرياً وراء لقمة العيش.

وفي صباح يوم من أيام الربيع المشرقة عام ١٩٧٣، الأزهار تفتحت على الأرض الخضراء، الأشجار وقد اكتست أوراقها هي الأخرى بخضرة داكنة.

والبحر يحنو على الأجساد البضة، يداعب الأنفاس اللاهثة وهي تلتقي على الأمواج المتكسرة، والشاطئ مليئ بألوان من النساء والرجال معاً.

بعضهم من بيروت. جاء أكثرهم من هنا وهناك يلتمس الراحة والدفء بين أحضان البحر الأزرق الهادىء.

جلهم خلا لنفسه، فاستعبدته هذه النفس، فذهب يبحث عن لذته في صنوف الحياة التي يمارسها، وهي امرأة ولكنها ليست كبقية النساء.

جاءت على عجل ترمق الأفق في صمت الأنثى ودعتها ورقتها، والرجال

من حولها يتطلعون إلى الجسد الشامخ والوجه الأنيق.

ترى لماذا اختارت هذه المرأة كل هذه الملابس الأنيقة؟ فالناس هنا يتحررون من ملابسهم حتى ورقة التوت تصبح في بعض الأحيان عبئاً ثقيلاً على الرجال والنساء.

فالرجل يرغب في أن يرى أكبر مساحة من جسد المرأة.

والمرأة ترغب هي الأخرى أن تعطي الشمس أكبر مساحة من جسدها.

وهي ترغب وهو يرغب، ومن خلال الرغبتين تتحقق الكثير من الأماني وحتى الأحلام.

شاطىء جونيه الصغير يتحدث مع الوافدة حديث القلب للقلب، يودعها أسراره، يشهدها على روادها وهي صامتة، ترى لماذا تظل هذه المرأة على كل هذا الصمت؟

ويبدو في الأفق شيء صغير يتحرك، ثم تكبر الحركة، وتظهر من بعيد باخرة بيضاء تحمل عدة أعلام مزركشة تتهادى على الموج وفي مقدمتها رجل يتمنطق بحزام أبيض تتدلى من جانبه مفاتيح كثيرة، ينظر من خلال منظاره إلى الشاطىء ليرى إشارة الضوء الأخضر من زميل تواعد معه على اللقاء.

ويحتد صمت المرأة، ويكثر حديث الشاطىء وهي تصغي، ويرتفع صوت الشاطىء بلغة غريبة، لكنها تبدو في أذن المرأة واضحة المعاني.

فالشاطىء عندما يحتد ينسى نفسه، ويستخدم كلمات أولئك الذين نسوا عالمه وعاشوا على أرضه فترة من الزمن ثم ذهبوا.

وتظهر على قسمات الوجه الأبيض الصامت نظرة حزن وأسى، فالمأساة قادمة مع ركاب هذه الباخرة.

لماذا لا تغرق هذه الباخرة بدل أن تغرق بيروت؟ لماذا لا تحترق بدلاً من أن تحترق بيروت؟...

هذا الجسد الجميل، وهذا القوام الشامخ سيكون أتوناً لحرب طاحنة لا تبقي ولا تذر.

لتتداركها العناية. بدأت المرأة تحادث الشاطىء بكلمات هي الأخرى غير

مفهومة، وتسمرت عين الشاطىء على الباخرة تارة وعلى جسد الغانية تارة أخرى.

كل ما فيها عبارة عن صناديق، لكنها صناديق أنيقة رصت بعناية، تحمل أرقاماً عجيبة، كل مجموعة منها في مكان، وكأنها لتاجرين وليست لواحد.

وعندما رست الباخرة على مقربة من الشاطىء، توافد رسل الشيطان، كل منهم يجري إلى القبطان ليتسلم أوراق شحنته.

وصاحب الباخرة يطل من بعيد،

وتطل معه الذكريات،

فهو مصدر السلاح،

وهو مصدر القوة،

يختار ضحاياه بعناية،

وعندما يختارهم يدفعون هم ثمن هذا الاختيار. لقد قبض قيمة السلاح من أحدهم، وكان مارونياً، وقبض قيمة السلاح الآخر من الثاني وكان مسلماً.

لكن فصول المأساة تبدو في أعماقه مصدر راحة، فهو يعرف جيداً أن ما اشتراه المسلم سيبيعه هو الآخر. ولكن لغير المسلمين، وأن ما اشتراه الماروني سيبيعه هو الآخر، ولكن لغير الموارنة.

إنهما، أي الرجلين، من طينة واحدة وهو يحترم الرجال الذين هم على شاكلتهما.

لتضرب دفوف الحرب، ولتشعلها الأيدي القذرة، فهو بدون الحرب لا يستطيع تصريف بضاعته. وابتسم الرجل، والتقت عينه بعين المرأة فهتف بها من أعماقه:

ـ مرحباً بك يا بيروت.

ولكن بيروت كانت حزينة فلم تجب، وإنما التفتت لتبصق على وجه من يحييها وعلى صناديق الأسلحة.

وأخذت طريقها عائدة من الشاطىء في هدوء ممزوج بالألم، فهاهم أبناؤها روّاد الليل في مقاهيها ونواديها يجمعون على تخريب جسدها، الذي لم

تقو السنون على تخريبه.

ونظرت إلى المرآة الصغيرة فرأت التجاعيد تبدو على الوجه الأنيق في صورة مفاجئة، وكأن أيام عمرها الذي مضى أخذ يظهر في صورة جديدة.

وحثت المرأة الخطى لتمضي إلى غرفتها تنفض عن نفسها أحزان اليوم الذي شهدته.

سيأتي الليل، وستعود إلى الحانة وسترقص للسكارى، وستداعب رواده، فالحياة لا ترضى بالتوقف.

وهي على الرغم من كل ما رأت ستمضي في حياتها. ربما استطاع العقل أن يتغلب على المصلحة الخاصة في نفوس القوم، ربما، ربما. . . .

وفي الليل، كانت الغانية على «البيست» في حانة بيروت تنضو ملابسها في رشاقة للسكارى ورواد الليل وصيحات الإعجاب تنطلق من الحناجر.

أما هي فكانت في وادٍ آخر. إنها تفكر في هؤلاء الناس.

كم من هؤلاء الرجال سيموتون؟ وكم منهم سيعيش بعاهة؟

لا تدري! كما أنهم هم الآخرون لا يدرون. إنها تحب روادها، ولهذا فقد قبلتهم جميعاً بعينيها، أما ضيوفها فيا حسرة قلبها عليهم، سينفرط عقدهم، سيذهبون إلى حانات أخرى في مدن أكبر من هذه المدينة، وسيلتقون بنسوة غير هؤلاء النسوة.

وعند هذا الحدّ أجهشت المرأة بالبكاء بصوت مسموع وهي تخلع آخر رداء عليها طارت على إثره جميع أبخرة الخمور في رؤوس السكارى، وأخذ الجميع ينظرون إلى الغانية التي تنضو عن جسدها أجمل ملابسها ثم تبكي.

وامتدت الأيدي لتمسك بالغانية تهدهدها، لكن الأيدي لم تجد شيئاً سوى الفراغ، حتى صاحب الحانة بات هو الآخر مشدوهاً، فقد اختفى جسد المرأة في صورة عجيبة.

ترى أيريدون أن تختفي مدينة بيروت عن معالم هذه الدنيا الواسعة؟

ربما، من يدري. . . .

وكانت حكاية تناقلتها أفواه الحاضرين، وتحدث بحديثها الكثيرون، لكن

الناس في بيروت لم يعرفوا الحقيقة.

كانوا بين مصدق ومكذب.

أما أكثرهم فقد قال: هي مجرد تخيلات سكارى أفقدتهم الخمر صوابهم، فلم يفرقوا بين الحقيقة والخيال.

لكن الخيال هذه المرة كان أقوى كثيراً من جميع الحقائق.

فقد تجسد الخيال حقيقة ما يراد لهذه المدينة التي اسمها بيروت.

الفصل الثاني

ظلال الشك تغلف قلب المرأة. لقد غاب عنها وليفها لأكثر من ثلاث ليال متتالية كان يعود بعدها منهوك القوى آخر الليل لينام دون كلمة تحية.

هل اختطفت قلبه امرأة؟

أم أن هناك أسباباً أخرى شاركت في إبعاده عن كوخه وطفله الصغير؟

ربما، فهي لا تدري، إلا أنه دائماً عابس الوجه واجمه.

لقد ذهبت نضارة شبابه، أودت بها الليالي الثلاث، ذهب بروائها سهره هو الذي لا يعرف كيف يسهر.

لقد حدثته كثيراً، ولكنه لم يستجب لحديثها هو الذي تتراقص البسمة على شفتيه عندما يراها.

لشد ما تغيرت أخلاق هذا الرجل.

شباك الصيد التي يعشقها تناساها بعد رحلة الليالي الثلاث، وأصبح يخلد إلى الصمت فترات وفترات وكأنه يعد الساعات تلو الساعات، ينتظر الأيام لتتمخض عن شيء لا تدري كنهه. إنها الكارثة صبت على أم رأسها فجأة وبدون مقدمات.

لكن هذا الصنم الذي كان يشتعل فتوة وإيناساً لا يريد أن يتكلم، وإذا تكلم كانت كلماته مبتورة، تأمر بلا عنف.

شيء جديد يختلج في صدر هذا الرجل، وهي تحس بهول ما يختلج في أعماقه، تحس وتشعر، لكنها لا تدريه.

ساعات الصمت الطويلة قضتها بجانبه في معاناة وجدانية تجسدت ظلالها على وجهها النضر وملابسها التي أهملت نظافتها، هي التي كانت مضرب المثل في النظافة رغم الفاقة التي تلم بالبيت والحاجة التي تحيط به، ستحاول هذه المرة أن تعرف الحقيقة بأسلوب جديد. إنها تعرف حبه لوليدها، فمضت تحمله إلى حيث يقبع، وعندها هالها المنظر، فتعالى صوتها قائلاً:

ـ ما هذا؟

ـ سلاح يا عزيزتي.

ـ أين وجدته؟

ـ لم أجده، ولكني استلمته، فنحن في طريقنا اليوم لأن نعلن عن مطالبنا تجاه شركة الصيد الجديدة في صيدا.

ـ وهل إعلان المطالب يحتاج إلى مثل هذا؟

وأشارت إلى البندقية التي تلمع في يد زوجها.

ـ نعم.

وصمت.

وتهدج صوتها وهي تسائله:

ـ لكنك لا تعرف كيف تستعملها.

ـ تعلمت استعمالها طوال الليالي الثلاث.

ـ إذن هي غريمتي أخذتك مني، ولهذا فسآخذها منك.

وشدّت سناء البندقية من يد صاحبها الذي تمسك بها في قوة ثم ضحك:

ـ لا عليك، فبها يا عزيزتي سننتقل من الكوخ إلى البيت. إنها سندي وسندك وسند كل ضعيف.

سنواصل المسيرة في شوارع صيدا، وسنعلن عن مطالبنا حتى إذا ما استجابوا لم يعد هناك فائدة لاستخدام هذه.

وأشار إلى البندقية وتابع:

ـ أما إذا لم يستجيبوا فالوضع مختلف. نحن ندافع عن لقمة العيش لي

ولك ولهذا الوليد الذي أشعر بأنه خائف.

ـ ليس وحده الخائف وإنما أنا أيضاً، فأنا خائفة منك ومن السلاح.

ـ لا تخافي. لقد أجدت التصويب فلم أعد أخطىء الهدف، لكنني كمسالم لن أستخدم العنف حتى يستخدمه غيري.

ـ إنني أخاف عليك، فأنت الوحيد الذي بقي لي. لقد ذهب الوالد والولد الكبير، ولم يبق لي وللصغير سواك، فعد يا عزيزي عن طريق الشر وعد إلى أدوات صيدك، إلى مصدر رزقك.

ـ لقد عطلوا عملها فلم تعد تأتي بشيء. أصبحنا كالحيتان يأكل كبيرنا صغيرنا، واليوم آن للصغير أن يدافع عن قوت يومه.

وتمنطق سمير بندقيته وخرج من الدار لا يلوي على شيء لينضم إلى الجموع الهادرة التي أخذت تسد منافذ الطريق. الأصوات تعلو منادية بهتافات وشعارات كثيرة لا تعني هذه المرأة. كل ما يعنيها أن يعود رفيقها من هذه المسيرة.

المظاهرات تمضي في شوارع صيدا، تحتل جميع طرقاتها، وشرفات المنازل ملأى بالنسوة اللواتي جئن للفرجة على هذا الحدث كثير من الشفقة على الرجال الذين يتصدرون المسيرة.

وكانت واحدة ترقب الجميع وتحطّ بعينيها الذابلتين على الرجل الضخم الذي تمنطق بملابسه الكاكية بين الصفوف المتراصة.

وكان اندفاع الشباب لاختراق الحواجز كبيراً، كما كانت صيحات الرجال ترتفع في عنان السماء في قوة ووضوح تعلن عن مطالبها في استماتة.

فالرزق شيء مقدس يسعى كل الناس إلى تلمسه هنا وهناك. البطون الجائعة تستغيث من الظلم والاستبداد وتنادي بسقوط شركة الصيد الجديدة التي جاءت لتقضي على أرزاق الصيادين في مدينة الشاطىء الصغير.

كل شيء يسير على ما يرام، حتى إذا ما بدت في الأفق سيارة عسكرية تسير في الطريق تكهرب الجو، واختلط الحابل بالنابل، وانطلقت أصوات الرصاص تزمجر في سماء المدينة معلنة عن مولد جديد للعنف يختار طريقه بين

صفوف الشباب. وكانت هناك رصاصة واحدة اخترقت جسد الشيخ الذي بدأ ينهار بين الأيدي التي تحتضنه، وعندها زاد هياج القوم وارتفع صوت الرصاص كأنه ينهمر في سماء الشارع، وأدرك الناس أن الكارثة قد حلت بالمدينة وشبابها وصياديها.

لقد جاء الصيادون لاصطياد أرزاقهم فوقعوا في مصيدة ذلك الذي أراد لصوت الشر أن يعلو ويرتفع.

وتجمهر الناس حول الرجل الشيخ الذي اندفعت إليه الجموع تحاول الوصول إلى حيث يرقد، لكن الأجساد الفتية حالت بينهم وبين أن يروه.

وعندما جاءت سيارة الإسعاف انفضت الجموع من حول الساحة لتستأنف مسيرتها بشكل فردي هذه المرة،فقد استطاع صاحب المصلحة استغلال المناسبة وكان ما كان.

لكن واحدة من النساء كانت في كوخها الصغير تسير في غرفتها تنتظر عودة وليفها الذي ذهب وأفكارها كلها معه ترقب هذه العودة. كانت أصوات الشارع تصل إليها مزمجرة حيناً وخافتة حيناً آخر، وعندما أطل الليل، كانت تنتظر مع من ينتظر أوبة الرفيق الذي مضى.

لكن هذا الرفيق لم يعد إلى عشه، وإنما حملته الأيدي إلى المستوصف الصغير ليعالج من جرح عميق أصابته به رصاصة غادر ففضل العلاج على العودة.

وفي الصباح جاء صديقه ليحملهاإلى حيث يرقد زوجها المسجى على خشبة من خشبات المستشفى وقال لها:

ـ لا تبكي يا عزيزتي. فلقد كان زوجك من أولئك المهرة الذين يعرفون كيف يثأرون لأنفسهم. لقد قتل العديد منهم، من أولئك الذين أرادوا موته قبل أن يموت. ومضى وهو يتمتم وكانت كلماته كلها ثناء عليك. لقد حمَّلني أمانة واحدة، هو أن تظلّي أنت وطفلك في ضيافة والدي حتى يكبر، وسأنفذ هذه الرغبة بحذافيرها.

لكن المرأة لم تعد تطيق الإجابة، وإنما مضت لتضع وجهها على رجلي

المسجى على الخشبة وكأنها تعاتبه على ما فعل.

لقد مضى بعيداً عنها،

أخذته منها امرأة أخرى.

أوليست البندقية في كثير من الأحيان أنثى تجيد التصويب والقتل؟

الفصل الثالث

يقولون دائماً إن أجمل ما في مدينة صيدا قدرة شبابها على ضبط النفس.

لكن هؤلاء الشباب على ما يبدو لم يعودوا مقتنعين بما يتحدث الناس به عنهم.

فالهياج والصراع يملآن أجواء المدينة، لقد استطاعت السلطة أن تطوق حادث قتل الشيخ في هدوء، لكن النار التي تسري في عروق بعضهم كانت تؤكد بأن هؤلاء الشباب لن يتنازلوا عن مطالبهم في سهولة.

لقد مضى الشيخ إلى قبره في جنازة مهيبة شاركت السلطة فيها بأكثر من وجه، وتناقلت الصحف كلمات الرثاء للرجل الذي استطاع أن يبني نفسه فيكون كما أراد شيئاً مذكوراً في هذه المدينة الصغيرة، وكان الناس يتناقلون أحاديثهم عن الشيخ في إعجاب مقرون بالذهول.

ترى من أين جاءت الرصاصة التي اخترقت الجسم الكهل؟

بعضهم يقول إنها رصاصة جندي.

وآخر يقول إنها رصاصة دخيل.

وهي تقول: لا فرق بين رصاصة الجندي أوالدخيل أوالموتور، فالمهمة التي صنعتها الرصاصة أتت أكلها على أكمل وجه. لقد استطاعت الرصاصة أن تشيع الفتنة في أرجاء المدينة، وتجسدت صورة كل من قضى نحبه في هذا الشيخ الذي مضى.

وأصبح من حق كل بيت أن يقول ما يعجبه وما لا يعجبه. وأصبح حديث الناس عن السلطة مقروناً بكثير من الاستهزاء لأنها لم تستطع أن تطوق الكارثة.

ونزل رئيس الوزراء حينذاك إلى الساحة ليدلي هو الآخر بدلوه وكأنه يتنصل من أوامره التي أصدرها أو التي لم يصدرها بإنزال الجيش. أما المستفيد الأول من هذه العملية فقد كان يضحك في كمه وهو يقرأ تعليقات الصحف في بار سان جورج أحد أكبر فنادق بيروت.

كان يحتسي كميات هائلة من الويسكي في شراهة ونهم، ويتطلع إلى الوجوه التي تحلقت حول موائد البار في سخرية.

فهو معجب بهذا الشعب اللبناني وطريقته في الحكم.

كل كلمة تقولها السلطة يخطط لها هنا على هذه الموائد.

ووجوه علية القوم هي الأخرى تشرح المواقف في ابتسام.

والسيجار الضخم يطل في أناقة من الشفاه المكتنزة.

حتى إذا مرت بأحدهم غانية جميلة ترتدي آخر صيحات الموضة هبّ الجميع لاستقبالها والتفوا حولها وكأنهم ينتظرون كلمة السّر من فمها، لكن الغانية لم تفعل، وإنما استدارت إلى حافظتها لتخرج أوراقاً كثيرةً فضت معظمها في هدوء وثقة.

وتدارك الحاضرون الموقف، وصاحب الرصاصة التي قتلت الشيخ يرقب المنظر في فضول، وتسللت كلمات الغانية إلى أذنيه وهي تتلو آخر ما توصلت إليه السلطة:

ـ ربما كان هناك مستفيد يتسلل إلى المسيرة ليطلق رصاصة على جسد الشيخ.

وربما كان لهذا العمل أسباب مقنعة لدى من أرسلوه.

إنهم يريدونها فتنة، تأكل الأخضر واليابس، وقد استطاعوا أن يغرسوا بذور الشر في النفوس الفقيرة التي هبت في وجه العاصفة.

وتحدث أحدهم:

ـ ولكن الهدوء كما يقولون عاد إلى المدينة.

وابتسمت الفتاة وهي تردّ في كبرياء:

ـ لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

إن الدوامة التي ستجرف لبنان في طريقها إليه.

لقد أثارت هذه الرصاصة كوامن الشر في النفوس الطيبة، هزت في أعماقها خنوع الفقير للغني، ونظرت إلى نفسها ثم ضحكت كأنها تقول: ترونني ألبس ما ألبس وأجتمع مع من أجتمع.

ليتنا ندرك أية هوة ستفصل في القريب بين قلوب أبناء لبنان.

لم تكن الرصاصة تلك هي التي صوبت إلى صدر الشيخ بمقدار ما صوبت إلى صدر بيروت، وبيروت كما تعرفون مصدر رزق لبنان، إنها العاصمة التي تشهد اليوم ما يجري في صيدا وفي الجنوب، وهي تلهو وكأن ما يجري في تلك الأماكن لا يجري على أرض لبنان.

وتعتع السكر أحد كبار السادة فقال في لسان أثقلته الخمر:

ـ لا عليك سنكون لها، واليوم خمر وغداً أمر.

وضحكت الفتاة وقالت وكأنها تقرأ في كتاب مفتوح:

ـ صدقوني أيها السادة

بيروت امرأة

وإسرائيل امرأة

وأنا امرأة

ولكن ما أعرفه تعرفه بيروت وإسرائيل، أما أنتم، فقد بعدت بينكم الشقة من أن تفهموا أو تعوا.

إن العالم من ورائنا يتطلع إلينا ينتظر الساعة التي ستحين ليقضي على جميع مظاهر التعايش في بلادنا.

أولسنا نحن الصورة الطيبة للدولة العلمانية التي تريدها المقاومة على أرض فلسطين؟

لكن إسرائيل العجوز تأبى أن تظل الصورة ناصعة البياض. سيلطخون

جميع جوانبها بالدم، وسيلصقون بهذا الشعب العار ثم يتفرجون.

انظروا.

والتفت الجميع إلى ذلك الذي يقبع على كرسيه.

- إن قلبي يحدثني أنه صاحب الرصاصة، لا أدري مجرد إرهاصات، لكن هل فيكم من يستطيع الاتصال بالمكتب الثاني الآن ليأتي ويقوم بدوره؟

لقد قتلتم النخوة في قلوب الضباط. شردتموهم بلا سبب سوى أنهم كانوا أسياداً لكم في فترة من الفترات، ولكنهم أيها السادة لم يكونوا أسياداً عليكم بمقدار ما كانوا ينفذون سياسة من وظفهم. جرحتم جيشكم، هدمتم معبده، وقتلتم في نفوس أبنائه إحساسهم بأنهم مواطنون، ووضعتم في نفوسهم كل الحقد والكراهية، وتوقف صوت الفتاة عندما ارتفع صوت كهل من أقصى المائدة.

- وماذا بعد يا حسناء، هل جئت إلينا لتعطينا دروساً في الأخلاق والسياسة؟

- إن كنت تعتقدين ذلك فأنت مخطئة، فنحن نعرف عن الأخلاق والسياسة أشياء كثيرة قد لا تعرفينها.

لقد ولدت في بيت سياسي، وعشت طريد هذه السياسة في كل مكان، ومع هذا فأنا كما ترينني على هذا المقدار من الفضيلة والوقار.

وضحكت حسناء وأجابت:

- الفضيلة والوقار بعدا عن هذه المدينة منذ أمد بعيد، اصطادتهما عيون الحساد فور توقيع الميثاق الوطني الذي أعطت بموجبه فرنسا لبنان الحرية، سرقته من أعين الناس أنانية الناس من هذا البلد، وأنتم منهم، تظلون هنا تأكلون وتشربون.

لا عليكم، فلتمض بيروت في لعبتها، وليمضِ السادة في اغتراف ملذاتهم من هذه الكؤوس، أما أنا فسأمضي إلى أرض المعركة لأتعرف إلى واحدة من بنات صيدا تحدث الناس عن مدينتها حديثاً طويلاً لم تنشره الصحف، لأن زوجها لم يكن من صنّاع السياسة في هذا البلد العريق الذي يعيش على فتات موائد السياسة في كل زمان ومكان.

الفصل الرّابع

حسناء في سيارتها السبور الزرقاء تنهب الطريق إلى صيدا وكأنها تعرف الطريق إلى ما تريد.

لا تستوقفها إشارة، وإنما تلعب بخاطرها هواجس كثيرة تسللت إلى أعماق أعماق نفسها فسيطرت على جميع أحاسيسها المتدفقة، فهي من هذا الجيل الثائر، عرفت الكثير عن ساسة بلادها وقادتها، وتحدثت مع أكثرهم وناقشت بعضهم وأذاعت في التلفزيون أكثر من حديث عنهم.

لطالما قرأت صحافة بلادها فأشفقت على هذه الدكاكين الكثيرة التي تفتح صفحاتها لمن يدفع، لكن الحياة علمتها أن الصحافة مرآة لواقع الأمة، فبلدها صغير لا يمكن أن يستوعب هذا العدد الهائل من الصحف، كلهم على طرفي نقيض سوى قلة قليلة نذرت نفسها لخدمة لبنان بعد أن انغمست فترة من الزمن في متاهات السياسة، وخرجت بعد هذه المعاناة بصورة جديدة من صور السياسة التي يجب أن تعايشها وتلامسها.

فهي لبنانية الأصل، عربية المنشأ. من هذا المبدأ تنطلق ولأجله تعيش، وهي تكتب بين الحين والآخر في هذه المؤسسة أو تلك. تغضب هذا فتنصرف بقلمها إلى غيره، ويغضبها ذلك فتسعى لإطفاء نار حقدها المتأجج في صدرها إلى الآخر، وكأنها تنتقم لنفسها من كل هؤلاء الذين يعيبون عليها أن تكون أنثى في ثياب رجل.

قد تكون لها أخطاؤها، لكن أخطاءهم الكثيرة أعظم من جميع الخطايا التي ارتكبت. هكذا كانت تفكر وهي في طريقهاإلى الكوخ

الصغير في الشارع الجانبي من شوارع صيدا الفقيرة كان جل هدفها أن تلتقي بسناء الأنثى التي انتقمت منها أنثى أخرى، أنثى من حديد. وقد وضعت في ذهنها صورة لهذه المرأة التي قالت عنها الروايات إنها كانت تخرج إلى الشباب جل أوقات النهار لتطيب خواطر المحرومين، وتهيئهم للعمل المثمر بدلاً من السير في طريق الثأر. كم هي جميلة هذه الأنثى حتى في مصيبتها فهي رائدة.

تغلب المنطق في عقلها الصغير ووعيها الباطن فأعطاها الحجة في القول، وساهمت روح الخير في نفسها الضعيفة فأعطتها القوة لأن تحافظ على من تبقى من شباب في مدينتها، وكأنها بهذا العمل تهيىء مكاناً لابنها الذي يحبو. إنه هو الآخر يرمقها في حنان.

وفي الكوخ التقت العيون وتصافحت الأيدي. كانت كل واحدة منهما تجوس في أعماق الأخرى، وكانت نظرات سناء الجاهلة أعمق في الوصول إلى أعماق نفس حسناء من حسناء نفسها.

لا تدري ما هي الأسباب،

قد تكون الأحداث قد أعطتها هذه القوة.

هي نفسها لا تدري إلاّ أنها تشعر بأن هذه الأنثى قريبة إلى قلبها، فهي بمفهومها البسيط وقدرتها المحدودة تحاول أن تبني لبنان ولا تدع لأية يد أن تهدمه. قوية هذه المرأة وعنيدة، وهي كذلك قوية وعنيدة، لكن قوتها استمدتها من أسرتها، من دراستها، من التصاقها بالكبار، أما هذه فقد أخذت قوتها من الكارثة.

هكذا كانت تقول لها:

ـ لا تصدقي عندما يقول الناس إن الأمور عادت إلى طبيعتها. فأنا أرى الشر في نفوس القوم، في ابتساماتهم المصطنعة، في وجوههم التي خربتها معاول الهدم في أرض البناء. إنها الحرية العمياء أعطت كل فرد من أبناء الأمة سلاحه الذي يقاتل به.

يقولون إنهم يدافعون به عن أنفسهم، وهم كاذبون.

ويقول آخرون إن السلاح زينة الرجل، ويتناسون بأن مع كل (حبة عرق)

يسقط رجل وتيتم أسرة.

لماذا لا يذهبون إلى إسرائيل فيقاتلون على أرضها ويقتلون؟

إنهم إن يفعلوا ذلك سيكتب التاريخ أخبارهم بمداد من نور.

لكنهم هنا يرتادون المقاهي والبارات، ويتحدثون في السياسة، ويقرأون. ألا لعنة الله على هذه الصحف فهي التي تعلم الناس ما لا يجب أن يتعلموه.

وضحكت حسناء وقالت:

ـ ولكني صحفية.

ـ أنت من معدن غير معادن أولئك الرجال الذين يكتبون.

ـ في كل مكان يوجد الطيِّب والرديء، وأنا آمل أن يكون الطيِّب في صحافة بلادي أكثر من الرديء، لكن ماذا أستطيع أن أفعل إذا كانت الأمور بالعكس؟

كان الحوار بالكلمة، وعندما عقمت الكلمة أصبح الحوار بالرصاصة، وعندما تصبح وسيلة الحوار رصاصة قاتلة قل على البلد السلام.

لقد كرهت من كل قلبي مظاهر الاستفزاز التي أراها، وكرهت جميع أنواع السلاح ما كان منه للقتل أو حتى للدفاع عن النفس، فلقد قضت على زوجي رصاصة من ذلك النوع الغادر، ولم تنفعه بندقيته التي كان يحملها في يده.

أين المحبة في هذه الأرض؟

أين التعايش الذي كان مضرب الأمثال؟

هزته الأيدي المجرمة وتلاعبت به ألفاظ المخربين الذين يجوبون بلادنا طولاً وعرضاً، ينفخون أبواق الإثم والشك، ويغرسون الريبة في النفوس الضعيفة التي اكتوت بنار الفقر والفاقة.

إنهم يغرسون الشر في النفوس، وكان الأحرى بهم أن يجدوا طريقة يرفعون بها الضيم عن سواعد الرجال في طرقات هذه المدينة.

إن لقمة العيش مطلب من العسير تناسيه، فالأفواه الجائعة يسوؤها أن ترى النسوة في بلادنا يرتدين أفخر الملابس ويتعطرن بأجمل العطور ويتزينَّ بأجمل الحلي والآلاف المؤلفة تكدح من الصباح حتى المساء من أجل كسرة خبز.

صدقيني إنها المصيبة التي تعمي أعين الساسة عن معرفة مواطن الضعف في نوعية الحياة التي يمارسها اللبناني.

فاللبناني مع عفويته مسالم بسيط، مطالبه لا تعدو كونها أساسية وسهلة التنفيذ.

يقولون إن سبب المشكلة المقاومة والمقاومة من المشكلة براء.

ويقولون إن السبب هذه السياسة الرعناء التي يتميز بها الاقتصاديون في بلادنا ويقولون الشيء الكثير. وأقول أنا: ليقل الناس ما يريدون، وليبقَ لبنان عنواناً للعطاء والمحبة ورمزاً للحرية الهادفة لا الحرية الرعناء.

إن السماء ملبدة بغيوم الإثارة والشك والتشكيك، وستسمعين قريباً أن المعركة في طريقها إلى بيروت، إلى قلب العاصمة، ما دام قادة هذه البلاد لا يزالون يجتمعون حول موائد القمار وعلى مناضد المقاهي والبارات. لقد كسب العالم كله من تعليم أبنائه الشيء الكثير.

أما لبنان، فيا حسرتي على شباب لبنان، حتى العلم لم يستطع أن يغرس الفضيلة في أجواء هؤلاء الشباب.

قد لا يكون الذنب في هذا على عاتقهم بمقدار ما هو ذنب هذه الطائفية المحرقة التي تفضل المواطن على المواطن.

الفصل الخامس

أصدقاء لبنان يلتفون حول الموائد الأنيقة في فندق كارلتون في بيروت، يطوفون بعجائز السياسة وعلى وجوههم ابتسامة مشفقة، فهم يعرفون أكثر مما يعرف هؤلاء ماذا يُبيَّت للبنان.

لقد أرضوا جميع السياسيين اللبنانيين وأعطوهم من الأسلحة ما يريدون، وزاد بعضهم فأرسل خيرة رجاله لتدريب الشباب على استخدام السلاح.

والقادة العسكريون يشربون نخب الوفاق الذي ارتضى أن يكون لبنان قاعدة لانتصاره.

وواحد من الصحفيين ينظر في سخرية إلى وجوه القوم يتصفحها، يطالع علامات الراحة على الوجوه المتغضنة التي عاث بها الزمن وأودعها بصماته. يضحك في كمّه من غباء هؤلاء الرجال الذين تزداد حساسيتهم كلما انتقص أحدهم من قدره، أما عندما يجمع الوفاق على انتقاص سيادة لبنان وأمنه فلا مانع من أن يشاركوا المتآلفين حفلاتهم، لأنهم لا يزالون يجهلون المخطط الذي وضع لضرب التعايش في هذا البلد الصغير.

لقد استطاعوا أن يخصُّوا المسلمين بأفكارهم فوضعوا في قلوبهم النقمة على إخوانهم المسيحيين لأن حقوقهم لم تؤخذ.

وأشعلوا قلوب الموارنة حقداً على اعتبار أنهم الأقلية التي يجب أن تحكم، لكن تواجد المسلمين على أرضهم يحول بينهم وبين أن يصلوا إلى ما يريدون.

وقالوا إن سبب المشكلة هو التحالف بين المسلمين والفلسطينيين.

وأشاعوا أن غلاة الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوق المسلمين في لبنان هم المسيحيون.

وبرز دور الشيوعية العالمية في جمع شمل مؤيديها على خطة جهنمية تجعل منهم البترول الذي يوضع على النار.

ترى هل يعرف هؤلاء الناس ما يبيَّت لهم؟

قد يعرف هو الكثير، لكنه لا يستطيع أن يكتبه على صفحة جريدته أو حتى يبوح به إلى أصدقائه.

لقد أصبح هذا البلد أسير جنونه، فلم يعد يستطيع أن يستمع إلى صوت العقل.

كل كلمة تكتب يثأر منها بإلقاء القنابل على مباني الجريدة أو المجلة التي تنشر الكلمة.

أصبح الحوار بالكلمة أمراً مفروغاً منه لا يستطيع الكاتب إلا أن يمارسه.

لكن الكلمات المدفوعة الأجر كانت تظهر بين الحين والحين على صفحات المجلات والصحف في عناوين مثيرة.

لقد غاب العقل والمنطق عن أجواء لبنان، وأصبح كل زعيم أسير مصالحه الخاصة، ونسي الجميع أن هذه المصالح الخاصة لا يمكن أن تتحقق إلاّ عبر لبنان.

لطالما فكر في كل هذا، ولطالما أوفدت إليه الدولتان العظيمتان أكثر من رسول لتقفل فمه، فهي تعرف أنه شريك للحسناء في الفهم والإدراك.

لقد أغروه بالنقود تارة وبالتهديد تارة أخرى، وهو لا يدري ماذا يفعل، فهو بين شرين أحلاهما مرّ.

إن المستقبل أمامه، وهو يعرف ماذا يعني المستقبل لكن ما يراد منه شيئاً أكثر من هذا المستقبل الذي يريد.

يوم جاءه صديقه برسالة شفهية، وبعد حديث طويل قال له:

ـ ليذهب لبنان وأهل لبنان، ولنبق أنا وأنت. أرض الله واسعة، وبالنقود يمكن أن نقيم أكثر من دار صحفية على أية أرض.

وضحك يومها بأسى ثم قال:

ـ قد يكون ما تقول شيئاً معقولاً بالنسبة لك، أما بالنسبة لي فلا، ولكني مع هذا لا أملك إلا أن أصمت، وصمتي ليس حباً في المال أو حتى في الحياة، ولكن حرصاً على عدم زيادة القتلى في دور الصحف، هكذا أرادوا وسأعمل وفق إرادتهم رغماً عني، أما المال فسأتركه لك، تستطيع أن تدبر أمرك به لأنني أعتقد أن الحياة في لبنان هذه المرة بالذات لا تحتاج إلى المال.

لقد توافد على هذه الأرض عشرات الموفدين، كل واحد منهم جاء من جهة تمتلىء جيوبهم بالمال، وعلى مقربة منهم أوامر شحن الأسلحة، وهم يوزعون هباتهم على هؤلاء المساطيل الذين لم يميزوا الطيِّب من الرديء.

لماذا لا يحاور أبناء لبنان بعضهم البعض؟

ولماذا لا يتحاور أبناء لبنان مع الفلسطينيين أنفسهم؟

ولماذا لا يتحدث الجميع بشكل واضح وصريح؟

ولنترك كل هذه المزايدات فهي أساس العلة.

هناك المئات من المشاكل والعلل في جميع أنحاء لبنان. لماذا لا تعالج هذه المشاكل والعلل؟ قد يكون الوضع السياسي القائم غير مقبول، وقد يكون الدستور اللبناني في حدّ ذاته مرفوضاً لدى بعض الفئات، ولكن ما يمنع أن يجتمع الجميع في مؤتمر وطني يخرجون من خلاله بأسلوب جديد لمعالجة أوضاعهم السياسية وقضايا الأمن ومطالب الفئات المتعددة في لبنان؟ هل عقم لبنان فلم يستطِع أن يلد ذلك الرجل الذي يعمل على جمع شتات القوم في أرضه؟

أم أن المؤامرة التي حيكت لأرضه وأبنائه وضعت ببراعة؟

سيان عندي هذا الأمر أو ذاك، لكن أين الشباب القادر على إملاء إرادته على هؤلاء العجائز؟ لقد انشغل كل واحد منهم بحيرة كبَّلته المدينة الزائفة بمطالبها فلم يعد يعي في الدنيا سوى أن يأكل أو يشرب.

لماذا؟ لا أدري!

وأخذ الصحفي يستعرض مع نفسه جميع تفاصيل الحديث الذي لم ينته، ثم عاد ينظر إلى جموع القوم التي انصرفت بجميع حواسها إلى التهام الأكل في تلذذ.

كلهم (بطينيون) يعيشون لأجسادهم فلا يستخدمون عقولهم.

ترى كم واحد في الجنوب لا يستطيع أن يسد رمقه؟ إنهم يرون صورة لبنان في بيروت الغانية ولا يتذكرون القرى الصغيرة التي تنام مع الليل، ويعرفون منها صالات فنادقها الكبيرة ولا يتذكرون مقاهي القرية الصغيرة ومدارسها التي تآكلت جدرانها وبهت لون نوافذها وتكسرت سواعد سلالمها العتيقة.

هم أنانيون، لكن أنانيتهم هي التي ستقتلهم. ليذهبوا إلى الجحيم، وليدعوا لي فرصة للتفكير في الخروج من هذا المأزق، فالخطة في طريقها إلى التنفيذ.

وهنا تدخل حسناء فيهب الجميع لاستقبالها في حفاوة، ويندفع السفراء الأجانب لتقبيل يدها البضة، لكنها تتخلص من الجميع لتلتقي بحامد تقبل عليه، ثم تنتحي به ركناً صغيراً وتهمس في أذنه:

ـ لقد قابلتها.

ـ من؟

ـ سناء، فتاة صيدا.

ليتك تأتي معي لتعرفها.

وتقص عليه حديث الأنثى التي فجعت في وليفها، فيستمع إليها في عناية، وعندما انتهت قال لها:

ـ صدقيني لقد استطاعت هذه الأنثى بحدسها الفطري أن تحيط بواقع المشكلة أكثر من هؤلاء.

وأشار إلى شيوخ السياسة في البلد العريق، وضحك.

والتقت عيناه بعيني واحد منهم فقال له:

ـ تستغبينا يا حامد.

وأجاب:

ـ لم أفعلها بالأمس، لكن اليوم فلا بأس، لأنكم تستحقون الغيبة.

وضحك الجميع لهذه النكتة الجديدة التي أضيفت إلى قواميس النكات في عالمنا العربي، وانصرف سائر القوم كل إلى طريق، وبقي حامد وحسناء يتحدثان طويلاً في الطريقة التي يستطيعان من خلالها أن يلفتا نظر أبناء لبنان إلى ما يبيت له.

وعندما انتهيا من حديثهما تواعدا على لقاء في قصر ورئيس الجمهورية، فلربما يستطيعان من خلال هذا اللقاء أن يتعرفا إلى جوانب المشكلة أكثر وأكثر.

وفي اليوم الثاني كانت حسناء وحامد مع جموع الصحفيين ينتظرون ما يسفر عنه اجتماع مجلس الوزراء من نتائج، لكنهما مسبقاً كانا يعرفان أن هذا المجلس لن يصل إلى ما يريد لأن هناك كثيراً من الأيدي قد وضعت العراقيل في طريقه. ولهذا لن تؤثر مقرراته في حل المشكلة التي بدأت تكبر حتى ولو استقال رئيس الوزراء.

وخرجت الصحف في الغد كلها تحمل في صفحاتها رأس يوحنا المعمدان. فقد قدر لحوادث صيدا أن تنهي حكم واحد يعتبره الآخرون دخيلاً على كرسي الوزارة.

ونشرت الصحف الأخرى التهم التي وجهها الرئيس لبعض الفئات اللبنانية، وانفردت المشادة التي حدثت بين رئيس الوزراء وبين أحد نواب الشعب اللبناني.

وضحك أحد السفراء الأجانب ساخراً وهو يقرأ تفاصيل المشادة، ثم نادى على سكرتيرته وأملى عليها رسالة طويلة ضمَّنها جميع آرائه فيما حدث، وطمأن حكومته إلى أن الأمر في طريقه المرسوم يسير في عناية بفضل لا مبالاة رجال السياسة في هذا البلد العريق بالسياسة.

وتناقلت إذاعات إسرائيل ولندن وصوت أمريكا ولكسمبورغ خبر استقالة رئيس الوزراء اللبناني بكثير من التفاصيل التي لو استمع اليها اللبنانيون لعرفوا

ما يبيَّت لهم من الخارج.

لكن أبناء لبنان هذه المرة كعادتهم لا يرغبون في أن يعرفوا ما يبيَّت لهم.

لقد انصرف كل واحد منهم إلى عمله وهواياته يمارسه ويمارسها بكثير من الجد والنشاط، وانتشر أكبر عدد ممكن من الرجال والنساء على شاطىء بيروت يغمرون أجسادهم بالمياه وكأنهم يغسلون فيها جميع خطاياهم وما ارتكبوه في حق لبنان البلد الصغير الجميل، ما عدا واحدة سمراء خائفة، تجسدت أحلام الصبا في عينيها الدعجاوين، غطتهما بنظارة أنيقة، تطالع في صمت كلمات كتاب صغير، وتنظر بين الفينة والأخرى إلى الطريق وكأنها تنتظر صديقاً لم يأت بعد.

لقد حاول الكثير من الشباب لفت نظرها بأحاديثهم وغمزاتهم وسلاسلهم الذهبية المدلاة من أعناقهم وهم يداعبونها، ولكنها لم تلتفت إليهم وإنما مضت بين صفحات كتابها والطريق المؤدي إلى الشاطىء، حتى إذا ما بدت صورة الوافد تتفتح معالمها أمام عينيها لملمت نفسها وجمعت حاجاتها وألقت كتابها في حافظتها الجلدية وأخذت طريقها إليه لتلتقي عيناها بعينيه، ثم يمضيان معاً في الطريق إلى اجتماع الحزب الذي تقرر أن يكون في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.

ومدت بساعديها لتلتقي مع ساعديه في لا مبالاة ومضيا إلى السيارة الصغيرة يجوبان الطريق إلى الجبل إلى قرية بكفيا بلا مبالاة.

الفصل السادس

التأم شمل القوم في الدارة الأنيقة في قرية بكفيا، وكانت الساحة ملأى بألوان من السيارات المختلفة التي ألقيت بلا عناية تحت أشجار الصنوبر الكثيرة. كان الجميع يهزجون بأناشيد حفظوها عن ظهر قلب، كلها تمجد وتبارك لبنان وأرض لبنان وأرزة لبنان. وعلى مدخل الدارة كان هناك علم كبير يحمل رسم الأرزة يرفرف في جميع الاتجاهات.

وتطلعت الفتاة إلى أقرب كرسي ثم سحبت بيدها رفيقها ليظل بجوارها، وأخذت تطالع صفحات الوجوه التي اجتمعت لتستمع إلى كلمات الزعيم الذي وعد بإلقائها.

كان أكثر الحضور من الشباب الذين لم تزد أعمارهم على الخامسة والعشرين، جاءوا إلى الاجتماع بملابسهم المزركشة، أما الفتيات فقد جئن بأجمل التسريحات تسبقهن روائح أجود أنواع العطور وكانت كل واحدة منهن تتباهى على رفيقتها برفيقها الذي اختارته.

وصمت القوم لتلتقي أعينهم بعيني الزعيم الحادتين الذي أخذ طريقه إلى المنصة يحف به كبار مرافقيه بين همهمات الفتيات اللواتي كن يتحدثن عن ربطة عنقه وطريقة ربطها وبذلته السوداء التي اختارها بعناية، وعندما ارتفع صوت الزعيم حل بالقاعة صمت مطبق جعل الزعيم يهش في سعادة وهو يلقي كلماته في عناية.

وانصب حديث الزعيم على الدور التقليدي الذي يجب أن يقوم به لبنان والأعباء التي يتحملها باستضافته الفلسطينيين على أرضه،

وضرورة انضباط هؤلاء الفلسطينيين وميثاق القاهرة وأشياء كثيرة ضمَّنها حديثه، ثم بدأ ينحنح ليعلو صوته وهو يطالب الدول العربية المجاورة بأن تشارك هي الأخرى في أعباء الحرب التي يتحملها لبنان من جرّاء استضافة الفدائيين على أرضه. وتطرق حديثه إلى إسرائيل وكيف أنها تحاول خلق المشاكل للبنان، وضرورة أن يعي المسلمون حقيقة ما يراد لهذه الأمة الصغيرة العدد، وانتهى الحديث عندما ارتفع صوت الفتاة سائلاً:

- ولكن ما هو الحل يا سيدي؟

- الحل، هو عودة هؤلاء الفلسطينين إلى وطنهم.

- ولكن إسرائيل تأبى هذه العودة.

- ولماذا لا يرفضها العرب ما دامت إسرائيل ترفض ذلك؟

وصمت ليعود صوت رفيق الفتاة مرة ثانية:

- وماذا نفعل؟ هل نحارب الفلسطينيين ونحن نعلم أن الأكثرية من المسلمين في بلادنا والعالم العربي مع تواجدهم، ونجعلها حرباً أهلية لا تبقي ولا تذر، أم نبحث عن طريقة نستطيع من خلالها أن نصل إلى حل، أي حل؟

- الحل، هو أن تظل سيادة لبنان.

- ولكن من الذي لا يرغب في هذه السيادة؟ نحن المسيحيون وإخواننا المسلمون والفلسطينيون أيضاً يؤيدوننا في حقنا لهذه السيادة. قد تكون هناك قلة من الفلسطينيين وليشهد التاريخ أنهم غير منضبطين، ولكن حتى هؤلاء يلاقون من قادتهم المحاكمة والسجن، هكذا يقولون، وصدقوني بودي أن أصدق دائماً ما يقولون لأنني شخصياً من أولئك الذين ولدوا على أرض عربية مسلمة، تعرفون حبي لهذه الأرض وجميع الأراضي العربية، لأنها أساسنا ومنطلقنا.

- إذن هناك شيء ما يثير الأشجان في نفوس بعضنا، لنكشف للعالم حقيقة من يريد كسر الطوق في تعايشنا، فهم وحدهم المستفيدون.

قد تعرفهم أنت وأعرفهم أنا، إن لبنان في حاجة إلى مزيد من المحبة إلى عمل دائب، يرفع الضيم عن كاهل بعض القرى لاسيما تلك التي تقع تحت

طائلة نيران العدو، ولنعمل بحيث نكون بعيدين عن اللعبة التي اختارها العدو.

إن عدونا مشترك، الصهيونية والشيوعية العالمية، لكننا بما نفعل ندفع بالمحتاجين لأن يلقوا بأنفسهم في أتون الشيوعية اللاهبة.

لقد سمعت أحدهم يقول: يدفعونني دفعاً لأن أؤمن بشيء لا أريده، وأن أكفر بأشياء كثيرة أريدها وأرغب فيها، لا لشيء إلا لأن لقمة العيش التي نبحث عنها جميعاً لا تصل إلى بيتي وبيوت كثير من زملائي.

وصمت. وهز الزعيم رأسه هو الآخر وأخذ طريقة بين هتاف المعجبين بصلابته. كان يسير في الطريق وكلمات الفتى والفتاة تطل من ذاكرته بشكل غريب. إنه يفكر في كل كلمة قالاها، فهما وهو على الطريق ذاته، لكن الأحداث قد تريد شيئاً آخر غير ما يريد هو ويريده هذان الطيبان.

ليت زعماء بعض الأحزاب الإسلامية معنا في هذا الاجتماع ليسمعوا بآذانهم ماذا تقوله الشبيبة الكتائبية. إنهم لو فعلوا لأصبح الطريق بيننا وبينهم مفتوحاً.

لكنها الحياة ترفض كثيراً من الحقائق لتختار هي وبطريقتها طريقها إلى الحقيقة التي تريدها.

وعندما ترجل من السيارة إلى بيته الضخم، رن جرس التلفون ليستمع إلى حديث إخوانه عن حادث غريب لم يكن يعتقد أنه سيكون، فلقد اشتعلت الفتنة في ضاحية عين الرمانة وذهب ضحية الفتنة جميع ركاب الأتوبيس الذين كانوا جميعاً من المسلمين.

ووضع الرجل كفه على رأسه، وأخذ يردد بينه وبين نفسه:

ـ لقد فعلوها وأشعلوا نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين.

لكنه بكل ما أوتي من حزمٍ أخذ يتصل هنا وهناك ليطوق الفتنة التي بدأت تشتعل بأسلوب جديد.

ليغفر الله لنا على ما يرتكب من أخطاء في حق لبنان.

ولنمض جميعاً إلى غايتنا، لكن هل سيدعوننا هذه المرة نفعل؟

وبدأت الوساوس تراود مخيلة الشيخ بعد أن وضحت أمام عينيه صورة

الفتنة التي أشعلت في عين الرمانة، وعرف حقيقة اليد التي استخدمت لهدم الجسر المتبقي من الصلات بين المسيحيين والمقاومة.

لكن المقاومة كانت أقوى وأصلب على ضبط النفس، فأعطت أوامرها لرجالها بالانتظار، وأخذ رجال السياسة في لبنان هذه الحادثة وسيلة جديدة يقفزون منها على رؤوس أصدقائهم، وتعالت صيحات الاستنكار والرد بالمثل على لسان بعضهم.

لنلقنهم درساً لن ينسوه، وسنعمد إلى الثأر.

والتقت في تلك اللحظة عينا سناء بحسناء التي عادت لتوها من بيروت ومن مكان الحادث إلى صيدا لتعاود الحديث مع المرأة التي فقدت وليفها.

وفاجأت حسناء كلمات سناء التي قالت لها:

- ألم أقل لك إنها بوادر الفتنة؟ لقد استمعت إلى صوت المذيع وهو يتحدث عن فتنة عين الرمانة، سمعت جميع كلماته. كان يتحدث عن الفاجعة في أسى، وعرفت كم من المسيحيين في لبنان ساءتهم هذه الفاجعة!

إنهم أكثر مما تتصورين، لكن كل ما أريده أن أسأله: أين هي السلطة؟

لماذا لا تفعل شيئاً؟ قولي لهم أن يجمعوا السلاح فجريمة لبنان الأولى هو أن يحمل أبناؤه السلاح.

وصمتت.

- ستستغربين إذا قلت لك إنني أحسست بالفاجعة ساعة وقوعها ورأيت ما يجري بأم عيني من هنا وأنا بعيدة عن مكان المعركة. أشياء كثيرة يا سيدتي ستحصل، لكنني لا أريد أن أقولها فلربما كان حدسي خائباً، وصدقيني بأنني أدعو الله بأن لا تكون حقيقة. إنها الحرب، الحرب الأهلية الطاحنة، سيكتوي بها كل بيت وكل أسرة.

انظري إلى هؤلاء الشباب. إنهم يتجمعون حول جهاز الراديو. هل تعرفين من هو المسلم ومن هو المسيحي؟ كلهم لبنانيون، لكن النار بدأت تأخذ طريقها إلى بيروت.

كم أحبها هذه المدينة، لم أرها في حياتي سوى مرة واحدة عندما أخذني

زوجي بعد أسبوع من اقترانه بي لزيارة بعض أفراد عائلته، هي مدينة جميلة، شوارعها نظيفة، نساؤها جميلات أنيقات، واجهات محلاتها رصت بعناية، كل شيء فيها رسمته يد فنان، وتأتي اليوم يد الشيطان لتحرق بيروت، لهفي عليها تلك المدينة كم أحبها.

وانخرطت في بكاء مرير حاولت خلاله حسناء أن تطيب من خاطرها، وبعد أن كفت المرأة عن بكائها أخذ الحديث طريقاً آخر:

ـ الشباب في صيدا لا يزال ينتظر فعل الدولة، هل لكِ أن تخبريني ماذا ستفعل الدولة لهذه المدينة؟

وأطرقت حسناء بوجهها إلى الأرض حياءً وخجلاً من كلمات المرأة ولم تجب، وإنما أخذت طريقها إلى السيارة لتقودها بسرعة عجيبة إلى المدينة هذه المرة وفي ذهنها سؤال يلح عليها تريد أن تسأله لكل إنسان، ماذا ستفعل الدولة لصيدا وأبناء صيدا؟

وعند مدخل شارع صبرا حيث يتواجد الفلسطينيون أوقفت حسناء سيارتها عندما التقت عيناها وجه واحد ممن تعرفهم، ومضت مسرعة إلى حيث يقف.

كان من أولئك الذين تلقوا دراستهم العليا في أميركا ونال أكبر شهاداتها، ولكنه اليوم عدو تقليدي لهذه الدولة لا كرهاً بها وإنما لمواقفها غير المنصفة التي تقفها مع إسرائيل.

والتقت العيون فابتسم خالد في إشفاق وسألها أن تسرع إلى سيارتها، فالكثيرون هنا لا يعرفونها. كل الذي يعرفونه أنها امرأة وامرأة جميلة تلبس أغلى الثياب وأرقاها، وهي فرصة لأولئك الذين ينتظرون العودة إلى ديارهم أن يرحبوا بقدوم أمثالها بطريقة ما وضحك، ثم قادها إلى السيارة وأخذ مكانه بجانبها قائلاً:

ـ إن الشارع اليوم على غير عادته يغلي لمجزرة الحقد التي ارتكبت في عين الرمانة. أوتظنين أنهم سيسكتون عن مثل هذا العمل الإجرامي؟ إنهم فتية من خيرة فتياننا أزهقت أرواحهم لمجرد أنهم مسلمون وفلسطينيون.

ـ ولكنك أنت تعرف في هذا الشأن أكثر مما أعرف، ربما كان الأمر غير ذلك.

هكذا قالت حسناء، وأجابها خالد:

ـ ربما، لكن من يستطيع أن يكبح جماح العاصفة عندما تهب؟

وقالت في تؤدة:

ـ أنت وأمثالك تصنعون المعجزات، وليست معجزة عندما تطوقون آثار الحادث.

وأجابها قائلاً:

ـ ليتني بل ليتنا نستطيع أن نفعل شيئاً، ولكننا سنحاول، فالرجال في الطريق وأنا في استقبالهم.

وتركها ومضى في طريقه إلى مقابلتهم.

الفصل السابع

الشعور بالأسى والحزن يفجر قلوب سكان شارع صبرا الذين تجمعوا في حلقات يناقشون فيما بينهم قصة العروس التي ذهب عريسها ليلة زفافها، ويناقشون في تفجع أخبار الضحايا الذين ذهبوا بلا عودة ودونما سبب.

الفقراء الذين طووا بطونهم على الجوع يرفضون الخنوع لسيطرة أولئك الذين اصطادوا زهرات شبابهم ساعة حمق، وسميحة عروس الأمس تتنقل بين البيوت تودعها أحزانها، وتتحدث عن الأحباء الذين ذهبوا، وتودعهم بحرقة.

والنسوة يتحلقن من حولها، ويستمعن في شجن لحديثها الطويل.

كان زينة الرجال، شارك في أكثر من معركة، وكان في جميع المعارك يعود إليها سالماً، واليوم يمضي بلا هدف ولا معركة لمجرد أنه وزملاءه قد اخترقوا شارعاً كأي شارع.

لقد ترك الجامعة وهو في آخر سنوات الدراسة ليلتحق برجال المنظمة، وكان هدفه من هذا الالتحاق أن يصنع شيئاً من أجل الأرض التي استبيحت، وكان يتحدث إليها حديثاً متفائلاً، فسيأتي الذي سيعود فيه إلى داره وبيارته وأهله وقومه، ويومها سينطلق كالصاروخ لإتمام دراسته ويساهم في بناء فلسطين التي يحبها والأرض التي شرد منها.

لقد ذهب عريسها ساعة غدر، ولم يرحم الغادرون شبابه أو شباب زملائه. ليته قتل في معركة إذن لهان عليها الأمر لأنها تعرف

أنه لن يقتل قبل أن يثأر، أما أن يقتل هكذا برصاص إخوانه اللبنانيين فهذا هو الشيء الذي لا يمكن أن تقبله أو حتى تتصوره.

لقد ذهب زينة الرجال، هو الذي كان مع الموت دائماً على موعد، لكنها لا تزال على قيد الحياة وستثأر لعريسها من كل غادر، وستمضي في الطريق ذاتها وستودع فستان عرسها صندوق جدتها العجوز مع باقي الذكريات، وستمضي في المعركة حتى النهاية ما داموا يريدونها معركة.

الرجال يغذون الطريق إلى مكان الاجتماع في انتظار الذي وعد أن يصل في الخامسة بعد ظهر يوم كئيب مكفهر من أيام بيروت البائسة، وهي في الطريق إلى مكان الاجتماع، فطالما أحست بحاجتها لأن تفعل شيئاً، وها هو الوقت قد حان، فلتكن مشيئة الله.

وجوه المجتمعين ترقب أطراف القاعة ومنافذها تتحدث بعيونها، حتى إذا أطل الرئيس هب القوم وقوفاً، وهو بملابسه الكاكية يعتمر قلبقاً باكستانياً يصافح هذا وذاك ويتحدث مع هذا وذاك في حرية وإخاء.

ومضى الرئيس إلى المنصة يحف به رجاله الأشداء تعتمل في نفسه شتى الانفعالات التي تشارك في تهيئتها ظروف الحادث وواقعه.

وأخذ الحديث ينساب في آذان القوم، لم يترك الرئيس لا شاردة ولا واردة إلاّ وقالها في صراحة.

أخبرهم عن الحادث، وأفهمهم حقيقة واقعه ومسبباته، وتحدث في إسهاب عن الظروف التي أحاطت به، وطلب منهم في النهاية ضبط النفس لأن الأمر ليس بالهيِّن أو السهل.

لتتحجر القلوب، وليحاول الرئيس أن يقول ما يقول، أما هي فستقول كلمتها في قوة وصلابة وعناد.

وارتفع صوتها يملأ جنبات القاعة:

ـ سيدي الرئيس، لقد كانت كلماتك أكبر من آثار العاصفة، وقد تكون أنت على حق، لكنني أريد أن أناقشك، هل ترضى أن تطالبنا بضبط النفس لو كان أحد هؤلاء الشباب أخاك؟

وضحك الرئيس في كمه وقال:

ـ ولكنكم جميعاً إخوتي.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً، لكني لم أكن أود أن يذهب عريسي ضحية غدر. ليته قضى نحبه أثناء تسلله إلى الأراضي المحتلة.

وأجاب الرئيس في تؤدة:

ـ هذه إرادة الله ولا راد لمشيئته.

وصمت ثم واصل حديثه:

ـ صدقيني أيتها الأخت. إنهم يريدون أن يجرونا إلى معركة جانبية، ونحن نرفض أن ندفع بشبابنا إلى مثل هذه المعارك. إن معركتنا الأولى هي على الأرض المحتلة ونحن نريد أن ندخر دماء شبابنا لهذا الغرض. إن الأرض الطيبة التي أخرجونا منها في حاجة إلى سواعدنا نزيل عنها الأشواك وندفع عنها الضيم فلا تخافي.

وصمت. فقالت الفتاة:

ـ إذن ما هي الطريقة لأن أكون مكان عريسي في مجموعته؟ إنني أرغب بأن أعطى الرقم والعمل ذاته الذي كان يقوم به.

وقام الرئيس ليصافح الفتاة، وأخذت القاعة تضج بالتصفيق، فها هي فدائية جديدة تنضم إلى مجموعة طارق بن زياد، تواصل المسيرة حتى العودة إلى الديار والأهل والعشيرة.

وانفض جمع القوم على أمل لقاء جديد.

ومضى الرئيس في طريقه لاجتماع آخر يتعرف من خلاله إلى الطريقة التي يمكن للدولة أن تطوق بها الحادث.

أما هي فقد عادت إلى بيتها تلملم ذكرياتها وتجمع حاجيات عريسها التي انتشرت في أركان البيت، ثم تدفع بالجميع إلى أم زوجها التي استقبلتها بالبكاء والنحيب، ومدت يدها لتدفع بالأمانة التي جاءت بها إليها وقالت:

ـ احفظيها، فهي سر هذه الصلابة التي ترينها في قلبي. ستكون بإذن الله وسيلتي للعودة من كل عمل أقوم به من أجل الفداء.

أما أنت فستكونين أمي إلى الأبد بعد أن فقدت أمي وفقدتِ أنت ابنك، وثقي بأن الله عز وجل سيعوضنا خيراً.

وصمتت، فقالت الأم:

ـ ولكنها هداياه إليكِ. إنها من حقك يا بنيتي.

ـ ومن قال إنني سأتنازل عنها يا أماه؟ إنها فعلاً من حقي، لكنني أودعك إياها كما أودعك سر حياتي التي ترينها فهي عزيزة غالية أعطانيها عزيز، وسيبقى عزيزاً عليّ مثلما هو عليكِ.

وعند هذا الحد من الكلام خرجت الفتاة من البيت في طريقهاإلى المجموعة التي انضمت إليها وملء قلبها ثقة بالحاضر لا حد له.

أما بيروت، بيروت الأنثى فقد بدت في تلك الليلة مشوشة الفكر تعلو وجهها هالات الضجر والقلق، فالمدينة تكاد تصطلي بالنار التي أشعلت.

وليلتها لم يشاهد رواد الحانة غانيتهم المفضلة لأنها كانت قد اعتذرت عن إمكانات العمل وهي على هذا الحال من التوتر والقلق والأسى والحزن.

الفصل الثامن

ارتفع الستار في الحانة الصغيرة في شارع فينيسيا فظهرت الراقصة الإسبانية وهي تؤدي رقصتها الغجرية في استماتة عجيبة. كان جسدها ووجهها خليطاً غريباً من شتى الانفعالات التي تبرز فجأة ثم تختفي لتعلن عن أشياء كثيرة تخالط نفسية الفتاة الصغيرة. ولقد استخدمت الراقصة يديها وقدميها في براعة، فكانت تتحدث حديثاً صاخباً إلى الوجوه التي اشرأبت لتلاحق موكب الفتاة وهي تعزف أناشيد الحياة في الريف الإسباني.

كانت الرقصة عبارة عن حكاية طويلة تناقلتها الأفواه عن عشق فتاة لقريتها التي أجليت عنها فجأة لأن النار كانت تلتهب في كل مكان فيها، فلما بعدت عنها اشتاقت لأن تعود بلا طائل لأن القرية ومن فيها لم يعد لهم مكان في الوجود.

هكذا أرادها مصمم الرقصة، حكاية فريدة عاش رواد الحانة أجواءها دون أن يحسوا بها، إلا أن جسد الأنثى اللولبي استطاع أن يؤدي الرقصة في إتقان. أما حكاية عشق الفتاة لقريتها فلم يعرفها سوى واحد قدر له أن يظل على كرسيه أمام البار الطويل الذي صفت أعلاه زجاجات مختلفة بجانب فتاة إسبانية أخرى أدق جسماً وأرق حاشية.

واستأذنها انطوان الحديث فمضت كعادة الإسبانيات في الدردشة واجترار الكلام، عرف منها أن رفيقتها تمت إليها بصلة القرابة من الأم وإنهما جاءتا أكثر من ثلاث مرات إلى بيروت.

وعرف منها أيضاً أن بيروت قد اجتذبتهما في جميع المرات إلاّ

هذه المرة، فعلى الرغم من أنهما تعيشان في مستوى أكبر من المستوى الذي كانتا تعيشانه في روما، وأن صديقهما الذي يجمع بينهما لا يبخل عليهما بما تريدان.

ومع هذا فهما تجزمان بأن بيروت قد فقدت رونقها بعد الحوادث التي دارت على أرضها، ولولا العقد الذي يربطهما بهذا الرجل الأصلع الجشع صاحب الكرش الكبير، وأشارت إليه، لاختارتا أول طائرة إلى مدريد.

لقد اشتاقت لرؤية طفلتها الصغيرة التي أنجبتها في أول رحلة لها إلى بيروت وضحكت، واستمع إليها بكل جوارحه، فقد كانت كل كلمة تقولها تعني عنده أشياء كثيرة.

نعم لقد فقدت بيروت ذلك الرواء الذي يغلف لياليها وأصبحت عجوزاً شمطاء تناثرت من حولها أوراق الشجر وأحال خريف الأيام جسدها الشاب إلى ما يراه ويسمعه ويقرأه كل يوم في صحف بيروت.

لقد امتدت يد الإجرام إلى كل ميدان، ففي جبال عرمون كان هناك أكثر من اغتصاب راحت ضحيته امرأة، وفي حرش بيروت كانت أكثر من جريمة قتل، وفي شارع الحمراء قتل بعض المارة ثم فر الجناة إلى حيث لا يعرف أو يدري بهم أحد.

والناس في بيروت أصبحوا يخافون الليل بعد أن كانوا يعشقونه، قضت على لياليهم أيدي الشر وزرعت الشك في نفوسهم، فأصبح أكثرهم يخشى أن يترك داره بعد هبوط الظلام.

ومع هذا فقد كانت هناك بقية من الناس جازفت بحياتها من أجل السهر. لقد تعودت عيونهم السهر فلم تطق البعد، وهو على الرغم من صلته العاطفية بزميلته في الحزب إلا أنه يرى من الضرورة بمكان أن يعاود ارتياد أماكنه المفضلة التي كان يعرفها قبل أن يعرف الفتاة.

وتوالت الراقصات كفراشات تجري وراء النور على البيت الزجاجي الذي تفنن صاحبه في هندسته واستخدام وسائل التقنية الحديثة في إظهاره بالمظهر المناسب، وكانت كل أنثى تحاول قدر إمكانها أن تلهب أكف الحاضرين استحساناً، حتى جاء دور المغني الشاب الذي ارتفع صوته بأغنية حزينة.

راح كل واحد من الحاضرين يفكر في معانيها، وأخذت كلمات الأغنية تصافح الموجودين في قوة، وكأنها تريد أن تصل إلى أسماع الدنيا بأسرها:

"صدقيني عندما أقول إنني أحبك
أحبك من كل قلبي
لكن حبي هذا الذي ترينه
هو الذي يدفعني لأن أنأى قليلاً عنك
الدمار الذي يريدونه
والخراب الذي يعيشونه
يضفي على وجهك المشرق ومضة حزن
ويتركنا جميعاً نغرق في بحار من الشك
الشك في هذا الذي يجري
لحساب من
من أجلي أم من أجلك أم من أجل الملايين التي تعيش على أرضك؟».

ويغضب صوت المغني ثم يرتفع في انفعالات حادة مثيرة.

«أين أنت يا حبيبتي الضائعة
في بحار الجريمة
الفتنة نائمة وهم يريدون إيقاظها
وعندما تستيقظ ستقضي على مستقبلك
ومستقبل أبنائك الذين يعيشون على ظهرك
ليذهب الدخلاء.
وليعد الصفاء إلى النفوس المحبة.
إلى أبناء بيروت بلا استثناء.

وترتفع الأكف بالتصفيق عندما يصل صوت المغني إلى نهاية الأغنية، ويبدأ أنطوان يلملم نفسه على كرسيه ليمضي إلى بيته، وتطل الذكريات من أعماق نفسه، فيرى صدق كلمات المغني، فيندفع إلى خارج الحانة لا

يلوي على شيء.

لكن الفتاتين الإسبانيتين تشدانه من خلفه وتطلبان في وداعة أن يحملهما معه في سيارته إلى حيث تقطنان فيقبل ويسير الثلاثة إلى السيارة الصغيرة في الطريق إلى بيت الراقصتين اللتين قبعتا بجانبه كقطتين وديعتين تشاركانه الصمت.

وعند مدخل الحارة كان هناك ثلاثة من المسلحين استقبلوا الفتاتين بأسلوب جديد فيه الكثير من القسوة، وكأنهم على موعد مع صيدهم الثمين، أما هو فلم يتحرك من مقعده في السيارة، فقد كانت المعركة خاسرة. وفي صالة العمارة الكبيرة، وعلى مقربة من الشارع الأنيق كان اغتصاب جديد يمارسه بعض الشباب ممن جمحت بهم النفس تحت سيطرة البندقية.

وشاهد أنطوان أول معركة اغتصاب حتى النهاية، وعندها عزف عن البقاء مفضلاً أن يسير إلى غايته وأصوات الفتاتين يلامس أذنيه في استغاثة، وسباب الشباب هي الأخرى تصافح أذنيه وهو غير قادر على عمل أي شيء سوى أن يهرب بجلده في هذه المرة. وفي البيت استعاد أنطوان أحداث الليلة التي مرت به، وفكر كثيراً فيما رآه وبدأ يحادث نفسه:

ـ ترى ما هو الحال لو كانت رفيقته وصديقته هي التي جرى لها ما جرى بدلاً من هاتين الفتاتين؟

وفكر كثيراً، لكن أفكاره لم تستقر على رأي، وبعد فترة عرف السبب.

إنها اليد المجرمة التي تريد أن تخرب هذا الوطن فتدفع بأشراره إلى انتهاك الأعراض والقتل والسرقة.

وهي، أي اليد، قوية عنيدة تمضي في مخططها في قوة واندفاع.

لكنه لن يقبل بالهزيمة، فسيمضي إلى الزعيم يحاوره ويحدثه عن المخطط الذي يعتقد أنه اليوم في منتصف الطريق إلى أغراضه فلربما تمكن الزعيم من تطويق أهداف هذا المخطط.

إنه يحبها هذه المدينة التي ولد فيها ودرس وعاش أجمل سنوات طفولته وشبابه، ولا يرضى أن تمس بأي سوء.

وعندما وصل في اليوم الثاني إلى دارة الزعيم الأنيقة قيل له إنه غادر المكان في طريقه إلى اجتماع جديد.

وسأل عن مكان الاجتماع فلم يعطه أحد جواباً فمضى عائداً إلى بيته وملء قلبه إحساس بالألم الممزوج بالكراهية لجميع صنوف المآسي التي ترتكب اليوم على أرض لبنان وتمارس فيه.

الفصل التاسع

ارتدت بيروت أجمل ملابسها وحليها، وتمنطقت بحزام أحمر جميل انعكس شكله على فستانها الطويل الذي أخفى بعض الشيء معالم جسدها.

ولقد اختارت بيروت ملابسها بعناية، فهي في طريقها اليوم إلى بعبدا تشارك الدولة انعقاد أول جلسة للوزراء، فلقد سمعت بأن رئيس الوزراء الجديد من المكانة والقوة والعناد والصلابة ما يجعله قادراً على أن يدفع عنها الضيم، ويذهب عن قلبها الحسرة.

واستخدمت بيروت في الوصول إلى غايتها طريقاً لا يعرفه سواها، فكانت أمام القصر في دقائق معدودات.

وكان من أول الحاضرين إلى اجتماع القصر السيد غسان تويني الذي هتفت به بيروت من أعماق نفسها مرحبة.

وتطلع إليها غسان، وفرك جبينه بكلتا يديه عله يتذكر معالم هذا الوجه، لكنه لم يستطع، وتوقف برهة ثم واصل سيره إلى فناء القصر بعد أن أدى الحرس التحية المناسبة له.

وضحكت بيروت من كل قلبها، فها هو واحد من كبار أبنائها لم يعد يعرفها أو حتى يتكرم فيقف معها ولو لحظة.

وتلى وصول السيد غسان الرئيس شمعون بوجهه الوقور وشعره الأشيب وخبرة الأيام وحنكة الدهر تطل من عينيه، يمضي في تؤدة واطمئنان ويتنقل في روية من السيارة التي أقلته إلى فناء القصر.

كـان يقرأ ورقــة صغيرة أعطــاه إياها ومرافقه، فلم يلمح

الحسناء التي تصلبت عيناها على عينيه، وعندما لامست أنفه رائحة عطرها الغريب تلفت إليها بنظرة فاحصة فابتسمت له، ولكنه لم يتوقف. وعند درج الباب الرئيسي وقف الرئيس قليلاً وعاود النظر إلى المرأة التي تمد بصرها نحوه، لكنه تجاوز هذه النظرة بعد أن حاول استذكار تفاصيل الوجه والتعرّف عليه بلا فائدة.

وتوافد الوزراء، حتى إذا ما وصل رئيسهم السيد كرامي حدث بعض الاستعداد بين قوات الحرس الذي قابله رئيسهم باحترام زائد.

وقالت بيروت بينها وبين نفسها: لعمري هل سيعرفني دولة الرئيس أم إنه هو الآخر سيتجاهل وجودي؟

وفي تلك اللحظة التفت الرئيس كرامي، وتطلع إلى الوجه الذي تطالعه جميع قسماته وتوقف لبرهة من الزمن حاول خلالها استذكار جميع الوجوه التي مرت به دون جدوى، لأن وجه المرأة كان غريباً عليه رغم معرفته بجميع دقائق حياتها.

كان وجه بيروت في تلك اللحظة مزيجاً فريداً للمرأة الجميلة التي بدت أجزاؤها بشكل متناسق روعي فيه أجمل ما في نساء الدنيا من مقاييس ومعايير وصفات. عينان نجلاوتان برموش طويلة، وشعر أشقر كثيف طويل شاركت في ترتيبه أكبر صالونات التزيين في المدينة الكبيرة.

أما الوجنتان فكانتا أشبه بتفاحة لبنانية حاول صاحبها أن لا تقطف وإنما أن تبقى على غصنها لتشتهى.

وفمها كالفريز الأحمر القاني يشتهيه كل خبير بأنواع الفاكهة المفضلة.

وجسدها مزيج من المرأة الإغريقية القديمة والفتاة اللبنانية الحديثة، فيه من الشفافية الشيء الكثير.

ومع هذا فهي في وقفتها أشبه بالديدبان منها لوقفة الأنثى، وكأنها جاءت تلتمس من أصحاب الحل والعقد في هذه المدينة معروفاً.

وهتفت المرأة مرحبة بالرئيس، فاستدار إليها مصافحاً ثم سألها عن حاجتها، فصمتت، وعاود سؤالها فقالت له كلمتها التي لا ينساها:

قد تكون أنت الأمل في إطفاء الحريق الذي شب، وهذه مسؤوليتك كمواطن لبناني.

واستمع إليها الرئيس بكل جوارحه ثم قال:

ـ قولي حاجتك فالوقت ضيق.

وأجابت بيروت:

ـ لا حاجة لشخصي، وإنما أنا أجد في قدومي إليك حاجات كل الناس في بلد الأرز الصغير. إننا نرقب ما يتمخض عنه اجتماعكم، فلقد كره المواطن في بلادنا هذا الذي يجري. إن الدماء التي أهرقت والتي هي في طريقها تستنهض همم القادة فلا تبخلوا بها عليها. إنني أطلب منك ومن كل مواطن أن يفعل شيئاً من أجل هذه المدينة التي أحس أنها ستحترق.

وضحك الرئيس وقال للمرأة:

ـ لا عليك، سنفعل كل ما بوسعنا، لكننا في حاجة لعقل وحكمة أمثالك، ومع هذا من أنت؟

وأجابت المرأة:

ـ مواطنة من بيروت، أخت لطرابلس التي ولدتك، تؤمن بالرابطة التي تربط الجبل بالوادي والشمال بالجنوب. أنا ومثيلاتي نؤمن بهذه الرابطة وندعو إلى تجسيدها، لكن هناك من الأيدي ما تحاول العبث بها، فاضرب يا دولة الرئيس عليها بيد من حديد.

وطمأن الرئيس المرأة ثم أخذ طريقه إلى الاجتماع، وإحساساته كلها مع هذه المرأة التي جاءت إلى فناء القصر بأجمل ثيابها لتتحدث إليه.

وفي الاجتماع نقل الرئيس كرامي إلى زملائه وإلى رئيس الجمهورية جميع كلمات المرأة.

وعادت بيروت في طريقها إلى مكان إقامتها داخل المدينة الجميلة بيروت، وملء قلبها إيمان بأنها استطاعت في الفترة القصيرة التي أمضتها في فناء قصر بعبدا أن توصل رسالتها إلى المجتمعين.

الفصل العاشر

لم يعد أحد يدري من أين ستبدأ الفتنة، فأصوات الرصاص تخترق أجواء المدينة في كل مكان فيها وتهطل بشكل كثيف على الشياح وعين الرمانة.

والشوارع خلت من المارة، ما عدا أعداد بسيطة من السيارات التابعة للإسعاف والمستشفيات العامة والفرقة (١٦).

القناصة يتمركزون على أسطح البنايات العالية وفي الطريق أقيمت الحواجز، كل حاجز يتبع طائفة أو حزب أو هيئة معينة.

وحسناء في سيارتها الصغيرة تجتاز كل هذه الطرق، تحادث هذا وتتكلم مع ذاك. الجميع يعاملونها باحترام، وهي تحاول في سيرها هذا تهدئة الخواطر التي انفكت من عقالها، وظهر الإنسان على حقيقته بعد أن فقد القدرة على التفكير بالعقل والمنطق.

أصحاب المؤهلات العليا يتمنطقون بأسلحتهم وذخائرهم على صدورهم، وكأن بيروت أصبحت على شفا حرب طاحنة ضروس.

وعند مدخل الحازمية توقفت سيارة حسناء أمام حاجز أبى حارسه أن يعطيها إشارة الضوء الأخضر. فقد كان واحداً من أبناء القرى لا يعرف من هي ومن تمثل ومع من تعمل. ووقفت حسناء فترة من الوقت حتى جاء رجل آخر هب لمصافحتها ثم فتح الحاجز لتنطلق السيارة إلى عاليه ومنها إلى بحمدون.

وفي فندق لامارتين اجتمعت حسناء في صالة الفندق بمجموعة من الشباب هبوا للقائها فور وصولها وهنأوها بسلامة الوصول فقالت ضاحكة:

ـ لا عليكم، فأنا اليوم أشعر بوزني وقيمتي وقدرتي على اجتياز الحواجز كأية مهرة أصيلة. لقد اعترضتني عشرات الحواجز، لكن الجميع كانوا معي يستقبلونني في فرحة ويودعونني في فرحة.

وضحكت، لكن واحداً من الحاضرين لم يشارك حسناء ضحكتها، وإنما قال في هستيرية:

ـ ألم تسمعي الأخبار؟

والتفتت حسناء إليه وقالت:

ـ هل من جديد؟

وأجابها:

ـ نعم. لقد امتد الخراب إلى شمال بيروت وأصبح من الصعب على أي إنسان أن يصل إلى طرابلس.

لقد وقعت الواقعة واندلعت نيران الحرب بين طرابلس وزغرتا، وأصبح من المحظور على سكان طرابلس أن يخرجوا من بيوتهم.

وقالت حسناء:

ـ ولكن ترى ما هي الأسباب؟

وأجاب محمود:

ـ الأسباب نفسها التي جعلت بلادنا مصدراً للفتنة. كل واحد من المقاتلين يرمي اللوم على الجهة الأخرى، والعدو يتفرج علينا.

ولكن أين هم صفوة القوم في طرابلس؟ أين هم من مشاكل طرابلس؟ أوليس رئيس الوزراء من هذه المدينة؟

هكذا سألت حسناء.

أجاب محمود:

ـ قد يكون ما تقولين صحيحاً إذا كان هؤلاء الصفوة من الرجال الذين يقودون الشارع.

لقد انعكست الآية وأصبح الشارع هو الذي يقود الصفوة، وهذه الحقيقة

قد تقودنا إلى حقائق أخرى.

لو عدنا إلى أصل المشكلة لرأينا أن هؤلاء الصفوة الذين تقولين عنهم هم الذين تسببوا في أن يفلت من بين أيديهم كل من في الشارع بأسره. لقد حاولوا أن يقربوا في فترة من الزمن القبضايات ورجال العصابات وأن يحموهم حتى لم تعد للسلطة أية هيبة، وعندما انفلت الوضع من بين أيديهم تحسروا على جميع ما فعلوه.

إننا اليوم يا حسناء يحكمنا الشارع ورجال الشارع وما أسهل التأثير على أبناء الشارع.

إن أكثرهم يتطلع إلى الحياة التي يمارسها بعضنا وينعى علينا ما نقوم به في حفلاتنا حتى إذا ما قدّر لأحدهم أن يمسك من المال ما يعينه فعل أكثر مما فعلنا، وانغمس في انتهاب اللذة ورشف كؤوسها حتى الثمالة.

قد يكون فيهم المؤمن، ولكن هؤلاء على ندرتهم قلة طواهم الشارع ضمن راحتيه فلم يعودوا قادرين على كبح جماح غرائز الشارع النهمة.

إنهم يتطلعون إلى بيوتنا وما تحوي هذه البيوت من تحف، ومتاجرنا وما تحويه من سلع لينهبوها ويستمتعوا بها ويتلذذوا بسرقتها وبيعها بأبخس الأثمان لمجرد إحساسهم بأنهم سيغيظوننا عندما يفعلون، وينسون أن هذه الثروة ليست ملكاً لنا بمقدار ما هي ملك للبنان.

وصمت.

وأجابت حسناء:

ـ لكننا نحن السبب في كل هذا. لو أعطيناهم حقوقهم للقحناهم ضد أعمال العنف، لكن أنانيتنا شاءت أن نخفي رؤوسنا عن المشكلة، فلا نبحث عن الحلول الجذرية لها، حتى إذا ما استفحل الأمر بدأنا نثرثر كعادتنا في الموضوع وما يحتاج إليه من حلول.

لو قدّر لنا أن نشارك في بناء مجتمع الفقير على أساس منطقي يستطيع من خلاله أن يوفر لنفسه وأولاده قدراً معقولاً من الحياة الكريمة لما كان هذا الحقد، ولما انفجرت هذه المشكلة، ومع هذا فما هو الحل؟

قد يكون الحل الآن تطويق المشكلة، ومن ثم التفكير في إقامة المجتمع المثالي على أرض لبنان.

لماذا يخاف المسيحي من المسلم؟ ولماذا يخاف المسلم من المسيحي هو الآخر؟ إننا لم نقم حتى الآن الدولة التي يجب أن تقام.

إن عوامل الاستقرار تنبع من النفوس المطمئنة، وإذا أردنا للبنان مستقراً مطمئناً أعطينا أبناءه بل وكافة الطبقات والهيئات ومختلف الشيع والملل الأمن والرفاهية، وحققنا له المجتمع المثالي الصحيح.

الفصل الحادي عشر

زحلة بمقاهيها الأنيقة عروس الوادي الجميل غارقة في نعاسها بعد يوم مضن طويل أمضته في استقبال زبائنها بكل ما جبلت عليه وجبل عليه أهلها من رقة.

والفجر يوشوش الصباح في نعومة وكأنه يودعه أسرار الليل في هذه البقعة الجميلة.

وأشجار الياسمين تشرئب بأعناقها على عريش الدوالي القديم في البيت الأنيق الذي خلى من أصحابه في تلك الليلة على مقربة من مياه النهر الغاضبة التي أخذت تتدفق حاملة معها على ما علق فيها من فتات الموائد الكثيرة التي انتشرت على حافتي النهر في المقاهي القديمة.

وهناك على مشارف المدينة الناعسة كانت أنثى بدوية تهش بعصاها الصغيرة على مجموعة من أغنامها تتسربل بملابس سوداء لكنها نظيفة، وتطل من أعماق أعماقها عينان سوداوان لم تترك مشاكل الحياة فيهما وقتاً لتفكر في معاني الصبا والجمال رغم عمرها الصغير التي أمضته في شقاء دائم.

والأيدي المعروفة تتدلى من الجلباب الأسود وقد أحرقتها الشمس وأحالت بياضها إلى سمرة تسعى وراءها الكثيرات من فتيات بيروت.

والطريق مقفرة حزينة وكأنها تنتظر حدثاً ضخماً يحيل هدوء سمائها إلى ضجيج كبير.

وهو في سيارته مع صديقيه في طريقهم إلى سوريا لاختيار

المكان المناسب لإقامة السباق الذي يعتزمون إقامته.

كانوا ثلاثة، كل واحد منهم ابن مدلل لأب من أسرة كبيرة جاهد كثيراً ليتبوأ مركزه الاجتماعي المرموق.

أما الأبناء فعلى الرغم من أنهم حصَّلوا علومهم في معاهد وكليات أجنبية ونالوا منها أرقى الشهادات، إلا أن وجود المال وتوفره أفسد حياتهم وأضاع منهم معالم الطريق، فلم يعودوا يعرفون معنى للحياة سوى إشباع رغباتهم عن طريق هوايتهم الواحدة: قيادة السيارات في المسافات الطويلة.

كان كل واحد منهم يجيد قيادة السيارة حتى الموت. وكانت السيارة في نظر أسرهم البعبع المخيف الذي يبعد هؤلاء الشباب عن أسرهم.

الشباب غارقون في التحدي. إنهم يخططون لمعركة جديدة يفوزون فيها بقصب السبق، وهم في الحياة في سباق مع الطريق.

وفجأة يبرز حاجز خشبي يترجل عنده الشبان الثلاثة بعد إيقاف سيارتهم، فقد أعاق الحاجز تقدمهم وهم في عجلة من أمرهم في طريقهم إلى سوريا. لكن هذا الحاجز كان بالنسبة إليهم نهاية المطاف، فلقد اندلع صوت الرصاص في جنبات الوادي، وصحا القوم على جثث الثلاثة ملقاة على الأرض وقد ارتصت في أجسادهم عشرات الرصاصات، أما السيارة فلم يعد لها وجود.

وتجمع القوم عند جثث الشباب التي لم يستطيعوا التعرف عليها بادىء ذي بدء، وعندما عرفت هوياتهم زاد الحقد في قلوب الرجال، واحتد النقاش فيما بينهم، وأجمع جلهم على أمر أهونه مر.

قال أحدهم:

ـ لنأخذ بثأر الثلاثة بأول ثلاثة يصلون إلى المكان من هوية أخرى.

وقال ثانٍ:

ـ وما ذنب هؤلاء الثلاثة الذين سنقتلهم ثأراً للذين مضوا؟ ألا يمكن أن يكون أحدهم صديقاً أو زميلاً أو جاراً لواحد منا؟

وقال الثالث:

ـ بل الثأر هو أن ندمر القرية المجاورة لنا ونأخذ برأس كل واحد من

هؤلاء الثلاثة عشرات وعشرات.

وأطلت البدوية وأغنامها على مكان الحادث. كانت تشدو بأغنية صحراوية أنشدتها لها أمها يوم كانت تحبو، وعندما عرفت حقيقة ما يجري توقف اللحن في حنجرتها وبدا عليها الضيق وأخذت تسأل أول من يقابلها عن الحادث.

لكن من سألته كان مشغولاً بالحديث مع آخر، فلم يلتفت إليها، وعندما عرف من هي بادر إلى بندقيته فأطلق منها عدة رصاصات على البدوية وأغنامها الخمسة.

وهكذا ذهبت الفتاة ضحية كلمة. ذهبت لكن وجهها الملقى على الأرض كان يحادث السماء في لغة مفهومة، وعيناها المفتوحتان تنظران إلى قاتلها في تسامح، فهي وإن كانت فقيرة لكنها ابنة هذه الأرض ترعرعت تحت سمائها وشربت من مائها.

وزاد الهرج عندما عرف الحاضرون ما جرى، وتناقل الناس حديث ما يجري، وكل واحد يضيف إلى ما سمع ذيولاً جديدة للقصتين حتى تضخم الأمر وأصبح شيئاً رهيباً، وتحفزت الأسر المختلفة الهويات للشر بأسلوب جديد، وبات الناس كل واحد منهم يجري وفي يديه سلاحه الجديد والقديم معاً.

الجديد الذي اشتراه من تاجر السلاح، والقديم الذي أورثه إياه أبوه.

ولم تمض سوى سويعات حتى هبّ الشيطان يجري هنا وهناك، يحرك كوامن الغيظ في القلوب المترعة بالحقد والإثارة.

واستطاع الشر أن يدخل القلوب فيهدم أسوار المحبة، ويحيل بساتين الحب إلى خراب.

وقهقه الشيطان في أعماقه، ففي سويعات صغيرة استطاع أن يهدم الجدار الأصيل لكل معاني المحبة في النفوس الخيِّرة.

وأطلت على الوادي غيمة سوداء قاتمة أحالت أرضه إلى مياه كانت كمن يريد بزخاتها أن تغسل قلوب الناس من أوصاب الحقد والشر، وأن تدفع عن نفوسهم مرارة هذا الحقد الذي يغلف القلوب في القرى الصغيرة الآمنة.

لكن أنَّى للمطر أن يوقف تيار الجريمة واندفاعها في الأرض المعطاء؟

ونام الناس ليصحوا على النيران تشتعل في المروج، وهبّ القوم كل واحد يريد أن يدفع النار عن أرضه دون جدوى.

كانت النار قد أكلت المحاصيل وبدأت تأكل قلوب أصحابها، وزاد الحقد حقداً واندفعت الجموع في مظاهرة نحو أقرب قرية يخالف سكانها عقيدتهم، فأصلوها بنار رصاصهم حتى الثمالة.

وهب الآخرون يفعلون الشيء ذاته مع القرية الأخرى.

واندلعت نار الحرب التي كان ضرامها جثث الأبرياء ومن قدّر لهم اجتياز طرقات القرى في ذلك الوقت، وتيتم الكثير من الأطفال الذين أخفوا وجوههم في مخداتهم، وأخذت النساء تبكي وتولول في كل بيت.

وتسامع الناس خبر المجزرة، أول ما تسامعوا به من راديو إسرائيل، وكأن هذه الإذاعة على موعد دائم مع الشر. ربما كان مخبروها على درجة واسعة من الانتشار، وربما كان بعض أصحابها هم المحرك الأول للجريمة، لكن الناس في زحلة لا يعنيهم كل هذا وإنما يعنيهم شيء واحد، أن يثأروا لضحاياهم وأرزاقهم ومحاصيلهم.

واستمعت بيروت إلى أخبار الفاجعة باضطراب وأسى، وبدأت تحدث نفسها:

ـ لماذا لا يقاومون الفتنة؟ لماذا لا ينزلون الجيش؟

لكن الفتنة قد استفاقت، فلم تعد تجد للنوم مكاناً.

ويومها بكت بيروت، بكت بعض أبنائها وأبناء زحلة، وتعرفت من خلال الصحف على صور وأسماء بعضهم، أما أكثرهم فقد كانوا في طيات النسيان لم يتعرف عليهم أحد.

أما حسناء فقد كانت هي الأخرى كنمرة هائجة تذرع أرض الغرفة، تحادث مضيفها في إحدى دور الصحف بعصبية وتقول:

ـ إنهم يتنقلون بالمعركة هنا وهناك. ماذا يريدون؟ أيريدون أن يحيلوا أرض لبنان خراباً؟

وارتفعت أصوات الموتورين تطالب بتقسيم الأراضي والممتلكات، هذه

للمسلمين وتلك للمسيحيين وثالثة للدروز ورابعة لغيرهم وهكذا.

وتسامع الناس في العالم العربي بقصة تقسيم لبنان، فضحكوا من أعماقهم للصبيانية التي تعالج بها مثل هذه الأمور، وانعقد اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة، وخرج المؤتمرون بعدة توصيات كان أهمها الحفاظ على وحدة لبنان.

وقرأت بيروت هذه التوصية ثم ضحكت في أسى:

- ليتهم يفعلون شيئاً لهذه الوحدة التي ستهدم.

إن قوة لبنان كامنة في وحدة أراضيه وفي تعايش أبنائه، وفي تآلفه مع جيرانه. لطالما قدّم هذا البلد المأوى ولا يزال يقدم للعديد من الرجال ممن لفظتهم ديارهم لسبب سياسي أو بدون سبب. وبعض هؤلاء الرجال اليوم في مركز الصدارة. ليتهم يفعلون شيئاً للبنان، ليتهم.

ودام صمت بيروت برهة من الزمن كانت كافية لأن تحاط فيها بأن الأزمة لا تريد أن تنفرج، وإن انفرجت عن مكان تنتقل إلى مكان آخر.

وبكت بيروت هذه المرة، بكت كما لم تبك من قبل، وأخذت تجهش في البكاء.

لهفي عليك يا بيروت.

لهفي على الشباب الذي ذهب ولن يعود.

لهفي على العقول التي غابت عنها حقيقة هذه المعارك.

إنهم لو يعرفون ما يراد بهم لفعلوا شيئاً مغايراً لما يفعلون.

لكنهم لا يعرفون ولا يريدون أن يعرفوا.

وفي صبيحة اليوم التالي استطاعت بعض وحدات الجيش اللبناني فك الارتباط بين الفريقين المتحاربين، وعاد الناس إلى بيوتهم ومزارعهم، كل واحد منهم يحصي خسائره التي دفعها من أرضه ورزقه ودم أبنائه بلا سبب، فكانت خسارة كل واحد منهم فادحة، فلقد أضاع النزق البقية الباقية من العقول المستنيرة بعد أن تكالبت عليه قوى الشر، وأصبحت الرصاصة سيدة الموقف يلعلع صوتها في السماء، وكأنها تسخر من أيام الهناء التي عاشتها هذه الأرض

طوال سنواتها الماضيات.

وأصبحت كل أم ثكلى بمن فقدت، تودع خزائن قلبها في حزن دائم عميق على الشباب الذي أريقت دماؤه على أرضه ساعة غيظ، وكانت الحرب سجالاً كأي شيء في لبنان، لا غالب ولا مغلوب.

وعادت الأيدي تتلقف المحنة في صمت لا يوازيه صمت أبي الهول الرابض بجانب الأهرام في مدينة المعز لدين الله القاهرة. وأخذت النفوس تلملم جراحاتها هي الأخرى، ومع الجراح آلام وآلام تحاول أن تبتلعها الأيام بكثير من الغصة وانشغال البال.

أما الأمهات، فكن كبيروت يذرفن دموعهن على ما منيت به مدينتهن من خسارة في الأرواح والأرزاق معاً. وسدت منافذ القرى بوفود المعزين الذين جاءوا من هنا وهناك وقلوبهم وأعينهم على الطريق الذي أصبح مصدر الشر في لبنان بعد أن كان مصدر الخير والخير كله.

وأخذ الشيطان طريقه في الدروب المهملة يذرع الفيافي بحثاً عن مكان خصيب يمكن له أن يستفيد منه.

وارتدت جحافل الشر بعد أن أحالت قراها وبيوتها الآمنة خراباً وعاثت فيها وفي حواريها إيلاماً وتجريحاً.

واستأنس الخير في بعض النفوس التي اصطفت في الطريق تطفىء نار الفتنة في صبر ما بعده صبر.

الفصل الثاني عشر

أخذ الشيطان طريقه مرة ثانية في الدروب الملتوية من عروس البقاع إلى بيروت بعد أن انفك من عقاله واجتاز طريقه بين الشياح وعين الرمانة. وكان في كل مرة يسير فيها في الطريق وتقع عينه على مكان هادىء يختاره بلا تردد، وهكذا سار الشيطان في مظاهرته الدموية في طريق الدكوانة والخندق الغميق والسوديكو ومستديرة المطار والنبعة والطيونة راقصاً مترنحاً نشواناً.

وكان في كل مرة يحل فيها في مكان ينشر الرعب بعد أن يؤلب القلوب بعضها على بعض، وينفخ في أعماق أعماقها بالثأر واختيار الضحايا.

وانحسر صوت العقل والمنطق، وحجب الظلام رؤية الحقيقة. واختلط الحابل بالنابل، وأصبح من حق الشارع أن يفكر كما يحلو له.

كثيرون وكثيرات ثارت في نفوسهم النخوة من كلا الطرفين، فاستمعوا لصوت ضمائرهم، فنزلوا إلى الشارع يوزعون أزرار الورد إلى المارة.

لكن الرصاص الطائش كان لهم بالمرصاد، فأخذ يحصد أكثرهم، وهرب الباقون. وكانت بيروت قبل ذلك تعرضت إلى كثير من أعمال الخطف والنسف والحريق وذهب سوق سرسق ضحية يد آثمة أعطيت أجر جريمتها في الظلام.

وعرف الهدف من هذا الحريق، فحاولت الدولة تطويقه، وأصبحت بيروت شعلة نار تضيء للوافد معالم الطريق، لكن الطريق

كان خالياً من المارة سوى مجموعة من الشياطين التي أخذت تسير في ركاب الفتنة.

ثم انتقلت الفتنة إلى الجبل، فانتشر الرعب في عاليه وبحمدون، وسمعت أصوات النسف في البقاع الهادئة الجميلة.

وزكمت الأنوف روائح الآلاف من القتلى الذين كانوا منتشرين في كل مكان.

وأصيبت أكثر المقاهي، وتأثرت الفنادق الكبرى بالحرب الدامية، وتناوبت على احتلالها الفرق المختلفة، وقبع الناس في البيوت وقد اختاروا طرقاتها ليبعدوا أنفسهم عن مرمى الرصاص الذي يتناثر في الجو.

وانقطع الاتصال بين الأفراد والمجموعات، وأصبحت بيروت مجرد غابة تجري على أرضها مجموعة مختلفة من الوحوش، فلقد استشرت الفتنة وتجسدت معالمها في هذه المدينة وتأثرت حوانيتها وأقبيتها وحاناتها ومطاعمها وفنادقها والشوارع فيها بكل ما يجري.

واستُخدم أشد الأسلحة فتكاً، وظهرت هذه الأسلحة فجأة وكأن الشيطان قد أعدها لهذه المناسبة.

وحوصر تل الزعتر من قبل المسيحيين في الوقت الذي اشتعلت النيران مرة أخرى في منطقة البقاع وبشكل قاس ومرير.

وأحست المقاومة بأن لا حيلة لها في أن تشترك في صد العدوان عن الفلسطينيين في تل الزعتر بعد أن تعرضت مخيماتهم إلى القصف والتقتيل.

وكان اجتماع مهيب حضره الرئيس في شارع صبرا تقرر بعده هذا التدخل.

فالأطفال والنساء والشيوخ في هذه المخيمات عرضة للقتل في كل دقيقة ولحظة.

وهبّ الناس من مختلف الهيئات ومختلف الشيع يحملون السلاح.

واستخدمت في المعارك شتى أنواع الأسلحة والمتفجرات.

وخرجت بيروت من غرفتها إلى سطح البناية التي تقطنها وملء عينيها الجميلتين دموع غزيرة وتطلعت إلى كل مكان في المدينة. كان الخراب يلف

بناياتها وطرقها وشوارعها، وأحست بيروت بخنجر مسموم يصيب قلبها، فترنحت فاقدة الوعي على الأرض الجرداء.

ومضت مدة من الزمن عاد إلى بيروت صوابها، فأخذت تفكر في المصيبة التي حلت بها.

ترى ماذا يريد بها أبناؤها وضيوفها هذه المرة؟

لقد استطاعت يد الشر أن تضع العراقيل بين أبناء الوطن الواحد.

ليتهم يفكرون في مستقبلهم ومستقبل أبنائهم ومستقبل أرضهم.

إن الأيدي القذرة التي استطاعت أن تزرع الشك تحصد اليوم نتائج زرعها في حرية، فلقد استطاعت أن تتسلل إلى أعماق القلوب المؤمنة من أبناء هذا الوطن الواحد فتغمد خنجرها في صدورهم الواحد تلو الآخر، وتقتل في نفوسهم إحساسات الرضى والإيمان بالمصير المشترك.

حتى رجال الدرك والشرطة لا يفعلون شيئاً.

وانشغلت الدولة بالاجتماعات المتتالية، وشاركت سوريا بصفوة من رجالها في تطويق المشكلة، وكان نائب رئيس وزرائها ووزير الخارجية كالمكوك بين دمشق وبيروت، يجتمع مع القادة والزعماء ويستمع إليهم ويحاول بأسلوب الأخ الصديق أن يرشد المتخاصمين إلى الهوة السحيقة التي يجرون أنفسهم وبلادهم إليها.

وشارك العالم العربي جهود سوريا المخلصة في احتواء الأزمة ومباركة خطواتها.

وصدرت التصريحات عن الزعماء في العالم العربي عن رغبتهم في أن تبقى وحدة أراضي لبنان، وأن يكبر تعايش أبنائه.

وكانت المملكة العربية السعودية في قمته، أشاروا إلى هذا الرأي وأعلنوه، وتوافد بعض الزعماء اللبنانيين على الرياض، واستمع أكثرهم إلى رأي المواطن في هذه البلاد وتعرف عليه.

كان رأي الجميع مجمعاً على أن لبنان، هذه الواحة الجميلة يجب أن تظل واحة للعالم العربي، تستمد جميع مقومات حياتها من وحدة الأرض وتعايش

المواطن. وصدرت الصحف بالكثير من الآراء في هذا الموضوع.

لكن الشارع في لبنان كان في وادٍ آخر، أخرجته يد الشر عن دوره التقليدي فساهم في الخراب الذي حل والمصيبة التي بسطت على أرضه.

كانت كل شجرة زيتون تبكي في صمت على الدماء التي رويت بها أرضها، وكانت أشجار الصنوبر تلتف حول نفسها لتبتل أقدام الجاثي على أرضها ينتظر من ينقله ليلقي به إلى باطن الأرض. وبيروت لبست ثيابها السوداء حزناً على الجميع، فالجميع أبناؤها شاءوا أم أبوا.

ليخربوا البيوت ويهدموا العمارات وليعبثوا بما يريدون، لكن كل ما تريده بيروت أن يبقى الخيط الرفيع الذي سيجمع بين قلوب أبنائها.

إن هذا الخيط الرفيع من المحبة هو الذي تستطيع بيروت أن تتسلل عبره إلى قلوب أبنائها، فتعيد إلى نفوسهم صوابها، وتشيع بين شيعهم المحبة كما كانت.

الفصل الثالث عشر

استقبل العالم العربي حصار تل الزعتر بكثير من الدهشة المقرونة بالاستغراب، لاسيما عندما منع المحاصرون سيارات الأطعمة من ارتياد التل، وقوبل هذا العمل بشيء من الاستنكار لأن الشعب العربي يعرف طبيعة أخيه اللبناني ويدرك قدرته على التحمل وضبط النفس.

وتناقلت الإذاعات العربية هذا الخبر بكثير من التحفظ، لكن إذاعة إسرائيل بدأت تنشر الخبر بشيء غير قليل من التهويل والإثارة وكأنها تريد بطريقة نشرها النفخ في النار المشتعلة.

وهرع مندوبو سوريا إلى لبنان لتطويق الأزمة، لكن الفتنة كانت قد استفحلت وزاد أوارها وأحس كل مواطن في لبنان بأن الأمور لم تعد في يد الدولة، فعلى الرغم من جميع المحاولات إلاّ أن الحصار كان مستمراً.

ومع هذا فقد استطاعت العناصر الفدائية التي دخلت المعركة لفك الحصار أن تساعد على إنهائه، ومع هذا اتجهت الفتنة إلى الكرنتينا حيث يسكن المعذبون في الأرض من أبناء الطائفة الإسلامية بالإضافة إلى آخرين يماثلونهم الحياة والعيش والأحلام.

فتحت حياة جفونها بعد نوم هانيء لترى أن زوجها الذي بنيت به بالأمس قد غادر فراشه دون أن يودعها كعادته.

وأنصتت إلى أصوات الرصاص، فظنت أن هناك عرساً يجري الاستعداد له دون أن تدعى إليه.

لكن أصوات الرصاص هذه المرة كانت عالية لدرجة فظيعة

جعلتها تؤمن بأن الموضوع غير ما ظنت.

وأطلت من نافذة الكوخ إلى الأكواخ الأخرى، فرأت الرجال يركضون هنا وهناك، وكل واحد منهم يحمل ما استطاع أن يحمل للدفاع عن نفسه.

وحدثت الفاجعة وانتصب الميزان، ورجحت كفة الشر، وأخذ الناس يتهاوون هنا وهناك. كان الرصاص يلاحق الجميع بشكل مستمر، ودويه يصم الآذان والنساء والأطفال يحاولون الهرب دون أن يجدوا المنفذ.

أما هي فقد تسمرت في مكانها وأخذت تبكي.

لقد ذهبت فرحة العمر دون عودة. سرقوها من عينيها رغم الأعين في هذه لم تعرف الكحل في حياتها.

لقد رضينا بالهم، لكن هذا الهم لم يرض بنا، لماذا؟

لتكن مشيئة الله فلا راد لمشيئته، وليحفظ الله الرجال فهم قرة العين رغم هذا الفقر المدقع.

ودارت المعركة بلا تكافؤ. كان السلاح قليلاً في أيدي أبناء الكرنتينا هذه البقعة التي اختارها أبناء لبنان للمتعبين والمعذبين على هذه الأرض.

وسقط مئات القتلى على الأرض الجرداء مضرجين بدمائهم، وأدرك سكان المنطقة أن المصيبة قد حلت على رؤوسهم هذه المرة.

وفي تلك اللحظة عاد زوج حياة إلى كوخه ليرتمي في أحضان زوجته ويطلب منها في سرعة أن تجمع ما يمكن جمعه في يدها ثم يغادران الكوخ في طريق لا يعرفه سواه.

كانا يحثان الخطى في الطريق المتعرج وملء قلبيهما شعور بالمذلة والحرج، المذلة للهروب من المعركة، والحرج أمام الأصدقاء والصديقات الذين سيعرفون حكاية هربهما بعد انتهاء المعركة.

ولكن الخوف من الموت أعطى زوج حياة قدرة على الإقناع فبدأ يحادثها عن فضيلة الهرب في مثل هذه الأحوال.

وأخذ الزوجان ينتقلان في الدروب الضيِّقة وكلهما أمل في أن يصلا إلى بر الأمان.

وفجأة تسمرت عينا حياة على فتاة تتسربل بملابسها الكاكية وبندقيتها في يدها تصوبها إلى صدرها.

وأمرت الفتاة زوج حياة بأن يتمدد على الأرض، وأدارت زناد البندقية وبدأت تطلق النار، لكن حياة كانت أسرع منها فألقت بجسمها على جسد زوجها، وهكذا أصابت الرصاصة الجسدين اللذين بدءا يختلجان في سكرة الموت، وارتفع صوت حياة يؤنب الفتاة على ما فعلت، فما كان منها إلا أن أعادت الكرة فواصلت قذف الجسدين بعدة رصاصات كانت كافية لأن تنبه رفيقها إلى وجودها.

وأخذ الفتى والفتاة طريقهما إلى بقية الزملاء الذين اختاروا عدداً كبيراً من الرجال أمروهم بالوقوف بجانب جدار من اللبن رافعي الأيدي، والتقط المصورون منظر هذا التجمع وأرسلت الوكالات بالصورة عن طريق الراديو لتنشرها الصحف في كل مكان من العالم.

وضحك الشيطان في كمه، فها هو مخططه لا يزال يسير بالطريقة التي رسمها، ولا تزال الفتنة تتنقل من مكان إلى آخر، وكأنها في تنقلها العجيب ترسم خريطة للرعب في هذه المدينة الجميلة.

أما حسناء فقد كانت أسيرة الأحداث، تنهب خطاها في الطريق إلى المجلة التي اختارتها منبراً تتحدث من خلالها إلى مواطنيها، وكان كل همها أن تصل قبل موعد نشرة الأخبار لتستمع إلى آخر ما سيذاع عن معركة الكرنتينا.

أما بيروت فقد أعماها الغضب، فبدأت تحس بدبيب الكبر ينمل بجسدها الجميل، وانتفخت أوداجها لكثرة ما ذرفت عيناها من دموع، وعصر الألم فؤادها فلم تشعر بالوافدة التي جاءت على عجل إلى غرفتها. كانت سناء هذه المرة بملابسها السوداء تحيط وجهها بوشاح هفهاف، وتلقي على ظهرها معطفاً من معاطف زوجها أكل الدهر عليه وشرب وبهت لونه.

ومدت سناء يدها تصافح بيروت وقالت:

ـ لقد جئت إليك لتوي بعد أن انتشرت الفوضى وعم الرعب ودار القتل بين مواطني البلد الواحد بشكل لم يعرف التاريخ له مثيلاً في أي مكان.

جئت إليك من صيدا بعد أن رأيت أن مصيبتك تعلو على مصيبتي، فأنا وإن فقدت زوجي ولكني أراك تفقدين الكثير من أولادك.

كم أنت حزينة يا صديقتي بيروت، وكم أنت متألمة، ولكن هل يرد الألم والحزن صديقاً أو ابناً أو زوجاً أو ولداً فقدناه؟

كفكفي أختاه دموع الحزن وتعالي نفكر في المصيبة التي حلت بهذه الديار.

لقد اتسعت رقعة الجريمة واستشرى الشر وعظمت المصيبة وعزّ عليّ كما يعز عليك أن تبقي مكتوفة اليدين.

وتساءلت بيروت في براءة.

ـ ولكن ماذا أفعل؟

وأجابت سناء:

ـ تفعلين ما سبق أن فعلت. ترفعين الضيم عن أرضك، تثيرين النخوة في قلوب الصفوة من أبنائك، تكفكفين دموع ضيوفك، تبحثين عن أول طريق يأخذك إلى بعبدا.

فالوافدون من الشام يقصدون القصر وهم إخوة لنا في الدم واللغة والحوار.

إنهم أكثر خبرة مني ومنك لما يجري على هذه الأرض.

واستمعت بيروت إلى كلمات الوافدة إليها من صيدا، ومضت إلى داخل الغرفة لتلقي بأحزانها مع المياه الساخنة التي تغسل بها وجهها، ثم أخذت تنضو عن جسدها ملابس البيت وتمضي إلى اختيار ملابس سوداء جديدة تخفي وتظهر في آن مظاهر الفتنة في الجسد الأبيض الجميل.

الفصل الرابع عشر

أخذت بيروت طريقاً مغايراً للطريق الذي سلكته في رحلتها الأولى إلى قصر بعبدا، فقد احتلت طريقها الأوّل حواجز الشرطة ورجال الأمن والهيئات والطوائف المختلفة وهي لا تريد أن تقف أمام كل تلك الحواجز ليسألوها عن هويتها، فهويتها لبنانية، وهم اليوم يبحثون عن شيء آخر غير جنسيات المارة.

إنهم يصنفون أبناءها. كل حاجز يختار ضحاياه من أبناء الفئة الأخرى التي يعتقد ويظن أنها تناوئه وتناوىء مبادئه، وهي في عجلة من أمرها.

واختارت بيروت في هذه المرة طريقها بعد أن أشبعت ناظريها برؤية الدمار الذي حل بمدينتها الجميلة وكأنها تحاول بهذه الرؤيا استذكار ما جرى ليكون بالنسبة إليها بمثابة قوة وقدرة على الحديث والإقناع.

وبكت في أعماقها عند رؤية الخراب الذي حل بهذه المدينة، وهتفت من أعماقها بكلمة واحدة:

- إنهم أبنائي الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، سامحهم الله!

ومضت في طريقها إلى القصر وعيناها على الطريق الآخر وعلى الحواجز التي أقيمت هنا وهناك.

وعند باب القصر هرول الحراس إلى المرأة يسألونها عن اسمها وحاجتها في هذه المرة، ثم يدسون أيديهم في جسدها خوفاً من أن تكون هي الأخرى من حملة أسلحة الدمار التي يحملها اليوم أكثر أبنائها.

وضحكت من أعماقها عندما انتهى التفتيش وهي واقفة، ووقف أحدهم أمامها ثم قال:

ـ ماذا تريدين أيتها المرأة؟

وأجابت بيروت: لا شيء، سوى أن يعود الوئام إلى هذه المدينة.

وضحك الضابط وقال:

ـ ولكنك لست وحدك من تتمنى هذه الأمنية، وإنما كل واحد من أبناء لبنان يأمل ذلك حتى أولئك الذين يتقاتلون على أرضه، ومع هذا فمن أنتِ؟

ـ أنا بيروت.

قالتها المرأة في دلال هذه المرة.

ـ بيروت؟

وأجاب الضابط.

فهزت المرأة رأسها وقالت:

ـ نعم. هكذا أسمتني أمي، ورضي عن اسمي هذا أبي، وباركه جميع أفراد العائلة، وأختي أيها الضابط إن كنت لا تدري دمشق، وأخي اسمه الرياض، وابنة عمي اسمها القاهرة، وابنة خالي اسمها عمان. إننا يا صديقي من أسرة تسمي أبناءها بأسماء المدن التي نحبها، فلا تعجب.

واستغرب الضابط قول المرأة وقال بينه وبين نفسه:

ـ ربما كانت مجنونة!

ولكن المرأة فاجأته بقولها:

ـ لا يا صديقي فأنا لست مجنونة. المجانين هم أولئك الذين يجرون في الشوارع وفي أيديهم أسلحة القتل والفتك والدمار.

لقد اضطربت معايير الإنسان في هذا البلد، فأصبح السلاح بعد أن كان وسيلة دفاع عن شرف الأمة، شيئاً رهيباً يقتل أبناء الوطن الواحد، لماذا؟ لا أدري!

وصمت الضابط وجرى إلى السيارة التي وقفت تحمل الوفد السوري الذي جاء في موعده للقاء سريع مع رئيس الجمهورية، وخرج عبد الحليم خدام نائب رئيس الوزراء السوري ووزير الخارجية وعلى وجهه شبه ابتسامة، فتفاءلت بيروت بالابتسامة الخجلى، وتقدمت إلى حيث يقف الرجل، لكن الحراس منعوها من الوصول إليه، وعندما أحس السيد خدام بذلك طلب في حزم أن يتركوها تأتي إليه، وتقدم نحوها سائلاً:

- من أنت؟ وماذا تريدين أيتها المرأة؟

وأجابت بيروت:

- أنا ابنة أخيك اسمي بيروت، جئت أستنهض همتك وهمة إخوانك في أن تدفع الضيم عن أسرة هذا الوطن الواحد وأن تبذل المستحيل لإعادة الصفاء إلى أجوائه.

- ولكن اسمك غريب أيتها السيدة.

وأجابت بيروت:

- لا عليك، هكذا أسماني أبي، ولو كنت أعرف لجئتك بشقيقتي واسمها دمشق.

وتعجب السيد خدام من هذه الأسرة التي تسمي بناتها بأسماء المدن وواصل حديثه:

- هل من خدمة تريدينها؟

قالت بيروت:

- لنفسي لا. لأنني وأسرتي وإن أصابتنا شرور هذه الحرب، لكننا لا نزال نعيش، لكن هناك كثيراً من الأسر ذهب أبناؤها، قتلوا في هذه الحرب، قتلهم الجشع والأنانية وحب الذات.

كثيرون وكثيرات نهبت بيوتهم، سرقت ممتلكاتهم، شردوا من هذه الأرض، هربوا بجلودهم منها.

وغيرهم جرّوا إلى الحرب جراً بعد أن اختفى صوت العقل والمنطق من

رؤوس المتقاتلين.

صدقني إنني أرثي لحالهم وحالي، وأريدك أن تفعل شيئاً.

إنني أتابع رحلاتك وأقرأ ما يكتبون عنها، وهم عندما يكتبون لا يكتبون الحقائق وإنما القشور، ولهذا جئت بنفسي أصافح بعيني وجهك وأتطلع إليك وأنظر هل أنت قادر فعلاً على حل المشكلة؟

سامحني يا سيدي، فأنا امرأة وقد جبلت النساء على الثرثرة، لكن ما أقوله بعيداً عن كل هذا، إنني أعني كل كلمة أقولها.

وأطرق السيد خدام برأسه إلى الأرض قليلاً ثم عاود حديثه إلى المرأة:

- صدقيني يا زينة النساء بأننا في سوريا وفي كل بلد عربي نسعى إلى الوصول إلى حل، لكنهم، وأشار إلى مدينة بيروت، يجب أن يساعدوننا فيلتزموا بما يلتزم به رؤساؤهم وقادتهم. إنهم إن يفعلوا يحلوا هذه المشكلة.

لكن لا عليك، سأفعل ما بوسعي، ادعي الله لي أن يوفقنا لأن نصل إلى حفظ السلام على هذه الأرض.

والتفت إلى أحد الحراس، وطلب منه أن يحضر سيارة عسكرية لتحمل المرأة إلى بيتها، فضحكت بيروت وقالت:

- لا يا سيدي، فبيتي قريب وأنا أعرف طريقه، لن تقف الحواجز في طريقي، وإنما سأتخطاها كما تخطيتها أكثر من مرة. إنني امرأة صلبة عنيدة في الحق، أملك لساناً ينطق جميع اللغات والكلمات التي يفهمونها، فلا تتعب نفسك وإنما هي وصيتي إليك. ليكن في رحابة صدرك ما يغسل أحزان هذه المدينة، ولتعمل على إعادة الهدوء إلى أزقتها وشوارعها، ولتفعل شيئاً يقيها شر هذه الأيدي المجرمة التي تدفع بخناجرها المسمومة إلى صدور أبنائها، وليحفظك الله.

والتفتت بيروت إلى السيد خدام محيية وأخذت طريقها من فناء القصر في خطوات متزنة في حب وإكبار وإعجاب.

لكن نفس بيروت لم تهدأ بعد. كانت تأمل أن يلفها الهدوء بعد هذه المقابلة.

وأحست بشيء يكاد يعصر قلبها من الداخل، واستمعت لدقات هذا القلب وهي تحك أذنيها في قوة.

وفي الطريق استمعت إلى جهاز الراديو الذي كان يحمله أحد حراس القصر على مقربة من الشارع الرئيسي وهو يذيع موجزاً لنشرات الأخبار فأحست بالضياع يلفها من رأسها حتى أخمص قدميها.

كانت جميع الأخبار تشير إن أن حصاراً جديداً يفرض على أرض لبنان.

فلقد حوصرت قرية الدامور، حاصرها أولئك الذين اكتووا بحصار تل الزعتر.

وانخرطت بيروت في بكاء مرير، وامتلأت مآقيها بدموع حمراء قانية كالدم، وشعرت بكثير من الارتباك والحرج، فهي تدعو إلى المحبة لكن أبناءها اليوم بعيدون بقلوبهم وعلى مختلف نوعياتهم عن روح المحبة.

الفصل الخامس عشر

اضطرب حبل الأمن في لبنان بشكل لم يعد له مثيل، وأصبح من حق أي فرد له ثأر عند إنسان آخر أن يمضي إلى هذا الإنسان فيقتله في الشارع ثم يمضي في هدوء ودون أي خوف من ملاحقة السلطة.

وانشغلت السلطة بتهدئة الخواطر والبحث عن إيجاد ثغرة في الحائط المسدود لإعادة الهدوء إلى البلاد.

وكان الحصار على قرية الدامور قد اشتد، وأصبح كل واحد من سكان القرية يبحث عن الطريقة التي يستطيع بها أن ينجو بنفسه وأهله، واستعمل سكان القرى جميع الوسائل التي تساعدهم على الهروب من نار الحصار الشديد، واستخدم أحدهم السباحة عن طريق البحر ليصل إلى جونية هو وجزء من متاعه.

واتصلت السلطات اللبنانية بسوريا تطالبها البحث عن حل للمشكلة الجديدة، واستفحل أمر الشر في جميع أنحاء لبنان، وأخذ العقلاء ينشرون تصريحاتهم في الصحف مطالبين بضبط النفس واستخدام العقل والمنطق، وأشار أكثرهم إلى ما سبق وتحدثوا عنه في أكثر من مناسبة، وكان أبرز المتحدثين على صفحات الصحف السيد ريمون إده الذي كانت العناصر الإسلامية تنظر إليه بكثير من الود، فلقد اختار هذا الرجل كلماته في انتقاء عجيب رغم صراحته المعهودة.

لقد حاول العميد أكثر من مرة أن يطفىء لهيب الجراح المستعرة بكلمات صريحة خاطب فيها العقول المستنيرة لكن أنَّى للكلمات أن تصل للعقول في مثل هذه الأوقات الحرجة؟

وكان الرئيس كرامي رغم الجراحات التي أصابت مواطنيه يعمل ليل نهار من أجل إنهاء المعركة التي يظهر أنها لم تنته بعد أو حتى يقدر لها أن تنتهي.

ليالي الدامور حالكة السواد، والرجال يحيطون بالقرية من جميع منافذها، وأصوات الرصاص تسد الأسماع، والناس في كل مكان يتناقلون الأحاديث، وكل واحد منهم يحاول أن يعرف الحقيقة.

أما الحقيقة فكانت في نفوس أولئك الذين رأوا في أن الحصار هو ردة رجل لحصار تل الزعتر.

والشيطان يضحك ملء شدقيه ابتهاجاً ومسرة، فقد استطاع أن يصب على النار المتأججة زيتاً جديداً.

والعجائز في البيوت يتلهفن لأخبار أبنائهن الذين غادروها منذ أمد طويل. لقد حلت الأحزان بكل بيت وكل قرية، واندفع العقلاء يضربون كفاً بكف على تردي الأحوال في لبنان.

والذين أخرجوا مسرحية الفتنة يتنقلون في بيروت بوسائل مختلفة لا يعرفها غيرهم، وتاجر السلاح الذي وفد في آخر لحظة هو الآخر يبحث عن زبائنه، فلقد عثر على وسيلة جديدة لتهريب السلاح بعد أن انكشف أمر الباخرة التي بعث بها إلى خليج جونية، وهو في هذه المرة لا يريد مثل تلك الضجة التي أضرت به وبعملائه.

ليذهب السلاح إلى كل مكان في هذه البلاد، فبدون السلاح لا يستطيع صاحبه أن يوفر لنفسه الحياة الهادئة المستقرة.

إن مئات من السكرتيرات والحشم ينتظرونه في كل مكان يحل فيه، ولكنه اليوم في بيروت وحيداً.

لماذا؟

لا يدري. ربما خان أصدقاؤه العهد أو ربما عرف من يتعامل معه حقيقة أمره، وهو خائف يتصبب عرقاً، يسمع دوي القنابل يحس بقصفها في الأجواء. ليتهم يأتون فيزيلون عن نفسه هذه الحيرة.

لكنهم مشغولون حالت الحرب التي أضرمتها يده من أن يصلوا إلى مكانه،

وأخذ يمشي في الغرفة في الشقة الأنيقة التي اختارها في مكان بعيد عن الأحداث لكنها حاصرتها من كل مكان.

وتناول بسرعة التلفون عله يستطيع عبره الحديث مع أصدقائه، لكنه هو الآخر كان غارقاً في سبأته فقد قطعت أوصاله، وامتدت له اليد المجنونة التي رأت أن تقطع الاتصال بين بيروت والعالم الخارجي.

وكبرت المشكلة في عينيه، وأدار مفتاح الراديو فعلم بأن مطار بيروت هو الآخر قد أقفلت أبوابه وهو حبيس هذه الغرفة كالأسد السجين في قفصه.

لماذا جاء إلى هذه المدينة وفي هذا الوقت بالذات؟ أترى أن نهاية العمر أصبحت قريبة؟ أم أن في الشمعة بقايا يستطيع من خلالها أن يحقق سيره في طريق الظلام الذي اختاره؟

وأحس برجفة تسري في عروقه عندما تذكر قرب نهايته، لكن صوت قنبلة سقطت على الدار القريبة بددت شيئاً من هذا الخوف.

وأخذ يفكر في الطريقة التي يخرج بها من القفص.

سينتظر رفيقه حتى سقوط الظلام الذي وعده أن يأتي، فلربما أعاقت الظروف وصوله في الموعد المحدد.

وعند هذا الحد من التفكير ألقى بجسده على سرير الغرفة وهو بكامل ملابسه يتطلع إلى سقف الغرفة التي أخذت تهتز أمام ناظريه، وبدأت صور الضحايا تحل الواحدة تلو الأخرى كشريط سينمائي يجسد جميع الشرور والآثام التي ارتكبها في حياته.

لقد قتل أكثر من واحد بكلتا يديه، ولكنه قتل المئات من الضحايا بل الآلاف بأسلحته التي كان يبيعها هنا وهناك، في فيتنام وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وأريتريا، وفي كل مكان ظهر فيه مكان لشر أو فتنة.

ولكن ما بالها هذه العمارة؟ إنها هي الأخرى ترتجف. لقد صبت النيران فوق رأسها. لم يعد هناك مكان له في هذه الغرفة!

وفتح الباب وأخذ يجري إلى درجات السلم ينهبه نهباً لكنه لم يستطع أن يصل إلى باب البناية، لأن البناية قد تهاوت بأكملها على أم رأسه.

ومضى تاجر السلاح إلى نهايته، مستخدماً في إنهاء حياته السلاح الذي كان يبيعه هنا وهناك.

أما حسناء فقد كانت تواكب الأحداث في غرفة ملاصقة لغرفة رئيس التحرير في الدار الصحفية الكبرى. كانت تقرأ البرقيات الإخبارية التي ترد إلى الدار من الجهاز الوحيد الذي ظل يعمل في دأب وعيناها على الباب تنتظر صديقاً وعد أن يأخذها للاجتماع مع كبار الساسة.

إنهم يحبونها جميعاً هذه الأنثى، وهي تقدر هذا الحب وتحترمه، فعلى الرغم من أنها جميلة، فهي أيضاً مثقفة عايشت السياسة طوال سنوات حياتها، وأحبت بلادها من خلال حب والدها لهذا البلد، لقد أورثها هذا الأب هذا الحب الكبير الذي يخصها به الجميع وهي قانعة بالتفافهم حولها، وهي عندما تحادث كل واحد منهم تحادثه على أنها رجل في إهاب أنثى.

صحيح أنها تختار أجمل ما تخرجه بيوت الأزياء وترتديه، وتستخدم أفضل أنواع العطور وأغلاها، لكنها مع كل هذا عندما تناقش أي واحد من رجال السياسة في بلادها تشعر بأنها قد تقمصت روح شاب يجيد الإدلاء بمكنونات صدره، ويجيد في الوقت نفسه الحوار مع الشباب والكهول معاً.

وعندما أطل الشاب من باب الغرفة هتفت به حسناء قائلة:

ـ هل انتهى حصار الدامور؟

لكن الوافد لم يجب وإنما تناول رأسه بكلتا يديه متهاوياً على أقرب مقعد في الغرفة الأنيقة.

الفصل الأخير

أضحت حسناء طريدة أفكارها بعد أن استمعت لحديث رفيقها الصاخب، فجميع التفاصيل، تفاصيل حصار الدامور تعني أن السعديات هي الأخرى محاصرة، ومعنى هذا أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون طريقهم إلى الهدف الذي يرغبون الوصول إليه.

لكن حكمة السيد عرفات شاءت أن تطمئن النفوس خصوصاً عندما أعلن رئيس المنظمة على رؤوس الأشهاد أنه يضمن أن لا يمس الرئيس شمعون بأي سوء.

وهذا في حد ذاته يعني الكثير بالنسبة لحسناء، فهي بالإضافة إلى كونها مسلمة إلاّ أن صداقات عديدة تربطها بالكثيرين وبالرئيس شمعون أيضاً، وهي تقدر هذا الرجل وتحترمه.

وهي تحترم أيضاً أفكار جميع الناس، وتعتقد أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الهدف الأسمى والغاية النبيلة لا يمكن أن يتم بحد السيف، وإنما عن طريق الحوار، والحوار وحده، لكن الكلمات اليوم لم يعد لها مكان في سماء بيروت بل في سماء لبنان كله.

إنها ترغب في عودة عجلة الحياة الطبيعية وإحياء الدولة اللبنانية وتنظيم الجيش واستعادة أمجاد الفرد اللبناني ومحبته لإخوانه وضيوفه. ولكن هل تتحقق هذه الرغبة بمجرد أن تتمنى هي ذلك؟

إنها تنتظر في هدوء نتيجة المبادرة السورية التي أخذت على عاتقها فك الحصار وإزالة آثاره عن جميع المناطق المسيحية منها والإسلامية وغيرها.

وهي تعتقد أن الالتزام بوقف إطلاق النار في هذه الفترة مطلب وطني يجب ألا يهمله أي فرد من أية طائفة كانت.

لقد تحمل لبنان الصغير بجميع طوائفه من المصاعب ما ينوء به كاهل أي بلد، ومع هذا فلا تزال الحياة تنبض في شرايينه.

عجيب أمر هذا الشعب الذي لا يعرف الوسط في جميع أموره، فهو يندفع في الحرب كما يندفع في ارتياد حانات بيروت الصغيرة منها والكبيرة.

لقد هاجر الكثيرون عن هذه الأرض، ومع هجرتهم هاجرت أيضاً مصانعهم ومتاجرهم إلى مكان آخر في هذه الدنيا، ومع هذه الهجرة هم ينتظرون بزوغ الفجر ليعودوا مرة ثانية إلى الديار التي تركوها والأحباب الذين فارقوهم.

إنها الفطرة التي جبل عليها اللبناني، رضعها من ثدي أمه، هي التي تجعله دائماً يؤمن بأرضه، يحبها من كل قلبه مهما بعدت به المسافات وفرقت بينه وبين أرضه الحياة، وهو في هجرته يحلم بيوم العودة ويعمل من أجلها، ومع كل هذه المظاهر من القسوة الصارمة والفتك الذريع بين الشيع المختلفة ترى بعينيها كيف يلتقي اللبناني بأخيه اللبناني فينسى أنه في ساحة حرب، ويأخذ في الحديث عن أصدقائه وإخوانه من الطرف الآخر.

هذه هي طبيعة اللبناني، يحتفظ في قلبه بشعرة معاوية لا يقطعها، وإنما يشذب جميع أطرافها لتظل وسيلته إلى إعادة الأمور إلى نصابها.

المبادرة السورية تأتي أكلها، وينفض القوم عن حصارهم للسعديات، وتعود الأمور مرة ثانية لترتبط بخيط رفيع مع الساسة والعسكريين وقادة المنظمة. لقد عاد للشارع هدوؤه النسبي، واتفق الجميع على ميثاق وطني يكرسون فيه وحدة لبنان وتعايش أبنائه وترحيبهم بالضيوف الذين يقيمون على أرضه ويستظلون تحت سمائه. وساهمت حركة التصحيح هي الأخرى في ترسيخ معاني الوحدة على أساس لا مصلحة اليوم إلا مصلحة المواطن. ولا غالب اليوم ولا مغلوب على أرض لبنان.

وبعد طول عناء، كانت فيه قمة الرياض السباقة لوضع الأمور في نصابها

على أساس من الواقع وجاء لقاء الرياض بلسماً شافياً لكل الجراح التي تفتحت.

واستطاع جو الصحراء في المدينة الجميلة الرياض أن يعيد الصفاء إلى النفوس وأن يضع جسور المحبة وأن يلتقي الأشقاء على الخير.

وهلل العالم كل العالم لهذه المبادرة التي جاءت في حينها.

وأكدت اجتماعات القاهرة ميثاق الرياض وباركته وخرجت الجموع العربية في كل مكان تهلل فرحاً لهذه النتيجة وفي مقدمتهم بيروت.

وتهب بيروت إلى خزانتها لتنتقي أفضل فساتينها مرحاً وأناقة.

وتمضي إلى مرآتها لتكمل زينتها، فاليوم خمر وغداً أمر، وهي تسعى لأن يطول عمر أبنائها أكثر مما يريدون.

وتأخذ بيروت طريقها هذه المرة في هدوء عجيب. لقد عاد الصفاء إلى الوجه المشرق وأخذت الابتسامة تحتل نصفه، وبدت العينان الجميلتان تناديان الناس كل الناس، تدعوهم للمحبة، للإعمار، للبناء، للعمل من أجل لبنان.

انحسرت يد الشيطان عن الأرض المعطاء، وبدأ عهد من الرخاء جديد تغلفه قلوب ذاقت أهوال الحرب فنبذتها ومارست القطيعة فيما بينها وبين إخوانها فلفظتها. ومع كل هذا فبيروت وهي في أوج سعادتها تذكر بكثير من المرارة جميع ما جرى على أرضها.

تذكر صاحب السلاح الذي جاء به من آخر الدنيا، وتعرف أية نهاية وصل إليها.

وتعرف الذين زرعوا الشوك في قلبها.

وتعرف كل من أحبتهم فكرهوها وجاملتهم فعاملوها بجفاء.

وهي على أتم استعداد لأن تنسى كل هذا وأكثر من هذا لتظل بيروت مدينة الحب والجمال كما كانت في الماضي البعيد والقريب معاً.

ومضت بيروت تحادث نفسها قائلة:

ـ لتجتث رؤوس الفتنة من جذورها، ولتتطهر القلوب من زيف السيطرة، وليعد الإنسان إلى حب أخيه الإنسان في هذه الأرض، وليبنِ الغني حواري

وأزقة الفقراء، وليساهم أغنياء المدينة في رفع مستوى فقرائها، وليحب الفقير أخاه الغني ويعمل، ففي لبنان فرصة لأي إنسان أن يصبح غنياً. إن بيروت هذه المدينة التي تأخذ وتعطي وتريد أن تعطي اليوم أكثر مما تأخذ.

تعطي فلذات أكبادها الحنان الذي فقدوه والأرض التي اختصموا عليها والعمارات التي هدموها والأسواق التي نهبوها. أما من قتلوا على أرضها فليرحمهم الله، فهذه هي سنة الحياة، وليبدأ اللبناني في اجتياز طريق المحبة من جديد.

ليتفنن الشعراء والكتَّاب في نظم أشعارهم وتدبيج مقالاتهم عن الحب كما كانوا، ولتعد الكلمة سيدة الموقف.

وليعلم كل من في الشارع أنه لم يعد في لبنان مجال لحكم الشارع.

ليتهم يتعظون من هذا الدرس القاسي فلا ينسوه.

لقد كلفت لبنان هذه التجربة المريرة الكثير من المال والكثير من الرجال.

ولكن بيروت استطاعت أن تخرج من هذه المحنة بتجارب جديدة عرفت من خلالها من الذي يحبها ومن يكرهها، وهي اليوم قادرة على حب من كرهوها وتكريس كل شبر من أرضها لأولئك الذين أحبوها، وهي لا ترضى عن الحرية بديلاً، لكنها هذه المرة تريدها حرية مسؤولة لا حرية الضرب والطعن والقتال، لا حرية الفوضى واللامسؤولية.

لقد امتحن الله قدرات هذا الشعب وتحقق من إيمان الأكثرية الصامتة التي تعيش على أرضه وتحت سمائه، وهي اليوم تريد من هذه الأكثرية الصامتة أن يعلو صوتها ويرتفع.

ليسمع الشارع صوت العقل والحكمة والمنطق من أصحاب العقل والحكمة والمنطق.

ولينحسر الشؤم الذي لازمها طوال مسيرة الشيطان على أرضها.

وأخذت بيروت طريقها إلى الحانة هذه المرة، وتطلعت إلى وجوه القوم الذين يلتفون بالمسرح الدائري وأضواء الكهرباء ترصع فناءه بألوان من المتعة جديدة، وقالت بينها وبين نفسها:

ـ لقد تغيرت نظرة الرجال إلى الحياة في بلادي فهم اليوم غيرهم بالأمس، خبروا ما جرى على أرضهم فاستهجنوا أن يظل الشر مسيطراً عليها. إنهم بالتحامهم مع إخوانهم وضيوفهم سيبنون هذه المدينة مرة أخرى بناءً جديداً يساير روح العصر بل يسبقه.

وسارت بيروت إلى المسرح تنضو عن جسدها الجميل ملابسها التي اختارتها بعناية، ومضت توزع باقات زهورها على الحاضرين الذين تلقفوها بأيديهم.

كانوا مجموعة من مختلف الطوائف في لبنان، جاءوا إلى حانة بيروت يدفعهم إلى لقائها حب أطل فجأة من قلوبهم قبل عيونهم بعد طول صبر. والتقت أعينهم بأعين بعض، وامتدت الأيدي تصافح الأيدي الممدودة تستقبلها في حنان وتضمها إلى الصدور الحانية.

أما بيروت فقد مضت في رقصتها سعيدة بأبنائها تحافظ على وحدتهم، تصونها، تقبِّل وجه كل واحد منهم، تطيل النظرة إليه، تضعه بين عينيها وفي أحشائها.

واختارت بيروت أن تقدم في تلك الليلة شيئاً جديداً لم يعرفه رواد الحانة من قبل، وأخذت ترقص على المسرح كأنثى هزها الطرب وجاشت في صدرها الرغبة. لقد أطلقت بيروت لعواطفها العنان فأسكرت الحاضرين برقصتها الفريدة التي تميزت بأسلوب عصري جديد شارك في إظهار بهائها الموسيقى الحانية التي كانت تلتف بالراقصة كالتفاف السوار بالمعصم. وأخذت بيروت تنتقل من المسرح إلى الصالة تقبِّل هذا وتحادث ذاك، وملء قلبها حب ظاهر ورغبة أكيدة في أن يظل الوفاق بين أبناء الوطن الواحد على خير ما تصبو وترغب.

وعندما انتهت من رقصتها استدارت بيروت لتصافح بوجهها الحاضرين وأرسلت بقبلتها على أطراف أناملها لهم، ثم قالت بصوت عالٍ مسموع سمعه كل من في الصالة:

ـ اغفر لهم يا إلهي فإنهم أبنائي.

اغفر لهم إن أخطأوا في حقي وحقك.

وأخذت بيروت طريقها خارج الصالة لتواجه حسناء وسناء، وتمضي جميعهن في رحلتهن حول المدينة وكأنهن يشيعن خرابها بنظرة جديدة كلها أمل وثقة بالمستقبل الذي يُرِدْنَ تمنيه لحياتهن الجديدة.

واندفعت بيروت إلى البحر تغمس عينيها الجميلة في أعماقه، وكأنها تريد بهذه الطريقة أن تنضو عن نفسها أحزان الماضي بجميع أخطائه ومسبباته.

ومدت حسناء ذراعيها البضتين الجميلتين لتستقبل فجر اليوم الذي بزغ نوره مشرقاً. أما سناء فقد كانت هناك شبه ابتسامة خجلى تراود شفتيها، فلقد انحسر الشر عن لبنان وأصبح من حقها أن تعيش لترعى وليدها الذي سيكبر مع الأيام. وحثت الفتيات سيرهن على رمال الشاطىء الذي كان يترجم أحاسيسه للسيدات الثلاث بحنان بالغ.

والتفت الشاطىء هذه المرة إلى بيروت، وتحدث إليها بلغة جديدة.

كان حديث الشاطىء في هذه المرة مع بيروت المدينة لا بيروت الحسناء.

لقد طمأنها الشاطىء بكلماته القليلة التي تحدث بها من خلال تكسر موجه على الأرض المعطاء وقال في دعة وثقة وهدوء:

ـ صحيح لقد احترقت بيروت، لكن كل تلك الحروق التي أرادوها لهذه المدينة ستكون بمثابة وسام يوضع على وجه هاتين الحسناوتين.

وأشار إلى حسناء وسناء.

ـ فبسواعدهما وأبنائهما وأبناء لبنان وضيوف لبنان والوطن العربي ستعود بيروت وسائر مدن لبنان إلى سابق مجدها، حسناء يتلهف لرؤيتها الوافدون والأبناء في كل جيل وزمان ومكان.

امرأة.. لا بقايا

(رواية)

ط ١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

أضواء الليل تداعب أقدام «أبو الهول» الجاثمة على الأرض، وصوت المذيع يحكي قصة أجيال عاشت في منطقة «الأهرام» وبثت فوق أرضها مجداً تتناوله بطون الكتب في نهم وشراهة، وهي على كرسيها تفكر فيما يقوله هذا المذيع.

قد تكون الدماء التي تسري في عروقها فرعونية، وقد تكون أيضاً مزيجاً من العربية والتركية والفرعونية.

فهي وإن ولدت لأم تركية كانت تتباهى كثيراً بأمجاد أسرتها وما قدمته هذه الأسرة لمصر، إلا أن هذا التباهي لم يكن يأخذ شكله إلاّ أمام الفلاحين «الباشاوات» الذين استطاعوا شراء ألقابهم بنقودهم التي اختزنوها بعد كد وجهد وعرق. وأبوها لطالما داعب بيديه المكتنزتين المليئتين ببقع النمش وجهها الصغير، وتحدث إليها في نعومة.

كان دائم الحدب عليها، يرعاها في صمت وإيثار ويخصها بأحاديثه وطرائفه وحكاياته ويعمل على شراء رضائها بشتى الطرق، فلم يبخل يوماً ما على تلبية جميع ما ترغب وتحب.

كانت ألعابها دائماً جديدة يختارها لها في عناية، وكانت هي من ذلك النوع الذي يستبدل الألعاب كل خمس دقائق، فلا ترضى بلعبة واحدة.

وتذكرت كيف كان والدها يجلس القرفصاء مشاركاً إياها في جميع ألعابها وقد أحاطت بها شتى الألعاب من عرائس مختلفة وقطارات وسيارات وطائرات تسير بالمحرك الصغير.

كانت دائماً تحاط بالرعاية وبالعديد من صبيان وفتيات الأسرة. كل واحدة منهن تسعى لاكتساب قلبها وبعض من هداياها، وكان الأولاد يتسابقون لإرضائها في شعور من المحبة والتقدير لها ولمركز والديها.

وكانت الأسرة جميعها تنظر إليها نظرة خاصة، فتمنحها من رعايتها الكثير الكثير.

لم يكن أي أحد يجرؤ على رفض طلباتها الكثيرة، إلاّ مربيتها «سيدة» العجوز القبرصية التي أعطت أجمل حياتها للبيت ولوالدها ولأسرتها. فقد جاءت إلى البيت صغيرة يوم كان والدها في سن العاشرة، وعاشت طوال أيام حياتها فيه حتى شهدت مولدها، فشاركت بالابتهاج بمقدمها وساهمت في تربيتها وإسعادها.

كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تحد من طلباتها في قوة واعتداد، فكانت تمتثل لتعليماتها كقطة وديعة، فهي تحس بحب هذه لها وتقديرها.

لشد ما تأثرت كثيراً يوم توفيت هذه، فأحست بعد وفاتها بكثير من الضياع في هذا العالم الرحيب الواسع.

وهي تذكر رغم صغر سنها كيف أن والدها كان بمثابة «شرابة الخرج» أمام طغيان أمها وصلافتها وعنادها.

حتى أحاديث تلك الأم معها كانت تأخذ في بعض الأحيان طابع الحدة، فهي امرأة قوية الشكيمة لا يهمها في الحياة إلا أن تكون فيها الآمرة الناهية، وهي دوماً تجوب أرجاء البيت في صلابة وعناد، تعنِّف الخدم بكلمات قاسية لكن مهذبة.

أين هي الآن من كل هذه الذكريات التي مضت؟ ولكن ما بالها تنصرف عن سماع التاريخ بهذه الصورة؟

وانصرفت بكل أسماعها إلى الصوت الآتي من البعيد يشترك مع الأضواء في حكاية تاريخ أرض ومسار أمة.

هذه هي مصر عبر آلاف السنين تظل جاثمة على الأرض المعطاءة بآثارها الحجرية الكثيرة.

وهي على الأرض ذاتها تحاول أن تبحث عن نوع جديد من الحياة غير التي كانت تعيشها.

لقد ورثت عن أمها عنادها وصلابتها، وورثت عن والدها هدوءه وحبه للحياة، لطالما تحدثت أمها عندما كانت صغيرة عن سهراته التي كان يقضيها خارج البيت مع نسوة كانت أمها تعرف أسماءهن كلهن، وكان يضحك في أعماقه لهذه الاتهامات، وكانت تستغرب هي لهذه الاتهامات التي تنهال بها أمها على وجه أبيها.

أما اليوم فهي تعرف كل شيء. لقد جمعتها الظروف بأكثر من واحدة وتحدثت إلى أكثرهن، وقد أجمعن بأن والدها كان إنساناً طيباً ظلمته الحياة عندما أعطته زوجته التي هي أمها.

وانتهى سامر القوم، وعادت إلى سيارتها تسابق الريح في طريقها إلى القصر القديم في الزمالك، كان كل همها في تلك اللحظة أن تعيش فترة من الوقت مع ذكرياتها.

وانفتح باب القصر ليستقبلها وجه العم «سيد» بابتسامته الباهتة يرحب بمقدمها في كلمات قليلة لكنها صادرة عن قلب يكن لها الكثير من الحب وقال:

ـ لقد افتقدناك يا سيدتي كثيراً، فلقد مر علينا أكثر من ستة أشهر لم نر وجهك فيها، أرجو أن تكوني على خير ما يرام.

وأجابته في اقتضاب:

ـ لا عليك يا عم سيد، فقد كنت خارج مصر في رحلة قصيرة. ولكن أرجو أن تطول إقامتي بينكم، هل كل شيء على ما يرام؟

ـ نعم ولكن.

وصمت، فقالت له:

ـ تحدث يا عم سيد.

فأجاب:

ـ الأشجار تحف القصر، وكلها تحتاج إلى أيد ترعاها، ووكيلك يبخل على المستخدمين بالمال فيهربون، ولولا أنني قضيت سنوات عمري في هذا القصر لمضيت أنا. صدقيني إن ما آخذه اليوم لا يساوي ما آكله وأولادي فقط. لطالما قالت لي أم سيد اذهب إلى سيدتك وحدّثها عن كل شيء، لكنني لم أفعل، وها أنت تعودين فمرحباً بعودتك وعفواً لحديثي.

ـ لا عليك يا عم سيد، قل لأم سيد أن تمر عليّ غداً فلها عندي مفاجأة طيبة.

ـ أمرك يا سيدتي.

ومضت ميرفت إلى القصر تفتح أبوابه لتفاجأ بأن كل الخدم الذين كانوا يعملون فيه قد تركوه، واستأذنها العم سيد في أن يذهب ليرسل أم سيد لتكون في خدمتها.

وجاءت أم سيد مهرولة، وأخذتها إلى غرفتها، ثم مضت إلى المطبخ لتعد لها فنجاناً من القهوة عادت على أثره لتجلس على الأرض في جلسة منكمشة، كانت ميرفت خلالها تجوس بناظريها في أرجاء الغرفة التي لفها الحزن وتراكمت عليها ذرات الغبار.

وعندما أحست أم سيد بنظراتها قامت لتوها تزيل آثار الغبار في عناية ظاهرة.

وبعد أن غيَّرت ميرفت ملابسها نادت أم سيد وطلبت منها أن تحدثها عن الشهور الستة التي أمضتها بعيداً عن القصر.

ولم تزل تستمع إلى كلماتها حتى داعب النعاس جفنيها، فأخذت أم سيد طريقها إلى خارج الغرفة وملء شفتيها ابتسامة، فها هي سيدة القصر تعود إليه بعد رحلة محمومة.

وفي الصباح كان كل شيء قد تغير، فقد أحس سعيد بعودتها المفاجئة، فجاء يفرك كلتا يديه بعد أن عمل كل ما بوسعه لعودة أكبر عدد من الخدم.

وعندما واجه سيدته تحدث إليها حديثاً طويلاً حاول من خلاله أن يعطي صورة لحرصه على أموالها وبالتالي فقد رأى أن لا يحتفظ بالخدم طوال غيبتها.

أما سيدة القصر فلم تجب بأية كلمة وإنما كل الذي فعلته هو أنها اتصلت بمحاميها طالبة منه أن يقوم بمحاسبة سعيد وإنهاء جميع خدماته.

الفصل الثاني

القصر يعج بمجموعة كبيرة من الشباب جاؤوا من غير دعوة، كل واحد منهم أو منهن وقد ارتدى ما يناسبه من الملابس، فكانوا في تلك اللحظة أشبه بكرنفال عجيب يرتدي أصحابه مجموعة غريبة من الملابس.

سيدة القصر بملابسها البسيطة تستقبل الوافدين بابتسامة لاهية، تحاول أن تخفي سراً بينها وبين نفسها. الموسيقى الصاخبة ترتفع هنا وهناك، مجموعة من الفتيات يراقصن الشباب رقصات عنيفة، وأكواب الخمور المختلفة تلف على الحاضرين في صوان أنيقة، والخدم النوبيون بملابسهم البيضاء يجوبون أرجاء القاعة الكبيرة.

كانت أم سيد ترقب المجموعة بكثير من الانفعال، فهي وإن كانت لا ترضى عن تواجد هذا العدد الكبير من الشباب إلا أنه لا يسعها إلاّ أن تبتسم، فقد كان يكفيها فقط أن تعود سيدة القصر إلى قصرها بعد طول سفر.

سعيد يتسلل إلى القاعة ثم يندس بين جموع الحاضرين يجر قدميه جراً ليأتي وقوفه بجانب سيدة القصر التي لا تبدي حراكاً لكل ما تراه.

وينفتح الباب لتطل سيدة أنيقة ترتدي معطفاً من الفرو الثمين، تلقي بابتسامتها على الجميع الذين قابلوها بحماس شديد، حتى إذا ما واجهت سيدة القصر ألقت بكل جسدها عليها في حركة عناق، وأخذت ترحب بمقدم العزيزة الغالية.

وأخذ الحديث بين الفتاتين يأخذ أشكالاً عدة، كانت شادية

تحاول من خلاله أن تعرف دقائق وتفاصيل الرحلة التي قامت بها صديقتها هذه المرة بمفردها.

والتفَّت الفتيات حول شادية يطالبنها بأن تؤدي رقصتها الفرعونية التي طالما تمتعن بمشاهدتها على التلفزيون.

وبعد تمنع قامت شادية بأداء الرقصة بين تصفيق الجميع واستحسانهم.

أما سيدة القصر فكانت تبتسم في مرارة وهي ترى زميلتها وهي تتلوى على أرض القاعة وكأنها تستجدي الشكر على ما فعلت، ومضت تتذكر الأيام التي مضت بعد وفاة والديها كيف مرت بها، لقد أخذت من بهارج هذه الدنيا وزينتها الشيء الكثير، وحقق لها المال الذي ورثته أن تصل إلى ذروة السعادة في بعض الأحايين، أما اليوم فهي تشعر بالكثير من الملل والتفاهة.

وأخذت صور الماضي تطل من بين ذاكرتها بلا تغليف صورة صورة.

تذكرت كم مرة أحبت وفي كل مرة كانت تعود عن حبها لاكتشافها أن من أحبته ليس أهلاً لها.

حتى يوم كانت في الرابعة عشر من عمرها، وأحبت صديقها سميراً الذي كان يقطن بجانب دارها، هو الآخر لم يحظ بإعجابها إلاّ لفترة من الوقت. تذكرت كيف كانا يختلسان القبلات أسفل سلم القصر وبين دهاليزه وطرقاته وفي الحديقة الواسعة وتحت أشجار المانجو.

صحيح أن طعم القبلة الأولى لا يزال حتى الآن تحس به على شفتيها، أما الباقي فهو مجرد صور باهتة وباهتة جداً.

وعلى المائدة الكبيرة التي امتدت عليها مجموعة شهية من أنواع المأكولات المختلفة، تذكرت سيدة القصر أمراً أرادت أن تخاطب به المجتمعين، ولكنها تركت كل ذلك حتى ينتهي الجميع من تناول طعامهم. لقد تحدثت إلى أكثرهم عن السأم الذي يلاحق حياتها، والملل الذي يغلف قلبها والكراهية للحياة التي تعيشها.

وكان كل واحد من زملائها يضحك في سرّه على كلماتها، ويعتبر أن ما تقوله مجرد نزوة عابرة من نزواتها الكثيرات، لكنها كانت قد قررت أمراً فلم تحد عنه.

صحيح لقد تعلمت الكثير ودرست الحياة وخبرت فنونها وأسرارها. ولكن ما قيمتها في هذا المجتمع الذي يكد أغلب أبنائه ما دامت غير قادرة على المشاركة في بنائه؟

ما قيمتها إذا كانت قد ولدت وفي فمها ملعقة من الذهب؟

لقد قررت في نفسها أمراً، واختارت الراقصة شادية لتكون شريكتها في جولتها التي ستقوم بها من الغد في أنحاء مصر القديمة، ستحاول من خلال هذه الجولة أن تتعرف إلى أصحاب الدخل المحدود وكيف يعيشون.

وهي عندما اختارت شادية كانت قد رسمت في ذهنها أموراً عدة، فشادية من ذلك الوسط عاشت طفولتها مع أبنائه، وتحملت أبشع أنواع الحياة، وقاست من ذلها الكثير، وتحملت في سبيل الوصول إلى أهدافها كراقصة مصر الأولى الكثير، وهي على الرغم من بحبوحة العيش التي تمارسها تعتقد في قرارة نفسها أن مكانها الوحيد لها هو عشها الصغير الذي بنته في أحلامها في خارطة الفرنساوي في مصر القديمة مع إمام صديق عمرها الذي مضى ولن يعود على الأقل بالنسبة لها.

لقد حدثتها شادية كثيراً عن طفولتها المعذبة وحياتها الشقية، وكانت تضحك منها عندما تتذكر تلك الحياة، أما اليوم فهي في حاجة إلى شادية لتتعرف أكثر وأكثر على الحياة في بلادها، حياة الملايين التي تبني بسواعدها مصر.

وانتحت بشادية مكاناً قصياً وأخذت تدردش معها، واتفقتا على أن تقوما بجولتهما غداً صباحاً بحثاً عن إمام وأصدقاء إمام والأسرة التي رعِت شادية وهي صغيرة، فلقد مضت سنوات على شادية لم تر فيها أم محمد العجوز التي ربتها بعد وفاة والديها، لكنها مع هذا تقتطع مع مطلع كل شهر مبلغاً زهيداً ترسل به إليها في مكانها في حارة السكر والليمون بجانب شارع سيدي حسن الأنور الشهير.

واستأذن المدعوون فرادى وجماعات على أمل لقاء جديد، لكن سيدة القصر قالت في حزم ولكل واحد منهم:

ـ سنلتقي في مكان ما غير هذا القصر لأنني قررت أن أشارك في العمل مثلي مثل أية فتاة، ومعنى هذا أن وقتي لن يسمح بأن أستقبل ضيوفي كما كنت في السابق.

واعتبر الجميع قولها نكتة جديدة فهزوا رؤوسهم وخرجوا.

لكن صبيحة ابنة الجيران التي تعرفها وعاشت بجوار دارها إلى جانب أسرتها الصغيرة في الشقة الضيقة والتي أصبحت محامية يشار إليها بالبنان، هي الوحيدة التي هنأتها على هذا التفكير وقالت لها:

ـ سيكون الطريق للعمل شاقاً يا عزيزتي، لكنه أفضل ألف مرة من هذا الفراغ الهائل الذي تعيشينه.

قد يكون المال وسيلة للترف، لكنه أيضاً وسيلة ترف مملة ما دام لا يأتي عن طريق العمل، وأنت اليوم رائعة في تفكيرك لأنك بهذه الوسيلة تصنعين حياتك. ولكن على فكرة ما هو نوع العمل الذي ستمارسينه، التجارة أو العمل في شركة كبيرة أم إنشاء مثل هذه الشركة؟

وضحكت سيدة القصر وقالت:

ـ لا عليك! ستتعرفين إلى نوع العمل الذي أمارسه عندما نلتقي في يوم من الأيام ونحن في الطريق.

الفصل الثالث

ارتدت شادية وميرفت ملابس عادية وطلبتا من السائق أن يوصلهما إلى كافيتيريا «شيراتون»، وأن يظل في مكانه لا يبارحه حتى تعودا إليه، وأخذتا طريقهما إلى الكافيتيريا وانتحتا ركناً قصياً تناولتا فيه إفطارهما بشهية بعد أن ألقتا على المكان نظرة فاحصة.

كان هناك على بعد أمتار من مائدتهما المطرب العجوز محمد عبد المطلب يتناول هو الآخر كوباً من عصير البرتقال ويدندن مع نفسه، يلحن لأغنية لم يستو لحنها بعد.

وكان على المائدة الأخرى مجموعة من عجائز الساسة العرب (الذين التجأوا إلى مصر في عهد عبد الناصر).

ونظرت شادية إليهم وابتسمت، فهذا من العراق، وآخر من سوريا، وثالث من إيران. وعندما التقت عيناها بأعينهم بادلوها التحية بإيماءات خجولة. وكان على المائدة في الطرف الآخر مجموعة من الفتيات السمر من بنات الكويت، يتناولن شيئاً من المرطبات، وكان جلهن من اللواتي يتلقين العلم في جامعات القاهرة.

وعلى الطرف الآخر من المكان الممثلة سعاد سالم تتحدث طويلاً إلى أحد كبار المخرجين عن رحلتها إلى دبي، وكيف أنها استطاعت أن تنجز عملاً تلفزيونياً في فترة قصيرة لا يمكن أن يتحقق بها العمل ذاته في تلفزيون القاهرة.

وكان على مائدة أخرى الصحفي الكبير السيد مفيد الذي يقرأ في بإعجاب مجلة المصور ويتحدث إلى صديقه الجالس بجانبه عن القوة

الجديدة والسلاح الجديد الذي يمسك به العرب بعد استخدام البترول، (وكيف أن اليهود اليوم وعلى رأسهم وزير خارجية أمريكا يريد أن يتعايش مع رأس المال العربي وليس الإنسان العربي).

حيَّا الجميع شادية وميرفت من بعيد ما عدا الصحفي المصري الذي انهمك في حديثه غير عابىء بالاثنتين، الأمر الذي أوغر صدر شادية وهي تعرف أن عدداً كبيراً من الصحفيين في مصر يجرون وراءها ليتحدثوا إليها.

قامت الفتيات من أماكنهن وتوجهن إلى شادية وأخذن يسألنها عن فيلمها الجديد الذي تنوي إنتاجه. وعندما انتهين من الحديث معها سألنها عن الصديقة التي ترافقها فلم تجب وإنما أشارت إليها في صمت.

وتوجهت الفتيات بأعينهن يطالعن وجهها في فضول، فقالت في اقتضاب:

ـ ميرفت.

ـ ولكنك غير ميرفت أمين الممثلة.

وأجابت ميرفت:

ـ قد تكون هي الممثلة، أما أنا.

وصمتت، فقلن:

ـ ممثلة جديدة؟

ـ لا، أنا واحدة من بنات مصر، أبطرتها النعمة وأرقها توافر المال، فرأت أن تبحث عن العمل.

قالت الفتيات:

ـ ولكن توافر المال هبة من الله يعطيها أبناء الأرض!

ـ قد يكون صحيحاً ما تقلنه، لكنني شخصياً ضقت ذرعاً بالمال الذي يأتي دون عناء، ولهذا قررت أن أعمل.

واستغربت الفتيات الكويتيات هذا القول. صحيح أنهن يتعلمن الآن وينلن مبالغ ضخمة من ذويهن، لكنهن يعتقدن بأن التعليم هو نوع من الرفاهية يمارسنه لمجرد أن يقال إنهن نلن الشهادة الجامعية، وعندما يعدن إلى بلادهن سيكتفين بالنعمة التي وهبها الله لأسرهن، أما هذه فنسيج آخر غير نسيجهن.

واستبد بهن الفضول فقالت إحداهن:

ـ لا شك أنك قد تعلمت ونلت أرقى الشهادات، لكنك بهذه الشهادة لن تستطيعي أن تصيبي المال الذي معكِ. انظري إلى هؤلاء الفتيات اللواتي يعملن كساقيات في هذا المقهى، إنهن الأخريات درسن وتعلمن ونلن شهادات جامعية وجئن إلى هنا ليخدمننا، وإنهن لو عملن بشهاداتهن في أية مؤسسة أو وزارة فلن ينلن ربع ما يأخذنه هنا من بقشيش الزبائن.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ لا عليكن، سأختار نوع العمل الذي يناسبني.

ودفعت قيمة الحساب وأخذت هي وزميلتها طريقهما إلى الباب الآخر للشيراتون، واستقلتا سيارة التاكسي وأمرتا السائق بأن يمضي بهما إلى مصر القديمة.

أخذت السيارة تنهب بهما الطريق والاثنتان غارقتان في صمتهما، تطالعان الشوارع التي تمران بها، حتى إذا ما وصل بهما التاكسي إلى أزقة مصر القديمة طلبتا منه في حزم أن يتجول بهما في جميع الحواري والشوارع القديمة وفي هدوء ودون ضجة.

وأخذت ميرفت تطالع وجوه الناس في حارة السكر والليمون وخارطة الفرنساوي وشارع سيدي حسن الأنور والمذبح وكل مكان.

كانت الوجوه السمر المعروفة تطالعها في صمت، تمضي في طريقها وكأنها على موعد مع العمل من أجل لقمة العيش، حتى إذا ما عاودتا الكرة إلى خارطة الفرنساوي طلبت شادية من السائق أن يقف قليلاً، وخرجت من التاكسي وطلبت من ميرفت أن تظل هي الأخرى في مكانها على أمل أن تلتقي بأم محمد.

لكن ميرفت هي الأخرى غادرت السيارة ودفعت بمبلغ عشرة جنيهات للسائق كأجر على الحساب ليظل في انتظارهما حتى عودتهما.

وأخذتا طريقهما إلى بيت السيدة أم محمد التي استقبلت شادية بزغرودة

طويلة وأخذت تقبلها وتحادثها.

وتجمع نسوة الشارع الصغير على الفتاتين، وكأن كل واحدة منهن قد جاءت إليها ابنتها البارة، فوجود شادية في هذا الشارع مرة أخرى بالنسبة إليهن معجزة لا يمكن أن تتكرر.

وتحلق الصغار حول شادية يتطلعون إليها في إعجاب ظاهر، وبدت في المقدمة صورة لطفلة جميلة تقاطيع الوجه بيضاء، مشربة خدودها بحمرة طبيعية، ترتدي جلباباً أبيض نظيفاً.

وتذكرت شادية في تلك اللحظة صديق صباها إمام، فأحست بخنجر يصوب إلى أعماق أعماقها، واشتهت بينها وبين نفسها أن لو كانت هي أم هذه الصغيرة.

ونادت شادية الطفلة وسألتها:

ـ ما اسمك؟

ونظرت إلى أم محمد وكأنها تحاول أن تستدرجها في الكلام فقالت:

ـ أوتدرين يا شادية؟ لقد تزوج إمام بعد شهور من مغادرتك الحارة، تزوج سعاد عاملة المصنع الفقيرة، وهو اليوم يدير محلاً لا بأس به لإصلاح العجلات، ويعيش في سعادة مع زوجته وابنته شادية هذه التي ترينها.

وأظلمت الدنيا في عيني شادية، فها هي أيام العمر تطل مرة ثانية في إهاب هذه الطفلة.

لقد ذهب الحبيب واختارت هي نوع الحياة التي تريدها، وواصلت طريقها نحو المجد، ومع هذا فهو على عهده لم ينسها، ولو كان نسيها لما أسمى ابنته باسمها، أوتستحق منه بعد هذا العمر الطويل هذا الحب الصامت.

وقالت الطفلة في عفوية:

ـ كثيراً ما نشاهدك على شاشة التلفزيون في بيت عمي في شبرا، وفي كل مرة نشاهدك فيها كان أبي يتحدث عنك إلى أمي حديثاً طويلاً لا أكاد أفهمه، لكنني على ما أحس، أشعر بأنه لم يكن ذلك الحديث التي تريده أمي، ومع هذا فأنا أحبك.

والتف الصغار حول شادية وميرفت، وبدا على الجميع صمت صاخب عاش في أجواء نفوس سكان الحارة الصغيرة. لكن الصغار فجَّروا هذا الصمت بكلماتهم وهم يطلبون من شادية أن ترقص لهم ولهم وحدهم.

ولبَّت شادية طلب الصغار وأخذت ترقص بعض الوصلات كأحسن ما ترقص، وكأنها أمام امتحان عسير، حتى إذ ما انتهت أطل إمام من أول الحارة طالباً في حزم إلى شادية الطفلة العودة إلى البيت، ولكنها، أي الطفلة، أبت إلا أن تناديه بقولها:

ـ تعال يا أبي وانظر. إنها شادية الكبيرة التي تعرفها.

الفصل الرابع

التقت عينا شادية بقسمات وجه إمام التي تغضنت بفعل العمل الشاق والسنوات التي مضت، ورأت بعينيها ذوائب شعره الأسود وقد انتشرت فيه شعيرات بيضاء تتوج رأسه بأكاليل الغار، وأطلت في تلك اللحظة ذكريات صباها وفقرها وأيام الحارة التي مضت، فمدت يدها إلى إمام مصافحة.

لكن هذا الواقف أمامها أبى أن يمد يده إليها، وإنما مضى إلى ابنته وأمسك بها وانسل من الجمع الواقف أمام دار السيدة أم محمد، وفي سرعة البرق اختفى عن الأنظار.

وظهرت الدهشة على وجوه الحاضرات اللواتي بدأن يسلقن إماماً بألسنتهن وكلماتهن اللاذعة، وانهمرت دموع غزيرة على صفحات وجه شادية ثم أمسكت بيد ميرفت طالبة منها العودة إلى حيث يقف التاكسي بعد أن ودّعت الجميع وفي مقدمتهم أم محمد التي استبشرت بهذه الزيارة خيراً.

وأخذت النسوة في الحارة الصغيرة يثرثرن كعادتهن ويتحدثن عن هذه الزيارة التي قامت بها شادية لمسقط رأسها.

أما الفتيات فقد ألهب خيالهن مظهر الحياة التي تعيشها شادية، وودت كل واحدة منهن أن لو يهيىء لها القدر ما هيأه لشادية من فرص.

أما ميرفت فقد كانت تفكر في صمت، حتى إذا ما أخذ التاكسي طريقه مرة أخرى إلى «الشيراتون» تنفست ميرفت الصعداء وبدأت تعتذر في رقة لما سببته لزميلتها من ضيق وحرج بهذه الزيارة.

لكن شادية استطاعت بعد لحظة ضعف أن تتماسك وتعود بنفسيتها إلى سابق صفائها، فهي صاحبة تجارب كثيرة في هذه الحياة أورثتها لياليها الطيبة والسيئة معاً الكثير من الحنكة والروية.

فقالت شادية:

ـ لا عليك، قد يكون الذنب ذنبي، لكنهم بالفعل لا يستحقون هذا العناء سكان تلك الحارة. ما يحيرني هو شيء واحد، لماذا سمَّى إمام ابنته باسمي إذا كان لا يحبني؟ لقد حاولت أن أسلم عليه بعد طول غياب ولكنه رفض أن يضع يده في يدي وهو يعلم كم من الرجال يتمنون تقبيلها.

وأجابت ميرفت:

ـ ومع هذا فأنا لا أشك بأن بقية من الحب لا تزال تشغل قلب ذلك الرجل رغم الصلابة التي بدا عليها، ولكن.. لنفرض أنه يحبك، هل تتنازلين عن مجدك كفنانة وتتزوجينه؟

والتفتت شادية إلى ميرفت وقالت بعفوية:

ـ صدقيني لم أفكر في طرح مثل هذا السؤال، ولقد فاجأتني به، لكنني سأبحث الأمر مع نفسي وأخبرك في ساعة صفو.

وكان التاكسي قد وقف بهما بجانب مدخل فندق الشيراتون، وأخذت الفتاتان طريقهما إلى المدخل ومنه إلى الكافيتيريا لتناول فنجان من القهوة، وهناك التقت شادية وميرفت بالمنتج الكبير صلاح الذي قبّل وجنة شادية، ثم استدار ليسلم على ميرفت.

وأخذ الجميع أماكنهم إلى المائدة الصغيرة، بينما مضت الساقية شاهيناز تلبي طلبات الجميع، وفي نفسها إعجاب ظاهر بضيفتيها، فهي تلتقي يومياً بالعديد من الفنانين وأصحاب الأسماء اللامعة، لكن هاتين الفتاتين بالنسبة إليها شيء آخر.

وأخذ المنتج صلاح يتحدث عن آخر أفلامه، وكيف استطاع هذا الفيلم أن يضرب رقماً قياسياً في عرضه في سينما «ريفولي»، وسأل في براءة ميرفت عما إذا كانت قد شاهدته.

وعندما أجابت ميرفت بالنفي بحث في جيوبه وأخرج تذكرة بنوار مفتوحة التاريخ وناول التذكرة إلى ميرفت التي أخذتها ووضعتها جانباً، ثم مضى الحديث بين الجميع يأخذ أشكالاً عديدة. فقد كان المنتج من أولئك الذين يجيدون إدارة دفة الحديث، وعندما أحس بارتياح ميرفت إليه قال في هدوء وتماسك:

- قد يكون حظي كبير إذ استطعت الليلة أن أنال شرف تشريفك والآنسة ميرفت للحفلة التي أقيمها على شرف المطربة العظيمة سهاد.

ولكن ميرفت لم تجب، وعندما أجابت عنها شادية بالقبول، تحدثت ميرفت إلى نفسها وقالت:

- ترى متى يقدر لي أن أبعد عن هذه الأجواء وأعود إلى طبيعتي؟

وفي تلك اللحظة دخل الممثل حسام الذي أخذ يهش لشادية ويحادثها عن بعد، ثم يطلب من المنتج أن يصحبه فقد آن وقت موعدهما مع السيدة صباح التي جاءت من الأردن لإحياء حفلة كبيرة.

واستأذن المنتج وخرج، ودفعت شادية هذه المرة الحساب وغادرتا المكان إلى السيارة التي أقلت الفتاتين إلى قصر ميرفت، وهناك أمضتا ساعات وساعات كانتا تلهوان على الطبيعة، تشاهدان مجموعة الصور التي حوتها الألبومات الملونة التي أعدت بأناقة.

وفي الساعة التاسعة مساءً خرجت شادية على أمل اللقاء بميرفت في شقتها بعد أن تقوم بتغيير ملابسها، لكن ميرفت حاولت أن تعتذر عن حضور الحفلة فلم تستطع لأن شادية كانت أقدر على قفل باب المناقشة في هذا الأمر، وفي الساعة العاشرة والنصف كانت ميرفت وشادية في سيارة الأولى تمضيان إلى السهرة في بيت المنتج الكبير.

وعند باب الشقة الأنيقة لامست آذانهما موسيقى عمر خورشيد تصدح بأعذب ألحانها.

وطرقت شادية الباب لينفرج عن المنتج صلاح بكامل أناقته وكأنه قد تسمر بجانب الباب ينتظر تلك اللحظة، وأخذ بيدي الفتاتين ومضى يقدمهما إلى

المجموعة التي كانت في منزله، وكان جلهم من أصحاب الأسماء المشهورة في عالم الفن: السينما والمسرح.

اختارت ميرفت ركناً صغيراً بجانب السيدة ليلى مراد، التي أخذت تسائل صاحبة القصر عن اسمها وكأنها تراها لأول مرة.

ومضت شادية إلى حيث تقف صاحبة العيد لتقدم لها هديتها وهدية ميرفت، وكانت هدية ميرفت خاتماً ثميناً صنع ببراعة.

لكن المطربة الكبيرة لم ترتح للطريقة التي قدمت بها ميرفت الهدية إليها، وأبدت شيئاً من الامتعاض لكون الأخرى لم تقدمها بنفسها، فطيَّبت شادية خاطرها بكلمات قليلة ثم عادت لتأخذ مكانها بجانب الفنان ضياء الذي امتازت حياته الفنية بصرعات كثيرة، وأخذت تسائله عن آخر صرعاته، فضحك من أعماقه ولم يجب، بينما كانت عيون زوجتيه الأولى والثانية تنظر إلى شادية لتتعرفا عن بعد إلى الحديث الذي أضحك السيد ضياء.

وأخذت موسيقى عمر خورشيد تصدح مرة أخرى، بينما مضت إحداهن وكانت هي الأخرى من الأسماء اللامعة إلى الحلبة لترقص للجميع رقصاً بارعاً نال استحسان القوم وتصفيقهم، وكانت مذيعة التلفزيون بجانب زوجها ترمق الجميع في إعجاب وتبحث بينها وبين نفسها عن برنامج جديد تستطيع أن تقدمه لجمهورها من خلال اللوحة الفريدة التي تراها.

وأخذت تتحدث إلى أحد أصدقاء المنتج من الأردنيين وكان هو الآخر من العاملين في حقل البرامج عن فكرتها تلك، لكن السيد عبد لم يكن في تلك اللحظة حاضر الذهن إذ تسمرت عيناه على غادة هيفاء رآها لأول مرة فسأل رفيقته عن اسمها، وعرف منها أنها زوجة أحدهم، فهدأت نفسه بعض الشيء، ثم عاود حديثه مع مذيعة التلفزيون طالباً تعريفه على السيدة، لكن مذيعة التلفزيون أسرت في أذنه كلمات ضحكا بعدها ثم ناول المذيعة ورقة صغيرة كتب عليها اسمه ورقم تلفونه وسلَّمها للمذيعة التي ناولتها في هدوء إلى السيدة الزوجة التي ألقت بها في شنطتها ثم التفتت إلى السيد عبد وابتسمت وكأنها تعلن عن موافقتها على اللقاء.

كانت ميرفت تطالع ما يجري في الصالة الفسيحة، وتحصي حركات القوم

وكأنها غريبة عنهم، هي التي أخذت بأسباب الحياة اللاهية في كل مكان، لكنها في تلك الليلة كانت فتاة أخرى غير ميرفت التي كانت سابقاً.

أما المنتج صلاح، فكان يرقب هدوء ميرفت ويحصي هو الآخر حركات وجهها وجسدها ويطالع في شوق ونهم تفاصيل الجسد الممشوق الذي لف بعناية في فستان أزرق جميل، يكشف عن الصدر والساعدين.

وعندما مد الطعام أخذ المنتج بيد ميرفت إلى المائدة ومضى يدفع إلى صحنها بما اختاره لها من محتوياتها الشهية.

ولقد حاول المنتج صلاح في تلك الوقفة أن يشعر ميرفت بإحساساته كلها نحوها، لكن الأخيرة لم تكترث إلى ما يقول ومضت إلى مكانها مرة أخرى تنتظر الوقت المناسب للخروج من دائرة الضوء التي عاشتها في تلك الليلة.

الفصل الخامس

أمضت ميرفت أكثر من عشرة أيام في غرفتها تقلِّب أمور حياتها بينها وبين نفسها بعد أن قطعت كل الاتصالات التي تربطها بالعالم الخارجي وكأنها بهذه الخلوة تريد أن تنضو عن نفسها جميع ما علق بها من شوائب الحضارة طوال السنوات الماضية. واستقبلت يوم شم النسيم بكثير من البهجة والانتعاش، وعاودها نشاطها فأدارت قرص التلفون بعد أن أوصلته بسلك الحرارة الممتد عبر سريرها الحريري.

وجاء صوت شادية ناعماً كعادته، يوشوش أسماعها في تكاسل مريب، وأخذت ميرفت تتحدث إلى صديقتها حديثاً طويلاً شاركت أم سيد في الاستماع إلى نتف منه، وداخل نفس العجوز هي الأخرى شيء من السرور، فها هي سيدة القصر تعود إلى سابق إيناسها بعد طول رقاد.

لكن شادية كانت قد أخذت على خاطرها من صديقتها، فقد حاولت طوال الأيام العشرة أن تتصل بها بلا جدوى. وعندما جاءت إلى القصر قيل لها إن سيدته خارج القاهرة، فأخذت تعاتب صديقتها في حرارة، لكنها عندما سمعت دعوة ميرفت لزيارتها نسيت جميع كلمات العتاب وردت بالإيجاب على أمل اللقاء بعد نصف ساعة، مسافة الطريق بين شقتها والقصر.

وضحكت ميرفت في أعماقها لهذا التبدل الذي طرأ على نفسها، وتذكرت أن الحياة بجميع مباهجها وملذاتها قد لا تساوي شيئاً في بعض الأحيان، لكن الواحد منا في حاجة ماسة إلى ممارستها. وانتظرت في صبر وصول صديقتها التي أخذتها بالأحضان، ونظرت

إليها تسائلها في لهفة عن المكان التي قضت فيه كل تلك الأيام.

وعندما قالت لها ميرفت بأنها لم تخرج من القصر طوال المدة التي مضت استنكرت شادية منها هذا العمل ونعتتها بالجنون فالحياة قصيرة.

وأخذت تذكرها بأيام العمر التي تمضي هدراً، وكيف أن أجمل سنوات حياة المرء هي ما بين الثامنة عشر والخامسة والثلاثين، وأن المرأة عندما تصل إلى سن الأربعين تكون قد وصلت إلى سن اليأس.

وأطرقت ميرفت قليلاً وقالت:

ـ ولكنني وصلت سن اليأس قبل أن يصل عمري إلى الأربعين.

وأجابتها شادية:

ـ قد تكون العلة منك أنت، فأي فتاة في العالم لديها ما عندك لا يمكن مطلقاً أن تصل إلى سن الأربعين.

وضحكت.

وأجابت ميرفت:

ـ لا عليك، فاليوم هو يوم شم النسيم، فهيا لنشمر عن ساعد الجد ونمضي سوياً إلى الفيوم لنقضي طيلة هذا اليوم في العزبة بين أشجار المانجو، نشارك الفلاحين طعامهم.

لكن شادية لم تعجبها الفكرة فحاولت أن تثني عزمها عن الذهاب إلى الفيوم لمكان آخر في الإسكندرية، لكن ميرفت لم تقبل الفكرة وأصرت على رأيها، وعندما رأت شادية إصرار صديقتها قبلت الأمر على مضض وقالت:

ـ دعيني إذن أعود إلى بيتي لأستبدل ملابسي بملابس تليق بهذه الرحلة.

لكن ميرفت رفضت ذلك وأشارت إلى دولابها لتنتقي منه شادية ما تريد.

واندفعت شادية لتنتقي بنطلوناً أحمر اللون وبلوزة بيضاء، وحزاماً جلدياً يحمل اللون الأبيض والأحمر، واستأذنت في أن تذهب إلى الغرفة الثانية، لكن ميرفت أمرتها في عبث بأن ترتدي ملابسها أمامها ما دامت تتعرى كل ليلة لألوف المشاهدين من جمهورها، فاستجابت للأمر ومضت تخلع ملابسها وترتدي الملابس الأخرى.

أما ميرفت فقد اختارت جلباباً قروياً ارتدته على عجل بين دهشة صديقتها وعدم تصديقتها للتقليعة الجديدة، لكن الأخرى طلبت منها في همس أن تصمت، وأخذت الفتاتان طريقهما إلى خارج القصر، بينما كان الأسطى حسن سائق السيارة في انتظارهما، واستقلتا السيارة التي أخذت تنهب الطريق إلى الجيزة ومنها إلى الفيوم.

وعندما وصلت السيارة المقلة لميرفت وشادية إلى باب العزبة خرج الأسطى حسن ليفتح باب السيارة للفتاتين، وكان العم حسنين بسنواته الستين عند باب العزبة يرحب بميرفت ترحيباً صادراً من قلب يعمر بالحب لم تدنسه المدنية بزيفها.

وأخذت ميرفت على غير عادتها تداعب العم حسنين وتسأله عن أبنائه وبناته.

وفي الطريق إلى الفيلا الصغيرة التي توسطت أشجار المانجو الكثيرة المتعددة، دار الحديث بين ميرفت والعم حسنين.

قال العم حسنين:

ـ قد تكون فرحتي اليوم كبيرة لأنني بالفعل بعد خمس سنوات طوال ها أنذا أراك يا سيدتي مرة أخرى. صدقيني أنني سعيد بلقائك وسعيد أيضاً بعودة ابني فريد من رحلته إلى أمريكا. لقد نال شهادة الدكتوراه في علم الذرة ـ ونطق كلمة الذرة على أساس أنها ذلك الزرع الذي يقوم برعايته ـ ولكنني لا أعرف لماذا يعطون مثل هذه الشهادات وأنا أعرف كيف أزرع الذرة دون شهادات.

وضحكت الفتاتان، وقالت ميرفت:

ـ لا يا عم حسنين دكتوراه في الذرة تعني شيئاً آخر، فابنك اليوم عالم من علماء مصر الذين سيبنون بسواعدهم تقدم هذه البلاد.

وأخذت تشرح له تفاصيل هذه الدراسة حتى استطاع أن يستوعبها، وعندها ضحك وقال:

ـ ولكن ابني لم يحاول أن يفهمني ما قلته.

وقالت ميرفت:

- ربما كان ذلك احتراماً منه لك فلم يشأ أن يعطيك أية فكرة تخلق شيئاً من التباين بين ما تعرفه ويعرفه هو.

وصمت الشيخ قليلاً ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو من كل قلبه لمصر ولابنه ولميرفت ورفيقتها، ثم أنزل يديه وأشار إلى شادية وقال:

- وهذه يا سيدتي هي الأخرى عالمة كابني؟

وضحكت شادية وقالت:

- نعم يا عم حسنين، عالمة من نوع آخر، عالمة من خارطة الفرنساوي.

وترحم العم حسنين على والده الذي لم يعطه الفرصة لأن يتعلم ليستطيع قراءة الرسائل التي كان يبعث بها ابنه إليه. ولولا فتحية ابنته لما استطاع أن يتعرف إلى أخباره.

وفي الفيلا الصغيرة طلبت ميرفت من العم حسنين أن يبعث لها بفتحية لتراها فقال لها:

- إنها مشغولة تعد الطعام مع والدتها لك ولرفيقتك ولابني الذي جاء أخيراً وبعد طول غيبة.

وعلى (الطبلية) الكبيرة جلست ميرفت وصديقتها القرفصاء تتناولان الطعام وإلى جانبهما كانت فتحية وفريد.

كان فريد من الشباب الجاد الذي يغلف وجهه دائماً بكثير من الوقار، يتحدث في هدوء ممزوج بإحساس بالكبرياء الذي لا يحاول أن يظهره، وكانت ميرفت تتحدث في حماس عن الأيام الماضية وعن طفولتها التي قضتها في هذه العزبة رفق فريد وفتحية، وكانت شادية تستمع إلى أحاديثها وتنظر إلى فريد فتراه هو الآخر يتسلل بنظراته إلى وجهها وكأنه يريد قراءة تعابيره.

وأمضى الجميع يوماً هانئاً شارك الجميع فيه بعفوية العم حسنين الذي أعد لهم الخيول العربية لجولة حول العزبة.

وفي هذه الأثناء اختارت شادية وفريد أن يكونا في المؤخرة، بينما اندفعت ميرفت وفتحية إلى المقدمة، ودار حديث طويل بين فريد وشادية، حاول خلاله فريد أن يتعرف إلى شادية بشكل أكبر، لكن هذه لم تعطه من المعلومات عن

شخصيتها إلاّ القليل، لكنها ارتبطت معه بموعد بعد العودة إلى القاهرة في شقتها الأنيقة.

واحتفظ فريد برقم تلفون شادية في سره، وأخذ الجميع طريق العودة إلى الفيلا ومنها إلى القاهرة.

وفي الطريق قالت شادية لميرفت بعد حديث طويل:

- صدقيني لقد أحببت فريداً هذا منذ أول نظرة لكنني لا أدري، فإذا كان هو الآخر يحبني كما أحببته فأنا على استعداد لأن أترك كل أمجاد الشاشة لأكون إلى جانبه.

وضحكتا سوياً من الأعماق ومضت كل واحدة منهما إلى بيتها، هذه إلى شقتها وميرفت إلى قصرها، تحاول أن تستعيد بذاكرتها أيام طفولتها التي مضت وتمزج بين أحداثها وأحداث اليوم الذي عاشته.

أما شادية فقد كانت هي الأخرى تفكر في الطريقة التي ستقابل بها فريداً، وهل من واجبها أن تتحدث إليه بصراحة عن حياتها التي مضت وحاضرها الذي تعيشه، أم من الأفضل إضافة بعض الحواشي إلى هذه الحياة.

وعندما لم تصل إلى غايتها تلك، داعب النعاس عينيها فنامت ملء جفنيها.

الفصل السادس

استعدت شادية لزيارة فريد لها في شقتها فأمضت طوال يومها بين يدي الحلاق الذي لاحظ انشغالها وسعادتها فأخذ يداعبها كعادته متسائلاً عن النجم الجديد الذي ستمثل معه فيلمها القادم، لكن شادية اختصرت حديثها معه في هذه المرة وطلبت منه في حزم أن يساهم في التعجيل بإنهاء تصفيف شعرها وفقاً لأحدث التسريحات التي ظهرت مؤخراً في باريس.

وخرجت من صالون الحلاق إلى شقتها لا تلوي على شيء بعد أن طلبت من وصيفتها إعادة ترتيب الشقة بشكل جديد، وأخذت تخفي بعض الصور التي التقطت لها في بعض الأفلام والتي كانت تظهر مساحات كبيرة من جسدها، وتغطي الجدران بصور أخرى محتشمة.

واختارت شادية لهذه الزيارة فستاناً أسود طويلاً يغطي كافة أجزاء جسدها وتعطرت بأفضل أنواع العطور، واستلقت على كرسيها المفضل في انتظار زيارة فريد بعد أن تحدث إليها بالتلفون.

وجاء فريد في موعده بادي الأناقة، يتسربل في بدلة بنية اللون وربطة عنق حمراء جميلة، ويتدلى من جيب جاكتته الصغير منديل من نفس نوع ولون الربطة، ومد يده بالتحية فأمسكت بها شادية وأخذت به إلى الكرسي المجاور بعد أن أمرت وصيفتها بإحضار كأسين من الشراب، لكن فريد رفض في أدب تناول الشراب ورجاها أن تقدم له القهوة ففعلت ذلك على مضض وقالت بينها وبين نفسها:

«إذن لم تغير أيام الدراسة التي أمضاها في أمريكا نوع الحياة

التي كان يعيشها في الفيوم. إن الأمر على ما يبدو يحتاج إلى شيء كثير من المرونة، فالرجل الذي لا يشرب لا يقبل مطلقاً هفوات صديقته، وهي كثيرة الهفوات شاركت حياتها في صنع أخطائها، حتى إذا أرادت أن تخفي هذه الأخطاء فالصحف والمجلات الفنية ملأى بأخبارها وتنقلاتها».

وبدا على فريد شيء من الارتباك والتلعثم وهو يتحدث إلى شادية قائلاً:

ـ صدقيني عندما أقول لك بأنني انتظرت وقتاً طويلاً لأراك، وكنت أخشى عندما تحدثت معك بالتلفون أن ترفضي لقائي، لكنك كنت كريمة فاستجبت لرغبتي، وها أنذا معك.

وتابع قوله:

ـ لا بد وأنك عرفت من الآنسة ميرفت كل شيء عن حياتي وأسرتي البسيطة، وشاهدت على الطبيعة شيئاً غير قليل من هذه الحياة، وأنا لا أكتمك سراً عندما أقول بأنني أفتخر بانتمائي إلى هذه الطبقة من الناس، ومع هذا فها أنذا أنتمي اليوم إلى طبقة أخرى، لكنني لا أنسى الطبقة الأولى التي كنت ولا أزال أنتمي إليها.

ـ لقد حاولت أن أعرف عنك شيئاً من أختي وتحادثت أكثر من مرة مع سيدة القصر وفي كل مرة كنت أحاول أن أعرف من خلال حديثي معها شيئاً عنك، لكنني كنت أتراجع وأفضل عدم الخوض في الحديث عنك.

والتفتت إليه شادية بكل جوارحها:

ـ من تتصور أن أكون أنا إذن؟

ـ لا أدري، لكنني أتصور شيئاً واحداً أنك فتاة طيبة رقيقة القلب، إنسانة تخطىء وتصيب كأي إنسان.

وعند هذا الحد وجدت شادية الفرصة مؤاتية وقالت:

ـ ولكنني أمتهن التمثيل.

وأجابها فريد:

ـ معنى هذا أنك درسته، ففي أية جامعة تلقيت تعليمك؟

وضحكت شادية من سذاجته وقالت:

ـ من الحياة، من الشارع، من الليالي الطويلة التي أمضيتها أعصر بنان القدم في شوارع محمد علي وعماد الدين والهرم، في كل مكان من هذه الدنيا.

ـ ولكن سيدة القصر صديقتك!

ـ نعم، ولكنها صديقتي بعد أن كبر اسمي ومع هذا فهي إنسانة طيبة لا ترى في حياتي ما يسيء إليها، وتعتقد أن الطريق في هذه الحياة مليء بالأشواك ليس فقط بالنسبة للأنثى الفقيرة وإنما حتى للغنية.

قد يكون الفقر وسيلة ضعف لدى الأنثى، كما أن الغنى هو الآخر وسيلة ضعف مضاعفة لأية أنثى.

إن الفراغ الذي يعيش فيه الأغنياء يساهم في تحويل بعضهم إلى دمى متحركة، كما أن الفقر الذي يعيش فيه بعض الفقراء يساهم هو الآخر في تحويل بعضهم إلى أناس لا يهمهم إلا الوصول إلى أهدافهم بأية طريقة.

ـ وأنت؟

ـ لقد اخترت طريقي وكان صعباً، لكنني اجتزته كما اجتزت أنت طريقك ببراعة. قد أكون قد فرطت في شيء من كرامتي من أجل هذا المجد، لكن هذا التفريط ليس بالمقدار الذي يقولون عنه، فأنا رغم كل ما مر بي أحس بفضيلة الطهارة في نفسي.

صدقني إنني وأنا أتحدث إليك أشعر بأنني أنضو عن جسدي أقذار الليالي التي مرت، فأنا من نوع لا يستمرىء الكذب وكان بإمكاني أن أتلو عليك قصة الوالد الذي فقد ماله، والأسرة التي ذلها الفقر نتيجة موت الوالد، أو أية قصة أخرى، لكنني فضلت في لقائي الأول معك أن أكون صريحة صادقة كما كنت أنت رغم أنك لم تقل شيئاً.

إن مجرد رؤيتي للكوخ الذي عشت فيه، والأب الذي رباك والأخت التي تساهم في رفع مستوى حياة ذلك الكوخ أعطتني مناعة ضد الكذب، فأنا عندما أقول بأنني أحببتك من كل قلبي ومن أول لقاء لا أكذب مطلقاً، ومع هذا الحب فأنا لا أرغب في الاقتران بك حرصاً مني على مستقبلك، ويكفيني أن تكون صديقاً لي يدفع عن نفسي غائلة وشرور بعضهم.

وأطرقت برأسها إلى الأرض خجلاً وحياءً، هي التي تتيه بجسدها على مسارح الهرم دون أي خجل أو حياء.

وران الصمت بينهما فترة من الوقت قطعه فريد الذي أخذ يتحدث عن حياته بشيء من البساطة والوضوح.

لقد كافح كثيراً للوصول إلى درجته العلمية، وأمضى سنوات قاسية عايش فيها الضنك والعوز، ومارس جميع الأعمال اليدوية المختلفة، وامتهن العمل في كثير من المسارح كعامل يدل الرواد على أماكنهم، ومع هذا لم ييأس بل مضى في جهاده العلمي حتى إذا ظهرت نتيجته حاول أكثر من بروفسور أن يثنيه عن العودة إلى مصر ليظل في أمريكا، وكانوا يقولون له إن مصر تفتقر إلى مقومات البحث العلمي، وكان قد سمع عن العالمة المصرية التي ذهبت ضحية سيارة نتيجة رفضها العمل في أمريكا.

ولهذا فهو لم يرض لنفسه تلك النتيجة، فوالده وأسرته وبلاده في حاجة إليه، وهو أيضاً يؤمن بأن واجبه يقضي عليه أن يبقي على شعرة معاوية بينه وبين جامعته، فاستأذن في السفر إلى مصر ليعود بعد فترة إلى العمل في أمريكا، ولولا هذه الحيلة لما استطاع أن يأتي.

لطالما سمع عن رجال «المافيا» الذين يستخدمون ذكاءهم للاحتفاظ بأكبر عدد من العلماء سواء بالترغيب أو الترهيب، وهو لا يريد أن يعطي لأحد الفرصة في إرهابه.

فأمريكا هذا البلد العجيب الذي تستخدم فيه الشركات جواسيسها وعملاءها لمعرفة أسرار الشركات الأخرى، هذا البلد عرف جميع دقائق وتفاصيل الحياة فيه، ومع هذا فهو يحب هذا البلد، ففيه جميع مقومات الحياة العصرية من جهة، وفرص العمل للكادح المؤمن من جهة أخرى.

وعندها رن جرس الباب لتفاجأ شادية وفريد بمقدم ميرفت التي أخذت تعانق صديقها ثم تلتفت إلى فريد مسلمة، وتمضي إلى كرسيها لتأخذ في مداعبة الاثنين في عفوية.

كانت كلماتها بسيطة خالية من العقد، وهي تقول:

ـ ربما كان مجيئي مضايقاً لكما.

وضحكت ولكن شادية لم تجب بينما قال فريد:

ـ لا على العكس فأنت دائماً صاحبة الفضل عليّ. ساعدني والدك على أن أتعلم وها أنت تساعدينني على التعرف إلى الأصدقاء.

وأشار إلى شادية التي تسلمت طرف الحديث قائلة:

ـ كنت أفكر في التحدث إليك عن هذه الزيارة لولا أنني فضلت أن أخفيها عنك فترة، ثم أصارحك بعدها بأشياء كثيرة لكنك كعادتك كريمة فمرحباً بك.

لقد اكتشفت ذلك الخيط الرفيع الذي يشد بيني وبين فريد، وكانت فترة مصارحة استطعت خلالها أن ألقي الأضواء على حياتي أمام عينيه على أمل أن يظل فريد صديقاً وصديقاً فقط.

وشددت على مخارج الألفاظ عند نطقها لهذه الكلمة.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ قد أكون قليلة التجربة، لكن تجاربي دائماً تقول بأن الصداقة هي المعبر إلى الحب.

وقالت شادية في اقتضاب:

ـ قد يكون، لكنه حب بلا أمل.

ـ ولماذا؟

تساءلت ميرفت وأردفت قائلة:

ـ صحيح أن فريد من بيئة شعبية كما رأيت، لكن ممارسته للحياة التي عاشها تجعله ينظر إلى كثير من الأمور نظرة مغايرة لنظرة أمثاله ممن يعيشون على أرض ريف مصر.

وقالت شادية وفريد معاً:

ـ ربما ربما.

وضحكوا جميعاً.

وفي الليل كان لقاء آخر بين شادية وميرفت وفريد، حيث استقل الجميع سيارة ميرفت إلى مصر الجديدة، فقد كانت هناك سهرة جديدة تقيمها إحدى الفنانات الكبيرات السن بمناسبة طلاق ابنتها من زوجها التاجر.

وكانت فرصة أن يلتقي فريد بمجموعة كبيرة من الفنانين والفنانات الذين كان يتطلع إلى رؤيتهم وهو صغير، لقد رأى حياة هذا النوع من الناس على الطبيعة، وعرف في تلك اللحظة أن الفارق بين المظهر والمخبر هو الدور الذي يقوم بتمثيله هذا الممثل أو تلك الفنانة.

وقارن بينه وبين نفسه وبين شادية والعديد من زميلاتها، فخرج من هذه المقارنة بأن شادية على الرغم من أنها راقصة لكنها تحمل أخلاق أنثى طيبة عاندتها الأيام فأقامت جسراً بينها وبين نوع الحياة التي تريدها.

أما شادية فلم تشارك تلك الليلة بأداء أية رقصة، وإنما أصرت على أن تكون مجرد ضيفة، وعندها اتجهت الأنظار إلى السيدة فهيمة السمراء الغانية «صاحبة الجسد الرائع» والابتسامة الفاتنة. فقامت تتلوى على الأرض في رقصة صامتة شارك كل جزء من أجزاء جسدها في التعبير عن احتياجاته، وأخذ القوم يصفقون للرقصة والراقصة، بينما قام فريد من مكانه ليطلب من ميرفت وشادية أن يعرّفاه إلى الممثلة الكبيرة ماجدة، فلطالما أعجب بنطقها للكلمات وهو صغير.

ولكن شادية لم ترض عن طبيعة هذا الطلب، ونظرت إلى فريد نظرة مملوءة بالغيرة أحس بها وأحست بمعانيها ميرفت فقالت في ضحك:

ـ ألم أقل لكما إن المعبر إلى الحب هو الصداقة؟ وأستطيع في هذه اللحظة أن أراهن بأنكما تجاوزتما مرحلة الصداقة إلى الحب.

وتمتمت شادية بكلمات استطاعت أن تلتقطها أذن ميرفت، كانت الكلمات تقول في عفوية:

ـ نعم لقد اجتزنا مرحلة الصداقة إلى الحب، لكني أخاف على هذا الحب أن لا يدوم على الأقل ليس من جانبي وإنما من الجانب الآخر.

أما فريد فاكتفى بالابتسامة التي ظهرت على شفتيه هذه المرة ملأى بأسرار كثيرة يريد أن يجعلها خافية عن عيني ميرفت التي أخذت تجوس وجهه من جميع جوانبه ثم تنطلق بضحكة صافية وتقول:

ـ ليتني أنا الأخرى أجد نصفي الذي لم ألتق به بعد.

الفصل السابع

انشغلت ميرفت عن أفكارها بالحب الذي دخل فجأة قلب صديقتها شادية، وأخذت تنقل بصرها بين الصورة الزيتية التي علقت بأناقة داخل صالون الحريم القديم وبين منظر الحديقة، ومضت تقلّب ذاكرتها في نوعية النسوة اللواتي كن يترددن على هذه الغرفة قبل وفاة أمها، وضحكت من قلبها عندما تذكرت بأن هذه الصداقة التي تربطها مع شادية لا يمكن أن تبقى لو كانت أمها على قيد الحياة. فلقد كانت تلك التركية على درجة كبيرة من المحافظة على تقاليد الأسر الكبيرة، حيث لا يجوز أن تكون صداقة بين فتاة أسرة وراقصة مهما كان شأن هذه الراقصة.

أما هي فكانت تختلف عن أمها في كل شيء، يقولون إنها تشبه أباها في انطلاقه وتحرره، لكنها تعتقد أنها فاقت حتى والدها في هذا المضمار، فالذي يهمها دائماً أن تكون من تصادقها على درجة كبيرة من الفهم والإدراك لواقع حياتها من جهة، وأن تكون أيضاً قريبة من قلبها، وهي تحب شادية رغم منبتها الوضيع وأسرتها الفقيرة.

لقد حزمت أمرها على شيء تستطيع من خلاله تغيير هذا الروتين الممل في حياتها المقرفة، هكذا كانت تصف الحياة التي تمارسها، فلقد كرهت من كل قلبها هذه الروتينية في العيش الهادىء البعيد عن أي معاني الجهد أو الإثارة.

وأدارت قرص التلفون تأمر وكيل أعمالها أن يهيىء لها سيارة تاكسي وأن يبعث بهذه السيارة مع صباح الغد إلى قصرها.

واستغرب وكيل أعمالها الجديد السيد لطفي هذا الطلب لكنه

أجاب في هدوء بأن تعليماتها ستنفذ فوراً وأن سيارة التاكسي ستكون في الموعد المحدد أمام القصر.

وشاع في وجهه نوع من الهدوء، فمن الغد ستمارس نوعاً جديداً من العمل، وعند هذا الحد من التفكير عاجلها صوت جرس التلفون فرفعت سماعته لتلتقي على الفور بصوت صديقتها شادية التي نقلت إليها رغبتها في قضاء السهرة في كازينو «الليل» باعتبارهما مدعوتان لافتتاح هذا الكازينو الذي تملكه المطربة شريفة فاضل.

لكن اعتذار ميرفت عن الحضور كان قد صافح أذن شادية بشكل قاطع، فقالت شادية:

ـ ربما كان هناك ما لا أدريه، لكنني لا أصر على معرفته لولا أنك حبيبة إلى قلبي.

وأجابت ميرفت:

ـ لا، لا شيء، كل ما في الأمر أنني سأنام مبكرة هذه الليلة وسأبدأ نوعاً من العمل ستعرفينه في مساء الغد.

وضحكت ثم أقفلت سماعة التلفون ومضت إلى غرفة نومها تنضو عن جسدها ملابس الخروج وترتدي غلالة رشيقة وردية اللون ثم تمضي إلى السرير في سعادة ظاهرة.

وفي الصباح تناولت ميرفت إفطارها في غرفتها وأبدلت ثيابها بثياب مريحة وخرجت إلى الشرفة لتواجه بسيارة التاكسي التي أوصلها سائق شاب ترك مفاتيحها عند بواب القصر ثم غادر المكان.

وابتسمت ميرفت بينها وبين نفسها، ثم أخذت طريقها إلى سلم القصر ومنه إلى الفناء فالحديقة لتتسلم مفاتيح التاكسي من البواب ثم تستقله وتمضي في تجربة مع العمل الجديد الذي اختارته بين استغراب البواب ونظرات الخدم الذين دهشوا لمنظر سيدتهم وهي تستقل سيارتها الجديدة.

لكن ميرفت كانت سعيدة بمغامرتها تلك، وقد صادفت في طريقها سيدة مسنة هالها أن تقود التاكسي فتاة، لكن دهشتها لم تحل بينها وبين أن تركب

معها، حتى إذا ما أوصلتها إلى بيتها دفعت بقيمة العداد إليها بالإضافة إلى عدة قروش كبقشيش للسائقة الجميلة.

وعند مدخل شارع جاردن سيتي أوقفتها إشارة المرور فترة من الوقت، ثم سارت بعدها إلى أول طريق جانبي ليقابلها صوت رجل آمر فوقفت بجانبه ليستقل التاكسي.

ونظرت ميرفت إلى الرجل لتتميز شكله، لكنها لم تستطع أن تتعرف إلى ملامح الوجه بشكل طيب، وعندما رفع الرجل وجهه إليها عرفت صاحبه، فقد كان المنتج الكبير الذي عرف على الفور صاحبة التاكسي فناداها باسمها، لكن ميرفت أجابته على الفور بأن اسمها ليس ميرفت.

واستأذنها في أن يجلس بجانبها بدلاً من الركوب في المقعد الخلفي، لكن ميرفت لم تلب هذا الطلب، وإنما أشارت إليه في حزم بأن يأخذ مكانه في المقعد الخلفي وهكذا كان.

كان المنتج في طريقه لاجتماع في غرفة السينما، لكن المفاجأة التي رآها لم تدع له فرصة للتفكير، وإنما طلب منها بسرعة أن تمضي إلى مصر الجديدة ليكون المشوار أطول ومدة الحديث أكبر.

وأخذت ميرفت طريقها مع السيارات الهادرة تقود سيارتها في رشاقة، بينما واصل المنتج صلاح حديثه معها قائلاً:

ـ قد تكون الدهشة أن أرى فتاة في مثل هذا العمل، لكن دهشتي الكبرى أنك صورة طبق الأصل لفتاة غنية أعتبرها من أعز صديقاتي، ولهذا عندما دعوتك باسمها كنت أظنك أنت هي وأنها مجرد نزوة من صديقتي لاستخدام هذا النوع من السيارات.

لكن ميرفت أجابت بثقة:

ـ لا عليك، الوجوه تتشابه، وقد أكون أنا صورة طبق الأصل عن صديقتك، لكن هذا الأمر لا يمثل بالنسبة لي أي شيء.

إنني فتاة أحاول أن أجمع قوت يومي وأسرتي بعرق جبيني، وقد رأيت في هذه السيارة وسيلة لما أردت.

ـ لكن هناك أكثر من فرصة، فأنت وإن كنت صورة ثانية عن صديقتي ميرفت، إلا أن صوتك هو الآخر يماثل صوتها، ولهذا إذا رغبت فأنا من كبار منتجي الأفلام، وأستطيع أن أساعدك بأن أجعل منك «قنبلة الموسم».

ـ لكن هذا النوع من العمل لا يروقني بالإضافة إلى أن حياة الممثلين والممثلات حسبما أسمع لا تشجع فتاة على أن تقوم بمثل هذا العمل، كما أن هناك شيئاً آخر فمن يضمن لي أنك صادق فيما تقول، أو أنك كغيرك من ذئاب الفن الذين يبحثون عن فريسة. وأنا إنسانة أقسمت أن أعيش بشرفي.

وضحك المنتج الكبير من قول ميرفت وقال:

ـ لا عليك، هم يتهموننا بمثل هذه الاتهامات وينعتون مجتمعنا بأحقر الأوصاف، ونحن ومجتمعنا بعيدون كل البعد عن كل ما يقولون.

قد تكون هناك فئة من الزملاء تنطبق عليهم هذه الأوصاف، لكنهم قلة يتواجدون في كافة الأعمال وليس فقط في الحقل الفني. ومع هذا فأنا أصر.

وألقى إليها ببطاقة وأردف قائلاً:

ـ عليك أن تفكري ويوم تصلين إلى حد الموافقة تعالي إلى مكتبي لأوقع معك أول عقد بألفي جنيه، وهو مبلغ كما ترين لا تستطيعين الحصول عليه مدة عام من العمل الذي تمارسينه.

قالت ميرفت:

ـ لا بأس سأفكر.

وكانت في تلك اللحظة قد وصلت إلى سينما روكسي في مصر الجديدة، فلم يشأ المنتج أن يضيع الفرصة وإنما رجاها في أن تنزل معه ليقضيا فترة من الوقت في الكازينو المجاور فلربما استطاع إقناعها، لكن ميرفت رفضت هذا الطلب ووقفت بسيارتها إلى جانب الطريق، بينما أخذ المنتج طريقه من السيارة بعد أن ألقى نظرة على العداد الذي سجل حوالى (٩٦) قرشاً مصرياً، وعندها تناول حافظة نقوده الجلدية وأخرج منها مبلغ عشرة جنيهات وألقى بها إلى ميرفت، ثم سار في طريقه، لكن ميرفت نادته بأعلى صوتها فعاد إليها فقالت له:

ـ والباقي؟

قال المنتج:

ـ هو لك فلربما تذكرت دعوتي التي قدمتها إليك. إنك في نظري جوهرة ثمينة أستطيع أن أخلق منها ممثلة جديدة تنافس ميرفت أمين ونجلاء فتحي وغيرهما.

لكن ميرفت ضحكت وقالت:

ـ شكراً، سأفكر في الأمر وعندما أصل إلى الاقتناع بوجهة نظرك سآخذ طريقي إلى مكتبك.

وانفرجت أسارير المنتج ومضى إلى الكازينو ليدخل من باب ثم يخرج من باب آخر ليستقل تاكسي آخر يوصله إلى مكان الاجتماع وعينا ميرفت ترقبه عن بعد وهي تضحك من كل قلبها، فهذا هو أول زبون استطاعت أن تقتنصه في رحلتها مع سيارتها الجديدة.

وعادت ميرفت إلى البيت لتغسل أفكارها هذه المرة من أحداث اليوم، وتتناول سماعة تلفونها لتتحدث إلى صديقتها شادية حديثاً طويلاً وتطلب منها أن تأتي إليها فلربما كان من الأفضل أن تمضيا السهرة في فيلا السيدة ندى.

دخلت ميرفت وشادية صالون الاستقبال في فيلا السيدة ندى لتواجه بعاصفة من الأسئلة التي انهالت عليها من كل جانب، فلقد تحدث المنتج صلاح بقصة سائقة التاكسي إلى جميع المدعوين وتساءلت إحداهن:

ـ ميرفت أليس من المعقول أن تكون سائقة التاكسي هذه أختاً غير شرعية لك؟

وأجابت ميرفت:

ـ ربما، لكني لا أستطيع أن أؤكد أو حتى أنكر، لأنني لم أكن أشارك أبي غزواته الليلية.

وضحك الجميع لكلمات ميرفت، لكن المنتج صلاح كان صامتاً يفكر وهو ينقل نظراته من على وجه ميرفت ويتذكر وجه السائقة التي أعجبته ويضرب كفاً بكف ويقول يخلق من الشبه أربعين.

الفصل الثامن

ران الصمت على الفيلا العائدة للدكتور عبد التواب، واندفع كل من في البيت إلى غرفته، بينما انشغل الطبيب المصري الشهير بالبحث في مجلدات الكتب الطبية التي تشغل الحيز الأكبر من المكتبة عن تفاصيل علمية أخذ يدونها الطبيب في مفكرته الصغيرة.

وكانت الفيلا تطل على شارع مقياس الروضة الذي امتاز بهدوئه وصفاء جوه ونقاوة خضرة الأشجار التي تحيط به.

وكان الطبيب في حالة انشغال دائم يقلب فكره كثيراً في خطورة العملية التي سيجريها في الغد في المستشفى الإيطالي ويمحص جميع النظريات العلمية التي قرأها في أكثر من كتاب ومجلة علمية، وكانت عادة الطبيب أن يتفرغ دائماً ولمدة أسبوع على تدوين جميع ما يقرأه ويستوعبه في مفكرته قبل البدء في عملية من هذا النوع.

فالمريض وإن كان قاتلاً إلاّ أن إصابته في المخ تستدعي الكثير من الفحص والتمحيص، وحتى الاتصال ببعض أساتذته في لندن وأمريكا تلفونياً.

وكان آخر حديث تلفوني أجراه الطبيب مع أستاذه المختص بدراسة مثل هذا النوع من الأمراض في جامعات لندن أعطاه القوة في أن يمضي بإجراء العملية.

لقد أعجب أستاذه بجميع ما نقله إليه وحثه على إجرائها عن حالة ما يمكن وبالطريقة التي شرحها، وطلب منه إعداد تقرير عن حالة المريض بعد العملية ليضيفها إلى مجموعة الدراسات التي يتسلمها من طلبته المنتشرين في جميع أنحاء العالم.

وكان الطبيب من ذلك الطراز من الناس الذين يتميزون بالهدوء والعمق في الدراسة والتحضير والرزانة عند التحدث مع زملائه وأقرانه.

وكان له عادة لا يخلفها مطلقاً، هي أن يسهر في دراسة حالات المريض والمرض قبل بدء عملياته، وأثناء هذه الدراسة يصبح الصمت الظاهرة الوحيدة التي تسيطر على الفيلا وساكنيها.

ونام الطبيب ملء جفنيه على أن يستقل سيارته ثم يمضي في الصباح إلى المستشفى، لكن سيارته التي بدأ الهرم يتسلل إليها لم تطاوعه على السير كعادتها واعتصمت بالصمت، فأدار ظهره إليها، واختار أن يتمشى قليلاً ليأخذ أول سيارة تاكسي تصادفه، وكان حظ الطبيب والمريض في هذه المرة أفضل من المرات السابقة، فشاهد عن كثب سيارة أجرة تتهادى إلى جانبه، وأشار إلى السيارة بكلمة «تاكسي» فوقفت في مكانها.

لكن الطبيب لم يستطع أن يتحرك من مكانه، فقد كان الذي يسوق السيارة فتاة لا رجل كالمعتاد. وكرر نداءه «تاكسي تاكسي»، فأجابه صوت الأنثى:

ـ نعم تفضل.

وأخذ طريقه إلى جانب ميرفت التي لم ترد أن تثقل عليه بأن تطلب منه الانتقال إلى المقعد الخلفي، وتركت شعرها يتماوج مع الهواء الذي يتسلل هو الآخر عبر النافذة المفتوحة، ونظرت إلى جارها في السيارة بشيء غير يسير من الفضول، فملامح الرجل تدل على أنه من طراز اختار عمله بشيء من الجد والوقار.

ومضى الطبيب يطيل النظر إلى الفتاة مرة ومرات، كان في كل مرة يلعن في سره زوجته الإنجليزية التي تزوجها عندما كان طالباً، ويقارن بينها وبين نضارة هذه التي تجلس بجانبه.

وأخذت سيارة التاكسي تخترق شوارع الروضة والنيل حتى إذا ما وصلت في سيرها إلى القصر العيني سألت ميرفت الرجل الذي بجانبها عن المكان الذي يريد أن توصله إليه.

لكن الطبيب لم يفهم سؤالها وإنما قال في هدوء:

ـ إلى أي مكان يبعدنا عن ضجة الطريق.

وتوقفت ميرفت للحظة وقالت:

ـ إلى أين؟

بنبرات ظهر فيها الغضب، فقال الطبيب:

ـ لا عليك.

وأخرج بطاقته ثم سلمها إياها قائلاً:

ـ لا تخافي، كل الذي أريده أن أصل إلى عملي لكنني قبل أن أصل هل بإمكاني أن أتحدث معك قليلاً؟

وقالت ميرفت:

ـ عمَّ تريد التحدث؟

فقال لها:

ـ عن هذا العمل الذي تمارسينه، إنك إن رغبت تسنى لي أن أساعدك بعمل آخر يحميك ذئاب الطريق.

ـ لكنك أنت واحد منهم يا سيدي الطبيب.

قالتها ميرفت ضاحكة.

لكن الطبيب أجاب صادقاً:

ـ لا ونعم. فأنا وإن كنت ذئباً لكنني أضعت أسناني يوم كنت أتلقى العلم في لندن، أما اليوم فأنا ذئب في إهاب إنسان وبلا أسنان أيضاً.

وعند باب صالة جروبي في شارع سليمان باشا توقفت ميرفت، وخرج الطبيب من السيارة وترجلت هي الأخرى واختار الاثنان ركناً قصياً، وبدأ الحديث يأخذ طابعاً آخر.

قال الطبيب:

ـ غريب أمرك يا سيدتي فأنت أنثى فاتنة ولغتك تدل على عراقة المنبت، ومع هذا تختارين نوعاً رديئاً من العمل لا يليق سوى بالرجال أمثالي.

وأجابت ميرفت:

ـ لقد جربت الكثير من أنواع العمل التي هي في مستوى عملي الحالي لكني لم أجد ما يفضل عنه، فأنا في هذا التاكسي طالبة علم وحياة، أتعلم من الناس أشياء كثيرة، ثم بإيراد هذا التاكسي أستطيع أن أعيش ويعيش معي أفراد أسرتي.

ـ ولكن هناك عملاً آخر أحب أن أعطيه لك إذا قبلت. إن مكتبي في المستشفى في حاجة إلى سكرتيرة وسأدفع لك مرتباً مقداره ستين جنيهاً ولن أسأل عن الشهادات التي تحملينها.

ـ وهل هذا المبلغ للعمل وحده أم أن هناك أشياء أخرى تريدها مني يا سيدي الطبيب؟

وأجاب الطبيب:

ـ أنت ماكرة، ولكن من يدفع مثل هذا المبلغ لا يستغني عن أن يطلب شيئاً آخر، لا يصل إلى حد الاستهتار، فأنا أخاف على سمعتي.

ـ وأنا أيضاً.

قالتها ميرفت.

واستطردت القول:

ـ لكن لنفرض أنني وافقت فهل توافق أم الأولاد على السكرتيرة الجديدة التي ستوظفها؟

قال:

ـ لا، لكنها لن تعرف.

ـ وإذا عرفت سيكون نصيبي الطرد.

ـ لا، بل سيكون الطرد نصيبها هي وعندها سأتزوجك.

لقد عشت سنوات عمري مع امرأة إنجليزية شاء حظي العاثر أن أقترن بها لأنها ابنة صاحبة «البانسيون» الذي سكنت فيه عندما كنت أدرس في إنجلترا، وأنت تعرفين تطرف أمثالي من الشباب في تلك السن ورعونته ورغبته في الاقتران بأول أنثى يقابلها.

أما اليوم فأنا شيء آخر، صدقيني عندما أقول إن أياماً كثيرة تمر عليّ ولا

أرى فيها وجهها لأنني مشغولة بعملي وهي مشغلة بأولادها.

ومضى الطبيب يحدثها عن كل شيء، عن بيته وأسرته ودخله ومركزه، والعملية التي سيقوم بعملها، حتى إذا ما انقضت أكثر من ساعتين أشارت ميرفت بضرورة أن تعود إلى عملها، فوافق على أمل لقائها بعد أن طلب منها أن توصله إلى المستشفى.

واتفقت معه على لقاء ليلي في أحد الأندية الليلية في شارع الهرم. وعندها خرج الطبيب من السيارة إلى مستشفاه وهي إلى بيتها لتسجل أحداث هذه المغامرة ثم تأخذ في الحديث مع شادية والتواعد معها على زيارة بعض النوادي الليلية في الوقت نفسه والساعة التي ضربت فيها موعدها مع الطبيب.

وفي مساء يوم الموعد ذاته كانت ميرفت وشادية في النادي الليلي على مائدة أخرى بعيدة ترقبان تحركات الطبيب المشهور الذي تخلى عن وقاره وجاء ليمضي الليل مع أنثى غريبة وكيف كانت فتيات المربع يحمن حوله لمشاركته مائدته فيرفض في إصرار، وبعد أن مر ما يزيد على الساعة قامت الاثنتان إلى أقرب تلفون وطلبتا تلفون المربع، وأعطت ميرفت اسم الطبيب للعاملة، الذي جاء على الفور ليستمع إلى صوتها عبر أسلاكه وهي تعتذر عن الحضور لظرف قاهر.

وبعد كلمات طويلة بينها وبين الطبيب، أصر الأخير على موعد ثانٍ تضربه هي عن طريق محادثة أخرى.

وفي هذه المرة تجرأ الطبيب وأعطاها رقم تلفون بيته الذي لم يشأ أن يعطيها إياه في المرة الأولى.

وعندئذ ضحكت ميرفت من أعماق قلبها على هذا الإنسان الذي لم تستطع علوم الدنيا أن تحد من رغباته ونزعاته في امتلاك الأنثى التي يريدها وبأية طريقة.

وبعد ساعة من الزمن أدارت ميرفت قرص التلفون ليجيء هو وكأنه معها على موعد، فقد كان الرقم الذي طلبته هو رقم تلفون بيته، وسألته في جدية عن

المريض، هل أجرى له العملية أم لا.

وجاء جوابه هذه المرة مطمئناً، فالعملية التي أجراها نجحت ولله الحمد وعزا كل ذلك إلى وجهها الطيب الذي أعطاه القوة لأن يقوم بها على خير وجه.

وحاول الطبيب أن يطيل حديثه مع ميرفت، لكن هذه قطعت عليه محاولته تلك، واستأذنت في إنهاء المكالمة على أمل اللقاء فيما بعد وملء قلبها إحساس بالراحة، فقد استطاعت أن تضيف إلى مجموعة معارفها رجلاً من نوع جديد شارك العلم في بناء شخصيته كطبيب، لكن شخصيته كرجل تظل على ما هي عليه، ضعيفة أمام الأنثى أي أنثى.

وأخذت ميرفت تتندر بينها وبين شادية بضعف الرجل أي رجل أمام جمال المرأة، لكن شادية كانت تخالفها رأيها وتقول في عصبية:

- لا، إنهم يمثلون هذا الموقف لحاجة في نفس يعقوب، وعندما تتحقق أحلامهم وينالون غاياتهم ينسون كل شيء ويتذكرون شيئاً واحداً هو أنهم استطاعوا أن يضيفوا إلى قائمة ضحاياهم ضحية جديدة.

الفصل التاسع

أعد المحامي سلطان أوراق القضية، قضية القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، والتي بلغت أوراقها أكثر من خمسمائة ورقة قرأها بعناية، ووضع شروحاته على أكثرها، وأعد مرافعته عن القاتل بعد دراسة مستفيضة لكتب الطب واستشارات كثيرة للدكتور عبد التواب.

لكن نقطة صغيرة في مرافعته الطويلة أمام المحكمة بقيت تحمل علامة استفهام، فهو لطول ممارسته لأمثال هذه القضايا يعتقد أن هناك خيطاً رفيعاً بين المرض الذي أصاب موكله وبين دوافع جريمة القتل التي ارتكبها، إذ ليس من المعقول أن يقدم رجل عاقل على قتل عشيقته لمجرد أنها عادت إلى زوجها نادمة. وأين؟ في بيتها وأمام أولادها وزوجها.

وأحس بشيء من الراحة، فالمحكمة وإن كانت قد أخذت بدفاعه الذي قدمه لها فأحالت القاتل إلى مستشفى الدكتور عبد التواب الذي رأى من واجبه أن يجري العملية له بأقرب فرصة بعد أن تأكد له بأنها أكثر من ضرورية، لكن المدعي العام وهو يوافق على مضض إجراء العملية للقاتل طالب بأن يحمل تقرير الطبيب تفاصيل الإصابة وتأثيراتها المختلفة، وهل جاءت قبل حادثة القتل أو بعدها.

وكان المحامي سلطان مشهوراً في مصر بأنه محامي الشيطان لقدرته وجرأته على تغيير المفاهيم، وإلباس الحق ثياب الباطل والعكس أيضاً، وهي قدرة تمثلت في تخصصه للدفاع في القضايا الإجرامية.

وكان تخصصه هذا هو السبب في زيادة دخله زيادة استطاع من

خلالها أن يحقق جميع أحلامه، فهو وإن كان من أولئك المحرومين الذين هيأت الظروف لهم الدخول للجامعة، لكن أيام دراسته مضت وهو في حالة قصوى من العوز والضنك والفاقة. ولقد اجتاز مراحل حياته التعليمية بتفوق، واشتهر بقدرته العجيبة على تملك ناصية الكلام والتلاعب بالألفاظ، وكان من أولئك الذين لا يتعبهم الحوار وإنما ينشط ذاكرتهم ويضيف إليها الكثير من الحيوية.

لقد ذهبت أيام العوز وأصبح من حقه أن يستمتع بالحياة التي يريدها، ومن أجل هذه الحياة التي يحبها تملك شقة جميلة في شارع أحمد حشمت بالزمالك، كانت بمثابة جارسونييرة يستقبل فيها صديقاته اللواتي كان يختارهن بعناية.

وكان سلطان المحامي كريم النفس يبذل من ماله الكثير لضحاياه، ويبخل بها على أسرته المكونة من إخوانه الثلاثة ووالدته العجوز، ويكتفي بمنحهم مع مطلع كل شهر مبلغاً ضئيلاً لا يسد احتياجاتهم، ولا يلبي طلباتهم.

وكانت أمه ريفية الأصل جاءت به إلى مدينة القاهرة من قرية «طوخ» بالقرب من المنصورة، وكان والده عامل بياض يجيد مهنته إجادة فائقة، ويوم لقي أبوه مصرعه من على السقالة التي كان يمتطيها في العمارة الجديدة كان يوم شؤم على أفراد العائلة التي فقدت عائلها وهي في أشد الحاجة إليه، ولقد سار إخوته الثلاثة على نفس طريق والده فمهدوا له السبيل لأن يصل رغم كل مظاهر الفاقة التي عاشوها إلى المكانة التي يحتلها.

وهو من خلال عمله هذا على صداقات كبيرة مع الكثير من المهنيين والعلماء والأطباء وغيرهم، وها هو اليوم يفكر في زيارة عابرة للطبيب عبد التواب يناقش معه أمر موكله المريض، وفي ممر المستشفى التقت عيناه بعيني ميرفت التي جاءت تزور الطبيب وتتعرف على الوظيفة التي عرضها عليها انسجاماً مع اللعبة التي اختارتها بسعادة.

وفي غرفة الطبيب التقى المحامي سلطان بميرفت التي شاء الطبيب أن يقدمها له في اقتضاب، وبعد طول مناقشة في موضوع المريض خرج سلطان من الغرفة وقد أجمع في نفسه على أمر ما.

عرفت ميرفت من الطبيب دقائق حياة المحامي سلطان، وضحكت في سرها وهي تستمع إلى تلك التفاصيل، فقد كان الطبيب على علم تام بدخائل نفسية المحامي، ومع هذا حاول أن يضيف إلى صورته القاتمة صورة أكبر حقيقية كمحاولة منه لأن يبعد ميرفت عن طريق صديقه، لكنها لم تكن في تلك اللحظة مع الطبيب في جميع تحذيراته، وإنما رأت فرصتها في إيقاع هذا الأخير في شرك حبائلها، وأجمعت أمرها هي الأخرى على أن تتعرف على هذا الرجل بعد أن أحست بينها وبين نفسها بأنه لا يزال في انتظارها خارج المستشفى. أما سلطان فقد كان في قمة سعادته، فها هي فريسة أخرى من نوع لم يتعوده في الطريق إليه.

وعند باب المستشفى الخارجي توقفت ميرفت متصنعة الدهشة عندا رأت سلطاناً يمشي متثاقل الخطى على رصيف الشارع. ومد المحامي يده محيياً ميرفت، لكن هذه تجاهلت اليد الممدودة وألقت بتحيتها إليه متسائلة:

ـ هل أنت في انتظار تاكسي؟

قال لها:

ـ نعم.

على الرغم من أن سيارته كانت تقف بجانب الرصيف في أبهج حلة.

ـ تعال، فسأوصلك إلى المكان الذي تريد.

ومضت في طريقها إلى سيارتها، أما سلطان فقد عقدت الدهشة لسانه فلم يستطع أن يتكلم، وأخذ مكانه إلى جانب ميرفت وظل صامتاً بعض الوقت، وعندما انحلت عقدة دهشته تساءل متطلعاً إلى الوجه الأبيض الجميل:

ـ لقد كانت مفاجأة بالنسبة لي فلم أكن أتصور أن من تكون على هذا المقدار من الجمال يمكن أن تعمل، وأي عمل، سائقة تاكسي. لقد اعتقدت عندما رأيتك أنك ابنة لواحد من كبار القوم في هذه المدينة، فملابسك وإشاراتك ولغتك المهذبة كلها إشارات تدل على عراقة منبتك.

وضحكت ميرفت وأجابت:

ـ قد يكون كل ما ذكرت صحيحاً، لكن ما المانع أن يفلس صاحب المال

وأن يحتاج صاحب المركز الرفيع، وأن يعمل صاحب المنبت العريق؟ لقد اخترت هذا العمل عن رضى بعد أن سدت في وجهي أبواب العمل وتعطلت أكثر من عام بعد وفاة والدي أكلنا فيها الأخضر واليابس، ولم يبق لي سوى هذا التاكسي وهذه الملابس التي أرتديها.

وقال سلطان:

ـ هل أنت راضية بهذا العمل الذي يعرضك لكثير من المضايقات؟

ـ لكنني أتوق لمعرفة كل هذه المضايقات وأتعرف عليها لأحصِّن نفسي ضدها، إنني يا سيدي فتاة من أسرة طيبة كانت ولم تزل وستظل أسيرة العمل من أجل لقمة العيش.

وقال سلطان:

ـ ولكن لماذا لا تتزوجين؟

وأجابت ميرفت:

ـ أتزوج من؟

قال:

ـ أنا مثلاً.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ أتقولها عن طيب خاطر أم إنها المناسبة هي التي أعطتك القوة لقولها لتكون المفتاح لأشياء أخرى تريدها في السر، لو كنت وجدت يا سيدي الزوج الذي يرضى بإعالتي وأسرتي المكونة من ثلاثة أشخاص وأم لما تأخرت.

وأحس سلطان بوقع كلماتها وكأنها تذكره بأسرته التي يضيِّق عليها فلا يمنحها من ماله إلاّ النزر اليسير.

وفي تلك اللحظة قالت ميرفت:

ـ إلى أين يريد سيدي أن أوصله؟ فعداد التاكسي كما ترى ترتفع أرقامه وأنا من أولئك الذين لا يريدون تكبيد زبائنهم نقوداً أكثر مما تحتاج مشاويرهم.

ـ لا عليك يا . . .

وصمت. قالت:

ـ اسمي سائقة التاكسي ولا أحب أن يناديني أحد بغير هذا الاسم.

ـ لكنه يا سيدتي صفة وليس اسماً، فأنا كما تعرفين اسمي سلطان، وهذه بطاقتي.

وناولها إياها فقرأت عليها عنوان مكتبه، وكان قريباً من المكان الذي وصلت إليه، فمضت إلى الشارع الذي يقع فيه المكتب وتوقفت عند مدخل العمارة.

لكن سلطاناً لم يرد أن يضيع الفرصة فقال مواصلاً حديثه:

ـ آمل أن ألقاك مرة أخرى فأنت من طينة تشدني إلى معرفة حقائقها.

لكن ميرفت قالت:

ـ لا عليك، سأختار الوقت المناسب لألبي دعوة اللقاء هذه، أما الآن فيدك على أجرة التاكسي.

ووضع سلطان يده في جيبه وأخرج بضعة جنيهات لم يعدها وإنما ألقى بها إلى جانب ميرفت ومضى إلى مدخل العمارة لا يلوي على شيء.

وفي المكتب أمر سلطان سكرتيره بأن لا يسمح لأحد بالدخول إليه، ومضى يفكر في أمر الفتاة التي قابلها.

إنها من نوع فريد، لكنها ليست بالسهولة التي يتصورها فيستطيع أن يضيفها إلى قائمة صديقاته. وفكر في التحدث مع الطبيب ليعرف منه أية معلومات جديدة عنها، لكنه فضَّل الانتظار للحظة المناسبة خوفاً من أن يبخل الطبيب عليه بما يريد من جهة، ورغبته في أن تقوم هي بالاتصال به.

الفصل العاشر

توافد المدعوون على شقة المطرب فؤاد في عمارة ليون بالزمالك الواحد تلو الآخر، وكانت القاعة الفسيحة التي تناثرت كراسيها هنا وهناك تستقبل في رحابة صدر الضيوف من الجنسين وابتسامة مشرقة على شفتي المضيف.

كانت الصالة قد أعدت بصورة تدل على حسن ذوق صاحبها في اختيار الإكسسوار بعناية مدهشة، ثريات الكهرباء الملونة تضفي على المكان جواً شاعرياً جميلاً.

كان المدعوون خليطاً عجيباً من أهل الفن وأصحاب الكفاءات العلمية، وكانت هناك امرأة نحاسية الوجه جميلة التقاطيع تتقن العربية قدمها المطرب محرم على أنها حفيدة للأمبراطور هيلاسلاسي.

أما ملابس المضيف فكانت مضرب المثل في الأناقة وكأنه اختارها لهذه المناسبة، تتدلى من عنقه حلية ذهبية كبيرة الحجم، تحمل صورة لجلالة الملك فيصل.

وكان آخر من وصل إلى مكان الحفل الصديقتان ميرفت وشادية اللتان فوجئتا برؤية الطبيب والمحامي بين المدعوين، لكن ميرفت لم تكترث للموقف وإنما حاولت ببراعة أن لا تظهر أية سابق معرفة لها بهما.

تطلع المحامي سلطان إلى الحلية الذهبية التي يتحلى بها المطرب وسأل في هدوء:

ـ لمن هذه الصورة؟

وأجاب المطرب في كلمات واثقة:

ـ لأعظم رجل جادت به الحياة في عهدنا الحاضر، لشهيد العروبة وفقيد الإسلام.

وصمت.

ـ أهي هدية منه إليك؟

ـ لا، وإنما هدية واحد من أحفاده أعطانيها ساعة ضيق، وها أنذا أحتفظ بها في عنقي دلالة على ما أكنه لهذا الرجل العظيم من حب وتقدير. لقد منح فيصل مصر الحب فبادلته حبه بأكبر حب، وأعطاه شعبه وشعب هذه البلاد التقدير ومنحه الكثير من الإكبار، فمواقفه العظيمة مع مصر لا تنسى، ألم تسمع ما قاله الرئيس السادات عن هذا الملك؟ قال عنه إنه «بطل العبور». لقد قطعت على نفسي عهداً أن لا أترك هذه الحلية تختار مكاناً غير هذا الصدر العامر بالإيمان بدينه وحب الرجال العظماء كفيصل وخالد.

ثم أخذ الحديث مجرى آخر.

وانتقل سلطان من مقعده إلى جانب ميرفت وقال:

ـ أرجو أن لا أكون مخطئاً يا سيدتي إذا قلت بأنني قد سعدت بلقاء هذا الوجه الجميل قبل هذه المرة.

لكن ميرفت أجابت:

ـ ربما، لكنني شخصياً لم أتشرف بلقائك قبل هذه المرة.

وصمتت، ثم مضت تثرثر مع جارتها النحاسية اللون.

أما الطبيب فقد كان صامتاً يفكر بينه وبين نفسه وهو يطالع وجه ميرفت عن بعد.

قد تكون ملامح الوجه الأبيض ملامح سائقة التاكسي ذاتها، وقوامها القوام ذاته وصوتها هو الصوت ذاته وابتسامتها هي الأخرى شبيهة بابتسامتها، لكن ليس معقولاً أن تكون هذه السيدة التي قدموها له على أنها ابنة أحد كبار الأثرياء هي نفسها صاحبة التاكسي.

غريب أمر هذه الدنيا، فهي على سعة رقعتها تجمع المتناقضات فيما

بينها، فهذه الأنثى التي يراها غنية وتلك تكدح وتكد وتشقى لتنال لقمة العيش.

وفي تلك اللحظة وفد على المكان رجل جاوز الأربعين من العمر ترافقه فتاة أمريكية تتحدث بلكنة تكساسية، قدمه صاحب البيت على أنه من كبار تجار الخليج، وانضم الوافد إلى المجموعة التي أخذت تستمع إلى عزف منفرد على العود من أحد الفنانين، وأخذت أجساد النسوة يدب فيها النشاط لدرجة قامت بعدها إحداهن لتشارك الفنان العزف بجسدها في إثارة وفتنة.

أما ميرفت فقد كانت بجانب شادية تتسامران الحديث حول الهدف الذي ترمي إليه ميرفت من انتحال شخصيتها الجديدة، وكانت ميرفت تطمئن صديقتها على أن العمل الجديد الذي اختارته يوفر لها الكثير من هدوء البال والراحة ويدفع عنها السأم.

لقد بدأت تشعر بقيمة الحياة من حولها وأصبحت جد سعيدة لقدرتها على الغوص في النفوس البشرية التي تجاورها الجلوس على مقعد التاكسي في رحلات الصباح.

أما الليل فليكن صورة جديدة من الماضي. لقد جمعتها الظروف بزبائنها ورأتهم هنا وهناك واستطاعت أن تعرف هؤلاء الناس على حقيقتهم.

قد يحرص بعضهم على إخفاء حقيقة دخائل نفسه، لكنها تستطيع بتجربتها هذه أن تعرفهم مجردين من ثيابهم وأناقاتهم وألفاظهم المعسولة ومجاملاتهم التي لا تنتهي.

إن هذا الطبيب وذلك المحامي يملكان مقومات كثيرة للعيش في الحياة بهدوء، ولكن مع كل هذه المقومات ففي باطن كل واحد منهما نفس غاصة بمشكلات كثيرة لا حد لها.

وأفاقت ميرفت على صوت الفتاة النحاسية الوجه وهي تطلب من شادية أن ترقص للضيوف، لكن الأخيرة اعتذرت في رقة، فأخذت سمراؤنا الجميلة مكانها على الحلبة وكأنها في امتحان عسير أمام راقصة مصر الأولى.

لكن شادية أعجبت كثيراً بأداء الفتاة لرقصتها وصفقت لها كثيراً، وبعد أن جلست ماري إلى جانبها قالت لها شادية:

ـ لماذا لا تحترفين الرقص ما دمت تجيدينه بهذا الشكل؟

لكن ماري لم تقل شيئاً وإنما ضحكت من أعماقها وقالت:

ـ ليتني أستطيع ذلك، لكن ظروفي كما تعرفين لا تسمح لي بمثل ذلك.

أما المحامي سلطان فقد شاقه أن ينضم إلى ميرفت وشادية وماري فمضى يعرض خدماته على الجميع فيقدم لهذه ولتلك شيئاً من محتويات المائدة التي جمعت بعض صنوف المكسرات، ويرجو في أعماقه أن تهيأ له الفرصة فيختلي بميرفت ليحدثها حديثاً طويلاً عن شبيهتها سائقة التاكسي، لكن ميرفت لم تترك له المجال وإنما انصرفت إلى جانب الطبيب تسامره وتحادثه.

بدا لها الطبيب في تلك الجلسة نفس الرجل الذي كان معها في صالة «جروبي»، فلقد اختار أن يفضي بدخيلة نفسه وحياته وأسرته وعمله إليها دون أي سؤال وكأنه يستمد من إفضائه لأسراره القوة على العيش مع زوجته الإنجليزية.

وانفض سامر القوم على لقاء جديد في مكان آخر دعا إليه سلطان هذه المرة.

لكن الضيف الخليجي لم يترك الفرصة وإنما دعاهم جميعاً إلى قصره في الهرم ليلة غد وألح في دعوته.

وخرجت ميرفت وصديقتها تفكران في الدعوة التي قدمت لهما.

وفي الصباح أخذت ميرفت طريقها في شوارع القاهرة تجوبها في تاكسيها المفضل، تلتقط الزبائن لتوصلهم في هدوء، حتى إذا ما ركب معها أحد مشائخ الأزهر بسمل وحوقل واستعاذ بالله من هذه المرأة التي تعمل عمل الرجل، وطلب في حزم أن تقف به في أقرب مكان، فهو لا يطيق أن يظل في مكان واحد مع الشيطان نفسه.

وضحكت ميرفت من قلبها هذه المرة، وأخذت تفكر في صمت، قد يكون هو الوحيد الذي يرفض الركوب في تاكسي مع امرأة، ولكن لماذا؟

وعندما أجهدت فكرها في الأسباب عزت كل ذلك إلى إيمان الرجل وتمسكه بتعاليم دينه التي لا ترضى إذلال المرأة. أوليست مثل هذه الأعمال

الشاقة إذلالاً لأنوثة المرأة؟

لكن ليت هذا الشيخ كان معنا في إحدى السهرات الصاخبة، ترى هل يبقى على مبدئه أم ينحرف عن جادة الصواب؟

وفي طريق عودتها إلى القصر أوقفها شاب وفتاة في مقتبل العمر، وركبا سيارة التاكسي دون أن ينظرا إلى السائق أو السائقة، لكن الشاب استطاع أن يتعرف إلى السائقة قبل الفتاة، فأسرها في نفسه وأخذ يتفرس في وجهها من خلال المرآة الصغيرة ويقارن بينها وبين أنثاه، وعندما أحست الفتاة بكل تلك النظرات دهشت في البداية، لكنها رأت أن تجاذب ميرفت أطراف الحديث فقالت:

ـ أوتعتقدين أن مثل هذا العمل يصلح لمثلي أيتها السيدة؟

قالت:

ـ لا، لكنه يصلح لمثلي أنا، فأنا في حاجة إلى الكسب الحلال وهذه هي طريقتي إليه. أما أنت فيغنيك هذا الجالس بجوارك.

وأشارت إلى الشاب الذي ضحك عندما سمع كلمتها تلك وقال:

ـ لا تغرنك المظاهر، فالفتاة أختي وليست خطيبتي.

الفصل الحادي عشر

استمدت شادية من علاقتها بفريد قوة جديدة منحتها الكثير من الهدوء وراحة البال.

وكان فريد من الشباب الذين يملكون بالإضافة إلى ثقافته قوة وقدرة على السيطرة بالإقناع والروية، وقد أعطاه حبه لشادية إيماناً أكبر بدوره في تعريف الفتاة بمواطن الضعف والقوة في حياتها التي تمارسها.

ومضى حبل الود بين الاثنين يضفي في كل يوم إحساساً لدى الآخر على أنه وجد نصفه الذي كان يبحث عنه.

وكان فريد قد تسلم عمله في معهد الأبحاث، فأعطاه هذا المعهد قوة جديدة وانتشر اسمه على لسان العامة والخاصة بما يقدمه من بحوث ودراسات في مجال اختصاصه.

وفي هذه الفترة حاول فريد أن يصنع شيئاً لأسرته ووالده بالذات، ففاتح أباه في هذا الأمر وطالبه بأن يرتاح، لكن الرجل العجوز ضحك في هدوء وأجاب في ثقة:

ـ لا يا بني، سأظل دائماً في مكاني حتى يختارني الله.

أما فتحية فقد انتقلت من الفيوم وأقامت مع أخيها في بيته الأنيق وأضحت تمضي يومها في برنامج تثقيفي وضع جميع خطوطه فريد ونفذته هي بكل دقة.

كانت تعرف صلة فريد بشادية فلم تستنكرها لأنها تحب هذا الأخ وتقدره وتحترم أفكاره.

ولطالما التقت بها وبه، وفكرت بينها وبين نفسها في ظروف هذه الإنسانة التعسة التي مرت بها، فتحمد الله على أنها هي لم تمر بنفس الظروف، فهي تعرف قسوة الحياة وكيف تدفع الإنسان إلى صنع أي شيء حتى ذلك الشيء الذي لا يرضاه، ومع هذا تظل دائماً شادية في طلعتها المشرقة وابتسامتها الصافية.

ولقد استطاع فريد أن يكسب شادية إلى جانب أفكاره فيغير الكثير من نظرتها إلى الحياة ويصنع منها أنثى مغايرة للأنثى السابقة.

حتى ملابس الرقص أصبحت بالنسبة لها أكثر حشمة وملاءمة لروح العصر الذي ينظر إلى اللوحات التي تقدمها الراقصة بدلاً من الإثارة الجسدية.

وكتب المعلقون في الصحف الفنية عن الظاهرة الجديدة التي أضافتها شادية إلى الرقص المصري في إعجاب. وأخذت الأخريات تقلدنها فيما تفعل، وكان فريد يرقب هذا التحول في حياة شادية في صبر، فلقد علَّمته حياته الصبر دائماً.

وأخذت شادية تدقق في اختيار أصدقائها وصديقاتها، فلا تبقي على صداقتها مع أحد لا يرضى عنه فريد، وكانت في كل هذا مدفوعة بفطرتها كأنثى تحاول أن تحافظ على وليفها وبكافة الوسائل.

وفي ذات ليلة مضت شادية تحادث فريد عن اللعبة التي تمارسها صديقتها ميرفت، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يعلم فيها فريد بقصة التاكسي.

لكنه لم يستغرب فهو يعرف ميرفت واندفاعها وتفكيرها، وقال في هدوء:

ـ دعيها، قد تمل اللعبة وقد تستمرئها، ومع هذا فهي كما تقولين ستستفيد من هذا العمل أشياء كثيرة أولها قتل هذا الفراغ الذي تعيشه.

أما ميرفت فكانت جد راضية عن علاقة فريد بشادية، وكانت دائماً تقول لصديقتها:

ـ إنه رائع فحاولي أن تحتفظي به ولا تفرطي.

صدقيني عندما أقول لك بأنني أتوق لمعرفة أمثاله من الشباب الجاد، لكنك سبقتني عليه فهنيئاً لك.

وكانت شادية تستمع إلى كلمات ميرفت هذه فتحس بأنها صادرة من قلب مفعم بحبها لها والتقدير لصداقتها، لأنها تعرف أن ميرفت لن تكون في يوم من الأيام غريمتها في صداقتها أو حتى في حبها لفريد.

هكذا كان تقديرها لكلمات ميرفت، وهي سعيدة بسماع كل هذه الكلمات، ولهذا فهي تأمل أن تصل ميرفت إلى الاستقرار النفسي والهناء العاطفي كما وصلت.

لقد ضاعف من سرورها قدرتها على استيعاب مشاكل الحياة بروح جديدة، فلقد قوي الحب في أعماق نفسها وأمدها بقوة دافقة تجعلها تبحث دائماً عن الأحسن بالنسبة لعملها وحياتها.

وأصبحت تدقق في اختيار أفلامها وتقرأ ما يقدم لها من سيناريوهات، وترفض ما تراه لا يناسب شخصيتها الجديدة.

وكان فريد يساعدها في تطورها هذا ويسهم باستمرار في منحها القدرة على العطاء.

وأصبح المخرجون ينظرون إلى شادية نظرة تقدير وإكبار، لا سيما بعد أن استطاعت إشاعة الاحترام حول نفسها وما تقوم به من عمل، وكانت صلتها بميرفت تزداد عمقاً، ومع هذا فلقد حاولت كثيراً أن تثني عزم هذه الأخيرة عن الاستمرار في لعبتها، لكن ميرفت لم توافق على إنهاء اللعبة اعتماداً على أنه سيأتي اليوم الذي تصل فيه إلى حد الاكتفاء من التعرف لدخائل الناس.

كانت مشوقة لمعرفة نماذج بشرية جديدة تستمد منها العون على إزجاء الفراغ الهائل في حياتها.

ولقد أسرت لصديقتها برفيقة اليوم الجديدة التي اختارت تاكسيها من شارع فؤاد الأول.

كانت نموذجاً غريباً عن المرأة المصرية، فهي إلى جانب أنها رائعة الجمال دمثة الأخلاق تتحدث في هدوء وثقة، إلا أن نظراتها كانت تتلصص على الأماكن الخفية في جسد ميرفت.

ولقد كاشفتها المرأة برغبتها الآثمة بنفس الكلمات الهادئة وكأنها تنهي إلى

زميلة من زميلاتها خبراً محبباً إلى نفسها، قالت لها:

- خسارة أن تكوني على هذا المقدار من الجمال ثم تنغمسين في مثل هذا العمل الشاق. أدرك جيداً أن الحياة وظروفها الشاقة هي التي تدعوك لمثل هذا العمل، ولكنك امرأة وامرأة جميلة، وهذا في نظري كافٍ لأن تصلي إلى ما تريدين.

إنك لو مضيت معي إلى البيت الآن لجلوت عن نفسك هذه الكآبة بأسلوبي وأعطيتك أكثر مما تكسبين في شهور، ألم تسمعي عن أقدم مهنة استخدمتها المرأة في التاريخ؟

إن النساء يا صديقتي حتى بعض المتزوجات يعمدن إلى هذا النوع من العمل للترفيه عن أنفسهن من جهة واكتساب المال وصداقة الرجال والنساء من جهة أخرى.

فأنا امرأة مهنتي التوفيق بين رأسين بجميع الوسائل، وعن طريق هذا التوفيق أكسب الكثير.

أوتدرين يا شادية ما هو ردي عليها؟ لقد قلت لها:

- صدقيني إنني أشفق عليك ومن كل قلبي، فامرأة مثلك ما كان لها أن تتفوه بمثل هذه العبارة لفتاة مثلي، لكن انغماسك يا سيدتي في الرذيلة واستسهالك لها هي التي حدت بك لأن تقولي ما تقولينه.

كم من الفتيات أوقعت بهن في شراكك بكلامك المعسول، وكم من الضحايا دفعت بهن إلى طريق الخطيئة.

ومع هذا تمضين في طريقك غير عابئة بإثم أو واعز من ضمير.

لكن المرأة لم تقنع بكلامي وإنما تركت التاكسي بعد أن دفعت الأجرة وهي تقول:

- لا بأس، ستظلين هكذا دائماً تكدين وتشقين، أما فتياتي فمن طينة غير طينتك.

وشيعتها بنظرة أحست المرأة بها كسياط من نار تلهب ظهرها العاري وهي في طريقها إلى بيتها، وانصبت لعناتي على رأسها ومثيلاتها من مفسدي البنات في هذا الوطن الذي يحتاج إلى ترسيخ مفاهيم مكارم الأخلاق.

الفصل الثاني عشر

انحدرت دمعة ساخنة على خد المرأة العجوز التي كانت تقف على (الكوانتر) تبيع ملابس الأطفال في مبنى «شيكوريل» عندما صافحت عيناها وجه تلك الطفلة الصغيرة التي جاءت مع والدتها لشراء بعض حاجات المدرسة.

كانت الطفلة صورة صادقة لابنتها الوحيدة التي قضت نحبها رفق والدها في سيارة أجرة وهما في طريقهما إلى «الموسكي» لاقتناء هدية مناسبة لزفاف أختها.

وهي تشعر في تلك اللحظة بآلام مبرحة تعاود صدرها الكليل عندما تلتقط أذناها كلمات الطفلة، لكنها حاولت مع كل هذا أن تكتم أحزانها وتلتفت إلى الرجل الأسمر المكتنز الوجه، وقد التف في بدلة حاكتها أشهر دور الأزياء في باريس، ويعتمر قلنسوة تخفي صلعته التي كان يحرص على أن لا يراها غيره، وبجانبه سيدة أمريكية تبدو عليها سمات الرجولة في حديثها وتصرفاتها، واختار الرجل أشياء كثيرة دون انتقاء تساعده في ذلك المرأة الأمريكية، ومضى إلى الصندوق يودعه قيمة ما اشتراه، ثم عاد ليلقي في يد العجوز بأول عشر جنيهات مصرية تأخذها كبقشيش، فهي لم تتعود طوال عمرها الطويل في هذا العمل أن تتلقى بقشيشاً من أحد. وشكرت الظروف التي ساقت الرجل والمرأة إليها، فهي اليوم أحوج ما تكون إلى هذه الجنيهات القليلة من أي وقت مضى.

كان الرجل من كبار تجار الخليج الذين لهم صلات قوية مع الشركات الكبرى في أمريكا، وكانت المرأة واحدة من أصحاب

كبريات شركات بناء السفن في نيويورك جاءت إلى القاهرة رفق صديقها التاجر لعقد صفقة مع إحدى شركات القطاع العام في مصر. وقد حاول صديقها أن يريها أثناء تواجدها في القاهرة حياة الليل في هذه المدينة العجيبة التي تكتظ بملايين السكان المتعددي الألوان والطبقات.

ولقد أعجبت سوزي بحياة الترف التي يعيشها الفنانون في هذه البلاد، وارتبطت بالعديد من الصداقات مع أكثرهم، وأعجبت أكثر بالجيل الجديد منهم، ونالت بوسي الممثلة الصاعدة إعجابها بشكل خاص، فهي على الرغم من شهرتها وثقافتها إلا أنها تبدو في بيتها وأمام زوجها مجرد امرأة عربية تبذل الكثير لإسعاد هذا الزوج.

أخذ الرجل وصديقته طريقهما إلى الباب الخارجي لشيكوريل ومضيا يبحثان عن سيارتهما التي تركاها قريباً من الموقع، لكن بوليس المرور السيار كان قد أبعد السيارة عن مكانها المتوقع تواجدها فيه، وعلى هذا اضطر الاثنان لركوب أول تاكسي تقع عليه عيونهما.

وكان من حظ ميرفت أن يستقل الرجل وزميلته سيارتها، لكن الرجل لم ينتظر دخول زميلته إلى التاكسي حتى أخذ يتكلم مع ميرفت مزيلاً الكلفة بينهما متسائلاً:

ـ لقد انتظرناك كثيراً يا سيدة ميرفت أنت وشادية لحضور حفلتي المتواضعة، لكنكما لم تحضرا ولم تعتذرا أيضاً، ولا أدري إذا كانت هذه هي الطريقة التي تعامل بها فتيات مصر ضيوفهن.

وأجابت ميرفت في هدوء:

ـ لكن صدقني فأنا لا أعرفك ولا أذكر أنني التقيت بك، كما أن اسمي ليس بميرفت، ولا توجد لديّ صديقة اسمها شادية، أنت غلطان يا سيدي.

ـ لا.

قالها الرجل في اعتداد وأخذ مكانه بجانب زميلته وألقى بعنوانه:

ـ ألم نلتق في حفل المطرب محرم فؤاد؟

وهزت ميرفت رأسها نفياً، وقالت:

ـ وأنى لفتاة عاملة مثلي أن ترتاد مثل تلك الحفلات؟

ـ لكنك يا فتاتي تشبهين من أعنيها كل الشبه.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً. لقد شوقتني يا سيدي إلى رؤيتها، ومع هذا أحب أن أطمئنك فأنت لم تكن الوحيد الذي قال لي هذا القول. إنني أغبطها تلك المرأة فهي قادرة على وضع بصماتها في عقل أي رجل يراها، ومع هذا فلا أحقد عليها بل أتمنى لقاءها فقد نصبح صديقتين رغم شكي في ذلك، لأن من تصف ويصفها غيرك لي من طينة غير طينتي.

وأجاب الرجل:

ـ ولكني قادر على رفعك إلى أعلى من طبقتها لو أردت. فأنا رجل غني أعطتني الحياة ما أصبو، وتوافر لديّ من المال الكثير، لم أرث ذلك من أب أو أم أو جد، وإنما اكتسبته بطريقتي، فلقد ولدت في أسرة فقيرة على أرض فقيرة هيىء لها من أسباب النعمة الكثير، وهيىء لي أنا الآخر الكثير أيضاً.

وقالت ميرفت:

ـ لقد سمعت مثل هذا الكلام من الكثيرين، وكنت لا أحاول مطلقاً التفكير فيه لأنه كلام أقل ما يقال فيه أنه (لقطع الطريق)، ومع هذا فإنني أحب أن أسألك، ما هي الطريقة التي ستسلكها لإيصالي إلى طبقة ميرفت هذه؟

وهز رأسه قليلاً وقال:

ـ بالزواج.

فأجابت ميرفت:

ـ وهذه الأمريكية أليست هي زوجتك؟

قال:

ـ لا، ولكنها شريكة عمل جاءت معي لتوقيع عقد صفقة، وها أنذا أجد في طريقي صفقة أفضل.

ـ لكني لا أرغب في الزواج يا سيدي.

ـ إذن نستطيع أن نتفق على أن نكون أصدقاء، سأشتري لك هذا التاكسي وعشرات مثله، ونكون أنا وأنت شركاء في الربح، نقتسمه سوياً.

وصمت.

ـ وغير ذلك يا سيدي؟

ـ أنت تعرفين ما أعنيه وإن كنت لا أريد أن أقوله علناً، فالتي لا تريد الزواج لا ترفض الصداقة، خصوصاً إذا كان لهذه الصداقة ثمن معقول يدفع مسبقاً.

يقولون إن تجارة التاكسي في مصر رائجة، وأنا رجل لا أستقر في مكان، إنني إذا استطعت أن أعقد بيني وبينك هذا الاتفاق تسنى لي أن أتفرج على القاهرة في أي وقت وألقاك أنت الأخرى في أي وقت.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ لكنني لا أحب المشاركة، ولهذا عندما رفضت فكرة الزواج منك كنت أعرف أنني سأكون شريكة لغيري في قلبك، هذا هو مبدئي.

وأجاب الرجل:

ـ لا ضرورة للمشاركة، سأشتري لك هذا التاكسي وأربعة من أمثاله ليكون هديتي وعربون صداقتي لك، فهل ترفضين؟

قالت ميرفت:

ـ نعم، فأنا أرفض أي هدية مغرضة.

والتفتت الأمريكية إلى الرجل متسائلة عن معاني الحديث فأخذ يترجم لها حواره مع هذه الأنثى في عبارات إنجليزية متماسكة وبدون أي تحريف، وعندها ضحكت المرأة والتفتت إليها قائلة:

ـ لطالما سمعت أن الفتيات هنا يبعن أنفسهن لأول عابر طريق، لكنني بعد أن استمعت إلى حديثك بدأت أشك في هذا، وأثق بأن كل ما يقال يجب أن لا أصدقه. إنك يا فتاتي امرأة صلبة قوية الشكيمة، ستصلين يوماً ما لأن تكوني رئيسة مجلس إدارة لأكبر الشركات. المهم هو أن تسيري في طريقك على القيم ذاتها التي تؤمنين بها.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ كثيرات مثلي. لكن السائح عندما يأتي إلى أي بلد غريب عنه يلتقي

بفتات الناس ويرى قشور الحياة فيحكم من خلال ما يرى على حقيقة الشعب، ويكون بهذا الحكم قد قسى على نفسه وعلى شعب البلد الذي يستضيفه.

كثيرات يا سيدتي يفضلنني في تفكيري ويسرن في طريق بناء البلاد بأسلوبهن لا تغيرهن ظروف سائح ولا مال قارون.

وعندما وصلت السيارة إلى فندق الماردیان ترجل الرجل والسيدة الأمريكية التي قالت بعد خروجها من التاكسي لميرفت:

ـ صدقيني لقد أحببتك فإذا كانت لديك فسحة من الوقت فأنا سعيدة لأدعوك لتناول فنجان من الشاي أو القهوة في هذا الفندق في الوقت الذي يناسبك.

لكن ميرفت شكرت المرأة وودعتها ومضت في طريقها إلى القصر لا تلوي على شيء.

الفصل الثالث عشر

نشرت أكثر الصحف والمجلات العلمية تفاصيل الاكتشاف العلمي الجديد الذي توصل إليه الطبيب عبد التواب حول جراحة المخ والطريقة التي استحدثها في استئصال الورم من الأجزاء الدقيقة في هذا الجهاز الإنساني العجيب، وأسهبت وسائل الإعلام في الإشادة بدور العالم المصري، أفردت بعض صفحاتها للحديث عن حياته وأسرته ونشأته العلمية، واستطاعت جريدة «أخبار اليوم» أن تستحوذ بأسلوبها الصحفي المميز على نشر تحقيق صحفي مصور حاول من خلاله المحرر أن يضفي شيئاً جديداً عن حياة هذا العالم.

وأحست ميرفت عند قراءة هذا التحقيق بشيء من الراحة وهدوء البال، فعلى الرغم من أن ما نشر في مجموعة يمثل الحقيقة الخاصة بهذا الاكتشاف العلمي، لكن ذكاء المحرر وفطنته استطاعت أن تتغلغل في داخل أعماق الطبيب وتستنبط من أعماقها حقيقة الحب الكبير الذي يغلف حياته للأنثى التي لا يعرفها والتي استطاعت أن تعطيه القوة لأن يعيد النظر في أبحاثه ويصل إلى هذه النتيجة.

وجاءت تعابير الطبيب وكلماته مع المحرر صادقة واضحة دون أي لبس أو غموض.

ورأت ميرفت من واجبها أن تهنىء الطبيب على اكتشافه العلمي فأدارت رقم التلفون حتى إذا ما لامس أذنيها صوته ألقت بكلماتها القليلة في بساطة.

وتلقف الطبيب الكلمات ليقول في لهفة:

ـ أين أنت يا سيدتي؟ لقد كان لك الفضل الأول عليّ، فلولا

معرفتي بك لما فكرت في إنجاز مثل هذا العمل.

إن الروتين الذي يغلف حياتي جعلني أفقد القدرة على الإبداع، ويوم رأيتك وجدت من الأفضل لي أن أعود إلى أبحاثي مرة ثانية علَّها تثمر فتعودين إليّ.

كثيراً ما تكون لحظات السعادة القصيرة أكثر حسماً في حياة الإنسان، وأنا اليوم في حاجة للقائك.

وأجابت ميرفت:

ـ قد تكون ظروف الحياة هي التي حالت بيني وبين أن أتصل بك، فأنا كما ذكرت لك إنسانة بسيطة خلقت لحياة مغايرة لحياتك، ولهذا شئت أن أتوارى بين جدران النسيان بالنسبة لك، ولكني عندما قرأت ما قرأت رأيت من واجبي أن أحادثك وأهنئك، فأنت واحد من كبار علماء بلادي الذين أعتز بهم وآمل أن أراهم وقد كثر عددهم.

وأردفت ميرفت قائلة:

ـ سأحاول يا سيدي أن أراك سأحاول.

وصمتت، ولكن صوت الطبيب جاء إليها في هذه المرة وكله ضراعة لأن تعطيه الفرصة للقاء عابر في أي مكان ترغب، لكن ميرفت لم تشأ أن ترد وإنما أعادت سماعة التلفون إلى مكانها في هدوء.

ومضت في طريقها إلى خارج القصر في مشوارها اليومي تجوب شوارع القاهرة في تاكسيها الصغير، تتطلع إلى الناس في سعادة، حتى إذا ما جاءت عيناها على عيني المحامي سلطان الذي كان يسير على رصيف شارع المبتديان رفعت يدها بالتحية، وأخذت طريقها إلى السيدة زينب وملء أسماعها صوت سلطان ينادي تاكسي تاكسي. لكنها لم تجب هذه المرة.

وأخذت تحادث نفسها وتقول:

ـ عجيب أمر هؤلاء السادة، جلهم يبحث عن المتعة وكأنه يريد أن يقتنصها اقتناصاً. إنهم يضعون الشراك دائماً أمام المرأة ويعتقدون بأن في مقدورهم اصطيادها وإيقاعها في حبائلهم، وينسون أن المرأة أقدر على تمثيل دور الفريسة دائماً من الرجل. لقد ذهب الزمان الذي كانت تعتبر فيه المرأة فريسة

لصياد أو حتى فريسة لرجل، وأصبح على الرجال أن يعوا هذه الحقيقة ويعرفوها جيداً ويغيروا من أساليبهم التي لا يزالوا يتمسكون بها.

لقد أعطت الحياة القوة للمرأة ومنحتها الصبر وساعدتها الطبيعة على أن تكون أقدر بكثير من الرجل في تحمل مشاكل الحياة اليومية رغم ضعفها الظاهر وقدرتها المحدودة.

هكذا يتصوروننا، لكن المرأة شيء آخر، إن دورها الكبير في هذه الحياة دور إنساني، فهي التي أعطت هذا العالم البقاء وميزته بالاستمرارية.

إن عطاءها اليومي خالد في أذهان الدنيا تتناقل أخباره الكتب وبطون الصحف، ومع هذا يحاول الرجال ممارسة لعبتهم بغباء، حتى أولئك الذين ساعدتهم ظروفهم لأن يصلوا إلى أرقى مستويات العلم.

لكنهم ينسون هذا العلم فلا يتذكرون شيئاً مما درسوه ويعودون إلى طبيعتهم كرجال الغابة يبحثون عن التسلية عند حواء وبكافة السبل والوسائل.

إن الشراك التي تنصب كل ليلة في الطريق، في الحفلات وفي كل مكان للمرأة هي شراك مهترئة لا يمكن أن تقيد من تحركاتها إن لم ترد هي نفسها هذا القيد وتسعى من أجله.

وعند هذا الحد من التفكير استيقظ إحساس ميرفت بعد أن ناداها أحدهم طالباً منها أن تقف، وعندما وقفت أخذ الرجل المسن طريقه إلى التاكسي راجياً من صاحبته أن تأخذه إلى «روض الفرج» حيث يقطن.

واستمتعت ميرفت بحديث الرجل المسن الذي كان يقطر عذوبة وإيناساً، فلقد بدأ حديثه معها متأسفاً على الشباب الذي مضى عندما كان الواحد من أبناء جيله يرى في المرأة نوعاً آخر غير ما يراه هذا الجيل الحاضر. ومضى الرجل في حديثه يعدد أساليب الحياة في عصره الذهبي، ويذكر كيف كانت المرأة آنذاك زهرة فواحة يخاف عليها ويعمل على راحتها الجميع. إنهم ينظرون إليها كأخت وابنة وأم وزوجة، ومن خلال هذه النظرة ينظرون إلى سائر النساء سواء كن أحد أفراد عائلاتهم أو جيرانهم أو غير ذلك.

وتابع:

ـ إن الاحترام المتبادل كان هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة، وكانوا

يعتبرون من يرتكب الخطيئة إنساناً منبوذاً يجب أن يشطب اسمه من قائمة الرجال، هكذا كانوا يعاملون المرأة فلا يرهقونها بعمل شاق كعملك يا سيدتي.

وأكمل الرجل حديثه قائلاً:

- لا عليك يا سيدتي، فقد أكون قد أثقلت كثيراً عليك بحديثي فلا تؤاخذي مخرفاً مثلي. لقد عشت في هذا الشارع «روض الفرج» أجمل أيام حياتي ومارست التمثيل على خشبات مسارحه، ومع هذا فأنا كما ترين مجهول الاسم من أبناء هذا الجيل وهم على حق، لقد شغلتهم ظروف حياتهم كما شغلتك عن الاحتفاظ بأسماء الكتّاب والأدباء وكبار الفنانين الذين أرسوا دعائم النهضة الفنية في هذه البلاد.

إنني ألمس في وجهك استعداداً طيباً لأن تكوني واحدة من كبار الفنانات في مصر، لكنني لا أنصحك أن تمارسي هذا النوع من العمل لأسباب قد لا تجهلينها، كما لا أنصحك أيضاً الاستمرار في مهنتك التي تمارسينها، إنك كابنتي وأنا آمل أن تجدي الوليف الذي يسعدك فتستقرين معه في بيت يدفع عنك مشاكل الحياة وهمومها.

وخرج الرجل من السيارة إلى الطريق لا يلوي على شيء.

أما ميرفت فقد مضت في طريقها إلى القصر وكلمات الرجل المسن تطن في أذنيها بجميع معانيها المختلفة وقالت بينها وبين نفسها:

- لقد تطور المجتمع المصري كأي مجتمع في هذه الدنيا نتيجة اكتسابه لصفات أخرى اقتبسها من المجتمعات الأخرى، لكن هذا التطور كان على حساب أنوثة المرأة بلا شك.

إن هذا الجيش الجرار من الفتيات اللواتي يعملن بعيداً عن طبيعتهن الأنثوية يشكل في مجموعه أخطاراً محدقة بهذا النوع من البشر، ولو أننا عرفنا كيف نختار طريقنا نحو الحل المناسب لطبيعة المرأة لأمكن لهذه المرأة أن تشارك في رفاهية وتقدم البشر على هذه الأرض. فالرفاهية لا يمكن أن تأتي إلا من خلال استقرار النفوس وطمأنينتها.

الفصل الرابع عشر

استقر المقام بالسيدة جانيت مديرة شؤون «الكريستيان ديور» الفرنسية في غرفة واسعة من غرف فندق «شبرد» التي تطل على النيل والميدان في آنٍ، وكانت السيدة جانيت في طريقها لبلد عربي آخر مع مجموعة من أجمل فتيات الموديل في باريس.

واختارت السيدة جانيت هذا الفندق لأنها كانت من النوع الذي يتفاعل مع العمارة العربية وأساليبها الدقيقة.

كانت السيدة جانيت في الخامسة والثلاثين من العمر، امتازت بقوام طويل رائع ووجه لم تشارك الأصباغ في صنع نضارته وشبابه تطل منه عينان خضراوان واسعتان يخال من يراهما أنهما تحيطان به من جميع الجهات.

كانت عيناها أشبه بعيون المها الآسرة وجسدها جسد أنثى ساهمت الطبيعة في صنع مقاييسه في دقة.

وهي على الرغم من أنها زوجة وأم لطفلين، لكن أمومتها ساهمت في إضافة لمسات الحنان إلى الجمال الرائع، تتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة، وتعرف كيف ترضي أذواق زبائنها بكلماتها المعسولة.

أطلت الحسناء الفرنسية على الشارع الذي يفصل بين فندق «شبرد» وفندق «سميراميس» وتنهدت من كل قلبها وهي ترى معاول الهدم في الفندق القديم تعمل بلا كلل لبناء فندق آخر يستوعب الأعداد الكبيرة من السياح الوافدين إلى مصر. وتذكرت كيف أمضت خمس ليالٍ من ليالي شهر العسل هي وزوجها في هذا الفندق العتيق،

وتطلعت إلى السماء الصافية فشاهدت طيور السمان تمضي في رحلتها من الشمال إلى الجنوب على شكل مجموعات كبيرة بحثاً عن الرزق والحياة، وضحكت من أعماقها وتمثلت نفسها وفتياتها كهذه السمان، فهي أيضاً رغم وفرة العمل في بلادها وكثرة المال في يدها تتحمل أعباء السفر في رحلة إلى البلدان العربية تعرض خلالها بضاعتها على الناس فيها.

وكانت في جميع رحلاتها تتوق إلى ارتياد الأماكن المجهولة لديها وهي اليوم في طريقها إلى واحدة من هذه البلدان.

إنها في الطريق إلى المملكة العربية السعودية، فلقد سمعت الكثير عن هذه البلاد وأعجبت بالطريقة التي تعالج بها الدولة تعليم الفتاة فيها، وآمنت بأن دور المرأة في هذه البلاد سيكون مفيداً أكثر من أي دور لها في أي بلد آخر.

وعندها دق باب الغرفة لينفرج الباب عن صديقتها لورين التي طالبتها بالخروج في نزهة قصيرة حول النيل، ومضتا سوياً إلى المصعد في طريقهما إلى الصالة الكبرى التي قابلتا فيها صديقتهما الكاتبة الفرنسية «جنفياف» التي كانت تعد كتاباً عن العالم العربي، وتحدثتا معها طويلاً ثم مضى الجميع إلى سيارة التاكسي التي كانت تقف على مقربة من باب الفندق الكبير.

واستقل الجميع التاكسي الذي تقوده ميرفت في جولة سريعة حول مدينة القاهرة.

وأخذت جانيت أطراف الحديث مع السائقة الفاتنة فقالت:

ـ لم أكن أظن أنني سأجد في رحلتي هذه هذا المقدار من التطور في بلادكم، ففي رحلاتي السابقة لم تتهيأ لي الظروف أن أرى أية أنثى تقود تاكسي كما يجري حالياً في فرنسا أو أوروبا، ومع هذا فقد تعودنا أن نجد في فرنسا سائقات التاكسي بصورة مغايرة لصورتك الفاتنة.

يدهشني بالفعل أن تكون فتاة مثلك على هذه الدرجة الرائعة من الجمال والثقافة فأنت تتحدثين الفرنسية كواحدة من بناتها ومع هذا لا تجدين العمل المناسب.

إنك لو تأتين معي إلى باريس لكنت واحدة من أفضل بناتي اللواتي يعملن

في عرض الأزياء، إننا ندفع الكثير لمثيلاتك من الجميلات، وهذه المهنة يا صديقتي لا تتعب وإنما تساهم كثيراً في إسعاد صاحبتها بالتعرف إلى الناس والمجتمعات والبلدان، إن أكثر من ستين في المائة من بناتي اقترن بأشخاص من أصحاب المكانات الرفيعة في المجتمع، أما التي لا تريد الزواج...

وضحكت. ثم تابعت القول:

ـ ففرص المتعة أمامها لا تعد ولا تحصى. حرام يا صديقتي أن تدفن فتاة مثلك جمالها بعمل مزعج كهذا.

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ لا يغرنك الشكل، فأنا فتاة بسيطة التقطت أذناي الفرنسية عن طريق ممارستي لهذا العمل، وأخاف كثيراً أن أغيِّر طريقة عيشي.

لقد أثرت شهيتي إلى نوع جديد من الحياة أطمع فيه وأرجو أن تحقق لي الأيام شيئاً منه، وسأحاول أن أتصل بك في باريس إذا تفضلت وأعطيتني عنوانك.

ودفعت السيدة جانيت ببطاقتها إلى ميرفت التي تقبلتها شاكرة وقالت:

ـ سأعتز كثيراً بصداقتك وهذا هو اسمي ورقم تلفوني لم أعطه لأحد من زبائني، لكن أسلوبك وحديثك جعلني أغيِّر طريقتي، اسألي عني يا صديقتي وأنت في طريق العودة فقد أستطيع أن أقدم لك خدماتي.

وعند باب الفندق رفضت ميرفت بإباء ولأول مرة أن تتناول أجر التاكسي من السائحة الفاتنة وزميلتيها، وشدت جانيت على يد ميرفت شاكرة وعاودت الحديث قائلة:

ـ فكري في العرض الذي قدمته لك، فأنت يا صديقتي تحملين من الصفات الطيبة الكثير إلى جانب جمال وجهك الواضح وأناقتك المفرطة.

وضحكت، ومضى الجميع كل إلى طريقه.

أما ميرفت فقد راقتها كلمات الإطراء التي استمعت إليها من واحدة تعتبر خبيرة في صنوف الجمال، واقتادها التاكسي إلى بيت شادية دون أن تدري أو تشعر.

الفصل الخامس عشر

اختارت ميرفت في دخولها لدارة صديقتها شادية هذه المرة أسلوباً آخر غير ما تعودت عليه، وأخرجت سلسلة مفاتيحها الذهبية وأعملت أحدها في قفل الباب لينفرج في هدوء وتنسل هي الأخرى إلى غرفة شادية لتفاجئها وقد التفت في رداء أبيض تؤدي صلاة الظهر في إيمان عميق، حتى إذا ما انتهت من صلاتها التفتت إلى ميرفت ضاحكة وقالت:

ـ أنت دائماً هكذا تأتين في الوقت المناسب، فأنا في حاجة إليك.

وأجابت ميرفت:

ـ لا بأس، لكن ما يخامر خلدي الآن سؤال ملح، هو منذ متى وأنت تؤدين صلواتك؟

قالت شادية:

ـ منذ مدة طويلة، لقد علمني فريد الشيء الكثير. ولا تدهشي عندما أقول لك بأنني كنت تلميذة نشيطة تتعلم بسرعة، وأول ما تعلمت من هذه الكتب ـ وأشارت إلى مجموعة منها حول سريرها ـ أداء فريضة الصلاة التي لم أكن أفكر في يوم من الأيام في أدائها.

لقد أنارت لي هذه الكتب قلبي فأصبحت أكره مهنتي كرهاً عجيباً وأحاول دائماً أن أنأى بنفسي عن المحيط الذي أعيش فيه، وكان فريد دائم الابتسامة عندما يسمع قولي هذا، ويصر على أن أظل في هذه المهنة بعضاً من الوقت حتى تكثر معلوماتي ويزداد يقيني، إنه يعرف اليوم كل شيء عني وعن حقيقتي، لطالما بكيت أثناء الليل

على ما اقترفت يداي من آثام خلال سنوات حياتي الماضية وأتطلع اليوم إلى نوع آخر من الحياة.

ولكم أشعر بالسعادة وأنا في الطريق عندما أرى الكثير من فتيات مصر وقد أدرن ظهورهن للموضة ومضين في جلابيبهن الفضفاضة وغطاء رؤوسهن يسرن في الطريق سواء لتلقي العلم أو حتى العمل.

إن بلادنا يا ميرفت مقبلة على أشياء كثيرة وشبابها يقول إنه يبني دولة العلم والإيمان، ودولة العلم والإيمان لا يمكن أن تبنى بدون أن تكون لأفراد الشعب المقومات الأخلاقية التي أرادها الله لكل مسلم ومسلمة.

انظري إلى جدران هذه الغرفة، لقد نزعت جميع الصور التي كانت فيها والتي تصورني بأشكال وجلسات مختلفة لأضع بديلاً عنها هذه الآيات القرآنية التي تحث على الفضيلة.

وصمتت بعض الوقت وأردفت القول:

ـ لطالما كنت أفكر في دعوتك أنت الأخرى للتعرف على حقيقة ديننا الإسلامي وممارسة شعائره، ولكم تحدثت مع نفسي في هذا الشأن ومع فريد أيضاً، لكنه كان دائماً يقول لي دعيها إلى الوقت المناسب، وها هو الوقت المناسب قد أتى. إن دخولك المفاجىء لغرفتي أسعدني وأرهبني.

أسعدني لأنني كنت حريصة على أن أراك. وأرهبني لأنني أخاف أن لا توافقي معي على ارتياد حياتي الجديدة فأضطر إلى أن أبعد عنك وأن أهرب من صداقتك.

والتفتت ميرفت إلى صديقتها شادية وقالت:

ـ لا شك أنك رائعة بملابس الصلاة هذه، ولقد زاد من روعتك في نفسي هذا الحديث المؤمن الذي تحاولين من خلاله هدايتي، فأنا إنسانة مؤمنة رغم كل ما يحيط بي من مظاهر.

قد تكون الحياة التي أعايشها هي التي أبعدتني عن أن أمارس الطقوس الدينية كما فعلت أنت أخيراً، لكن هذا لا يمنع أن نتناقش قليلاً.

لماذا تربطين بين صداقتي لك وممارستي لهذه الطقوس وأنا كما تعرفين

من طينة غير طينتك، ومع هذا تناسيت كل تلك الفروق وألقيتها جانباً واخترتك لتكوني قريبة من قلبي صديقة لي.

أوتذكرين أول يوم تعرفت فيه إليك، كان كل واحد في تلك اللحظة من كبار القوم ينظر إليك على أنك فنانة، وأن الفنانة إنسانة من مستوى أقل كثيراً من مستواهم، وعلى هذا فبإمكانهم شراء كل شيء فيك بنقودهم. لقد استمتعوا برقصك وأعجبوا بك وأنت تتلوين بين صفوفهم في غلالتك الرقيقة التي ضمختها العطور، أما أنا فكنت أنظر إليك على أنك إنسانة، وإنسانة فقط.

لا أقول إنني تنازلت كثيراً عن مركزي لأكون معك دائماً، وإنما أقول بأنني أعرف طريقي في هذه الحياة فلا أرضى بما يقال لي، ولا يمكن بأية حال أن أفعل شيئاً لمجرد أن الآخرين يفعلونه أو يقولونه، هكذا أنا، ومن هذا هو شأنها يكون منطلقها من هذه الزاوية. لقد أصميت أذني عن كل ما يقال ومضيت في لقائك ورغبت في صداقتك وتقديري لك، ومع هذا أسمع منك ما أسمع.

أنا يا صديقتي لا أحب التعصب أو التزمت، ولتكن كل منا على ما تهوى وترغب، ولنظل بعد كل هذا أصدقاء.

وصمتت.

أما شادية فقد أخذت تنصت لكل كلمة قالتها ميرفت وعندما انتهت أجابتها قائلة:

ـ صدقيني قد لا أكون في وضع أستطيع فيه شرح هدفي بشكل واضح من كلماتي التي قلتها لك، لكن صداقتي وحبي لك هي التي جعلتني أقول لك ما أقول.

إنك يا عزيزتي حبيبة جداً إلى نفسي، وأنا إنسانة أقدّر كل ما فعلت من أجلي، فلولاك لما تعرفت إلى فريد، ولولا فريد لما وصلت إلى ما وصلت إليه من اعتقاد.

قد أكون أخطأت في الطريقة التي اتبعتها في حديثي معك، لكنني أحب أن تعرفي أنني إنسانة واضحة الهدف وغايتي من كل ما قلته هو أن تكوني أنت

الأخرى على مقربة من الله.

لقد قررت يا عزيزتي منذ هذه اللحظة أن أتوقف عن الرقص، لكني سأظل دائماً صديقتك الوفية وكل ما أرجوه أن تفكري كثيراً فيما قلته وأن تقرأي بعض هذه الكتب.

ودفعت إلى ميرفت بعدد من الكتب التي ألَّفها شهيد الإسلام سيد قطب وأردفت قائلة:

ـ ربما تعينك قراءتها على معرفة الطريق الصحيح إلى الجنة. إن الحياة يا صديقتي ميرفت قصيرة جداً، وعلى هذا يجب أن لا نضيعها في ترهات لا تغني ولا تسمن.

لقد أفسدت الحضارة الأوروبية حياة مجتمعاتنا وأسرنا بما أعطتنا إياه من قشورها الزائفة، ونسينا أو تناسينا أن الحضارة ليست هذه القشرة الزائفة من رقص وشرب وفرفشة، إن تواجدنا على هذه الأرض هو لغاية أرادها الله فلنساعد أنفسنا على السير مع هذه الإرادة.

وابتسمت ثم قالت:

ـ إنك تفكرين كثيراً الآن، وينصب تفكيرك على صلتي بفريد وكيف يمكنك أن تصدقي أن يجري كل هذا بسرعة في الوقت الذي لا يحق له أو لأمثاله أن يكون معي تحت سقف واحد، لكنني أحب أن أطمئنك.

ومضت إلى درج الكومدينو الصغير لتخرج لها قسيمة الزواج الذي تم بينها وبين فريد، وعندما قرأتها ميرفت ضحكت من أعماقها وأمسكت بأذنيها مداعبة وقالت:

ـ تفعلينها من وراء ظهري، يجب أن أحتفي بهذا الزفاف في قصري.

لكن شادية رجتها قائلة:

ـ لا يا صديقتي، كل ما أطلبه منك هو أن تحافظي على هذا السر فلا تعلنيه حتى أنتهي من أداء جميع العقود السابقة التي ارتبطت بها، وحتى تكون هناك فرصة يستطيع من خلالها فريد إنهاء الكثير من أعماله، فقد عزمنا على السفر إلى أمريكا مرة ثانية، هو للدراسة وإكمال التحصيل، وأنا لفترة يستطيع

فيها الناس أن ينسوا راقصتهم المسكينة، ويوم نعود إلى مصر مرة أخرى، يومها سأطلب منك وبكل ثقة أن تقيمي حفلة زفافي.

ومدت ذراعيها لتمسك بكتفي ميرفت ثم تقبلها بين عينيها، وتمضي إلى غرفة أخرى لتجهش في بكاء غامض لا تدري ميرفت أسبابه، لكنها احترمت هي الأخرى نوبة البكاء المفاجئة وغادرت بيت شادية في هدوء كما دخلته في طريقها إلى القصر وأفكار كثيرة تراود مخيلتها بشكل لم يسبق له نظير.

وفي القصر بدأت ميرفت تقلب صفحات الكتب التي أعطتها إياها شادية، لكنها لم تستطع أن تقرأ حرفاً واحداً، كانت سطور الكتاب تتراقص أمام عينيها فألقت به جانباً، ثم قامت إلى جهاز التلفزيون لتديره وعندها ألجمتها المفاجأة.

كان التلفزيون يبث في تلك اللحظة جزءاً لرقصة من رقصات صديقتها شادية الشهيرة.

وتابعت ميرفت أجزاء الحلقة التي قدم فيها رقص شادية المثير وفي أعماق أعماق نفسها دعاء خافت بأن يوفق الله صديقتها في السير قدماً نحو الهدف الذي اختارته وأن لا يفسد حياتها التي اختارتها أفلامها القديمة.

الفصل السادس عشر

استقبلت الأوساط الفنية خبر اعتزال شادية الرقص العربي سواء على الشاشة الفضية أو الأفلام بشيء من الدهشة والاستغراب، فقد كان معروفاً أن المجد الفني الذي بنته هذه الفنانة لنفسها في الأوساط السينمائية كان أساسه ومنطلقه قدرتها الفائقة على الإبداع في أداء رقصاتها المتطورة.

ونشرت الصحف الفنية خبر الاعتزال في صدر صفحاتها مقرونة بكثير من الصور التي تظهر شادية وهي تؤدي رقصاتها المعروفة.

وكتب الأستاذ بديع في مجلة الموعد قصة الاعتزال وأسبابه كاملة دون أن يشير إلى اسم الزوج الذي كان وراء هذا الاعتزال، واكتفى رغم معرفته لهذه الحقيقة، بأن يرمز إلى اسمه فقط، وكانت هذه طريقة الأستاذ بديع في مناقشة القضايا الخاصة بالنجوم اللائي يرغب أن يكون دائماً على صلة طيبة بهن.

وقرأت شادية المقال فأعجبت بذكاء الكاتب وكانت على اتصال دائم به ومعرفة وطيدة بكامل أسرته، فأخذت سماعة التلفون وأدارت رقم «الشيراتون» لتطلب من عاملة التلفون إيصالها بغرفة الأستاذ الذي جاء صوته عبر أسلاك الهاتف مهللاً مرحباً كعادته.

شكرت شادية الأستاذ بديع من كل قلبها ورجته في حب أن يبقي على اسم الزوج فلا يدلي به إلى أحد حتى أمام معارفه وأصدقائه، وكانت على علم بالطريقة التي استخدمتها الموعد في تقصي أخبارها، فوعدها خيراً.

وكان بجانبه في الصالون المخرج السيد عاطف، الذي تلقف

الحديث من صديقه وقال:

ـ دعني أحادثها فلها عندي خبر سيسرها بلا شك.

وعندما أنهى الأستاذ بديع رغبة المخرج عاطف إلى شادية قالت هذه:

ـ لا بأس، أعطني إياه.

وأسلم سماعة التلفون إليه.

وبعد الكلام المعتاد قال المخرج عاطف لشادية:

ـ صدقيني يا سيدتي، لقد أسعدني خبر اعتزالك الرقص، فلقد كنت أقول لنفسي دائماً بأنك بأخلاقك الطيبة وروحك المرحة لم تخلقي لهذا النوع من العمل وقد صدق حدسي، ولهذا انتهزت هذه الفرصة لأعرض عليك بطولة فيلمي الجديد.

وأجابت شادية شاكرة:

ـ سأفكر في الأمر، لكن ثق يا أستاذ عاطف بأنني سعيدة بما قلت ولن أقبل أي دور في أي فيلم قبل موافقتي على الدور الذي عرضته، ولكن قبل كل شيء أرجو أن تبعث لي بسيناريو الفيلم لأقرأه وأعطيك رأيي فيه، فأنا معجبة دائماً بطريقة إخراجك للأفلام.

وأجاب الأستاذ عاطف:

ـ سيكون السيناريو أمامك غداً. إن قصة الفيلم من النوع الهادف وهي من إعداد الكاتب الكبير الذي تعرفينه.

وجاء صوت شادية هذه المرة قائلاً:

ـ اتفقنا.

وأقفلت سماعة التلفون وعادت إلى زوجها فريد تمازحه وتنهي إليه تفاصيل المكالمة.

ومضت شادية في حديثها تنقل إليه أيضاً خبر الزيارة التي قامت بها ميرفت، ولم تترك أي شيء من تفاصيل الحديث الذي دار بينها وبين صديقتها.

وعندما انتهت من كلامها قال لها فريد:

ـ لا بأس، ما كان يجب أن تكوني بمثل هذه القسوة في الحديث مع صديقتك، لكن ما جرى لا يحول دون أن تتصلي بها وتطلبيها للغداء معنا.

وعندما أدارت شادية قرص التلفون طالبة ميرفت جاء صوت خادمتها معلناً أن سيدتها قد خرجت ولم تعد، فتركت رسالة قصيرة لديها ترجو فيها الاتصال بها.

أما ميرفت فقد كانت في تاكسيها العجيب تجوب شوارع مصر الجديدة من طريق قصر الطاهرة حتى إذا ما وصلت إلى ميدان باب الحديد فوجئت بأحدهم ينادي على التاكسي فتوقفت لترى شاباً في مقتبل العمر يلبس نظارة سوداء ويحمل بيده شنطة جلدية كبيرة يطلب من السائق أن يساعده على حملها ووضعها في صندوق السيارة.

نظرت ميرفت إلى الرجل بعصبية ولم تتكلم، وعندما عرفت أنه لا يبصر، خرجت من السيارة وحملت الشنطة ووضعتها في الحيز الخاص بها، ثم أمسكت بيد الرجل وساعدته على الدخول في السيارة لكن الشاب الأعمى كان ذكياً فقال في أسف:

ـ اعذريني يا سيدتي فأنا إنسان لا يبصر، ولهذا كنت أظن أنني قد اخترت تاكسياً ولم أعرف بأنك صاحبة سيارة خصوصية، لقد عرفت أنك أنثى من لمس يدك فلا تؤاخذيني.

وأجابت ميرفت:

ـ لا بأس عليك، لكنك أخطأت في واحدة، قد أكون سيدة لكنني سائقة تاكسي، ولهذا سأوصلك إلى المكان الذي تريد وسآخذ أجري كغيري فلا تنزعج.

واستغرب الرجل أن تقوم سيدة بقيادة تاكسي وأخذ يحادثها طويلاً، يصف شكلها وقوامها ووجهها وكل شيء فيها وكأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً.

ومضت تحادث نفسها كيف استطاع هذا الرجل الذي لا يرى أن يعرف كل هذه التفاصيل.

لكن الشاب أجاب فجأة دون أن ينتظر أن تعلن سؤالها قائلاً:

ـ وسأجيبك عن تساؤلك الذي لم تعلنيه، ولتسمحي لي أن أقرأ أفكارك هذه المرة. لقد وهبنا الله قدرة عجيبة على التركيز والفهم ليعوضنا عما فقدناه بميزة أخرى، وأنا من أولئك الأشخاص الذين يستطيعون قراءة أفكار الآخرين ويتعرفون على ملامحهم من خلال تموجات أصواتهم، وإذا أحببت أن أضيف إلى ما قلته عنك أشياء أخرى قد تدهشك فسأقولها.

وأثار قول الشاب في نفسها الفضول فقالت ضارعة:

ـ أرجوك قل لي ماذا تعرف.

وأجاب الشاب:

ـ أنت من أسرة غنية تعيشين في هذه الدنيا وحيدة، مللت الفراغ فنبذته بأسلوب يغاير طبيعتك واخترت عملاً تعتقدين أنه الوسيلة لقطع دابر السأم والملل عن نفسك، ومع هذا يظل السأم يعشش في أعماقك.

والتفتت إليه راجية أن يرفع نظارته عن عينيه فلقد شكت في تلك اللحظة بأن من يتحدث معها مبصر وليس أعمى، فقال:

ـ لا بأس.

ورفع عن عينيه نظارته السوداء فبدت عيناه وقد أكل الجدري أجزاء كبيرة منهما، فآمنت بصدق كلماته وقالت في أسف:

ـ سامحني يا سيدي إذ شككت في حقيقة أمرك.

لكن الشاب ضحك في هدوء وقال:

ـ لا عليك، فلقد اعتدت دائماً على تلبية مثل هذا الطلب، فأنت يا سيدتي لست الأولى التي ترجوني ذلك وألبي رجاءها.

وأردف قائلاً:

ـ أرجو أن تقفي بعد عشرين ياردة من هنا، ستجدين العمارة التي أسكن فيها، لقد بعدت عن هذا الشارع سبعة أيام كنت خلالها بعيداً عن والدتي العجوز في الإسكندرية، إن شوقي لرؤية والدتي هو الذي جعلني أستعجل العودة رغم أن الأيام التي قضيتها كانت أيام عمل.

إن والدي رحمه الله ترك لي أكثر من عمارة في شارع محرم بك، ولقد

اختلف خالي مع مدير أعمالي هناك، مما اضطرني للسفر لإنهاء هذا الخلاف، وقد وفقني الله إلى الوصول إلى حل يرضي الاثنين، فمدير أعمالي صديق قديم لوالدي أحرص على إرضائه كما أحرص على إرضاء خالي.

وتوقفت السيارة أمام العمارة في شارع نوال بالدقي ودفع الشاب بأجر التاكسي إلى ميرفت التي ردته إليه قائلة:

ـ أوتسمح لي أن أوصلك إلى دارتك وأتحدث مع والدتك؟

وأجاب الشاب:

ـ لا بأس.

ومضى الاثنان إلى المصعد ومنه إلى الدارة التي ما كاد الشاب يلمس جرسها حتى انفتح الباب عن امرأة عجوز تلقت الشاب بالأحضان ثم التفتت إلى ميرفت مرحبة، وفي الصالون الصغير تفحصت ميرفت وجه العجوز الذي بدا واضح المعالم.

كان وجه المرأة مريحاً أعملت فيه السنون معاولها وظهرت التجاعيد فيه في أكثر من مكان، كما كان جسدها من النوع الدقيق النحيل ترتدي جلباباً أبيض وعلى رأسها ملاءة بيضاء أيضاً وضعتها كغطاء لشعرها الأبيض، تطل من وجهها عينان عسليتان لم تؤثر في نضارتهما الأيام تتحدث بلهجة بنات الإسكندرية.

أخذت العجوز طريقها إلى المطبخ لتعد القهوة لضيفة ابنها، بينما أخذ الشاب مكانه على أحد كراسي الصالون في مواجهة ميرفت وقال:

ـ تريدين أن أقول لك كل شيء عن حياتك؟

قالت ميرفت:

ـ نعم.

ومضى الشاب في حديثه يذكر أشياء كثيرة من تفاصيل حياة ميرفت وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح.

لقد قال لها الشاب كل شيء خلال الفترة التي أمضتها معه وفي إيجاز.

لكن دهشتها زادت عندما أردف قائلاً:

ـ ستتركين اللعبة التي تمارسينها قريباً، لأنك ـ وقالها في تركيز ـ ستتزوجين، وزوجك من طينة غير طينتك، وسيكون لقاؤك به في حد ذاته مثيراً لاستغرابك.

إنه فقير وشاب، لكن مستقبله أمامه، وستكونين أنت السبب في كل هذا وضحك.

حاولت ميرفت أن تعرف الطريقة التي يستطيع من خلالها هذا الشاب معرفة كل تلك الأمور، لكنه لم يفصح عنها وإنما أجابها في هدوء:

ـ يوم تتحققين من كلماتي التي قلتها لك عن الزوج القادم أرجو أن لا تنسيني فتزورينني معه، فإني أكاد أن أصفه لك، لكن لا، لا أعتقد أن هناك ضرورة لهذا الوصف، يكفيني أن أقول إنك ستقابلينه في مكان لا تتصورينه وستنقذينه من محنة وتأخذين بيده وفي هذا الكفاية.

وودعت ميرفت الشاب ووالدته وخرجت إلى سيارتها ومضت في الطريق إلى القصر غير آبهة بصيحات الناس الذين كانوا ينادون في الطريق تاكسي تاكسي، فقد كان التاكسي في تلك الساعة من الأشياء النادر تواجدها في القاهرة التي اكتظت بسكانها وجموع السياح العرب.

لكنها تمهلت في سيرها قليلاً عندما شاهدت رجلاً تبدو على ملامحه أنه من طراز غريب يمشي متثاقلاً على كوبري عباس، ينظر في هدوء إلى السيارات التي كانت تمر بسرعة من أمامه، وعندما أصبحت سيارة التاكسي على مقربة منه نادى عليها وكرر نداءه، وعندها لبَّت ميرفت طلبه وتوقفت بتاكسيها إلى جانبه.

وعندما أحس الرجل بتواجده داخل التاكسي قال كمن ينتقي كلماته تلك:

ـ لقد أصبحت حالة السير في مصر لا تطاق، فبعد خمس وعشرين عاماً قضيتها في الخارج أعود لأقابل بهذه المشكلة وكأنها لم تحل منذ ذلك اليوم الذي غادرت فيه بلادي.

وتطلعت ميرفت إلى وجه الرجل وأحست كأنها تعرفه، فلطالما طالعت صور الرجل على صفحات الجرائد في الآونة الأخيرة، وعندما تذكرت اسمه قالت له: أظنك أنت الرسام عارف الذي يقوم بعرض إنتاجه في صالات

الهيلتون. لقد طالعت بإعجاب لوحتك الأخيرة «آدم وحواء». كانت معبرة الألوان ذات طابع فريد يتميز بالكثير من الأصالة، إن لمسات أناملك على الوجه أعطت وجه آدم وحواء ملامح فرعونية، فهل أنت يا سيدي حفيد لفراعنة مصر؟

وضحك الرجل وقال:

ـ لا يا سيدتي، قد أكون مصرياً لكنني قبل كل شيء أحفظ تاريخ بلادي، وباعتباري عالماً من علماء الآثار فقد طغت مهنتي على صور من تجسدهم هوايتي وهكذا كان. لكن بالله عليك من أنت؟ لا تقولي مجرد سائقة تاكسي لأن من تملك مثل هذه المعلومات وتستطيع أن تناقش رساماً فيما يرسم لا بد وأن تكون شيئاً آخر. لقد غاب عن جميع النقاد ما قلته أنت في بساطة، وأنا سعيد بأن أسمع هذا الرأي منك، وكم كانت سعادتي أكبر لو فهم النقاد في مصر حقيقة ملامح الصورة، لكنهم لم يفهموها.

وأجابت ميرفت:

ـ لقد درست الرسم في طفولتي، لكن شظف العيش صرفني عنها، وأصبحت بين الحين والآخر أذهب إلى قصر الفن لأطالع ما يعلق على جدرانها ثم أعود إلى عملي راضية، هذا هو كل شيء.

سأل الرجل:

ـ واسمك يا فتاتي.

قال الرجل، فأجابت:

ـ ميرفت.

ـ اسم تركي لكنه موسيقي. لقد شعرت بكثير من الحب لأولئك الذين يسمون بناتهم بأسماء تركية.

وضحك، ثم عاود الحديث:

ـ لقد أمضيت سنواتي الخمسين وها أنذا كما ترين ذهبت نضارتي وابيضّ بعض شعر رأسي، ولولا هذا القلب الذي يخفق واليد التي ترسم لما بقي لي شيء.

لقد جسَّدت معالم في مصر في كثير من اللوحات التي رسمتها خارج وطني ودرّت عليّ آلاف الجنيهات، وها أنذا أعود إلى مصر وفي نفسي أمل أن ألتقي بالفتاة التي تقبل أن تكون زوجتي، وبعد أن أمضيت ما يزيد عن الشهر ها أنذا ألتقي بك وبدون سابق معرفة أحس بأنك النصف الذي أبحث عنه، فإن رضيت تقدمت لوالديك بخطبتي، وسأقدم كل ما أملك في مصر، فأنا أملك عمارة صغيرة وبعض الفدادين في شبين الكوم مسقط رأسي هدية مني إليك، فأنا أعرف بأن الأيام قد تجاوزتني وربما استطعت بهذا العمل أن أجنبك شرور الأيام وضراوتها وقسوتها.

وصمت.

لكن ميرفت قالت:

- ليتني أستطيع قبول طلبك يا سيدي، فأنت جدير بكل محبة وتقدير، ولكني متزوجة من رجل أشاع ليلي ونهاري قسوة وظلاماً وهأنذا أنتظر حكم القاضي في نتيجة هذا الزواج الذي يأبى أن ينهيه هو بالتراضي.

قال الرجل:

- إذاً سأنتظر وسأساعدك، سأكلف اثنين من كبار محامي القاهرة للدفاع عن قضيتك، وعندما يتم طلاقك ويصبح من حقي أن أتزوجك تقدمت إليك.

وأجابت ميرفت:

- سأفكر يا سيدي.

قال الرجل:

- تفكرين فقط؟

دفع بعنوان فندقه ورقم غرفته إليها وقال:

- قبل أن تصلي إلى حد الموافقة آمل أن أراك، فقد أستطيع المساعدة، لقد أعجبت بك يا سيدتي وأريد أن أخلد صورتك في رسم جميل أقدمه عربوناً لما قلت.

وعند باب فندق «هيلتون» ترجل الرجل وكرر طلبه إلى ميرفت بأن تشاركه فنجاناً من الشاي في الكافيتيريا.

وهناك على المائدة القصية جلست ميرفت والرسام يتجاذبان أطراف الحديث، بينما كانت يده تخط على الورق خطوطها التي اتضحت معالمها عن صورة مشرقة لميرفت بملابس مزركشة.

نظرت ميرفت إلى الصورة شاكرة، لكن الرسام قال بعد لحظات من الصمت:

ـ عديني أنك ستأتين، فأنا مشوق لرسم تقاطيع هذا الوجه في لوحة كبيرة، أما الآن فسأستميحك العذر عندما أحتفظ بهذه الورقة، فقد تبخلين عليّ بالمجيء وعند ذلك سأمضي في رسم صورتك من ذاكرتي مستعيناً بهذه الخطوط الصغيرة على تكملة حواشيها.

لكن ميرفت قالت:

ـ سأفعل ما بوسعي، وإذا تمكنت فسأتلفن لك.

وعندئذ قال الرجل:

ـ لا، لا ضرورة للتلفون فأنا من الساعة الثانية عشرة ظهراً وحتى الثانية من كل يوم في انتظارك.

قالت ميرفت:

ـ ربما لا أستطيع المجيء في هذا الموعد يا سيدي.

وأجاب الرسام:

ـ لا بأس، ولكن ما دمت قد وعدت نفسي بأن أكون معك خلال الساعات التي ذكرت فسأفعل ذلك سواء أأتيت أم لم تأت، لأنني منذ الغد سأبدأ في وضع اللمسات الأولى على الصورة الجديدة التي سأقدمها لك هدية إن جئت وإلا فستكون هديتي للمتحف المصري، وسأسمي هذه الصورة «فتاة العمر».

وضحكت ميرفت واستأذنت، وفي الطريق إلى باب الكافيتيريا توقفت قليلاً لأنها رأت صديقها الطبيب في طريقه إلى صالة الفندق يمشي وهموم الدنيا جميعها على رأسه، وعندما التقت عينه بعين ميرفت أشرق وجهه لكن حياءه منعه أن يلقي بتحيته عليها وهي في صحبة رجل لا يعرفه.

الفصل السابع عشر

عاد الطبيب إلى فيلته في شارع مقياس الروضة بعد أن تناول الغداء مع أحد كبار علماء التشريح الأمريكان في صالة الطعام في فندق «هيلتون».

وكانت عودته مفاجأة لأسرته التي تعودت أن لا تلتقي بعميدها في هذا الوقت، لكن زوجته الإنجليزية لم تلق بالاً لهذا الحدث، وإنما تحدثت إليه بلا مبالاة سائلة:

ـ أمريض أنت؟

وأجابها في اقتضاب:

ـ لا . .

ومضى إلى مكتبه يقلب صفحات أحد الكتب التي وصلته مؤخراً، وانهمك في عمله لم يقطعه عليه أحد سوى الخادمة العجوز التي جاءت بفنجان الشاي ووضعته في هدوء على المكتب ثم انسلت خارجة.

كانت الساعة تعلن الخامسة والنصف من بعد عصر اليوم نفسه، عندما رن جرس التلفون فأمسك به الطبيب في خشية، وجاء صوت ميرفت ناعماً يسأل عن صحة الطبيب.

لكن الرجل لم يتحمل وقع المفاجأة وإنما ظهر الاضطراب على كلماته عندما قال لها:

ـ أين أنت ومع من كنت يا سيدتي؟

وضحكت ميرفت وقالت:

ـ ولماذا تسألني هذا السؤال؟ لقد رأيتك ظهر اليوم في الفندق، وكانت صحتك على ما يبدو ليست على ما يرام، ولهذا جئت أسأل عنك.

وأجاب الطبيب:

ـ صحتي أفسدتها إحساسات الشوق لرؤيتك، وزادها سوءاً أن من أحببتها من كل قلبي ورأيت أن أعطيها جميع أمجادي العلمية التي حصلت عليها، وأدوس على كل شيء بالنسبة إلى أسرتي، تبيع كل هذا من أجل رجل عجوز آخر. قد يكون هذا الرجل على درجة كبيرة من الغنى، لكن المال الذي عندي يكفي يا صديقتي.

ولكن ميرفت ضحكت وقالت:

ـ لا هذا ولا ذاك، إنما هو صديق رسام من زبائني تواعدت وإياه على أن أقف أمامه ليرسمني لقاء أجر مادي.

وأجاب الطبيب:

ـ سأدفع أكثر مما يدفع لقاء الساعات التي ستقضينها أمام مرسمه على أن تقضي ربعها في حديث عادي في أي مكان عام ترغبين فيه.

ـ لكنني لا أجري وراء المال يا صديقي، ثم بعد كل هذا فأنت طبيب ليس برسام، وأنا صحتي بخير ولا أحتاج إلى عنايتك.

وأجاب الطبيب:

ـ لكن صحتي أنا هي التي ليست في خير وأنا في حاجة إليك، لماذا تظلين هكذا دائماً قاسية القلب؟

وقالت ميرفت:

ـ لو كنت قاسية القلب كما قلت لما ترددت في قبول جميع ما عرضته عليّ، لكنني فضلت أن أظل فقيرة معدمة أعيش من دخل التاكسي على أن أهدم أسرة وأخرب بيتاً.

ـ لكن هذه الأسرة التي تقولين عنها أنها ستهدم ليست في حاجة إليّ، فقد أعطيتها وسأظل أعطيها الكثير، إنني أنا الذي في حاجة إليك، لقد قال لي المحامي سلطان بأنه التقى بك في شارع «المبتديان» لكنك لم تعرفيه وحاول

لفت نظرك دون فائدة، فهل هذا صحيح؟

وأجابت ميرفت:

ـ قد يكون ذلك صحيحاً، وربما لا يكون، لأنني كما تعرف ألبي دعوة أي زبون يرغب مني في أن أوصله إلى مكان إقامته، إنها مهنتي، ومع هذا فإنني لا أرتاح مطلقاً إلى نظرة هذا المحامي لأنها في اعتقادي نظرة تختلف عن نظرتك أنت إليّ.

وارتاح الطبيب لما سمع وعاود حديثه:

ـ هل هناك أمل في لقائك؟

أجابت ميرفت:

ـ دع كل ذلك للظروف، لكن ثق أنني سأحاول الاتصال بك مرات ومرات.

وأقفلت سماعة التلفون ثم تمددت على سريرها تحملق في سقف الغرفة، وامتدت يدها بلا إرادة إلى كتاب من الكتب التي أعطتها إياها صديقتها شادية لتمسك به ثم تمضي في تقليب صفحاته وتبدأ في قراءته في تمعن.

كان الكتاب في هذه المرة للدكتورة بنت الشاطىء وعنوانه «بنات الرسول».

ومضت تقرأ وتقرأ، ولم تترك الكتاب إلاّ بعد أن انتهت من قراءة أكثر فصوله، وعندما داعب النوم جفنيها رأت فيما يرى النائم جزءاً مما قرأت.

وفي الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي تركت ميرفت سرير نومها في طريقها للقاء الرسام بعد أن ارتدت أجمل ثيابها وأمضت أكثر من ساعة ترتب زينتها، حتى إذا ما وصلت إلى جناحه رأته منهمكاً في إعداد الملامح الأولية للصورة، وعندما رآها ألقى بفرشاته على الأرض وأقبل عليها محيياً ضاحكاً وقال:

ـ أرجو أن لا تصدمك الفوضى التي أعيشها، لكنني سعيد جداً برؤيتك، فهذه الرؤية ستعينني بلا شك على إجادة عملي من جهة وتجعلني قادراً على إعطاء الصورة حقها من الرواء والجمال.

وترك لها الزاوية التي تريد أن تجلس فيها وطالبها بأن تأخذ حريتها بالوضع الذي تريد الجلوس فيه ومضى يداعب بريشته وألوانه صفحات اللوحة في براعة، حتى إذا ما مضى على عمله أكثر من ساعة توجه إليها مرة أخرى بالحديث قائلاً:

ـ ربما لا يكون الشكر كافياً هذه المرة على تجشمك عناء الحضور وعناء الجلوس أمام عجوز مثلي، لكن أرجوك قبول هذه الهدية. إنها ذكرى من والدتي التي توفيت.

ودفع إليها بقلادة عنق قديمة الصنع غالية الثمن قبلتها بعد تردد بعدما شعرت بانزعاجه في حال عدم قبولها.

وودعت ميرفت الرسام على أمل لقاء آخر، وأخذت طريقها إلى خارج الفندق ومنه إلى التاكسي في جولة في أنحاء المدينة، فلقد أحست بكثير من الراحة طوال الوقت الذي أمضته مع الرسام.

لقد كان رجلاً لطيفاً بالمعنى الصحيح، فلم يحاول العودة إلى حديث الزواج أو حتى أحاديث أخرى، واكتفى بالنظر إليها من جميع الزوايا وهو يؤدي عمله في دأب وجد.

ولقد أسعدها بالفعل أن يقوم رسام ماهر مثله برسم صورتها على هذا النحو الذي يفعل، وفجأة تذكرت ضرورة أن تشتري للرسام هدية مناسبة تبعث بها كرد للجميل الذي صنع، فتوقفت أمام أحد المحلات في شارع الشواربي واختارت مجموعة من رباطات العنق، وضعت عليها وريقة صغيرة كتبت عليها جملة واحدة هي: «مع تحيات ميرفت» ثم دفعت بها إلى العاملة بعد أن نقدتها قيمتها راجية إرسالها إلى الفندق، بعد أن أضافت للربطة اسم الرسام ورقم غرفته.

وخرجت من المحل إلى الشارع لتستقل تاكسيها المفضل في جولة أخرى مع المجهول ذلك الإنسان الذي ستقابله، لكنها لم تمض كثيراً حتى أوقفها شاب يرتدي ملابس ذات ألوان صارخة وتتدلى من عنقه سلاسل كثيرة وفي أصابع يديه مجموعة من الخواتم.

كان صورة سيئة لفتاة غادرت بيتها فجأة، ومع هذا فلم تترك شيئاً من

ملابسها إلا ارتدته. وكان الشاب قد عقد إيشارباً حول عنقه، يتيه في مشيته بحذائه ذي الكعب العالي، توجه الشاب إلى باب السيارة واختار الجلوس إلى جانب السائقة فلم تمانع ميرفت لأنها في تلك اللحظة كانت أكثر فضولاً لمعرفة شيء عن هذا النوع من الشباب الذين أودت بهم الحضارة إلى الدرك الأسفل.

أصدر الشاب تعليماته للسائقة بأن تأخذه إلى المعادي حيث هو على موعد مع مجموعة من زملائه، ومضى يتحدث متأففاً عن الحياة في مصر، وكيف أن الإنسان العصري لا يمكن أن يجد ما يريده في هذه الأيام، وأنه يرغب في العودة مرة ثانية إلى النمسا ليكون على مقربة من المجتمع الذي عاش فيه.

وعندما سألته ميرفت عن جنسيته قال بلا مبالاة:

ـ مصري، ومع هذا فأنا لا أحب مصر. إن الشهور الثلاثة التي أمضيتها على مقربة من أسرتي في هذه الإجازة أعطتني فكرة بأن هذه البلاد تحتاج إلى قرن كامل لتصل إلى نصف ما وصلت إليه البلدان الأخرى.

وتعجبت ميرفت من قوله وأجابته:

ـ ولكننا في حالة حرب، ومن كان مثلنا يجب أن يتحمل شعبه الكثير للخروج من هذا المأزق واستعادة أراضيه.

وأجاب الشاب:

ـ تباً لهذه الحرب، لتذهب الأراضي كلها إلى الشيطان وليعد لمصر رواؤها، إنني أشك في أننا سنكون قادرين على استعادة أرضنا ما دام عدونا يعتمد على دول كبرى تسانده، وعلينا نحن أن نبحث عن دولة يمكن عن طريقها أن نحارب.

وضحكت ميرفت من أفكار الشاب وسألته عن اسمه فقال:

ـ توتو.

وصمت. وقالت ميرفت:

ـ مرحباً توتو هانم.

ولكن الشاب لم ينزعج لهذه الصفة وإنما تقبلها في هدوء، ومضى يتحدث عن حياته وكيف أنه هو شخصياً لا يستمتع بصحبة النساء ويفضل عليهن مشاركة

الرجال ليس على سبيل أنه رجل وإنما لأنه يشعر في دخيلة نفسه كأنثى تحتاج إلى من يحميها.

وضحكت ميرفت من كل قلبها وقالت:

ـ إذاً سأقف بك هنا.

وأشارت إلى زاوية قريبة من شارع قصر النيل لتأخذ تأكسياً آخر يقوده رجل، لكن الشاب قال مقهقهاً:

ـ لا عليك، بإمكانك إيصالي إلى المكان الذي أريد، فأنا أؤمن بأنك شاب مثلي ولكنك تلبس ملابس امرأة لرغبة في نفسك.

وعندما لم تجب ميرفت بشيء مضى الشاب يتحدث عن حياة الأنوثة وكيف هي جميلة إلى الحد الذي يرجو فيه أن يتخلص من رجولته بإجراء العملية التي وعد الطبيب المغربي بإجرائها والتي ستتم بعد تسعة شهور من تاريخه، فهو يريد على حسب قوله أن يتحرر من هذه الملابس ويرتدي نوع الملابس التي ترتديها ميرفت، وحاول كثيراً أن يتعرف على الطريقة التي استطاعت بها ميرفت العودة إلى أنوثتها، وهل استخدمت الجراحة في هذا أم الهرمونات؟

لكن ميرفت لم تستمرىء اللعبة وإنما نهرت الشاب وأوقفت سيارتها وطلبت منه الخروج.

لكن الشاب لم يفهم السبب في كل هذا الانزعاج، بل ترك السيارة ومضى في مشيته المتبخترة يختال على الطريق على أمل أن يجد تاكسياً آخر يتحمل صاحبه حديثه الماجن.

وعندئذ لمعت في ذهنها فكرة، فلقد أطلت من ذاكرتها صورة الشاب الأعمى الذي حملته من ميدان بوابة الحديد، وأخذت تقارن بين صورته وصورة الشاب الذي ترك سيارتها، وكيف أن هذه الدنيا ملأى بالمتناقضات.

وأحست بحاجتها إلى أن ترى الشاب الأعمى، فمضت إلى بيته لا تلوي على شيء، وهناك عند باب العمارة رأت صديقها واقفاً مع مجموعة من الناس يبكي في حرارة أمه التي جاءها الموت وهو في أمسّ الحاجة إليها، وكان من

حول الشاب مجموعة من الناس يحاولون تهدئة خواطره دون فائدة.

لم تستطع ميرفت تحمل الصورة التي شاهدتها فآثرت الانزواء بعيداً لفترة، حتى إذا ما شاهدت جنازة الأم وقد خرجت من البيت في طريقها إلى مثواها الأخير شيعتها بدمعة ساخنة ومضت تفكر في أحوال هذه الدنيا ومصائر الناس فيها، وقالت بينها وبين نفسها:

«هكذا نأتي وهكذا نمضي.

لا يد لنا في المجيء ولا في الذهاب كأننا في رحلة قد تقصر وقد تطول».

الفصل الثامن عشر

أمضت ميرفت أكثر من عشرة أيام أسيرة جلسات الرسام الذي انتفخت أوداجه وأحس بكثير من الاعتزاز لالتصاق هذه الحسناء بريشته طوال تلك المدة، وكان الحديث في كل جلسة يأخذ منحى جديداً في الأدب والفن والاجتماع، وكانت ميرفت تلقي بآرائها فيتلقفها الرسام بكثير من الإعجاب والتقدير لهذه الكادحة التي لم تحل الظروف دون اطلاعها على الكثير من الكتب والمجلات.

وكان في كل مرة يقابل فيها ميرفت يحس بأن إعجابه بها يزداد ويكبر، ومع هذا فقد حاول طوال تلك الأيام أن لا يتحدث إليها مطلقاً عن عرضه الذي قدمه، حتى إذا ما ارتاحت ميرفت إلى ريشته ورفقته أخبرته بقصتها كاملة دون تحريف أو تزييف، وطلبت منه أن يزورها فالقصر سيكون حافلاً بالعديد من الناس من أصدقائها وصديقاتها.

الليل يلف قصر ميرفت بردائه، فيحيل سكونه إلى أضواء متعددة الألوان جادت بها مختلف الثريات الكهربائية التي أضيئت بهذه المناسبة، ومئات المدعوين والمدعوات يفدون إلى القصر بعد طول غيبة، وكان كل واحد من أصدقاء ميرفت وصديقاتها لا يكاد يصدق أنها قد عادت إلى سابق عهدها باعتبار أن الفترة التي أمضتها في لعبتها قد حالت بينهم وبين أن يروها.

وكان الكثير من معارفها يحاول الاتصال بها دون جدوى، لأنها آلت على نفسها في تلك الأيام أن تنأى عن هذا المجتمع الذي كانت تعايشه وتبتعد بكل نفسها وجوارحها عنه.

لكنها الليلة على غير عادتها، فلقد أرادت بهذه الحفلة أن تختبر نفوس أصدقائها بعد كل تلك الغيبة.

وكانت ميرفت قد اتصلت بالطبيب عبد التواب وبالمحامي وجميع أولئك الذين لقيتهم في حفلات مماثلة ودعتهم لحضور حفلتها الكبيرة.

شادية بملابسها المحتشمة الأنيقة ترافق زوجها فريداً، تحيي معارفها بابتسامة وديعة.

والمنتج صلاح هو الآخر بقامته الطويلة رفق سمراء فاتنة، يدخل القاعة الفسيحة.

والمطرب محرم فؤاد تسبقه ضحكته القوية وقد شد نظرته إلى الأمام يحاول أن يستقصي أحوال أصدقائه ومعارفه عن بعد.

والفنان ضياء وزوجتاه في مقدمة المدعوين، كل واحدة منهما اختارت زياً جميلاً يدل على أناقة مفرطة.

وزوجة أحدهم وقد كشفت عن أكبر مساحة في صدرها تنظر إلى الأمام وخلفها يجري زوجها ليكون في ركابها طائعاً مختاراً.

والأستاذ بديع سربيه بهمشريته اللطيفة يحيي الموجودين من وراء نظارته السميكة. وكثيرات أخريات جئن باديات الأناقة في ملابس مختارة، وكانت كل واحدة منهن تريد أن تلقي في روع الأخرى أنها الأولى في حلبة الأناقة.

الموسيقى تصدح بألحانها الغربية والأيدي تمتد حول الأذرع وتدور الأجساد اللدنة في حلبة الرقص على الأنغام الجميلة.

في تلك اللحظة يصل الرسام حاملاً معه الصورة التي أعدها ليقدمها لميرفت عربوناً للصداقة. التفتت ميرفت إلى الأمام لتلتقي عيناها بعيني الرسام والطبيب والمحامي، لكنها كانت أسرع في الترحيب بالرسام أكثر من الباقين.

وأخذت بيده بعد أن حيَّت الطبيب والمحامي بإيماءة من رأسها، ومضت إلى ركن من أركان القاعة بجانب مجموعة من الأدباء الذين كانوا يتداولون الحديث فيما بينهم عن آخر ما صدر من كتب في القاهرة.

وكان حديثهم ينصب على كتابين اثنين أحدهما «الصامتون يتكلمون»

والثاني «حوار بين الأسوار» والذي يحكي قصة فترة من أحلك أيام مصر في عهدها الماضي.

وكان الحوار يجري بين مؤيد وشاجب لأحداث الكتاب، لكن ميرفت لم يكن يهمها في تلك اللحظة إلا أن تطالع الصورة التي جاء بها الرسام والتي وضعها بهدوء، وأخذ يفض عنها الأوراق التي كانت ملفوفة بها لتبدو معالم الوجه الأنثوي الرائع في ابتسامته الجميلة، يحكي واقع حياة رائعة تعيشها صاحبة الصورة، لقد أدرك الرسام بواسع خبرته أجمل الملامح في الوجه الأنثوي فأعطى الصورة كل تلك المعاني وأظهرها في روعة وبهاء.

أما العينان فقد كانتا أشبه بعيون أولئك الفتيات الإسبانيات اللواتي انحدرت أصولهن من صلب عربي، تطلان للبعيد في نظرة عميقة شملت الكثير من المعاني.

كما حاول الرسام أن يضفي الكثير من الروح المرحة التي امتازت بها ميرفت فأظهر ذلك كله في خطوط برّاقة على صفحة الوجه الأبيض الأنيق.

كما استطاع أيضاً أن يعطي جسد الصورة معاني سامية كثيرة وكأنه يربأ بهذا الجسد أن يكون جسد أنثى بشرية.

لقد حاول أن يصنع الفتنة في الوجه ثم يقتل الشهوة في الجسد.

مزيج غريب استطاعت ريشة الفنان أن تجسده فتصنع الفتنة وتقتل الشهوة في آنٍ واحد، وكأنه بهذا العمل الفني الرائع يحاول أن يجعل من أنثاه شيئاً ملائكياً يمتاز بالعفة والنضوج معاً.

أعجبت ميرفت بالصورة، واجتمع الجميع حولها كل واحد ينظر إليها من زاوية، وهي سعيدة راضية بكل ما صنع الرسام.

أما شادية فقد كانت هي الوحيدة التي أمضت أكثر من عشر دقائق تتأمل شاخصة الصورة من جميع جوانبها ولسان حالها يقول:

ـ ليت صديقتي على ما أرادها هذا الفنان.

أما الأستاذ بديع سربيه فقد طلب في الحال من مصوره أن يلتقط الأصل والصورة لتكون غلاف مجلة الموعد القادم بعد أن استأذن ميرفت في أن يقدمها أيضاً كصورة كبيرة هدية من المجلة لقرائها.

لكن ميرفت رفضت هذا العرض السخي شاكرة وقالت:

ـ لست فنانة حتى تظهر صورتي على غلاف مجلة فنية.

وأجاب الأستاذ بديع:

ـ قد يكون كلامك صحيحاً، لكن فتيات المجتمع هن الأخريات وقود مجلاتنا الفنية، ومن هذه الزاوية سيتسنى لي نشر الصورة، كم هي رائعة الأصل والصورة معاً.

ضحك، فضحكت ميرفت ولم تعقب.

أما الطبيب عبد التواب فقد أحس بشعور خفي أن ميرفت هي سائقة التاكسي بعد أن تأكد له تواجد الرسام في بيتها، فجاء ينقل إليها الخبر في كلمات، لكنها لم تؤيد أو تنفي ما قاله وإنما مضت في طريقها لمسامرة أشخاص آخرين وتركته يفكر في كل كلمة قالها.

وانضم المحامي سلطان إلى الطبيب الذي لم يشأ أن يسر إليه بما عرفه عن شخصية صاحبة التاكسي، وأمضى الاثنان بعض الوقت في حديث طويل عن الصورة وصاحبتها.

وفي ساعة متأخرة من الليل خرج المدعوون فرادى وجماعات، ومضت ميرفت مع صورتها إلى غرفتها ونامت بهدوء.

وفي ساعة متأخرة من الصباح أفاقت من نومها على صوت جرس التلفون الذي ما إن رفعته حتى تسلل عبر أسلاكه صوت الطبيب قائلاً:

ـ أوتدرين؟ لقد أصبحت حراً طليقاً، ففي صباح هذا اليوم أنتهي من كل شيء، لقد طلقت زوجتي الإنجليزية وأصبح من حقي أن أعيش بعد أن أرضيتها بكل ما تريد من أراضٍ وأطيان ومال.

وجاء صوت ميرفت هذه المرة قائلاً للطبيب:

ـ لقد أخطأت يا سيدي العالم في هذا التصرف، وعليك أن تحاول العودة إلى زوجتك وأولادك، إنك بدونهم لا تساوي شيئاً، لقد درست الكثير وتعلمت أكثر، لكن فن الحياة هو الذي ينقصك، إن الواحد منا عندما ينجب يكون أسير أفراد أسرته مهما كانت الظروف.

لقد أخطأت يا سيدي.

وكررت كلماتها تلك:

ـ وعليك أن تصلح خطأك!

وأقفلت سماعة التلفون.

وبعد ثوانٍ رن الجرس مرة ثانية فرفعت ميرفت سماعة التلفون ثم ألقتها عليه وكأنها لا تريد أن تخاطب المتكلم.

ثم عاود الجرس رنينه أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت تعاود ما فعلت وكأنها حريصة على أن لا تجيب محدثها.

وأخيراً تناولت سماعة التلفون وقد أجمعت بينها وبين نفسها على أمر فتسمع هذا الطبيب المتصابي كلمات قاسية هذه المرة، لكن الصوت الذي لامس أذنيها لم يكن صوت الطبيب وإنما كان صوت الرسام، الذي بدأ حديثه معها متسائلاً عن سبب قفل سماعة التلفون أكثر من مرة، وعند ذلك ضحكت ميرفت من أعماق قلبها وقالت:

ـ لا عليك، لقد حاول أحد الثقلاء إزعاجي بمكالمته الأولى فظننت أن كل المكالمات التي تلتها هي من عنده.

وتحدثت ميرفت مع الرسام بعض الوقت حتى إذا ما انتهت المكالمة نهضت من فراشها وارتدت ملابسها ومضت في طريقها إلى الخروج في رحلة جديدة مع تاكسيها المفضل إلى الجيزة، حيث التقت بالعديد من طلاب وطالبات جامعة القاهرة في طريقهم إلى بيوتهم.

كانوا أشبه بزهرات يانعة يستقبلون الحياة بابتسامتهم، تهدهد خواطرهم أمنيات كثيرة يحاولون الحصول عليها وفي عيونهم عزم الشباب وقوته وإيمانه بالمستقبل الذي يرغبون في صنعه.

وتحسرت ميرفت على الأيام التي أمضتها بعيداً عن هذا الجو، فهي وإن كانت قد تلقت الكثير من التعليم في المدارس الأجنبية في الداخل والخارج لكنها لم تصل إلى الحرم الجامعي، بل اكتفت بالثقافة التي اكتسبتها وتكتسبها من قراءاتها الحرة المختلفة ومن رحلاتها العديدة إلى جميع أنحاء العالم.

ومع كل هذا فهي تحن إلى معاشرة هؤلاء الراغبين والراغبات في مزيد من المعرفة ينهلونه على مدارج كلياتهم المختلفة، وكان هناك في مؤخرة المجموعة شاب دقيق تفاصيل الوجه طويل القامة نحيل القد يرتدي ملابس شبه بالية لكنها نظيفة، يمشي على مهل حتى إذا ما التقت عيناه بعيني سائقة التاكسي نادى على التاكسي بلا مبالاة ثم طلب من قائدته التوجه إلى حيث يشير.

كان الشاب زائغ النظرات مشغول الفكر، يحمل بعض الكتب ومظروفاً أبيض بباطنه أوراق عديدة.

وقد أعطى أوامره للسائقة دون أن يدقق النظر فيها، وكأن وجودها إلى جانبه لا يعنيه على الرغم من أنه حينما صعد إلى التاكسي لم يختر مكانه على المقعد الخلفي وإنما اختاره بجانبها.

كانت عينا الشاب مسمرتين على الطريق وعداد التاكسي، حتى إذا ما وصلت السيارة إلى كبري قصر النيل طلب الراكب إيقافها وترجل منها بعد أن نقد ميرفت أجرها وطلب في كلمات مستحيية أن توصل المظروف المرفق إلى أول قسم للشرطة تجده في طريقها، لكن ميرفت ترجلت هي الأخرى وقالت:

- اعذرني يا سيدي عندما أسألك وقد رأيت في وجهك علامات كثيرة توحي بأنك قادم على أمر تكرهه، ما هو هذا الأمر؟

وأجاب الشاب بلا مبالاة:

- لقد نقدتك آخر قرش في جيبي وفي داري أيضاً بعد أن عرفت بأن لا قيمة للنقود فيما أنا قادم عليه، لقد كرهت هذه الحياة ومللتها، فلقد كانت قاسية دائماً معي، فأنا من أسرة معدمة ذهب عائلها، وانغمست والدتي في العمل اليدوي تحاول من خلاله أن تخلق لي المكان المناسب في هذه الدنيا.

وبالأمس القريب ودعت هذه الأم وواريتها في التراب، وقلبت جميع أموري، فعرفت أنني إنسان ضائع لا يمكن أن يكون شيئاً مذكوراً، فآثرت السلامة على أن أمضي في محاربتها.

صحيح لقد وصلت إلى العام الدراسي الثاني في كلية الحقوق، لكن تجاوزي هذه المرحلة لن يعطيني القدرة على إكمالها.

لقد حاولت أن أعمل في أكثر من عمل، فسدت أمامي أبواب الرزق وتخلف عني جميع الرفاق حتى صاحبة الغرفة صديقة والدتي بالأمس، هي الأخرى تنكرت لي وطالبتني بأجر غرفتها.

لقد بعث كل شيء فيها لأسدد ما عليّ من ديون، وهأنذا كما ترين أفكر في إنهاء حياتي بيدي، وفي هذا النيل متسع لأولئك الذين لا يجدون الأرض التي يمكن أن يدفنوا فيها.

صدقيني يا سيدتي أنا واحد من هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون عندما تحين منيتهم شراء مدافنهم، وأنت تعرفين أن كل أسرة من أسر مصر صاحبة مدفن، وأنا لا مدفن لي ولا أسرة.

وضحكت ميرفت من كلماته، لكن الشاب قاطعها في امتعاض وقال:

ـ تضحكين من خيبتي ولك الحق في ذلك.

ولكن ميرفت أجابت:

ـ لا، فأنا أضحك من أشياء أخرى، فأنت يا صديقي مللت الفقر وأنا مللت الغنى.

والتفت الشاب إليها وقال باستهزاء:

ـ مللت الغنى وأنت سائقة تاكسي؟

وأجابت ميرفت:

ـ لا عليك، دعنا نتفاهم قد يصلح الدهر ما فسد بالنسبة لك ولي، ولتعش ساعات أخرى فقد أستطيع في هذه الساعات أن أغير رأيك.

وأمعن الشاب فكره ثم قال:

ـ لا بأس.

وأخذ مكانه إلى جانبها بينما اختارت هي طريقها إلى القصر الذي فتحت أبوابه في سرعة، ومضيا إلى الصالون والشاب في دهشة من أمره لأن جميع ما يراه يخالف ما كان يتوقعه، فقد ظن أن هذه الأنثى تريد فقط أن تثنيه عن عزمه على الانتحار، وأنها ستأخذه إلى بيتها الصغير. أما أن يرى نفسه في مثل هذا القصر الفسيح فهو أمر لم يكن يفكر فيه أو حتى يحلم به.

الفصل الأخير

استقبلت الأوساط الثقافية والأندية الأدبية الرواية التي ظهرت مؤخراً في الأسواق بعنوان «ميرفت صاحبة الرداء الأبيض» بكثير من الترحاب، وأسهب النقاد في الحديث عنها على صفحات الصحف، وأشار معظمهم إلى أن الكاتب كان صادق الإحساس، قادراً على تلوين الكلمة وإعطائها مدلولها بعمق وثقافة.

وكانت الرواية محل حديث المجتمع الأرستقراطي الذي أخذ يتدارس أحداثها في لهفة، لا لأن مواقف الرواية كانت من الصدق والإجادة في وصف حقيقة ما يجري على لسان البطل أو البطلة على جانب كبير وإنما لأن الكاتب استطاع أن يعطي في روايته خلاصة تجاربه الطيبة والسيئة في آنٍ واحد وأن يدافع في إخلاص عن كل تلك المواقف.

وهو أمر لا يتيسر عند أولئك الذين يمعنون في الخيال ليلبسوه ثياب الحقيقة ثم يجرون بأقلامهم على صفحات الورق في وصف وإسهاب قد يلامس شغاف قلوب بعضهم فيرضى عن كل ما كتب، وربما لا يمس شغاف نفوس الآخرين فيرفضون ما كتب.

وكان الكاتب مجهولاً فجاءت روايته الأولى لتكرس تواجد قلمه بين الأقلام الشابة التي أمعنت في البحث عن حقيقتها واكتشافها، ومن ثم كشفها للقراء الذين أصبحوا أسرى لهذا النوع من الكتابة.

ولقد استطاعت ميرفت أن تجند كل إمكاناتها لنجاح الرواية، فأعدت لها جميع وسائل الإعلام التي ساهمت عن قصد وغير قصد في ترويجها كعمل أدبي جديد يمارسه نوع من الناشئين لفظوا الخيال

وجنحوا إلى اجتراح الحقيقة.

وقرأت ميرفت الرواية ثم أعطتها لشادية التي أطرت هي الأخرى قلم كاتبها وقدرته على الوصف والإسهاب فيه والغوص في النفس البشرية بشكل لم يسبق له نظير، وكانت فرصة أن يقوم الرسام بزيارة ميرفت، وقد اعتادت هي الأخرى على هذه الزيارة فتقوم بإطلاعه على فصول الرواية، وعندها تطوع الرسام لتجسيد معاني الفصول في لوحات رشيقة جاءت هي الأخرى صادقة المعاني واضحة الملامح مستوعبة أهداف ومرامي الكاتب.

وهكذا صدرت أول رواية للكاتب الجديد في أسواق القاهرة، ليتلقفها المجتمع المخملي الذي كان جميع أفراده يحاولون تأويل معانيها وتطبيق مواصفاتها على أصدقائهم وصديقاتهم.

وكان أول الوافدين لقصر ميرفت المنتج صلاح الذي حاول بأسلوبه إقناع المؤلف بضرورة إخراج الرواية كفيلم سينمائي، يستطيع من خلاله أن يجسد معاني كلماتها وفصولها المتعددة.

وافق وحيد على رغبة المنتج، لكن هذا الأخير أصر على أن تكون بطلة الفيلم ميرفت نفسها، فلم تمانع وإنما لبت الرغبة في هدوء، وأخذت طريقها إلى البلاتوه لتصور مشاهد الرواية وكأنها عريقة في هذه المهنة.

وكسب المجتمع الفني بهذه الرواية الكاتب والبطلة، واستقبل الجمهور أحداثها وهي تعرض في أفخم دور السينما بالمزيد من الإعجاب، وأصبح الحصول على تذكرة لمقعد حلم من أحلام الشباب.

وكانت ميرفت سعيدة بالكسب الأدبي الذي ناله وحيد، ذلك الشاب الذي التقطته من بين أنياب نهر النيل في ساعة من يوم ما.

وكبرت سعادتها وهي ترى غرس يديها ينمو، لكن نماءه هذا لم يكن سهلاً، فقد كان الشاب من أولئك الذين وضعوا نصب أعينهم أن لا يكونوا عالة على أحد.

ومن هذه الرواية لاقت ميرفت الأمرين، فقد كان أول شرط لوحيد هو قبول ضيافتها على أن يعمل أي شيء ليكون جديراً بالعيش.

واختار في ذلك الوقت نوعاً من العمل مارسه عن هواية، فكانت زراعة الزهور وتربيتها وإعدادها من نصيبه، حتى أصبح القصر عبارة عن حديقة تموج بأنواع شتى من الزهور النادرة والغريبة.

ومضى في دراسته بعد أن تفاهم مع ميرفت على المرتب الذي يتقاضاه لقاء هذا العمل.

وكان يدفع نصف ما يتقاضاه مقابل طعامه وسكنه، ويحتفظ بالنصف الآخر للأيام السود التي كان يتحدث عنها فيما بينه وبين نفسه.

ورغبت ميرفت في التعامل مع وحيد بالطريقة التي أرادها وانصرفت بكل قلبها لتدفع في شرايينه حبها وتقديرها.

لم تكن صاحبة القصر أو حتى صاحبة العمل بمقدار ما كانت الصديقة الوفية للشاب نفسه، لدرجة أحس فيها وحيد أنه أسير صنع هذه السيدة التي دفعت عن نفسه الخوف وأحاطت حياته بالتطلع نحو المستقبل بنظرة ملأى بالتفاؤل والأمل.

ومضت الحياة بين الشابين هو بين زهوره وكتبه وهي في غرفتها بعد أن طلقت الجري وراء التاكسي واستعاضت بديلاً عنه بالغوص في بطون الكتب والسهر عند شادية وفريد.

وكانت شادية وفريد يشجعان ميرفت على السير في الطريق الذي اختارته، حتى إذا ما نال وحيد شهادته الجامعية قدمها إلى ميرفت في اعتزاز.

وفي يوم من أيام الربيع كان لقاء بين الكاتب والبطلة شاء كل واحد منهما أن يصارح الآخر بما يكنه له من حب واعتزاز، ودار بينهما حديث طويل لم يقطعه في تلك اللحظة إلاّ وصول شادية وزوجها اللذين جاءا لتوهما من رحلة في خارج مصر.

أحست شادية بالسعادة التي تغمر نفس صديقتها فعرفت بأنه الحب وقد بدأ يتسلل إلى القلب الشاب، وكانت من ذلك النوع الذي يتفانى في حب أصدقائه فقالت لميرفت وعلى مسمع من الجميع:

ـ صدقيني لا يمكن أن تكوني على هذا المقدار من السعادة إذا لم تكوني تحبين، لكن ترى من هو السعيد الذي استطاع أن يظفر بقلبك؟

لكن ميرفت لم تجب وإنما جاست ببصرها في وجه وحيد الذي ألقى بنظره

إلى الأرض في استحياء، فقد كان يود أن لا يعلن هذا الحب غير المتكافىء.

لكن شادية لم تصمت وكأنها قرأت ما بنفسه وقالت:

ـ لا عليك يا وحيد. لقد أثبت بأنك أهل لها بما صنعت، واليوم دعوني أهنىء نفسي بما رأيت. إن ميرفت، وأنا صادقة فيما أقول، عزيزة على قلبي، ولهذا فقد كنت حريصة على أن تنهي لعبتها ثم تعود وقد أعطتها القوة ومنحتها القدرة لتختار وليفها وفي هدوء بعيداً عن صخب الليالي وضجيج الحفلات.

أما فريد فقد مضى هو الآخر في حديث طويل مع وحيد يشجعه على ارتياد ذلك المجهول الذي يسمونه الزواج.

واتفق الجميع على أن يكون الأسبوع القادم موعداً لحفلة تقيمها شادية بمناسبة خطوبة صديقتها.

وخرج فريد وشادية من القصر بعد أن قامت الثانية بالاتصال بجميع الأصدقاء والصديقات لدعوتهم إلى الحفلة التي ستقيمها في بيتها.

وتلقى الجميع خبر حفلة شادية بشيء من الاستغراب لا سيما وأن هذه كانت قد نأت بنفسها وزوجها عن قبول الدعوات أو توجيهها.

وفي الموعد المحدد توافد المدعوون إلى دار شادية ليشاهدوا المفاجأة.

لقد جاءت ميرفت بملابس بطلة الرواية لتعلن على الجميع خطبتها للكاتب الروائي الجديد وحيد، وصفق الجميع ما عدا الطبيب عبد التواب والمحامي سلطان اللذين رأيا أن الفرصة قد ذهبت من بين أيديهما، وأحسا بخنجر مسموم يصوب إلى صدر كل واحد منهما.

وعندها دخل الرسام إلى الصالة التي جمعت العديد من أصدقاء وصديقات ميرفت وشادية ليقدم على مرأى الجميع صورة جديدة لميرفت صاحبة الرداء الأبيض كهدية منه لصاحبة التاكسي التي عرفها.

أما ميرفت فقد ضحكت من كل قلبها وهي تتلقف الصورة الهدية بين يديها وكلمات الرسام ترن في أذنيها وقالت:

ـ أوتدري يا صديقي؟ لقد أعطاني التاكسي أجمل هدية وأشارت إلى وحيد.

ونظرت إلى السماء ثم تذكرت حكايتها مع الشاب الأعمى وحديثه لها

فضحكت طويلاً مع نفسها، واتجهت ببصرها مرة ثانية إلى وحيد وكانت تكلمه هذه المرة وكأنهما بمفردهما لا يشاركهما في المكان أحد وقالت:

ـ لقد انحسر الظلام وانقشعت الغيمة ووضحت الرؤية وبدت الحياة بمنظارها الوردي تحمل في أحشائها حقيقة يجب أن لا تغيب، هي أننا لا نملك في دنيانا من أمرنا شيئاً.

وارتفعت في أرجاء الصالة زغرودة عالية، فتطلع الجميع إلى السيدة التي أطلقتها فهالتهم المفاجأة.

كانت في هذه المرة المرأة الإنجليزية بأوداجها الحمر تعلن بهذه الزغرودة نهاية حب من طرف واحد ربط زوجها الطبيب عبد التواب بسائقة التاكسي.

ومضت الزوجة الإنجليزية إلى مكان الطبيب لتمسك بساعده ثم تغادر الصالة شامخة الرأس مرفوعة الصدر.

أما الرسام فقد شاقه المنظر فاندفع يجسده بريشته على أوراق كثيرة وكأنه يؤرخ لهذه المناسبة بعدة صور.

أما ميرفت فقد كانت في قمة السعادة تنظر إلى المستقبل بمنظار وردي، فلقد أحال هذا التاكسي حياتها إلى واحة وارفة الظلال متشابكة الأغصان ملأى بالطيور النادرة والزهور الفوّاحة.

لقد عادت معالم الطريق إلى المستقبل أمام عينيها ممهدة واضحة بعد أن انحسرت عنها ظلال السأم والملل، وبدت تتهادى أنوارها الساطعة كمصباح يشع نوره ليضفي على حياتها الجديدة من أسباب المتعة والسعادة والرواء ما هي بحاجة إليه.

ورفعت ميرفت وجهها إلى السماء وقالت:

ـ حقاً لقد انحسر الظلام وبزغ نور الفجر يطل من العيون المحبة، تلك التي ترقب حياة يوم جديد في أمل واستبشار.

وابتسمت من كل قلبها وهي تتطلع إلى عنوان فيلم شادية الذي أخذ يبدو من بعيد، تطل من واجهته كلمة رائعة لم تعرف معناها من ذي قبل أما اليوم فقد وضحت معالم الصورة أمام عينيها في أبهى منظر، وبرزت معاني الكلمة فهي حقاً امرأة، و «امرأة رائعة» لا بقايا.

رسائل ملونة

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
ط ٣ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

- امرأة من تركيا
- الإِعصار
- الغادر العائد
- سها
- فاطمة والقرية
- زوجة في الظل
- وتكبر الفرحة
- القلب الكبير
- قصّتي معه
- غبية ولكن جميلة
- عقارب الساعة الجديدة
- أبي وزوجته وطلال الصغير
- عودة الغائب
- أبو «وشيع» القرية
- الحب الذي مات
- وتشرق الشمس
- في الزحام
- حلم ثقيل

الفصل الأول

صديقي العزيز. غداً ستكون في مفترق الطرق، ستنسى الماضي بجماله وروائه وحلاوته وشكوكه وعذابه وكل شيء فيه، وتختار طريقاً آخر سيكون كل منا فيه على طرفي نقيض:

هكذا اخترت أنت ورضيت أنا ولم يكن في اختيارك رضى ولا في رضائي أمل في أن نعود كما كنا يوم التقينا على مقاعد الدراسة هناك في بلاد الغربة. جئت أنت من المشرق وأتيت أنا من المغرب وبين المشرق والمغرب روابط كثيرة نسيناها يوم رأينا أن نفترق.

يقولون إن العقل والمنطق يرفضان أن يرتبطا بجدران اليأس في سنوات مبكرة، فكنا أشبه بعصفورين يوم التقينا، وكنت أنا أشبه بحدأة كبيرة وأنت غراب أسود يوم اختلفنا واختلفت بنا المسارات. قد يكون قربنا في المغرب من أوروبا هو السبب وقد تكون الحرية التي رضعتها هي السبب أيضاً لكننا عندما نناقش أنفسنا في صمت.. سنجد أن السبب هو أنا وأنت وليس أنا وحدي.

أعرف أنك مرتبط بأرضك السمراء وتعرف أنت بأنني أحب أرضك كما يحبها كل إنسان في بلادي لكن ظروف الحياة مع أسرتك ربما جعلتك تحاول أن تهدم ما بنيناه وبسرعة عجيبة.

لا تصدق كلمتي عندما قلت لك بأنني أكرهك فأنا وإن قلتها إلا أنني أكره نفسي لأنني أحببتك، أكره رعونتي، وأعرف بأننا سنلتقي وعندما نلتقي سنتحدث وعندما نتحدث سيكون حديثنا شيئاً مغايراً لأحاديث الأمس، أنت يا من كنت تقول لي بأننا مخلوقان لبعضنا، فصدقتك ولم أنظر إلى عينيك لأرى أنك تضمر شيئاً غير هذا الذي قلت.

لقد قالت لي أختي مراراً إنني سأضيع في هذه التجربة، وكانت صادقة لأنها تعرف معنى ارتباط أمثالك بالأرض والأسرة وإن كنا كلنا جميعاً مرتبطين بالأرض والأسرة لكن ظروف الحياة في أرضك تمنعك أن تواصل مرحلة الحياة كما يريدها قلبك.

أنت مشدود يا صديقي لتفاهات كنت أظنها كذلك حتى عرفت من عرفت وكان هو الآخر من بلدك قالها في صدق.

نحن أبناء الشرق قد نرضى بالحب لكننا لا نتزوج عن حب.

أعرف يا صديقي أنك ستتزوج.. وعندما ستتزوج لن ترى التي ستقترن بها إلا ليلة الدخلة وأنت راضٍ وسعيد، لأنها التقاليد التي جعلتك هكذا تعيش أسيراً لها مدى عمرك.

لقد اختلقت الخصام وأنت في طريق العودة لتقطع علي الطريق وكنت أعرف ذلك وأتجاهل ما أعرف ربما لأنني أحببتك، وربما لأنني كنت أخاف على نفسي من صدمات الحب.

تلك هي الحقيقة، حقيقة الحلم الذي عشت حتى إذا ما فتحت عيني عرفت الأشياء على حقيقتها، فأنت بالفعل قد أحببتني كما أحببتك لكن تقاليدك منعتك من أن تواصل الرحلة وقنعت بأن تعود بمفردك وأنا الذي كنت أهيىء نفسي لأن أعود معك.

صدقني أنا لا أغار عليك منها هي التي ربما كانت إلى جانبك لا لأنني لا أغار، وإنما لأنها هي الأخرى مظلومة معك مثلي.

يا صديقي الذي عرفت وأمضيت معه أربع سنوات طويلة هنا في هذه العاصمة الأمريكية المضيئة نجوب شوارعها ونقطع فيافيها في سعادة.

قد أحترمك بالفعل لأنك طوال سنوات حياتنا معاً لم تقطع عهداً بأن تتزوج «تتزوجني» وكنت تهرب من الإجابة عن تساؤلاتي عندما كنت أتحدث معك عن نهاية هذا الحب. كنت أرى الجواب واضحاً على صفحة وجهك كفارس يريد أن يهرب بعيداً عن مربط فرسه.

لطالما تحدثت معي عن الحياة في بلادك وقلت أشياء كثيرة أحفظها عن

ظهر قلب وقلت وقلت..

قلت إن مجتمعكم لا يرحب بالأجنبية، وقلت أشياء فهمتها وأشياء لم أفهمها حتى كان الفراق.

ورأيت أن أكتب إليك، وكتبت هذه الرسالة أكثر من مرة، وحملتها معي هنا وهناك. وعندما وجدت من واجبي أن أبعثها لك ألقيتها مع ضباب الأيام في صندوق البريد.

صدقني عندما أقول بأنني عندما عدت إلى حيي في مراكش وجدتهم قد رتبوا أمور تزويجي من إنسان لا أكن له أي كره ولا حب ولكني رفضته لأنه مثلك لا يريد أن يتزوج عن حب أما أنت فأنا واثقة بأنك معها التي اختاروها لك تمثل أدوار الحب وهي المسكينة لا تدري بأنك قد أجدت هذه الأدوار لكثرة ما أسمعتني إياها في الغربة.

المرأة يا صديقي في المجتمعات العربية مظلومة وهي أيضاً في المجتمعات الغربية والأمريكية مظلومة وإن اختلفت أنواع الظلم. فهي في الأولى مشدودة لتقاليد عرجاء كنا نظن أن العلم يستطيع أن يمنحها الهروب من سماء حياتنا بلا جدوى وهي في الغرب مظلومة لأنها وقد أصبحت ألعوبة في يد الرجل يصنع منها تلك الدمية التي تظن نفسها أنها حرة وهي مقيدة إلى الرجل الذي شاء أن يمنحها ويسترضيها وينساها ويهينها أيضاً ويدفع بها لأن تعمل في الطريق.

أنت وأنا نعرف معنى أن تعمل المرأة في الطريق فلقد رأيناها سوياً تكنس شوارع المدينة الأنيقة مع تباشير الفجر الطالع ذات يوم أو تنسى ما كنت تقوله عن المرأة في الغرب يومها كنت أستمع إليك وكنت أظنك فيلسوفاً جاء من الشرق كما جاء غيرك من قبلك ولم أكن أعلم بأنك "تتشاطر" معي لتريني ثقافتك وهأنذا وقد رأيت جهلك أيضاً أجد من واجبي أن أغفر لك فأنت ضعيف يا صديقي لا تملك القوة لأن تصنع ما تريد.

أما أنا فقوية، سأقول لا للأسرة. وبكل فمي وملء قلبي إيمان بأنها الحقيقة يجب أن أصنعها معهم بعد أن تعلمت.

أما أنت فلا تعيش في سويداء جدة، أبوك وأمك والأسرة وكأنك الكم

المهمل الذي لا يستطيع أن يعرف أو يفكر.

سامحني يا صديقي فأنا لا أنفعل بكلماتي بمقدار ما انفعلت بكلماتك أنت الساخر الغريب والصامت الكبير الذي نسي الحب فجأة وعاد ليترك النسيان والنسيان فقط.

المرأة وردة يا صديقي، ولكنها وردة ملأى بالأشواك فاتق شرها ولا تنس أنني كنت وردة كما قلت كاسمي ولكنني لم أكن بلا أشواك مرة واحدة في حياتي.

أنا لم أعطك سوى الصحبة، على طول صداقتنا معاً وكنت أنتظر أن أعطيك كل شيء بعد أن نتزوج.. قلبي وأشواقي وأشواكي أيضاً لكنك لم تسمع وجيف قلبي وأنا معك.

كانت صديقتي سلوى صادقة عندما قالت لي أنت تضيعين وقتك مع إنسان مثلك وكان الأحرى بي أن أختار إنساناً غيرك فجميع زميلاتي تزوجن في ديار الغربة أما أنا فكنت أرفض.

ربما كان فيّ شيء مما فيك ولهذا احتفظت بقلبي لك حتى إذا أضعته عدت إلى بلدي ألملم جراحي وأبحث عن طريق جديد أجد فيه ما افتقدت.

أثق بأنه ليس من السهولة بالنسبة لي أن أنسى بأنني أحببت لكنني عندما أفكر في هذا الذي جرى أقنع نفسي بأنني لم أكن مخطئة فنحن الحرائر عرضة لأن نقع فريسة وهم كبير نسميه الحب، لكننا عندما نستيقظ ونرى معنى هذا الحب الذي جاء هكذا فجأة وحاولنا أن نفلسف أمور حياتنا وفق جزئيات كثيرة ربما تناسيناها عمداً نجد أننا على خطأ لكننا أنا وأنت لم نخطىء.

لم أخطىء وأقولها ملء صوتي عندما أحببتك فلقد درستك ودرست أخلاقك وأسرتك والبلد الذي أتيت منه وتعرفت على جوانب مشرقة لن أنساها لكن كل هذه الصور أصبحت باهتة.

لا تظننَّ أني أستجديك الحب وإنما الذي أردت أن أقوله لك فقط بأنك لو عدت إليّ وطلبت يدي هذه المرة لرفضتك لأنك إنسان ضعيف الشخصية رغم

جميع مقومات شخصيتك.

قد أُبقي عليك صديقاً وقد نلتقي يوماً ما، فأرضك بالنسبة لي عالم هام يجب أن آتي لزيارته فأنا مسلمة ويوم أجيء إلى أرضك لن أكون وحدي وإنما سيكون معي زوجي الذي سيكون فيه شيء منك وأشياء أخرى أنت في حاجة لأخذها منه..

ونم قرير العين، تغفو على صوت ذكريات قد خفتت وإن كنت أعتقد أنك تحاول إيقاظها دائماً بلا جدوى. فالضرب والإيقاظ في الميت حرام كما يقولون.

لا.. لا أريد أن أقول شيئاً جديداً بل أدعك تذكر وتذكر وتذكر.. وحاول أن تنسى كما أحاول يا صديقي الغريب.

والتفتت إليه زوجته قائلة:

- ما بالك ساهمٌ يا رياض؟

- لا شيء يا عزيزتي.

- ولكنك أطلت القراءة في هذه الرسالة التي بيدك.

قد يكون ذلك صحيحاً فهي رسالة عزيزة ذكرت فيها أشياء كثيرة أحببتها ويحبها هو:

- أويمكن أن أقرأها معك؟

- ربما في يوم من الأيام.

وصمتت زوجته، وأخذت طريقها إلى فراشها وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة خالها شيئاً جديداً عليه وأخذ يقارن بينها وبين تلك التي أحبها فلم يجد شبه مقارنة.

فزوجته من الأرض التي ولد فيها وهي أنثى لا تعرف من الحياة إلا الجدية. وإلا ماذا يقول عنها وهي تصدق كل ما يقول وتوافق على ما يرغب؟

قد تكون بالفعل نعمة كبرى له في مجتمعه الذي أحب.

وقد لا تكون لكنه يؤمن بأن صوت العقل والمنطق أفضل طريق للحياة الهادئة التي يتطلع إليها.

ترى هل يتذكر الذي نسي أم إنه لا يزال أسير كل ذلك الذي نسي؟

لا يريد أن يعرف وإن كان يؤمن بأن ذاكرة الحياة حافلة بالكثير مما يريد أن ينساه الإنسان.

الفصل الثاني

صديقتي العزيزة.

لا أخالني مقصرة فهذه هي الرسالة الثالثة التي أبعث بها إليك بعد زفافي. لكنني لم أكن أنتظر منك الرد على الاثنتين لأنهما في رأيي لا تستحقان الرد: لتشابه ألفاظهما ولكوني لم أقل فيهما أي شيء عن حياتي الجديدة.

الزوجة يا صديقتي في بلادنا شيء يغاير الزوجات في الخارج، كما أنها تغاير زواج الجدات أولئك اللواتي عشن حياتهن في صمت وصمت دائب يؤمن على كل كلمة يقولها الزوج والحمو والحماة بالموافقة.

نحن يا صديقتي شيء مغاير، بين بين، نحاول أن نأخذ لأنفسنا وصفاً يغاير أوضاع ترهات الأمس.

ولا أخفي عليك بأن زوجي لا يحبني ولا يكرهني وإنما أنا بالنسبة إليه أيضاً (بين بين) لكنني أستطيع أن أقرأ ما بفكره رغم كل ما يعانيه وأعرف أنني منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها داره سأكون سيدة بيته وقلبه وإن كان هذا الأخير سيأتي مع الأيام..

زوجي يا صديقتي إنسان مقل للكلام يحمل بين جنبات صدره قلباً عطوفاً، ساعدت دراسته في الخارج على تلقيه أشياء كثيرة في صالح المرأة في بلده ولذلك أجد نفسي محاطة بعناية كبيرة منه وكأنني تلميذة مجدة في دائرة أستاذيته الكبيرة.

قد تكونين أنت أكثر معرفة مني بمشكلة زوجي معها تلك المدينة التي أمضى فيها سنوات دراسة طويلة فأخوك يعرف المشكلة كما يعرفها أخي ولا بد أن أخاك قد أخبرك بكل شيء كما أخبرني أخي.

لكن زوجي لا يعرف بأنني أعرف ولذلك يحاول دائماً أن يجنبني متاهات المعرفة بما يصنع.

لقد قرأ رسالتها الأخيرة إليه وقرأتها معه دون أن يحس. كنت أقرأ الكلمات من خلف الورقة، وكانت تعابير وجهه تحمل معاني كثيرة تحملت كثيراً في نسيانها في تلك اللحظة رغم وجيف قلبي فأنا كما تعرفين أحب زوجي ومن كل قلبي.

صحيح كنت أتمنى أن أتزوجه وكنت أعتقد بأنني غير قادرة على الوصول لهذه الرغبة حتى عودة أخي، ويومها فاتحني أخي في أشياء كثيرة منها سؤال لم تحيّرني الإجابة عنه بمقدار ما احترت في الطريقة التي يجب أن أجيب بها على أخي.

لقد سألني أخي عما إذا كنت أرغب في الزواج، وكانت إجابتي تقبل الرفض والموافقة في آن واحد فقال لي أخي يومها:

- أنت عفريتة فبجوابك هذا أجد سؤالاً تريدينني أن أجيب عليه.

وهززت رأسي وقلت:

- قد يكون ذلك صحيحاً فنحن الحرائر لسنا سلعة تباع في أسواق الزواج.

ولقد همس أخي في أذني باسمه فأطرقت.. وعندما طال صمتي سمعت صوت أخي يقول:

- أنت تعرفينه فقد كنا جيراناً يا ضحى.

وأجبت أخي بما يثلج صدره وأمضيت أياماً في انتظار الزفاف كان خلالها أخي يحدثني أحاديث كثيرة عنه وعن الحياة في الغربة وعن تلك التي أرادت أن تتزوجه فرفض.

ولقد قال لي أخي بأن زوجك كان حكيماً برفضه فاحرصي عليه ولا تفهميه أنك تعرفين فأنت أختي، ولهذا تجدينني أغالب نفسي دائماً حتى لا تنفضح معرفتي لدقائق حياته التي أمضاها في أمريكا ويكفيني أنني أنا وأنا وحدي التي أصبحت زوجته.

تعرفين يا أختاه أحاديثنا التي كنا نفضي بها إلى بعض. لا أقول إنني كنت

أحب زوجي قبل أن أتزوجه وإنما كل الذي أقول بأنني تمنيت بالفعل أن أكون زوجته وقد تحقق هذا الحلم.

لو عدت بالذاكرة إلى كل تلك الأحاديث وما كنت تفضين به إلى أخيك وما يفضي به أخوك لأخي لرأيت بأن المرأة في بلادنا قادرة على أن تصل إلى ما تريد بأساليب قوية ولكنها ليست ماكرة.

ستضحكين بلا شك لكلامي هذا فأنا أعرف رأيك في، وأعرف أكثر بأنك تنظرين إليّ نظرتك لإنسانة (تعرف كيف تتملك) ولا أكتمك الحقيقة فقد كان هذا دأبي في جميع سنوات حياتي حتى تزوجت.

لقد طلقت إلى حين نزعة التملك التي سيطرت على عقلي فترة من الزمن وأصبح من واجبي أن أعي ظروف الحياة فلا أغالي في طلباتي خصوصاً مع إنسان ذكي كزوجي خبر الحياة وعرف دقائقها وفهم جميع أوضاعها بحكم نشأته ودراسته في الداخل والخارج.

كنت أحلم بأن يتحدث لي زوجي يوماً ما عنها تلك التي أحبها يوم كان في أمريكا، لكن زوجي لا يفعل فهو في هذا الموضوع أشبه بأبي الهول.

صدقيني لا أعرف إن كان يحبني حباً جماً خصوصاً بعد كل هذه الفترة فهو إنسان لا يبوح بدخائل نفسه حتى في هدأة الليل. كنت أنظر إلى وجهه وعينيه عسى أن أستطيع معرفة ما يجول بخاطره بلا أمل فلقد صنع زوجي من طينة مغايرة لكل الرجال لكنني مع ذلك سأصل إلى فهم ما غمض عني ذات يوم فهذه طبيعتي. فأنا لا أكف عن المحاولة.

أوتعلمين يا صديقتي بأنني وبعد يوم حافل قضيناه سوياً في مزرعة أبيه في خليص أجريت هذه المحاولة، فبدأت حديثي عن المقارنة بين المرأة في الشرق وفي الغرب ولم أقل المغرب حتى لا أكشف عما يعتمل في نفسي.

ولقد قال لي كلاماً طويلاً رجحت من خلاله كفة المرأة في الشرق حتى إذا حددنا أفكارنا حول المرأة في بلادنا سمعت منه حديثاً أثلج صدري فهو من أولئك الذين يثقون بالمرأة في بلادنا وعندما قلت له بأن الثقة لا تكفي ضحك وقال:

ـ الثقة شيء هام ومقدس ويوم تصل المرأة في أي مجتمع إلى أن يوثق بها كما أقول يصبح الأمر شيئاً ذا شأن.

هكذا قال وفي هدوء.

ـ وفي المغرب؟

وانتفض لفترة وجيزة استطاع بعدها أن يعود إلى سابق عهده وأجاب:

ـ لا أدري وإن كانت كزميلتها في المشرق لكن حكمي عليها يصبح ناقصاً فأنا لم أزر المغرب ولم ألتق بنسائها هناك.

ونظر إلي نظرة من يريد سبر غور شيء ما لكنني ضحكت بدلال وقلت:

ـ ربما كان ذلك صحيحاً فأنا الأخرى لم أزر المغرب أيضاً.

ونظر مرة ثانية إلى وجهي وقال:

ـ ولكنني أعرف بأن أسرتك قد زارت المغرب قبل سنوات.

وأجبت في هدوء:

ـ نعم ولكنها زيارة لهم ولم تكن لي فقد بقيت مع خالتي المريضة أرعاها أثناء غياب أمي.

أتدرين كم غصصت وأنا أكذب لأول مرة عليه؟ فرأيت أن أنظر إلى وجهه لأرى إن كان قد صدق ما قلت أم لا فلم أر شيئاً يدلني على شيء ورأيت أن أستسلم للصمت فكثيراً ما كان الصمت وسيلتي للخلاص من مشاكل الحديث ولقد مرت بي أيام الزوجية وأنا لا أعرف إلا أنني زوجة.

وكنت أحب أن أكون زوجة وحبيبة لكنني لم أستطع أن أستل من قلبه صورة الأخرى. ربما هذا هو الذي كان يخامرني وأنا وهو نتحدث بعد العشاء ذات ليلة كان القمر يوالي إرسال أشعته إلى الأرض وكنا أنا وهو على كرسيين متجاورين ينظر كل واحد إلى الآخر في صمت. وأردت أن أقطع صمته فقلت:

ـ لا شك أن ضوء القمر يمنحك شيئاً من ذكرياتنا يوم كنا في المدينة.

وانتفض لكلمة ذكرياتنا وقال:

ـ وهل كنت تعرفينني يومها؟

وأجبته بضحكة فسأل:

ـ ولماذا لم تقولي لي ذلك؟

وأجبته بأنه لم يسألني عنها.. وفجأة قال:

ـ ولا تعرفين شيئاً عن الأخرى؟

قلت:

ـ ماذا تعني بالأخرى؟

وأجاب في هدوء:

ـ تلك التي كنا نقرأ رسالتها سوياً أنا من وجه الرسالة وأنت من قفاها.

فضحكت ولكنه لم يضحك بل قال جاداً:

ـ أعرف أنك قرأتها ولم تسأليني عنها ولو كنت سألتني لكسبت لك في قلبي مكاناً.

واختلفنا بعد هذه الكلمات ولا نزال مختلفين حتى كتابة هذه الرسالة، فما رأيك؟

الفصل الثالث

صديقتي العزيزة:

لا أدري كيف أبدأ رسالتي هذه إليك. هل أبدؤها بالحديث عن نفسي أو عنك أو عنا نحن الثلاثة أنا وأنت وهو. وإن كنت أعتقد أنها أول رسالة تتلقينها مني وأنت غاضبة.

أكذب عليك إذا قلت بأني قد حفظت بالفعل لكل هذا الذي أصبح فيما بعد بيننا مجرد ذكرى، ذكرى صداقتي لك وذكرى زواجك وزواجي أيضاً، ولن أطيل فأنا وأنت صديقتان رغم كل هذا الذي جرى.

ستستغربين عندما أقول لك بأن كل كلمة كتبتها لك قرأتها عليه قبل كل شيء، ولقد ضحكنا سوياً على الملابسات التي ربطت بيننا جميعاً، ولا أخفيك بأنه كان يود أن لو عشت معه طوال سنوات عمره لكنت بالنسبة إليه أكثر من أم وكان هو يريد زوجة.

ليتك يا صديقتي تحدثت معه عنها إذن لأثلجت صدره لكنه وهو العارف من أخيك بأنك تدركين ذلك راعه هذا الغموض الذي اخترته طريقاً لك في عالم عاش أبناؤه على الوضوح فكانت النقطة الأولى والأكبر في نفسه لغير صالحك.

كان يكفيه منك لو قلت بأنك تعرفين وأن الماضي، ماضي أي رجل ملك له لا لأية امرأة لكنك أثرت الفضول والاستغراب في نفسه فظن بك السوء حتى ذهبت الظنون إلى خوفه على أشياء كثيرة يخفيها لو طالت سنوات العشرة!

الرجال يا صديقتي ليسوا أطفالاً بالفطرة كما قد تتوهم بعض

النساء، بل أكثرهم له من قوة الحدس وبعد النظر ما لا تدركه الأنثى خصوصاً من كان مثله هو الذي عايش الأمور كلها في الغربة وعرف دقائقها فلم ينحرف وينبهر بها في الوقت الذي ضاعت فيه أقدام الكثيرين من أصدقائه.

وهو على كثرة ما يعرف عن مجتمعات أمريكا إلا أنه يجهل الكثير عن مجتمعات بلاده حتى جئت أنا وكنت واضحة النظرة أبحث عن واحة لترتاح فيها أفكاري فلم أجد سواه.

كنت أبوح له بكل شيء مما أطالعه أو أسمعه، وكان هو من الذين يؤمنون بأن وجود الحائط بين المرأة والرجل وهما متزوجان يشل تفكيرهما.

ورغم صداقتنا إلا أنني أنا وأنت من معدن مختلف فبمقدار وضوحي ورغبتي في أخذ رأي زوجي فيما يعترض طريقي من صعاب، كنت أنت من النوع الآخر الغامض الذي يختار طريقه في قوة.

كنتُ أنثى يا صديقتي ولهذا أحب فيّ زوجي هذه الصفة بمقدار ما افتقدها فيك.

إنه يذكرك بخير، ويتحدث لي عنك، وكنت أستمع إليه دون أدنى غيرة لأنني أعرف بأنه قد فضلني عليك ولهذا لا مكان للغيرة.

لقد حاولت عبر طريق أخي أن يبقي عليك وأن أبقى أنا وأنت ضرتين صديقتين فرحتين فلا تظني بي الظنون.

ولقد تحدث لي زوجي عن الساعات الطوال التي تقضينها أمام المرآة عندما يقدّر لكما أن تزورا أحداً من أفراد أسرته وعنايتك الغريبة بملابسك المزركشة وكأنك رغم مظهرك الجامد تحاولين أن تظهري بمظهر آخر غريب.

كان يكره فيك تطرفك في اقتناء الملابس ورغبتك في اضطهاد أسرته في صمت، فكان يأمل أن يكون هناك حديث مشترك بينك وبينه لكنك كنت تصرين على الصمت.

أتدرين يا صديقتي ماذا يسميك؟ لا تضحكي فقد قال بأنه يلقبك بالخرساء الناطقة! ولكم حاولت أن أفهمه أنك غير ذلك كلياً قال لي في تخابث:

ـ ربما كانت تصطنع معك الكلام ولكن حتماً كلامها معك شيء آخر غير

الذي كانت تفكر فيه.

ولكم دهشت عندما رأيت في صندوق الزينة الذي يحتفظ به في خزانته الحديدية أوراقاً عديدة دفع بها إلي لأقرأها.

كان من ضمن الأوراق صور كتبك التي كنت تبعثين بها إلي وعندما كبرت دهشتي وظهرت على وجهي قال:

ـ كان لي من الوسائل ما أستطيع به أن أحصي عليها أنفاسها دون أن تدري. لقد عاملتها بالأسلوب ذاته فقد كنت أقرأ ما تكتب وأحاول أن أبدو كالزوج آخر من يعرف لكنني كنت غير ذلك!

ولقد طلب مني أن أبعث لك ضمن رسالتي هذه، هذه المجموعة من صور أوراقك فلم تعد له بها لازمة بعد أن افترقتما فهو كما يقول دائماً لا يحب أن يحتفظ بأشياء الآخرين الخاصة.

أعرف أنك مشغولة بالتدريس تقضين نهارك وليلك في المدرسة والجمعية.. لكنها نصيحة منه وليست مني: حاولي أن تتعرفي على نفسك حتى إذا وجدتها تسنى لك أن تتعرفي بشخص يمكن أن يسعدك.

أعرف أنني قاسية في كلامي لكنها قسوة المحب الذي يريد إسعاد من يحب وأنت فوق كل هذا وبعده صديقتي وصديقتي فقط.

لا أدري إذا كنت ستستفيدين من رسالتي هذه كما استفدت أنا من رسائلك.. فلقد عرفت أشياء كثيرة عن المرأة والبيت والأسرة والمجتمع وأصبحت لدي القناعة التامة والخبرة الكافية بأحوال المرأة. ولعل من أسباب ذلك اطلاعي على أكبر عدد ممكن من الكتب عن المرأة في كافة المجتمعات لدرجة أصبحت بعدها خبيرة بشؤون المرأة فالمرأة يا صديقتي نسيج تختلف بنيته بين مجتمع وآخر.

هكذا وجدت نفسي مقتنعة بكل الذي قلته لك في رسالتي هذه وأنا واثقة بأنك ستمطين شفتيك ازدراء لكل هذا الذي كتبت، لكني وبِوحي من إيماني بضرورة أن أواجهك بما ارتبكت من خطأ ذلك لأني لا أزال أحس بأنك صديقتي يدفعني ذلك لأن أصارحك بأنك ستفقدين كل من ترتبطين به إذا

اعتقدت أنك بأسلوبك تستطيعين أن تظلي هكذا.

الرجال يا صديقتي يشوقهم أن تفضي المرأة بما تراه وما يجول بفكرها تماماً مثلما تحب المرأة من الرجل وضوحه وصراحته وبأن في هذا الأسلوب ما يجعلهم قادرين على احتواء المرأة التي يحبونها.

قد أكون أنا على خطأ وقد أكون أيضاً على صواب لكن الحقيقة التي لا غبار عليها أن من أسباب هروبه من دائرة مصيدتك أنك لم تكوني صادقة مع نفسك فرأيت أن تهربي من وجه الحقائق بإخفائها فقد كان بإمكانك أن تثوري وفي وجهه فكثيراً ما ساعدت الثورة على اكتساب المواقع في قلوب الرجال.

ستتهمينني بأنني لم أكن أمينة معك وهذه تهمة باطلة وظن باطل. ولا يمنعني ذلك من أن أصارحك بحقيقة أكبر من كل الحقائق فأنت وحدك السبب فيما وصلت إليه وكان بمقدورك أن تحافظي على بيتك وزوجك. وتملئي أذنيه صراخاً عندما يحاول إخفاء أخطائه عنك وتحاولي أنت أيضاً مساعدته على أن يكون معك صريحاً وواضحاً.

أتصور وجهك أمامي وهو يعبر بأحاسيس الضيق لثرثرة إنسانة كانت في يوم ما من الأيام صديقة وأصبحت بعدها سارقة الأزواج.

أليس هذا هو الذي تريدين أن تقوليه؟

قوليها لكل صديقاتنا فقد حرصت أن أسمعها عنك لكنك ترفضين وهذا كما ترين يقلقني كما أقلق زوجي صمتك يوم كنت زوجته.

وتعالي نمد أيدينا إلى بعض رغم كل الذي جرى وصار فأنا أشعر بأنني لا أزال أحبك وأتمنى أن تظلي صديقتي.

الفصل الرابع

سيدي العزيز:

لم أكن أود أن أزج بنفسي في خضم مشاكلك العاطفية لو لم تكن أنت الذي أعطيتني هذا الحق، فأنا بالنسبة إليك لست مجرد خادمة بل أم: اخترت محبتك عن رضى، واخترت أن تناديني بالجدة عن رغبة.

لطالما سعدت بك، تحدثت إليك، هدهدتك في مهدك وغنيت لك بلهجتي التي لا تزال تحمل آثار مولدي في كينيا وكنت تحب هذه اللهجة، وتصر على أن أغني لك أغاني مدينتي القديمة حتى كبرت. ويومها كنت تصر عندما تصاب بالأرق بأن أكون إلى جانبك، ويوم غادرت جدة إلى أمريكا أحسست بأن شيئاً عظيماً قد انتزع من فؤادي، ولا أكذب عليك بأن شعوري كان كشعوري يوم غادرت مدينتي إلى جدة.

كنت أنتظر عودتك دائماً وكنت تتحدث لي عن الحبيبة التي عرفت حديثاً طويلاً كنت أسمعه في ألم، لأنني أعرف بأنك لن تتزوج منها، فأسرتك التي أرضعتك لبان تقاليدها تأبى عليك أن تقضي على هذه التقاليد!

ولقد أريتني صورتها. كانت أشبه بالشفق الذي يختار وقت الشروق بدلاً من الغروب، بيضاء مشربة بحمرة فيها أسرار الجبال والمياه والمحيطات تنزع إلى الطول بلا إفراط.

هكذا عرفتها من أول صورة ومن صورها التي رأيت حتى فاجأتني في آخر رحلة لك لأمريكا بأنك قد عزمت على مفاتحتها بأنك لن تتزوجها، وشعرت بالغصة والألم يواكبان صوتك وأنت

تقول وعيناك تغرورقان في الدموع لكنني لم أقل شيئاً لأنني كنت أعرف أنك هكذا لا تميل مطلقاً إلى اجتراح المشاكل بين أسرتك التي تحب.

وعدت وفي عينيك لهفة الذي أحب، وفي خيالك ذكريات للماضي لم تذهب، وإنما ظلت تعيش في سويداء قلبك، لا وجلة أو خائفة حتى تزوجت. كانت الزوجة الأولى التي عرفت سيدة شابة عاقلة فيها من حكمة المرأة المجربة أكثر مما فيها من رعونة الشباب.

لا أقول لك بأنني أحببتها، لأن قلبي كان لا يتسع لحب أحد سواك أنت يا بني، ولكنني احترمتها.. احترمت صمتها وقدرتها على ابتلاع الألم، ورأيت ما صنعته الأسرة معها من خصام يشهد الله أنها لم تكن البادئة فيه. لقد حاولت أن تجتزىء من حياتها وحياتك كل ظروف القرف والألم والسخرية لكنهن كن أقوى منها أعني سيدات الأسرة اللواتي ناصبنها العداء منذ أول يوم دخلت فيه بيتك.

كنت أرى وأسمع وأسكت فلم أكن أود أن أتدخل في حياتها أو حياتك، رغم أنني أستطيع أن أؤكد بأنها كانت تحبك في صمت، صمتها الذي أخذته أنت على أنه ضدها بيد أنه كان يجب أن يكون معها، فالذين يصدقون الحب لا يتكلمون كثيراً!

كانت امرأتك نسيجاً مغايراً لكل النسوة اللواتي عرفتهن، فهي امرأة ذات إرادة حديدية تمنح في صمت وتعطي وتهب في صمت أيضاً.

كان الواجب عليك أن تحافظ على هذه الجوهرة وكان من واجبي أن أتدخل لكنني لم أتدخل لأسباب أهمها «تلك هي عادتي منذ ذلك اليوم الذي جاء في والدك إلى هذا البيت».

وعندما خرجت زوجتك من البيت، قلت إنها ستعود، حتى فاجأتني بأنك ستتزوج، وكنت أظنك تضحك، ويوم تأكدت، عشت ليلة زفافك وأنا أتألم لصمتي، فقد كان بإمكاني دفع كل ما حصل بعد خروجها عن دائرة الضوء، وكان في إمكاني أن أعيدك إلى الصواب.

وجاءت زوجتك الجديدة، فيها شبه غريب من المغربية التي أحببت، لكن فيها أيضاً رعونة الأنثى وطيشها، وهي في مقتبل العمر، رغم أنها والأولى في

العمر ذاته، وعندما عرفت أنها صديقة زوجتك التي طلقت، لم أستغرب أن تقدم هذه الطائشة على الاقتران بك، إذ إن فيها إلى جانب كل ما ذكرت أنانية واضحة، ورأيتك ترمق الجديدة بنظرة مغايرة لتلك النظرة التي كنت تنظر بها إلى زوجتك السابقة.

قد تكون الجديدة أوفر حظاً في خفة الدم، لكن شبهها من تلك المغربية هو الذي جعلك ترتضيها زوجة ولا أقول تحبها. لأنني أعرف نظراتك كلها وأزنها بميزان دقيق يجعلني واثقة من حكمي عليها.

لم تكن الجديدة في مستوى القديمة كامرأة ولا كأنثى. كانت أشبه بصبي شب فجأة عن الطوق لا يحكمه ولا يحكم تصرفاته أي رادع.

ربما كانت المغربية كذلك فأنا لا أعرفها إلا من خلال حديثك لكنني واثقة بأنها أقرب إلى قلبك رغم رعونتها وعدم قدرتها على التصرف كامرأة. واستطاعت الجديدة أن تقفز على مشاكل الأسرة باللامبالاة، فكان ذلك لصالحها بلا شك.

واليوم وأنت تعيش حياتك أرجو ومن كل قلبي أن لا تسيء الثانية لصديقتها، فلقد رأيتها تكتب الرسائل وتعنونها باسم الأولى، وفي هذا العمل الطائش ما يسيء إلى سمعتك وتقاليد الأسرة، أليس كذلك؟

أنت معي بلا شك في أنه يجب أن تصنع شيئاً من أجل إيقاف هذا السيل من الرسائل للأولى، وأنت قادر على ذلك فهل تفعل ذلك؟ تحيتي!

الفصل الخامس

صديقي العزيز:

أكثر من عشر سنوات مضت بعد أن عدت أنت لأرضك وعدت أنا إلى بلدي اخترت خلالها طريقك ولم أختر أنا طريقي بل تزوجت من أول طارق، حتى إذا وجدت نفسي أعانق الظلمة وأعايش التعاسة تركت بيت الزوجية بلا أسف كأكثر فتيات مدينتي التي أعيش فيها.

ولقد استقبلني والدي بشيء من التجهم فقد كان يظن بأنني سأرتاح وألقي بمقادير حياتي للملاح التائه الذي اختاره ولم يذكر بأن حياة الغربة التي أمضيت قد منحتني شيئاً لا أدري كنهه لكنني أحس به يخالط نفسي بشيء كثير من الكبرياء.

لكم أغرقت نفسي في أعمال كثيرة اخترتها بعناية وكنت أظن بأن الفرحة التي كانت تبدو على وجهي بعد أن عدت إلى بيتي ستجعل أبي وأمي سعيدين دون جدوى.

كان أبي يحدثني في ألم ويرجو أن أعاود الكرة ليستريح في قبره عندما يموت، لكنني كنت أرفض مثل هذه التجربة وأحاول أن أناقشه في أمور كثيرة لدرجة العناد. وقد سلم والدي لي القيادة في النهاية فرضيت أن أكون سيدة أعمال من الطراز الأول.

لا أخفي عليك سعادتي وأنا أرى تجارة أبي تزداد وتكبر، وتكبر معها سعادة أبي حتى ذلك اليوم الذي فجعنا فيه بوفاة أبي فجأة.

لكم حزنت على وفاته وشعرت بثقل المسؤولية التي أحملها بعد ذلك رغم أنني عاصرتها منذ سنوات لكن وجوده إلى جانبي كان يدفع بي إلى أن أجيد، ولقد حاولت أن أسير على النهج ذاته لكن كثرة

الطامعين في ثروتي جعلتني أصفي الشركة وأضع رأس مال الأسرة في أموال غير منقولة لها من العائد ما يدفع عني شبح الحاجة لإنسان أي إنسان!

واخترت العمل الصحفي فترة من الزمن أفرغت فيه شعوري وإحساساتي حتى إذا ما مللته عدت من دائرة الضوء إلى دائرة الظل التي اخترتها عن عمد لأبقى إلى جانب أمي في مكتبتي التي تكبر مع الأيام، حتى جاء خالد. ملامحه صورة من ملامحك، جاء على استحياء يطلب يدي من أمي التي قدمته لي. ولقد حاولت أن أقنع نفسي بأن أعاود التجربة، فطلبت منه مهلة شهور أحاول خلالها لملمة نفسي وفهم حقيقة مشاعري وقد خرجت بعد كل تلك الشهور بأنه لا يمكن أن يكون توافق بين إنسانين في الشكل والصورة ولا الأخلاق. ولا أعني بأنني أمتدحك هنا، فأنت جبان يا صديقي، أما هو فقد كان من الشباب المندفع الذي يتأجج عاطفة، بينما كنت أحب فيك ذلك الهدوء المشوب بالأصالة وعمق التفكير، فطردت الفكرة ونسيت «خالد» ونسيت للمرة الثانية الزواج خوفاً من أن أكون مثلك فأنت حسبما عرفت تعيش مع زوجتك الثانية بعد أن طلقت الأولى.

لا تظنّ أنني أتابع تفاصيل حياتك لغاية في نفسي لكنه الفضول يجعلني دائماً أتابع حياة أصدقائي وصديقاتي وأنت منهم.

كثيرون من مواطنيك يزورون بلدي ويمضون فيه بعض الوقت لا سيما خلال الصيف وبعضهم يشتري الدور ليعيش فيها وأسرته، أما أنت فلم تفكر في يوم من الأيام بزيارتنا هنا في المغرب. لماذا؟

لا عليك، فأمي تريد أن تحج هذا العام وبالطبع لا يمكن أن تأتي لوحدها وإنما سأكون برفقتها وقد عنّ لي أن أكتب إليك، فلربما استطعت تدبير من يرعانا خلال إقامتنا في بلدك ولا تخف فلن نكلفك قرشاً واحداً فنحن كما ذكرت لك نعيش في بحبوحة من العيش تمكننا من الإنفاق بسخاء لكنه الخوف من أن لا نتمكن من تدبير أمرنا، فأنا أسمع أن أكثر من مليوني شخص يحجون كل عام وترتيب أمور هذا العدد الكبير من الناس أمر ليس من السهل، فهل لي أن أرجوك أن تكتب لي إن أمكن لتدلني على الطريقة التي يمكن لي أن أحقق بها راحة أمي أثناء تأديتها الحج؟ وإذا كنت ترى بأنك غير قادر على استقبالي

معها فسأبعث بها إليك مع إحدى جاراتها لتكون في خدمتها. المهم أن تؤدي العجوز الحج فهذه الأمنية غاية ما ترجو وتطلب.. فلا تبخل بها عليها هي التي تعرف عنك ضعف ما تعرف عنها فلطالما حدثتها عنك قبل العودة وبعدها.

أنا واثقة بأنك سترعاها ولهذا يمكن لي أن أقنعها بأن تكون مع إحدى الجارات بدلاً مني لأجنبك مقابلتي وأجنب نفسي أمر مقابلتك وإن كان الأمر بالنسبة لي ليس على هذه الدرجة من السوء، ثق بأنها ستسعد بردك كما أسعد أنا أيضاً.

أنا أعرف أنك عندما تراها ستتذكر الماضي بروائه وجماله وإن كنت نسيته أنا لا لأنني أود أن أنساه لكنها الحياة تفرض علينا ظروفاً تقتضينا أن نتذكر وأن ننسى، وبين الذكرى والنسيان خيط رفيع أحس به يدغدغ أحاسيسي أنا المرأة التي عرفت قدماي طريقها في الحياة ولا أقول بين الأشواك لكننا في بلادنا ومع شيء من الحرية التي ننالها نجد أنفسها عرضة لأشياء قد لا تتعرض إليها المرأة في بلادك.

ثق أنني أغبط المرأة في وطنك فهي كما أعرف تعيش أشبه بملكة متوجة كرمها أبوها وأخوها وزوجها، وهذا في رأيي هو الذي ترغب فيه المرأة فالتكريم في رأيي يا صديقي أن تكون قادراً على منح المرأة ما تريده في ظل تعاليمنا الإسلامية التي وهبتها أكثر مما تصبو إليه.

لطالما تحدثت عن ذلك لصديقاتي لكن أكثرهن يملن إلى الدعابة فيجابهنني بكلمات لا أقول عنها إلا أنها غير مفهومة.

المرأة يا صديقي في بعض البلدان سلعة يتباهى بها أولئك الذين وضعوا في ذهنها أنها شيء هام للعرض!

وبالعرض والاستعراض أصبحت المرأة لعبة الرجل حتى في البلدان المتقدمة.

ستقول بأنني أحن إلى ديارك، وهذا صحيح فأنا أحن إلى موطن الهداية في أرضنا الطيبة ولا أقول أرضك فهي أرضي أيضاً.

وأحب أن تتعرف المرأة في كل مكان من هذا العالم إلى ما يهبه الإسلام

للمرأة، ولا تظن بأن في كلامي حنيناً إليك، فقد نسيت أيامنا يوم كنا على مقاعد الدراسة. أنساني إياها ما أحسه في نفسي بأنني إنسانة، وإنسانة من معدن نساء وطنك، ولا تتعجب، فهذه هي الحقيقة التي أخالك تعرفها فلطالما تحدثنا عنها سوياً يوم كان لنا حديث.

وأعود مرة ثانية للحديث عن العجوز التي قلت لي يوماً إنها بمثابة أم لك فأطلب منك أن تحتفي بمقدمها وتساعدها فهي على الرغم من كل الذي حصل تحمل لك في قلبها أجمل الذكرى وأعطرها وتعتبرك ابناً لها يعيش على هذه الأرض.

الفصل السادس

صديقي العزيز.

عدت والعود أحمد كما يقولون. لقد سعدت كثيراً لرؤية الأماكن المقدسة، وشعرت بكثير من الجلال وأنا في طريقي إلى مسجد الرسول. لقد تذكرت ساعتها أن هذه المدينة هي التي خرجت الألوف من الأجداد جابوا العالم ينشرون تعاليم الإسلام، وليشيعوا الاستقرار والحرية في العالم أجمع.

وتذكرت أيضاً وأنا أزور مسجد قباء أنك ولدت على أرض هذه المدينة الطيبة، وأحسست بأنني أعايش عوالم جديدة كنت أقرأ عنها ولا أعرفها.

لكم كنت كريماً وحفياً بي وبأمي التي دعت لك في كل مكان كانت تزوره وخاصة على صعيد عرفات الطيب. ولقد تحدثت أمي عنك حديثاً طيباً ولكنها حمدت الله على أنني لم أكن من نصيبك؛ لأن حياة المرأة في بلدك لم تعجبها، ونسيت أمي بأنها إنما شاهدت الجانب السلبي الذي تعايشه المرأة فقد كان حديث زوجتك قائماً عن الملابس الأنيقة والموضات السخيفة والجواهر الغالية، ونسيت في غمرة حديثها زوجتك الأولى التي وصلت بعد طلاقها منك إلى كرسي الجامعة لتصبح أستاذة في كلية الطب في جامعة الملك عبد العزيز.

لكم أحببت هذه المرأة وشعرت بأنها كانت أقدر مني على تكوين حياتها حيث استطاعت أن تسلك واثقة درب الحياة التي تريدها.

ولكم أحسست بأنني بالنسبة لها مجرد أنثى مراهقة؛ لأنني لم أستمر في تجارة والدي بل تركتها بعد وفاته خوفاً من إخفاقي وعدم

قدرتي على السير بها في الطريق الصحيح.

أتصدق بأنها ـ أي زوجتك الأولى ـ عرفتني فور اجتماعي بها في دار أخيك، وقالت لي كلاماً جميلاً لا يزال يطن في أذني؟

كانت أشبه بأنثى عبقرية لها إرادة قوية وشخصية إنسان كامل، ففتحت لها قلبي وتحدثت عنك لكنها أقفلت فمي بيدها وقالت:

ـ ولكني أريد أن تحدثيني عن نفسك.

لقد شعرت ساعتها بأنها عظيمة فهي لا تريد أن تدخل في تفاصيل حياتك التي تعيش. ومضيت أحدثها عن حياتي وكان هناك بالطبع حديث عنك. لم أكذب أو ألون كلامي، وإنما قلت لها كل شيء، وعندما انتهينا من الحديث طلبت مني أن أزورها في عيادتها التي فتحتها قرب بيتها.

ولقد التقيت هناك بعدد من النسوة العاملات من صديقاتها. كن جميعاً في مستوى يفوق تصوري للمرأة السعودية، ولكم أعجبت بأسلوبها في معالجة أمراض النساء لدرجة جعلتني أرجو أن تكشف علي ولكنها رفضت بإباء قائلة:

ـ ولكنك غير مريضة!

لقد احترمت رغبتها هذه بعد أن تلمست السبب وعرفت أنها محقة في رفضها هذا ولم أعقب، وخرجت من الزيارة كصديقتين.

لا أدري كيف أفضي لك بكل ما رأيت، لكن يكفيني أن أقول بأنك قد فرطت في جوهرة ثمينة واخترت بدلاً منها صدفة فارغة، ولا تظن أنني أتحامل عليك عندما أقول لك هذا، أتصدق بأنني بعد زيارتي لبلدك شعرت بأنك كنت محقاً عندما رفضت أن تتزوجني فأنا إنسانة من طينة لا يمكن لها أن تقبل بنوع الحياة التي تعايشها الزوجات في بلدك، ولولا الجانب المشرق الذي رأيته أثناء زيارتي لزوجتك الأولى لأحسست بالألم؛ فالمرأة في بلدك رغم مشاكلكم أنتم الرجال تمضي قدماً في انتزاع الأشواك من طريقها.

إن المشكلة التي تعانيها المرأة في مجتمعكم هي أنتم أيها الرجال.. فعلى الرغم من أنكم عايشتم مجتمعات جديدة كثيرة لكن عقولكم لا تزال تحمل بصمات أجدادكم أولئك الذين كانوا لا يسمحون أن ترفع المرأة صوتها أثناء

زيارة رجل.

دعني أنتقل إلى الحديث عن مشاهداتي وانطباعاتي الأخرى.

لقد كبرت مدنكم لدرجة الإعجاز وأصبحتم تستخدمون من وسائل الحضارة الكثير لدرجة أعجبتني. أما أسواقكم، فقد كانت ملأى بالخيرات.

ولقد سعدت كثيراً بالجهود التي تبذلها حكومتكم من أجل راحة الحجاج. فأبي كان قد حدثني عن حجته قبل عشرين عاماً ورأيت أن الفارق بين ما كان وما هي عليه بلادكم اليوم كبير وكبير جداً.

يقولون إن التطور اليوم يحسب بما يصرفه الفرد من كهرباء، وأنتم على ما أعتقد تصرفون نسبة كبيرة من هذه الطاقة للفرد الواحد. ولكم شعرت بالبهجة أثناء زيارتي لكورنيش جدة فهو شيء يمكن أن نقول عنه بأنه مفخرة خصوصاً عندما نعرف بأنه قد أنجز خلال سنوات قليلة.

لا شك أنك ستستغرب دردشتي. . فأنت تنتظر أن أتحدث عن الماضي الذي دفنته مع ما كان فيه من ذكريات لا أحب أن أثيرها من جديد، فنحن اليوم أصدقاء، وأصدقاء فقط.

لقد صنعت معي الكثير أثناء حجتي وأمي وأصبح من واجبي أن أدعوك لزيارة بلدي المغرب في ضيافتي، وإن كنت أثق بأنك لن تأتي لأن زوجتك سترفض، فقد شعرت بغيرتها مني أثناء وجودي في جدة. هذه الصبية اللاهية خير زوجة لإنسان مثلك فأنت تريد من المرأة أن تكون كماً مهملاً في البيت كما هي زوجتك.

أعرف أن لديك الكثير من النقود لأنني رأيت الأسلوب الذي تصرف به زوجتك هذه النقود، فهنيئاً لها ولك بهذه النقود التي تبعثرها بعض النسوة في بلادك بلا هدف!

شكراً يا صديقي على كل شيء فعلته لي وإلى لقاء نراك فيه هنا. ولا أنسى أن أخبرك بأني قد دعوت زوجتك الأولى لزيارة بلدي والإقامة في داري وضيافتي، ولقد لبت هذه العزيزة دعوتي هذه وها نحن معاً اليوم نتجاذب أطراف الحديث في حرية نقرأ صفحاتك في هدوء، نناقش أوضاع المرأة في

مسقط رأسك وترهات الرجال من أمثالك، أنت أيها الرجل القابع على كرسيك تحتسي القهوة وأنت غارق في الحديث مع نفسك عن أمجادك، عن البيت الذي تريد والمرأة التي تعجبك والأصحاب الذين هم أقرب الناس إلى قلبك.

لا تظن أني وبعد أن التقيت بزوجتك أصبحت حادة الكلمة.. لا! أقولها وللمرة الألف فأنا التي استطعت أن أجرها للحديث عن مجتمعك بلا جدوى حتى إذا ما فقدت كل أمل رأيت أن أهاجم المرأة في موطنك فانبرت تدافع عنها في حماس استطعت من خلاله التعرف على الرجل صاحب الكلمة العليا في بيته.

صدقني فإنني أحترم هذه المرأة التي لم تقل شيئاً سيئاً عنك. ذكرتك بمعروف واعتبرت طلاقها منك أمر هي السبب فيه. فالمرأة في بلادك يا صديقي يجب أن تكون فيلسوفة.. عرفت علم النفس لتستطيع مسايرة زوجها في بيتها واكتساب مواقع لها في قلب هذا الزوج.

أنتم محيرون أيها الرجال.. تتمسكنون في أيام الخطبة ثم تظهرون بعدها على حقيقتكم، وهذا الأمر ليس وقفاً على الرجال في بلدك وإنما كل الرجال. نسيت أمراً هاماً هو أن الرجل لا يرى خطيبته في بلدك في فترات الخطبة وهذا في نظري قد يكون أفضل؛ لأنه يبعد الرجل عن التلون وإن كان هو يصل إلى أذن المرأة وعينها من صديقاتها فتيات أسرة الزوج.

لقد شاءت زوجتك مراراً أن تقول بأن أيامها أفضل من عهد أيام أمها، وأيام أمها أفضل من أيام جدتها، وحكت لي كيف أن المرأة كانت لا تستطيع أن ترد على طارق الباب بل تصفق له عندما لا يكون رجل في البيت، وقالت لي كيف أن جهاز التلفون أيام أمها يدق ولا تجرؤ على رفع السماعة ما دام صاحب البيت ليس في البيت وقالت كلاماً كثيراً عن أنها ومثيلاتها تعيش أياماً جميلة تختلف كثيراً عن الماضي.

لقد تصورت نفسي لو قدر لي وتزوجتك وكان شأني ما سمعت ماذا سيجري؟ لا أريد أن أستمر في تصوري هذا، لأنني سأرفض بلا شك كل هذه التقاليد.

نحن الحرائر يا صديقي من لحم ودم لنا ما لكم وعلينا ما عليكم فاتقوا الله

في الحرائر أيها الصديق!

أثلج صدري هذه النهضة العارمة في حقل المرأة وسررت أكثر عندما عرفت أنها أصبحت أقدر على اختيار طريقها في مساعدة الآخرين عبر جمعيات كثيرة كانت فيها أنشط وأقدر.

ولك تحياتي..

الفصل السابع

يا صديقي العزيز..

فكرت كثيراً كيف أبدأ رسالتي إليك، فأنا في عرف الشرع والقانون لا أزال زوجتك وإن كنت أنت قد فقدت بالنسبة لي هذه الصبغة؛ لأنك طوال أيام اقتراني بك كنت تعيش في وادٍ وأعيش أنا في وادٍ آخر.

للحقيقة والتاريخ أقول إنني نعمت في السنة الأولى بطعم الزوجة الرائق في فمي ثم افتقدت مع الأيام كل هذا.

أنت تعرف صراحتي، فدعني أقول: أنت أناني يا عزيزي في الوقت الذي كنت تتهمني بأنني أنا الأنانية!

لقد فاق حبك لنفسك حبي لنفسي وكنت أشكو كثيراً من هذه الناحية.

كثيراً ما يقال بأن الإنسان دائماً يجني ثمار ما زرعه. وأنا وإن لم أزرع شراً، لكن رضائي بأن أكون زوجة لك في أعقاب طلاقك صديقتي كان جريمة، جريمة كبرى حاولت أن أنساها في غمرة معاناتي من الحياة بلا جدوى وساهمت أنت في تكبير الصورة أمام عيني.

فأنت إنسان غير عادي، شيطان في ملامح ملاك، تظهر غير ما تبطن، وتصنع في الخفاء أشياء كثيرة.

كنت تغيظني بالعودة إلى صندوقك النادر تلتقط منه صوراً كثيرة ورسائل عديدة تقرأ بعضها في صمت وبعضها الآخر بصوت عالٍ وكنت أضحك في البداية من كل الذي تفعل حتى طفح الكيل وأصبح من حقي أن أغار.

لقد أسميت ابنتنا باسم زوجتك الأولى التي كان لها اليد الأولى لإنقاذي من موت محقق نتيجة مرض أصاب قلبي من عنادك!. وشئت أنت أن تكرم الزوجة باختيار اسمها لابنتنا. ولو تركت لي الموضوع لفعلت أنا ذلك عن رضى. لكن أن يأتي الاقتراح منك وأن تبدي الرغبة بذلك فهو أمر لا أرضاه ولم أستسغه ولكن هكذا شئت وعلي الطاعة.

لقد كبرت الصغيرة وكنت أراها بين يديك تدللها باسمها وتذكر أوصافاً كثيرة تنطبق تماماً على زوجتك الأولى كنت ترددها عن عمد وإصرار وأنا أرى وأسمع. ونظراتك كلها تدل على أنك إنما تفعل ذلك لغاية في نفسك، حتى خادمتك أصبح لا همَّ لها إلاّ مخالفة أوامري، ولقد كانت تصرفاتها نتيجة معاملتك لي وكان الأجدر بك أن لا تفعل لكنها غاية في نفس يعقوب جعلتك تمعن في تصرفاتك الاستفزازية تلك.

أفراد الأسرة جميعاً خاصموني، وكنت أنت السبب كنت تدفع بي لأن أقول كلاماً أمامهم بسبب ودون سبب وكأنك تحاول أن تجد أية طريقة لإبعادي. حتى تلك الليلة التي سمعتك تتحدث تلفونياً مع صديقتك المغربية، كان حديثاً أشبه بالهمس، قضيت ساعات وساعات أفك رموزه بلا جدوى.

لماذا أنت هكذا يا صديقي وإذا كنت تحبها فلماذا لم تتزوجها؟

أتظن أنني لم أغر يوم كانت مع أمها في دارنا تؤدي فريضة الحج؟ كنت تمضي الساعات معها في حديث شائق بت أسألك عنه فلا تجيب وكأنك تأمل أن أعمد إلى حماقات جديدة تهيء لك الخلاص مني أنا زوجتك.. لكنني لم أفعل، وتركت كل شيء يمضي إلى غايته.. وعندما طفح الكيل رأيت أن أخرج بنفسي عن دائرة ضوئك لأكون البادئة بطلب الطلاق.

لقد تحدثت لأخي عن كل هذا وعن أشياء كثيرة؛ فأنت إنسان معقد أناني تجد اللذة في إيذاء الآخرين لدرجة جعلتني أحس بالراحة وأنا أعاود رحلتي للاحتفاظ بقلب زوجتك السابقة صديقتي.

كنت آمل أن أتحدث معها عنك لكنها كانت ترفض.

كبيرة هذه الإنسانة التي استطاعت أن تصل إلى أرقى درجات العلم بعد أن طلقت. وما يدريك أن أصبح أنا مثلها رغم أن الأيام والسنين قد حفرت في

قلبي وعقلي أخاديد كثيرة؟

لكم حاولت أن أقرأ كتب علم النفس لأتعرف إلى شخصية الرجل فيك بلا جدوى لأن ما رأيته منك يفوق كل ما قرأته في هذه الكتب!.

أنت تقبل حيناً، وتدبر أحياناً، وتضحك حيناً، وتؤذي أحياناً.. وتعمد إلى الإثارة والاستثارة وتصنع من الحبة قبة، وتملأ البيت صياحاً وهياجاً على شيء تافه بسيط!

ربما كان لموت أمك وأنت صغير إصبع في كل ما حدث فكرهت المرأة كل امرأة. وربما كانت زوجة أبيك جعلتك تكره المرأة وتحب أن تؤذيها رغم نعومة مظهرك وسلاسة تعابيرك التي تبدو بها أمام من لا يعرفك ويعرفك.

لكنني رغم كل ما قلته وقاله الآخرون عني أملك صفات حميدة كثيرة منها: أنني أنا التي سأهجرك ولست أنت، فإن كنت رجلاً شهماً يا صديقي، فطلقني، طلقني لأرتاح وتستريح ولا يهم بعد ذلك شيء فسأكتفي بتربية ابنتي وأعيش لها، ولا أسمح لها أن تعيش في كنف زوجة أب مثلك فتأتي نسخة عنك.

سأسدل الستار على حياتي معك وعلى حياة الأخريات، وأدعك تنعم بقراءة كل ما يكتب إليك.. فهذا في رأيي سيكفيك يا صديقي العزيز الذي استطعت أن أنجو من براثن مصيدته التي كان ينصبها لاحتواء الأنثى ثم يترك جميع أبوابها مفتوحة لتخرج منها بأمر منه!

لك الله يا زوجي عفواً ـ يا صديقي ـ فأنت أكذوبة كبيرة عشتها وعاشها معك غيري.

يقولون إن الثعابين تغير جلودها دائماً وأنت منذ ذلك اليوم الذي فارقت فيه أهلك وبلادك وعشت في بلد الغربة لم تعد ذلك الإنسان الذي كنا نعرفه. هكذا يقول كل أهلك.

بعض الناس تطهرهم الغربة حتى إذا ما عادوا إلى أوطانهم كانوا القدوة في كل شيء. أما أنت فعلى النقيض تماماً. أنت يا صديقي إنسان لا تعرف نفسك.. ضاعت من تحت قدميك الطريق فلم تعد تعرف كيف ترى الحياة ولا

تذوق طعمها الرائق في فمك.

قد أكون أنا الأخرى مخطئة.. لكنني امرأة والمرأة يا سيدي أمانة في عنق زوجها يستطيع تشكيلها كما يريد، لكنك كنت بمنأى عني. كنت تسبح مع أحلامك التي لم تعرف كيف تحققها بمتاهاتك بين حب قديم وزواج موؤود.

أنت يا صديقي إنسان لا يمكن أن يمنح من ذاته شيئاً. تعطلت قدراتك عن العطاء فأصبحت كما أمسيت.. لنفسك فقط وحتى هذا الأمر فأنت غير صادق فيه.

قد أكون أنا الأخرى أنانية أتيت على أنقاض سعادة صديقتي. لكنك أنت وأخي كنتما السبب، وهأنذا أشرب من الكأس ذاتها التي أسقيت منها صديقتي وإن كانت هي أفضل مني وأقوى.

إنها إنسانة يا صديقي، وإنسانة كبيرة. أما أنا، وأقولها بكل ما في قلبي من إحساس ـ فقد أخطأت. لكنك أنت المخطىء الأكبر في حقها وحقي وحق نفسك وحق مجتمعك الذي كان يظن بأنه عندما بعث بك إلى أمريكا ستعود وتمنحه الطيب الذي عرفت في هذا المجتمع وخاب ظنه!.

أتعرف يا صديقي ما الذي تريده أنت من زواجك وصداقتك؟ إن الذي تريده هو هذه الرسائل الملونة التي تعيش معها دائماً وأبداً. وهأنذا أرضي غرورك فأبعث بهذه الرسالة الملونة إليك. ولكن ثق بأنها الأخيرة لأن قصة حياتك ستارها قد أسدل وانتهت فصولها، ولا أقول فصولها (البايخة)، فهي درس ودرس كبير لي، ودرس لأمثالك ممن يقنعون بالبقاء في الظل ويتركون لغيرهم النور يا صديقي.

امرأة من تركيا

جو كئيب يفرضه واقع الحياة التي تعيشها، ودموع تذرفها الجفون التي هدها الحزن وهي في مخدعها ترمق بياض السقف في سذاجة وشرود.

المطر ينهال كالقرب، وصوت ماكينة ضخ المياه يتعالى في أنغام حزينة.

طرقات خفيفة على باب الغرفة تبدو بعدها «نعيمة» الخادمة وهي متسربلة بملابسها البيضاء ووجهها الأسمر يشع جاذبية رغم قصر قامتها الواضح.

وتلتفت «سهى» إلى الخادمة التي ابتسمت في هدوء وهي تقول:

ـ يطلبونك على التلفون يا ستي.

ـ من يا «نعيمة»؟

ـ ومن هو الذي يطلبك في هذه الساعة المتأخرة إنه «جلال» ابني عفواً ابنك يا سيدتي.

وتبتسم «سهى» رغم كل ما يحيط بوجهها من شحوب وضجر وتأفف وتقول في هدوء:

ـ أخبريه أني نائمة.

ـ أوتريدينني أن أكذب عليه؟

ـ لا عليك يا نعيمة قد تكون كذبتك بيضاء هذه المرة.

ـ لا يا ستي.. لا يهون علي أن أقول له ما طلبت فهو على ما

أحس يريد أن يكلمك في أمر مهم هكذا قال.

ـ كلميه أنت يا «نعيمة»، واتركيني فأنا أعرف ما يريد.

ـ وماذا يريد «سمير» يا ستي؟

ـ «نعيمة». . قولي له ما قلت وأقفلي التلفون فأجور المكالمات من أمريكا غالية ولا أريد أن يدفع الكثير في مكالمة لم تتم.

ـ طيب يا ستي.

وتذهب «نعيمة». . لتعود مرة ثانية، «سهى» ما تزال مع أفكارها التي أخذت تتوارد عليها.

ترى، أيصر هذا المجنون على ما طلب في رسالته؟ لقد ذكر بأنه ينتظر الموافقة على تلبية رغبته بالتلفون لكنها أهملت الإجابة. يقولون إن الأولاد عندما يكبرون ينسون أشياء كثيرة في مقدمتها فهم وقائع الحياة في بلادهم ما داموا بعيدين عنها.

ها. . يريد أن يتزوج من زميلته الأمريكية التي أرسل صورتها بباطن رسالته. تطالع الصورة للمرة الألف!

جميلة هذه الأنثى. في وجهها براءة الطفولة وشعرها الأشقر المتهدل على الكتفين يعني أنها فتاة طيبة. هكذا كانت تقول أمها التركية عن كل فتاة تحمل على رأسها تاجاً من الشعر الأشقر. تلتقط المرآة، تنظر إلى شعرها الذي دبت فيه شعيرات بيض. . لكنه مع كل هذه الشعيرات يظل في لون الذهب عندما يتعرض إلى الشمس الحارقة.

لم تقتنع بالصورة الأولى. ألقتها بعيداً، تناولت الصورة الأخرى. هذا الجسد الرائع الطويل الذي حشر في الفستان الأسود الأنيق يجعلها تنتشي بعض الوقت، ويضيع العبوس من وجهها تحادث نفسها:

ـ ماكر وشيطان هذا الولد. . لقد عرف كيف ينتقي فتاته. . ولكن!. لماذا يحاول أن يضحك على أمه؟ فيقول عن فتاته بأنها شبيهة بها وأن اختياره لها لم يكن ليتم لو لم تكن كذلك؟

وتلتقط يداها صورة من صورها في عز الشباب تنظر إلى صورتها وصورة

«فرانسيسكا» هكذا اسمها، تنطقه بصعوبة، وتكبر البسمة على شفتيها مرة ثانية وتقول:

- يريد أن يرشوني هذا الصغير المشاغب فهي أجمل مني بكثير.. ولكن مع كل هذه المواصفات الطيبة فأنا أكره له أن يتزوج من أمريكية.

ويعاودها الحزن والتفكير. ترى.. أيكون ابنها لا يزال ينتظر بالفعل موافقتها على الزواج؟ وإذا كان هذا صحيحاً، فهل توافق؟

توافق! وكيف توافق؟ هذه الأمريكية، دينها غير ديننا لها من عاداتها وتقاليدها ما يغاير عاداتنا وتقاليدنا، ويوم تجيء إلى هذا البيت ستبدأ المشاكل؛ فجيرانها محافظون وهي أيضاً محافظة، وكل من تعرفهم من طينتها. وهنا في «جدة» جالية أمريكية يمكن لزوجة ابنها أن تختلط بهم يزورونها وتزورهم.. إلى آخر ما لا يمكن أن تقبله.

وتبدأ في قراءة الرسالة، رسالة ابنها مرة ثانية.

شيء ما يجعلها تقرأها، تقرأها في صوت مسموع. تدخل على أثره ابنتها التي فوجئت بها في غرفتها، فتوقفت عن الاسترسال في القراءة.

تسحب ابنتها الرسالة، تؤنبها على فعلتها لكن لا تسمع. هذه الابنة الشقية لماذا تستولي على الرسالة؟

تسمع ضحكات ابنتها وهي تقول:

- إذن هذا الذي يشغلك يا أماه لماذا لم تقولي لي ذلك؟

وتنظر إليها أمها في حنق وتقول:

- هاتي الرسالة.

- لا يا أماه إلا بعد أن أقرأها.

وتمضي (سناء) ابنتها في قراءة الرسالة وهي تضحك حتى إذا انتهت من قراءة كامل الرسالة قالت لأمها:

- أخويا ناوي يتجوز يا ماما واحدة أمريكية من أصل تركي؟

- من أصل تركي يعني إيه؟

ـ يعني أن الزوجة التي سيقترن بها أخي أصلها تركي يا ماما.

ـ ولكن.. كيف عرفت أن أصلها تركي؟

وتريها ابنتها الجملة، فيطمئن قلبها ثم يساورها الشك فتقول:

ـ ولكن اسمها فرانسيسكا.

ـ لا يا أمي اسمها (تركان) أما فرانسيسكا فهو اسم أمها كما يقول أخي.

ـ ومن أين لك هذه المعلومات؟

ـ من رسالة أخي التي بعث بها إليّ. لقد قال لي كل شيء، وأفهمني بأنها تركية، أمها أمريكية وأبوها تركي مسلم وهي حالياً بعد وفاة والدها تسميها أمها باسمها.

ـ صحيح يا بنتي؟

ـ أيوه يا ماما.. صحيح.. وبصدق هي حلوة كثير زيك.. وشعرها برضه زي شعرك.

ـ يا بنت إيش هذا الكلام، وهذي أمريكية والأمريكية دائماً غير مسلمة.

ـ ومين يقول هذا؟ في أمريكا مسلمين كتير وأتراك كتير.

وتصمت بعض الوقت تفكر في كل هذا الكلام الذي دار بينها وبين ابنتها.

ربما لم تقرأ الرسالة بشكل جيد فهي وإن لم تذهب إلى المدارس لكنها فكت الحروف عند «خوجة هانم» في المدينة وتطلب من ابنتها رسالتها التي وصلت إليها، وتستمع إليها وهي تقرأها حتى إذا انتهت نادت:

ـ نعيمة! نعيمة!

وتجيب نعيمة:

ـ أيوه يا ستي.

ـ هاتي التلفون واطلبي لي الولد الشقي.

وتبتسم «نعيمة» وتدير قرص التلفون حتى إذا ما أخذ جرس التلفون يرن أعطت السماعة إلى ستها التي وضعتها على أذنها ليأتي صوت ابنها هذه المرة وهو يقول:

ـ هي أمريكية يا ماما لكن من أصل تركي زي مامتك الله يرحمها.

وتجهش في البكاء وهي تقول:

ـ طيب اللي تشوفه.. بس بشرط تعمل الفرح هنا في جدة.. فرح كبير؛ وكبير جداً.

وتقفل سماعة التلفون ثم تعاود النظر إلى الصورة صورة خطيبة ابنها الأمريكية، لا بل التركية الأصل!

الإعصار

قوافل الزمن أشبه بدوائر الإعصار تمضي في هذه الحياة وفق غاية مرسومة يتدبر أمرها بعض الناس ويدعها الآخرون تأكل أعمارهم دون أن يحسوا بها حتى إذا ما شارفت على النهاية، فتحوا أعينهم ليجدوها على مفترق الطرق. تنظر في خنوع إلى أصداء الماضي ذلك الذي ذهب ولن يعود.

ويشد الزمن خطاه وكأنه يضع بصماته على وجهه فهو يحس بلسعة الهرم تكاد تدب في أوصاله، فينظر إلى المرآة وكأنه يستلهم نظرة أمل في أن يصلح العطار ما أفسد الدهر دون جدوى، فلقد أوغلت به دروب الحياة في متاهاتها، وهو عنها لاهٍ وكأنه لا يدري من أمرها شيئاً سوى أنه يعيش ويأكل ويتنفس ويجري ويمشي على الأرض.

لقد ذهبت أجمل أيام العمر في لهو صاخب يحس به ويؤذيه بعد فوات الأوان. فهو يعرف بأن للحياة نواميس يجب على الإنسان أن يراعيها لتراعيه، ويمنحها من ذاته لتمنحه الحرية والدعة والاستقرار لكن أولئك الذين استهلكوا أعمارهم مثله يصلون إلى أرذل العمر قبل غيرهم، لأنهم لم يحافظوا على هذه الهبة التي منحهم إياها الله عز وجل، وهو يعرف بأنه قد آذى نفسه وجلب لها هذه الأمراض التي تتكالب على جسده في قسوة وأمعنت فيه جرحاً وإيذاءً.

ولا ينسى في غمرة تفكيره المتواصل بأن قوافل الزمن قادرة على أن تخط بيديها على أجساد أولئك الذين هانت أنفسهم عليهم

فمنحوها كل ما تصبو وترغب، وكأنهم بفعلتهم تلك إنما يدقون مسامير نعوشهم بأيديهم في قسوة.

أو يكون هو واحداً من أولئك الذين دقوا مسامير نعوشهم بأيديهم نتيجة تهالكه على هذه الدنيا وتكالبه على ملاذها؟ أم إن كل ماضيه لا يدخل في هذا الصدد.

لا يدري، وبوده لو عرف حقيقة الأمر لهانت عليه نفسه ولأمكن له أن يتعرف على مواطن الضعف في النفس البشرية.

لطالما ردد في صمته وفي صحوه وفي نومه وبين أصدقائه جملة أخذت عليه على أنه هو قائلها بينما الحقيقة غير ذلك وهو يذكر جملته تلك، يذكرها لأنها تذكره بمواقف اختارها عن رضى، وظروف مشى إليها بقدميه، وأوضاع كانت بالنسبة إليه شيئاً بالغ الأهمية.

أو يمكن أن يكون الإنسان مزيجاً من الخير والشر معاً؟ وإن كان ذلك صحيحاً فما هي نسبة الخير والشر للإنسان أي إنسان؟

ويأتي الجواب هذه المرة من فمه وكأنه يدين نفسه بنفسه، فالظروف تضاف إليها الرغبة، وعدم القدرة على الوقوف أمام الشر، يجعل الإنسان أكثر وقوعاً في شرك الشر من غيره.

والشر في النفس البشرية نسبي يستطيع الإنسان العاقل أن ينأى بنفسه ويتخلص منه في كثير من الأحيان.

ترى هل استطاع هو أن يدفع عن نفسه الشر فلا يختلط بدمه، طوال أيام عمره الماضية، أم إنه انساق وراء رغباته فلم يوفق لأن يكون بمنأى عن هذا المزيج الذي يحاول أن يتسلل إلى عقول الناس كل الناس بأسلوبه وطريقته؟

كثيرون الذين يودعون الحياة ولا يدرون أنهم يودعونها لأنهم كانوا بمنأى عن إحساسهم بقيمة الحياة في أعينهم.

وهو واحد من أولئك الذين جنت عليهم ظروف حياتهم فلم تمنحه قدرة معرفة معاني الشر والخير أيضاً.

لقد غاب عن فهمه وإدراكه ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين الاثنين لأنه

لم يكن في الحقيقة راغباً ـ أصلاً ـ في أن يفهم شيئاً من هذا، لماذا؟ لا يدري!

ربما كانت هناك ظروف أقوى من إرادته جعلته يمضي في دروب الشر بقدمين ثابتتين، وكأنه يمضي إلى حفلة عرس تقام تحت أشجار الصنوبر العتيقة.

وهو يحب أشجار الصنوبر كثيراً، لأنها كانت وسيلته للوصول إلى أهدافه فكم امرأة استطاع أن يقنعها بكلام تحت شجرة من هذه الأشجار؟

وكم صديق استطاع أن يدخل إلى أعماقه بحديثه تحت ظلال تلك الأشجار؟

إنه والزمن في متاهة يراها لأول مرة تنطلق عبر الصحارى لتلصق بجدار كل شجرة من شجيرات الصنوبر التي يعرفها، فلطالما حفر اسمه واسم من أحب على جذوها وهو صغير، حتى إذا كبر نسي كل شيء وكأنه قد كتب اسمه واسم من أحب على رمال الشاطىء تلك التي تذروها الريح في كل ثانية من ثواني الحياة الطويلة.

انتهازي فرص، يجيد اقتناصها، ينقض عليها ليداري بها عوامل الشر التي تحيط بنفسه التي يعرفها وهو يدوس بأقدامه كل شيء في سبيل الوصول إلى غرضه.

ما يضيره أن يسمى بالوصولي وهو يعرف بأن كل ما حقّقه من مجد جاء نتيجة (مسح الجوخ) يصنعه اليوم ثم يسحبه غداً عندما يرى أن من مسح له الجوخ قد منحه ما أراد.

أو يكون الحرمان الذي أصابه في طفولته عكس على نفسه كل هذه الأجواء التي مارسها في شبابه وصباه؟

إنه يعرف بأن الحياة تقتضي الكثير من المجاملات لكنها لا تتعدى كونها مجاملات يقصد بها تهيئة الجو بصداقات يعقدها الإنسان بينه وبين الآخرين.

لكنه كان مزيجاً مغايراً لهؤلاء الناس، فهو يدرس الضحية ليعرف أوضاعها ونقاط الضعف فيها، ويعمل على أن يتعرف عليها بأسلوب وآخر حتى إذا ما توطدت أواصر الصداقة بينه وبين ضحيته، استمد منه مقومات حمايته ليمضي

في الطريق لاجتذاب ضحايا آخرين.

ولقد كان يسمي كل ما صنع على أنه (فهلوة) أجاد أسلوبها وعرف مداخلها، واستمرأ ممارساتها وكأنها بالنسبة إليه، هواية واحتراف في آنٍ واحد.

ولقد عصره الندم مرة واحدة في عمره عندما استطاع أن يضحك على والد زوجته التي منحها له، هو الذي عاش فترة من عمره خادماً صغيراً.

لقد خطط لهذا العمل بكثير من المهارة واختار العلم وسيلة للوصول إلى هدفه. حتى إذا ما نال شهادته اقترن بزوجته وهو يعرف سلفاً أنه كشجرة اللبلاب إنما يتسلق جميع الجدران وبأي طريقة وبأي أسلوب.

لكن نفسه لم تهدأ، فهو في أول الطريق، والطريق إلى ما يريد يحتاج إلى قوة الأظافر وقدرة على تحقيق الحديث بأسلوب من يعرف كيف يستطيع أن يستولي على قلب محدثه.

وكانت وسيلته إلى كل ما أراد زلاقة لسانه التي كانت سبباً هاماً جعل الكثيرين يثقون فيه لقدرته على تلوين الكلمة بالدرجة التي يريدها أصحابها.

كان أشبه بالفارس الغشيم الذي يحاول أن يمتطي عنان فرس أصيلة بأية طريقة.

ولقد أحس بانعدام الوزن أكثر من مرة. . لكن إحساسه هذا لم يفت في عضده وإنما أعطاه قدرة الإمعان في تضليل الناس.

ويعود بالذاكرة القهقرى ليرى كيف تسلل إلى هذا المجتمع الطيب وهو الذي لم يكن في يوم من الأيام واحداً منه.

ويرتبط ذهنه بجرة الفول التي كان والده يجيد صنعه لبيعه في السوق وهو من ورائه يساعد في جمع القروش التي يلقي بها أصحابها، فتظلم الدنيا في عينيه.

أويمكن أن ينسى ذلك كله بعد كل هذه الأيام؟ وإذا نسي ذلك فهل ينسى أولئك الذين يعرفون ماضيه من هو، ومن أين أتى، وكيف صار؟

ويوم اختار الطوافة بعد أن حفظ أدعيتها، وقف عند مدخل باب العمرة

ينتظر قدوم أي وافد ليلقنه دعاء الطواف.

كان شيخاً في أواخر عمره من السنغال ينطق العربية بلهجة مكسرة، جعلته يحذف كثيراً من الأدعية، ويختار أقصرها لينهي طوافه وسعيه.

لقد قبض يومها خمسة ريالات فضية كانت بمثابة ثروة جاهد في إخفائها عن أبيه.

صور تمر بذاكرته وهو يرى كل هذه الصور، تأتي وتروح دون أي تسلسل وكأنها تتظاهر بالظهور أمام عينيه بسبب ودون ما سبب.

ولقد منحه تكافؤ الفرص في البلاد التي استضافته الفرصة لأن يمضي مع الركب، ينهل من العمل ما يريد، ويرى من أمور الحياة ما لم يكن يتحقق لو لم يساعده ذلك الرجل الطيب الذي منحه الفرصة، لكنه في سويداء قلبه يظل غير ذلك.. فهو لا يعترف بفضل إنسان، ويعتقد أن قدرته على مسح الجوخ هي التي ساعدته لأن يصل إلى ما وصل إليه.

لقد شب عن الطوق أكثر من مرة وفي كل مرة كان يقذف بالحجارة أولئك الذين مهدوا له الطريق لأن يصل إلى ما وصل إليه.

فهذا المال الوفير الذي استطاع أن يقتنيه نتيجة صفقات كان يعقدها وهو مؤمن بأن الزمن معه مهما كان الأمر، حتى إذا استتب له بدأ يحس بوخز الإبر في جسده، وكأن صحوة ضميره الذي استيقظ جعلته يرجع الذاكرة لكل ما فعل.

ترى أو يستطيع بعد كل هذا العمر أن يعيد للزمن دورته لينقذ نفسه من هفواتها التي ارتكبها ساعة طيش؟

ولماذا لم يصحُ ضميره منذ أمد بعيد؟ لقد كان يومها قادراً على إصلاح ما أفسد من حياة الناس، فكل من عامله أو عمل معه نال جزاء قلبه الطيب، لأنه كان يكره الطيبة ويرى فيها نوعاً من الغفلة ساعده على فهمها بهذا الشكل عقله المريض ونفسه الملتوية.

ويحس بلسعة الهرم تدب في أوصاله هو الذي لم يتعد الحلقة الرابعة من العمر، فكثيراً ما تبرز المعاناة من خلال صحوة الضمير المثقل بأوزار الماضي

وخطاياه يدفعها الإنسان لهذا المجتمع طال الزمن أم قصر.

وهو يشعر بهذه المعاناة، تكاد تلتصق بجدار عقله الذي أخذ يستشف معاني ما صنع، وكأنه قد صحا من سبات طويل كان يصنع خلاله ما يصنع دون وعي وإدراك.

وتتكالب أوزار الماضي على جسده لترهقه، فيحس بقوافل الزمن وكأنها إعصار يكاد يقتلعه من جذوره. وينتابه الندم، فالأماني التي حققها لم يكن له أي حق فيها لأنها تحققت بأساليب وطرق يشجبها هو نفسه لماذا؟

ويمد بصره إلى الأفق، يستلهمه الموقف. وهو الذي كانت مواقفه المرتجلة نوعاً من النفاق والوصولية، ثم يعود إلى تذكر ما فات في حسرة على ما صنع وكأنه يريد أن يكفر عن كل تلك الذنوب التي ارتكبها والحماقات التي صنعها.

قد تكون قسوته المغلفة هي السبب في أن تقضي المسكينة نحبها بعد حديث عاصف حاولت خلاله زوجته أن تكشف له حقيقة ما عرفت من أمره، ذلك الذي حاول أن يخفيه وحاولت هي أيضاً أن تتغابى حتى لا يعرف أنها تعرفه على حقيقته حتى إذا ما طفح الكيل قالت وبأسلوبها المهذب:

ـ أوتدري يا عبيد بأنني كشفتك منذ أول يوم اقترنت بك فيه؟ لكنني كنت أحاول أن أتغابى فلربما استطعت أن تعود إلى صوابك فتترك أنانيتك وحبك لذاتك وتمضي معي في رحلة العمر بأسلوب جديد لا وصولية فيه، لكنك لم تستطع فآثرت أن أحدثك بما أعرف وتعرف أنت.

وصمتت.

لكنه لم يصمت. . فلقد كال لها من الشتائم ما جعل المسكينة تنكمش على نفسها، وهي التي عاشت سنوات عمرها كلها في بيت أبيها معززة مكرمة.

ولقد لزمت سميحة ـ زوجته ـ الفراش بعد ذلك الحديث العاصف، أياماً سبعة قضت نحبها بعدها في هدوء ودون أية ضجة.

ولقد أثاره موتها هكذا فجأة! فلقد خاف أن يؤدي الموت إلى حرمانه من إرث أبيها الكبير.

لكن والدها قال له وهو يراه يصطنع الحزن:

ـ لا عليك فهذه إرادة الله، قضت بأن تمضي في الوقت الذي أنا وأنت وولداها في حاجة إليها، ولقد قررت أن أدفع بثلث ثروتي هدية متواضعة لولديها، فعسى أن يعينهما هذا المال على السير في دروب الحياة براحة وهدوء بال.

ولقد هدأت نفسه بعد ذلك الحديث الذي فرح به لأول وهلة وكأنه هو الشيء الذي يرغب فيه. أما اليوم فقد استوى الماء والحطب بالنسبة إليه، وتكالبت عليه شتى أنواع الأمراض لدرجة أصبح لا يقوى على السير فأخلد إلى الراحة. ومع الراحة عاد صوت ضميره يحادثه ويحادثه ويجادله ليصل إلى ما وصل إليه.

ترى أهو إنسان بعد كل الذي فعل ولهذا يرى طريق سعادته في إلقاء الأشواك أمام كل من أحبه؟

حتى ولديه أصابهما رذاذ أنانيته لدرجة جعلتهما يفضلان العيش مع جدهما بعيداً عنه وعن البيت الذي يعيش فيه.

لكن طيف زوجته كان دائماً يرافقه وكأنه لم يفارقه، لدرجة أحس فيها بأن مساً من الجنون بدأ يتسرب إلى عقله فهو يراها في صحوه ونومه وكأنه تؤنبه على كل ما فعل وتحاسبه أيضاً.

وهو يشعر بعقدة الذنب التي جعلت منه إنساناً آخر، هرماً، لا يدري من أمر الحياة إلا أنها زائلة. قد يكون اكتشافه لهذا الأمر جاء متأخراً كثيراً من الوقت، لكنه يحس بحرجه وكثرة ذنوبه ويرى بأن الفرصة لا تزال أمامه ليكفر عن كل الذي فعل.

وتتجاذب روحه أضواء وأشواك الشر فلا يدري أيهما يختار لا لأنه فقد القدرة على الاختيار بمقدار ما فقد القدرة على أن تكون له إرادة الاختيار.

أما اليوم فهو ـ كما يظهر ويعتقد ـ شيء آخر غير ذلك الإنسان المريض فلقد أبل بعد كل الذي فعل من مرضه الطويل الذي لازمه سنوات حياته كلها التي مضت.

فأحس بالاطمئنان لأن طيف زوجته جاءه في هذه المرة وعلى شفتيها ابتسامة هادئة وأنها أحست هذه المرة بصدق توبته عما بدر منه في حقه وحقها وحقوق الآخرين، وأمضى بعض الوقت ليرى نفسه وقد ذهب هو الآخر بعيداً بعيداً يحلق في أجواء الفضاء اللامتناهية بشيء من الامتنان، فلقد عرفت نفسه الهدوء وقدماه الطريق الذي افتقد، حتى إذا ما صحا من نومه أخذ يبكي وينتحب وكأنه يودع الماضي بكل تلك الدموع التي ذرفها غزيرة من مآقيه.

واستكانت نفسه وهدأ وجيب قلبه وهو يودع أياماً كانت بالنسبة إليه دوامة قلق وإعصار يأمل أن لا يعود.

الغادر العائد

عشرون عاماً مضت وانقضت وهي ترقب هذا اليوم بكثير من الأمل فسنوات العمر التي مضت كانت بالنسبة إليها شيئاً مملاً وثقيلاً. ترى كيف تستقبله بعد هذه العودة؟

لقد كبر ابنه الذي تركه في السادسة وأصبح من كبار رجال الأعمال في طيبة الطيبة وغدا محط أنظار اللواتي ينتظرن زفاف بناتهن على أمل أن تحظى إحداهن به هو الذي كان صامتاً كالدهر يأبى أن يجيب عن هذا السؤال.

وتعود بذاكرتها إلى الزوج الذي غاب، الزوج الذي أهدر شبابها، وتركها في عنفوانه ليعود ويراها وقد كبرت. لماذا فعل هذا؟

أترى ابنها هذا صورة منه، هذا الغادر العائد؟ فلطالما شق عليها أن تراه صامتاً يفكر وهي تسترسل في أحاديثها هنا وهناك علها تظفر منه ببضع كلمات تعرف من خلالها آراءه في الزواج. لكنه يأبى إلا أن يظل سارحاً، لا يجيب إلا في اقتضاب بعيداً عما تود أن يتحدث عنه.

وتنظر إلى المرآة لترى ما فعلت سنوات العمر بوجهها الذي لا تزال به بقية من نضارة لم تذو بعد، وإن بدت شعيرات بيضاء في مفرقها الأسود اللامع وبعض التجاعيد في الجبهة البضة الأنيقة. أما عودها فلم يزل على ما هو عليه، يميل إلى النحافة في طول متوسط كان ولم يزل محل إعجاب الكثيرات من أترابها.

ترى هل يذكر الغادر العائد تفاصيل ليلة الزفاف حين تركها

أهلها في البيت الجديد، فانخرطت في بكاء مرير، أين بنات اليوم منه! إنها تراهن يستقبلن زواجهن بكثير من البهجة والفرح. . تأخذ الواحدة منهن وتعطي الحديث مع زوج المستقبل وهي واثقة.

وزفة الأمس التي كانت تجري من كرسي إلى كرسي وعيناها مغمضتان خوفاً من أن ترى إحداهن هاتين العينين فتبدأ في تصوير قصة عن الحياء المفقود بين بنات العصر آنذاك.

ولكم تحملت قَرص الكثيرات وهي تجري منهن لدرجة شعرت وهي تدخل إلى القاعة الكبيرة بشيء من الدوار حاولت بعده أن تتمالك نفسها.

وتذكر وتذكر. . ولا تريد أن تنسى، فلطالما عاشت سنواتها كلها على هذه الذكريات. .

ولقد أخفت عنها أمها الكثير من الحقائق التي كان يجب أن تعرفها قبل أن تتزوج، وعندما سألتها عن ذلك بعد أن كبرت، قالت لها:

ـ تلك هي عاداتنا نترك للابنة اكتشاف الأشياء بنفسها.

عشرون عاماً سامتها ألماً وصبراً، ورقت لحال الكثيرات اللواتي افتقدن أزواجهن بالموت أو بالطلاق. أما هي فلم تعرف كيف تصنف نفسها بين كل هؤلاء طوال تلك المدة!

يقولون إن الإنسان في مكة أو في المدينة، إذا سافر إلى (جاوا) ينسى أهله وعشيرته وحتى زوجته. وهكذا كان الحال معها!

لم يكتب خلال غيابه ولا رسالة، ولم يترك طوال كل هذه السنوات أي أثر لوجوده. ولكم حدثتها الكثيرات بأن تنال حقها في الحرية عن طريق القاضي فكانت تثور وترفض حتى مجرد الكلام في هذا الموضوع. .

ولقد قالت لها عمتها العجوز بأنها ليست المرأة الأولى في الأسرة، فلقد سبق لزوج عمتها أن غادر المدينة في رحلتين قصيرتين إحداهما بلغت سبعة وعشرين عاماً.

وتعود التساؤلات. قد تكون حسنة الحظ لأن زوجها عائد بعد عشرين عاماً من غياب متواصل كانت لا تعرف عنه أي شيء إطلاقاً.

لا بد وأنها واحدة من فتيات «جاوا» لعبت بعقله وأخذته منها، ثم أنسته أن له زوجة وولداً في المدينة.

ترى ما هو شكل هذه الغريمة؟ أهي جميلة إلى هذه الدرجة التي تجعل زوجها ينسى بأن له زوجة في مسقط رأسه؟

يقولون إن المرأة في أندونيسيا لديها من المهارات ما يجعلها تحول بين زوجها وبين السفر إلى أي مكان في الدنيا إذا كانت تحبه. ولهذا فلربما كانت هذه الغريبة التي ستفد مع زوجها من هذا النوع. ولكن لماذا تثقل مخها بكل هذه السخافات؟

النساء في المدينة يتحدثن كثيراً عن غياب الأزواج في (جاوا) و(سومطرة) وفي أماكن أخرى، ويروين الحكايات عن قدرة النساء في الشرق الأقصى على السحر وهي تضحك لك ما يقال، وتقتنع بأن السحر يكمن في جمال أولئك النسوة وقدرتهن على الحفاظ على أزواجهن، ولكن...

أليست هي الأخرى جميلة؟ ألم تكن قادرة على أداء واجبها مع زوجها..؟ ولنفرض أنها قصرت في أي شيء، فلماذا لم يقل لها زوجها ذلك؟

قد تكون أحوال الإنسان في طيبة في تلك الأيام تدعوه لأن يغادر بلده ويبحث عن الرزق، أما اليوم فقد تغير كل شيء، فها هو ابنها وقد بلغ شأواً في التجارة لم يبلغه أي إنسان من أسرته حتى والده (كريم). فها هو الابن، لطالما أمد والده بالمال دون أن تدري.

ربما كان يخاف عليها أن تنزعج وأن ترفض أن يقدم الابن لوالده أية مساعدة ما دام قد ذهب وتركه صغيراً.

لقد عرفت كل هذا بالأمس، وبالأمس فقط. عرفت عندما قرأت رسالة الوالد إلى ابنة مشيراً إلى عودته شاكراً له كل ما كان يقدمه له من مال ومساعدة.

لماذا أخفى ابنها عنها هذه المساعدة؟ أويخاف هو الآخر منه كما كان يخاف زوجها عندما كان يساعد إخوته بعد زواجه؟

لا تدري فكل الرجال ليسوا سواسية ولربما كان هناك من الأمور ما لا

تدري عنه أو تعرفه.

وأطرقت برأسها قليلاً وقالت لنفسها: لماذا هي تفكر فقط في المرأة التي خطفته ويهمها أمرها وأوصافها، وتنسى في غمرة أحاسيسها هذه ما أصبح عليه هذا الزوج الذي صادر من عمرها عشرين عاماً؟

سيأتي الغد، وسترى الوافدة الجديدة وستراه هو أيضاً، ومن يدري فلربما جاءت مع الوافدة (دزينة) من الأطفال!

وتبسمت قليلاً، ثم أوت إلى فراشها وهي لا تزال تفكر حتى إذا ما وضعت رأسها على الوسادة عاودتها الأفكار مرة أخرى لكنها طردتها وأغرقت في نومها تحلم مع العصافير الشاردة.

أشياء كثيرة رأتها في منامها، جعلتها تستيقظ أكثر من مرة. حتى إذا ما استمعت لصوت ولدها وهو يغادر غرفته قالت له:

ـ فريد. أين أنت؟ أنا في حاجة إليك؟

وأجابها فريد بأنه قادم. حتى إذا ما قبل يديها ورأسها، سألها بدوره عن أسباب قيامها من نومها مبكرة، وقصت عليه الحلم الذي رأته.. وهي ترتجف ثم قالت:

ـ لا بد أن أباك عمره طويل جداً. يقولون إن من نراهم في أحلامنا موتى هم أصحاب الأعمار الطويلة.

واستمر ولدها في صمته فقالت:

ـ لماذا لا تقول لي شيئاً، أي شيء؟

قال:

ـ وماذا أقول يا أماه؟ لقد أخفيت خبر وفاة والدي عنك على أمل أن تعرفي ذلك في الوقت المناسب.

ـ أوتعني أن أباك قد مات؟

ـ نعم يا أماه، مات وهو في طريقه إليك بعد أن أوصاني بزوجته وابنه اللذين عادا معه قاصدين المدينة المنورة. أوتدرين أين مات أبي يا أماه ويوم وفاته؟

لقد مات في مكة المكرمة، وفي اليوم نفسه الذي غادر فيه المدينة إلى أندونيسيا. نحن يا أماه يولد بعضنا في يوم ويموتون في اليوم ذاته.. ويولد بعضنا الآخر في مدينة ويموت في مدينة أخرى.. ويتزوج بعضنا في يوم ويموت في نفس اليوم..

وأجهشت في البكاء وكأنها تندب حظها.. لكن ابنها قطع عليها بكاءها ونحيبها قائلاً:

ـ أوتدرين يا أماه ماذا قال أبي في رسالته الأخيرة؟ لقد قال بأن زوجته الجديدة تعرف الكثير عن حبه لك، وخوفه عليك لدرجة جعلته يطلب منها أن تظل بجانبك تخدمك وترعاك.

والتفتت إليها مستهجنة ما يقوله هذا الابن الطيب وقالت:

ـ وهل تسمي ما صنعه أبوك حباً؟

ـ لا أدري يا أماه لكن الذي أعرفه هو أنه قد أصبح لي أخ أستطيع أن أرعاه وأقدم له كل ما يحتاج ما دامت هذه إرادة الله.

وابتسمت أمه قليلاً وقالت:

ـ لن تكون أنت أفضل مني.. فأنا أفكر أيضاً في أن أجعله ابناً آخر لي مثلك تماماً. أوليس الآخر قطعة من ذلك العائد الغادر الذي توقفت عودته عند نقطة واحدة فلم يكمل المسيرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؟

سها

وتهب رياح الخماسين على القرية الصغيرة، تملأ سماءها بغيوم رمادية اختلطت مع غيوم الفجر الذي استقبلته سها في رتابة مملة اختلطت آثارها بالفوضى التي عمت حجرتها وهي التي كانت مثال الترتيب والأناقة.

غداً سيحملونها في هودجها إلى البيت الجديد بعيدة عن القرية، القرية التي شغفت بها زمناً حتى إذا ما ملتها بعد أن دخلت مدرستها، كبرت أمانيها وأحلامها لأن تذهب بعيداً وراء كل هذه الصور التي تمتد عيونها لتراها من خلال الشاشة الصغيرة.

وتنظر في المرآة لتجد شيئاً قد علق بوجهها الذي شحب فجأة رغم جميع مظاهر الفرحة التي تحس بها تكبر في قلبها الصغير.

وتستمع إلى صوت أمها يناديها بأن تصنع قهوة الصباح، فأبوها الشيخ تعود أن يشرب قهوته من يدها.

وتتمادى في كسلها، ويتمادى الاضطراب في جسدها، هي التي كانت تحلم بهذا اليوم.

سترحل عن القرية. ولكن إلى أين؟. قد تبعد المدينة التي يسمونها جدة عن قريتها أكثر من مائة من الكيلومترات.. فبين مستورة القرية وهذه المدينة طريق طويل حدثتها عنه أختها التي سبقتها إلى رؤية جدة.

قالت لها إنها مدينة كبيرة شوارعها أنيقة تتلألأ أنوارها في حرية ويمتد كورنيشها ليطوق البحر بصلابة الأرض القاسية.

لقد باع أبوها قهوته الصغيرة بعد أن انحرف الطريق قليلاً عن هذه القرية وترك عمها صناعة الصيد فالملايين التي ورثوها من أرض الأسرة في ينبع تكفي لأن يبدأوا حياة جديدة.

سترحل في الغد، وستلتقي بأختها التي سبقتها، وستعود مرة ثانية إلى القرية وتتحدث إلى نورا عن جدة المدينة التي لا تعرف النوم، ومع هذا ستفتقد الهدوء الذي عايشته في صخب المدينة الجديدة.

قد يكون والدها أقدر على ترتيب الأمور بعد هبوط الثروة المفاجئة عليه. لكنه لا ينسى وهو يحدثها عن سفره بأن ما يفعله إنما هو لأجلها هي. يريدها أن تتعلم وتدرس لتصبح طبيبة، قادرة على مساعدة الأمهات عندما يلدن.. ولكن..!

لماذا يصر أبوها على هذا الرأي؟

تعرف أنها فعلاً قد أتمت دراستها المتوسطة وقبعت في البيت لأكثر من عامين انقطعت خلالهما عن الدرس والتحصيل. ربما يكون والدها أعرف بالأسلوب الذي يمكنها من أن تواصل دروسها في القرية. لكم شاقها أن تجلس بجانب هذا الأب عندما يعود من سفره يتحدث عما رآه وشاهده.

وهو عندما يتكلم عن رحلته الأخيرة يتكلم بأسلوب جديد. لقد منحه المال الكثير من القوة بأن يختار مفردات جديدة في حديثه.. السيارة.. الكونديشن.. الكهرباء التي لا تنقطع.. وهدير أصوات الطائرات التي سمعها تصك أذنيه من فوق البيت الذي اشتراه في المدينة التي سيرحل إليها.

وأزعجها أن الناس في المدينة الكبيرة لا يعرف بعضهم بعضاً، وأزعجها أكثر أنها ستضطر إلى الذهاب إلى المدرسة وهي على ظهر أتوبيس كبير فالمسافة بين البيت والمدرسة أكبر مما تتصور.

ترى لماذا تتغير الوسيلة والأساليب.. وتتغير ظروف الحياة نفسها عندما ينتقل الإنسان من مكان إلى مكان؟ الهودج الذي ينتظر شيئاً آخر غير ذلك الذي حمل بنت الجيران يوم غادرت القرية إلى قرية أخرى. لكن شيئاً هاماً يبدو في الأفق مع الانتقالة الجديدة. هذا الهواء النقي الذي تستنشقه، وهذه الأرض الرحبة، وهذا الفضاء اللامتناهي وهذا البحر الذي يزخر بطيبات الرزق، وهذه

الانطلاقة الفسيحة التي لا تصادر حرية الإنسان كما يجري في المدينة.

ترى أو تكون المدينة بعبعاً لا يسمح للمرأة أن تنطلق؟

لقد دخلت القرية وسائل الحضارة وأصبح بإمكانها أن تتصل بأختها عبر قرص التلفون، ومنحها جهاز التلفزيون فرصة لأن تعرف الكثير عن دنيا هذا العالم.

ومنحها الكتاب فرصة الطواف حول العالم عبر صفحاته القصار، وبقي عليها شيء هام وفريد أن تقدر على ممارسة كل ما سمعت ورأت وقرأت.

وأطرقت بعينيها تتطلع إلى الأرض. شيء واحد ستفتقده، هذا الصفاء الرائع في الالتقاء مع بنات قريتها عند الغروب.

طريق المدينة الطويل عمر بالفعل وهي تعرف كل هذا، فلقد شاركت أخاها قيادة الوانيت الصغير بعيداً عن أنظار الفضوليين.

حتى أمها كان لها تجربة مع هذه العربة الجديدة التي أطلت على قريتها ذات يوم، وهي تذكر يوم قالت أمها لأبيها:

ـ أدر رأس هذه العربة واتركني أنطلق بها.

حتى إذا ما أخذت تدوس بقدمها على الزاوية المخصصة لمنح العربة اندفاعها أخذت تصيح: النجدة.. ولولا أخوها لأصبحت أمها والعربة في خبر كان...

لقد جرى سعيد وراء أمه حتى لحقها وكان حظه أن الوالدة قد تركت باب الوانيت الآخر مفتوحاً فاستطاع عبره أن "يتشعلق" عليه حتى وصل وأوقف السيارة.

قد تكون أمها اليوم أقدر على فهم كل هذه الأمور أكثر من ذي قبل. ولكن من يضمن أنها لا تعيد التجربة؟ وهذه المرة بين جدران البيت الذي رأت صورته في يد أخيها سعيد.

إنسان القرية يشيخ ويكبر عندما يفارقها إلى المدينة. هكذا كانت تقول جدتها. أما هي فتظن العكس.. فهي تحلم بالرياش والعطور والملابس التي ترتديها النسوة على صفحات المجلات! سيكون بيتها أجمل وأنظف من غرف

المدرسة التي انتمت إليها، فالمدرسة في القرية نموذج جديد عن العمارة التي تمارس على أرضها اليوم.

ستلتقي ببعض من عرفت وبالكثير ممن لم تعرف، لكن كيف تستطيع أن تعامل كل هؤلاء هي ابنة القرية التي أحبت القرية وتطلعت إلى المدينة؟.

القرية سياج يجمع أهلها على الفضيلة. يعرف الواحد الآخر كما يعرف الأخ أخاه.. أما المدينة فشيء آخر ستصبح وأمها وأبوها وكل واحد من أسرتها مجرد رقم صغير، صغير جداً! يضاف إلى مئات الألوف من الأرقام من سكانها. ويرتفع صوتها بالغناء فتسكتها أمها للحظة وهي تقول:

ـ أتعرفين الوافد إلى القرية يا بنيتي؟

ـ لا يا أماه..

ـ تذكري قليلاً.. فلربما عرفت مقصدي.

ـ نعم هو أحمد أليس كذلك يا أماه؟

وتغفو مع أحلامها مع أحمد وهي صغيرة، ومع أحمد وهي كبيرة، ومع أحمد بعد أن عاد للقرية وفي يده واحدة من بنات الإنجليز قال عنها إنها زوجته شقراء ملساء، لا طعم لها، ولا لون أشبه بالنورة المطفأة بمياه البحر المالحة.

ترى لماذا يعود أحمد اليوم؟

وأجابت أمها بلا تردد بعد أن سمعت جملتها تلك:

ـ جاء لغرض في نفسه فقد ماتت زوجته، وتركت له طفلتين فيهما شبه كبير منها هي التي ماتت.

ـ وما سبب موتها؟

ـ يقولون إن سببه سرطان الدم هاجمها فجأة.. وماتت فجأة في مستشفى الملك فيصل التخصصي.

ـ وأين دفنت؟

ـ في الرياض بعد أن أوصت هي بذلك.

ـ ولكنها غير مسلمة، فكيف تدفن في الرياض؟

ـ لا يا بنيتي . . أسلمت منذ زمن وقبل أن يهاجمها المرض. وقد أوصت بذلك ولكن لماذا لا تسأليني مع من أحمد في زيارته للقرية؟

ونظرت لأمها في بلاهة وقالت:

ـ ربما زوجة جديدة.

ـ لا يا بنيتي . . وإنما أم زوجته ووالدها جاءا معه ليطمئنا على زوجته الجديدة التي سترعى بناته.

ـ ومن هي هذه الزوجة؟

ـ أنت يا عزيزتي. أنسيت ذلك؟ ألم تكوني تنتظرين هذه اللحظة؟

وأجابت في هدوء:

ـ لا يا أماه كان ذلك منذ زمن، أما اليوم فقد تغير كل شيء تغير أحمد، وتغيرت أنا وذهب كل واحد منا في طريق.

ـ لا يا بنيتي، لا تقولي ذلك. فلقد تحدثت لي أم زوجته وأعطتني هذه الرزمة من الخطابات وعرفت من أخيك أنها رسائل ابنتها تتحدث فيها عنك وعن حب أحمد لك وأشياء أخرى أتركها لتقرئيها أو ليقرأها لك أخوك.

ـ لا عليك يا أماه. أحاول أن أفهم سر عجلتك في طردي من بيتك الجديد في جدة.

ـ أنا يا ابنتي؟ لا يمكن أن يكون ذلك. لكنها سنة الحياة. فكما ولدت زوجته السابقة في لندن وماتت في الرياض، ولدت أنت هنا في هذه القرية وتتزوجين في جدة وستنجبين من تزوجينها يوماً في مكان آخر!

ـ ولماذا لا تقولينها يا أماه بأننا نحن الحرائر نولد في مكان ونعيش في مكان آخر ونموت في مكان لا ندري أين هو. أليس هذا صحيحاً؟

ـ صحيح يا بنيتي . . ولكن؟

ووضعت سها يدها على فم أمها وكأنها تستحلفها أن تصمت. وأخذت تنظر إلى السماء وكأنها تأمل أن تجد لنفسها المخرج من هذه الورطة التي جاءت فجأة وفي وقت تناثرت خلاله كل أحلامها وهي تريد أن تجمع هذه الأحلام، تلملمها بعينيها على الأقل . . على الأقل!

فاطمة والقرية

كل شيء يوحي بأن الأمطار ستهطل بغزارة على القرية «مونت لاجولي» التي تبعد عن باريس بضع مئات من الكيلومترات. السماء ملبدة بالغيوم الداكنة، وعلى مقربة من الفندق الصغير بدت أضواء الجسر الممتدة على النهر وكأنها شموع صغيرة، والهواء البارد يندفع بقوة في الشارع الصغير.

ساعة المدينة تدق العاشرة وهي نافذتها المطلة على الشارع ترقب المارة الذين التحفوا (ببلاطيهم) اتقاء موجة البرد.

الفضاء اللامتناهي يبدو أمام عينيها ضيقاً، فالغيوم الكثيفة تصدم العين التي اعتادت على الصحو، وهي وإن كانت قد ولدت على هذه الأرض، لكنها جزائرية الأصل فوالدها الرجل العجوز الذي أمضى سنوات شبابه في هذه القرية أصله من مدينة وهران، فيها ولد ونشأ وكبر ومنها هاجر إلى باريس.

الشباب في الجزائر يحلمون بهذه المدينة في تلك الأيام لسببين أولاً: إنهم بهذه القرية يبعدون عن صلف المستعمر الذي عاث في بلادهم فساداً ونهب خيراتها، وثانياً: لأن مدينة باريس حلم من أحلام الشباب كل منهم يوظفه لحساباته.

وأبوها رغم تعليمه الديني كان يحن إلى الفن، فقد منحته الحياة حباً غريزياً للرسم، لكن حبه هذا ضاع في الطريق واكتفى بأن ينتقل من باريس إلى هذه القرية تلبية لرغبة زوجته الفرنسية التي هي أمها، من جهة، ولأن أعمال البناء كانت رائجة هنا أكثر من باريس.

هي تتضايق من ذكر يوم مولدها، فلقد قالوا لها بأنها كانت شؤماً على أمها، ذهبت الأم وجاءت هي وازداد العبء على الوالد، فاختار أن يقترن بامرأة جزائرية لم تدع الفرصة لتلك البنت المسكينة طوال حياتها.

لقد كانت حياتها مع هذه المرأة تعيسة، لأنها ـ أي المرأة ـ كانت تفضل ابنها عليها، لأن هذا الأب كان بعيداً عنها لا يأتي إلى الدار إلا في أيام العطل والإجازات.

وهي تذكر اليوم الذي عرفت فيه هذا الطفل الذي يكبرها بست سنين وانسجمت معه من أول لقاء وأصبحت تناديه باسمه (سعيد) وهي هانئة راضية.

كانت تستقبله بكثير من الترحاب، مما جعل الأم تنظر إلى الموضوع بشيء من الخوف والقلق فهي لا تريد لابنها أن يهتم بهذه الفتاة لأنها فقيرة.

الناس في القرية يعرفون بعضهم البعض، لكن زوجة الأب كانت ترفض التعرف على جيرانها فعاشت في البيت الريفي الصغير بمفردها، تقضي يومها في شغل شاغل بما تحتاجه الأسرة من أكل ومشرب وتنظيف ملابس.

وازداد سوء المعاملة من جانب أم سعيد لها لكنها كانت تتحمل كل هذا العذاب في صمت ولا تقول شيئاً لأبيها خوفاً على هذا العجوز من الألم.

لقد كبر أبوها وازدادت مسؤوليته وأصبح لا يستطيع الحركة بشكل منتظم فأصبح يقضي بعض الأيام في البيت في صنع أشياء يبيعها في سوق القرية.

وجود والدها معها في البيت جنبها إهانات كثيرة. ولكنها مع كل هذا كانت غير راضية، فهي تشاهد علامات الألم واضحة على وجهه الوقور، وتعرف أيضاً أن نهاية هذا الرجل باتت وشيكة.

وتمضي الأيام، لكنها أيام عجيبة ففي هذه القرية رغم كل شيء فإن من الصعب على الإنسان أن يختار أصدقاءه في حرية.

قد تكون الحياة في المدينة أحسن من الحياة في القرية لكنها على الأقل قد تكون مهضومة، لأن تصرفات أي إنسان محسوبة عليه شخصياً دون تدخل من الآخرين.

ولقد تحدثت إلى والدها عن الرغبة في أن تعمل بعد أن كبرت لتساعده

فنظر إليها بهدوء وحب وقال:

ـ وماذا تعملين؟

أجابته:

ـ أعمل كما يعمل كل هؤلاء البنات في أي عمل شريف أستطيع أن آتي منه بشيء.

ـ ومعنى هذا أنك ستذهبين بعيداً!

ـ لا . . لكن ما أردت أن أقوله فقط هو أن أعمل، على أن أعيش معك طوال الحياة.

ـ أصيلة أنت يا بنتي كأمي.

ـ أمك؟ ولكنك لم تتحدث لي عنها.

وضحك أبوها وقال:

ـ لأنها ماتت منذ زمن بعيد.

ـ أعرف ذلك يا أبي، فكلنا لن نبقى في هذه الحياة.

ـ أمي يا فاطمة امرأة قروية لا تعرف القراءة ولا الكتابة لكنها بعد أن كبر والدي عاشت معنا حتى بلغ عمري الخامسة والعشرين عاماً وهي تصرف على البيت من ريع مزرعتها الصغيرة التي تربي فيها الدجاج.

صبرت أمي وكان بمقدورها أن تترك والدي، فبقدر ما كانت هي متدينة كان أبي على العكس يمضي أوقات حياته في المقاهي والمنتزهات.

ـ فهمت يا أبي، لكنك أنت نوع آخر.

وضحك الأب وقال:

ـ لأن دمي امتزج بدم تلك الطاهرة فهل لي أن أطلب منك أن تكوني كذلك؟

ـ أعدك يا أبي أعدك.

حتى ولو عملت فالمرأة يابنتي تفقد كل شيء إذا هي فرطت في شيء واحد.

ـ أعرف يا أبي وأعدك بأنني سأكون مثلها.

ترى هل يتسنى لها أن تكون مثل هذه الأم التي حدثها أبوها أشياء كثيرة عنها؟ ولكن ربما كان من الأفضل لها أن تعاود رحلتها مع هذه الذكريات عبر هذه النافذة.

ويرتفع صوت أحدهم في الطريق يدندن بكلمات أغنية جديدة نسيت اسم المغنية لكنها تحفظ كل كلمة قالها ذلك الذي يسير مع أقرانه في طريق القرية الصغيرة، وتسللت إلى سمعها مع الغناء أصوات الأبقار التي امتلأت بها حظيرة الجيران الصغيرة.

كانت كلمات الأغنية تقول:

«عندما يلد الفجر يوماً جديداً.

آخر.. وترتفع أضواء الشمس

إلى حافة الطريق في القرية

الصغيرة ويأخذ الناس

طريقهم لأعمالهم في نشوة

تكون أنت يا صديقي وحدك

في غرفتك التي اخترتها

أتصورك على كرسيك

تلملم بعينيك ذكريات

الماضي.. ومن حولك يرتفع

مواء

قطتك السيامية

التي فضلت أن تعيش

لها وتعيش لك.

الذين يخافون من المرأة

يهابون الحياة

لأن الحياة مواقف

مواقف كثيرة ومتعددة

نقفز عليها بأخطائنا

لنجدد عن طريقها صلتنا

بالأرض التي نعيش عليها

أنت مخطىء يا صديقي..

فأنا وإن كنت بعيدة عن

حياتك التي تعيشها

لكنها في أعماق أعماقي

تتنفس بصدق وحرية

قد أغار عليك وقد تغار علي

لكن الغيرة كما يقولون

ملح الحب.

وأنا أحب الملح كثيراً

في الطعام».

ويشتد نزيف المطر، وتتطاول أعناق فروع الأشجار وكأنها أنثى قد فردت شعرها لتغسله.

كانت تستمع إلى الأغنية وهي في مقعدها وعيناها على النافذة. ترى لماذا يدق قلبها هذا الشقي؟

أين أبوها اليوم؟ ذهب الرجل وبقيت هي مع زوجته، تخدمها وتمنحها كل رعاية لاسيما بعد غياب ابنها عنها.

السجون ملأى بالغرباء في فرنسا وسعيد واحد من هؤلاء.

لا ذنب له إلا أنه دافع عن نفسه عندما هب لنجدة واحد من أصدقائه، فلقد تنمر بعضهم في فرنسا وتصدى للوافدين ونسي كل هؤلاء ماذا صنعوا في الجزائر، أكلوا خيراتها وجمعوا من النقود الكثير وعادوا بها يعيشون هنا في

كان، ونيس، والشاطىء اللازوردي.

وتمسك برسالة سعيد إليها قال لها فيها كل شيء عن حبه، عن أحلامه، عن رغبته في العودة إلى الأرض برفقتها ورفقة أمه، ومع هذا يظل سعيد في سجنه أسير رغبات أولئك الذين حرموه حق الدفاع عن نفسه!

مسكينة الحرية، فكم من جرائم ترتكب باسمها في بلاد تزعم أنها بلد الحرية؟

باريس، ومونت لاجولي، وكان، ونيس، تتشابه المدن حتى في استضافتها للغريب، فلقد أحست بالألم وهي تغادر مصنع الإسمنت القريب من القرية لأول مرة بعد أن رأت كيف كانت أعين الفتاة الباريسيات ترمقها.

حتى اسمها كان اسماً فرنسياً وجنسيتها كذلك.. لكن سحنتها ووجهها لا يزالان يحملان الطابع العربي المميز.

لقد قالت لصديقتها إيفلين:

ـ أوتظنين ما يجري اليوم في فرنسا ضدنا نحن الجزائريات سيظل طويلاً؟

وغمزتها الفتاة قائلة:

ـ ولكنك فرنسية يا عزيزتي فرنسواز.

لعنة الله على هذا الاسم، فلقد اختاره لها أبوها ليضعه في ورقة إحصاء النفوس أما هو فكان يناديها دائماً باسم فاطمة.

هذا الاسم أحب إليها من أي اسم آخر، ولكن حتى اسمها الذي تحبه حرمت منه في ديار الغربة!

لقد قال لها سعيد بأنه سيهرب وسيأتي ليراها ما دام غير قادر على الخروج من محنته وذكر لها تفاصيل الخطة التي دبرها مع أحد أبناء بلدته وقال لها كلاماً كثيراً، وهي هنا وراء النافذة تنتظره رغم أنها كانت تريد منه أن يبقى حتى تنتهي مدة محكوميته.

سعيد هذا لا يمكن أن يأخذ برأي أحد. لقد قرر الهرب وهي تنتظر نتائج ما قرر.

البوليس الفرنسي نشيط ماكر. لطالما تخلص من المجرمين بهذه الطريقة

فهو كما سمعت يمنح العتاة منهم الفرصة للهرب ليصطادهم بعدها في الطرقات.

ترى أيستطيعون أن يصطادوا سعيداً هذه المرة؟

ولكن سعيداً ليس بالمجرم الخطير حتى يهيئوا له أسباب الهروب ليقتلوه.

مسكين قلب المرأة خصوصاً إذا كانت تحب وهي تحب سعيداً هذا من كل قلبها.

ويتوالى الهرج والمرج في الشارع الصغير وهي لا تدري عن السبب وتتمنى أن تعرفه وتزداد ضربات قلبها مع كل خطوة قدم يقوم بها عسكري.

وابتدأت الأنوار الكاشفة تغطي المساحة القريبة من بيتها واستمعت لصوت أحدهم يأمر أحدهم بأن يستسلم.

ترى أيكون هذا هو سعيداً أم إنساناً غيره؟

وتخرج إلى الشرفة حتى إذا ما ضاقت نفسها بما تراه أخذت طريقها إلى خارج البيت بعد أن ارتدت فستانها الجديد وبالطوها الأسود وقبعتها الأنيقة. وعند الباب جاءت صيحات رجال البوليس تأمرها بأن تعود لكنها صممت على أن تقف لترى النتيجة.

وسألت أحدهم فقال لها:

ـ نحن نلاحق مجرماً قاتلاً هرب من السجن قبل ساعات مع بعض من رفقائه.

وهدأت نفسها بعض الشيء فسعيد ليس بقاتل ولكن من يدريها فربما قتل أحداً في السجن دون أن تدري؟

وتستمع إلى أصوات الرصاص وهي تصطاد أحدهم، فتخفي وجهها بين يديها حتى إذا ما استمعت إلى صوت الرجل وهو ينادي فاطمة فاطمة هرعت إليه لتعرف الخبر.

كان واحداً من الجزائريين لا تعرفه وقد اصطبغ وجهه بالكثير من الدماء وقد تحلق حوله عدد من الجنود كل واحد يحمل سلاحه إلا هو.

وضحك الرجل وقال:

ـ لا عليك يا فاطمة! هي رسالة إليك شئت أن أحملها لك بنفسي فسعيد نجا وهو على ما أعرف في مكان ما في العاصمة.

ولم يكمل الرجل حديثه إذ قطع عليه أحد الجنود حديثه قائلاً بالفرنسية:

ـ أوتعرفها؟

ويجيب الرجل متهكماً:

ـ ومن هو الذي لا يعرف الجزائر؟ انظر إلى وجهها فهو يحمل طابع بلدي ولهذا ناديتها باسمها العربي ولكن اسمها هنا فرانسواز.

ربما قالها الرجل مرة ثانية واستدار يحثها:

ـ عودي إلى بيتك واجمعي كل شيء لك ولسعيد. سترين سعيداً في وهران هذه المرة وبعد أسبوع من هذا التاريخ.

ثم سقط الرجل على الأرض، فانتزعت بالطوها الأسود وألقته عليه، وعندها امتدت الأيدي القاسية تداعب الجثة التي لم تهمد بعد ببنادقها ليدفعوا بها إلى السيارة بحنق وغيظ. وانخرطت فاطمة وهي تبكي وتبكي وتبكي بحرقة فلقد نقص عدد مواطنيها واحداً.

وتعود فاطمة إلى الغرفة وتحس بأنها وحيدة وغريبة في آن واحد، وفي هذه الأرض التي ولدت فيها.

تحس بهذه الغربة وهي تثقل كاهلها هي التي لم تر الجزائر بلدها وأرض أبيها حتى الآن.

وتنظر من النافذة إلى أرض المسرحية التي أخرجت بإتقان وهي تقول:

ـ سأسافر من الغد إلى وهران هذه المرة وإلى الأبد.

زوجة في الظل

أشياء كثيرة أعجبتني فيها. هذه البساطة المتناهية مع الأناقة وهذه الخطوة الرشيقة وهذا الوجه المشرق والابتسامة الناعمة وهاتان العينان العميقتان اللتان تبدوان وكأنهما تريدان أن تأسرا من يراهما.

يدها تمتد لتمسك يدي. في إصبعها خاتم من البلاتين عادي طريقة صنعه تؤكد أنه صنع خصيصاً لها، وشعرها هذا الكستنائي ينساب حتى أسفل الظهر يغطي فتحة الفستان الواسعة. تميل إلى الطول مع شيء يسير من النحافة تظهر طول رقبتها.

تتحدث في هدوء، تلملم شفتيها وكأنها لا تريد للكلمات أن تخرج دون رقيب.

قالت مرحبة:

ـ أهلاً بك في بيتي. وضحكت ولم أقل شيئاً سوى كلمة صغيرة حاولت بعدها أن أخرج من دائرة الضوء فلقد أحسست بأنها تعرف شيئاً، ولكن.

هذه المرأة العجيبة التي تدعوني إلى بيتها فألبي هي ضرتي دون أن تعرف فزوجها الذي اقترن بها لا يريدها أن تعرف.

والدي طلب مني ذلك أيضاً لأسباب صحية، قال لي إنها مريضة بالقلب وإن أية صدمة يمكن أن تؤثر عليها.

أضاع أبي وصديقه أكثر من ثلاثة شهور (في إقناعي) كما يقولون وأنا أرفض لأنني وإن كنت قد أعجبت فعلاً بشباب نهاد وشخصيته

إلا أنني لا أرضى لنفسي أن أظل في الظل.

في يوم من أيام الربيع جاء نهاد إلى بيتنا تناول طعام الغداء وقال كلاماً كثيراً عنها. قال بأنه يحبها، ولكنه يحب أسرته أيضاً. وقال بأنها مريضة ولا تنجب وأنها عرضة لأن تقضي نحبها في أي وقت عندما تأتي إرادة الله وقال أشياء كثيرة أذكر بعضها وأنسى البعض الآخر لكن الشيء الذي لا ينسى هو أنني طلبت منه أن تأتي أمه معه لخطبتي.

وافق بسرعة وجاءت أمه وقالت كلاماً مماثلاً أحسست بعده بضرورة أن أوافق ووافقت وتزوجته، وأصبحت زوجة في الظل، أرى زوجي في أوقات قليلة فقد كان يقضي أكثر أوقاته مع زوجته الأولى.

لا تقولوا عني شيئاً قبل أن تعرفوا الحكاية فأنا فتاة طيعة، تلقيت دراستي حتى الشهادة الثانوية أجيد صنع جميع الأطعمة وأميل إلى أشغال الإبرة، أحس بالراحة عندما أمضي أكثر أوقاتي في البيت.

بعد الشهور الثلاثة انتقلنا من المسكن القديم إلى فيلا كبيرة فيها عدد من الخدم والحشم وفيها أيضاً (بركتان للسباحة)، وفيها تعلمت الكسل وانصرفت إلى القراءة ثم عندما رأيت نفسي أكثر فراغاً من ذي قبل عدت إلى ريشتي أغمسها في الألوان لأخرج برسوم كثيرة رائعة.

لم أر ضرتي إلا اليوم لكنني رسمتها بريشتي واعتمدت في هذا الرسم على وصف زوجي لها. فجاءت صورتها ألصق ما تكون بهذه المرأة التي رأيتها. وبدأت أقارن بينها وبيني، فهي ابنة عمه، وهي الوريثة الوحيدة لأبيها الذي مات. وهي جميلة أيضاً وكاملة الصفات تملك أنوثة طاغية وجمالاً رائعاً وصوتاً مطرباً.

وأنا كذلك وإن كانت ملامحي شرقية أكثر منها والسبب أن في دمائها تجري دماء تركية فأمها من اسطنبول.

حاولت أن أبعد طيفها عن فكري وأنا أتحدث إلى أم زوجي في الحفلة التي أقيمت لأول مرة بعد أن عادت من أمريكا بعد عملية ناجحة في القلب، وشعرت بأنني أحبها رغم أنها ضرتي. ومضيت أدعو الله لها في قلبي بأن تظل وأن تعيش وأن تبقى صديقتي. ولكن، قطع علي حبل تفكيري وصولها،

للترحيب بي مرة ثانية والجلوس بقربي والتحدث إلي وكأنها مدفوعة لأن تعرف كل التفاصيل عني.

كانت تسألني عن كل شيء في حياتي بهدوء ورقة وابتسامة أحسست بها تخالط دمي وأعجبتني منها خفة روحها ودماثتها وأصرت بعد أن ودعتها وودعتني بأنها صادقة في كل ما تقول.

خرجت من القصر وأنا لا أعرف طريقي. إحساساتي كلها منصبة على عقل وفكر وروح هذه المرأة والتي تعارف الناس على أنها ضرة وهي غير ذلك.

ورأيت شبه ابتسامة تطوف بوجه أم زوجي وهي تودعني وتقف على بعد خطوات منها وكأنها تشد على يدي بقوة وحنان. وقلت لنفسي كان يجب علي أن لا أذهب إلى الحفلة. لكن إصراري على معرفتها هو الذي جعلني أغامر بكل شيء وليتني ما عرفتها.

أحسست بأنني قد ظلمتها وأنني قد سرقت منها شيئاً من سعادتها مع الزوج الذي نتشارك أنا وهي فيه.

وعندما وصل بي التفكير إلى هذا الحد راجعت نفسي وقلت بل هي التي سرقتني سعادتي فلولا أنها تزوجته قبلاً مني لكان لي هذا الزوج بجميع أوقاته وعاداته.

صدقوني شيء كبير أن تقبل المرأة أية امرأة أن تكون زوجة في الظل. كنت أنا هذه الزوجة وبرغبة من والدي الذي يعمل في شركة زوجي. أبي معذور، فهو وإن كان يرى في هذه الطريقة إجحافاً لسعادتي إلا أنه يعتقد بأنه قد هيأ لي فرص الحياة بشكل أفضل باقتراني بزوجي.

أمي كانت على النقيض فهي في كل مرة تراني فيها - إذ كانت مطلقة - تصب جام غضبها عليّ وتطالبني بأن أقف موقف المرأة التي تدافع عن سعادتها.

مسكينة أمي. تريدني أن أكون مثلها دون أن تنوي ذلك وإلا ماذا أقول لها؟ وعندما طفح الكيل معي قلت لها بلا مواربة فصمتت ولم تعد تتحدث عن زواجي بأية كلمة.

كانت تزورنا لماماً، لأنها اختارت أن تبقى مع أختها العانس بعد أن طلقها أبي ودفع مصروفها كاملاً ويرى بأن هذا هو واجبه لأن أمي لا تعرف كيف تنفق على نفسها كما أنه لا يوجد لديها أقارب أو أهل فهي من مدينة بعيدة في الشمال اسمها عرعر. تزوج منها أبي عندما كان يعمل في الجمارك يوم كان شاباً وجاء بها إلى جدة وبقيت طوال سنواتها كلها هنا دون أن تزور أو تزار. ولكم أحسست بحب زوجي الصادق لي، وشعرت بأنه يحاول أن يرضيني بهداياه الكثيرة وكأنه يعرف مدى حيرتي عندما يكون بعيداً ويوم أنجبت، أمضى زوجي طوال ليلته معي في المستشفى هو الذي لا يغيب عن بيته إلا عندما يسافر.

وعندما فتحت عيني من تأثير البنج أمسكت بيده في هدوء وسألته عن الطفل فأتوا به إليّ. كانت صورة طبق الأصل من ضرتي التي أحببت فضحكت وقلت له:

ـ هكذا إذن فأنت تحبها أكثر مني.

وأجاب في شيء من الجد:

ـ إن قلت إنني لا أحبها أكون قد كذبت عليك لكنني الليلة شعرت بأن حبك في قلبي قد طغى على حبي لها.

ـ ألأنني أنجبت وهي لم تنجب أم لأنني في صحة طيبة وهي على ما هي عليه من مرض؟

ـ لا هذا ولا ذاك. يكفيني وإن كنت بالفعل قد أحببتها قبلك لأنني عرفتها أولاً، ولكوني مسؤولاً عن رعايتها فهي وحيدة فقد كنت أظن بأنني لم أظلمك. أما الليلة فقد تغير كل شيء بالنسبة لي وأصبح من واجبي أن أقول لها كل شيء.

ـ لا. دعها في وهمها تعيش سنواتها فهي جميلة وأنا أحبها.

ـ غريب أمرك، فهي الأخرى تحدثت عنك معي أكثر من مرة وقد خفت أن تكون قد عرفت بما بيننا لكنها لم تقل شيئاً سوى أنها رأت ولأول مرة فتاة رائعة وناضجة.

ـ وماذا قالت أيضاً؟

ـ قالت لي لو كنت أنا أختك لما رضيت أن أزوجك أنثى غيرها وكانت تشير إليك.

ـ وبعد كل هذا تريدني أن أظلمها يا زوجي؟ لا. سأبقى في الظل زوجة حتى تكبر الصبية وعندما تعي ظروف حياتها سيكون لكل حادثة حديث.

ـ لا بأس!

قالها في استكانة وخرج من عندي.

وجاءت أمه بعده بيوم واحد جاءت وهي متشحة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها، وكنت ألقى زوجي دقائق معدودات أحسست خلالها بأنه متعب وحزين لكنني لم أفاتحه وقالت لي حماتي كل شيء.

لقد ماتت المسكينة في الليلة التي ولدت فيها ابنتي، وأسلمت زوجي مظروفاً فيه ورقة صغيرة وسألت حماتي عما في الورقة فقالت:

ـ أوتصدقين أنها كانت تعرف كل شيء منذ زمن طويل، حتى إنها يوم رأتك كانت تعرف أنك زوجة له؟ ولقد هنأته على حسن ذوقه وقدرته على اختيار المرأة الصالحة وطالبته بأن يحافظ عليك ورجته في أن يرجوك بأن تسمي الطفلة التي تلدينها باسمها عندما تأتي وهأنذا أفعل ما طلبت ضرتي.

وأنظر إلى وجه زوجي لأرى السرور يملأ وجهه وهو يرى ابنته هند تكبر وهي صورة رائعة وطبق الأصل من زوجته هند التي ماتت والتي أظل أذكرها بخير كل خير لأنها أهدتني هذا الزوج.

وتكبر الفرحة

تطلعاتي كبيرة، وهمومي صغيرة، لكنها تكاد تشغلني، تشاغل تفكيري، تتصارع في أعماقي. سنوات عمري العشرون مرت سراعاً، لا أدري كيف مرت، لكنها على أي حال سنوات عمري.

ولدت لا كما يولد الأطفال فقد كان مولدي في باخرة اسمها تالودي، وهي باخرة مصرية كان أبي وأمي يستخدمانها كثيراً، في رحلاتهما للقاهرة، في الصيف في هذه الباخرة ولدت وهي في طريقها من السويس إلى جدة.

فرح أبي بمولدي كثيراً، وأقام قبطان الباخرة حفلاً ساهراً كبيراً فقد كانت ولادتي هي الأولى على هذه الباخرة، أبي سماني على اسم القبطان (رياض) وأمي كانت مسرورة لأن هذا الاسم هو اسم أبيها أيضاً.

تشابه غريب أرضى القبطان وأرضى أبي وأمي، شركة مصر البحرية أرسلت لوالدي رسالة لاسلكية ضمنتها استعدادها لأن أتلقى (علوم البحار) في معهد مصري على نفقتها والقبطان أعطى أمي نموذجاً صغيراً للباخرة، أمي تحتفظ بهذا النموذج.

حاولت عندما كبرت أن أركب البحر، لكنني خفت لأن الدوار كان يغشاني، فبدأت بادىء ذي بدء، فركبت أول باخرة نيلية، شعرت بأنها البداية، لكنني اكتشفت بأنني لا أحب ركوب البحر ومن بعدها حرمت ركوبه.

عندما كنت في العاشرة، أصبت بحمى التيفوئيد حظي الطيب

منحني الفرصة لأن أنجو فقد كان علاج هذا المرض قد انتشر، أبي صديق لطبيب سوري أقام في بيتنا ثلاث ليالٍ كنت تحت إشرافه، اليوم آلاف الأطباء السعوديين تجدهم في كل مكان.

الكلورمايستين كان فرصتي بعد «الله» لأن أنجو من هذا المرض، الذي سبب لي عاهة بسيطة لا يعرفها أحد.. فأنا صاحب سمع ثقيل حاولت أن أعالجه في أكثر رحلاتي في الداخل والخارج بلا جدوى، هيأ الله لي زميلاً في الدراسة درس وتخرج واستطاع هذا الطبيب أن يصحح مسار هذا المرض بأسلوب علمي جديد.

أمي من المدينة المنورة، وأبي من جدة. كثيراً ما أسمع أبي يتحدث عن مشاكل أمي فيصفها بأنها نخولية، لم أعرف معنى التسمية سألت أمي أكثر من مرة، لكنها دائماً تجيبني بضحكتها ولا تشفي غليلي.

في إحدى زياراتنا للمدينة عرفت معنى التسمية. ضحكت لأن المدينة اليوم غيرها بالأمس، لم يعد هناك مكان لهذه التسمية، التعليم أضاعها، صنع منها أشياء جديدة حلوة وباسمة، ولم يبق من الكلمة أي معنى.

أمي شاطرة في كل شيء، تطبخ بعناية، طعامها شهي تعرف كيف تصنعه، وأبي «بطيني» يحب طعامها، ولا يرتاح إلا إذا صنعت هي بنفسها أكلته المفضلة: البريك الحلو والمالح. تحتار أمي ماذا تصنع في شهر رمضان، مائدتنا ملأى بأنواع كثيرة من الطعام، وأفراد عائلتي يسرون عندما يأتون لتناول طعام الإفطار معنا.

أختي صغيرة. لكنها شيطانة جداً، تحب أن تلهو في كل شيء جاءت على كبر أبوي دلوعة. أبي وأمي وأنا نحبها كثيراً، اسمها منى سميناها بهذا الاسم لأنها ولدت في يوم عيد الأضحى، تتحدث عن يوم ولادتها باعتزاز، وتقول بأنها ولدت بأسلوب مغاير للأخريات، لأنها جاءت بعد عملية قيصرية.

كل شيء في بيتنا عادي، لكن الحب الذي يظلل سماء بيتنا يحس به الجيران، وأبي إنسان لا يبخل على بنيه بشيء، لهذا فمن لا يعرفنا يعتقد أننا أغنياء.

سيارة أبي صغيرة سيارة أمي والعائلة رولز رويس آخر موديل. أمي سيدة

أنيقة تصلي فروضها بإخلاص وبرغم جمالها، فهي متدينة جداً تصوم يوم الاثنين والخميس أسبوعياً وتحب أن تقضي إجازة المدارس في نيس وكان، وبلاد تركب الأفيال. هواية أمي السفر، لا تكل ولا تمل فهي تسافر معي، ومع أبي، ومع أختي أيضاً، وتجوب أنحاء الدنيا وهي صائمة.

أمي تكره التبرج في السفر. غطاء رأسها مصنوع بأناقة باريسية وملابسها بسيطة لكنها كلها ذوق، تقرأ كثيراً وتفضل كتب الحديث دائماً والأوراد والأذكار أيضاً.

تميل أمي دائماً إلى حياة الصحراء ولا مانع لديها أن تقضي بضعة أيام في خيمة، وتشعر بالراحة ذاتها، وهي تغشى أرقى فنادق العالم.

أبي يكره السفر بالسيارة، يعتمد على التلفون كوسيلة اتصال ممتازة، وقد فرح أبي عندما أصبح التلفون هذه الأداة العصرية متوفر الاتصال بها داخل المملكة وخارجها فقد كان ذلك اليوم بالنسبة إليه شيئاً مذكوراً. هو يقول بأن توفر الاتصالات يخلي الطريق للسيارات بنسبة عالية وللطائرات، وهو يبني نظريته على أننا إذا لم نكن قادرين على استخدام التلفون فهذا بالتبعية يقتضي منا أن نستخدم وسائل النقل للاتصال بما فيها الأقدام أيضاً.

فلسفة لا أكرهها ولا أحبها فأنا من جيل أكثر ما يشغل باله الكرة، لعبت في المدرسة هاف باك وسنتر هاف وكنت أجد الكثير من الطلبة ممن يشجعون لعبي.. لكن الكرة لم تكن كل شيء في حياتي، فأنا منذ صغري أحب العزف على العود. أبي حاول أن ينهي عمر هذه الهواية لكن أمي كانت تساعدني. أول عود اشتريته كان هدية بمناسبة عيد ميلادي الثالث عشر. صوتي رائع، هكذا كانت تقول عنه أمي، أما أختي فقد كانت تقول بأنها تسمعه بشكل أفضل عندما يرتفع صوتي في الحمام، مجرد نكتة، لكن أختي بعفرتتها وخفة دمها، يحبها الجميع كلماتها جميلة ورائعة.

أختي الآن في الثانية عشرة من العمر، أمي تضيع وقتها في تسجيل صورها بمناسبة وغير مناسبة، أبي يقول لأمي وهي تمارس هذه الهواية، «القرد في عين أمه غزال" . أمي تدافع عن ابنتها وتنسى أن تدافع عن نفسها، أضحك في كمي وأحاول أن أستثير أمي بلفت نظرها إلى ما يعنيه أبي. الحقيقة أننا جميعاً نكون

أسرة رائعة، يعرف كل واحد منا واجبه تجاه الآخر.

بالأمس اختار أبي لنفسه أسلوباً جديداً في الاحتفاء بيوم مولدي فقدم لي سيارة صغيرة يابانية، رأتها أمي فخافت مني على السيارة، لأنها كانت حسب قولها، لا يمكن أن تتحمل شقاوتي. خرجت بها طفت أنا وأمي على أكثر من معرض، أختي كانت أكثر فرحاً من أمي بالهدية، طوال سيري بالسيارة كانت أمي تتمتم وتسبح.

أمي على فكرة لا تحب أن تركب سيارتها أنا كنت الذي أسوقها، مسكينة أمي لو عرفت ما يدور بخاطري، فأنا وعلى الرغم من أنني في أواخر العام الذي أتسلم فيه شهادة البكالوريوس في الاقتصاد، أشعر بأنني قد دخلت الجامعة خطأ، كان حلمي دائماً أن أكون طياراً، وقد حانت الفرصة لأن أكون كذلك.

في عودتنا مررت على إسطبل الخيول. لا تظنوا أن الخيول والإسطبل ملكي، لا وإنما هي لصديقي محمد، شاب أبوه ثري جداً، لكنه لم يرض بثراء أبيه فاختار العمل التجاري وكون له ثروة.

أختي منى تحب ركوب الخيل، تفاهمت مع صديقي حول هذا الموضوع فرضي أن يعيرنا حصانه صخر صخر حصان عربي أصيل، قوائمه بيضاء شعره أحمر في وجهه علامات ذكاء، يحب أختي ويتمسح بها إن جاءت ويذكرها بقطع السكر التي تحضرها معها لتقدمها له في سرور.

في الإسطبل وجدنا «صخر» مع فتاة أجنبية تدلك ظهره بيديها عندما أحس بوجود أختي رفع صوت صهيله وكأنه يغني، أوقفت السيارة نزلت أختي وذهبت إليه بقيت أمي في السيارة اخترت طريقي خلف أختي وقلبي يدق.

أول مرة أرى فيها فتاة عن قرب رغم أنني سافرت كثيراً. لا أدري لم أحسست بهذا في أعماقي ربما لأن الفتاة جميلة ورائعة وطويلة وفيها صفات أنثوية كثيرة.

سلمت عليها وسلمت أختي على الحصان، تمسح بها كعادته، سألتني الفتاة:

ـ أهو حصانها؟

قلت:

ـ لا.

فعرفت صدقي.

جاء صديقي محمد فجأة، قدمنا لبعض.. عرفت أن الفتاة فرنسية تعمل مضيفة وإن كانت في بلادها فرنسا، قد عملت كسائس في إسطبلات كبيرة.

أمضينا بعض الوقت، أمي (طفشت) من (قعدتها) في السيارة. نادتني باسمي ونادت أختي، استأذنت من الصديق ومنها على أن نتقابل مرة ثانية.

في البيت أحست أمي بما يعتمل في نفسي فقالت ومن طرف خفي، وهي تصف واحدة من بنات القرايب:

ـ اسم الله عليها حلوة أحلى من هذه الخواجاية تفوقها في كل شيء، «جمالاً، وكمالاً، وأدباً».

ابتدأت أفكر في الجديدة وصورة الفرنسية عالقة في ذهني.

قلت لأمي بأنني أريد أن أدرس الطيران، انزعجت للخبر، وقالت:

ـ لا بد وأن السبب هو رغبتك في أن ترى الست الفرنساوية.

حاولت أن أفهمها بأن الأمر ليس على ما تظن، وأنها رغبتي، فعاودت الحديث عن الثانية وكيف أنها تطمع بأن تزوجني إياها.

أبي عرف بالموضوع، حكت أمي له كل شيء لكنه كعادته حاول أن لا يعطي للأمر أهمية بل تناساه، وكأنه قد صنع عند سماعه (أذن من طين وأذن من عجين). لكنني مضيت في إصراري، ونلت البكالوريوس وسافرت إلى أمريكا.

وفي أمريكا التحقت بمعهد من معاهد الطيران، أبي عندما سافرت همس في أذني بأنه لا يرفض أن أكون طياراً، لكنه قال لي بأنها فرصة سانحة أستطيع أن أنال فيها إلى جانب دراسة الطيران «ماجستير» في الحقوق.

استمعت إلى أبي في دهشة، فقال:

ـ ليس الموضوع هو خوفي من خطورة عمل الطيار وإنما لأنني أريدك أن

تكون صاحب مهنتين تستثمرهما وقت تريد.

أجبت أبي بضحكة وقلت له:

- صاحب بالين كذاب والثالثة.

ولم أكمل..

أبي لم يضحك بل قال في عفوية:

- حاول.

وهأنذا وبعد أن نفذت كلام أبي، عمدت لأن أدرس الطيران والحقوق، وتخرجت في الاثنين بكفاءة.

كل هذا الشريط يجري بعد أن عدت إلى بلدي، أمام عيني أمي وأبي وأختي في غرفة الجلوس، أمي تعاود الحديث عن ابنة صديقتها التي تحلم بتزويجها مني، وأبي صامت، وأختي تمضي إلى غرفتها تبحث عن شيء ثم عادت لتطلعني على صورة العروسة المقترحة.

نظرت إلى الصورة. أعجبتني الصورة وأحسست بأنني مشدود لأن أنظر إليها أكثر فأكثر، لكن أمي شدت الصورة من يدي وقالت لي:

- مبروك.

الدموع أخذت تنهمر من عيني أبي، فقد كنت أشعر بأنه خائف، من أن (تنجر رجلي لواحدة أجنبية) وعندها ستقع بيني وبينه الكارثة فهو يكره أن يتزوج ابنه أجنبية.

وحمدت الله على أنني رأيتها، فقد كانت أفكاري كلها مشغولة بها وليس بالمرأة التي رأيتها في أوروبا وأمريكا وكل مكان زرته.

ونظرت إلى أمي بعيني الشاكرتين وأعلنت لها موافقتي. فضحكت أمي من قلبها والتفتت لأبي وقالت:

- أولم أقل بأنها هي التي يحلم بها هذا الولد (الخلبوص)؟

وربتت بيديها على وجهي فشعرت بأنني أنتقل من مكاني إلى مكان آخر حالم وجميل ومؤنس أيضاً.

القلب الكبير

قلبي لا يعرف الحزن، أضحك من أعماقي دائماً، أحاول أن أصبغ حياتي بأسلوب يغاير أسلوب أبي. أبي رجل صامت، لا يتكلم كثيراً يقضي أطول وقت في قراءة كتبه، يميل دائماً إلى العزلة. أمي بحبوحة، تحب الناس وتختار أصدقاءها بعناية وتهتم بإشاعة الفرح في قلب كل من تعرف.

أخذت عن أمي حبها للفرفشة، وأخذت عن أبي حبه للقراءة، كتبي تختلف عن كتب أبي. أكثر كتب مكتبة أبي تشيع الفرحة في القلوب، لكن ما أقرأه هي الكتب الجادة، خزائن أبي ملأى بقصص أرسين لوبين، وأنا أكره هذا النوع من الكتب. تحدثت لأبي أكثر من مرة عن الهدف الذي يحب أن يصل إليه من قراءته لهذه الكتب حتى اكتشفت في الأخير بأن أبي لص.. ولص كبير..

لا تنزعجوا فأنا لا أقصد المعنى الحرفي للكلمة وإنما المجازي. فلقد استطاع أبي أن يسرق قلب أمي من بين عشرين خاطباً، وأبي وسيم، ورغم الشيب الذي أراه يمتلىء في صدره وساعديه ورأسه، وأمي جميلة تصغر أبي بعشر سنوات على الأقل تتحدث عن هذا الموضوع بحيوية، وأبي لا يبتسم ولكنه يناقشها في هدوء، يحسم هذا الموقف بكلمة لاهية. تضربني أمي على يدي:

ـ عيب يا ولد.

لكنني استمر في مداعباتي وكأن شيئاً لم يكن على رأي المغنية نجاة الصغيرة.

أمي فيها شبه كبير من جوليا كريستي الممثلة اكتشفت هذا الأمر وأنا أقرأ قصة هذه الممثلة وأخذت أقارن بين تفاصيل وجهها ووجه أمي خرجت في النهاية بأن أمي أجمل وأحلى وأرق. لا تضحكوا أبي يؤكد هذا الشبه، لكنه لا يحب أن يتخذ منه وسيلة للحديث، أخبرت أبي بأنه يخاف أن يقول الحق، لأنه سرق قلب أمي الجميلة، وأرادها أن تكون أماً لي.

لأول مرة أرى وجه أبي وهو يضحك، وجهه وهو يضحك أجمل بكثير من وجهه وهو يستعمل تكشيرته المعتادة، قلت هذا الكلام لأمي، أمنت عليه وطلبت مني أن أضحك أبي ما دمت قادراً على ذلك.

بيتنا أكبر من فيلا، وأصغر من قصر، غرفة نومي تطل على الحديقة، الحديقة ملأى بأنواع كثيرة من الورود والزهور يحيط بالبيت غابة من الأشجار والمرمر أيضاً، أمي تحب الناس وأبي لا يشاركها هذه الهواية.

في الصالون الكبير، صورة لجدي مات قبل أن أولد. يقولون عنه بأنه جمع ثروته من بيع الورق، فقد اشترى صفقة منها قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ولما وصلت لم يشترها أحد فتركها في المخازن، وارتفعت الأسعار وارتفعت معه أسعار الورق وكسب جدي.

جدي كان يهوى بناء البيوت، عندما توفي ترك لنا أكثر من بيت في أكثر من شارع في مدينة جدة.

أبي سار على الطريق ذاتها، استفاد من فارق الأسعار التي حصلت في أسعار الأراضي، لكن هذه التجارة لم تكن الأساس وإنما كانت هواية فأبي تاجر عنده الكثير من الوكالات، وهو يعرف أمور تجارته بعبقرية. حاولوا معه أن يكون أكثر من مرة عضواً في الغرفة التجارية، فرفض ولما سألته عن السبب، أجابني باقتضاب بأن عمله يأخذ كل وقته.

من أبي عرفت معنى الوقت، وقيمة الوقت، لكنني لا أهتم بهذا الأمر، فأنا إنسان، هليهلي، أحب الضحك، وأعمل لإدخال السعادة حتى على قلب أم سعيدة، المرأة السوداء التي ربتني.

بيتنا من أجمل البيوت، نعيش لحظات الصفاء بحرية، يحسدنا الكثيرون لا على المال الذي يجري بين أيدينا، وإنما على الهدوء والوفاق الذي نمارسه.

أمي تحب الموسيقى وأبي كذلك، لكن أمي تحب الموسيقى الغربية وأخواتي كذلك، فرقة «أبا» المسيطرة في البيت، رغم أن أبي يحب الموسيقى الشرقية ويطرب لصوت طلال ومحمد عبده.

تقول أمي عن أبي وعني بأننا «غير مودرن». على فكرة أمي تجيد الإنجليزية والفرنسية فقد تعلمتهما من السفر، وهي ذكية جداً، وحريصة على أناقتها وماكياجها رغم أنها تعدت الأربعين، وأبي يحبها كثيراً.

أنا في الجامعة، أدرس بحرية لا أحد يتدخل في دراستي، ومع هذا العز الذي أنا فيه فسيارتي آخر موديل، وملابسي أنيقة، فقد كنت ولا أزال أقطف ثمار مثابرتي على الدراسة بأن أنال دائماً الامتياز في دراسة الهندسة الصناعية. بعد عام سأتخرج، لا أدري ماذا أعمل، لكن أبي يحاول أن يغريني بأن أعمل معه، أرفض بشدة، وأطلب أن (أتمرمط قليلاً) يعني بالعربي كده أن أعمل عند واحد ثاني غير أبي لفترة.

أمي لا توافق. أبي لا يمانع، لكن المشكلة هي مشكلة زواجي. أبي يريدني أن أتزوج ابنة خالتي الفقيرة وأمي لا ترضى بذلك وتبحث لي عن زوجة تكون أغنى. سمعتهما يتناقشان في هذا الأمر كثيراً لكن أبي كان أقدر على حركة الالتفاف من أمي فعلى الرغم من أنها عرضت علي مجموعة من صور البنات التي رضيت بهن إلا أنني لم أجد في أية واحدة ما تصبو نفسي إليها.

بنت خالتي (منى) حلوة شعرها كستنائي طويل وجهها أبيض نالت شهادتها الثانوية. كل شيء فيها يناسب ذوقي واختياري تعرف كيف ترسم وتعزف وتغني، صدقوني سمعتها وهي تغني في إحدى المناسبات عندما زرت ووالدي بيتهم في العمارية. البيت نظيف وصغير، وهي في الصالون الصغير تعزف مقطوعة على بيانو قديم هو بيانو خالتي عندما أحست بمجيئنا هربت.. ودخلت غرفة أخرى ولم ترنا وجهها. في تلك الزيارة حاولت جهدي فسألت خالتي عن منى.. لكن خالتي ضحكت وقالت:

- مسكينة منى مشغولة جداً هذه الأيام.

وأجبت خالتي:

- ترى ماذا يشغلها.

وقالت خالتي:

ـ تعرف أنها تريد أن تتعلم لتصبح طبيبة.

وبلعت ريقي، فحديث خالتي لا يشجع على أن أتكلم كثيراً في أشياء تروقني. زوج خالتي لم يهضم الكلمة فقد قال:

ـ كنني أعارض في هذا النوع من الدراسة. الطب لا يحتاج إلى أن تمضي فتاة جميلة سنوات عمرها فيه.

وضحك. فزاد أبي في الكلام بأن قال:

ـ بعض فتيات الطب هن من الفتيات اللواتي لم ينلن نصيباً كبيراً من الجمال.

بدأ أبي يدخل في صلب الموضوع، أفهم خالتي حقيقة ما يريد فهو قد عقد العزم على أن يخطب منى لي، ولكنه يريد رأيها.

وكأي أم حاولت خالتي أن تفلسف إجابتها فقال زوجها:

ـ بصراحة لا عليك يا سيدتي فأنا أعرف منى وقد سألتها مرة عن رأيها في الزواج فرفضت لكنني عندما قلت لها من حسام ابتهجت وظهر على وجهها شيء من الإشراق لكنها لم تجب.

ولكزت خالتي زوجها وكأنها تطالبه بأن يصمت فقال.. وقد التفت إليها بكل جوارحه:

ـ ولماذا لا أقول ذلك؟

لم ينتظر أبي كلام خالتي، بل أخذ يتحدث بصوت جهوري قائلاً:

ـ تعرفون رأي أم حسام ولهذا فسنعمل جميعاً كل الترتيبات للزفاف في صمت وقد قررت أن يتم ذلك بعد موافقتكم فور انتهاء حسام من اختباره.

وافق الجميع وأمنوا على كلام أبي إلا أنا فقد طلبت رأي منى.

وقامت أمها لتأتي بها إلى الصالون عرفت أنها قد همست بأذنها بكل ما دار بيننا من كلام قبل أن تأتي.

وفاجأت منى بطلبي الاقتران بها فصمتت في خجل ونظرت إلى الأرض

فأدرت الحديث قائلاً:

ـ أتودين أن تدرسي الطب إذن؟

وجاء رفضها قاطعاً في هذه المرة فعرفت أن الموضوع يروقها.

وتمضي الأيام لا أحد يعرف بالحكاية إلا أنا وأبي. وجاء الموعد المحدد وكان أبي قد أعد للأمر عدته، فقال لأمي بأنه يرغب في السفر معي من الغد لقضاء بضعة أيام في أوروبا ووافقت أمي بعد أن طلبت منه بأن تذهب إلى المدينة لتزور مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومضى كل شيء في طريقه، وتزوجت منى في تلك الليلة في هدوء وبلا ضجة وفي الصباح كنت ومنى وخالتي وزوجها عند باب المطار وكنا ننتظر أن يأتي أبي ولكنه لم يصل.

وعندما طلب المذيع الداخلي للمطار التوجه إلى القاعة الداخلية أخذت حقيبتي وفي ذراعي منى زوجتي التي أحببت ودخلت إلى الطائرة لأجد أبي فيها فقد اختار طريقاً آخر غير الصالة الاعتيادية. وفرحت كثيراً بوجوده ولم ألاحظ التي تجلس بجانبه حتى لكزتني منى وعندها أحسست بشيء من الألم فقد هالني أن تبلغ الدناءة بهذه المرأة لأن تسافر مع أبي في طائرة واحدة.

وجلست على مقعدي على مضض حتى طارت الطائرة وعندها قام أبي.. وقدم لي هدية زواجي قائلاً:

ـ لا تذهب بأفكارك بعيداً.

ودفع بورقة مكتوبة باللغة الإنجليزية. عرفت في البداية أنها تقرير صحي فيه أشياء لا أدري كيف أقولها فهذه المرأة جارتنا مات زوجها منذ زمن وكان يعمل في مكتب أبي وكان أبي يرعاها وأطفالها الصغار في هدوء دون أن يقول كلمة حتى لأمي التي كانت تطارده وتطلب منه أن ينأى عن هذه المساعدة وعرفت أن المرأة المسكينة مريضة بمرض خطير يجب أن يعالج وبأسرع ما يمكن فارتميت على كتف والدي وأنا أبكي فأبي كما تبين لي هو هو رجل يحمل في طيات قلبه قلباً كبيراً ورحيماً أيضاً.

ولهذا فهو يستحق أن يسمى بالقلب الذي لا يعرف الحزن.. لا أنا.

قصّتي معه

كل شيء في المدينة الكبيرة (لندن) يثير الإعجاب. فاليوم هو أول أيام مايو (عيد العمال) الذي ابتدعته عناصر كثيرة ليكون إجازة للعامل بعد عام طويل من العمل. ولكنهم في لندن لا يهتمون بهذا العيد وكذلك أنا.

اسمي أحلام، وأمي وأبي يناديانني ـ حنة ـ وأنا أكره هذه التسمية، كما أكره رائحة الحناء عندما تضعها أمي على رأسها.

والدي عراقي الأصل، وأمي لبنانية، لكن من يستمع إلى حديثها يشعر بأنها عراقية أكثر مني. ولدت في مدينة بغداد المدينة التي امتازت بعيون المها بين الرصافة والجسر. طويلة نحيلة ممشوقة القوام أحمل على رأسي تاجاً من الشعر الكستنائي الطويل أهتم بتسريحه دائماً وأتفنن في طريقة تصفيفه. تخرجت من جامعة لندن بعد أن درست الفلسفة. لا عمل لي رغم شهادتي الكبيرة لأن أبي وأمي يرفضان أن تعمل.

سيارتي أمريكية آخر طراز ٨٤ بالأكسسوار الذي أريده لها وهي آخر صيحة بالأجهزة الحديثة. أشترك في أكثر كازينوهات المدينة. معروفة عند أصحاب هذه الكازينوهات وجرسوناتها. الجميع يحترمونني لا لأنني أدفع بقشيشاً كبيراً وإنما لأن كل من أصحبه من الرجال يدفع هذا البقشيش. لا تظنوا بأنني إنسانة مستهترة فأنا أصلي فروض الصلاة يومياً، وأقرأ بعض الأوراد.

أمي وأبي أورثاني هذا الأمر فأصبحت أعتاد على قراءة كل

ذلك. أحلم بأن أكون كأية روائية مشهورة، وأحرص على التعرف برجال الصحافة. عندي قدرة عجيبة على التقاط الأصدقاء، فأنا بالإضافة إلى كل ما ذكرت أستخدم أفضل الملابس وأجملها وأغلاها. معروفة بذوقي.. وتذوقي للطعام، وأحفظ أسماء الأكلات المشهورة وغير المشهورة في المطعم الفرنسي والإنجليزي والألماني والياباني والكندي.

أميل إلى الطعام الصيني حيث تغريني دسامته رغم رشاقتي فأنا إنسانة لا تتأثر من كل الذي تأكله. لا أذهب لاستشارة طبيب، لا أحلم بالمال، فقد كفاني أبي بثروته شر هذه الأحلام. نسيت أن أقول بأنني الصبية الوحيدة بين خمسة شباب هم إخوتي جميعهم تخرجوا من الجامعة وأكبرهم طبيب مشهور.

أبي وأمي استمرءا البقاء في لندن منذ ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إليها لإدخالنا المدرسة حتى إذا ما كبرنا أنا وإخوتي اتخذنا بهذه المدينة مقراً لنا وسكناً وعملاً أيضاً.

أعرف الكثيرين من رجال السياسة، وتستهويني لعبتها خصوصاً عندما أسمع حديث بعضهم ممن لفظتهم محافلهم في بلادهم فأنتم تعرفون بأن في بعض البلدان العربية يصل الإنسان إلى مركز كبير ثم يفارقه دون أن يدري. يكفي أن يكون حزبياً. أنا أكره الحزبية والأحزاب وأهوى لعبة شد الحبل مع هؤلاء الذين جمعوا ثروتهم من وظائفهم. عرفت الكثير وعاكسني منهم الكثير بعضهم طاب لهم مغازلتي وأنا أضحك وبعضهم قدم لي اسمه فرفضت ذلك بلا أسف.

أعيش في بيت الأسرة بـ (بيلجراف اسكوير) وشقتي الصغيرة في كوينزواي. ستقولون بأنها مفارقة وقلة أدب من فتاة عربية تعيش مع أسرتها وتقتني شقة خاصة. بها لا تظنوا بي الظنون. هذه الشقة عبارة عن مرسم لي وأنا أحبها لأنني في طريقي إليها أمر على الدكاكين التي تفتح أطول مدة ممكنة وأصافح وجوه الإخوة والإخوان العرب.

كوينزواي ستريت من الشوارع التي لا تهدأ وأنا إنسانة لا تهدأ. أفرح بقيمة لوحة رسمتها ثم ابتاعها مني أحدهم ممن أتعامل معهم عند جدران الهايد بارك رغم أن ثمن اللوحة لا يكفي لدفع قيمة حذاء من أحذيتي التي يشتريها لي

والدي. مصروفي كبير ـ ٥٠٠ جنيه ـ في الأسبوع ولكم أن تتصوروا هذا المبلغ مع فتاة لا تعرف قيمة المال، لأنني عندما أحل في أي مكان أجد رجلاً من معارفنا على استعداد لأن يلقي بمحفظته في طريقي!

أعرف أنكم تضحكون وضحكاتكم هذه لا أستغربها لكنها الحقيقة فأنا وعلى الرغم من أنني قد وصلت إلى سن الخامسة والعشرين إلا أن وجهي ينطبق عليه ما يقال عن وجه فاتن حمامة (ببيي فيس). عرفتم ما أقصد. هذه هي الحقيقة. الرجال يغازلونني دائماً وأنا أتحمل هذا الغزل برحابة صدر لكنني أوقفه عند حده إذا أراد أحدهم أن يزيد عليه!

شخصيتي قوية لا ضعف فيها ولا خور، أحب نفسي، وأبي، وأمي، وإخواني، وكلهم يحبونني.

أخي الكبير مشغول في مستشفاه وإخواني مشغولون بأعمالهم، وأمي تعمل ممرضة في البيت لأبي المريض بالقلب. عاودته النوبة أكثر من مرة في لندن لكنه كان يخرج منها دائماً سالماً.

نسيت أيضاً أن أقول لكم بأنني درست الموسيقى وأجيد العزف على البيانو وأرقص بانسجام. نقطة ضعفي الوحيدة هي أنني أميل إلى مصادقة كبار الكتاب والصحفيين. أزورهم في مكاتبهم وأستعرض أفكاري معهم وأقرأ عليهم بعضاً مما أكتب، فأنا روائية لكنني لم أنشر ما كتبت رغم استعداد الطليعة لنشر روايتي التي أحس بأنها نوع جديد في أسلوب الرواية. لا تضحكوا مرة أخرى على هذه الحقيقة، والحقيقة لا بد لها من أن تظهر لأن بعض ما قرأته على بعضهم يجعلني أتأكد مما قلت. هناك مشكلة لا تزال تثيرني فأنا أحب السفر ولهذا أرتاد السفارات، وأجد أبوابها مفتوحة لي. يزعجني في بعض الأحيان أن أجد الكثيرين ينتظرون دورهم للتأشيرة وأنا آخذها بسرعة وأنا جالسة في غرفة أحدهم وهو يحاول التسلل بنظراته عبر وجهي يطالع صفحاته في هدوء!

عيناي سوداوان جميلتان، قال عنهما أحدهما بأنهما بحيرتا سكون. ضحكت لقوله فعاود الحديث عن عيني في لهفة وفهمت أنه يعشق العيون الجميلة وله شعر يفوق شعر نزار قباني.

قرأ بعضه علي وأنا أستمع إلى الكلمات المختارة. كيف يكتبها شخص

كهذا؟ المفروض أنه متعلم وحصل على درجة عالية كبيرة.

أتحمل بعض سماجة بعضهم مقابل خدماتهم التي يقدمونها لي فكل شيء في هذه الدنيا بثمن، وأنا لا أدفع إلا أبخس الأثمان ابتسامة، ضحكة، هزة رأس، غمزة لطيفة، بعدها أعدو في الطريق كالغزالة إلى سيارتي الأنيقة.

حتى جاء هو وليتني لم أعرفه. في قسمات وجهه رجولة ناضجة. شعره أسود جلله الشيب بخيوطه الفضية، يستخدم كلماته في أناقة ويتحدث في هدوء، يعرف أخي عن طريق صديق آخر. جاء إلى لندن كما يجيء أكثر الناس.. يحب أن يرتاد المسارح، يغشاها، ويغشى المكتبات، يشتري كتباً كثيرة، يتأبطها إلى فندقه.. يحرص عليها.

عرفته في صالون العائلة.. كان يزور أمي وأبي مع أخي فشعرت بقلبي يخفق، وجسدي يهتز، ومددت له يداً باردة أحسست بعدها بأنني أتلاشى وهو يمد يده لاحتواء يدي بين كفيه.

نظر إلى وجهي بسرعة.. وعاود الحديث مع أمي وكأنني لا أعني له شيئاً.. حاولت إخراجه من دائرة التشاغل بأحاديث صبيانية، عنفني بها أخي في مرح.. لكنني لم أصمت وأحسست بأنه ينظر إلى وجهي نظرة متفحصة سريعة لكنها متعالية.

عرفت ـ تخميناً ـ أنه أكبر مني بخمسة عشر عاماً. فهو بلا شك في الأربعين من عمره. ضحك عندما سمع كلام أخي وقال:

ـ دع الصغيرة تتحدث عما تريد!

قلت له بعصبية:

ـ لست صغيرة يا سيدي فأنا في الخامسة والعشرين من العمر.

ونظر إلي في هدوء وقال:

ـ كنت أظنك في الثامنة عشرة من العمر. فوجهك الطفولي لا يعطيك أكثر من هذا.

وبعفوية استدرت وقلت:

ـ وجسدي هذا.. ألا تراه جسد امرأة؟

ونظرت إلي أمي لكنني تناسيت نظرتها وقلت:

ـ حتى لا يختلط عليك الأمر يا سيدي فأنا متخرجة من الجامعة منذ أربع سنوات!

ضحك مرة ثانية وقال:

ـ مشكلة المرأة لا تزال كما هي. فهي تحب دائماً أن تضيف إلى عمرها سنوات أخرى عندما تكون صغيرة وعندما تكبر تستلف أضعاف أضعاف ما أخذت لتنقصه من عمرها عندما تسأل!

ضحكوا جميعاً لكنني لم أضحك.. وقلت له بعد أن عرفت بأنه روائي:

ـ وأنا روائية يا سيدي.

وبنظرته المتعالية قال:

ـ وكم رواية كتبت؟

قلت؛

ـ واحدة.

فضحك، لكنني لم أسكت بل قلت بأن روايتي التي كتبت توازي نصف كتبك يا سيدي!

انزعجت أمي وأخي لهذه اللماضة.. لكنه قال وبسرعة:

ـ لك حق فالروائي الذي يكتب أكثر من رواية قد يمنح شيئاً في كل ما كتب لكن واحدة هي كل ما كتب!

(وصمت) فاحترمت صمته لبرهة رفع رأسه تجاهي وقال:

ـ هل لي أن أراها؟

يقصد الرواية..

وأجبته بأنني وإياه على موعد في الساعة الثامنة في شقتي وأعطيته عنوانها لنقرأ سوياً الرواية.

قلت كلماتي في هدوء وشعرت بأنه لم يفهم ما أعني فقلت:

ـ إنها مرسمي.. فأنا كما تعرف أجيد الرسم.

وأجابني فجأة:

ـ ولماذا كل هذه التبريرات؟ أعرف أن المرأة في لندن حرة في جميع تصرفاتها ومن هذا المنطلق لم أشك لحظة بأنك عندما طلبت أن نجتمع سوياً في مرسمك كنت تعرفين ذلك لكنني ولطبيعة شخصيتي المتحفظة فأنا كما تعرفين زوج وأب لا أستطيع أن ألقاك فيها.

وأجبته بصفاقة:

ـ أتخاف أن آكلك؟ أم تخاف بأن أطلب منك الزواج؟

وقال:

ـ لا، ما هذا عنيت.. ولا ذلك أردت.. كل ما في الأمر فأنا وإن كنت لا تعرفين من بلد يحترم فيه الرجل والمرأة التقاليد..

ـ وهل تظن بأنني اعتقدت أنك قد فقدت احترامك وأنني قد دست على التقاليد؟

ـ لا يا صغيرتي. لكنها الحقيقة أقولها لك.. لا تطلبي من رجل.. أي رجل أن يقابلك في شقتك الخاصة.

وقلت له بثقة واعتزاز:

ـ ولكنني أقابل فيها من أريد فأنا كما تعرف امرأة مثقفة.

وأجابني:

ـ ولكن هل يمكنك أن تعمليها في بغداد؟

وأجبت:

ـ ربما.. لكن في الحقيقة لا أدري.

وتدخلت أمي في الحديث قائلة:

ـ الحقيقة الذنب ليس ذنبها وإنما هو ذنب أبيها وذنبي فنحن اللذين أعطيناها هذه الحرية لأننا نعرف بأنها أهل لها كما تظهر. ومع هذا فلا عليك.. فهي هكذا دائماً.. الذي في قلبها على لسانها!

والتفتت إلى ابنتها وقالت:

ـ أفضل أن تتقابلا هنا.

وأمن هو على هذه الرغبة أما أنا فقلت:

ـ لا، ما دمت لا تريد مواجهتي في مرسمي فسآتي أنا إلى فندقك.

واعتذرت وخرجت من البيت بعجلة.. لكنني وأنا في الشقة رن جرس التلفون وكانت المتكلمة أمي هذه المرة.. قالت أمي كلاماً كثيراً قاسياً استمعت إليه لأول مرة لكنني تحملتها فلقد أحسست بخطئي. فهي تعرف عادات المملكة وأخلاق أهلها وظروف معيشتهم وتعرف عائلة هذا الرجل الذي أحسست بأنه قد دخل قلبي بلا استئذان..

لطالما تحملت كلام الكثيرين ممن يضعهم القدر في طريقي، لكنني لم أحس برغبة مثل هذه الرغبة في التحدث إليه هو الذي جاء إلى بيتنا على عجل وذهب فجأة.

وحاولت إقناع أمي بأنني لم أقل شيئاً خطأً.. فهي تعرف طبيعتي وتثق في حسن تصرفي لكنها كانت مستاءة جداً من كل شيء جرى في بيتنا.

وعرفت أنه ابن صديق لوالدي منذ زمن طويل. وعرفت أيضاً أن أبي الذي أدى فريضة الحج أكثر من ست مرات كان ينزل ضيفاً في بيته الكبير. لكن كل هذه المعلومات لم تهمني. الذي أردت أن أعرفه هو أوصاف زوجته لكن أمي عندما تحدثت إليه ثانية في ا لبيت لم تقل شيئاً.

وكعادتي قلت لها:

ـ إنني أحبه هذا الأسمر الغريب الذي وخط الشيب مفرقه.

فضحكت أمي وحدثتني عن طفولتي وكيف كنت أتباهى بأبي وأنا صغيرة، وعزت كلامي إلى أنه نزوة تزول مع الأيام، لكنني أصررت على أنها حقيقة وليست نزوة.

وسألتني أمي:

ـ كيف ترضين أن تتزوجيه وعلى ذمته امرأة وأطفال؟

ولم أجد جواباً لسؤالها وإنما مضيت في إصراري بأنني سأقبل أن أكون زوجته.. وأذهب معه إلى آخر الدنيا لو طلب ذلك مني!

وضحكت أمي من رعونتي وقالت:

ـ لكنه لن يطلب، خصوصاً بعد أن رأى مقدار ما تملكين من حرية. إنهم يرفضون أن تكون زوجاتهم على شاكلتك.

ـ ولماذا يا أمي..؟

وأخذت أمي تعدد الأسباب لكنني مع كل ما قالت لم أجدها ستحول بيني وبين هذا الزواج.

وعندما قلت لها بأنني سأحاول قالت:

ـ سأشكوك إلى أبيك.

وضحكت وأجبتها بأنني أنا التي سأقول له كل شيء. وصمتت أمي، ومضيت إلى غرفتي أنتظر بزوغ فجر اليوم التالي على مضض. وأخذت أقلب الأمر في هدوء بيني وبين نفسي حتى إذا ما حان الموعد وجدتني أنطلق إلى الفندق وكان جل همي أن أجده في انتظاري. لكنه لم يفعل حتى إذا ما اتصلت به تلفونياً قال بأنه سيكون في الصالة في دقائق.

وجاء الرجل وكان يرتدي بنطالاً وقميصاً مفتوح الصدر تدلت من صدره شعيرات بيضاء تؤكد فارق العمر بيننا. لكنني رأيتها شموعاً تضيء معالم الطريق أمام عيني! وتصفحت وجهه فلم أجد فيه شيئاً من التجعدات. وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حتى إذا ما انتهينا لأن أقرأ له شيئاً من روايتي أخذ يرتاح في كرسيه، وكأنه يطلب مني أن أباشر القراءة.

وأخذت أقرأ وأقرأ وهو يستمع حتى عندما توقفت عند الصفحة العاشرة طلب أن أستمر وتابعت القراءة حتى توقفت مع نهاية الفصل الثالث.. والتفت إليه لأقول له وأنا أضحك:

ـ لا أخالك تراني إلا سكرتيرة لك!

وسمعت صوته يجيب بكلمة واحدة:

ـ يا ريت.

فتشجعت وقلت:

ـ أتريد الحق بأنني أرغب في أن نكون صديقين؟

وأجاب بهزة خفيفة من رأسه ورأيت إعجابه بالرواية يظهر من خلال حفاوته بي.

وعندما قال بأنه يشهد مولد روائية جيدة.. هدأت نفسي وقلت:

ـ لكن روايتي القادمة ستكون أفضل.

ولم أكمل لكنه أجاب وبالحرف الواحد:

ـ ولكنك لن تكمليها!

وسألته عما يقصد فلم يجب بل أكد ذلك بجملة مقتضبة وقال بأن للروائي والروائية رواية واحدة هي التي تعيش وتبقى.

وأخذنا نتناقش في كثير من الأمور دعوته بعدها للغداء، فاشترط أن يكون ذلك في بيتنا. رفضت مبدئياً، ثم وافقت وعشت معه أياماً رائعة حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها قصتي هذه.

كان في طريقه إلى المطار بسيارتي والتي حاولت أن أوقفها جانباً حتى إذا ما أحس بالحركة قال في هدوء:

ـ لا تظنيني ميكانيكياً يفهم في شؤون السيارات. فإذا كان هناك شيء فيها فدعينا نأخذ (تاكسي) للمطار.

وابتسمت وقلت له:

ـ لا تخف ليس في السيارة شيء ولكن المشكلة تكمن في قلبي!

وتحدثت له أكثر من نصف ساعة عن كل شيء في حياتي حتى إذا ما انتهيت لأن أرجوه بأن يقبل ويتزوجني لأنني أحبه، ضحك من أعماق قلبه وقال:

ـ أنت مجنونة. فأنا كما ترين أكبر منك كثيراً. وفوق هذا وذاك فأنا متزوج وأب لأطفال أحبهم وأحب امرأتي.

وحاولت أن أفهمه بأنه لا مانع عندي أن أكون الضرة. قال:

ـ الآن عرفت أنك قد ألغيت عقلك ونسيت شيئاً هاماً هو أنك تحبين أباك ولا تحبينني أنا.

وقال كلاماً كثيراً لا يزال يطن في أذني لكنني لا أحب أن أفهمه فأنا قد عقدت العزم على أن أتزوجه وسأحاول أن أدخله مصيدتي يوماً ما.

هكذا أجبته.. وهو يضحك ويقول:

ـ بل دعينا نعيش أصدقاء.

قلت:

ـ أية صداقة تنشدها؟ صداقة القط للفأر؟

وقال في هدوء:

ـ ومن القط إذن؟

قلت:

ـ أنا.. وأنت الفأر وسآكلك يوماً ما!

ووصلنا إلى المطار وترجل من السيارة مودعاً وهو يطلب مني أن أعود. قلت له:

ـ سأنتظر.

قال:

ـ لا.

وعدت إلى شقتي أكتب قصتي معه.

غبية ولكن جميلة

غداً سأرحل، سأترك هذا البيت، سأعود إلى الأرض التي ولدت عليها. كل شيء أمامي أحس به قد أصبح مظلماً أمام عيني. فمن كان يظن أننا سنفترق. ويكون فراقنا بأيدينا؟ لذلك قصة أود أن أرويها لكم، أقصها، أفضي بها، أتحدث عنها، لا لأنها غريبة وإنما لأنني أراها الأولى من نوعها، لا تظنوا أن بي شيئاً من الجنون، فأنا امرأة عاقلة اجتزت الخامسة والعشرين من عمري، عايشت الحب، فملأ قلبي، وهز كياني، وأصبح شغلي الشاغل. صدقوني عندما أقول لكم إنني أحب زوجي وإن زوجي يحبني، وإننا نفترق ونحن على وفاق، لأن كل واحد منا يحب الآخر، يخشى على سعادته أن تنهشم أو تذوي.

أبي وأمي يتهمانني بالجنون، وأخي يضحك ويعتبر أن ما نحن فيه أنا وزوجي، وما اتفقنا عليه مجرد مزحة ثقيلة وهزار بارد. أخي قبل أن يكون أخي فهو صديق لزوجي، يحبه ويحترمه عاشا سنوات عمرهما سوياً، حتى أصبح زوجي كاتباً وأديباً، يشار إليه بالبنان. لا تظنوا أنني أغار من المعجبات اللواتي يطاردن زوجي ويتحدثن معه عن رواياته ويناقشن كل ما يكتب، فأنا أثق في زوجي ثقة عمياء ولولا هذه الثقة لما تزوجته..

زوجي عاش سنوات طفولته في دار قريبة من دارنا صديقاً لأخي أراه وأنا صغيرة وأراه عندما كبرت.

غاب بضع سنوات كما غاب أخي، ذهب للدراسة في أمريكا

وعندما عاد، تحدث أخي عنه حديثاً طويلاً جعلني أفكر فيه كثيراً حتى تقدم لخطبتي، وافقت بلا تردد فقد كنت أشعر بيني وبين نفسي أنه سيكون زوجي.

قدم لي زوجي، في أول لقاء روايته الأولى التي كتبها. قرأتها بشهية، فاجأني بأن البطلة في القصة لها نفس اسمي وفيها شبه كبير مني، حتى إذا قرأت الإهداء وجدته دليلاً جديداً على أن «حسان» قد وطد عزمه ومنذ البداية أن يتزوج بي. حتى قطتي التي أحبها كان لها مكان في فصول الرواية.

ناقشته بعد قراءتها.. فقال:

- صدقيني كنت أكتب حروفها وصورتك في مواجهتي.

وقلت له:

- من أين أتيت بصورتي؟ هل أعطاها لك أخي؟

فضحك وقال:

- لا تزالين ساذجة.

لم أكن ساذجة وإنما كنت أحاول أن أبدو كذلك فاخترت كلماتي بعناية!

يوم زفافي كان من أجمل أيام حياتي اتفقنا على أن يظل كل واحد منا يحب الآخر حتى آخر العمر.

وهأنذا رغم أنني سأرحل وفي الغد إلا أنني سأظل أحبه وأعرف أنه يحبني أيضاً. ثمة شيء في أعماقي يهتف بي أن أرفع صوتي، أن أشهد كل الناس على مأساتي، أنا امرأة، وامرأة تحب.. والحبيب الذي تحبه هو زوجها، والذي اتفقت معه بعد زواج دام خمس سنوات على الفراق.

الفراق صعب، وهو في نفس الوقت صمت وعذاب، وسهر أحس به يأكل قلبي، صوته ووجهه، حديثه، هو كله سيصبح بعيداً، لن أسمع صوته.

أمي تتحدث إلي عبر التلفون غير مصدقة، هي تحبني لكنها لا تريد أن تراني أعود إلى المدينة التي ولدت فيها وإلى البيت الذي رعاني بهذه الحالة. هي مسكينة تظن أنني أنا السبب.

لا أكذب عليكم عندما أقول لكم إن كل ما صنعناه خلال السنوات الخمس أراه وكأنه يتجسد أمام عيني، لأننا وإن اكتشفنا وبعد إصرار وطول

ترصد أن الواحد منا يحب الآخر حباً يجعله يضحي ويبحث عن الذي يستطيع مشاركة الآخر. . بعيداً عن النقائص التي عرفتها أو التي عرفها هو، ولا تضحكوا فلقد كان حديثي إليه هادئاً بعد منتصف ليلة أمس.

طلبت منه إحضار ورقة وقلم.وطلب هو كذلك، وبدأنا أنا وهو ندون نقائصنا على الورق، هو يكتب وأنا أكتب، حتى إذا ما انتهينا نظر كل واحد منا إلى الآخر في استغراب وقلنا سوية في جملة واحدة ما اتفقنا عليه ووضعنا خطة عمل كنت أحسبها جيدة، حتى حانت ساعة الرحيل عرفت أنني مخطئة وأنه تسرع.

ونظرت إلى عينيه وهي تودعني، لمحت صورتي تطل من بين جفنيه في حزن طاغٍ أخافني، فنطقت باسمه، ونطق باسمي. . وذهب. . !

لملِمت بعض ملابسي، وتركت أكثرها في خزانتي، لا أدري لماذا، ربما كان هناك شيء ما يضحك داخل أعماقي على هذه التمثيلية الرعناء.

ـ سأرحل من الغد، وسأحاول أن أنسى سنوات زواجي وسأبحث له عن رفيقة.

هكذا قلت وقال هو ذلك لي. ابتسمت ربما كانت ابتسامتي مجرد روتين، لكنها الحقيقة ابتسمت لأنني كنت أعتقد بأنني لن أجد هذه الإنسانة. . وهو أيضاً لن يجد الإنسان الذي يمكنه أن يحتل مكانته في قلبي. .

فضلت الصمت، ذهبت إلى غرفة نومي وتركته يكتب قصة جديدة.

وجاء الغد. . ولم يجيء هو، تركني أسافر بعد أن هيأ لي كل وسائل الراحة. قرأت اعتذاره وبكيت، ملأت منديلي بدموعي. وهأنذا في بيتي في الأرض التي ولدت فيها ونشأت أنا وهو من هذه المدينة التي يسمونها عروس البحر. . هربت من عيني العروس وبقي البحر، فاتحاً فمه لاقتناصي.

أبي وأمي لم تعجبهما القصة، شكّا في صدق قولي، لكنني أصررت على أننا اتفقنا أن يسعد أحدنا الآخر. أبي أصر أن أبقى في بيتي ما دام زوجي لا يريدني، أصررت على أن الذنب ذنبي، هدأ بعض الشيء، ورن جرس التلفون، التقطته، استمعت إلى صوت زوجي يتحدث إلى امرأة غريبة حديث من يريد أن يطمئن إلى وصولها سالمة. أحسست أنه يمثل، حاولت أن أمثل من جانبي دوري كامرأة أجنبية، لم أستطع. ألقيت بالسماعة، التقطتها أمي؟ كلماتها تطن في أذني، لماذا كل هذا الكلام يا أمي، ارتاحت أعصابي وهدأت نفسي،

وبدأت مشوار البحث عن أنثى أفضل مني لا تحمل شيئاً من أخطائي، وفقت في البحث، عثرت عليها بعد جهد رغم أني كنت أظن أنني لم أحبها.

كانت أجمل مني وأحلى، وأصغر أيضاً.. لم أسارع بإخبار زوجي بما وجدت، فضلت أن أنتظر، أدرس هذه الأنثى، ربما كانت تمثل، وأعطيت لنفسي فرصة أقلب فيها الأمر من جميع جوانبه. عزمت أخيراً على مواجهة نفسي. فأنا وهو قد اتفقنا واتفاقنا ليس مكتوباً لكنني أدين له بالتنفيذ ومن واجبي أن أمضي في طريقي لا يثنيني عنه أي شيء هي سبيلي وواجهتي وطريقي لهذه السعادة وأنا أحبه وأحب أن يكون سعيداً..

التقيتها اسمها صافيناز، وهي من مدينة قريبة من مدينتي، أمها تركية، وأبوها من ينبع، تاجر أخشاب صنع أخشابه كلها زوارق حب لم يضعها بل منحها لزوجته التي جاءت معه وابنته للمدينة، عاش فيها على أمل، أن يمنح زوجته السعادة التي تريدها في البقاء على مقربة من بيت أسرتها فأسرتها من المدينة، وإن كانت في الأصل تركية، من مدينة يسمونها (أفيون كرا حصار).

قالت صافيناز.. عن مدينة أمها بأنها مدينة تصحو مع الفجر عندما يأتي الصيف والربيع وتختفي هي وجميع معالمها في الشتاء داخل البيوت، بردها قارص، والثلوج تحيط بالمدينة من كل جانب. أمي استغربت صداقتي من صافيناز، أعدت لذاكرتها ما وعدت به زوجي، ضحكت أمي ضحكة صفراء، وقالت:

- مجنونة ستندمين.

فكرت في كل الذي قالته أمي استشرت صديقتي وأختي الصغري، نسيت أن أقول لكم بأن أختي طبيبة، قالت لي أختي كلمة أنارت الطريق أمامي:

- لماذا لا تستفيدين من أخطائك، فتنصرفي إلى أسلوب معالجتها عن طريق هذه الصبية وبعدها يا أختاه تستطيعين أن تعاودي الحياة معه بأسلوبك الجديد؟ وأجبت:

- وإن لم يقبل؟

أجابت:

- زوجيه هذه التي اخترتها، وعيشي حياتك نهباً للغيرة.. وإن كنت أفضل أن تستمعي إلى صوت العقل.. فتعملي على تنفيذ ما قلته..

ـ كيف؟

ـ بالحديث معه وبالتلفون تشرحين له أنك وجدتها وتطلبين منه أن يأتي. خصوصاً وأنه لم يطلقك.

ـ يطلقني؟

قلتها باستغراب فضحكت أختي وقالت:

ـ ها أنت تكشفين نفسك فأنت لا ترغبين في الطلاق. هذه اللعبة الخطرة، ستحرقك، إن لم توقفي اللعبة، وستندمين.

ومضت أختي، تركتني نهباً للحيرة، فتحت عيني على أشياء كثيرة كنت أظن أنها لن تأتي.

أمسكت التلفون، أدرت قرصه، جاءني صوته وهو يقول:

ـ كنت سأطلبك فقد وجدت الزوج الذي يمكن أن تعيشي معه حياتك بسعادة.

ـ وهل سألته رأيه؟

ـ لا.

قالها بعصبية!

ـ وما يدريك بأنني وجدت أنا الأخرى الأنثى التي تليق بك.. لكنني لا أفكر في تقديمها لك إلا بعد أن ألقاك!.

ـ ذاك هو رأيي بالنسبة إليها أيضاً متى ستأتين؟

ـ أنت الذي ستأتي.

ـ إذن أنت تدعينني. سآتي فوراً مع أول طائرة. ولكن على فكرة أين سأسكن؟

ـ في بيت أبي، بيتك. سينتظرك أبي في المطار سأقول له عن موعد وصولك إذا أخبرتني.

الدقائق تمر.. يعود صوته إلى أذني متسللاً هذه المرة وكأنني أسمعه لأول مرة يوم فرحي قالها بحب.

ـ سآتي على الطائرة.

اتصل ثانية وأعطاني رقم الرحلة، وموعد الوصول..

وأجبته:

ـ سأنتظرك.. سأبقى إلى جانب النافذة الخشبية حتى تصل.

ووصل زوجي واستقبلته ابتسامتي تركنا أبي وأمي، تحدثنا طويلاً، قال كلاماً كثيراً عن الرجل الذي وجده. كنت أسمع كلامه، لا أتحدث حتى إذا ما انتهى من كل تفصيلات حديثه قال:

ـ ولكنني لن أطلقك..

ومضى يقول:

ـ ليتني عرفت كيف أعالج أخطائي التي تعرفين. وسنعاود رحلة الحب بأسلوب أفضل، وثقي بأنني سأكون أسعد إنسان إذا قبلت وسامحتني في أشياء كثيرة أولها التحلل من وعد قلته لك.

أتدرين، إن بيتنا موحش، وإنني لم أعد أكتب شيئاً، لكنني أعدك، بأنني سأكتب قصتنا بأسلوب أو آخر، إذا وافقتني على العودة.

وضحكت وقلت:

ـ كنت أظنك أنت الذي سترفض عودتي.. فأنا أطلبها وأصر على أن تكون، فمن لي غيرك يا حبيبي، أما كتابة القصة فعفواً.. لقد أصابتني عدوى الكتابة فبدأت في كتابة شيء منها.. وقد وعدت نفسي أن أكملها وستراها فإن صلحت نشرتها وإلا..

ـ وإلا ماذا؟

نسينا القصة.. وعدنا إلى الحديث عن بيتنا:

ـ أولم «يوحشك طبخي»؟

ـ بلى.

قالها في إحساس من ترى السعادة في عينه، ولم يكمل بل نادى بأعلى صوته أمي قائلاً:

ـ جئت لآخذ زوجتي..

وجاءت أمي ومعها أبي. وقال أبي:

ـ لا عليك، تستطيع أخذها متى شئت فنحن لا نعرف أسباب مجيئها حتى الآن.

وضحك زوجي وقال:

ـ لقد تعودت زوجتي على أن تقول لك كل شيء يا عمي. ومع هذا أقول لك بأنني مخطىء عندما وافقتها على الاتفاق لكن حبي لها هو الذي جعلني أوافق.

ونظر أبي إليه.. ثم نقل نظرته إلى وجهي، فرآني سعيدة.. فقال:

ـ يا صغيرتي ستظلين هكذا صغيرة حتى عندما تصلين إلى المائة من العمر.

ثم التفت إلى زوجي:

ـ ومتى ستسافر؟

فقال زوجي:

ـ الآن.

وعندها أمرني أبي بأن أستعد ومضيت ألملم بعض أشيائي حتى إذا ما انتهيت أخذنا أبي وأمي إلى المطار لأعود إلى بيتي.

وفي البيت عاودنا رحلة الحياة وأنا أفكر في الطفل الذي آمل أن يأتي كأبيه ويومها سأسميه باسمه.

ومضيت في أحلامي، أفكر طويلاً هل الأفضل أن ألد طفلة أولاً وطفلاً ثانياً أو العكس ولم أخرج بنتيجة، ففضلت أن أنتظر ما يعطيني إياه الله عز وجل. وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير قال لي زوجي وكأنه يقرأ ما يدور بخلدي ويومها سأبحث له عن عروس لابني فيها جميع مواصفاتك على أن تبحثي أنت عن عريس لابنتك فيه جميع مواصفاتي، وبهذا نكون قد حققنا سعادتنا بأسلوب جديد جديد جداً.. ووصلت إلى الغاية التي اختلفنا فيها من أجلها.. أليس هذا صحيحاً؟

وأمنت على كلامه وقلت:

ـ قد يكون كل هذا الذي جرى مشكلتي أنا فلو كنت عرفت كيف أزرع

الحب في صحراء بيتنا لما كان ما كان.

وضحك من قلبه.

ـ لا ليس الذنب ذنبك نحن فيه مشتركان، كنا أطفالاً أنا وأنت فرضينا تمثيل هذه المهزلة. لقد أصبحت طوال فترة غيابك أضيق بالبقاء في البيت، ولا أحس بأي شيء مطلقاً، رغم صبري على البحث عن رفيق لدربك، قد أقول لنفسي بأنني كنت يومها غير أناني، لأنني رضيت بهذا التصرف، أما اليوم فأحمل في نفسي كل معاني هذه الأنانية، وأريد منها أن تتأصل، وإن كانت لم تفارقني حتى في غيابك.

فأنا يا زوجتي أحبك.. وعندما أقول ذلك أقوله من كل قلبي، وأرفض أن تكوني سعيدة إلا معي، وبقربي.. أليس هذا كافياً؟

ونظرت إلى وجهه فرأيته ينطق بحب عارم، يكاد يوضح لي طريقي في هذه الحياة وفي هذا البيت الذي سنبنيه سوياً.

وأعدت النظر إلى وجهه مرة ومرات وأنا أقول:

ـ سامحني يا زوجي فقد كنت غبية.

فقال:

ـ كنت غبية ولكنك جميلة وستظلين جميلة ويذهب عنك هذا الغباء الذي لازمني أنا أيضاً يوم أمسكنا سوياً بهذه الورقة التي ألقي بها إرباً إرباً من هنا لتتناثر أشلاؤها في الطريق الطويل.

وضحكنا بسعادة بعد أن أسلمته يدي في هدوء وبلا ضجة وأحسست بأنني قد عدت مرة ثانية إلى الحياة الجميلة التي افتقدتها حتى في البيت الذي ولدت فيه.

عقارب الساعة الجديدة

ساعة الحائط تدق، دقاتها رتيبة ومملة، الغرفة أشبه بسجن ثقيل، كل ما فيها يدل على الفوضى والإهمال، وأنا على كرسيي، أتطلع إلى السقف في لامبالاة عجيبة، أحاول أن أنسى في حلكة الليل ظلام هذا القلب الذي عشق النور وتفتح على الزهور وهي تطل على الأرض في أنفة وكبرياء.

هذا القلب الذي يدق اليوم حزناً، كان بالأمس يدق للفرحة الطاغية تغلف شغافه في حرية ما بعدها حرية لكنها الأيام نتداولها تمنحنا السعادة حيناً، والشقاء أحياناً آخر.

وترتفع أصوات المآذن تعلن هي الأخرى بزوغ فجر يوم جديد، وأنا كما أنا، لا أدري من أمر هذا الذي يخالج فكري شيئاً. وأحاول أن أتذكر طفولتي صباي، سنوات عمري أخضرها، ويابسها. كيف مضت أيامنا الجميلة؟ وإلى أين ذهبت؟ اليوم هو أول أيام العام الجديد بعد الفراق، ذهب الذي كنت من أجله أغني وأفرح، غيبته الأيدي باطن الأرض دفنته دموعي المنهمرة في إصرار وهي تختلط بدموع كل أولئك الذين أحبوه.

كثيرون هم الذين فقدوا أعزاءهم في لحظة ثم عادوا وعاد إليهم صفاؤهم أما أنا فقد فقدت زوجي إلى الأبد، ذهب الرجل الذي أحببته ومنحته عمري ذهب وأنا في ريعان شبابي عرفته طفلة، وعشنا سوياً حتى بلغ عمري الاثنين والعشرين عاماً في مدينة الخبر ولدت إقامتي فيها كانت قصيرة، لدرجة تجعلني لا أستطيع أن أتذكر شوارعها.

أمي تقول عن الخبر، بأنها كانت قرية كل معالمها اليوم تغيرت كما تغير كل شيء في جزيرتي لكن هذا ليس هو المهم.

المدينة الثانية التي اختارها أبي، الطائف، فيها عشت طفولتي، فيها تفتح صباي، وفيها عرفت زوجي. بيتنا في «المتناه» يطل على بساتين كثيرة وبيت زوجي يجاورنا، كنا نلعب سوياً الاستغماية ونفرح بركوب الأحصنة. لا تظنوها أحصنة صحيحة مجرد جريدة طويلة من جرائد النخلة نختارها بلا عناية نجري هنا وهناك. زوجي طفل هادىء، وأنا شقية لدرجة جعلت كل الجيران يسمونني (عيشة ولد) لم ترقني التسمية لكنني سلمت أمري لله وعشت لطفولتي.

أهل مكة يحبون المتناه، وبساتين المتناه، يجوبونها عصراً وفتياتهم أصواتهن جميلة يأتين زرافات ومعهن أشياء كثيرة. الشيء الذي كان يشدني إليهن الطبلة التي يستخدمنها في حلقات الغناء.

امرأة واحدة كنت أتابعها دائماً وهي تتحرك في هذه البساتين، اسمها مبروكة. سوداء، يحرص الجميع على إرضائها لأن صوتها جميل وغناءها حلو كنت أراها في كل مرة مع مجموعة مغايرة للمجموعة التي سبقتها تحدثت إليها أكثر من مرة وشعرت بأنني أستطيع تقليد غناءها. استمعت لي في دهشة، وقالت لي:

ـ أنت موهوبة، لكنك (لمضة).

لم أفهم معنى الكلمة حتى سألت عنها أمي، وعندما عرفت أخذت أضحك كثيراً..

نعم أنا (لمضة) (ولماضتي) من نوع خاص. لكن كل هذه اللماضة ينتهي مفعولها عندما أرى مازن، مازن الذي يكبرني بخمسة أعوام، كان بالنسبة لي شيئاً لا أدري كيف أصفه، لكنها الحقيقة. كنت أميل إلى اللعب معه وأنا صغيرة وكان يحرص دائماً أن يجنبني أن أعود (عيشة ولد) في لعبي مع الأطفال.

مازن طفل أشقر، وأنا سمراء، أمه من تركستان ولدت بالطائف كما ولدت أمها أيضاً وإن كانت تجري في عروقها دماء تركستانية. عرفت هذا من أمي، جاء جده من روسيا القيصرية خوفاً من البلشفيك ولا يزال جده يعيش يحمل في

جيبه ساعته (الروسكوف) العتيقة وذقنه ببياض شعرها تهتز وهو يمشي.

كثيراً ما كنت أرى هذا الجد يمسك بمازن من يده يشده إليه يأخذه إلى البيت ومازن ينادي علي ويطالبني أن أعود إلى بيتي كنت أذعن لكل هذا الذي يطلب وكانت أمي تستغرب مني هذا.

سألت جده يوماً وأنا صغيرة:

ـ ما معنى أنه من تركستان؟ ولماذا لم يعش في بلده؟

فقال:

ـ لو لم آت إلى هنا لكنا ذبحنا، فالشيوعية يا بنيتي كانت تذبح المسلمين.

وأجبته:

ـ ولماذا لا تذبحونهم أنتم؟

قال:

ـ لأننا أقلية وكانوا هم كثرة، عندهم المال والجاه والسلطان والعسكر أما نحن فلا نملك سوى هذا الإيمان الذي يغلف قلوبنا، فهربنا وكان جل همنا أن نكون هنا، ويوم جئنا لمكة المكرمة، وجدنا أننا لا نستطيع أن نعيش فيها لجوها القائظ، ونحن من أرض تغمرها الثلوج أكثر شهور السنة فاخترنا مدينة الطائف وبدأنا نعيش فيها. كان هذا الأمر أيام الملك عبد العزيز، ولقد أقطعتنا الدولة الأرض فأقمنا (زقاق البخارية) المشهور الذي تعرفين.

ـ ولكن والد مازن حسبما عرفت من أهل الطائف.

وأجابني:

ـ نعم يا بنيتي، نحن مسلمون نتصاهر مع من فتحوا قلوبهم لنا فمنحناهم لوننا ومنحونا محبتهم.

ـ ولكني أحب اللون الأبيض يا جدي.

وضحك الرجل وقال:

ـ هكذا دائماً تكون الأمور، فأنت سمراء، ولهذا السبب تحبين اللون الأبيض.

وصمت ثم عاود حديثه قائلاً . .

ـ مازن يحبها سمراء يا بنيتي.

لم أفهم ما يعني لكني عندما كبرت وتزوجته عرفت معنى الحديث الذي دار بيني وبين الشيخ.

أذكر ليلة فرحي، جاء مازن ببذلته العسكرية وقد وضع على كتفه نجمتين أراهما في جلستي هذه يتوهجان من نور الكهرباء وابتسامة على شفتيه وأنا في الكوشة . .

ليلة عرس جميلة، أحيتها مطربة، لا أزال أذكرها، صغيرة وشابة وجميلة أيضاً قيل لي إنها ابنة السيدة مبروكة فلم أصدق، وبعد أن سألتها عرفت أن أشياء كثيرة غير ملامح الوجه ترثها الأنثى عن أمها ويرثها الرجل عن أبيه.

مازن، هو الذي مات وبقيت أنا أستمع إلى دقات الساعة لوحدي، ومراحل حياتي التي عشتها تطل من ذاكرتي. الصورة تحاول أن تسطو على الصورة لماذا لا أدري.

أمي تقول بأن هذه هي أحوال الدنيا وإنني لا أزال صغيرة، والسنوات القادمة كفيلة بإزاحة آثار هذا الأسى والتوجع . . أستمع إليها دون أن أعي أي حرف مما تقوله لكنني وبعد أن مرت أكثر من شهور ستة أجدني لا أزال مشدودة إلى هذه الغرفة وإلى دقات هذه الساعة.

أو يكون حظي أن حياتي قد ارتبطت بهذه الساعة التي جاء بها مازن يوماً ما وكنت أنا وهو على خلاف، لأنني عندما رأيتها لم أحبها. قال لي، إنها من ماركة ممتازة، روسكوف الماركة نفسها للساعة التي يحملها جده وهي بقية من متاع جدته، حملتها معها عندما هربت من موطنها إلى هنا.

أخت مازن جميلة وبيضاء، وهي تحبني وأنا أحبها، تزورني دائماً، تزوجت قبلنا، ولها أكثر من ولد، عشرية تعرف كيف تدندن وتعزف على العود، حاولت أن تخرجني من عزلتي فلم تستطع بادىء ذي بدء ولكنها استطاعت بعد فترة.

قالت لي مرة:

ـ صدقيني بأنني أحب أخي أكثر منك لكن الميت لا يمكن أن يعود. ولهذا فالحي أفضل من الميت، وعليك أن تعيشي حياتك مرة ثانية.

ونظرت إليها وقلت:

ـ ماذا تعنين؟

قالت:

ـ أعني أن تنسي كل شيء وتعاودي حياتك من جديد وإذا تقدم لك زوج فلا ترفضيه إذا وجدته مناسباً.

ـ وتقولينها يا عائشة؟

ـ ولم لا أقول الحقيقة؟ هذه هي سنة الحياة وعلينا أن نختار ما أراده الله لنا يا أختاه. صدقيني بأنني أنا التي سأسعى لتزويجك لتعرفي بأنني أحبك.

ووضعت يدي على فمها فلم تسكت، بل واصلت كلامها قائلة:

ـ لو أنت التي مت، وكانت هذه إرادة الله لفعلت هذا معه.

ـ أوتعنين أنه سيقبل؟

ـ ولماذا لا يقبل ما دامت الرهبنة محرمة في ديننا؟ الحياة يا صديقتي لا تقبل أن نجتر أحزاننا وإنما نجتر أفراحنا فقط. أنت شابة ولا أولاد لك.. والرجال يرغبون في المرأة الجميلة ذات المحتد الطيب.

ونظرت إليها ولم أفه بكلمة. كنت أستمع إليها ولأسطوانتها هذه حتى تعودتها أصبحت شيئاً مألوفاً عندي كلما جاءت لزيارتنا. أبي يقول لي دائماً كلمات كثيرة يحاول من خلالها أن يمنع هذا الشحوب الذي يحيط بوجهي. لا تظنوا أبي رجلاً عجوزاً، لا.. فأبي لم يتجاوز عمره الثانية والأربعين سنة.. مرح الحديث.. يحب أمي لأنها ابنة عمته.. وهو محدث لبق جاب العالم كله لكنه كما يتحدث لأمي يقول بأنه لم يجد أجمل منها في أي مكان زاره أبداً.

أمي تضحك، وتقول له:

ـ لو مت مثلاً هل تتزوج يا «أبو...»؟

وقبل أن يموت زوجي كان يؤكد بأنه لن يفعلها أما بعد ذلك فقد كان يردد أنه لا شك سيعملها ولكن بعد حزن طاغٍ عليها لا سمح الله. أبي يقول عن

حزن الرجل على زوجته أشبه بمن يرتطم كوعه بشيء قاسٍ ألمه ثقيل لكنه سريع الزوال.

أمي لا تستطيع أن تقول شيئاً لأنها تعرف الهدف من هذا الكلام، وأنا أذن من طين وأذن من عجين. شيء واحد فكرت فيه أن أعود إلى الدراسة فشهادتي الثانوية تؤهلني لأن أدخل كلية الطب لا سيما وإنني أمضيت مدة عام في كلية العلوم أدرس الأحياء.

يقولون إن الأحياء هي باب الطب وأنا كما يعرف أبي متفوقة في هذه المادة.. سأنفض غبار التراب عن شهادتي.. وسأعاود مرحلة الدراسة مرة أخرى. ونظرت إلى أبي وقلت له عن رغبتي، فرحب وأخبرني بأنه سيعمد إلى جميع الترتيبات اللازمة لأن أدخل الكلية التي أحب ووعد أن ينقل بيتنا وعمله إلى جدة.

وابتسمت له من قلبي، وتعلقت برقبته وقلت له:

ـ نعم الأب أنت يا أبي.

وهأنذا أعاود الدراسة في الكلية التي رغبت والسنوات تمر..

لا شيء جديداً إلا أنني أمضيت فترة تدريبي في مستشفى الجامعة على أفضل وجه وأصبح من واجبي أن أفكر في الطريقة التي أستطيع أن أنال بها الزمالة من جامعة لندن المشكلة التي تواجهنا نحن الحرائر أننا لا نحبذ السفر بدون محرم.

أبي أبدى استعداده لتصفية تجارته وكل شيء والسفر معي إلى لندن لتحضير هذه الشهادة وأنا أرفض حتى جاء اليوم الذي جاء فيه أحد زملائي يهمس في هدوء وهو يحادثني بأنه يريد أن يتحدث إلي في أمر.

ـ الدكتور ياسر شاب طيب من عائلة مكاوية نجح بتفوق وهو يريد أن يتحدث إلي على انفراد وفي صالون المستشفى.

رحبت بالحديث وأنا لا أدري ماذا يريد هذا الرجل، حتى إذا اجتمعنا سوياً قال في كلمات قليلة:

ـ أريد أن أوسطك في خطبة فتاة اسمها كاسمك وتشبهك كثيراً.

وأجبته بأنني لا أعرف من يعني فقال:

- بل تعرفينها.

كان يتحدث بصوت متهدج لكن الشك لم يخامرني مطلقاً في أنه يعني كل كلمة يقولها ولكن عندما نطق بما يريد حاولت أن أتملص من الجواب فخرج من الغرفة قائلاً:

- لا أريد جواباً متسرعاً فأنا أعرف كل شيء عنك وعن زوجك الذي مات.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث معي فيها صديق أو صديقة عن زوجي، فقد حاولت إخفاء هذا الأمر بلا فائدة وها هو ياسر يعرف كل شيء. وخرجت إلى بيتي وأنا أفكر ورآني أبي على هذه الحالة فسألني فقلت له كل شيء بصراحة.

قال لي أبي:

- دعي التفكير في هذا الأمر بضعة أيام فالموضوع يحتاج إلى أن يختمر في ذهنك.

لكنني بعدها عرفت أن اتصالاً قد حصل بين أبي وياسر عرفت من أمي أن أبي يعرف كل شيء وأنه هو الذي نصح ياسر بعد أن أطلعه على القصد أن يتحدث عن أمر الزواج معي فأنا طبيبة وفي سن أستطيع أن أتعرف على مواضع قدمي في هذه الحياة. وحمدت لأبي كل ما صنع فقد كان الأفضل أن يعرف ياسر كل شيء.

وأخذت أقارن بين ياسر وزوجي الذي مات حتى مللت المقارنة.. وبدأت أفكر.. لماذا يريدني ياسر زوجة وباستطاعته أن يتزوج أية واحدة من زميلاتي اللواتي لم يتزوجن بعد؟ وقلت بيني وبين نفسي: ربما كانت إرادة الله هي السبب في أن يموت زوجي وأن أعود إلى الدراسة حتى أصل إلى ما وصلت إليه، لكن شيئاً واحداً كان يقض مضجعي فقد كنت أحب زوجي الذي مات، ولا أرضى بغيره بديلاً فكيف أصبح الأمر بهذا الشكل الذي أنا فيه، وهل أنا جاحدة لحبي الذي مات؟ أشياء كثيرة كنت أفكر فيها وأنا أستمع إلى دقات

الساعة الرتيبة وبدأت أحس بأن وجود الساعة في مكانها في غرفتي يجعلني أسيرة للماضي فأردت أن أتخلص منها. . لكنني لم أدر ماذا أعمل. .

وفي الليلة الثانية. . جئت إلى بيتنا فوجدت في مكان الساعة ساعة جديدة قالت لي أمي بأن ياسر قد بعثها هدية وأن والدي رأى أن يضعها في مكان الساعة القديمة فصمت ولم أقل شيئاً، لكنني رأيت على وجه أمي الكثير من الفرحة؛ فأمي تريد أن تمنح السعادة لابنتها. أمي جميلة وحبي لها يبدو بشكل أكبر عندما تفرح ولهذا رأيت أن أساهم في فرحتها بشكل أكبر فقلت:

ـ أورأيت ياسراً يا أمي؟

وأجابتني بهزة من رأسها وهي تقول:

ـ أتدرين؟ هناك سر أحب أن أهمس به في أذنك. لقد قاله لي ياسر وقاله لأبيك أيضاً فهو قد تزوج بالفعل قبل أن يخطبك في أول سنوات دراسته للطب لكنه لم يوفق فترك زوجته وفضل أن يعيش طالباً فقط. ومعنى هذا أنك وهو في الهم تشتركان.

ونظرت إلى وجهها لأرى ماذا تعني أمي بهذا الكلام. . ولكنها لم تقو على خداعي فقالت:

ـ لا أستطيع أن أكذب عليك أكثر يا بنيتي فقد كان رأيه أن أقول لك ذلك لتوافقي على أن يشرح لك بعدئذ هذه الكذبة، وقد سعدت بأنه حريص على أن يزف لك فما رأيك.

وأشرت إليها بيدي وقلت:

ـ أفضل يا أمي أن تعيدي وضع الساعة بشكل أقرب من سابقتها فعقارب ساعة ياسر كما ترين دقيقة جداً ولا بد أن أراها جيداً حتى أعرف الوقت والزمن والساعة وكل شيء.

وزغردت أمي زغرودة طويلة قام كل من في البيت على أثرها ليقولوا لي مبروك وألف مبروك. ترى هل أذنبت في حق زوجي الذي مات أم إنها الحياة تفضل لنا أن نعيش؟

أبي وزوجته وطلال الصغير

ويأتي رمضان، وتطل الذكريات، ففي هذا الشهر ولدت وفيه تزوجت، وفيه ولد ابني طلال، أحس في هذا الشهر بأشياء كثيرة تغمر قلبي ففيه كنت أتلقى الهدايا من أبي بمناسبة يوم مولدي وعندما كبرت ازدادت كميات الهدايا فشملت ابني.

تقول جدتي بأن أبي هو الآخر تزوج أمي في هذا الشهر وأمي تضحك من كلمات جدتي لأنها بالفعل نسيت هذا اليوم نسيته مع الزمن ولم تعد تتذكر إلا يوم مولدي.

أبي يحب أن يقضي هذا الشهر في مسقط رأسه في مكة المكرمة، ونحن جميعاً معاً نعود إلى بيتنا القديم في جبل هندي. هناك تخالط أفكاره ذكريات الأمس، عن مكة المكرمة، وحاراتها، وأهلها، وناسها، وكل شيء فيها، هذه المدينة التي يلامس ضوؤها شغاف القلب، ففي كل ركن من أركانها مكان لأثر. في الجودرية كان دكان أبي، كنت أزورها دائماً وأمضي بعض الوقت فيها، ثم نسيتها، بعد أن انتقلت إلى جدة، فسكنا الحمراء، وكبرت أنا، وتزوجت، وكان بيت زوجي قريباً، من بيت أبي.

بين يوم مولدي وعودتي إلى هذا البيت أكثر من ثلاثين عاماً، لا أدري كيف مرت، لكن كل الذي أعرفه هو أنني عشت طفولتي بحب فأنا الإنسانة الوحيدة التي تعايش هذه الأم وهذا الأب. أمي لم ترفض أن تنجب لأبي لكن الطبيب تصرف معها بأسلوب مميز، أخبر أبي بمشكلة قلب أمي وطلب منه أن يتخذ موقفاً تجاه إنجابها بعد أن

شارفت على الموت أثناء ولادتي فاختار أبي أن لا تنجب.

أبي لا يزال في عنفوانه أبيض الشعر.. وجهه يميل إلى البياض فيه فتوة واضحة رغم أنه قد تخطى الخمسين. من يراه ويرى أمي يشعر بأنها أكبر منه.

نسيت أن أقول بأن أمي هي ابنة عم أبي عرفها صغيراً، وتزوجها كبيراً. أبي عندما انتقل بنا إلى جدة لم تكن تلك رغبته بمقدار ما كانت رغبة أمي فأسرة أمي سبقت أسرتنا للسكن في هذه المدينة.

بيتنا في الحمراء من البيوت القديمة لكنها كبيرة وأنيقة فأبي هو أول من بنى بيتاً في هذه المنطقة، اختار أبي في جدة عملاً يناسب عمله السابق لكنه وبعد أن وسع الله في رزقه اختار العمل التجاري ككل الاستيراد والبيع بالجملة.

زوجي هو الآخر يعمل في التجارة مع والده لكنه يتميز عن أبي بأنه قد درس الاقتصاد في جامعة أمريكية أما أنا فقد اكتفيت بشهادتي الثانوية من مدارس الحنان.

أغلبنا يعرف هذه المدارس. فهي من تلك المدارس التي بنيت في مدينة جدة (مدرسة خاصة) لها امتيازات كثيرة يدرس فيها الفقراء والأغنياء معاً رغم أنها خاصة لأن بها قسم داخلي لهؤلاء الفقيرات سهى زميلتي واحدة من الفقيرات اللواتي درسن في هذه المدرسة. كنت أنا وإياها أكثر من صديقتين لدرجة جعلتني أخطبها لابن عمي الذي كان يطمع في أن يتزوجني فرفضت خوفاً من تأثير الدم على النسل كما وكنت قرأت.

أنا وسهى لا نزال صديقتين تجمعنا الجيرة كما جمعتنا مراحل الدراسة وأبي قام بإعداد حفل زواجها كابنته يوم زواجها. كان حفلاً رائعاً بالفعل لدرجة جعلتها تنادي أبي بكلمة بابا.

سهى يتيمة الأب عاشت مع أمها المتزوجة فترة من الزمن ثم اختارت الإقامة في القسم الداخلي في المدرسة.

أمي تقول عن أبي بأنه رجل رائع لم تختلف معه طوال حياتها، رغم أنها عصبية. أمي دائماً تتحسر لأنها لم تلد لأبي ولداً. كنت في صغري (أحمق) من

كلمتها تلك، لكنني عندما كبرت تغيرت نظرتي لهذا الأمر، وعرفت بأنها على حق. أبي يحب ابني طلال الذي لم يتعد الرابعة من العمر ويعيش أغلب أوقاته معه.. وزوجي يحترم أبي ويقدر فيه رجاحة عقله وقوة شخصيته رغم أنه لم ينل سوى شهادة الفلاح. والفلاح مدرسة عريقة أسسها محمد رضا زميل في جدة ومكة، وخرجت عدداً لا بأس به من كبار الشخصيات التي تعمل في البلاد ومنها أبي.

مكة المكرمة في الصيف، شديدة الحرارة تحيط بها الجبال من كل جانب. أبي عندما يأتي إلى مكة يوقف بعض الأحيان جهاز التكييف ويقول بأنه يستمتع بجو السموم الذي كنت لا أطيقه أنا ولا تطيقه أمي.

في الخامس من شهر رمضان همس أبي في أذني قائلاً بعد أن عرف بأن أمي ستخرج لزيارة بعض من أصدقائها بأنه يريدني أن نخرج لنتنزه سوياً. وافقت أبي وخرجت معه. بدأ أبي مواله معي قائلاً:

ـ ما رأيك إذا كان لك أخ؟

وأجبت أبي بهدوء:

ـ ولكن من أين لي هذا الأخ وأنت لم تنجب سواي من أمي؟

ضحك أبي وقال:

ـ لنفرض هذا.

قلت:

ـ طبعاً هذا شيء يسرني أن يكون ولكن ماذا؟

ونظرت إلى وجه أبي ورأيت الانفعالات تحيط به.. فقلت:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شيء.

قالها أبي.. ومضى يجوب الحواري حتى وقفنا عند باب فيلا صغيرة في العزيزية. وشدني أبي من يدي وقال:

ـ تعالي لأريك أخاك.

ولم ينتظر. حاولت أن أتكلم فوضع يده على فمي وقال:

ـ لك عندي مفاجأة.

ودخلت البيت لأفاجأ بفتاة في مثل سني جميلة ولطيفة. شعرها كستنائي ووجهها أبيض وقوامها رشيق.. قدمها أبي إلي وقال:

ـ سعاد.

ونقلت نظري بينها وبينه لكنه لم يقل شيئاً وإنما كان هناك طفل في سن ابني أو أصغر قليلاً يجري ليكون في مواجهة أبي ويلقي بنفسه على صدره بعد أن جلس أبي على أقرب كرسي. ورأيته يقبله ويقول له:

ـ تعال يا طلال وسلم على أختك.

وجاء الطفل لاحتضنه وهو يقول:

ـ ولكن لماذا لا تزورينا يا أبلة؟

واعتذر أبي لطفله قائلاً:

ـ أو لم أقل لك بأنها متزوجة وإنها ستأتي لزيارتك؟

وتطلع إلي الصبي:

ـ وقال دعيني أقبلك يا أختي، أنت أجمل من الصورة.

والتفت إلى الفتاة وقال لها:

ـ ماما هاتي صورة أختي لأرى هي أجمل أم الصورة.

وعرفت ساعتها أن هذه الفتاة التي تماثلني سناً وشكلاً وجمالاً هي امرأة أبي. لم أفكر ساعتها في أمي أو في أي شيء آخر سوى أنه قد أصبح لي أخ.. وهذا المهم. ومشينا إلى الصالون وقضيت أكثر من ثلاث ساعات مع سعاد وطفلها وأبي. وعرفت كل شيء. عرفت أنها أخت لسهى صديقتي من أبيها وأنها تزوجت أبي قبل زفافها بأيام.. وأنها هي السبب في كل هذا الذي تم في الخفاء دون معرفتي ومعرفة أمي.

وانتابني شيء من عذاب الضمير تجاه أمي المسكينة، وأخذت أقلب الأمر من كل زاوية، وأحسست بأن هذه الفتاة هي ضحية أختها سهى، حتى إذا ما

فاتحتها في هذا الأمر. . ضحكت سعاد وقالت:

ـ أبوك مليء القلب والعين معاً.

أخذني الصغير إلى غرفة ألعابه، وأراني مجموعات كبيرة من الألعاب، كتب عليها اسمي، وعرفت أن أبي اشتراها له هكذا باسمه وأحسست بحبي الجارف لطلال أخي حتى إذا ما انتهيت من رؤية الغرفة، أخذتني سعاد لتريني الفيلا. وكم فرحت عندما وجدت أن صورتي تحتل أفضل مكان في غرفة نوم أبي وزوجته. وبدأت أفكر مع أبي في المخرج من هذه الورطة. فقلت:

ـ وكيف تريدني أن أفعل مع أمي؟

وضحك أبي وقال:

ـ لهذا جئت بك إلى هنا لتساعديني على الخروج من ورطة أمك. تعرفين أنها مريضة وأنها عزيزة ولكني في حاجة إلى ولد. . وها هو أخوك قد جاء، صورة مطابقة لطلال ابنك يا بنيتي.

ونظرت إلى سعاد زوجة أبي وسألتها أهي راضية عن عيشها في السر؟ فقالت:

ـ ما دام هذا الأمر يرضي أباك فلا مانع لدي. . لقد منحني أبوك الأمان والاستقرار في حياتي. فلقد تزوجت قبله شاباً صغيراً من سني، لكن زواجي لم يدم سوى شهور ثلاثة ذقت منها الأمرين، أما اليوم فأنا أعتبر بأن طاقات الفرج قد فتحت أمامي.

فهمت كل شيء، وعرفت لماذا كان أبي يغيب عنا في رحلات خاطفة إلى مكة. وتحدثت إلى أبي كثيراً وتحدث معي ووعدت الصغير بأن يكون قريباً جداً إلى جانبنا في جدة فقال:

ـ ولكنني أخاف من أمك أن لا ترضى بوجودي.

وأطرقت ببصري إلى الأرض وقلت لنفسي حتى هذا الصغير يحس بأن هناك موضوعاً يحتاج إلى حل. وطمأنته وقلت له:

ـ لا بل ستفرح أمي بوجودك معنا يا طلال.

ونظرت إلى وجه زوجة أبي سعاد فرأيتها تبتسم ابتسامة وادعة أحسست

بعدها بأنها فعلاً طيبة وسعيدة مع أبي. . وقلت لنفسي:

ـ لا بأس. سأصنع شيئاً لك يا أبي.

فضحك أبي وقال:

ـ قوليها وطمئنيني يا بنيتي.

ووعدت أبي خيراً وخرجنا من الفيلا الصغيرة وفي رأسي تدور أشياء كثيرة لا أعرف كيف أبدأ بها مع أمي التي أعرفها وفضلت الصمت هذه المرة وأنا عائدة مع أبي إلى البيت لكن عقلي كان يتفاعل مع أحداث الساعات الثلاث التي مرت بي وأنا واثقة من أنني سأجد الحل لمشكلة أبي وزوجته وطلال الصغير.

ومن يومها وأنا رغم حبي لهذا الشهر إلا أنني أخاف من المفاجآت فيه، وأخاف أيضاً أن يصنع ذلك زوجي معي. . ولكن. . هناك فارق بيني وبين ما حدث لأمي. فأنا قادرة على أن أهب زوجي (دزينة) من الأطفال. ومع هذا أظل دائماً أرقب مرور الشهر في هدوء خصوصاً وبعد أن عرفت أن أبي تزوج سعاداً أيضاً في شهر رمضان.

ستسألون ماذا صنعت أمي لي بعد أن عرفت كل شيء ولم أخبرها إلا بعد شهور. لقد فركت أمي أذني وقالت:

ـ لماذا لم تقولي لي ذلك يا بنيتي؟ فطلال أخوك وهو هدية هذا الشهر لي أنا بالذات لأنني لم أنجب ابناً لأبيك.

وأحسست بالسعادة وأخذت أقبل وجهها تارة ووجه أبي تارة أخرى. أما سهى صديقتي فهي الوحيدة التي قاطعتها لأنها كانت سبب هذه الزيجة. ألا ترون فيما صنعت شيئاً مضحكاً؟

عودة الغائب

أنا من أنا، فتاة في عمر الورود، هكذا يقولون عني، مللت الوقوف في شرفات المنزل أرمق إشراقة الصباح بابتسامتي وقلبي مليء بأشياء كثيرة. ذاكرتي لا تريد أن تتخدر فهي دائماً في حالة غليان وتفكير دائم رغم هدوء مظهري.

في وجهي براءة الطفولة، أميل إلى الوحدة والاحتشام رغم أنني تلقيت دراستي الابتدائية والثانوية في الإسكندرية. الرسم هوايتي، والعزف على البيانو وسيلتي للخروج من دائرة الأفكار التي تتسلل إلى مخيلتي.

ولدت كما يولد الناس في قرية صغيرة، من قرى الشمال عرعر. قريتي تعانق أضواء الشمس في حرية ويميل سكانها إلى الهدوء، يحاول بعضهم قضاء (الويك أند) في الأردن أو دمشق.

أبي واحد من أولئك الذين كانوا يقضون عطلة الأسبوع هناك.

أمي أردنية، وأبي من الصحراء لفحت وجهه الشمس فمنحته سمرة محببة كنت أراها ولا أزال شيئاً رائعاً وأصيلاً.

في الثامنة من عمري أدخلني أبي المدرسة في الإسكندرية بعد أن قضيت أكثر من أربعة أعوام أقرأ على يديه.

أمي كانت تفضل أن أدرس في عمان، وأبي لم يرفض ذلك وإن كان رأيه أن الدراسة في الإسكندرية أفضل لأنني سأعيش في مدرسة داخلية.

وصلت الإسكندرية برفقة أبي وأمي وأمضينا شهوراً ثلاثة رائعة عاد بعدها أبي وأمي إلى عرعر. وكانت رسائل أمي تصلني باستمرار. نسيت أن أقول لكم بأن أبي من الذين تلقوا دراساتهم في جامعة الإسكندرية، درس الاقتصاد، وعاد إلى المملكة ولم يرض أن يفارق قريته فعمل مع والده في التجارة.

أبي من التجار الذين امتد نشاطهم إلى خارج بلادي فكان من أكبر الذين يستوردون الإسمنت. له في البحر أكثر من باخرة، واحدة من هذه البواخر عبارة عن مصنع يعبىء فيها أبي الإسمنت الفرط في أكياس ويبعث به إلى الأردن والعراق.

استغل أبي حاجة القرى المجاورة إلى النقل فأنشأ شركة في هذا الحقل كانت تنقل مشتقات البترول وتساعد بترومين في نقلها هنا وهناك.

كثر المال في يد أبي لكنه كان يرفض أن يترك قريته. ولما أكملت دراستي الثانوية طلب مني أبي العودة إلى القرية.

شعرت في البداية بفراغ كبير لكنني وبعد شهور أصبحت أساعد أبي في تجارته. أفرد لي أبي غرفة في الدار زودها بجميع ما يحتاجه العمل التجاري فكنت شريكة أبي في أعماله.

سر أبي بما استطعت أن أصنعه له وقال عني بأنني إنسانة مرتبة الأفكار. وهو يحبني كثيراً، ويحب أمي، وإن كانت أمي وبعد أن أصبح المال في يدنا كثيراً تحاول بشتى الطرق أن تترك عرعر.

أبي لا يوافقها إذ يقول إن سر نجاحه في الحياة يعود إلى إيمانه بأن الإنسان قادر على أن يصنع نجاحه في أي موقع.

لكن أمي وبعد أن كبرت أصبحت تميل إلى السفر إلى عمان كثيراً.

ترك أبي لها الحبل على الغارب، والتفت إلى عمله وكنت أنا معه أساعده بكل جهدي وقدراتي. في الفترة الأخيرة شعرت بأن العمل في تسويق الإسمنت انحسر بعض الشيء وازداد العمل في النقل. لم يهتم أبي بالأمر وواصل عمله بعد أن وضع كل ثقله على النقل.

أبي إنسان يحب الخير ويميل دائماً إلى العمل ويحب قريته كثيراً. قلت له

في إحدى المرات:

ـ لماذا يا أبي لا ننتقل إلى إحدى المدن الكبيرة جدة أو الرياض أو الدمام مثلاً؟

قال لي:

ـ ولماذا ننتقل إلى هناك ما دام الخير في قريتنا كما ترين؟ ثم لا تنسي أن كل شيء في القرية قد تغير.

وصمت قليلاً ثم قال:

ـ تعرفين أننا نملك بضع عمارات في كل مدينة ويمكنني أن أنتقل إلى أي مكان وبأسرع ما يمكن لكنني لا أزال أصر على البقاء هنا في قريتي مع شيء من التغيير. فمنذ الغد سأطلب من وكلائي في هذه المدن إعداد شقة لنا في كل مدينة نستطيع عن طريق وجودها قضاء بعض الوقت هنا وهناك.

صنع أبي كل الذي فكر فيه، وبدأنا ننتقل بين المدينتين جدة والرياض. وشعرت بعد هذا التنقل أن حياتي تغيرت بعض الشيء ومع هذا فأنا كأبي أحب عرعر وأعتقد أنها اليوم أصبحت مدينة ومدينة حلوة وجميلة أيضاً.

في جدة أعجبني الكورنيش، وشعرت بأن أموالاً كثيرة أنفقت ليصبح على ما هو عليه من جمال وبدأت أتصور بأن شباب بلادي بعد أن درسوا مختلف العلوم والفنون قادرون على أن يصنعوا كل هذا الجمال الذي رأيت قرب هذا البحر الذي أجبته أيضاً.

في الرياض وجدت أن السليمانية التي كنت أقطن وأسرتي فيها عند زيارتنا قد ارتبطت بالعليا ثم امتدت حتى وصلت إلى المطار الجديد الذي يبعد عن المدينة أكثر من (٤٥) كيلومتراً.

في جدة التقيت بعضاً من أفراد أسرتنا الذين انتقلوا إليها وعرفت من أبي أن (ابن أخيه) ونحن لا نقول هذه الكلمة عن ابن العم فقط وإنما عن أي واحد يمت إلى الأسرة بقرابة هو المسؤول عن العمارتين اللتين يملكهما أبي.

وعرفت من أبي أن ابن أخيه موظف في الجمارك.. وأن له ابناً يحضر الدكتوراه في الهندسة المدنية من جامعة بيركلي في كاليفورنيا وإنني وأبي

ستتناول طعام العشاء الليلة على مائدة هذا القريب بمناسبة عودة ابنه في زيارة لتجميع بعض المعلومات الهندسية.

حاولت أن أعتذر، وقلت لأبي أن صلتي بزين ابنة هذا الرجل قليلة ولا تكفي لأن أمضي ثلاث ساعات بعيدة عن بيتنا فرفض وكأنه كان يدبر أمراً لا أدري عنه.

استقبلتني زين بالأحضان كعادة المرأة عندما تستقبل ضيفة. واستقبل العم سعيد أبي بكثير من الحفاوة وجاء طريف وعلى شفتيه ابتسامة خجلى. رحب بأبي كثيراً وألقى بتحيته علي ثم انصرف لأخته يسألها عما إذا كان أحد قد سأل عنه من أمريكا.

وأجابته أخته بأنه صديقه وزميله محمود هو الذي سأل وأنه يريد أن يتحدث إليه.

كنت طوال الجلسة أسترق النظر إلى وجه طريف. لا أعرف سر لهفته عندما كان يسأل عما إذا كان أحداً قد سأل عنه.

لا أدري في الحقيقة ما هو السبب لكنني كنت واثقة بأن هناك أنثى تسأل عنه أو أنه يهمها لا أدري!

ومضيت أدردش مع زين بعض الوقت. وعرفت أن زين ستتخرج من كلية الطب في العام القادم، وأنها وابن عمها على وفاق لأن يعقدا قرانهما بعد التخرج.

وفجأة سألني طريف:

ـ أين درست الآنسة؟

وأجبته في هدوء بأنني درست حتى الثانوية في الإسكندرية.. وأنني توقفت عن الدراسة بعدها لأنه لم يكن من السهولة علي أن أدخل الجامعة وأنا في عرعر.

وأفهمته مدى ما أقوم به من عمل مع أبي طوال كل هذه السنوات.

والتفت أبي إلى طريف قائلاً:

ـ صدقني يا بني فلولاها لم أكن أستطيع أن أصل إلى ما وصلت إليه

الآن. سل أباك وسيقول لك أشياء كثيرة. إنها في الحقيقة أقدر من أي خريج أو خريجة نالت الدكتوراة في الاقتصاد.

وضحكت وأنا أقول لأبي ولطريف في وقت واحد:

ـ لا عليك يا أبي فأنا راضية عن ثقافتي وتعليمي.

وصمت.. لكنني أحسست أن هناك أشياء كثيرة يريد أن يقولها طريف لي وأقولها أنا له.

لا تفكروا كثيراً، فزين الطبيبة المقبلة سهلت لي الأمر وقالت:

ـ سأراك غداً عصراً لأمضي بعض الوقت معك.

وعدت مع أبي إلى بيتنا وأنا أفكر. لماذا أحسست بالراحة وأنا أتحدث إلى طريف؟

قد يكون والده أقل دخلاً من أبي، لكنه يحضر للدكتوراه.. وقد.. وقد.. ورأيت أن لا أطيل وأترك الموضوع إلى عصر يوم الغد.

بعد العودة إلى بيتنا سألني أبي عن رأيي في زين فقلت له بأنها فتاة طيبة ومجتهدة وستصبح دكتورة فقال:

ـ لو كان لي ولد لزوجتها له لكن كل حصيلتي هو أنت.. وهذا يكفي. والآن وعلى فكرة. هل أنت متضايقة لأنك لم تدخلي الجامعة؟

أجبت على الفور بكلمة لا وأضفت:

ـ قد تكون هي الظروف التي تدخلنا للجامعة ولا تدخلنا.. لكني بثقافتي وإدراكي وفهمي وخبرتي أجد نفسي أكثر إدراكاً حتى من كل أولئك الذين يحملون الدكتوراه.

وضحكت وأضفت:

ـ أولم أكن خير معينة لك يا والدي العزيز؟

وأجابني أبي بصدق:

ـ لقد كنت يا بنيتي خير عون لي ولولاك لما وصلت إلى ما وصلت إليه. ولكن هناك موضوع آخر يهمني أن آخذ رأيك به.

ـ ما هو يا أبي؟

ـ ما رأيك في (أخو زين)؟

ـ ولماذا تسألني يا أبي؟

وأجاب أبي:

ـ لا شيء يا بنيتي. ولكن صدقيني بأنني وبعد أن أصبحت كما ترين في هذه السن أدرك بأنني في حاجة إلى ابن.

وتابع حديثه:

ـ وهذا الابن لن يأتيني إلا عن طريق تزويجك. أوتدرين أن الكثيرين قد رغبوا في الاقتران بك لكنني رفضت ورفضي هذا لم يكن لمجرد أن تبقي معي وإنما عن دراسة أما اليوم فأنا الذي أبحث عن هذا الابن..

ـ أوتعني أنه خطبني؟

ـ نعم.

قالها واثقاً.. وصمت.. فقلت:

ـ وعلى هذا الأساس كانت زيارتنا لبيت زين؟

ـ لا.. فأنت تعرفين بأن طريفاً قد طلب مني الاقتران بك قبل أن يسافر لأمريكا لتحضير الدكتوراه وقد أخبرته بأني سأدرس الموضوع وهو اليوم يحاول معرفة رأيي.

ـ ولكني لم أره قبل هذه المرة كما أنك أنت لم تقل لي شيئاً في السابق عن هذا الأمر.

وأجاب أبي:

ـ ولكنه رآك كثيراً، وربما أنك لم تلاحظي ذلك يا بنيتي.

ونظرت إلى وجه أبي. رأيته مشرقاً كعادته فقلت:

ـ لا عليك يا أبي سأفكر في الأمر.

ـ وسأخبرك بصدق يا بنيتي..

قالها أبي، فأكدت له ذلك وعدت إلى تفكيري.

ترى ماذا يعني أبي؟ وإن كان الزواج نفسه حلماً من أحلام المرأة لم أفكر فيه بعد وقلت لنفسي كلاماً كثيراً خرجت بعده بأن الحياة من أجل أن تبقى ونظل نحيا أن يكون هناك بيت وزوج وزوجة.

قد أكون بالفعل مرتاحة للعمل الذي أمارس وللبيت الذي أعيش فيه. لكن هذا كله لا يكفي وبدأت أفكر في أمي التي تزوجت أبي وهي من قرية مغايرة وقطر مغاير.

قد تخطىء أمي الآن في تصرفاتها في البعد عن بيتها لكن وهنا الأهم، لو كان أبي غير راضٍ عن هذا الذي يجري لرفض سفرها الدائم إلى أسرتها في الأردن.

وجاءت زين لزيارتي واستقبلتها بحفاوة وتحدثت معها حديث الصديقة للصديقة. أعجبتني زين فهي امرأة ناضجة وتريد أن تبني بيتاً ناجحاً.. وقلت في نفسي: لشد ما تغيرت نظرة الفتيات في بلادنا. إنهن مثاليات كأمهاتهن لكنهن يمتزن عنهن بأنهن درسات وفاهمات وواعيات أيضاً.

حكت زين عن طفولتها بحب وتحدثت عن أبيها بحنان وعن أخيها باحترام. وعرفت منها أشياء كثيرة، فأبوها هذا الرجل الذي لا يملك ربع ما يملك أبي منح أسرته كل ما يملك.

كان يقول لها، بأنه لا يرغب أن يترك شيئاً لهما، يورثهما إياه، وكان يقول دائماً بأن رأسماله في هذه الدنيا هو طريف وزين.

أحسست بعد كل الذي عرفت باحترام لوالد زين. أما أمهما فقد مضت إلى بارئها وهي صغيرة وشعرت بأن أسرتي القادمة أقرب إلى قلبي مما أتصور.

وأخذت أقلب فكري في الحياة القادمة. أعرف أن أبي دائماً معي وأنني الوحيدة القادرة على إسعاده بعد أمي.

واجتمعت مع أبي وأفضيت له بكل شيء وأحسست بأنه يحبني أكثر من ذي قبل. قلت له:

ـ أعرف أنك تريدني أن أتزوج، وهذا حق طبيعي للمرأة.

وبدأت أذكر تفاصيل كل أفكاري عليه.

كان يناقشني فيها بحرية حتى إذا ما جئت على ذكر موضوع عملي معه قال:

ـ لا تخافي فأنا قادر على إنجاز العمل. كما أنني لن أتأخر عن طلب مساعدتك إذا احتجت إليها.

وأجبته:

ـ ولكن كيف أستطيع أن أقدم لك ما تطلب عندما أكون أنا في أمريكا؟

وضحك أبي وقال:

ـ لن يكون الزواج إلا بعد عودته من دراسته وقد حصل على الشهادة وهذا شرطي عليه وقد قبل.

وارتاحت نفسي فأبي يفكر في كل شيء.

وأمضيت أياماً ممتعة بعد عقد القران. تعرفون بأن العادة في بلادنا تقضي بعقد القران أولاً ثم الدخلة.

وعرفت عن طريف كل شيء وأحببته من كل قلبي كما أحبني.

ويوم سافر أمضيت أياماً بائسة أخرجتني منها أخته التي أصبحت بالنسبة لي أختاً.

وها أنذا أنتظر عودة الغائب ومعي أبي وأمي هذه المرة وزين أيضاً.

أبو «وشيع» القرية

كل شيء في هذه القرية يثير في نفسه الذكريات.

الأمس القريب، والأمس البعيد معاً. أشجار النخيل التي تحيط بالوادي، وهذه الأرض المنبسطة التي ولد عليها، يسمونها (أبو وشيع) لا يزال يذكرها. كانت أشبه بمحطة من محطات الطرق التي رآها بعدما كبر في الطريق بين مكة والمدينة.

في أبو وشيع القرية، التي ترتبط مع القرى الأخرى والتي تتكون منها خيبر ولد. قرأ في كتاب الشيخ صالح بعض سور القرآن، ولعب في القلبان المحيطة بالقرية أكثر من ٣٥٠ قليباً (بئراً) انتشرت حول القرية، كالسوار عندما يحيط بالمعصم، بعضها مهجور والقلة القليلة التي كانت تزرع. لشد ما تغيرت هذه الأرض، انطلقت الأيدي تزرع تزرع لتحصد الخير الذي توصلت إليه بلاده. وهو يذكر أباه يوم مات مات ودفن في المدينة، كان في زيارة لأخواله في قباء، قباء التي أحبها فيها كبر ونما وشب وترعرع.

الناس في المدينة يحبون هذه الضاحية لدرجة عندما بدأت تكبر المدينة، كبرت من الجنوب على عكس أكثر المدن.

يقولون إن المدن تكبر دائماً من الشمال، وهو يذكر كل شيء. طفولته منذ ذلك اليوم الذي ولد فيه، ويوم مات فيه أبوه. أكثر من عشرين عاماً مضت وانقضت على ذلك التاريخ الذي يذكر كل تفاصيله.

ولقد شغف عندما كبر بقراءة التاريخ لا لأنه كان يحب التاريخ

فحسب، وإنما لأن أباه كان يقول له دائماً وهو صغير:

ـ التاريخ يا ولدي هو مدرسة هذه الدنيا الواسعة.

ولقد كبر يوسف، شب وترعرع في المدينة وتلقى تعليمه فيها. كانت جهود أمه واضحة في هذه التنشئة التي أنشأته عليها حتى تخرج من كلية التربية ويومها قالت له أمه:

ـ آن لي أن أستريح بعد عناء طويل.

قبل أمه في جبينها وتحدث إليها طويلاً، قال لها بأنها كانت كل شيء في حياته، فهي التي تحملت عناء كل هذه السنوات ليصل إلى ما وصل إليه، وهب يشمر عن ساعد الجد. يمضي أيامه الأولى في مدرسة أنشئت حديثاً في خيبر، وها هو يعود إلى القرية ليستعيد ذكريات الماضي، وإن كان قد أحب المدينة.

قالت له أمه يوم سافر:

ـ سأظل هنا يا ولدي أنتظرك، فأيامي باتت محدودة، وأخاف أن أموت بعيداً عن المدينة التي أحب.

هذه العجوز الطيبة لا يعرف كيف يمنحها حقها في هذه الحياة! هو الذي عرف كيف كانت تمضي الليالي ساهرة بجانب أدوات حياكتها تتحدث إلى ماكينتها في حب. ستظل ماكينة الخياطة مكانها وسيمنع من الغد أمه أن تعمل عليها. لكنها قالت كلاماً كثيراً عمّا كانت تفعل، وطلبت منه أن يتركها وشأنها فلم يرض!

ـ لقد كبرت يا أماه، وقد يكون من المستهجن أن تعملي بعد أن وصلت إلى هذه السن لأكفيك شر الحاجة. فأنا عندما أصنع من نفسي جداراً يقيك شرها لا أكون قد استطعت أن أمنحك ما تستحقين.

وتضحك أمه وتقول:

ـ نعم الابن أنت، فهأنذا أرى صورة جديدة من صور والدك في إهابك الغض يذكرني بشباب عمري يوم اقترنت به ذلك الذي أحببته من كل قلبي.

وتكمل حديثها قائلة:

ـ لا عليك يا ولدي سأنزل عند رأيك وسأبقي عليها لأستخدمها في خياطة

ثيابي وثياب طفلك يوم يأتي.

وتشيع الفرحة في نفسه، فقد أصبح رجلاً يستطيع أن يعول والدته هذه التي يحبها ويحترمها من كل قلبه. فهي امرأة ليست ككل النساء. يكفي أن تكون هي أمه التي كفلته وأعالته واستطاعت أن تصل به إلى بر الأمان.

وتطل الذكريات وهو في مكانه في البيت الصغير هناك على القرب من القليب، القليب الذي كان يلعب إلى جانبه رفاق أتراب من قريته يعرفهم جيداً.

قد تكون ظروف الحياة قد غيرت الكثير من عادات هؤلاء الرفاق الذين شبّوا عن الطوق في رحلة العمر القصيرة. فمحمود لا يزال في مكانه يرعى بستانه ومن حوله أطفال صغار يرى فيهم نفسه يوم كان طفلاً. أما الباقون فقد انقطعت الصلة بينهم وبين القرية. لماذا؟ أمر لا يدري كيف يفهمه. فعلى الرغم من أن حياة العلم في وطنه منحت زملاءه الفرصة لأن يكون شيئاً مذكوراً على هذه الأرض، إلا أنهم بل أكثرهم لم يعد يذكر الماضي أو يريد حتى أن يتذكره.

ويطل عليه محمود على هيئته التي عرف وكأن الزمان قد صغر. وعاودت الحياة رحلتها للأمس، يرى فيه صديقاً يتلهف على لقائه والحديث معه.

قد يكون هو الوحيد الذي كان على صلة بهذا الصديق ربما لأن ظروف حياته اقتضت أن يكون على هذه الصلة. فصديقه هو عينه على الأرض والبيت الذي يملكه عن أبيه.

ويتطاول ببصره إلى الكوخ الذي يقع على مقربة من التلة إلى جانب البحيرة الكبيرة التي يسير ماؤها من خيبر إلى العلا. لطالما اصطاد هو وأقرانه السمك منها.. أما اليوم فهي الأخرى تظل على ما هي عليه وإن اختلفت الصور.

لكم كان يحن إلى رؤية بدو الشمال يأتون من أقصى الجزيرة بحبوبهم وشعيرهم وما استطاعوا انتاجه من الأرض يشترون بثمنه تمر خيبر.

هؤلاء البدو كانوا صورة مغايرة لصور أبناء القرية في وجوههم ألوان الثلج وفي عيونهم لهفة البدوي على راحلته يمحنها حبه لأنها وسيلته في الحل والسفر. لطالما خفق قلبه لرؤية تلك الطفلة الصغيرة التي رآها يوم كان طفلاً

وهي بجانب والدها تسير إلى جانب راحلتها، وشعرها الأشقر المجدول يضيء تحت نور الشمس التي كانت يومها حفية حانية. وهو يذكر اسمها واسم أبيها. فقد ظلت صورتها تراود مخيلته سنوات طويلة حتى يوم كان في المدينة. ترى لماذا تعاود صورتها على الظهور مرة أخرى؟ ويسأل محموداً عن الرجل فيقول له وهو يضحك:

- ذكريات نسيتها يا صديقي بعد سفرك!

ويكرر سؤاله لدرجة جعلته يحس بأنه قد أخرج صديقه الذي فاجأه بقوله وهو يضحك.

إنها زوجتي أم سارة، وزين وسعاد، ومحمد. لقد مات أبوها بعد ثلاث سنوات يوم كان هنا في خيبر وكفلتها أمي حتى إذا ما كبرت اقترنت بها فمنحتني كل هؤلاء البنات والأولاد.

وأطرق صامتاً. فهذه الجمل القصيرة التي تحدث بها صديقه محمود جعلته يستعيد الماضي وذكرياته الماضي الذي كان يظن أنه لن يعود.

وتجمدت ذكرياته لدرجة جعلت صديقه يسأله:

- ترى فيم تفكر؟

والتفت إليه قائلاً:

- لا شيء. مجرد خواطر أخالها تحن لأن تنطلق. أو أنت سعيد يا صديقي؟ ويجيبه صديقه بهزة من رأسه ثم يقول:

- كل السعادة. وكيف لا وحياتي على ما ترى. فأنا أملك جميع مقوماتها، زوجة وبيتاً وأطفالاً. أما أنت فلا تزال تعيش بمفردك.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ لقد تخرجت هذا العام من كليتي وهأنذا مرة أخرى في خيبر، أساهم في تطوير التعليم في قريتي.

والتفت إليه صديقه محمود قائلاً:

- أو تدري أن ابنتي سارة قد تعدت العاشرة وهي تمتاز إلى أنها فتاة شاطرة تتلقى الدراسة في مدرستها، فهي لصيقة بأمها في البيت، شبيهة بها في كل شيء فما رأيك؟

ـ ما رأيي في ماذا يا صديقي؟

ـ أن أزوجك إياها عندما تكبر؟

ـ أو ترضى هي؟

ويجيب صديقه بقوله:

ـ طبعاً لن أقسرها، لكنني أعلم بأنها فتاة رزينة وأنت رجل لم تتزوج بعد ومثقف كما يقولون مثلها..

وصمت. فأجابه:

ـ ثق بأنها ستكون في أعماق أعماق بؤبؤ العين هذا إذا هي وافقت. فأنا حريص على أن أتزوج من بنات هذه القرية.

وافترقا على لقاء، وبقي هو يفكر في تصاريف الحياة التي يعيشها الناس ويعايشونها. وأخذ يفكر ويفكر في هذه الهبة الجديدة التي منحها إياه الله. في قريته التي أحب «أبو وشيع» مسقط رأسه التي يريدها أن تكبر.

ويطل على الدنيا في نشوة عارمة أحس بها وهي تختلج في صدره هو الذي عايش الحياة بعيداً عن الراحة.

ثلاثون عاماً مضت وانقضت كان خلالها يجري كالنحلة حتى إذا ما استقر به الحال أحس بحاجة لأن يرتاح ولو قليلاً من الوقت.

وعاد بذاكرته إلى أيام الدراسة. كانت دولوريس زميلته في الجامعة الأمريكية في القاهرة فتاة في عمر الزهور وجهها فيه سمرة الصحراء وفي عيونها غموض الشرق وفي قامتها شموخ الأندلس.

عرف أنها من هناك من طليطلة، وأحس بحاجة لأن يقرأ كتب التاريخ اشتراها دفعة واحدة ومضى يطالع صفحات كل تلك الكتب في نهم وشراهة، حتى إذا ما تهيأت له أول فرصة للتعارف قال لها في هدوء:

ـ نحن أبناء عم يا دولوريس.

ضحكتها لا تزال تصافح أذنه وهي تجيب قائلة:

ـ وكيف عرفت؟

وأجابها:

ـ ألست أنت من طليطلة؟

وقالت:

ـ وماذا يعني هذا بالنسبة إليك؟

ـ يعني أشياء كثيرة فالعرب كما تعرفين عاشوا أكثر من ثمانمائة عام هناك.

ـ ربما ما قلته كان صحيحاً! لكنني والحق يقال لم أفكر في هذا.. فأنا كما تعرف مع أسرتي ووالدي الذي يعمل في السلك الدبلوماسي.

ـ أعرف ذلك، ربما كان عندك شيء من الوقت تسألينه عما قلت وربما سيجيبك أو سيصمت.

من هنا بدأت رحلة صداقته لها التي استمرت ثلاث سنوات حاول خلالها أن يخرجها من دائرة قلبه فلم يستطع حتى إذا ما عرف أنها ستعود إلى مدريد مع والديها قال لها وفي هدوء:

ـ لم أكن أود أن أفاتحك في أمر زواجي لأنني كنت أرجىء هذا الأمر لما بعد التخرج لكن عودتك المفاجئة جعلتني أخطبك لنفسي ولا أدري.

وقالت له دولوريس كلاماً كثيراً عرف في نهايته أن قلبها ليس معها ولهذا فهي تعتذر عن هذه الخطبة.

وسافرت وبقي في القلب ما بقي سنوات طويلة مرت عليه وهو يذكر أيام دراسته تلك، وقائعها.. تفاصيلها.. كل شيء فيها.

حتى إذا ما عاد إلى بلده استجمع شجاعته وخطب ابنة عمه التي كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر.

قد يكون هناك بعض الشبه بين ابنة عمه التي اقترن بها وتلك التي رفضت أن تكون رفيقة دربه وتمر الأيام لا جديد فيها إلا أن رسائل دولوريس له لم تكد تنقطع.

هذه الأنثى تحيره بكل ما تكتبه عن دقائق حياتها بعد أن تزوجت.

قالت له أشياء كثيرة لم يكن يظن أنها ستبوح بها إليه.

قالت بأنها رفضت أن ترتبط به لا لأنها كانت عازفة عن هذا الارتباط وإنما لأن نصيحة والديها إليها كانت تدعوها بأن تضحي بما تحسه تجاهه ولهذا فهي وبعد أن تزوجت صممت أن تسمي أول مولود لها باسمه وقد كان.

أو تريد هذه الأنثى أن تدغدغ إحساسه بكل هذه الكلمات التي كانت تكتبها إليه؟ لقد أحس بشيء من الانتعاش! فالرجل كالمرأة يهمه أن يظل دائماً مرغوباً فيه وقالت له بأنها تنتظر زيارته لها في مدريد ووصفت له كل شيء عن بيتها الصغير وزوجها الذي تعايشه وقالت له بأن زوجها يعرف كل شيء عنه.

ولقد فوجىء برسالة صغيرة من الزوج يدعوه لأن يحضر إلى مدريد فهو مشوق لأن يعرف شكل من أحبته فتاته قبل أن يتزوجها.

هكذا الحياة. الفارق بين الشرق والغرب أكبر مما تتصور وإلا ماذا يسمى كلام هذا الزوج؟

ترى لو فعلتها زوجته ماذا يصنع؟ كان على الأقل (يقطم رقبتها) كما يقولون ثم يبعث بها إلى بيت أبويها. وأخذ يفلسف حديث دولوريس بينه وبين نفسه: ربما كان مجتمعه يرفض كل هذه الأمور لأنه مجتمع آخر يعتمد أول ما يعتمد على تقاليده وقيمه وتراثه ولكن...

ليكن لها ولزوجها ما أرادا وليكن له ولمجتمعه هذا الذي يريد.

مسكينة هذه المرأة التي تزوجها فهو يشعر بأنه عندما يفكر في الأخرى إنما يجور على حقوقها فيهضمها ثم ينسى ويواصل حواره مع نفسه في هدوء وصمت.

يقولون إن أيام الدراسة شريط طويل يظل صاحبه يحمل صوره دائماً.. بعد أن اختارها في مشواره في عناية. وهو يعرف حقيقة هذا الرأي فلطالما أحس بحاجته أن يستعيد ذكريات الماضي بشريط أحداثه وتفاصيلها أيضاً.

ونظرت إليه زوجته بعد أن رأت انشغال فكره قائلة:

ـ أتراك تريد السفر قريباً؟ فإلى أين؟ ولماذا؟

ولم يجبها فوراً وإنما حاول أن ينتقي كلماته في هدوء. حتى إذا ما استوعب ما يريد قوله قال لها كل ما يريد في كلمات صغيرة.

وساد الصمت أركان الغرفة وأحس بشيء من الألم يساور نفسه فهو يكذب على هذه الأنثى وهي تصدق.

مسكينة المرأة في مجتمعنا الكبير. كذبات بيضاء وسوداء تصدقها في هدوء عندما يحاول الأزواج الهروب بعيداً عن البيت. البيت الذي عاش فيه أبوه وأمه وكل أخوته.

ونظر إلى وجه زوجته مرة أخرى وكأنه يسترجع تفاصيل وجه دولوريس فتاة الأمس القريب والبعيد معاً.

قد يكون قوام امرأته أرشق وأجمل لكنها أهدأ كثيراً من تلك الفتاة التي عرفها يوماً ما تتحدث في صدق وتنتقي كلماتها في شيء من الدلال.

واندفع بتفكيره إلى الغد سيكون في الغد في مدريد وسيلتقي بالهاربة الأولى وسيتعرف على ملامحها عن قرب وانتقل بأحلامه إلى تلك المدينة يجوب شوارعها وطرقاتها وسيحملق بعينيه في وجوه فتيانها وفتياتها.

سيتعرف على الماضي عبر الحاضر، وسيظل ممسكاً بتاريخ أسلافه الذين كانوا يعيشون على هذه الأرض في سلام حتى إذا ما رحلوا عنها لم تنقطع صلتهم بها فالتاريخ يعيد نفسه ولكن بأسلوب جديد.

فلقد انزاح الاستعمار الغربي عن كثير من البلدان لكنه جاء مرة أخرى في أشكال وألوان متعددة تارة بدافع الاقتصاد وأخرى بموال التحديث. أما أجداده فلم يكونوا بمستعمرين وإنما بناة علم وأخلاق.

لقد عاد العرب إلى إسبانيا عبر ماربيا التي يسمع عنها بأنها مدينة عربية عادوا يملأون طرقاتها ويعمرون شوارعها بأسلوبهم وفنونهم أيضاً.

ويظل شارداً بفكره يتصور أحداث ثمانمائة عام كان فيها أجداده مضرب المثل في كل شيء في الأندلس.

ويأتي الغد يحمل في جعبته أحداثاً كثيرة حتى إذا ما اختار مكانه في الطائرة حتى وجد أنثى تماثلها طولاً وشكلاً وقسمات وجه. وربما لم تعد ذاكرته تعي دقائق ذلك الوجه وقد يكون قد اختلطت الصور في ذاكرته فأصبح يرى في شكل كل أنثى صورة تلك التي عرفها والتي سيراها بعد ساعات.

وتحدث إليها بالإنجليزية فلم تجب وقالت له في عربية محببة:

ـ أنا مغربية من الدار البيضاء.. كنت في زيارة أرضك لأيام.

وتابع الحديث معها عبر الأندلس فقالت له:

ـ ما أشبه الليلة بالبارحة إن العرب اليوم يعودون إلى ماربيا إسبانيا وليس الأندلس لكنها على أية حال عودة قد تختلف عن الأولى فقد كان العرب في الأولى يستقرون هناك أما اليوم فهم يقضون إجازاتهم في دورهم أيضاً. أوتدري أن أجدادي من عرب الأندلس؟ ولا تستغرب عندما أقول لك بأننا نحتفظ

بمفتاح بيتنا في الأندلس نتوارثه أباً عن جد.

وأجابها في شيء الفرح:

ـ لهذا ظننتك إسبانية.

قالت المغربية:

ـ لا. وإنما هي الإسبانية التي أخذت عنا أشكالنا وصورنا.

وأجاب:

ـ لا فارق فيما قلتُه وقلتِه ليكن لك ما أردت..

وودعها، حتى إذا ما استقبل (سموم مدريد) أحس بأنه يكاد يختنق فهذا الحرّ في يوليو غريب جداً. إنه يذكره بأجواء المدينة المنورة مسقط رأسه التي يحب أثناء الصيف واستواء التمور.

وتطلع إلى الصالة عبر زجاجها الفاصل ليرى دولوريس تقف بقامتها الممدودة تمد يدها البضة ملوحة وعلى شفتيها ابتسامة ناعمة حتى إذا ما لقيها قالت وهي تهز يده في قوة:

ـ أراك لم تتغير كثيراً.

والتفتت لتقدم له زوجها الذي قال:

ـ لا أدري ماذا سأقول لك فأنا وإن كنت لم أرك لكنني دللتها عليك من كثرة ما سمعته منها عن أوصافك.

ومضوا إلى الفندق حتى إذا ما وصلوا إليه استأذن زوج دولوريس قائلاً:

ـ معذرة فأنا كما ترى مشغول طوال هذا اليوم سأراكما الليلة فقد حجزت مكاناً لنا في مطعم مشهور ذكر اسمه...

وودع الرجل وبقي في الصالة مع دولوريس التي أخذت تثرثر قليلاً حتى إذا ما وجدت انشغال فكره قالت له:

ـ سأتركك أنا الأخرى ترتاح قليلاً على أن أعود إليك لأحملك إلى بيتي لتناول طعام الغداء.

وشكرها على أمل اللقاء ومضى إلى غرفته يضرب أخماساً في أسداس

حتى إذا ما استمع إلى صوتها عبر التلفون أخذ طريقه إليها لتحمله السيارة إلى ضواحي المدينة.

كل شيء كما تخيله، هدوء المدينة، أشجارها شوارعها النظيفة. لكنه مع كل هذا الذي يعيش أخذ يفكر في الأخرى لكن دولوريس قطعت عليه تفكيره قائلة:

ـ أظنك تقارن بينها وبيني.

قال:

ـ من؟

ـ زوجتك.

وضحكت..

ولم يجد عاراً بأن يجيبها بالحقيقة فقال:

ـ وكيف وجدت النتيجة؟

وأجابها:

ـ لم أصل بعد إليها.. دعينا منها الآن وقولي لي لماذا سميت ابنك باسمي؟

وابتسمت ثم قالت:

ـ أيزعجك هذا؟

قلت:

ـ لا لكنه قد يزعج الآخر.

قالت:

ـ صدقني لم يكن بيني وبينك ما يشين. أنا أعترف الآن أمامك بأنني أحببتك وكنت أتمنى أن أتزوجك لكنني خفت إن فعلت ستكرهني.

ـ والأسباب؟

ـ الأسباب ذاتها التي جعلتك تقارن بيني وبين زوجتك أنت يا صديقي من أرض تغاير طينتها أرض هذه البلاد وإن كان أجدادك قد عاشوا فيها فنحن نعشق الحرية ونصادق الثيران ونحبها ثم نقتلها في مسرحية كبيرة يحضرها آلاف الناس. أتصدق بأنني دون أن أقول لك حاولت أن أعرف حياة مجتمعك من

أسرة كانت تعيش في مصر قريبة من بيتنا. لقد أخافتني تلك المرأة وقالت لي كلاماً فهمت منه أنه لا يجوز للمرأة أن تحادث حتى من يطرق الباب عليها بل تصفق. قلت:

ـ قد يكون ما قالته المرأة صحيحاً لكن هذا الأمر قد مضى وانتهى. وبدأ يشرح لها حياة المرأة في بلده.. ولشد ما تغيرت أحوال المرأة كل شيء يجعلني أفخر بخطواتها التي تمارسها في صدق، وفجأة سألته دولوريس:

ـ هل تعرف امرأتك صداقتنا السابقة يوم كنت في القاهرة؟

قال:

ـ لا.

قالت:

ـ لماذا؟

قلت:

ـ لأنها لم تسألني.

فقالت:

ـ كان عليك أن تقول لها كل شيء كما قلته أنا لزوجي.

وابتسمت ونسي الموضوع وإن كان قد ظل يشاغل ذهنه كل وقت يرى فيه هذه المرأة.

كل شيء في مدريد يرضي السائح الذي يبحث عن المتعة.. لكنه لم يكن من هذا النوع فهو قد جاء ليدرس ظروف هذه الأرض.

ثمانمائة عام والعرب يحتلون الأرض وهو عندما يقول العرب يعني المسلمين لكن أعداد الذين بقوا هنا لم يتعد الاثني عشر ألف شخص! ربما لأن محاكم التفتيش التي أقيمت في أعقاب النكبة التي حلت بالمسلمين هي التي جعلتهم يحتلون هذه البلاد ويتركونها لكن بصماتهم عليها لا تزال واضحة فهؤلاء العذارى بعيونهن السحرية اللواتي يسرن في الطرقات تحمل وجوههن تقاطيع الجدات وبناتهن، شعورهن السوداء عيونهن الجميلة رموشهن الطويلة.. حياؤهن غير المصطنع.. مشيتهن الهادئة الوقورة كلها إرث طبيعي لأولئك

اللواتي استطعن أن يمنحن هذه الأرض الطلاوة والجمال وكل شيء.

حتى دولوريس. لو وضعت مع مجموعة من نساء بلاده لضاعت بينهن. فهي قريبة الشبه بامرأته التي اقترن بها لكنه لم يقل لها ذلك ربما عن عمد وربما بدون عمد لا يدري.

في الليالي المقمرة كان يطل على القرية من وراء نافذة بيتها الصيفي يلمح في سمائها نجمة تضيء كان يراها وكأنما هو في القاهرة وفي جدة وفي المدينة. هذه النجمة يراها تطل على وجه دولوريس هذه المرة لكنه لا يرى وجهها وإنما وجه زوجته وهي تبتسم وكأنها تعتذر له عن ذنب كان قد ارتكبه.

ترى لماذا يضعف الإنسان عندما يرى ذكرياته تتجسد في صور أقوى وأعنف؟

كانت دولوريس في القاهرة امرأة من إسبانيا أما وهو هنا اليوم يجري هنا وهناك فكل إطار الصورة لا يمنحها البريق الذي تريد.

حتى زوجها هذا وابنها أصبحا من جملة من يحب لدرجة أسعدته وإن لم تسعد زوجته التي لا تدري. ويوم قال بأنه عائد إلى أرضه، ضحكت دولوريس وقالت:

ـ لا بأس فأنا أعرف أنك في شوق لرؤية زوجتك لكن عدني فعندما تعود اصحبها معك، وثق بأنني لن أقول لها شيئاً عن الماضي.

قالت كلامها هذا وزوجها يقف إلى جانبه يبتسم هو الآخر.. أما هو فقد كان متجهم الوجه لأنه تذكر بأن أجداده فعلاً افتقدوا الأندلس وفقدوه. أما هو وإن كان يفتقد هذه الصداقة التي أخذت تطل من جديد بينه وبين هذه المرأة، إلا أنه فعلاً قد وجد نفسه أخيراً واستطاع أن ينزع من قلبه حباً لامرأته كان يظنه لن ينساه، وعندها انفرجت أساريره وودعها وزوجها.. وابنها الذي يحمل اسمه هو الآخر وعاد إلى زوجته ليقول لها كل شيء عن هذه المرأة وبلا خوف لأنه عرف فعلاً بأنه الحب الذي مات.

وبعد أن انتهى من اعترافاته نظرت زوجته في عينيه وقالت:

ـ كنت أعرف شيئاً من هذا الذي تقوله وكنت أضيق لقلة ما أعرف أما اليوم فصدقني يا زوجي فأنا لا أخاف عليك منها ولا من أية امرأة أخرى، فالصدق كل الصدق أراه في عينيك اللتين أحبهما.

وتشرق الشمس

في ليماسول يغسل البحر أحزان الصبايا الوافدات من الشمال اللواتي أصابتهن لعنة القلق فخرجن يبحثن عن الهدوء في ظلال أشجار الزيزفون.

الموج في ليماسول يغازل الموجة، يحاول أن يحيطها بذراعيه القويتين لكن هذه الأذرع الطويلة التي تمتد عبر مساحات الزمن تختفي فيها الأرض وتهدأ عندها أصوات الموج وتنحسر من تحت أقدامها رؤى خضراء كانت هناك تربض على أطراف الشاطىء في هدوء.

الناس يحلمون وأحلامهم كسحابة الصيف القائظ ترسل زفراتها الحرى لدقائق ثم تشح كقلوب أولئك الحسان اللاتي تربعت ظلالهن بجانب شجرة اللوز العتيقة تلمح نور الشمس وهو يغتسل في شلالات الأمواج العاتية.

هناك في الطرف الآخر من البحر عمق أزرق.. يلهب حواس الصيادين الذين تجمعوا في قاربهم الصغير يتلمسون بركة البحر ويغنون مواويلهم بلكنات أجنبية سريالية بدت من البعيد أشبه بلوحة مهجورة.

وهو وحده يقف على الشاطىء يلمح الحيرة في عيون العذارى يستميح صمتهن الهادىء نجوى غريرة كان بوده أن يقولها في وقفته تلك.

ربما كان الأجدر به أن يرعى الماشية في جبال قزوين بعيداً عن

أمنيته، فهو قد تعود رعاية الماشية وهو صغير لكن فورة العلم منحته القدرة لأن يطفو في رحلة الحياة الجديدة إنساناً بأسلوب آخر لا يمل المعرفة وإن كان يتعطش للارتواء منها مرة ثانية.

أشكال الناس صور متكررة لمس معانيها تتمركز في خياله وتتمحور داخل أعماقه في ظروف كان يظن أنها أفضل الظروف حتى إذا ما خاضها شعر بانتكاسة.. فالناس رغم توافقهم العجيب في قبول معاني الحياة على علاتها في بعض الأحيان إلا أنهم يرفضون بتوافق أيضاً أن لا يأتي الغد على غير ما يتوقعون، وضعوها صوراً جديدة لواقع كان من يظن أنه مجرد خواء لا يخلو من شيء يسير من العاطفة.

صور الماضي تتداخل في نفسه، تطل من بين مخيلته يكاد يراها وهي تهل هنا وهناك بعيداً عن مكانها الأصلي. ربما لأنها حفرت في تلافيف مخه طفولته البائسة، أمه المريضة، أبوه الذي استغنى عنها بعد أن عرفت النقود طريقها إلى جيبه.

كانت أمه تقول:

ـ لا تنس يا ولدي نصيبك من هذه الدنيا! فأبوك رغم ما تراه فهو إنسان طيب قد يقتله تهالكه على هذه الدنيا!

أنت يا ولدي الذي بقيت لي. ذهب أبي وذهب إخوتي جميعاً.. أكلتهم صحراء اليأس فغابوا عن دنيانا وهم أحياء ولا أدري قد تلقاهم يوماً وقد لا تلقاهم لكنهم يظلون بالنسبة لنا أمواتاً، أما أنت فشيء آخر.

أعرف أنني لا أملك إلا أن أدفع بك إلى المدرسة، فالتعليم يا ولدي سلاح الفقراء من أمثالنا فأنا أمك المريضة أرفض أن أعيش لأمد يدي إلى أبيك فأنا أعرف أنه مشغول بامرأته الجديدة وأطفاله الذين جاؤوه على كبر وأنت يا ولدي وحدك رأسمال هذه المرأة التي هي أنا.

كلمات أمه تطن في أذنه. استطاع أن يصل إلى أرقى درجات العلم واستطاع بما وصل إليه أن يعطي أمه الراحة يوم عاد إليها يحمل في جيبه أكثر من شهادة.

إن أمه التي تعيش اليوم ترمق أنوار الفجر وهي تتسلل عبر نافذة غرفة نومها . . لا تستحي أن ترتدي ملابسها التي كانت ترتديها وهي في قرية الشفا تجمع العسل لتبيعه تصنع من قيمته رأس مال يدفع عنه غوائل الفقر وهو يقفز من هنا وهناك من تفوق إلى تفوق.

إن مهنة طبيب أمراض نساء وولادة إنسان يستطيع أن يمنح أمه ما تريد وترغب وها هو قد فعل كل ما كان في إمكانه. أسكنها فيلته التي أسماها باسمها (فيلا راوية) وفعل كلما تريد وترغب، حتى صديقاتها اللواتي كانت تعايشهن في القرية لم يكن يبخل عليها في أن تراهن.

كان يأخذها في سيارته أسبوعياً لتقضي أيام الجمعة هناك وكانت به راضية، ويوم تعرف على نهى طالبة الطب الصغيرة قال لها كل شيء.

عرفت أمه أنه يحبها ويتمنى أن يتزوجها فرحبت لكن شيئاً واحداً كانت تقوله له:

ـ لا تكذب يا بني على زوجتك المستقبلة. قل لها كل شيء عن حياتك ووضعك وجهدك وجهادك وعرقك قل لها كل شيء.

ويوم عرض على نهى أمر خطبتها رحبت وقالت:

ـ لا بأس يا دكتور حامد فأنت سيد الرجال وأغلاهم.

لكنه أسكتها وطلب منها أن تستمع إلى حكاياته مع الزمن. . فقالت له:

ـ ماذا تعني؟

حدثها عن طفولته وعن كل شيء وعن أمه المريضة وأبيه الذي تزوج غيرها وأفهمها حقيقة كفاحه حتى إذا عرفت منه كل شيء قالت في هدوء:

ـ صدقني لم أكن أظنك على هذا المقدار من الصراحة. . فكثيرون الذين يحاولون نسيان الماضي ولهذا فأنا أقدرك، لكن مشكلتي ليست مع نفسي وإنما مع الأسرة.

وطلب منها أن تنقل لأهلها حكاياه ففعلت فكان جواب الأسرة شيئاً مغايراً لما يريد هو وتريد هي. . ومع هذا قالت له كل ذلك.

قالت له بأنها حاولت أن تفهم أسرتها بأن ماضيه لا يضيره ولكنهم رفضوا

وبإصرار أن تعاود الحديث في هذا الموضوع وطالبوها بأن تتجنبه.

قالت له كل ذلك وأفهمته معنى أن تحكم الأسرة على بناتها بشيء ما هو ليس في مقدروها ولكنها ظروف مجتمعها تفرض عليها أن تذعن وأن ترضى.

ولقد اختار بعد هذا الحديث أن يهرب من جدة وأن يأتي إلى هنا إلى ليماسول ليفرغ في مياه هذا البحر آلامه وآمانيه حتى إذا ما وجد نفسه بين هذا العدد الكبير من الفتيات أخذ يفكر: ترى لو عرض على واحدة منهن الاقتران ماذا تقول؟

وفكر كثيراً في هذا الأمر حتى عرفها فتاة في عمر الزهور يمتلىء وجهها بشراً وسعادة في وجهها الأبيض شيء من الغموض حببه إليه.

ويوم عرفها أحس بأن القدر قد ساقها إليه فهي طبيبة امتياز جاءت من بلدها هولندا لقضاء إجازتها هنا.

كان يلقي عليها التحية فترد عليها حتى ذلك اليوم الذي وجدها على سلم الفندق تنتظر تاكسياً ينقلها إلى السوق فكلمها في هدوء وقال لها بأنه هو الآخر يريد الذهاب إلى السوق وإن المسافة إليه ليست بعيدة إذا كانت تحب المشي فوافقت وفي الطريق عرفت منه الفتاة كل شيء.

عرفت أنه زميل مهنة، وأنه هنا يبحث عمن ترضى أن ترافقه مشوار الحياة فقالت:

ـ قد أقبل إذا رضيت أنت..

فقال لها:

ـ أتصدقين؟

قالت:

ـ نعم. فأنا أحب أن أعيش في الصحراء.

ـ ولكن جدة ليست صحراء يا عزيزتي.

ـ أعرف ذلك.

قال:

ـ وما دمت تعرفين لماذا تقولين عنها صحراء؟

قالت:

ـ هكذا تعارف الناس في أوروبا على تسمية جزيرتك.

وعادا إلى الفندق وقلبه يخفق بالراحة ربما لأن الفارق بين المرأة في بلده وفي أوروبا كبير جداً ولكن.. وعاد يتحدث مع رفيقته عن أمه.

قال لها كل شيء عنها وعن حياته وعن رعيه للغنم فضحكت وقالت:

ـ لن أحدثك عن أسرتي وإن كان أبي قد أمضى أكثر من عشر سنوات في بلدك في شركة أرامكو.

وأفهمته أنها كانت تأتي في العطلات لزيارة أبيها مع أمها في الظهران وذكرته بحياة الناس في الخبر وفي الدمام وقالت له أشياء كثيرة أحس بعدها بأنه مشدود إليها إلى هذه الفتاة.

وفي الفندق تحدثت فرنسواز إلى صديقتها عن الدكتور حامد زوج المستقبل فاحتفل الجميع بهذه المناسبة حتى إذا ما حان موعد سفرها إلى أمستردام قالت له:

ـ سأنتظر وصولك.. وعليك أن تخبرني عن ذلك، لأرتب أموري للعودة معك كزوجة.

ونظر إليها وقال:

ـ كم أنت رائعة يا زوجة المستقبل.

وفي المطار ودع حامد خطيبته حتى إذا ما عاد إلى الفندق أخذ طريقه إلى البحر يطالع أمواجه فرآها ولأول مرة وكأنها تحنو عليه وعلى كل تلك الأجساد التي تغسل همومها في باطنه.

يقولون إن البحر كبير ولهذا فهو بمقدار كبر هذا البحر الذي يراه أصبح يحب حياته يحب أمه يحب كل شيء يحب حتى الحب نفسه واستغرق في أحلامه وكأنه يرى ليماسول هذه المدينة الصغيرة لأول مرة.

في الزحام

في آفاق المجهول التقيتك، أنثى يطرزها خيالي بأشكال تتفاوت بين الحقيقة والخيال.. رمز طهر ترتفع هامته شامخة تبرز مواطن العفة في المجتمع الذي نعيش.

كان كل شيء فيك يوحي بقصيدة، قصيدة شعر ينحتها مثّال بارع أجاد طرق الأحرف والكلمات. تتوهج الحروف على مفرق الشعر الأسود.. هالته نور مضيئة.. أكاد ألمس ضوءها بيدي بينما يلامس شغاف قلبي صورة هذا الوجه الأبيض الجميل.

حلم أنت من أحلام الطفولة أكاد أراه يطل من بين عيني في إطاره الرائع صدى لإحساسات قلب عشق الروعة منذ الصغر.

لا تقولي شيئاً. يكفيني أن أراك بجانبي في كرسيك المفضل ترتشفين فنجان الشاهي الذي أحببت.

أيتها القريبة البعيدة. أعرف أنني قد أخطأت في حقك ولكن من منا لم يخطىء يوماً في حق الآخرين؟

أعرف أنك غاضبة، وأشعر بأنني قد أذنبت في حقك وحق نفسي أيضاً. عودي إلي فقد أصبح عشنا فراغاً مدمراً، أكاد أراه يطبق بجدرانه على قلبي.

ألقت النظرة تلو النظرة على هذه الرسالة التي لم تتوقع أن تتسلمها بعد كل هذا الذي جرى وحصل.

ثلاثة شهور بأكملها وهي تعيش في بيت أبيها بعد رحلة عذاب

طويلة حاولت خلالها أن تفلسف الحياة بأسلوبها حتى إذا ما فاض بها الكيل أجمعت أمرها ولملمت نفسها وخرجت بعد أن ألقت على الدار الأنيقة ألف نظرة ونظرة.

ويستبد بها القلق وهي ترمق الماضي بعينين دامعتين ربما أنها كانت السبب كل السبب في هذا الذي حصل لها.

لقد عملت المستحيل لتتزوج به هذا الغادر الذي لم يقدر تضحيتها حق التقدير. فهو وهي يعرفان كيف استطاعت أن تقفز على حواجز الرفض بأسلوبها الذي أجادته حتى إذا ما أذعن أبوها لرغبتها نقلت إليه عبر التلفون خبر هذه الموافقة.

قد يكون أبوها على حق. فهو بتجربته أقدر على معرفة أصناف الرجال. لقد قال لها أكثر من مرة:

ـ نحن يا بنتي من طينة وهم من طينة أخرى. زوجك إنسان استطاع بجهده أن يواصل حياته ليصل إلى ما يريد لكن هذا لا يكفي. من يعش في الحرمان يظل أسير هذا الحرمان حتى وإن أصابته النعمة فجأة.

شريط حياتها الصغير يطل من بين جفنيها أشبه بقصة وعت أحداثها.. ورأت فصولها وساهمت في بعض فقراتها.

أما أمها فكانت ترى أنها ستكون مخطئة بقبول خطبة حامد لها لأسباب كثيرة. منها أن أباه كان قد طلق خالتها بعد مرحلة زواج طويلة وارتبط بأم هذا الخاطب التي أحالت حياة أولاد زوجها جحيماً لا يطاق.

ثم ماذا يمكن أن تقول الأم لأختها فيما لو قبلت هي هذه الخطبة؟ كثيراً ما تبرز أخطاء الأمس فجأة أمام الأعين وبسرعة عجيبة وهي تعتقد بأنها مسؤولة عن أختها التي تحب.

لكنها مع كل هذا أصمت أذنيها ومضت في طريق الزواج لا تلوي على شيء حتى إذا ما استقر بها الحال في بيته تصاعدت مشاكل الأمس ومآسيه في صور عديدة.

كانت تعلم مسبقاً بأن أمه هي الأخرى غير راضية عن هذه المصاهرة.

وعندما تحدثت له عن كل ذلك طمأنها وقال لها:

ـ ولكنني أنا الذي سأتزوج وليست أمي.

ومع هذا بدأت أمور كثيرة تتكشف أمام أعينها عندما جاءت إلى هذا البيت واستقرت فيه.

ولكن ترى كيف تستطيع أن تبرر كل تلك التصرفات التي واكبت حياتها في بيت ممدوح، ممدوح هذا الشاب الذي أحبته وأحبها والذي قال لها أشياء كثيرة أيام الخطبة وبعدها وهي تذكر رحلة العمر التي قامت بها حول العالم في شهر العسل.

قد لا تكون هذه الرحلة هي الرحلة الأولى في حياتها فلقد عرفت العالم كله شرقاً وغرباً وهي طفلة وهي كبيرة أيضاً فلوالدها أكثر من بيت في لندن وباريس وكان ولوس أنجلوس.

وحتى تلك الجزيرة الصغيرة التي يسمونها أسكيا والتي تقع على مسافة قريبة من نابولي المدينة الإيطالية الشهيرة كان لوالدها فيها فيللا على الطراز الأندلسي.

شهر العسل هذا الذي أمضته كان يقطر عسلاً. لكن طعم العسل غادر فمها فجأة وبعد ثلاثة أيام من بعد العودة إلى جدة.

قد تكون أمه هي السبب وقد تكون أخته هي الأخرى السبب لكن السبب الأول والأخير عجز زوجها عن الوقوف أمام مكائد الأم والأخت.

لقد قالت له إن من الأفضل أن تعيش وإياه في بيت بعيد عن بيت الأسرة ولكنه مانع وقال بأن أباه لا يرضى بذلك.

ومن ساعتها عرفت أن زوجها أسير رغبات أسرته لا يستطيع أن يصنع عشه بيديه وإنما يترك للآخرين التدخل في كل شؤونه صغيرها وكبيرها لكن الأدهى والأمر في هذا كله أن أمه بدأت تتدخل حتى في خصوصياتها تلقي بأوامرها هنا وهناك وتطلب منها أن تستقبل هذه وترفض تلك. حتى صديقاتها أحسسن بما يجري في البيت فرفضن جميعاً أن يزرنها فيه.

وأمها التي جاءت يوماً إلى بيتها وأمضت معها أكثر من ساعتين رفضت

خلالها حماتها أن تستقبلها. لماذا؟ لأن حماتها تقول:

ـ كنت أجامل الجميع لأن ابني يريد زواج هذه الحمقاء ولم أكن أملك أن أرفض فهي نزوة أردت أن أحققها له. أما الآن فبإمكاني أن أصنع ما أريد والطريقة المثلى لإخراج هذه المرأة من البيت هو هذا التجاهل لها ولأهلها ولصديقاتها ما دام ولدي لا يستطيع أن يرفض ما أطلبه.

لقد سمعت كل الحديث الذي جرى بينها وبين جارتها أم سعاد. وكانت تعرف بأن حماتها راغبة في زواج ابنتها من ابنة هذه المرأة. ويوم نقلت لها إحدى صديقاتها أن حماتها تعمل في الظلام من أجل تطليقها وتزويج زوجها بابنة هذه المرأة لم تعر كلامها كثيراً لكن ما جرى بعد ذلك أكد لها كل ذلك.

فزوجها الذي تحب أصبح ألعوبة في يد أمه وأخته لدرجة جعلتها تحس بأنها أصبحت مجرد دمية ودمية صغيرة في هذا البيت الذي لا تعرف.

كان جل تفكيرها ينصب على الأسلوب الذي يمكن أن تواجه به أمها عندما ترحل عن هذا البيت فتهاب الموقف وتخافه. وتحاول من جديد بث الطمأنينة في نفسها وأنها قادرة على إعادة المياه إلى مجاريها حتى كانت تلك الليلة فلقد انتظرت عودة زوجها إلى الدار في موعده الذي تعودت وصوله فيه ليلاً.. فهو لم يتعود على السهر خارج بيته وحتى إن فعل فهو حتماً يتحدث إليها عبر التلفون مخبراً إياها بتأخيره في العودة.

لكنه في تلك الليلة لم يكن كذلك. لقد عاد زوجها الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل وهو يدندن بلحن تعرف أنه يحبه حتى إذا ما سألته عن أسباب تأخره انفجر فيها صائحاً:

ـ وهل تريدينني أن أقدم لك كشفاً بتحركاتي؟ أنسيت أنك امرأة وأنني صاحب هذا البيت وأن لي الحق في أن أعود في أية ساعة دون أن يحاسبني أحد؟

انصرفت بكل أحاسيسها إلى الكتاب الذي كانت تقرأه. لم ترد عليه. تجاهلت وجوده لدرجة أحس هو فيها بالملل. فقال:

ـ أعرف أنك متسلطة تريدينني أن أظل دائماً إلى جوارك أونسيت أنني رجل؟

نظرت إليه بطرف عينيها وعلى وجهها شبه ابتسامة باهتة.

هذا الرجل ليس هو ذلك الذي عرفت. لا بد أنها مخطئة قالت كلامها هذا في نفسها وهي تلقي بالكتاب إلى جانبها حتى إذا ما أحست بالنوم يداعب جفنيها استسلمت له في هدوء.

في الصباح غمرها شعور غريب. أحست بأنها أنشط كثيراً من جميع الأيام التي مضت. ربما لأنها عرفت كيف تختار طريقها. ستترك هذا البيت ولن تحس بالندم وستواجه أمها بشيء من الحزم وستنسى كل ما ستقوله لها فهي تعرف أمها.

كانت تفكر في هدوء وهي تشير نحو الباب في هدوء أمرت الخادم بأن يحضر لها السيارة.

أم زوجها في مواجهتها متسائلة:

ـ إلى أين؟

لم تجب ببنت شفة وإنما حاولت أن تبتسم في وجهها ومضت إلى الخارج حتى إذا ما وصلت إلى بيت أبيها تذكرت شيئاً فقالت للخادم:

ـ قل للسائق أن يذهب إلى عمله فأنا في غير حاجة إليه.

أمها كانت في الصالون تتحدث في التلفون تثرثر كعادتها عندما رأتها في مواجهتها ألقت بالسماعة واعتذرت لمن تكلمها وأخذت ترحب بها متسائلة:

ـ وهل سيتغدى معك زوجك؟

قالت:

ـ لا.

وبحزم هذه المرة.. مما جعل الفأر يلعب في عب أمها فقالت:

ـ ولكني أراك سعيدة..

ـ ومن قال بأنني لم أكن في يوم من الأيام أسعد من هذا اليوم؟

وصمتت فلم ترد أمها أن تقطع عليها حبل صمتها. اختارت طريقها إلى غرفتها وفتحت خزانة ملابسها وأخذت تغير ملابسها في هدوء وحرية وهي تستعرض الماضي بصوره وملابساته حتى إذا ما هدأت نفسها وارتاحت أخذت تنظر إلى البحر عبر نافذتها التي تحب.

شهور ثلاثة أمضتها في هدوء بعيداً عن المشادات والمهاترات التي عاشتها في بيت زوجها حاول خلالها زوجها أن يتحدث إليها أكثر من مرة لكنها كانت ترفض أن يتسلل إلى أذنيها صوته حتى إذا ما نضب قلبه بعث برسالة إليها. وهي تعيد قراءة الكتاب لأكثر من مرة وتضحك في أعماقها لأنها قررت أن لا تعود مطلقاً إليه هو الذي أحبته من كل قلبها حتى إذا ما تكشف لها ضعف شخصيته أمام أمه وأخته غدا في نظرها إنساناً آخر لا لون له ولا طعم ولا حتى رائحة.

يقولون إن أجمل اللحظات هي التي تستطيع خلالها الوصول إلى قرار خصوصاً عندما يكون هذا القرار متصلاً بحياتنا وما نعايش.

وهي سعيدة جداً بهذا القرار. يكفي أنها جربت مرة ولم تصل إلى ما تريد فكثيراً ما يخطىء الإنسان في معرفة طريقه في الزحام.

حلم ثقيل

وكتبت لي بحروفك الصغيرة كلمات قليلة خلتها وأنا أقرأها شيئاً طريفاً حتى إذا ما تمعنت فيها عرفت أنك قد عقدت العزم على الخروج من حياتي بسهولة.

تذكري أنك ستندمين على فعلتك هذه وتذكري أيضاً أنني إنسان أضيق بكل هذه الترهات.. لا أحملها.. ولكنني أيضاً لا أنساها ولولا أنني رجل قد من حجر لقلت لك غير ما أقول.

أعرف أنك نادمة.. لكنني وقد عرفت قدماي الطريق إلى النهاية التي أردتها.. فأنا لا آسف على شيء أبداً تحاولين أنت من جانبك أن تنسيه يا حبة القلب الذي انفرط عقدها وسقطت في الطريق لتتقاذفها رياح النسيان! عودي إلى عقلك وتذكري أنك أنت التي بدأت بما بدأت ولا أطيل.

واغرورقت عيناها من البكاء، واحمر وجهها الشاحب قليلاً فها هي رسالة إليها فيها ما فيها من كلمات قاسية لم تعرفها عنه هي التي أمضت خمس سنوات معه تحت سقف واحد.

أفيكون الرجال على شاكلة زوجها الذي أحبت ينسون زوجاتهم لمجرد وجود أي مشكلة في نطاق الأسرة؟

ربما كانت مخطئة يوم كتبت إليه رسالتها وهي ترى أنها لم تعد سوى مجرد دمية تنتظر عودة الغائب تتلمس دفء الحياة في عينيه وجمالها في صوته.

وعز عليها أن تفتقد كرامتها هكذا إذا هي قبلت أن تتنازل عن

كبريائها فتدعوه إلى العودة بعد كل الذي حصل.

قد يكون السبب في كل ما حصل هي أمه وأخته. ولكن لماذا أيضاً لا تضع في رأس القائمة أمها وأخاها؟

يقولون إن سنوات الحب كسنابل القمح في كل سنبلة مائة قمحة لكن سنابل حبها لم تعطها ما كانت تأمل.

وامتدت يدها إلى صندوق رسائلها التي تحتفظ بها. لقد ربطت كل رسالة بشريط لونه يغاير لون الآخر وكأنها بهذه الطريقة تحاول أن تستهدي على تواريخ هذه الرسائل.

مجنونة المرأة عندما تظن أن الحياة الزوجية مجرد بيت من كريستال لا يكسر ولا تهزه الرياح فبيوت الزوجة بيوت من زجاج تكسرها أول رمية تصيبها من قريب أو بعيد.

ستواصل مسيرتها مع الشوق الهادر الذي ينفجر في أعماق صدرها الذي أخذ يعلو ويهبط مع كل كلمة من كلماته وحرف من حروفه.

وتنظر إلى وجهها في المرآة ثم تعاود نظرها إلى الصورة التي تزين الغرفة. ها هو يطل عليها من فوق وفي وجهه ابتسامة كانت تراها تطل دائماً من عينيه لكن الصورة أخذت تبهت وتبهت حتى إذا ما اختفت عادت مرة ثانية إلى الظهور.

وهذا الإطار الذهبي يجمع بينهما كما جمع الحب. إنها ترى عليه قشرة جديدة تراكمت من آثار الغبار كما يتراكم الصدأ على المعدن الرخيص لكنها ليست من هذا المعدن سيظل قلبها يخفق بحب هذا الذي جمع بينها وبينه إطار الحب والمودة.

وخفضت قليلاً من بصرها.. هي التي كانت دائماً تشمخ بنظرتها إلى الأعلى ربما لأنها بدأت تهاب الموقف بعد أن أثرت عليها رداءة الحال التي وصلت إليها حياتها..

وتعاود رحلاتها مع الذكريات. إلى اليوم الأول الذي تعرفت فيه إلى زوجها، كيف كان ذلك اليوم مضيئاً مشرقاً رغم برودة الجو وغيوم السماء.

الناس في حائل يخافون الشتاء القارس وهي وحدها كانت تحب فصل الشتاء لأنه كان بالنسبة إليها فصل النعيم والحب. وهي وإن ولدت فيه إلا أنها تزوجت فيه.. وتظل كلمته ترن في أذنها عند أول لقاء. لقد قال:

- صدقيني بأنني كنت في شوق - طوال العشر سنوات التي قضيتها خارج حائل - إليك لأضمك بجفني. لقد كنت أراك دائماً في وجه كل أنثى أقابلها.

- وكنت تقابل الإناث يا سليمان؟

- أنسيت أنني كنت في لوس أنجلوس طوال كل هذه السنوات؟.

- لا لم أنس ولكنني كنت أظن أنك لن ترى غيري.

ويضحك وهو يضيف هذه الحقيقة:

- كنت أراك في وجوه الإناث اللواتي أقابلهن في الكلية وخارج الكلية.

- وماذا تعني بخارج الكلية؟

- أقصد في الكافتيريا والمطعم والشوارع التي أجوبها دائماً في طريقي إلى بيتي، حتى أولئك اللواتي يطللن علي من شاشة التلفزيون كنت أظنهن أنت فعيناك يا سلمى هي أجمل العيون.

- بدأت تكذب ولم تعد تستطيع أن تختار كلماتك بعناية لقد أمسكتك. فكيف تراني في وجوه النساء اللواتي تراهن إذا كانت عيناي أجمل من عيونهن؟

- لا أكتمك كنت أقارن بين هذا الوجه ووجوه الأخريات وعيونهن.

- وتخرج من المقارنة!

- بما يغنيني ويغنيك عن السؤال. أنت الأصل وهم من بعدك مجرد إطار لا يصلح للأصل أبداً.

- علمتك أمريكا أسلوب الغزل.

- علمني حرماني منك طوال كل هذه السنوات.

- ولماذا لم تقبل ما أشار به خالي «أبوك» إليك بأن تتزوج قبل أن تسافر؟

- كنت صغيراً على الحب وخفت أن يصبح حالي كأبي وأمي..

- وما هو حال خالتي؟

ـ حالها أنها وأبي دائماً على خلاف رغم مظاهر الحب التي تحيط بقلبها لأنها تزوجته وهي صغيرة فكانت غير قادرة على أن تعرف معنى أن تفصح عن حبها . .

ـ لا . . لا تقل هذا . قد تكون ظروف الحياة في أرضنا هي السبب فالناس هنا يتزوجون ليلدوا الأطفال ثم عندما يكبرون لا يتذكرون السبب الرئيسي لزواجهم لأنهم يكونون قد نسوا كل هذا في غمرة البحث عن الأسرة من خلال التقاليد التي تتوارث.

ـ أنت على حق يا سلمى . . لكن ثقي أنني لن أكون مثله . .

ـ مثل من؟

ـ مثل أبي الذي تزوج من سوريا ثم ترك زوجته هناك وعاد بأولاده منها إلى أمي لتضيف إلى أعباء تربيتنا تربية أخوي. صدقيني فأنا أحبهما . . ولولا حبي للكبير والصغير أيضاً لما رضيت أن أصطحبهما معي أثناء دراستي. نحن يا سلمى في هذه الأرض يأسرنا حب غامر نتوارثه رغم مظاهر «النرفزة» التي نراها تطل من بين عيون الوالد والوالدة لطول العشرة.

ترى . . . ماذا يعني الحال الذي هما فيه؟ هل يتزوج سلمان ويفعلها كما فعلها والده من قبل؟

لا وألف لا . . سيعود سلمان إلى أحضانها رغم كل الذي حدث ولكن ما هو هذا الذي حدث؟

صحيح أن ما حدث لا دخل لها فيه ولا دخل له هو فيه أيضاً لكنها إرادة الأم صنعت من مشكلة ابنتها وأخيها مشكلة لها ولسلمان ولكن!

كل أفراد العائلة يعرفون أخت سلمان وكيف هي قاسية ومتعالية . . وأخوها وزوجها يعرفان ذلك، وقد تحملها زوجها كثيراً من أجل أن لا تصل الحال إلى ما وصلت إليه . . لكن وبعد أن طفح الكيل جاء بها إلى بيت والديها علها تجد عند أمها ما يساهم لأن تعود إلى طبيعتها كزوجة.

وهي تأسف لأن أم سلمان لم تكن من ذلك النوع الفريد كأمها بين النسوة فعمدت إلى إشعال النار بينها وبين زوجها الذي تحب.

وها هي الآن في بيتها تنتظر عودة زوجها إليها.

لقد شعرت بحزنه وهو يحملها معه بسيارته إلى بيت أبويها رغم كل الحديث الذي حاولت فيه أن تلقي اللوم على زوجة أخيها «آمنة».

وعندما تركها لم يقل شيئاً.. ولكم كانت تود أن تقول شيئاً ما.. لكنها آثرت الصمت ومضت تفكر فلربما استطاعت الأيام أن تنهي هذه المشكلة..

وها هي الأيام تمر وهي هناك في بيته وهي هنا. لقد حاولت أن تصفي المشكلة بأن طلبت من أخيها أن يعيد زوجته إلى البيت وعندها ستنتهي المشكلة.. لكنه يرفض ويعتقد بأن سلمان لن يظل طويلاً بعيداً عنها ولكن ها هي تثبت لها بأن كلام أخيها كان مجرد كلام لأن سلمان لا يزال بعيداً عنها.

ترى... لماذا ننسى في غمرة المشاكل الطريق إلى حلها؟ وفكرت كثيراً ثم أمسكت بسماعة التلفون لتطلب سلمان زوجها وتقول له كلمات بسيطة:

ـ لماذا نذهب ضحية مشاكل غيرنا يا زوجي العزيز؟ قد أكون بالفعل قد أخطأت في حقك لكنني لم أقصد كل ذلك.

وأمن سلمان على كلامها وقال:

ـ لا عليك سآتي لأحملك إلى مكان آخر غير البيت الذي كنا نعيش فيه..

ـ سنبني عشنا بعيداً عن منغصات أحب الناس إلينا.. إنهم وإن كانوا يحبوننا فعلاً لكنهم لا يعرفون بأنهم بإساءتهم هذه إنما يسيئون لنا كثيراً كثيراً جداً.

وضحكت سلمى.. وقالت:

ـ لا تتأخر علي. فأنا جاهزة سأنتظر قدومك عند باب الحديقة ولن يعرف أحد بأنني سأنتظرك يا زوجي العزيز.

وفتحت عينيها لتجد نفسها على فراشها مذعورة. وأخذت تشكر الله على أن كل الذي كان لم يكن سوى مجرد حلم، حلم ثقيل.

وتقرع الطبول

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م
ط ٣ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

- رجل ولا كل الرجال
- ثريا
- ويطلُّ الماضي من جديد
- معالم الطريق
- الرحيل
- بائعة اللؤلؤ
- البدوية وعالم بلا ناس
- ومات أبي
- أصبحت أباً يا ولدي
- النظرة الخجلى
- أفضل زوج
- لقاء بلا موعد
- امرأة من الجموم
- بلا أسوار
- نادي الأطفال
- ضياع امرأة
- سميرة
- فتاة من بيروت
- سحابة صيف
- لعبة الكراسي الموسيقية
- وتقرع الطبول
- العاصفة
- هي أمي

رجل ولا كل الرجال

ويتسلل صوت المغنية ميادة إلى أذنيها، هي التي أصمت أذنيها عن أن تسمع شيئاً من ضوضاء هذه المدينة. فروما بآثارها الكثيرة المنتشرة في كل ركن من أركان الشوارع والحارات تضج بحركة دائمة. كانت تعبر الغرفة من خلال النافذة التي أشرعتها ليطل نور الشمس ولتستمتع بمرأى الحديقة الخلفية.

فندق جوليا في مكانه يربض أمام إحدى بوابات روما وكأنه يمد لسانه للآثار والتاريخ، لا انسجام في البناء بين القديم الموغل في القدم والجديد الجديد. لكن كل هذا لا يهمها، فهي قد جاءت إلى هذه المدينة كما تجيء في كل مرة مع زوجها تتبضع منها أجمل أزيائها وحليها ثم تعود إلى مربط فرسها هناك في جدة، تمارس حياتها في دعة وفي سكون في فيلتها الأنيقة بالحمراء.

أشجار الصنوبر العجوز تملأ خياشيمها برائحة عبقة عرفتها وهي طفلة يوم كانت في حلب تعيش، فأمها والمغنية من مدينة واحدة، يكاد من ينظر إلى وجهها يعتقد بأنها وإن لم تكن أختاً لميادة، إلا أن أمها من مدينة حلب.

وتطفر الدمعة من عينيها. فها هي جميلة الجميلات، هكذا كانوا يقولون عنها، تعيش حياتها في حيرة، لا تدري من أمرها شيئاً. حتى أمها يوم جاءت لزيارتها قالت لها كلمة واحدة:

ـ أنت السبب، فهذه هي رغبتك.

وهي تعرف أنها لم تكن يوم وافقت على الزواج مخطئة.

ذاكرة التاريخ قد تكبر لكنها لا تشيخ. تلك هي حقيقة لا يمكن

أن تنكرها، وهي تؤمن بأن لكل فعل رد فعل، قد يكون أضخم أو أقل؛ تلك هي سنة الحياة، تجعلها تعود بالذاكرة إلى أيام الدراسة يوم كانت تعيش في بيروت وهي تحب بيروت؛ تحبها كثيراً ومن كل قلبها.

في الجامعة الأمريكية تلقت دراستها، وتكونت شخصيتها لدرجة كانت تشعر بالحرمان عندما يأتي الصيف وتعود إلى جدة: مسقط رأسها؛ ومرتع شقاوتها الصبيانية.

تتغير المدن، فلكل مدينة وجه. فالمدن، بوجوهها المختلفة، أشبه بالمرأة بعضها يحتاج إلى الأصباغ ومواد التجميل وبعضها تكفيها إطلالة فجر وإشراقة ضحى.

بيروت التي احترق جلدها حتى العظم هي مدينتها التي عايشت انفتاح صباها على الحياة. في مطعم فيصل كانت تلتقي بأكثر من تحب من أولئك اللواتي سبقنها في التجربة. هذا المطعم الطلابي الصغير ليس مكاناً يأكل فيه الشباب، هو شيء آخر يمنح أبناء الجامعة الكثير من الراحة؛ وما أشد حاجة طلاب وطالبات الجامعة الأمريكية إلى الراحة.

المدينة كبيرة، تلتهم الناس وهي تعرف عن بيروت هذه القدرة في مضغ الأجساد الطرية تصنع منها مادة تقتات عليها في الليالي عندما يهدأ كل شيء في الليل؛ ويصبح الإنسان أسير عاداته.

وهي دائماً قادرة على صنع ما تريد، تختار أسلوبها في الهروب عما لا ترغب بشيء من التعالي، فلم تنخرط ضمن شلل البنات في رحلات الليل في نهاية الأسبوع.

أكثر ما كان يلهب خيالها أن تذهب على قدميها من رأس بيروت إلى الحمراء، تفتش في نوافذ دور السينما عن أفلام جديدة؛ فهي عاشقة لعلم النفس، تجري وراء كل ما تدفع به هوليود إلى هذا الشباب الحائر من أفلام تقول عنها بأنها لشرائح من هذا المجتمع.

ويوم دخلت مبنى جريدة النهار خيل إليها أنها في دوامة. كل شيء في هذا المبنى يجعلها حائرة، فهي تقرأ الجريدة، وتطالع صور الكتاب، ويهمها أن ترى واحدة من أولئك اللواتي أحبت حروفهن.

لكن واحدة منهن لم تطل عليها، فغادرت المبنى إلى مقهى الهورس شو. هناك وجدت ضالتها عند واحدة ممن قرأت لهن وأعجبت بهن. كانت تظن أن من يجيد الكتابة إنسان يغاير صنوف البشر، ولهذا أحبت غادة السمان؛ وحنان الشيخ، وفاطمة ناعورة، وغيرهن كثيرات. لكن من ملكت عليها لبها واستطاعت أن تدخل إلى قلبها: فهي "إنني من نوع جديد"، تلك التي التقتها فجأة وتحدثت إليها طويلاً وهي تضحك كثيراً لآراء هذه الصحفية التي يغاير حديثها كل ما تكتبه.

عرفت منها بأن حياة المرأة في هذه المدينة تصطدم دائماً بأشياء كثيرة؛ في قمتها أنهم، وتعني الرجال، ينظرون حتى لتلك التي تلقت تعليماً عالياً على أنها دمية.

ولقد قالت لها يوماً:

ـ صدقيني قد أعامل الرجل بنفس أسلوبه، وقد أشتط أحياناً فأحس بأنني أقدر على ترويضه لأنني امرأة، ولهذا أجد في نفسي القدرة على أن أمسك بناصية الأمر للتسلية في الوقت الذي أبحث فيه من خلال هذا الذي أمارسه عن زوج، زوج يدرك حاجتي لأن أنال من هذه الدنيا ما أصبو، وهذا لن يتحقق إذا اقترنت بواحد ممن هم في سني، فأنا إنسانة لا أريد أن أعيش عصر التجربة في حياة قصيرة يجب أن أصل فيها إلى ما أريد.

ولقد قالت لها يومها:

ـ أو تعنين أنك تريدين الزواج بمن يكبرك، وفي مقدوره أن يوظف ثروته من أجلك؟

ـ هذا ما عنيت، فحرام أن يضيع شبابنا وراء هذه المكاتب. إن الحرية التي يدّعون بأنها ضرورة للمرأة قد تكون شيئاً رائعاً لولا أنهم من خلال ما يقولون يحاولون أن ينالوا نصيبهم من هذه الحرية.

الرجل، يا بنتي، هو الرجل وعلينا أن نقلم أظفاره وننظف جيوبه أولاً بأول.

أنت يا صديقتي جميلة ومن الخير لك أن لا تضيعي سنوات عمرك بين

جدران منزل يريد صاحبه أن يصنع منه شيئاً بعد سنوات. عليك بالرجل الذي استطاع أن يبني نفسه حتى وإن كان فارق العمر بينك وبينه كبيراً فهو أقدر على أن يمنحك الحياة والجواهر والراحة والاستقرار.

وتتخرج نورا من الجامعة. شهادتها التي تحملها قد تؤهلها للعمل، لكنه عمل بعيد عن طبيعتها كأنثى، وإلا كيف تستطيع أن تعمل هي التي عاشت كل سنواتها بين جدة وبيروت ودمشق وحلب، في المناطق النائية؟

مشكلة عندما لا تختار الأنثى دراستها بشكل يعطيها القدرة على أن تستفيد من كل هذا الذي تعلمته. مهندسة بترول. يضحك الرجال على عقولنا نحن النساء فيفتحون لنا أبواب الجامعة لننتقي من أنواع العلوم ما نريد، وكان الأجدر بهم أن يقفوا أمامنا عندما نختار من هذه الدراسات من لا يصلح لها إلا الرجال.

وتعود إلى جدة لتبقى مع أمها حتى إذا ما قدّر لوالدها وأسرتها أن يتركوا جدة إلى لندن، كانت تظن بأنها ستعيش في هذه المدينة بشكل أفضل. انتقلت من البيت الواسع الرحب إلى شقة صغيرة أنيقة، وأصبح لا همّ لها إلا أن ترعى صحة أبيها الذي أراد أن يظل على مقربة من طبيبه الخاص فمرض القلب مشكلة تجعل المريض دائب التفكير في أمر الغد دائماً.

وهي تذكر اليوم الذي التقت فيه بزوجها الذي التقطته بسرعة بعد أن عرفت كل شيء عنه، عرفت أنه صاحب أموال طائلة، اجتاز الحلقة الرابعة بسنوات، أمضى سنوات حياته في جمع المال حتى إذا ما تهيأت له أسباب الحصول عليه بوفرة، فكر بأن يتزوج وتعرف أيضاً بأن ابن خالها الذي يعمل في شركته هو وراء هذه الصفقة إذ قدم صورتها إلى صاحب الشركة الذي أحس بنبضات قلبه تدق بعد أن رآها.

لقد قالت لها أمها كل شيء، وقالت لها إنها هي التي ستتزوج، وإن كانت أمها لا ترفض لها هذا الزواج الذي أراده لها أبوها.

لكنها لم ترفض. فلا زالت ذاكرتها تختزن كلمات تلك التي قرأت لها الكثير ورأتها لدقائق حتى إذا ما تم الزفاف قدم لها زوجها قصراً صغيراً في هامستيد الضاحية اللندنية تسكن فيه بدلاً من الشقة الصغيرة.

ويعود صوت المغنية يردد في هدوء الغرفة "كانت أيام".

وتتنهد، فعلاً كانت أيام ولكنها مضت.. مرت هكذا بلا لون ولا طعم.

كانت في البداية شيئاً جديداً أحست بطعمه الرائق في فمها؛ لكنها، وبعد أن عايشت كل مظاهر البذخ والغنى، لم تعد تحس بأي معنى لما تمارسه. لقد تكشف لها زيف النظرية التي تقبلتها في خضوع وبرغبة، وبدأت تحس بأنها ظلمت نفسها عندما وافقت أن تعيش مع رجل يكبرها بأكثر من عشرين عاماً لمجرد أنه قادر على الإنفاق وغني.

وامتدت يدها لتقفل جهاز الراديو وهي تفكر. فها هي اليوم هنا في روما المدينة التي تحبها وزوجها في ميلانو. لقد غادر الفندق صباحاً من أجل صفقة على أن يعود في الغد.

وهي بمفردها، في هذه الغرفة، تفكر في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل، ولا تدري ماذا تصنع فقد طفح الكيل ولم يعد في مقدورها أن تستمر في حياتها بجانب هذا الرجل.

ولكنها هي التي اختارته، اختارته عن تصميم وعزم وإرادة؛ وعندما تحقق كل شيء لها بدأت تحس بأنها أخطأت الطريق للوصول إلى أهدافها.

ربما كان زوجها هو الإنسان الذي منحها كل شيء، أشاع في حياتها الهدوء وأعطاها الصفاء، وصنع لها كل هذا الذي تراه من عز ومجد ومال، وكل شيء، ومع هذا فهي لا تدري ماذا تصنع.

ومضت تفكر وتفكر وتفكر في السنوات التي مرت.

ترى لو كانت قد اقترنت بواحد من زملائها، هل ستكون حياتها أفضل مما هي عليه الآن؟ لا تدري ولا تريد أن تدري، يكفيها أنها تعيش حياتها كما أرادت، ويكفيها أنها استطاعت أن تعيش معه أجمل ساعات حياتها، رغم فارق السن بينها وبينه.. ولكن!

كثيراً ما تتوه الأقدام وهي في الطريق الصحيح لكنها، مع كل هذا التوهان، تظل قادرة على معرفة ما يجب أن تصنعه.

وهي امرأة. ولكنها، وعلى الرغم من إحساسات الفراغ الذي تمارسه، فقد

أصبح من حقها وحق زوجها أن تنجب وأن يكون لها أولاد يستطيعون أن يملؤوا الفراغ الذي تعيشه فلا تعود تفكر في أي شيء آخر سوى كيف تبني وتصنع هذه الأسرة التي اختارت عميدها عن عقل وعن حب هذه المرة، فلقد أحست بأنها تحب زوجها ومن كل قلبها بعد كل هذا التفكير.

ومضت إلى التلفون تدير قرصه ليأتي صوت زوجها هذه المرة وكله حيوية وشباب رغم فارق السن أيضاً.

وأحست بشيء من الراحة تتسلل إلى عروقها هي التي عاشت طويلاً تفكر في أمر حياتها التي مضت وتشجب أسلوبها.

صحيح أنها هي التي اختارت زوجها وبحرية، ثم أحست بالإحباط من هذا الزواج بعد فترة لكنها تحس الآن وبعد أن وصلت إلى هذه السن بأنها ليست مخطئة.

فالحب قد يأتي بعد سنوات طويلة من الزواج.

وهي تحب زوجها الذي يكبرها بسنوات كثيرة، الحب كل الحب، لأنه رجل ولكنه ليس ككل الرجال.

ثريا

أرفض أن أكون جارية أو مجرد متاع يستطيع أن يقتنيه الرجل في أي وقت وبأية صورة، وأصر على أن يكون لي الخيار في اختيار رفيق العمر وشريك الحياة، فالحياة لا يمكن أن تصبح رائعة إذا أجبرنا على أن نعيش مع من لا نحبهم.

لا جديد في حياتي. الأيام تسير على وتيرة واحدة، فأنا فتاة في عمر الزهور أضحك من كل قلبي لهذا الوصف، لكنني كأية امرأة أستخدمه في أكثر الأحيان.

مسكينة الزهرة تشيخ بسرعة وتموت بسرعة، ولكنها في حياتها القصيرة تملأ أرجاء الدنيا بعبيرها الشذي. وجهي يميل إلى البياض، وعيناي يقولون عنهما بأنهما "عيون جميلة"، أشعر بالحرج عندما تتحدث صديقاتي عن شعري الطويل. حاولت أكثر من مرة أن أقصه، لكن أبي يرفض، يقول لي دائماً:

ـ زينة المرأة وجمالها في شعرها.

وأرد عليه في هدوء طبعاً:

ـ بل في عقلها يا أبي.

أبي يضحك ويقول بأنني "لمضة" كأمي التي أحبها. على فكرة، أمي ماتت بعد أن تعسرت ولادتها عندما وصل سني الثامنة.

الأطباء نصحوا أمي بأن لا تحمل. فعلى الرغم من أن ولادتي كانت ولادة متعسرة استخدم الجراح مبضعه لإخراجي إلى النور، إلا أن أمي رفضت هذا الكلام ومضت إلى بارئها أثناء ولادة أخي. أخي

صورة طبق الأصل من أمي. أما أنا، ففي ملامحي شيء من ملامح أبي وأمي مجتمعين.

الأطفال يحبون اللعب بالدمى، يجمعونها حواليهم ليسعدوا بوفرتها في غرفهم، أما أنا، فقد كنت أضيق بكل هذه العرائس التي جلبها لي أبي.

لم أكن أحب اللعب بها بمقدار ما أحبها عندما أراها ترمقني من دواليب الخزانة التي اخترتها لألعابي.

عمتي امرأة مدهشة، رغم جمالها وحيويتها إلا أنها لم تتزوج، عندما كبرت قالت: إنها لم تهن عليها نفسها لأن تمنحها لإنسان.

ضحكت يومها وأنا في العاشرة، وقلت لها:

ـ ولكنني سأتزوج والذي سأتزوجه يجب أن يكون شبيهاً بوالدي.

عمتي تضحك من كلماتي وتقول:

ـ عندما تكبرين ستعرفين معنى كل كلمة تقولينها.

صديقاتي في المدرسة يحببن دائماً قضاء عطلة آخر الأسبوع في بيتنا. نسيت أن أقول إن بيتنا كبير، وحديقته ملأى بأشجار الفاكهة، أشجار اللوز كانت دائماً محل نشاط صديقاتي، حتى حماما السباحة الصغير والكبير معاً كانا يمتلآن بالصغيرات.

أمهات الصغيرات يجعلنني أحس بحاجتي لأم، وعندما أرى عمتي أمامي، أحاول أن أسكت عقلي، ثم أتركه ينفك من عقاله كل ليلة.

أبي رجل طيب، ترك الأمور تجري في بيته على ما هي، لم يغير عاداته. لا يدخل غرفته ليلاً حتى يمر بغرفتي وغرفة أخي، ولا يخرج صباحاً قبل أن يرانا وقد توجه كل واحد منا إلى مدرسته.

حاولت عمتي إغراء أبي على الزواج فرفض. وضعت واحدة من أعز صديقاتها في طريقه، لكنه كان يتحاشى حتى مجرد الحديث معها. شعرت بكل ذلك وأنا صغيرة.

مرة قلت لعمتي ببراءة:

ـ ألا تخافين أن تحتل من تتزوج أبي مكان أمي ومكانك يا عمتي؟

وجه عمتي تلون بألوان كثيرة من الصفرة إلى الاحمرار. تلعثمت وهي تحاول أن تتحدث إلي، ضحكت وتركتها في الغرفة مع خجلها.

أبي يحب أن يتحدث معي كثيراً، يسألني دائماً عما أريد، وأحتاج وأرغب.

أخي سافر إلى أمريكا، أدخله أبي الجامعة التي درس فيها. أبي خريج جامعة بوسطن وأخي يكتب إلينا كثيراً عن هذه المدينة الباردة جداً.

عميد الكلية صديق لأبي، كان أستاذاً له عندما كان يدرس القانون فيها. ولأبي حسبما عرفت، صداقات مع زوجة أستاذه وابنتها ليندا. في إحدى المرات وأنا أطالع ألبومات الصور، وجدت أبي في إحدى الصور وإلى جانبه فتاة شقراء جميلة. سألته عنها، فقال إنها ليندا ابنة أستاذه الدكتور رووا.

ليندا كأمها وأبيها، تجري في عروقها الدماء الألمانية. ومع هذا، فهي الوحيدة التي رأيتها في أمريكا تقدر هتلر وتتمنى لو أنه نجح في إبادة كل اليهود.

نسيت أن أقول لكم: إن الدكتور رووا وزوجته وليندا جاؤوا لزيارة جدة، واحتفل أبي بوجودهم في المدينة بإقامة عشاء رائع أسميته عشاء راقصاً لأن ليندا عزفت لنا آخر أغاني "ديانا روس" المطربة الأمريكية المعروفة.

أبي يحب الأغاني الأمريكية، وأنا أميل إلى سماع الأغاني الإسبانية. دراستي للغة الإسبانية باءت بالفشل، لأنني بعد كل عودة من ماربيا، أنسى ما حفظت من كلمات ولا أتذكر إلا معاني كلمات الأغاني.

زرت أكثر مدن العالم، وأستطيع أن أؤكد أن مدينة باريس هي المدينة المحببة إِليَّ ففيها أستطيع أن أقضي الساعات في دراسة التاريخ. هذه المدينة العجيبة، تؤرقني قدرة أبنائها على العلم والانطلاق في آن واحد.

صديقتي مارسيل الفرنسية التي عملت في مكتب أبي في باريس تقول:

ـ إن وجوه الناس في الجنوب الفرنسي تشبه كثيراً وجوه العرب.

وتعزو ذلك إلى أن العرب استطاعوا أن يضعوا بصماتهم على كثير من بلدان أوروبا.

مارسيل هذه زوجة لشاب مغربي، وهي تدرك أن حياتها مع غريب قد تكون غير مقبولة من أسرتها، لكنها تفضل أن تعيش في كنف زوج، بدلاً من أن تعيش بمفردها في غرفة.

مارسيل تجيد اللغة العربية بلهجة مغربية، فأسرتها عاشت سنوات حياتها في الرباط وهي مولودة في هذه المدينة.

قالت إنها لا تعجبها ما تصنعه الفتيات المغربيات في أن يكن أوروبيات بالمظهر، وترى أن في اندفاع الكثيرات لاختيار الحرية التي يقولون عنها طريقاً وأسلوباً، ما يؤثر على سلوك المرأة العربية التي تحب أن تراها وهي تعيش في كنف الأسرة، بعيداً عن منغصات الحياة.

كثيراً ما قالت لي مارسيل:

ـ لماذا لا يتزوج أبوك يا ثريا؟

وكنت في كل مرة أحاول أن أفهمها معنى الوفاء بمفهوم أبي لزوجته التي رحلت، فلا تقبل هذا الكلام الذي أقوله، وتعزو الأمر إلى أنني إنسانة أنانية أرفض أن يتزوج أبي.

قالت لي مرة وهي تضحك:

ـ لو لم أكن متزوجة لخطبت أباك منك يا عزيزتي.

أكثر صديقاتي يعجبهن أبي، فهذه ليست المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام. حتى "سهى"، أعز صديقاتي في جدة، قالت لي هذا الكلام أيضاً.

ثقافتي واسعة، فأنا أجيد الإنجليزية والفرنسية، وأعزف على الأورج والقيثار والبيانو. لم أتخرج في جامعة وإن كنت اقرأ جميع ما يصدر عن الأدب الفرنسي والإنجليزي.

وقد تحدثت لعمّتي عن أسباب عزوفها عن الزواج، فكانت إجابتها لي كسابقتها، لكنني لم أقتنع. وعندما أصررت قالت:

ـ صدقيني هناك أكثر من واحد كان يصلح أن يكون لي زوجاً، لكنني وأنا المدللة عند أبي وأخي، لم أرد أن أقترن بأي واحد منهم. إن لي وفي ذهني مواصفات محددة لشريك العمر قد يتوفر بعضها في بعضهم وقد لا يتوفر،

ولهذا رفضتهم جميعاً. وبعد أن غذت بي المسير سنوات العمر، رأيت أنني لن أصلح للزواج فبقيت على ما ترين.

ولقد قالت لي وهي ضاحكة:

ـ المرأة يا بنيتي تكبر في سنوات عمرها دائماً قبل الرجل.

وعندما قلت لها إنني لا أفهم ما تعنيه، قالت بحرقة:

ـ أترين الحظ يطرق باب إحدانا مرة وثانية وثالثة؟ قد لا يكون حظنا على ذلك المقدار الذي نريده، لكن على الفتاة يا بنيتي أن لا تضيّع الفرصة. إن العرسان في أي مكان في هذه الدنيا يتنسمون أخبار العرائس، يعرفون ما تقوله هذه وما تؤكده تلك، وكأنهم مع بعض على موعد، وأنت الآن في سن الزواج وأراك تسيرين على منوالي، لكنني أنصحك ألّا تفعلي مثلي، فلقد أضعت عمري برفضي كل أولئك الذين طرقوا بابي.

ـ ولكن يا عمتي قد تكون مواصفات من خطبني ليست على الشكل الذي أريده.

ـ ومن منا يستطيع أن ينال ما يريده في هذه الدنيا؟

ـ الزواج يا ابنتي أمل المرأة ونهاية مطافها في هذه الحياة وهي تسعى للحاق بركبه حتى لا يقول عنها الناس إنها عانس.

ـ وما معنى كلمة عانس يا عمتي؟

ـ المرأة التي هي في سني ولم تتزوج بعد. نحن الحرائر في هذا المجتمع أو أي مجتمع أسرى ننتظر فارس الأحلام الذي يأتي، وقد يأتي على شيء مما نريده وقد لا يأتي. وأنت فاتنة تملكين كل شيء: الجاه والمال والجمال والعلم والثقافة.

فكري كثيراً في كلامي ولا تصنعي بنفسك ما صنعت بي الأيام.

وصمتت.أحسست بأنها في تلك اللحظة تحمل من الهموم ما ينوء به رأسها الجميل، فعمتي، رغم سنوات عمرها، لا تزال جميلة وفاتنة. وارتعبت لنظرتها التي أطلت من بين عينيها لهذا الحد، وقلت لنفسي: تظل المرأة أسيرة الرجل حتى وإن لم تتزوج منه؟

ولقد ماتت عمتي، ماتت في سن مبكرة. وصحوت على تسلل الشيب إلى مفرقي. كان أبي يطالع وجهي ويقول:

ـ متى أشعر بالراحة يا ثريا؟

كان يهمس بكلماته تلك، ويظن أنني لا أسمعها. لكنني كنت أسمعها دائماً تصب في أذني، فيأخذني الدوار وكأنني أصر على موقفي:

ـ لن أتزوج حتى أقتنع بالزوج الذي يريدني.

ومضيت أستعيد صور كل الخطاب الذين مروا بيتنا وطرقوا بابي. وخرجت من تلك التصفية لكل أولئك الذين طرقوا بابي والذين كانوا من الكثرة بمكان، وشعرت أنني فعلاً أخطأت في حق ثلاثة منهم على الأقل، وعندها شعرت أنني فعلاً قد كبرت وأصبحت عانساً، كعمتي التي ماتت.

وانصرفت كعادتي لترتيب أمور أبي وكل من حولي من صديقات قد تزوجن وأنجبن، وبقيت وحدي كالنحلة أدور في فراغ ويملأ قلبي الفراغ، ولا شيء سوى هذا الفراغ القاتل الذي أخذت أسميه أخيراً "دلع البنات". فلولا هذا الدلع لتزوجت عمتي وتزوجت أنا!

مسكينة المرأة: تعيش على أمل، وتموت بلا أمل.

وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير، قررت ألا أترك أول طارق يأتي إلى بيتنا، بل أحاول أن أتمسك به إذا كان فيه شيء مما أرغب فيه، وستستغربون عندما أقول لكم عن اسم هذا الطارق، فقد كان "رضا" وهو أول خاطب رفضته، وقد تزوج وأنجب وماتت زوجته فعاد مرة ثانية يدق بابي.

أتدرون ماذا فعلت؟ رحبت به وبأهله. وهأنذا، وقد اجتزت مرحلة العنوسة، أحس بشيء من الراحة. لأنني، وإن كنت قد تزوجت مؤخراً من الطارق الأول ولكن بعد فوات الأوان،إلا أنني سعيدة، وسعيدة جداً، فالإنسان لا يمكن أن يأخذ أكثر من نصيبه.

ويطلُّ الماضي من جديد

هذه المرأة تخيفني، أكاد أحس بها وهي تحاول أن تقرأ ما يدور في خلدي تجاهها وتجاه الآخرين. في وجهها بشاعة مقيتة، وفي جسدها إحساس الأنثى بآلام الحرمان من السعادة، وفي نظرتها الحادة شقاء نساء العالم كلهن. وجهها لا يعرف البسمة، وصوتها يخرج من أنفها في تعال وكبرياء جوفاء المظهر والمخبر. أمية لا تقرأ ولا تكتب، لكنها مع كل هذا تحب السيطرة.

كل من في البيت يخافون سلاطة لسانها وهي امرأة ذات أنياب ومخالب لم أرها على حقيقتها إلا بعد أن وقع الفأس في الرأس وأصبحت امرأة لابنها الذي تحب.

هي أم "الدزينة" من العيال، كلهم تزوج ثم طفش، ولا تضحكوا مني على هذه الكلمة. لكنها الحقيقة جاءت على لسان ابنتها سلمى الصغيرة التي أحببتها من كل قلبي.

قالت لي وفي أول يوم بعد أن تم قراني على أخيها:

ـ أنت جميلة يا أبلة، وأمي تكره الجميلات.

قلت لها:

ـ لماذا تقولين هذا الكلام عن أمك؟

قالت:

ـ لأنها الحقيقة، فكل زوجات أخوتي كن جميلات ولهذا أحالت أمي حياتهن إلى عذاب فما كان من أزواجهن إلا أن طلبوا الفكاك من الأسر وغادروا بيت الأسرة إلى بيوت صغيرة.

أود أن أصف حماتي بشكل أوضح لكنني غير قادرة، لا لأنني خائفة، وإنما لأنني أعجز من أن أستطيع أن أصف مسخاً.

لا تستغربوا، فحماتي لم تكن كذلك. لكنها، وبعد أن احترق وجهها وجسدها وهي مع زوجها في رحلة بالسيارة من مكة المكرمة إلى جدة ومات نتيجة التصادم زوجها الذي كان يقود السيارة وأصبح عليها أن تظل أكثر من عامين في مستشفى من مستشفيات مصر، عادت بعدها وهي على ما رأيتها عليه.

لو كنت أعرفها أو حتى رأيتها لرفضت الاقتران بابنها لكنها، لحظي التعس، لم تأت لحظتها لأنها كانت في المستشفى يوم جاء أهل عزيز لخطبتي.

مسكينة حماتي امتلأ قلبها بالحقد منذ ذلك اليوم الذي فقدت فيه جمالها وأنوثتها وأصبحت على ما هي عليه. أعرف كثيرات من صديقات تزوجن وحلت عليهن لعنة الحماة، وعشن سنوات حياتهن في جحيم المرأة عندما يزرع الحقد في قلبها الشر كل الشر، وكأنها تريد أن تقتص لحياتها من هذه التي يسمونها زوجة ابنها. غريب أمر هذه المرأة. كان الأجدر بها أن لا تكون على ما هي عليه لو كانت تفهم معنى أن يمنح الإنسان أخاه الإنسان الحب، هذا الحب الذي أفتقده كما تفتقده الكثيرات ممن رزئن بحموات مثل حماتي.

لم تستطع حماتي أن تنتصر على نفسها ففقدت قدرتها على أن تعيش كما كانت يوم تزوجت حماي. كانت تظن أنها قد أمسكت بكل شيء في يدها حتى إذا ما سيقت إلى بيت الزوجية، تكشف أمامها كل شيء، وعرفت معنى أن تتزوج المرأة فالزواج ليس تملكاً أو مجرد تسلط تأخذ المرأة فيه برقبة زوجها.

في القديم كانوا يقولون للمرأة التي تتزوج إنهم استطاعوا الحصول على امرأة تساهم في أعمال البيت تكفي حماتها شرور أعمال البيت ونظافة ملابس الأسرة التي تعيش معها.

هكذا كانت تعيش المرأة في بيت زوجها خادمة للجميع، حتى إذا ما تغيرت الأحوال وأصبح مكان الزوجة غير ذلك المكان الأول أخذت الحموات يمارسن أسلوباً جديداً يستطعن عن طريقه تطفيش الزوجات لأنهن لا يزلن يعشن بعقول الماضي بإحساسات المرأة التي لم يدخل إلى عقلها النور ولكن..

ربما تغيرت نظرات الحموات في مجتمعاتنا بعد أن دخل النور إلى بيوتهن بعد الظلمة إلا حماتي. فأنا لا أزال أخاف من هذه المرأة. لا أرضى لها أن تموت لا لأنني أحبها أو أكرهها وإنما لأنني لا أحب أن أرى الموت يطبق على أي إنسان وإن كان الموت هو الحقيقة الوحيدة.

زوجي يحب أمه، وأنا أحترم هذا الحب، هو يعرف ما تريد هذه المرأة، ويعمل على مقاومة الشر في نفسها حتى إذا ما استطاع أن يصل إلى عقلها تنفس الصعداء لأنه نجح.

الذين يحبون يستطيعون أن ينقلوا حبهم إلى قلوب الآخرين، وزوجي بعد أن شاهد ما شاهد وعرف ما عرف ورأى ما رأى حاول فنجح، فكانت البداية.

يوم جاءت ابنتي إلى الحياة كان يوم عيد. تغيرت نظرات هذه المرأة لي، وتغيرت نظرتي إليها وأحسست بأن اشمئزازي من رؤية وجهها أصبح غير موجود وأحببت أن أراها دائماً بجانبي وشعرت بأنني قد كسبت موقعي في قلبها حتى إنها أصبحت تمنحني بيديها وبعينيها الحنان. ذهب الخوف من قلبي، وضاع الحقد من قلبها وتلاقينا. ساعة تلاقينا، عز علي وعليها أن نفترق.

لكن هناك شيء هام ومثير يحيرني، فحماتي ترفض أن يراها غريب.

سألتها يوماً عن السبب فلم تجب، وعندما كررت عليها السؤال ثارت وأحسست أنها ستعود إلى سابق عهدها فآثرت السلام فصمت. ولقد حاولت أن أعرف السبب من أمي، فقد خيل لي أنها ورغم أنني لم أر حماتي عندما خطبت لابنها تعرف كل شيء عنها، إلا أن أمي لاذت هي الأخرى بالصمت.

وعندما طلبت منها ذلك بإلحاح قالت:

ـ أولا ترين كيف فعل الحريق بوجهها بقسوته؟ إنها تخاف من نظرة الاشمئزاز توجه إليها أكثر من أية نظرة أخرى.

عندما تزوجنا بقيت أمي ساعات مع حماتي في حديث طويل. شعرت من خلال الألفة التي تجمعهما أنهما صديقتان منذ زمن، فعاودت الكرة وسألت أمي، فقالت:

ـ سأقول لك السر، وعليك أن تحفظيه.

وعندما وعدتها بتحقيق رغبتها قالت:

ـ كنت فعلاً أنا وهي أكثر من صديقتين لا بل جارتين. وكنا ككل فتيات ذلك العهد نهرب دائماً من وجوه الناس الذين يزوروننا لأننا كنا نخاف أن يخطبونا، وكنت أنا وهي وكل البنات نستمرئ هذه اللعبة. فقد كان الزواج في زماننا شيئاً يغاير ما يجري الآن؛ إذا قلت عنه بأنه زواج بالتبعية لأن الفتاة منّا كانت تخطب لمجرد معرفة الناس لأمها وجمالها وأخلاقها. ولا أكتمك، فقد كانت صديقتي تتمنى أن تتزوج أباك فقد كنا نراه وهو يسير في الطريق من نوافذنا الخشبية فنعجب بشبابه وجماله.

لكن أمه اختارتني، وعندما تحدثت إلى صديقتي لم تجبني لفترة ثم باركت لي. ومنذ ذلك التاريخ، لم أرها حتى عرفت أنها تزوجت وتركت حارتنا.

أما يوم جاءت خالة زوجك لخطبتك فقد عرفت بعد أن أعطى أبوك كلمته أنها أمه، فحاولت الرفض لكنها رجتني عن طريق أختها بأن أقبل وعندما أحست بأنني مصممة على الرفض، جاءتني بنفسها وأقنعتني ورجتني أن لا أتحدث لك عن ظروفنا السابقة.

ويوم عرفت أنها تضطهدك جئت على مضض وتحدثت إليها حديثاً طويلاً فأشعرتني بأنها تحبك وإن كانت لا تعرف كيف تفهمك حبها لأن شكلها ووجهها لا يوحيان بهذا الحب وطلبت مني أن أترك الأمر لتعالجه هي بأسلوبها.

ولقد استطاعت صديقتي أن تحقق وعدها، ولهذا تجديننا عندما آتي إليها أمضي معها الساعات أتحدث معها عن أيام الشباب والصبا. لكم كانت جميلة حماتك هذه قبل أن يصيبها ما أصابها.

وفتحت فمي في بلاهة، فلأول مرة أسمع عن حماتي هذا الوصف الذي قالته أمي. سمعته وخلت نفسي بأنني قد ظلمت هذه المرأة رغم كل ما فعلت بي. لكن شيئاً واحداً جعلني أشك في كل ما قالته أمي لأنني عندما سألت أبي عن سكان الحارة التي كانت تقطنها أسرته وأسرة أمي لم يذكر لي شيئاً عن حماتي، حتى إذا ما بدأت أحاور وأداور قال لي:

ـ دعي التفكير في كل ما تقوله أمك، فأمك تظن دائماً بأنني كنت قبلة

أنظار الفتيات في عصر لا يمكن للشاب أن يرى فيه فتاة.

وضحك، ونسينا الموضوع وشعرت أننا نعيش أجمل أيام حياتنا في بيت الزوجية حتى إذا ما كبرت ابنتي وعرفت بأن هذه المرأة هي أم والدها، خافت وصارت تهرب من طريقها لدرجة جعلت حماتي تعاود الكرة وتعود إلى سابق عهدها، امرأة قاسية وكريهة وظالمة أيضاً، أهابها، وأخاف أن أنظر إلى وجهها.

وعاد الماضي يطل من جديد في صورة أقسى وأشد، وعاد خوفي هذه المرة بشكل أقسى وأعنف. وبدأت المرأة وكذلك ابنتي تتبادلان الكراهية والخوف. فهي الطفلة الرقيقة التي لا تعرف معنى الكراهية وإن كانت تعرف معاني الخوف، الخوف الذي يغلق قلب الإنسان دائماً لدرجة قد يصيبه بالشلل فابنتي تخاف وأنا كذلك.

وبدأت أحس بأنني لا أخاف فقط من هذه المرأة كامرأة وإنما أخاف منها على نفسي، وأخذت أفكر فيما لو حصل لي ما جرى لها عندما أصبح أنا الأخرى حماة ومن يدري ماذا ستقول عني امرأة ابني عندما أكبر؟

وأحسست بالراحة عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير، وعرفت بأن واجبي الأول والأخير أن أعيد الحب إلى قلب ابنتي، وأن أطهر قلبها أيضاً من الخوف، فلربما عدنا إلى أيام الراحة والهناء التي عرفت وأحسست بأنني سأكون حماة وحماة لطيفة بلا شك.

معالم الطريق

عندما تضل الأقدام الشابة معالم الطريق على الأرض الرخوة، تحاول من جانبها استعادة صلابة الأرض في قوة وعناد وكأنها في صراع مع الحياة بأسلوبها الشاب المتوثب المتأصل الجذور، ينبع كل ذلك من إحساسها العميق بأصالة ما توارثته منذ الصغر يوم كانت تشب عن الطوق على أرض صلبة قادرة متمكنة زادها إيمانها بحلاوة الحياة وطراوتها وجمالها من خلال المثل والمبادئ والقيم التي رضعتها حتى الثمالة.

وهو من ذلك النوع الذي عايش القرية والمدينة، وفي كل منهما عرف مثلها وعاداتها وتقاليدها، وتعرف على واقع أهله فيها وأسلوب حياتهم ومعايشتهم، فقسوة الحياة في قريته أودعت قلبه قوته ومنحته القدرة على تحمل أعباء الصدق والصراحة. وهو يذكر معالم القرية في أعماق نفسه، ويحس بأنها لا تزال محفورة في تلافيف مخه الذي أصبح اليوم شيئاً جديداً مغايراً لما كان عليه بالأمس القريب والبعيد معاً.

ففي وادي الصفراء على مقربة من المدينة المنورة ولد، وعلى أرض تلك القرية الوادعة عاش، وفي ظل نخيلها الوارف لعب وتعب وكد وعمل، وفي مدرستها الصغيرة بدأ رحلته مع العمل.

ولا ينسى كيف كان يمضي إلى المدرسة مع أترابه بينما أسراب السيارات الكبيرة وقد امتلأت عن آخرها بجموع كبيرة من مختلف الجنسيات جاءت بعد أداء الفريضة لزيارة المسجد النبوي.

ويذكر، أيضاً، دكان والده وقد امتلأت بأنواع كثيرة من الحبال

والحبوب ومختلف أنواع العطارة التي يحتاجها أبناء تلك القرية الوادعة.

ويعرف كل فرد من أبناء تلك القرية، يشاركهم أفراحهم وأحزانهم كما يشارك الأخ أخاه، فقد جبل سكان تلك القرية على الإخاء والمحبة والترابط.

ويوم قدّر لوالده أن ينتقل بأسرته إلى مدينة ينبع كان ذلك اليوم بالنسبة إليه ولأسرته شيئاً هاماً مذكوراً، جمع شمل أكثر سكان القرية لحظة الوداع وكأنهم في طريقهم إلى المجهول.

لقد رعى الغنم برفقة صديقة طفولته، وساهم في جني الثمر من على جريد النخيل العالية برفقة صديقه "سعيد"، وعمل أكثر أوقات فراغه في دكان والده، وهو يعرف دقائق كل تلك اللحظات التي عاشها كحلم يحاول أن يطل وهو هنا في هذه المدينة الصاخبة التي يسمونها لوس أنجلوس.

حتى رحلته مع العلم كان لها أكثر من مسيرة تنقل خلالها من وادي الصفراء إلى ينبع البحر فالمدينة المنورة فالرياض يوم لم تكن في بلاده سوى تلك الجامعة الأم.

لقد تغيرت الحال في بلاده اليوم، وأصبحت كل قرية تتيه بمجموعة المدارس التي تربض على أرضها، وازداد عدد الجامعات أضعافاً مضاعفة عما كانت عليه بالأمس القريب وازداد عدد الذين واصلوا رحلة العلم عن الأمس بدرجة كبيرة وملحوظة.

وتطل صورة الأمس من خلال سحابات صيف تتراقص أمام ناظريه في الأفق البعيد ينفس بها عن نفسه، ليرى معالم الماضي وهي تسير عبر سنوات عمره الشاب بأحداثها وتطوراتها. صورة صادقة ناطقة بالحياة، اتصفت جميع مراحلها بالسعادة رغم ما يتخلل مظاهرها من شقاء.

لكن السؤال الذي أخذ يلح عليه وهو في مكانه، ترى أولا تزال "وطفة" على ما هي عليه من صلابة؟ أم إن نعيم المدينة قد قضى على تلك الصلابة في نفسها كما قضت عليه مظاهرها؟

وهو يعرف أنها اليوم بين أسرتها في القرية الوادعة "وادي الصفراء" بعد أن اختارت التدريس كمهنة، فلقد سنحت لها ظروفها أن تواصل هي الأخرى

تعليمها كما واصلت ذلك الكثيرات من بنات جنسها، لكن الذي لا يريد أن يتذكره هو أن "وطفة" لم تعد تتذكر شيئاً من الماضي، وإلا لما اختارت صديقه "سليم" زوجاً لها؟ ولكن لماذا تمتلئ نفسه بكل هذه الأنانية فيفرض وجوده عليها وهو الذي يعرف بأن صداقة الطفولة ليست سوى مرحلة من مراحل العمر المتقدمة ينساها البعض ويذكرها البعض؟ وما ذنب وطفة إذا كانت قد نسيت هي أيام الطفولة؟

ثم لماذا يظل يذكر كل تلك الأيام؟ ألأنّها ارتبطت في ذاكرته بحياة شعر بأنها رغم جميع ما فيها من قسوة قريبة إلى قلبه؟

لقد تعلم من القرية أشياء كثيرة منها الإخلاص والوفاء والصداقة والمحافظة على الجيرة.

وتعلم من أشجار النخيل الصبر والقدرة على الاحتمال، وقارن بين حياة الناس هناك في قريته وحياة الناس هنا في هذا البلد المتمدن الواسع الأجواء.

وخرج من كل مقارنته بأن الحياة في بلاده تفضل أي حياة لعدة أسباب أهمها ذلك الأمن والاستقرار اللذان يعايشهما المواطن. ولقد خبر الحياة في هذه المدينة من خلال سنواته التي عاش فيها لدرجة أصبح يتندر فيها الصحاب بخبرته وقدرته على معرفة كل جزء فيها.

ولقد أحب المدينة التي عرف وأحس بأنها شيء جديد مغاير لكل الذي عرف وأحب.

أيضاً زميلة الدراسة "جين" التي كان يظنها أمريكية بادئ ذي بدء، لكنه بعد أن امتدت أواصر الصداقة عرف أنها هندية الأصل، أو لم يكن أكثر سكان أمريكا من أصول هندية؟

ولقد قارن بين صديقته الأمريكية و"وطفة"، فكان يخرج في كل مقارنة برجحان كفة الثانية. لماذا؟ لا يدري ربما كان السر يكمن فيه، في إحساسه بالتقاليد في الحياة التي عاشها وفي الأماني التي يريد تحقيقها.

وهو يشعر بالسعادة عندما يخرج من مقارنته تلك بمثل هذه النتيجة لأنه يثق بأن خروجه بمثل هذه النتيجة يعني استمرار ارتباطه بالأرض والبيت والقرية.

ولقد تحدث في إسهاب إلى "جين" عن "وطفة". وصفها لها وصفاً دقيقاً، أشار فيه إلى أكثر من حقيقة من حقائق حياتها، لكن المسكينة لم تصدق قوله وادعت أنه يبالغ في التعريف بحياة الأخرى.

قد تكون "وطفة"، رغم انقطاع صلته بها، هي الإنسانة التي عرفها والتي شدته كثيراً إلى القرية، وهو يشعر بالسعادة، فكل فتاة في قريته، في مدينته، في وطنه الكبير هي بالنسبة إليه "وطفة" التي عرف.

ربما أعجبته الأرض التي يعيش بها، لكنه كان مع كل هذا ينظر إليها نظرة اشمئزاز وتقزز. ترى لماذا تفرغ الحياة في هذه البلاد من محتواها وقيمتها ومثلها؟

يقولون إن الحرية منحت الفتاة في أمريكا الكثير والكثير، لكنه يعزو كل ذلك إلى تفتت الأسرة وبعدها عن ممارسة دينها بالأسلوب الذي يجب أن يمارس به.

ولقد رأى الأقدام الشابة التي تفد من بلاده وهي تفقد معالم الطريق على الأرض الرخوة فأحس بالألم يكاد يعصر قلبه، لأن بعضهم آثر أن يجري وراء الجديد المميت المقيت أيضاً.

قد تكون قدمه هي الأخرى ضلت معالم طريقها فترة من الوقت، لكنها مع كل هذا تبدو فترة قصيرة نسبياً.

فوجه "وطفة" ومعالم القرية الوادعة ونخيلها الأخضر وجبالها الشم، كل هذا لا يزال له أثره في عقله وقلبه ونفسه أيضاً. أو يمكن أن يكبر الإنسان على مسقط رأسه مهما تعلم ودرس؟ وهل يمكن لمن رسخت في نفسه تعاليم الحياة التي عاش أن ينساها فجأة!

أسئلة كثيرة تطل من بين ذاكرته في نشاط عجيب يكاد يحسمه وهو في مكانه في غرفته التي عاش فيها أربع سنوات في رحلة مع العلم قد ينبهر عقل الشباب بأساليب الحياة الجديدة فيستمرئونها فترة ولكن إلى حين.

هكذا يفكر وهكذا يعتقد، وإلا لماذا يشعر بكل هذا الألم الذي يكاد يطبق على صدره؟ هو الذي عرف الناس عنه أنه دائم البسمة دائب السخرية.

ولكم ناقش أستاذه في أفكاره التي يؤمن بها، لكن أستاذه كان من نوع يرى أن الناس ليسوا على شاكلة واحدة. فبعضهم يولد على أرض ينساها وقيم يتناساها.

ـ قلة هم الذين على شاكلتك.

قالها له أستاذه وهو يضحك، ثم عاود حديثه معه:

ـ ربما يكمن السبب في أنك نشأت نشأة قاسية أورثتك كل هذه القيم التي يتناساها من قدر له أن يعيش في رغد من الحياة، والناس يا صديقي معادن، فيها الطيب والرديء. وحتى هذا الطيب وذلك الرديء تختلف نسبتهما باختلاف المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

انظر إلى هؤلاء الشباب من حولك تراهم يقبلون على الحياة بعلاتها يأخذون منها ما يريدون دون أدنى تفكير.

قد تختلف النظرة بين واحد وآخر منهم، لكنهم هنا وفي هذا المجتمع الذي تراه يجمعون على أن عمر الشباب قصير وقصير جداً.

ولهذا يحاولون قدر جهدهم أن يمضوا في الطريق وإن اختلفت معالمه مع معالم الأرض التي عاشوا عليها.

قد تقول عن كلماتي هذه إنها فلسفة، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فتقرير الحقائق يجعلني أشير بإصبعي هكذا. لتمض أنت في طريقك ودع الآخرين يمضون في طريقهم.

وأخلد "فؤاد" إلى الصمت فترة بعد أن شد على يد أستاذه، ومضى في الطريق وكلماته يرن صداها في أذنيه.

ترى.. كم هي الأقدام الشابة التي ضلت معالم الطريق؟

وكم عدد أولئك الذين استطاعوا أن يصلوا رغم أنواع الضلال إلى النهاية المرجوة؟

قد يكون من الصعب عليه معرفة كل ذلك وهو في جلسته يناقش نفسه في صمت، لكن الذي يمكن له أن يعرفه هو أنه، حتى تلك الأقدام التي ضلت معالم الطريق، ستنسى الضلال يوم تعود إلى أرض الوطن. فجذور الصحراء

الخيرة لا تزال تعشش في نفوس الشباب من أمثاله. والصحراء دائماً على حق، تهب المثل، وتمنح الثقة، وتعطي التقاليد كل معانيها الخيرة في أصالة الأرض التي عاش عليها أجداده، أولئك الذين وهبوا المعرفة لهذا العالم الذي يتيه اليوم بأنه أقدر على جمع أنواع المعرفة.

وارتاحت نفسه إلى ما وصل إليه من تفكير، وبدأت معالم الثقة تضع خطوطها الجديدة في نفسه مرة ثانية للشباب والمستقبل كل المستقبل على أرضه. فمواطنوه يسيرون في الطريق وقد عرفوا جميع معالمها، في قوة وصلابة وعناد أيضاً، كصلابة الصحراء وجمال لياليها، وقدرتها على احتواء المضامين المرجوة من خلال القيم والمثل التي نتوارثها. وسيعود إلى القرية ليبحث عن "وطفة" جديدة، تحل في قلبه مكان "جين" وأي فتاة عرفها في غربته.

فالقرية الوادعة تناديه من بطن الوادي الصغير، وهو حتماً سيلبي النداء. أوَليس هو ابن الصحراء، الصحراء الخيرة؟

الرحيل

غداً سيكون الرحيل، سنفارق الأرض والبيت والأهل في رحلة جديدة من رحلات الحياة. واعتمدت بكلتا يديها على مرفقها البض وأخذت تنظر إلى البعيد، إلى الصور التي توالت على مخيلتها لأيام أمضتها هنا، في هذه الدار.

كانت تعتقد أن حياتها ستظل على ما هي عليه، وأنها لن تنأى عن أبويها. لكنها، وبعد أن اكتملت أنوثتها، عرفت أشياء جديدة فالبنت في أي مجتمع تولد في بيت وتتزوج في بيت آخر، وقد تموت في بيت مغاير لذلك البيت.

وهي، على الرغم من لمحة الحزن التي تحيط بعينيها، لكنها فرحة لأنها اختارت حياتها عن رضى، تعرف دقائق حياته من خلال رحلة العمر الصغيرة. فلقد ولدا متجاورين في شعب عامر، وهي تثق بهذا الزوج وتحترم آراءه وتعرف بأنه استطاع أن يشق طريقه في الحياة بأسلوب بارع. فقد كان من أولئك الشباب الذين يزرعون الحب في جدران بيوت أصدقائهم وأحبائهم.

وتذكر كيف جاءت أمها إليها تنبئها بخبر الخطبة التي تعرفها بحكم صداقتها لأخته. ويومها ضحكت من أعماق قلبها عندما سألتها أمها رأيها في سعيد، لكنها لم تجب واختارت أسلوب العذارى في الإجابة في صمت وحياء، وكان صمتها أبلغ رد بالموافقة.

ترى كم هي الحياة جميلة إذا استطاع الإنسان أن يصل فيها إلى غايته، وهي من ذلك النوع الذي استطاع أن يحقق كل رغباته في هدوء.

سنواتها العشرون التي أمضتها في الدراسة استطاعت خلالها أن تحقق رغبتها في أن تنال شهادتها الكبيرة، هكذا كانت تسميها. وهي من أولئك اللواتي يعجبهن كفاح المرأة من أجل التعليم، وتثق بأن في التعليم الفرصة للوصول إلى الهدف في إقامة البيت السعيد وتربية الأطفال والتعرف إلى احتياجاتهم.

وهي تعرف دقائق الحياة في مجتمعها الذي أحبته رغم أن كثيراً من عادات المرأة في ذلك المجتمع كانت غير راضية عنها، فهي تكره الثرثرة وأحاديث النسوة عن الأزياء وحفلات الأعراس ومغنيات الأعراس واحتياجاتهن.

ولهذا رفضت أن تسمح لأمها باختيار واحدة منهن ليس خوفاً من المبلغ الكبير الذي يجب أن تدفعه هذه الأم لإحياء الحفل، وإنما لأن كل هذه المصروفات يجب أن تتوفر من أجل أشياء أخرى ترى أنها ضرورية.

كثيرات من صديقاتها ضحكن منها وهي تناقش معهن هذا الموضوع، ولكن "سناء" هي الوحيدة التي شاركتها الرأي بأن الزواج ليس مجرد مظاهر يدفع الأب والأم حصيلة العمر من أجل التباهي.

وكان حفل زفافها بسيطاً أيضاً.. شعرت بسعادة حقيقية تغمرها وهي في ثوب زفافها الأبيض تحيط بها مجموعة من الصديقات من أمثال سناء.

ترى كم من الفتيات يقبلن بمثل هذا الحفل؟ لقد تغيرت ظروف الحياة في بلادها، وشارك وفود المغتربين في إضافة لمسات جديدة إلى هذه الحياة، وهي تحب بعض هذه اللمسات وتكره الكثير منها.

وهي تؤمن بأن مجتمعها المحافظ على تقاليده وقيمه يجب أن لا تمتد إليه يد الجهل فتقضي على كل تلك التقاليد، وتشعر بكثير من الألم للتقليد والمحاكاة التي تمارسها الفتاة التي رأت كيف هي الحياة خارج بلادها.

وتعتقد أن هذا التقليد الأعمى للعادات الوافدة هو السبب في كل هذه المظاهر التي يحاول كل أب وأم أن يتباهى بها عند زواج أولادهم أو بناتهم.

وهي تؤمن بأن على الابن والبنت مسؤولية إعادة هؤلاء الأمهات إلى صوابهن، فلقد رأت مظاهر البذخ في زفاف واحدة من صديقاتها.

وهي تعرف أسرة هذه الصديقة وتعرف أيضاً بأن مبلغاً كبيراً قد استدانه هذا الأب من والدها أيضاً تلبية لرغبة زوجته في أن تفرح بزفاف ابنتها.

أما هي فقد كانت إنسانة واقعية، أعطت صورة جديدة لما يجب أن يكون عليه حفل الزفاف. فعلى الرغم من سعة رزق والدها، لم ترض بأن يتم زفافها على ذلك النوع الذي رأته، وطالبت أمها بأن تقتصد كثيراً في نفقات الزفاف وأن تدفع بكل المبالغ التي تريد صرفها لشراء الفيلا التي أعجبتها في العزيزية.

ولقد فرح أبوها بذلك وساعدها على إنجاز المهمة لتحقيق بناء عش الزوجية على ما تريد . وهاهي تقبع اليوم في غرفة نومها في الفيلا التي تملكها راضية ولكن غداً سيكون الرحيل، ومع الرحيل ستفارق البلد والبيت والأسرة، سترى أُناساً غير الناس وعالماً غير العالم، وستشعر بشيء من السعادة وتحس ببعض من الألم. ففراق الأهل صعب كما يقولون، ومع هذا، فهي راضية لأنها ستكون بجانب سعيد الذي اختارها منذ الصغر.

والتقطت يدها صورة حفل الزفاف في هدوء وأخذت تطالعها وتطالع معها أحداث الأمس واليوم أما الغد فهي التي ستصنعه، ستجعل حياته جنة تملأ فراغ بيته أمناً ومحبة.

هكذا قالت له وهي واثقة أنها ستفعل وظروف الحياة في القرية الصغيرة التي اختارها سعيد محطة لأبحاثه ستمكنها بأن تكون بجانبه أطول فترة ممكنة.

ستنسى البيت والأسرة وتتذكر أنها في مهمة ومهمتها اليوم أن تمنح هذا الزوج كل أسباب الراحة ليصل إلى أهدافه، فلقد اختار سعيد طريقاً شاقاً في الحياة الذي لم يكتف بأن يجلس على أحد مكاتب الوزارة في الرياض أو جدة.

وهو واثق بأن طريق البحث العلمي لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن هو على رأس المجموعة التي تبحث عن المعادن في بلاده.

فبلاده ملأى بثروات كبيرة غير البترول وهو يؤمن بأن واجبه يدعوه لأن يصنع شيئاً لهذه الثروة. ترى كم من الشباب من أمثال سعيد يرضون بمثل هذه المهمة؟ وأغمضت عينيها فترة من الوقت لتستمتع بمشاهد القرية وجبالها ووديانها فلقد زارت الجنوب بصحبة والدها وعرفت كثيراً من قراه ومدنه.

وأحست بلذة غريبة وهي تمارس استغراقها في أحلامها التي رأت كيف تكبر. ولم تشعر بيد سعيد التي امتدت لتوقظها فلقد آن وقت الرحيل.

وابتسمت من كل قلبها وهي تنهض في طريقها إلى خارج البيت لتصافح الوجوه التي أحبت بكثير من الراحة والبهجة فهي في طريقها لعمل كبير وهام لا يمكن أن تصنعه إلا المرأة الجادة التي تعرف طريق السعادة وأسلوبها ولقد اختارت طريقها بعناية ودراية أيضاً.

واختار هو أيضاً طريقه بنجاح، فهي تثق بأن "سعيد" قادر على اقتناص النجاح بأسلوب يجيده فهو يحسن اختيار طريقه ويجيد اختيار ما يرغب.

أو لم يخترها هي من بين آلاف الفتيات في مكة فأحسن الاختيار؟ وابتسمت من أعماق قلبها عندما وصلت إلى هذه النتيجة، فمنذ الغد تبدأ معركتها الحقيقية مع الحياة وهي واثقة من نجاحها في هذه المعركة ثقتها من وجود سعيد إلى جانبها.

ومضت إلى السيارة وملء قلبها إيمان بأنّ المستقبل معها ومع هؤلاء الشباب من أمثال سعيد الذين يرغبون أن يبنوا بلادهم في قوة واعتداد وإيمان، وارتفع صوت الراديو يجلجل في جنبات السيارة بكلمات الأغنية التي تسمعها لأول مرة.

كانت كلمات الأغنية تقول وبالإنجليزية:

"غداً أنا وأنت على موعد

في القرية الصغيرة وقد ملأت.

جنبات واديها

الأشجار الخضراء الباسقة

ولمعت شواطئ غدرانها

بحبات المطر الصغيرة

وصدحت جبالها بأنغام ناي الراعي الصغير

نملأ أعيننا بمنظر جبالها الشم.

التي تكتنز الحياة عليها التي جئنا نبحث عنها بنهم وحب وسعادة.

كل ما في القرية وديع وهادئ
حتى الطيور المهاجرة تعرف طريقها في الأجواء
تصدح بأغاني الصبح والمساء في ألحان جميلة شائقة
وأنا وأنت في الطريق إلى الغاية التي نريد والحياة تنتظرنا.
تملأ أرجاء القرية الصغيرة بأحاسيس الحب وتباريح الشوق
تضفي على شطآن الغدران من شبابنا ما هي في حاجة إليه.
غداً أنا وأنت على موعد
هناك بعيداً بعيداً في القرية الصغيرة
نلمح الأفق وهو يطل من وراء الغيوم يذكرنا بالماضي
ونعيش الحاضر ونتطلع إلى المستقبل".

ونظرت إلى وجه سعيد، فرأته يستمع إلى كلمات الأغنية في نشوة، وقد امتلأ قلبه حباً وحناناً على هذه التي ترمق وجهه في سعادة فأحست بنشوة عارمة تهز كيانها، هي التي أحبت هذه الحياة التي ستمارسها بعد رحيلها، والتي لا تدري عنها شيئاً إلا أنها قادرة على الوصول بحياتها معه إلى بر الأمان، ما دامت على هذا المقدار من الفهم والإدراك.

أو ليست هي زوجته؟ وهو واحد من هؤلاء الشباب الذين يرون أن المجد يكمن في البحث عن أسراره في دنيا أرضه الواسعة؟

وابتسمت في وجهه وأحست وهي تبتسم بأنها تمضي في رحلة الحياة الجميلة وكلها إيمان بالحاضر والمستقبل، ذلك الذي ترمقه ويرمقه زوجها أيضاً بكثير من الحب والاطمئنان.

بائعة اللؤلؤ

أنا من أنا؟ امرأة من روما، في عينيها سعة الأفق، وعمق البحر الأبيض المتوسط، وفي وجهها جمال النيل الخالد ورواؤه وحلاوته، وفي قلبها أمان كثيرة تجمع بين خطواتها وتفكيرها، وتنطلق كسمفونية خالدة لواحد من كبار الموسيقيين المعروفين، وفي ماضيها مدار الزمن، وفي حاضرها دورة الأيام.

عشت عمري في مدينة أمي نابولي، أرتع في حواريها القديمة، أبحث عن الجديد في وجوه من أقابلهم في الشارع الأنيق، بالقرب من الكورنيش الذي انتصبت على جنباته فنادق الدرجة الأولى، وأبي مصري المولد يوناني الأصل، اختار الإسكندرية مربطاً لخيله.

تقول أمي إنه كان رساماً عبقرياً أفنى عمره يجوب الأنفوش، وسيدي جابر والعطارين بحثاً عن وجه لامرأة يرسمها، فلما التقى بها، أي أمي، اختار أن يعيش الواقع معها بدون رسم في الأنفوش سنوات قصيرة لم تتعد أصابع اليد خرجت على أثرها إلى النور، وخرج هو على أثرها من الحياة.

وعادت أمي إلى البيت الذي ولدت به لترى أن كل شيء فيه قد تغير، فلقد ماتت الجدة وبقي أبوها فقط.

كان في حاجة لمن يرعاه وكانت هي في حاجة لمن يرعاها، وكنت أنا في حاجة إلى من يرعاني أيضاً، لكنها لم تجد الرعاية كما لم أجدها ولم يجدها هو، أصبحنا نعيش على هامش الحياة.

أمي أشبه بقطة رومية تميل إلى الطول فيها شيء من بدانة المرأة الإيطالية لكثرة ما تلتهم من سباجتي، وجهها كفلقة الشمس، بيضاء

مشربة بحمرة، عيناها من أجمل عيون النساء الإيطاليات، تتحدث بسرعة وتضحك بسرعة، وتميل إلى النكتة وتحفظ شيئاً منها، وتروي ما تتذكره عن سنوات عمرها التي قضتها في الإسكندرية.

تتحدث بإعجاب عن المصريات وروح المصريات وإن كانت تقول عن حديث المرأة التي تعيش في القاهرة بأنه أرق وأعذب من الأخرى التي عاشت معها في الإسكندرية.

تجيد بعضاً من كلام المصريين، وتستخدم كثيراً كلمة "معليش" في الحديث، لدرجة كنت أغتاظ منها عندما أناقشها في أمور حياتنا التي نعيشها.

ودخلت المدرسة مع الكثيرات من الزميلات، وحاولت طوال التحاقي بالمدرسة أن أفلسف حياتي وفق أسلوب جديد، فلقد شعرت يومها بأنني من أجمل البنات. في تلك المدرسة مدرّستي الدكتورة رينا، التي جاءت من الشمال لتستقر في الجنوب مع زوجها، هي أول من لفت نظري إلى أنني جميلة، ومنذ ذلك اليوم أخذت أتطلع إلى المرآة لأرى كل ما قيل لي.

أمي، رغم كل ما فيها من طيبة، فهي في بعض الأحيان عنيدة، ترى في بقائي إلى جانب المرآة، وفي مثل هذه السن أمراً يتنافى وما تريده لي من مستقبل، لكنني كنت أغافلها وأتوجه إلى غرفة نومنا الصغيرة لاستخدام هذه المرآة المكسورة، التي رافقت أمي رحلتها من الإسكندرية إلى نابولي، أتطلع إلى وجهي وكل شيء فيّ وهو يكبر.

الشباب في الطرقات بدؤوا يتغزلون بجمالي بكلمات هامشية، كنت أستمع لها وأطرب، لأنها وإن كانت تمنحني القوة لأن أجتاز مشاكل حياتي، إلا أنني جميلة وجميلة جداً.

حتى ذلك اليوم الذي أدار فيه رأسي أحدهم، فاستحكمت علاقتي به، بشكل منفرد جعل بعضهم يقسون علي وأنا في طريقي إلى البيت.

كان جيوفاني شاباً أنيقاً يعمل في مغسلة من مغاسل الثياب، ويتقاضى مرتباً مجزياً جعله يدعوني إلى بعض الأماكن التي لم أكن أحلم بها، وكنت أرتاد معه هذه المحلات بشوق، لأنني فتاة فقيرة. ولكم فرحت يوم قدم لي أول فستان اشتراه ببضع مئات من الليرات الإيطالية. لكن أمي رأت في قبولي الهدية

أمراً ينافي العادات والأخلاق والتقاليد، وطلبت مني أن أعيد الفستان فرفضت، وبحثت الأمر مع أمي واستقر رأيها أخيراً على أن ترى جيوفاني هذا.

دعوت صديقي لتناول العشاء في بيتنا، واجتهدت أمي أن تكون المائدة ملأى بأصناف كثيرة كانت تجيد طهوها، واستقبلنا أنا وأمي جيوفاني بعد أن ارتديت الفستان الهدية.

وعلى مائدة العشاء تحدثت أمي بصراحة، وقالت لجيوفاني أشياء كثيرة منها أنها تخاف علي، وأنها تريد أن تهبني لزوجي امرأة صالحة.

لم يعقب جيوفاني كثيراً على كلام أمي، وإنما اختار فرصة تناول القهوة "السبريسو" ليقدم لي شيئاً لم أكن أتوقعه ولم تكن تتوقعه أمي أيضاً.

دبلتان من الذهب وضع واحدة منها في إصبعي، ووضعت الأخرى في إصبعه، بين دهشة أمي وفرحتها الغامرة. ومنذ تلك الليلة، أصبح لي ولأمي رجل يقضي حوائجنا، ويدخل إلى بيتنا في أي وقت من الأوقات.

وجاء الصيف، وأخذ جيوفاني إجازته، وأمضيت أنا وأمي ثلاثين يوماً في جزيرة اسكيا الجميلة.

كانت أيامي في الجزيرة من أجمل أيام حياتي وأروعها، تعرفت خلالها أمي بزميل لجيوفاني، في الخمسين من العمر، كان محل ثقته وثقتي. ومما أثلج صدري أن أمي أخذت تميل إلى صديق جيوفاني، ولهذا اختارت آخر يوم في الإجازة لتعلن أنها قد وافقت على الزواج من صديق جيوفاني.

كان إعلان أمي اعتزامها الاقتران بصديق جيوفاني مفاجأة غير سارة بالنسبة إلي، لكنني عندما ناقشت الأمر مع جيوفاني أشعرني بأنني مخطئة، وأن أمي على حق في أن تختار طريق حياتها كما تريد.

وبدأت أفكر في نفسي كيف سيتسنى لي أن أعيش في بيت واحد وتحت سقف واحد مع زوج أمي؟ لكن جيوفاني قطع علي حبل تفكيري معلناً أن أمي ستنتقل إلى بيت صديقه بعد الزفاف.

سألت جيوفاني:

ـ أين أعيش أنا إذن؟

أجابني بضحكة:

ـ في قلبي يا عزيزتي.

ـ لا أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب للمزاح يا جيوفاني، فأنا كما ترى أصبحت شابة ولا أستطيع أن أعيش في بيت أمي بمفردي.

– لا عليك. لقد فكرت في الأمر طويلاً وخرجت من تفكيري بأن هذه هي الفرصة التي أنتظرها، يمكنك يا عزيزتي أن تعيشي معي في غرفتي، أو أعيش أنا في بيتك في غرفة الوالدة.

– وتعتقد أن هذا الأمر يناسبنا؟

ـ ولمَ لا، ألست خطيبتي؟

ـ ولكننا لم نتزوج بعد.

ـ إذا كنت ترغبين الزواج، يمكننا أن نتلاقى صباحاً في رحاب الكنيسة ثم نعقد قراننا فيها.

– ولكنني لا أزال في المدرسة.

– لهذا نستطيع أن نؤجل الزواج حتى نهاية هذا العام، فأنت تعرفين أن من الصعب عليك مواصلة الدراسة ولا بد أن تلتحقي بعمل ما، أي عمل.

– وهل أستطيع الالتحاق بأي عمل؟

وضحك جيوفاني من كل قلبه وقال:

ـ من كانت تمتلك مثل مواهبك لا بد وأن تصل إلى ما تريد.

– مواهبي؟ أية مواهب فأنا إنسانة معطلة عن المواهب بدراستي التي تعرف أنها لا تؤهلني لأكثر من بائعة في دكان صغير.

ـ لا يا عزيزتي. وأنا عندما أردت أن أتحدث عن مواهبك قصدت بالفعل جمالك وأنوثتك، وأنت تعرفين كم أنت جميلة؛ فالنساء يا كلارا في نابولي كثيرات! لكن من كن على جمال مثل جمالك فهن قلة ولهذا ستوفقين لعمل أدخره لك.

– ألا تقول لي عنه الآن؟

– لا سأقول لك كل شيء في حينه.

وعدنا إلى البيت. وتزوجت أمي، وسكن معنا المستر ماريو، وأصبح من

السهل علي أن أكتفي بوجود أمي إلى جانبي رغم انشغالها بعريس الغفلة الذي جاء هكذا بسرعة.

وابتدأت مشاكلي، فقد كان ماريو زوج أمي وصديق جيوفاني من أولئك الذين يحبون الاصطياد في المياه العكرة.

كان، رغم أنه عرف أمي وعرف هذا البيت عن طريق جيوفاني، إلا أنه يكرهه، ولا يطيق أن يراه في زياراته المتكررة لي، ولم أكن أعرف السبب. ويوم عرفته قلت كل شيء لأمي، لكنها لم تصدق بادئ ذي بدء، حتى إذا أمسكته وهو يحاول التسلل ليلاً إلى غرفتي، تأكدت من صدق كلامي ومحاولاته الآثمة.

لقد كان مفروضاً فيه أن يرعاني كابنة! ولقد عرف جيوفاني الأمر كله هذه المرة من أمي وليس مني. ولقد سألني كثيراً عن الموضوع الذي أفضت به أمي إليه، وكنت ألتمس الصمت صديقاً لي يحميني من نظراته الغاضبة حتى كان ذلك اليوم الذي وقعت فيه الكارثة.

فقد ضرب جيوفاني صديقه عدة لكمات فارق على أثرها الحياة، واقتيد جيوفاني إلى السجن بين دموعي ودموع أمي، التي أطلقتها بشكل غريب، أحسست بعده أنها كانت تحب ماريو حباً طغى على كل شيء. وسألت أمي رأيها في حياتنا فقالت:

ـ بعد أسبوع سأنتقل أنا وأنت إلى روما بعد أن أبيع كل شيء، ففي هذا البيت ذكريات أليمة يجب أن نقضي عليها، وأنت شابة وأمامك مستقبل عريض ينتظرك.

وقبل أن نغادر نابولي جاءنا واحد من أصدقاء جيوفاني ومعه بطاقة صغيرة قدمها لي قائلاً:

ـ أعرف ويعرف جيوفاني ما تفكران فيه، ولهذا فقد طلب مني أن أعطيك هذه البطاقة فعند وصولك إلى روما اتصلي بالمستر سيرجو تاجر الجواهر المعروف، إنه على ما أعرف عم لجيوفاني وقد طلب في بطاقته هذه أن يساعدك.

ولقد أمضيت ليلتي كلها ساهرة، فجيوفاني لا يزال يتذكرني في سجنه رغم أنني لم أزره، فقد كنت مشغولة بمشاكلي.

ترى أو يحبني هذا الحب الذي أقرأ عنه في بعض الكتب وفي قصص ألبرتو مورافيا، أم إنها الشفقة جعلته يفعل ما يفعل؟ وعندما لم أجد أي جواب لأسئلتي المتكررة نسيت كل شيء، وغادرنا نابولي إلى روما.

وقابلت سيرجو الذي حاول أن يستعرض وجهي بأسلوب أحسست فيه بنوع من الاشمئزاز، لكن ابتسامة الرضى التي ظهرت على وجهه جعلتني أبتسم قليلاً. وقال لي الرجل وهو يدفع ببعض المال إلي:

ـ اشتري بهذه النقود ملابس أنيقة ترتدينها من الغد، وسأسلمك الدكان الذي أعددته في مطار روما مع زميلة أخرى.

وخرجت من عنده لأمضي الليل مع أمي في أحلام غريبة.

لكن أجمل كل تلك الأحلام هو أنني رأيت نفسي أبيع أحدهم وكان قادماً من الشرق يحمل بصمات كثيرة، عن هذه الأرض التي قرأت عنها فأحببتها وعندما تجسدت لي في أحلامي أحببتها أكثر.

واشترى مني الرجل خاتماً من الماس وعقداً أبيض من اللؤلؤ كان هو أول ما أقوم به في عملي الجديد. وعندما أفقت عرفت بأنني أحلم، وأن حلمي لم يطل. ومضيت مع سيرجو إلى الدكان الذي أعجبني ترتيبه من أول نظرة وأعجبتني زميلتي روزا التي كانت قد سبقتني إلى العمل، وبدأت أقارن بينها وبيني وأحس بأنني أجمل منها.

ولم يمض بعض وقت حتى رأيت الرجل الشرقي نفسه يدخل إلى الدكان وقد سبقته رائحته العطرية النفاذة. كانت عيناه من أجمل العيون ووجهه الأسمر الضاحك يضفي على ملبسه شيئاً من الرهبة وتكلم الرجل فتعلقت عيناي به، ولم أحس وهو يطلب مني أن أريه الخاتم وعقد اللؤلؤ الذي استهواني بمنظره. وبعد خمس دقائق نقدني قيمتها وخرج.

كنت أحس بأنني وجدته وفقدته في لحظة واحدة، ورأيت أن أتابع إحساساتي الداخلية فمضيت في أثره لأودعه وهو يخرج من الباب إلى الطائرة وابتسامته الكبيرة تعلو وجهه الأسمر الحبيب.

البدوية وعالم بلا ناس

الطريق بين "فورت كولنز" القرية التي تعيش على وجود الطلاب في جامعتها وبين "بولدر" لا يزيد عن أربعين ميلاً، وأنا في الطريق إلى "دنفر" عاصمة كولورادو التي أحبّها والتي أزورها للمرة الثانية. الزيارة الأولى عندما قدمت من مدينة "السلط" في الأردن هذه البلدة العربية العريقة.

أبي رجل من أبناء البادية عاش أكثر سنوات حياته في جيش الجنرال "أبو حنيك". حتى إذا ما تسلم السلطة في هذا الجيش أحد العسكريين الأردنيين خرج أبي من هذا الجيش بالتقاعد وكأنه و"أبو حنيك" على موعد، رغم أن أبي كان معروفاً بعدم حبه له ولا لأي واحد من الضباط الإنجليز الذين كان يحلو لهم الحديث بلهجة أهل البادية.

اختار أبي بيته في السلط على مقربة من مزرعة الأسرة والتي كانت بالنسبة إليه شيئاً مهماً؛ لأنه لم يتعود على حياة البيت والبقاء بجانب زوجته التي هي أمي.

عاشت أمي سنوات حياتها كلها مع أبي تنتظر الخلفة حتى إذا ما جئت على كبر والدي أصبح من حقي أن أنال كل ما أصبو إليه وأرغب.

عاداتنا في السلط تختلف في كثير من الأحيان حتى عن عادات أبناء المدن كعمان وبيروت التي رأيتها مع والدتي قبل نشوب الحرب الأهلية يوم كنت صغيرة.

في الجامعة الأردنية أطلقت علي الصديقات والأصدقاء "البدوية

الشاعرة". فكنت أحس بالراحة لهذا اللقب، فأنا فعلاً شاعرة وإن كنت لم أتعلم العروض، وبدوية لأنني من أسرة كل جذورها من البادية.

في هذا الجو عشت سنوات حياتي أدرس وأتعلم حتى إذا ما نلت شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع، تطلعت إلى أن أسافر إلى أمريكا لأنال شهادة الماجستير في علم النفس فقد كنت أمني نفسي بأن أصل إلى هذه الدرجة العلمية.

أصبحت والدتي بعد وفاة أبي أكثر حرصاً على تلبية رغباتي، ولقد حاولت أكثر من مرة أن تقدم لي "عريساً" يليق بي وبأسرتي دون مصارحتي برغبتها، ويوم جئت إليها أفصح عن رغبتي في إكمال الدراسة؛ صدمت بادئ ذي بدء، وحاولت أن تثنيني عن السفر بشتى الطرق لكنني كعادتي استطعت أن أقنعها بتلبية رغبتي وقد كان!

البنات في المدينة الجامعية في عمان خليط من جميع الأقاليم، فيهم البدوية والقروية والشركسية وابنة المدينة التي تعودت أن تظل دائماً أسيرة الدعة والرفاهية. في بيت الطالبات كنت أنظم الشعر بأساليب مختلفة وأبعث به إلى الصحف لتنشره لي دون أن أذكر أنني طالبة.

حاول بعض أصحاب الصحف التعرف إلى الشاعرة الجديدة، بل ورغب بعضهم في حضوري إلى دار الصحيفة التي احتفت بشعري، والتي وجهت الدعوة إلى مجموعة من الكتاب والأدباء بمناسبة صدور أول ديوان شعر لي، فكانت مفاجأتهم بأنني لا أزال طالبة في البكالوريوس ومع هذا احتفوا بشعري كثيراً.

تلقيت بعد هذه الحفلة الكثير من القصائد من بعض الشعراء الذين امتدحوا شعري وشعري أيضاً، وضحكت في أعماقي لسذاجة بعضهم ممن أراد صداقتي أنا البدوية التي عاشت أجواء البداوة في البيت رغم مظهري وشعري.

وفوجئ الجميع بسفري إلى أمريكا، حتى إذا ما جئت لأول مرة إلى هذه المدينة "دنفر" كانت خالتي وزوجها في انتظاري لتسلمي من المطار وكأنني حقيبة مرسلة من طرف أمي إليهما!

كانت الرحلة في الطائرة مضنية لأنني لم أكن قد سافرت بمفردي طوال كل

هذه الساعات. والذي أزعجني حديث جاري الأمريكي من أصل اسكتلندي، فقد أضاع علي جاري في الطائرة فرصة الاستلقاء على الكرسي للبحث في ذاكرتي عن أبيات شعرية جديدة أستطيع إرسالها للصحيفة التي أتعامل معها فور وصولي.

كان جاري شاباً في مقتبل العمر يعمل في حقل للبترول في العراق جاء إلى الأردن لزيارة الآثار وقضاء بضعة أيام يستمتع خلالها بركوب الخيل وشرب القهوة والاستماع لـ "سميرة توفيق" وهي تغني: بالله صبوا هالقهوة وزيدوها هيل!

ضايقتني ضحكات رفيقي في السفر إذا صح هذا التعبير وحديثه عن المرأة في الأردن وأسفه من أنه لم يتعرف إلى أنثى طوال مدة إقامته هناك، وعندما عرف بأنني أردنية حاول أن يتنصل من أكثر ما قاله عن المرأة في الأردن وكيف أنها لم تصل إلى مستوى الأنثى في بيروت، فهي أكثر رجعية وتلك أكثر تحضراً!

سألني في استغراب إن كنت مسافرة للحاق بأسرتي فأخبرته بأنني ذاهبة إلى "فورت كولنز" للدراسة في جامعتها بمفردي، وزاد عجبه أنني سأكون بمفردي بلا رقيب طوال مدة إقامتي هناك.

حاولت أن أسكت فضوله بكلمات متفرقة أشعرته خلالها برأيي فيه وفي ثقافته وأبناء جنسه، وقلت له الكثير عما ينقص الإنسان الأمريكي من المعرفة رغم وصول بعضهم إلى أرقى درجات العلم، ولم يخلصني منه سوى مجيء زميلة له كانت تجلس في الصف الرابع بالقرب من مقعدينا وتركت كرسيي لها، وفضلت أن أجلس على كرسي مع كتبي التي حملتها وأفكاري.

لكنني لم أستمتع بهدوء نفسي كثيراً إذ جاءت الفتاة تعلن فرط إعجابها بجمالي وأناقتي فلملمت نفسي في الكرسي وأنا أقدم لها شكري في هدوء.

خالتي وزوجها من بلادي، من البلاد التي أحبها، لكنهما أصبحا يعيشان على الطريقة الأمريكية حتى في تربية ابنهما.

حاولت خالتي أن ألتحق بالجامعة في دنفر، لأنها على مقربة منها لكنني رفضت وطلبت أن أظل في الجامعة التي قبلتني على أن أعيش مع أسرة أمريكية من الأسر التي تقطن المدينة.

أكثر العاملين في مدينة "فورت كولنز" يعملون في خدمة الطلاب والكثير من العائلات تستضيف الطلاب والطالبات مقابل مبالغ معقولة.

كان نصيبي أن أقطن مع أسرة أمريكية، الزوج والزوجة من أصل لبناني وكلاهما لا يعرف لبنان، إلا أن جذورهما مشدودة رغم كل شيء إلى ما يجري في لبنان، فهما يتناقشان في كل ما يقرآنه في الصحف، حتى إذا عرفت الزوجة بأنني أقرض الشعر طلبت مني أن أسمعها قصيدة نظمتها في بيروت فوعدتها ووفيت بوعدي لكنها بعد أن استمعت إلى كلماتي قالت لي فجأة:

ـ صدقيني لم أعرف ما تقصدين رغم أنني أتكلم العربية.

فوعدتها بأن أترجم لها شيئاً من أشعاري وكانت تلك البداية.

وبعد شهور قصيرة، أصبحت ألقي عليهما ما أنظمه مترجماً للإنجليزية وكانا يعجبان به، ويحاولان أن يجلبا أصدقاءهما لسماع المزيد حتى ذاع صيتي وعرفت في الجامعة بأنني شاعرة.

شعري يحمل في طياته معاني صدق استطعت بعد تعب أن أجد الوسيلة لأن أنقله بشكل جيد إلى الإنجليزية. يوم نشرت لي صحيفة الجامعة أول قصيدة، شعرت بفرحة غامرة تملأ نفسي ولكنني، في نفس الوقت، أصبحت حائرة أمام أشعاري وواجباتي الدراسية. أمي تطالبني بأن أكتب لها، والجريدة تطلب أن أبعث بأشعاري إليها والجامعة وواجباتها كثيرة وأنا حائرة.

حتى عرفته... في وجهه سمرة الأرض العربية وخصوبتها، وفي عينيه نظرة الصقر المتيقظ. كان أقرب إلى الفارس العربي الذي لم يترجل عن حصانه، جاء ليلقي بشباكه على ست الحسن في مكتبة الجامعة.

اسمه "حماد"، وأهله من شمر، بدو الشمال في الجزيرة العربية، ومدينة تبوك وأمه من السلط، من عائلة عريقة في بداوتها في الأردن. يدرس الهندسة ويحرص على أن ينال شهادة الدكتوراه بأسرع ما يمكن ليعود إلى أمه هو الآخر، فقد مات أبوه وبقي هو لها فقط.

وعندما سألته عن السبب في أن أمه لم تأت معه ما دامت وحدها في مدينتها تبوك قال لي:

ـ امرأة بدوية تكره أن تسافر إلى بلاد النصارى.

وضحك. وامتدت صداقتنا، وأصبحت أجد متعة في أن أقضي أيام العطلة في القرية بدلاً من أن أذهب إلى "دنفر" كعادتي لأرى خالتي وزوجها وابنها.

ولطالما قارنت بين ابن خالتي وهذا الرجل فشعرت بأن كفة "حماد" هي الراجحة فوجف قلبي وأحسست بأنني ولأول مرة في حياتي أفقد القدرة على أن أسيطر على هذا الذي يدق بسرعة.

كانت لي أحلامي وتأملاتي، أصنع منها شعراً يراه النقاد شيئاً طيباً، لكنني بعد أن عرفته أصبحت أنثى أخرى في تفكيري وبعد نظري، زاد حبي للشعر وأصبحت أنظم الكثير منه وتلونت أحاسيسي بألوان السعادة والبهجة. ويوم سألتني خالتي رأيي في الزواج من ابنها قلت كلمتي بأنني لا أرفض، لكن شرطي الأول والأخير على من يريد الاقتران بي العودة إلى السلط أو أي مكان في الجزيرة وكان هدفي من هذا الكلام واضحاً يعني الرفض في أسلوب مقنع.

وبهتت خالتي لهذا الرد، وقالت لي:

ـ إذن أنت ترفضين ابني.

وأجبتها:

ـ أبداً لم أقل هذا، وإنما هذا هو رأيي فأنا أكره أن أعيش في الغربة.

قالت:

ـ وهل الحياة في أمريكا غربة؟ إننا هنا نعيش أحلامنا يا بنيتي.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً لكن أحلامي من لون خاص، يجعلها تلتصق بالصحراء وتكره أن تعيش في الغربة.

وضحكت خالتي وقالت:

ـ لا بد أنك مرتبطة بأحد في الأردن.

وأجبتها بحزم:

ـ لا... وأنا صادقة ولكنني لا أحيد عن رأيي، فأنا كما تعرفين يا خالتي بدوية. قالت خالتي:

ـ وأنا كذلك، لكن المدينة هذبت من أخلاقي وعاداتي.

وأجبتها:

ـ بل أعطتك عادات وأخلاقاً لا أحب أن أراها فيك يا خالتي.

ـ وتقولينها يا هدى؟

ـ ولماذا لا، ما دامت هي الحقيقة، فنحن بنات الصحراء نفخر بأن يخطبنا واحد من أبناء جلدتنا يرضى بأن يعارك الحياة على أرضه، ويأخذ منها ما يريد هذا هو رأيي، ولهذا فسأنتظر فارسي حتى يأتي.

ـ وتعودين للسلط؟

ـ أعود إلى طبيعتي كأنثى عربية أخذت من العلم ما تريد لتوظفه فيما تريد. الصدق يا خالتي أنني لولا العلم لما بقيت دقيقة واحدة في أمريكا. أمريكا عالم بلا ناس لأن أكثر من يعيش هنا يعيشون لظروفهم.

ومن يومها ونحن أنا وخالتي لا نتحدث عن ابنها، لكنني عرفت أن ابنها هو الآخر غير راغب فيّ ففرحت، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي جمعتني الظروف "بحماد" في رحاب المكتبة.

كان يبحث عن كتاب، وكنت أبحث عنه، حتى إذا ما تقابلت عيناي بعينيه غضضت بصري كامرأة عربية، فتبسم وقال:

ـ تعالي هنا فأنا أريدك في حديث كنت أنتظره.

وانصعت لرغبته ونسيت الدنيا كلها من حولي وبدأ يحدثني عن أمه، عن حياته، عن تبوك هذه المدينة التي تعيش فيها أمه حتى إذا ما انتهى من كل ذلك قال في رجولة:

ـ أتتزوجينني إذا طلبت ذلك منك؟

ونظر إلي بعينيه النافذتين نظرات رجل يعرف قدر نفسه، وضحكت وقلت له:

ـ لن أقول لك لا، ولكنني سأدع أمي تقول لك نعم. اذهب فاخطبني منها فأنا كما تعرف بدوية من السلط، وأنت الآخر بدوي من تبوك وكلانا له من التقاليد ما يجب أن يحترمها.

وصمت ونظر مرة أخرى إلى وجهي بعينيه الجريئتين وقال:

- غداً سأتحدث إلى أمي وأطلب منها أن تسافر إلى عمان برفقة خالي لتخطبك فما رأيك؟

وأجبته:

- سأعلن قبولي لخطبتك عندما تحدثني أمي عن ذلك، بل سأستبق الأمر وأطلب منها أن تقبل.

ومضيت مسرعة أجري بعيداً عن المكتبة. إن كل شيء قد انتهى إلى ما أريد. وفي غرفتي بدأت أفكر في هذا الذي جاء فجأة، وأمسكت بقلمي لأسطر أول قصة أكتبها في حياتي بل وآخر قصة بعد أن رأيت أنها الوسيلة التي تجعلني أعلن بها عن سعادتي.

وقلت لنفسي: ترى! لو لم آت أنا هنا إلى "فورت كولينز" ولم يأت "حماد" هو الآخر، أيمكن أن نتقابل ونتزوج وننجب؟

ودق تليفون الغرفة ليحمل لي هذه المرة صوت "حماد" وهو يقول:

- أتدرين بأنني بعد أن تركتك وجدت رسالة من صديقي الذي أقطن معه يطالبني بأن أتحدث إلى أمي تلفونياً.

وصمت.

- وبعد يا حماد، ماذا جرى لخالتي؟

وأجاب قائلاً وهو يضحك:

- أحس باللهفة والخوف في كلماتك على أمي. فقد كان هذا هو إحساسي عندما تلقيت الخبر لكنني وبعد أن كلمتها عرفت منها أشياء أخرى.

وأجبته قائلة:

- وماذا تريد أمك، أظنها ترغب أن تخطب لك فتاة.

وامتدت ضحكاته بعض الوقت وهو يقول:

- ذلك ما كانت تفكر فيه ولقد سألتني: أولم يحن الوقت لأن تتزوج يا بني؟! وعندما أجبتها بأنني فعلاً قررت هذا، قالت:

- ومن هي هذه التي رأيتها وهي تريد أن تأخذك مني؟

وعرفت منها أنها تعرف كل شيء فلقد رأتك يا "هدى" في منامها ووصفتك لي وقالت أيضاً نعم الزوجة هي "هدى" وأقفلت السماعة، لكنني أعدت طلبها مرة أخرى لأقول لها بأن تسافر مع خالي لترى أمك في السلط وأعطيتها عنوانها، وهأنذا أرجوك أن تقولي لأمك بأن تهتم بها عندما تصل إليها هناك يا عزيزتي.

وأجبته في تلعثم:

ـ سأفعل ذلك فور أن تقفل سماعة تلفونك.

ولم أحس بأنني في تلك اللحظة قد نسيت كل شيء وحمدت الله على أنني أنا البدوية القادمة من السلط قد سرت في الطريق الذي أراده لي أبي، فلم تضيعني مدينة الغرب وإنما زادت فراغي وغربتي حتى عرفت "حماداً" . . الرجل الذي أحببته.

ومات أبي

عالم مثير هذا الذي أراه يبدو أمام عيني، شيء مخيف لا أرتاح إليه ولا أزدريه. فأنا من طينة تغاير كل هؤلاء الذين يمشون في الطريق تتعانق أفكارهم وتتفارق في لحظات كأنها ومضة برق لمع هكذا فجأة، لتنهمر من بعده مزاريب الأسطح تغسل آثار الأقدام المزروعة على الطريق المتعرج في لامبالاة عجيبة!

ولدت ونشأت في قرية من القرى بشمال المملكة، تعودت على الاغتسال في الصباح في الشتاء القارص وكنت أفرح بظهور الشمس وهي تطل من خلف ستار شفاف حيناً ورمادي اللون حيناً آخر.

درجة الحرارة في هذه القرية تختلف صعوداً وهبوطاً منها في المساء عنها في الصباح، لكن أغوار القرية التي تلتحف بسرابيل النور تأبى أن يغشاها الظلام، فهي تتوق دائماً للصباح الندي الذي يزرع الأمل في قلوب كل هؤلاء الصيادين العجائز!

أبي واحد منهم يحمل عدة الصيد ويحمل مع هذه العدة سنوات جهد طويلة عرق خلالها كثيراً، لكن باختياره. البحر يحب الأقوياء وأبي يحب البحر، ولكن أمي تكرهه، أخذ البحر مرة ابناً من أبنائها في غفلة، أكله الظلام وهو عائد مع الفجر، التقطنا جثته بعد بضعة أيام أذكر ذلك رغم صغر سني.

أبي يحب صغار الحيتان يأكلها بشراهة، وأمي تكرهها، تعتقد أن صيد السمك يحمل في طياته الموت، وإلا لماذا ذهب ولدها؟!

الناس الذين يموتون في البحر تكفنهم الأمواج لتدفنهم الرياح بعيداً عن الشاطىء.

أمي بدوية، تحرص على ارتياد الصحراء تصطاد الضب، تعتبره غذاءها المفضل، وأبي يكرهه! وأنا حائر بين الحب والكراهية.

طفولتي باهتة صورها قليلة، لكنها محفورة في ذاكرة الزمن، صنعتها قسوة القرية وحرارة الشمس وبرودة الليل وصقيع الشتاء.

والقرية الرابضة على مقربة من البحر لا تدري من معاني الحياة إلا تلك التي رضعتها.

هنا في "حقل" القرية تنفرد السماء بضياء عجيب حتى في ظلمة الليل وبرودته.

الفتيات في القرية يحببن الودع يوشوشنه، يتحدثن معه في براءة ونقاء وصفاء وطهارة، والأولاد يحبون "الكبوش" يملأون بها جيوبهم يلعبون بها في قسوة.

بين الطراوة والعنف خيط رقيق يصنع أنماطاً من الحياة في هذه القرية الوادعة؛ فالرجل والمرأة هنا على النقيض يختلفان في الطباع والممارسة.

البحر هذا المارد الجبار الذي قهر أمي، يجتذبني بصفائه، وأمي تعارض، وأبي "يشخط وينخط"، لقد قرر أمراً وعلينا جميعاً أن ننفذه.

سنواتي العشر التي أمضيتها في مدرسة القرية كانت كافية في نظر أبي..أبي يقول إنه "حمل زنبيل المقاضي" منذ أن كان في الثامنة، الأسرة كانت تطالبه بلقمة العيش بعد وفاة والده.

أمي تستنكر كل كلام أبي وتقول له في عناد:

ـ ولكنك موجود، لم تمت.

يضحك أبي ويطلب مني أن أنام!

ونمت قبل أن ينام كل الناس، لأصحو مع الفجر. ارتديت ملابسي ومضيت أتلمس طريق السيارات. كنت أرفع يدي أطلب من سائقي "التركات" حملي معهم.

لم يتوقف أحد، وأخيراً وقف لي سائق عجوز كانت يده على عجلة القيادة بشكل يوحي بعدم الاكتراث. لكني عرفت بعد ذلك خبرته في السواقة، سألني، أخبرته قصتي، فضحك وقال:

ـ أنت مثلي لكن جيلك غير جيلي، اركب يا بني.

أخذني معه في رحلة طويلة وصلت بعدها إلى "الرياض". أدخلني على أحدهم، عرفت أنه يعرفه، حكى له قصتي، حن قلب الرجل وقبلني في مدرسته وكانت بداية الطريق إلى عالم جديد مثير أحمل له في قلبي أشياء كثيرة أريد أن أبوح بها، أقولها فأنا بشوق لأن أحكي قصتي فهذا اليوم أعتبره يوم مولدي.

أجمل ما في المدرسة أنني أعيش بين مجموعة من الأطفال وجوههم نظيفة وملابسهم جميلة، ألوانها البيضاء تدخل على قلبي البهجة. المسؤول عن حياة الليل في المدرسة رجل جاوز سنوات الشباب يحمل بين يديه مصحفاً باستمرار يقرأ فيه كلما وجد فرصة للقراءة.

اختبرني أحد الأساتذة في العلوم التي درستها من قبل، ووضعوني في الفصل الأول الإعدادي. قال لي المدرس إنه قد كتب لأبي يعلمه بوجودي ويطلب منه أن يأتي، ضحكت في كمي:

ـ أبي مسكين لا يقدر على فراق القرية والبحر!

استمعت إلى حديثه، أعجبني أنه كان مثلي. حدثني عن حياته، عن فقره، عن ظروف الحياة التي أطلت عليه يوم كان في "المسيجيد" قرية بقرب المدينة وهو اليوم صاحب أسرة وأطفال، قالها باعتداد، ابنه سيدخل الجامعة العام القادم.

جاء مدرّس الرسم طلب من الجميع رسم صائد سمك. انهمك الجميع في تسويد صفحات الورق إلا أنا، قلت له:

ـ أنا لا أعرف أن أرسم، ولكني أعرف كيف أصف أبي.

طلب مني أن أقف إلى جانبه وطلب من الطلاب أن يسمعوا وصفي، عندما انتهيت قال لي:

ـ أنت يا بني ستصبح كاتباً وأديباً عندما تكبر.

لم أفهم ماذا قصد، كان كل همي أن يريحني ويعفيني من الرسم لكنه لم يفعل. بدأ يعلمني بأسلوبه وأنا معه حتى أجدت الرسم وأصبح بإمكاني أن أرسم وجه أبي وملامح أمي!

مضت الأيام وأنا أنتقل من سنة إلى سنة حتى جاء يوم التخرج وقد كبرت وعرفت أن لدى المدرسة مبلغاً من المال حجزوه لي من الرواتب التي تمنحها الدولة. حفظت لهم هذا الصنيع وخرجت إلى الناس لأنني بعد شهر سألتحق بالجامعة.

الناس في مدينة الرياض طيبون، لكن المدينة كبيرة تكبر كل يوم وأنا أقطن "العليا" هذه الضاحية الجميلة التي سعدت بها حيث استقبلتني يافعاً لتودعني فتياً.

وطرأت على بالي فكرة، لماذا لا أعود لأرى أبي؟ كان أبي يكتب إلي وأنا أكتب له لكنه لم يأت لرؤيتي.

مشاغل الصيد حرمتني منه وحرمتني من أمي التي ماتت بعد عامين من مغادرتي القرية.

ركبت الطائرة إلى تبوك ومنها ذهبت بالسيارة إلى بيت أبي في "حقل".

كان كل شيء قد تغير. التطور وصل حتى إلى هذه القرية. وتذكرت كلام الرجل حينما قال لي إن جيلكم غير جيلي. ونظرت إلى البيت الذي لا يزال على حاله، والرجل الواقف بجانب الباب هو أبي، وألقيت عليه التحية فالتفت ولم يصدق عينيه أول الأمر، وبعد أن تأكد ناداني:

ـ سالم.

وعندما أجبته ألقى بجسده علي، وتنفس الصعداء ولم يتحرك بعدها فقد مات أبي!

التف الناس حولي وأخذوا يهونون علي، محاولين التخفيف عني بأني قد ظفرت منه بردّ، السلام!

كنت أبكي بحرقة لأنني رغم كل ما وصلت إليه أجد نفسي قد أذنبت في حق هذا الأب الذي هو أبي، هذا المسكين الذي يموت اليوم بين يدي دون أن يتحدث معي أو يعرف أحوالي وإلى أين وصلت ليسر بي ويعتز. أبي عالم كبير رغم بساطته وعفويته. حكايات تطن في أذني، أسمعها من حولي عذوبة ألفاظه تأسرني ضحكاته التي كانت تنطلق ملء فيه أحس بها تخالط دمي وأعصابي.

وتمضي أيامي في القرية، أهب البيت لأخلص أصدقاء أبي الحاج محمود الريس، كان أبي يحبه كثيراً ويتمنى أن أكون مثله. قابل الرجل هبتي بدموعه، وأصر على أن أبقى بضعة أيام. رأيت خلالها ابنته هبة التي كبرت هي أيضاً أعجبتني هبة أنوثة مع دلال وجمال، كأنها جنية من جنيات البحر، في وجهها سمرة خفيفة منحتها تصميماً وإرادة. هبة لا تزال طفلة في إهاب امرأة، جادة أكثر من اللازم، تزم شفتيها عندما تتحدث، تواصل تعليمها في السنة الثالثة الإعدادية، تميل إلى الرسم، صورها بدائية اختارتها من البحر، ألوانها هادئة تميل إلى الاحتشام ككل بنات القرية. أمضيت أياماً رائعة مع الرجل والد هبة قال لي وهو يودعني:

ـ هي أمانتي عندك.

واغرورقت عيناه، أحسست بدموعه تلهب كفي. هبة كانت تنظر إلينا بدهشة. لماذا يبكي والدها؟ آه لو تعرف، فالعجوز يريدها لي زوجة. لقد أخذت أفكر في الأمر بجدية. هبة تناسبني، شكلاً وموضوعاً، لكن من يدري، ربما كان لها رأي آخر، التفت إلى هبة، قلت لها:

ـ أود أن أراك في الرياض، مع عمي.

وأشرت إلى أبيها. انفرجت أسارير الأب وهو يسمع كلامي، لكنني كنت أنتظر من هبة أن تقول شيئاً. قالت كلمتها في عفوية، مجرد كلمة واحدة:

ـ "يا ريت". عرفت معنى ما تريد أن تقوله هذه الفتاة، فأكملت كلامي:

ـ سأبعث لكما عندما يستتب الأمر لي، بتذاكر السفر.

شعرت بالفرحة تغمر وجه الفتاة بعد أن شدت على يدي.

عدت إلى الرياض، وبدأت أبحث عن عمل حتى وجدته، أصبحت أعمل مساء في شركة كبيرة وأدرس في الصباح، تمضي الأيام وأنا أستعجلها. وبعد أن رتبت أموري بعثت أدعو الشيخ وهبة، بعثت بتذاكر السفر في رسالة، انتظرت جوابها على أحر من الجمر. جاء الرد وعرفت موعد الوصول. استقبلتهما في المطار، لقد كبرت هبة، وأصبحَتْ في آخر سنوات الدراسة الثانوية.

أوصلتهما إلى البيت، في سيارتي الصغيرة. نسيت أن أقول لكم بأن أم هبة

التي ماتت كانت خالتي، وهبة ابنة خالتي، أمضينا أياماً رائعة حضر خلالها العم محمود مناسبة تخرجي من كلية التجارة، أما الشركة التي أعمل فيها فقد أعطتني منصباً مناسباً.

فاتحت الشيخ في الزواج من هبة، وافق بسرعة وسألها فلم تعط جواباً. زفت إلي في هدوء وها نحن نعيش جميعاً في بحبوحة وسعادة.

استفادت هبة من وجودها، في المدينة كزوجة، رسمت عدداً من اللوحات، اشتركت بها في معرض من معارض الجمعية، جميع لوحاتها بيعت، سلمتني مبلغ خمسة وعشرين ألف ريال قيمة هذه اللوحات فضحكت وقلت:

ـ هي لك يا هبة.

قالت في حزم:

ـ لا، ضعها في البنك، فهي لابننا.

وعندها عرفت بأن هبة حامل!

فكرت في الأمر ملياً، ونظرت إلى هبة بحب وقلت لها:

ـ أنت أم رائعة.

وضحكت من أعماقي، لكن ضحكتي توقفت. تذكرت في تلك اللحظة موقفاً لا يمكن أن أنساه وهو موت أبي على كتفي فجأة. وقلت لنفسي: ترى كيف سيكون الحال بالنسبة لي؟

لاحظت هبة شرود ذهني فقالت:

ـ أظنك تفكر في ذلك الأمر.

وهززت رأسي وكأنني أجيب على كلامها، فضحكت وكانت في ضحكتها إشراقة لحظتها لأول مرة، ومضت تتحدث في حيوية:

ـ لا، أنت غلطان، تلك إرادة الله، فلا تفكر في أشياء كهذه، فنحن نريدك لنكبر جميعاً وعندها..

وصمتت فقلت:

ـ ماذا؟ عندها لا يصبح للحياة طعمها الذي نحس به ولهذا فعلينا أن نمضي.

واحتويتها بساعدي وقلت:

ـ كم أنت رائعة يا هبة، يا هبة الله.

أصبحت أباً يا ولدي

الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل والسماء تلمع بومضات متفرقة، تبدو في سماء المدينة التي أعيش فيها، طوكيو، فقد حجبت أضواء الكهرباء صفاء السماء ونقاوة الجو، فبدت سماء المدينة وقد خنقت أضواء النجوم التي كنت أراها في الصحراء تلمع في أناقة.

لطالما عشت على أضواء النجوم ليالٍ طويلة، أمضغ الألم في صوت لا يسمع عندما كنت صغيراً؛ تشجيني أنات الطيور، وهي تزقزق والنغران وهي تغني حتى إذا ما هدرت أصوات المياه في جداولها الصغيرة، سخت قناديل الأزهار التي ارتفعت جذورها من الأرض الصغيرة لتحل مكان الدالية الصغيرة.

مواء القطط يثيرني في الليل عندما ترتفع أصواتها مصادفة بينما يرتفع نباح الكلاب السلوقية وكأنها تحاول أن تحمي السياج بأسلوبها المفضل.

في هذا الجو كنت أعيش في صحراء اليأس، .أقتات الظلام وأفترش الطريق، صغيراً وراء أغنام أبي التي أحبها، وحنان الطفلة الصغيرة معي ترعى أغنامها.

لقد ذهب أبي بعد أن كبرت، عاش أيامه كلها بالطول والعرض، فلقد منحته الأرض ما أراد، لم يكن يظن أن الحياة في الباحة ستكون على ما هي عليه الآن، شق الطريق أنفاس القرية ولكنه لم يقتلها بل منحها النماء، وأعطى أهلها المال. الأمتار القليلة التي اقتطعت من أرض أبي يوم مر الطريق بأرضه كانت من الأيام المشهودة، مرض أبي مرضاً طويلاً، دام أكثر من ثلاثة شهور، لم يشف منه إلا بعد أن

تسلم الشيك الذي جاء به أخوه، الذي كان يضحك لأن الدولة لم تأخذ شيئاً من أرضه.

عشرة ملايين من الريالات دفعة واحدة! من كان يصدق؟ كان الشيك حديث أهل المدينة، فقد كان أبي والشيخ العجوز الذي يعيش في مزرعة قرب مزرعة أبي، هما اللذان أخذا هذا المبلغ.

ولقد عرض العم عبد الله مبلغ شيكه على أبي ودفع به إليه هدية منه جزاء لخدمات أمي التي كانت تقدمها للعجوز.

نالني من المبلغ مليوني ريال كتبها الرجل لي، لأنني أنا الذي كنت أنقل له طعامه من مطبخ أمي.

لو عرف الرجل الحقيقة، حقيقة أبي وخناقاته المتتالية مع أمي على هذا الإسراف ليوفر باقي المبلغ في جيبه لما دفع لأبي شيئاً منه.

أمي كانت تقول لأبي:

- ألم أقل لك اعمل "طيب تجد الأطيب"؟

أبي يضحك وهو يتحدث عن الثروة التي هبطت عليه من السماء.

تزوج أبي بامرأة جديدة، فتاة صغيرة تعمل مدرسة في مدرسة القرية.

أبي، على فكرة، لا يقرأ، يكتب اسمه بصعوبة، لكن المال الذي سال بين يديه أسال لعاب الصبية في المدرسة. أبي أرضى أمي بمليون ريال إضافة إلى ما قدمه لي الرجل اشترت أمي عمارة في الطائف لأن أهلها هناك وأصبح لنا ريع يأتينا مع أول شهر.

بوفاة أبي، أخذت الزوجة نصيبها من الثروة ونصيب أخي وغادرت الباحة إلى صيدا، مدينتها التي ولدت فيها رغم أن عمي كان يطمع بأن يتزوجها لجمالها ولمالها وليس كما يقول لأنه يريد أن يربي ابن أخيه.

انتقلت وأمي إلى الرياض. أمضيت خمس سنوات في دراسة الهندسة؛ ونجحت بامتياز. أمي عادت إلى الطائف واستقرت فيها، في الفيلا الصغيرة التي اشترتها مؤخراً.

قالت لي أمي كلاماً كثيراً، وهي تسافر بعد أن عرفت بأنني سأسافر إلى

طوكيو لدراسة الهندسة الإلكترونية في جامعتها "صوفيا"، وهأنذا هنا في هذا الشارع المتفرع من شارع جنزا.

طوكيو مدينة كبيرة، لكنها منظمة، ما عدا الشوارع الكبيرة، فهناك طرق صغيرة تؤدي إلى الفلل التي يقطنها رؤساء الشركات وأغنياء اليابان، عرفت هذه الطرق لأنني دعيت لتناول طبق فول مصري عند السكرتير الأول حمدي الذي يعمل في مكتب الجامعة العربية هناك.

الفنادق في مدينة طوكيو كثيرة وكبيرة، بعضها كفندق نيو أوتاني أشبه بمدينة ترتفع طوابقها إلى ٥٤ طابقاً.

هنا، البيوت الحديدية التي تزرع تحت البحر بأسلوب تقني جميل، لكن المضحك أن أصحاب هذه البيوت يدخلون بيوتهم عن طريق الغطس في البحر.

وأنا في غرفتي في الدور العاشر والساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل والنجوم التي أحبها تومض من بعيد لكن ما يشغل بالي شيء واحد، أمي.. لو استطعت أن أقنعها بأن تأتي لتعيش معي هنا.

أمي امرأة لا يمكن أن تغير مواقفها، فهي عندما ترفض تنفيذ أي شيء، لا يمكن أن تستجيب وهي لا تحب أن تترك فيلتها في الطائف.

هكذا قالت لي في رسالتها الأخيرة لكن الأهم من هذا كله أنها رأت حنان.

حنان هذه كانت تقضي معي أوقات الصباح "ونحن نرعى البهم" وهي صغيرة، كنت أسمع حكاياها التي تقولها لي وأسعد، فقد كانت راوية ممتازة لكنها انقطعت عن الرعي، وعرفت أنها دخلت المدرسة مثلي؛ ثم انقطعت أخبارها.

تقول أمي إنها رأتها بالصدفة في مستشفى من مستشفيات الطائف، وإنها جميلة وأنيقة وهي ترتدي البالطو الأبيض، وسماعة الطبيب تتدلى من عنقها، وتقول أمي بأنها قد سألتها عني، وأخبرتها بأنني هنا في طوكيو أرعى النجوم بعد أن كنت أرعى الغنم.

وبدأت أقارن بين المرأة في اليابان، وحنان التي عرفتها. وخرجت حنان

من دائرة المقارنة وقد اكتسبتني إلى جانبها لدرجة جعلتني أفكر فيها.

المرأة في اليابان رقيقة ومطيعة ومؤدبة. الشيء الوحيد الذي لم أستطع أن أعرف كيف أفسره، هو أن وجوه الرجال والنساء هنا في طوكيو تتشابه بدرجة عجيبة، وعندما قلت هذا الكلام لبعض من عرفت ضحكوا من كلامي، وقالوا بأن هذا الأمر ينطبق أيضاً علينا نحن العرب والأوروبيين والأمريكان.

الأيام في طوكيو تمر ببطء، وأنا أفكر في الطريقة التي أستطيع أن أتصل بها بحنان، ويوم عزمت على إرسال كلمة لها مع هدية صغيرة عن طريق أمي، تسلمت رسالتها "أعني أمي" وكانت الرسالة عبارة عن شتائم مغلفة، لكوني صنعت منها جسراً، لإيصال رسالتي لحنان ومع هذا، فقد سلمت أمي لحنان الرسالة، وتلقيت الرد منها.

صار كل شيء بالنسبة لوجودي في طوكيو له مذاق خاص لدرجة جعلتني أشمر عن ساعد الجد لأصل إلى نهاية الدراسة بأسرع ما يمكن.

وكانت رسائل حنان مشوقة، قالت لي فيها كل شيء بعد أن عرفت عزمي على الاقتران بها بعد عودتي.

أمي تقول عن رسائلي لها ورسائلها لي بأننا من جيل لا تدري كيف تصفه؟ وتذكر بأن هذا الأمر لو حصل يوم كانت صغيرة بينها وبين أبي لانتهت حياتها.

حنان تكتب لي عن أشياء مدهشة عن أمي، وتقول عنها بأنها سيدة أعمال ممتازة، وأن ما تصنعه أمي لتنمية ثروتنا قد يعجز عنه بعض الرجال، وتقول أيضاً بأن أمي استطاعت بمساعدتها أن تجتاز مرحلة كبيرة في التعليم، وهي الآن تقرأ رسائلي وتكتب ردودها أيضاً.

ولقد انتظرت من حنان أن تبعث لي بصورة من صورها فرفضت، وقالت إنها في طريقها لطوكيو لحضور مؤتمر طبي عن أمراض الكلى، وفهمت منها بأنها تخصصت في هذا المرض، لأنها وأمها يعانيان منه.

بعد قراءتي هذه الرسالة؛ أحسست بأنني أعرف ذلك، لأننا ونحن صغار كنت أحس بالألم يشيع في وجهها عندما كنت أقابلها "كريزة مرض الكلى" وكانت أمها تسقيها مغلي الشيح ليخفف عنها الألم.

ذكرت ذلك لها في رسالتي إليها، وقلت لها بأنني في انتظارها عندما تأتي.

وتمضي أيامي ولياليّ، وأنا أعدها في طوكيو، ويوم جاءت حنان استقبلتها بلهفة، ورأيت وجهها الذي استعدت تفاصيله مع الأيام فكانت أجمل وأحلى مما تصورت، لولا هذه المسحة الحزينة التي أراها تطل من عينيها.

وأمضينا أياماً رائعة في طوكيو هي في الفندق مع زملائها وزميلاتها؛ وأنا في غرفتي.

وأخذت أصطحبها إلى الأماكن التي أعرفها، وشعرت بأن سراً تحاول حنان أن تهمس به في أذني لكنها خائفة.

ومضيت "أجرجر لسانها" كما يقولون، حتى كانت تلك اللحظة التي شعرت فيها بأنني خائف عليها وعلى نفسي. وهالني كل ما قالته حنان، فهي مصابة بمرض خطير يصعب أن تشفى منه إلا إذا أراد الله، وعرفت أن مرضها لا يعدي لكن العلاج منه ميؤوس جداً.

وفكرت كثيراً في كل كلمات حنان وأجبتها أنها، وإن كانت طبيبة وتعرف الشي الكثير عن هذا المرض، وتعرف عنه أكثر بعد أن عرضت نفسها على الأطباء، إلا أن هذا لا يكفي لأن تيأس من رحمة الله، وطلبت منها أن نتزوج في مسجد طوكيو، فضحكت من كلامي. وعندما رأت إصراري طلبت مني بعض الوقت تستشير فيه أمها التي لا تعرف شيئاً عن مرضها.

وفي اليوم الثاني، التقيت بحنان ورأيتها سعيدة، فقد رضيت أمها بهذا الزواج العاجل، وأعلنا ذلك على زملائها وزميلاتها وذهبنا جميعاً إلى المسجد حيث قام بعقد قراننا شيخ تركي، هو إمام المسجد وخطيبه.

وهالني أن يكون الشيخ من بقايا الجنود الأتراك الذين شاركوا في حرب كوريا، وعرفت بأن الكثيرين من أبناء وبنات طوكيو أسلموا على يديه.

وعدنا إلى الفندق لنقضي أيام عسل أربعة، عادت بعدها حنان إلى مستشفاها وعدت أنا إلى دراستي وازدادت رسائلها لي وكانت ملأى بكلمات التضحية كانت ترضيني بأشياء كثيرة، لا أزال أذكرها حتى اليوم.

وعرفت أنها قد حملت خلال الأيام الأربعة، وأن الأطباء حاولوا معها أن

تجهض نفسها بلا جدوى. وجاءتني رسالتها هذه المرة تفيض حباً وفرحاً، فهي تشعر بأنها ستؤدي وظيفتها في هذه الحياة كأنثى، قالت لي كيف أن الأطباء يخافون عليها من الحمل والولادة، وأنها تريد أن تهبني شيئاً يذكرني بها، ولهذا فلن تنصاع لكلامهم.

ويوم جاءت ابنتي إلى الحياة، ذهبت حنان وأنا لا أدري.

واستبطأت رسائلها لي، وحاولت الاتصال بها تليفونياً، فقالوا لي في المستشفى إنها في غرفة العناية المركزة.

وعاودت الاتصال بأمي فسمعت صوتها وهي تشهق وتبكي، وعرفت الأمر، فقد كانت أمي إنسانة طيبة ومؤمنة.

قالت لي:

ـ لقد ماتت حنان الأم وتركت لك حنان الابنة. ماتت وهي تذكرك، وما عليك إلا أن تنتهي من دراستك وتعود، فقد أصبحت أباً يا ولدي.

أصبحت أباً فعلاً، لكن ما يشغل بالي هو أمر واحد، كيف ستعيش هذه الطفلة بين أب غائب وأم احتواها الظلام؟!

النظرة الخجلى

عندما اعتزلت الفنانة العربية ثريا العمل الفني من أجل أن تتزوج، كنت أظن بأن هذه الفنانة "عبيطة جداً" ومتأخرة أيضاً، إذ كيف تقبل أنثى بلغت هذه الشأو من الانتشار أن تتنازل عن كل هذه الشهرة مقابل أن تعيش في الظل كامرأة وزوجة؟

ثريا هذه فنانة، ممثلة، عيناها جميلتان وقوامها رائع، وصوتها فيه بحة يحسدها عليها الكثيرات. سمعتها تغني يوماً ما في تسجيل أسري شاركت فيه هذه الممثلة، بعضاً من بنات بلدي اللواتي عشن فترات كبيرة في مصر فأعجبني صوتها. وكان أكثر ما يشدني إلى هذه الفنانة أن أكثر صديقاتي يرون فيّ نسخة أفضل للنجمة المذكورة. خاب أملي في نجمتي المفضلة بعد أن تركت الفن وارتضت أن تعيش في فناء بيت مع زوج لا تدري إن كانت ستمضي معه عمرها كله أم لا؟

صديقتي رندا تقول عني بأنني ذكية جداً، بالإضافة إلى ما أتمتع به من جمال لكنها تتهمني بشيء من القصور في إدراك معاني الحياة، لأنني أرفض وبشدة أن أتزوج، رغم كثرة الخطاب الذين توافدوا على بيتنا.

وفاء صديقة أخرى قالت لي أكثر من مرة في دعابة محببة:

- لماذا لا تدلين الخطاب أو بعضهم على الأقل على بيتنا؟

أضحك كثيراً لكلام وفاء ورندا، وأهتم فقط بشيء واحد كلام جدتي.

جدتي على فكرة، لبنانية، وأمي سعودية من المدينة، أبوها تزوج أمها، في رحلة من رحلاته إلى صيدا.

تقول جدتي إنها ركبت "الشمندفير" عندما جاءت كعروس إلى المدينة. "الشمندفير" على فكرة كلمة على ما أظن تركية، وتعني القطار.

جدتي هذه تتكلم كثيراً عن سكة حديد الحجاز وتقول بأن والي المدينة التركي، قبل العهد السعودي، أمر بشنق القطار لأنه جاء قبل موعده بنصف ساعة، وعندما سألتها عن سائق القطار ماذا حصل له، قالت بأن الوالي أمر على الفور بأن يتزوج السائق حتى يعرف قيمة الحياة، فالأعزب، في نظر هذا الوالي، إنسان لا يقدر لا الحياة ولا الوقت ولهذا يستعجله.

لا أدري لماذا تقول جدتي هذا الكلام، لكنني أحبها ومن كل قلبي وأستمع إلى كلامها وتعليقاتها الضاحكة. مرة حدثتنا عن هذا الوالي التركي الذي أراد أهل المدينة زحزحته من مركزه، فطلبوا منه أن يرفع طلباً للصدر الأعظم "رئيس الوزراء" يرجوه فيه أن يؤجل دخول شهر الصوم إلى فصل الشتاء، لأن رمضان تلك السنة يجيء والحر على أشده، فأمر الصدر الأعظم بعزله وارتاح أهل المدينة منه.

هنا الكلام قد لا يكون مهماً الآن، لكنني أقوله للتدليل على خفة دم جدتي أولاً وأخيراً، ولأنها كانت تريدني أن أتزوج وبسرعة.

جدتي رغم تغضن وجهها إلا أنها أجمل من أمي. الذين يرونها يعتقدون بأنها أختاً لأمي وليست أمها، وجدتي تؤمن بهذا الاعتقاد، وتقول لأمي كلاماً طويلاً تحثها فيه على أن تحافظ على نضارة وجهها.

أنا ألصق شبهاً بجدتي، ولكنني عصبية وأرضى وأفرح بسرعة، أمي تؤاخذني على هذه "النرفزة" وترى أنه لا مبرر لها، وجدتي تعزو كل نقائصي إلى ابنتها لأنها لم تعرف كيف تربيني كما ربت هي ابنتها، أضحك كثيراً من كلام جدتي، ثم أبدأ أفكر طويلاً فيه، كل حرف تقوله هذه الجدة له معنى.

عندما نلت شهادتي الثانوية، فضل أبي أن أبقى في البيت، لسببين الأول أنه لا يرى ضرورة في أن تتعب المرأة عقلها، في التعليم أكثر مما تعلمت، والثاني كون الجامعة، "وأعني جامعة الملك عبد العزيز بجدة"، لم تفتح كليتها في المدينة المنورة كما هو حاصل الآن.

استمرأت اللعبة، وبقيت في البيت، أطالع وجوه الفرسان الذين يأتون طلباً

للزواج مني فأرفضهم بسبب ودون سبب، أقرأ الصحف بشراهة، وأحب هذه الصحف إلى نفسي الشبكة، والكواكب، والموعد، وأقرأ أخبار النجوم أولاً بأول لدرجة أصبحت أعرف أسماء وهوايات كل المغنين والمغنيات والفنانات وتاريخ حياتهن، وظروف أعمالهن وأشياء أخرى.

أكره أن أطالع المقالات السياسية وأعتقد أن قراءة أبواب السياسة تقصر العمر، لكن أبي لا يوافقني على هذا الرأي. أمي يهمها أن أتزوج، وهي حزينة لأجلي فقد بلغت من العمر أكثر من أربعة وعشرين عاماً. جدتي تقول بأنني جميلة وست بيت، "ولازم أتجوز" وأنا أضحك.

يوم ماتت جدتي، كانت تحلم بيوم زفافي، تحدثت في الصباح عن هذه الرؤيا بحب، وتناولت طعام الغداء معنا كالعادة، ثم ذهبت إلى غرفتها، وماتت.

حزني عليها كان أكبر من أن أتحمله. أمي وجدتها فرصة، لأن تطلب من أبي أن نسافر. قال لها:

ـ إلى أين تسافرين؟

قالت:

ـ إلى لبنان، لأرى أهل أمي.

ضحك أبي وقال:

ـ لكن لبنان يعايش الحرب.

لم تصدق أمي ما قاله أبي حتى أفهمتها حقيقة الوضع. سافرنا إلى قبرص، ورأت أمي بعض أفراد عائلة أمها التي هاجرت إلى هناك. شاقني أن أرى أمي مسرورة بهذا اللقاء، وشعرت بأن أبي هو الآخر مسرور جداً لانبساط أمي وفرحتها.

أمضينا شهراً واحداً هناك، عدنا بعده إلى جدة، أبي انتقلت وظيفته إليها، وشعرت بأن الحياة في جدة شيء جديد علي. أبي يعمل كثيراً، يقضي أكثر من أربع عشرة ساعة خارج البيت، جزء من هذا الوقت صار يقضيه أبي في مكتب العقار الذي شارك فيه أحد أصدقائه، كثر المال بين يديه لدرجة أصبحت حياتنا

شيئاً جديداً يغاير الماضي. عرفت قدماه السفر إلى الشرق والغرب معاً، وأصبح يستثمر أكثر أمواله في سان فرانسيسكو، ولندن، وأصبحت عندنا شقة في نيس وأخرى في كان.

الحياة الجديدة أعجبتني كثيراً، لكن الشيء الذي لم يعجبني، هذا التحول في الشخصية بين شخصية أبي بالأمس وشخصيته اليوم. سمعت أبي يتحدث إلى صديقه، وشريكه عن رغبته بأن يتزوج، لكنه لا يعرف كيف يفضي برغبته هذه لي، وأنا في هذه السن الحرجة.

قال له صديقه في سخرية:

ـ يا أخي ما تزوجها لأول واحد وتخلص. اعمل مثل ما عملت أنا، زوجت بناتي الثلاث من أول خاطب، وكلهن يعشن في سعادة.

حاول أبي أن يفلسف موقفه بكلام كثير، لكن صديقه كان أقدر على إقناعه بالبعد عن كل هذه الفلسفة. عندما شعر أبي بوجودي بقربه غيّر حديثه، وطلب لي فنجان شاي.

دارت بي الدنيا، وأنا أجلس على كراسي الكونتنتال في كان، في مكان أرمق الرجال والنساء وهن يثرثرن في أحاديث لا طائل تحتها لا تتعدى الأزياء والجواهر.

جلست قليلاً أحاول أن أسطو فيها على أفكار أبي. والدي أحس بي وكأنني أحاول أن أسبر غوره فحاول أن يلملم شتات أفكاره بعيداً، وخرجت من جلستي وأنا مقتنعة بأن أتزوج وبأسرع ما يمكن. ولكن أين الخطيب الذي سيأتيني هنا في كان؟ أمي كانت مع بعض صديقاتها في السوق، عادت محملة بأكياس كثيرة طلبت معونتي في حملها إلى الفندق، بواب الفندق كان الأسرع لحمل كل تلك الأكياس، وأخذنا أنا وأمي الطريق إلى داخل الفندق في غرفة أمي.

حاولت أن أفهمها شيئاً مما سمعته بطريقة لا تجرحها أو تثير شكوكها، وطلبت منها أن تعتني بأبي، فضحكت أمي وقالت:

ـ لماذا تطلبين مني هذا؟ وهل أنا مقصرة في هذا يا بنيتي؟

أطرقت قليلاً، وقلت:

ـ لا... لكن المال يا أماه قد يغري الرجال بارتكاب حماقات جديدة.

ـ مثل ماذا يا مها؟

ـ لا أدري يا أماه، لكنها هي الحقيقة. الحكايات التي قرأتها والتي أقرأها فيها أشياء كثيرة تجعلني أطلب منك أن تهتمي كثيراً بأبي.

وجاء أبي وهو يضحك ويقول:

ـ أتتآمران علي؟ أليس كذلك؟

ونظرت إلى وجه أبي وقلت:

ـ لا يا أبي. أنا وأمي نحبك، ونرجو أن تبادلنا هذا الحب بحب أكبر.

واستغرب أبي كلامي وقال:

ـ وما مناسبة هذا الحديث؟

وضحكت وقلت لأبي:

ـ لأنني قررت أن أتزوج أول طارق يأتي ليطلبني منك.

وفهم أبي بأنني عرفت كل شيء، فحاول أن يغير دفة الحديث قائلاً:

ـ وشروطك يا بنيتي في الزوج المنتظر؟

وأجبت أبي:

ـ قد تدور الأيام فتغير من مفاهيمنا تجاه أشياء كثيرة يا أبي فأنا الآن بلا شروط ألا يكفيك هذا يا أبي؟ أما أنت.. فلا أدري.

وأجاب أبي في صدق:

ـ إلا أنا يا بنيتي فلا يمكن أن أتغير.

وارتميت على صدره وأنا أبكي وأمي تضحك، فقد فهم أبي ما أريد، وعرف أيضاً بأنني سمعت الحديث الذي تبادله معه صديقه من البداية حتى النهاية. أما أمي، فقد كانت في واد آخر ولهذا فقد كانت تضحك وتضحك، ورأينا أنا وأبي أن نضحك أيضاً بعد أن عاهدني أبي، دون أن ينبس ببنت شفة، فقد كانت تكفيني منه نظرته الخجلى التي أطلت من عينيه الواسعتين وهو

يتحدث بهما إلي حديثاً صاخباً رغم جلال الصمت وجماله ذلك الذي تمارسه العيون الخجلى.

وقبلت الاعتذار أنا الأخرى من أبي هذه المرة وملء قلبي تصميم أكيد أن أحمي أمي من أي خطر داهم، فزواج الرجل من أخرى بالنسبة لنا، نحن الحرائر، الخطر كل الخطر.

وبدأت أفكر في أمر الفنانة ثريا التي آثرت أن تترك مجدها، وعملها الفني وجمهورها الواسع وأحلامها الكثيرة لترضى بأن تصبح في كنف رجل وأي رجل.

لا أدري، فقد أكون مخطئة، لكن تصوري هذا الأمر لم يأت من فراغ. قد تكون الأنثى في حاجة فعلاً إلى الرجل، وقد يكون الرجل هو الآخر في حاجة إلى الأنثى، لكن حاجة المرأة إلى الرجل أكبر بكثير كما يقولون من حاجة الرجل لأنها تريد الاستقرار ولهذا فهي تفضل الحياة في كنف الزوج دائماً وأخيراً.

أما أنا، فصدقوني، فقد بدأت أحس بأنني أعايش الفرحة رغم كل مظاهر هذا الفراغ الذي أحس به. أولم أستطع أن أمنع أبي من ارتكاب الخطأ في حق أمي.

ونظرت حولي أستعرض وجوه الخطاب الذين طرقوا بابي ورفضتهم وتمنيت ساعتها أن يأتي أي واحد منهم، فقد كانوا جميعاً يصلحون لي. ترى هل قدر لي أن أبقى هكذا أم إن بعضهم لا يزال يرى أنني أصلح للزواج؟

لا أدري، وإن كنت أعتقد أن سني لم تصبح بعد كبيرة وأن جمال وجهي لا يزال رائعاً وأن كل شيء في يستحق أن يجد وليفه في هذه الحياة. وضحكت من أعماقي وأنا أطالع صفحة هذا الوجه على مرآتي للمرة العشرين بحب هذه المرة وأمل أيضاً.

أفضل زوج

أنا امرأة محسودة، أحمل على رأسي تاجاً من الذهب. وجهي يشبه إلى حد كبير، وجه كلوديا كاردينالي، لكن صوتي أكثر حلاوة. أنطلق في أحاديثي مع صديقاتي بعفوية. أمي سورية من حلب، وأبي من الصحراء، من مدينة تبوك.

قامتي طويلة، أعزف على أكثر من آلة. تعلمت العزف وأنا صغيرة، من أمي، التي تعلمته من أمها يوم كانت الاستقبالات جزءاً من حياة المرأة الحلبية. الاستقبال في لغة "أخوالي" معناه اليوم الذي تستقبل فيه المرأة صديقاتها في بيتها.

أهل حلب بطبعهم ميالون للعزف والغناء والتذوق، ويعتبر حكمهم على أي مغن أو مغنية حكماً صحيحاً دائماً.

أمي بعد أن تزوجت أبي، عاشت معه في هذه المدينة. لم تكن تبوك يومها على ما هي عليه. كانت أشبه بقرية صغيرة، يحيطها مزارع كثيرة، تنتج التمور والحبوب، وبعض الخضروات. وعندما جاءت أمي إلى مزرعة أبي، كان الطريق بين تبوك ومعان ترابياً، يقطعه المسافر في أيام، وأبي كان من أوائل الذين يمتلكون سيارة.

درس أبي الطب في جامعة دمشق، وأمي كانت تدرس التمريض.

أحب أبي أمي، أو على الأصح، أحبت أمي أبي، واستطاعت أن تغريه بالزواج منها رغم أن أبي كان عازفاً عن الزواج.

قالت أمي كل ذلك لي، وشرحت لي كيف يمكن للمرأة أن تقتنص فريستها من بين أسنان الأخرى. قالت أمي عن أبي:

ـ كان ولا يزال رجلاً فيه صلابة الصحراء ووفاؤها، يحمل في قلبه أمانٍ كثيرة أولها أن يتمكن من إنشاء مستشفى في تبوك.

عمر هذا الكلام "عشرون عاماً". تغيرت أحوال تبوك، وتغير كل شيء في هذه المدينة. تبوك أصبحت مدينة كبيرة، والطريق الترابي أصبح طريقاً دولياً معبداً "هاي واي".

استطاعت أمي، في بداية حياتي، أن تقنع أبي بأن أدرس في حلب؛ أرسلتني إلى هناك، وبقيت فيها حتى أنهي دراسة الإعدادية. الثانوية أخذتها من تبوك أدرس في كلية التربية وأتخرج هذا العام. أجيد قرض الشعر، نشرت لي الصحف أكثر من قصيدة، وتولت دار نشر كبيرة، طبع أول ديوان لي. اعتبرت ما قامت به هذه الدار مجرد مجاملة، ثم اكتشفت بأنني فعلاً شاعرة بشهادة كل من قرأ شعري.

تبوك مدينة في شمالي المدينة، يختلط سكانها بالأردن شمالاً، وبأهالي المدينة المنورة أيضاً جنوباً، أبي: أمه من المدينة، وأبوه من هنا، جدي لا يزال يمارس عاداته رغم بلوغه الثمانين عاماً، يحب أن يصنع قهوته العربية، ويغني على الربابة، ويركب الخيل، وقد علمني ركوب الخيل، حتى أدمنت هذه الهواية.

الفرس التي أحبها، هي حفيدة فرس قديمة ماتت لجدي، سميت باسمي سهام، عينا الفرس كبيرة وواسعة فيها شبه كبير من عيني.

السنوات التي أمضيتها في حلب، أدخلت على لهجتي لهجة سورية، حاولت أن أتخلص منها ولا أزال، لأنني أحب لغة أهلي، خصوصاً عندما يتحدث بها جدي.

مزرعة أبي كبيرة، وهو يحبها جداً، ويمنحها الكثير من وقته، عندما يعود من المستشفى الحكومي الذي يعمل فيه، لدرجة أن عيادة أبي داخل هذه المزرعة وأبناء المدينة، يحبون أن يروه فيها.

سألت مرة أبي عن أمي، وهل كانت ممرضة شاطرة؟ فقال لي وهو يضحك، وبهزة من رأسه:

ـ نعم، فقد استطاعت اقتناصي.

وتابع كلامه وهو يقول:

ـ كانت موضة أن تقتنص المرأة الممرضة زوجاً لها طبيباً، وزملاء دفعتي على ما أذكر تزوج أغلبهم بممرضات.

في إحدى المرات كنت بجانب أبي، أسأله فيما إذا كان يرضى لي أن أعمل كممرضة، فرفض الإجابة، وأدركت أنه غير راض عن سؤالي، وسألت، فكرر الرفض، ولم أعد للحديث عن هذا الموضوع، فأنا على وشك التخرج من كلية التربية وهذا يكفي.

الشيء الذي كان يزعج أبي، هو أمي، فهي تحب أن تزور أهلها كل عام، وهو إنسان مشغول لا يحب لها أن تكون بعيدة عنه حتى اكتشفت شيئاً آخر، فأبي لا يحب أهل زوجته لأنهم في إحدى المرات عندما كانت أمي في زيارة أهلها، حاولوا أن يفرقوا بينها وبينه ويبقوني معها في حلب، لولا أن أمي كانت عاقلة، فعادت إلى بيتها.

بلغت أمي سن اليأس، وأبي يزداد وسامة وإشراقاً. وجهه البدوي، يحبه كل من يراه وأشعر بسعادة عندما تقول لي إحدى زميلاتي بأن والدي يصلح أن يكون ممثلاً سينمائياً عالمياً أفضل من عمر الشريف.

هوايات أبي متعددة، لكن من أغرب هواياته أنه قادر على زرع جميع الجراثيم، بأسلوب علمي جديد ومبتكر، وهو يواصل إرسال ملاحظاته لأكثر من مجلة متخصصة في أمريكا وأوروبا.

لأبي نزوات، هكذا تقول عنها أمي، وتذكر بانزعاج السنوات التي قضاها أبي، في بريطانيا يحضر لشهادة الزمالة مع طبيبة بريطانية، يحتفظ بصورتها في عيادته.

أمي تكره هذه الطبيبة، رغم أنها تزوجت، وتعتبرها خطراً على حياتها، وأبي يلذ له دائماً الحديث عنها في هدوء وبلا ضجيج أو جلبة.

صورة هذه الطبيبة تقض مضجع أمي، أما أنا فأراها جميلة، وباسمة، عندما أقارن بينها وبين أمي.

لقد انتفخت أوداج أمي من كثرة الراحة، وأصبحت امرأة ثرثارة، تقضي جلّ أيامها مع الصديقات في أحاديث تافهة، مع أنها مثقفة وتتحدث أكثر من لغة.

مكتبة أبي ملأى بصنوف عديدة من كتبه وكتبها التي هجرتها منذ زمن.

أمي تقول عني بأنني متحيزة لأبي ضدها رغم أن أبي لا يشكو مطلقاً، لكنه عندما يتحدث عن بدانة أمي، يغلف كلماته بشيء من المرح.

أبي يعمل كثيراً، ومع هذا يصر على أن يراني ظهراً، أنا وأخي، فهو لا يفضل أن يتناول طعام الغداء بدوننا، ويمضي يوم الجمعة بأكمله معنا، أما باقي الإجازات، فالشيء المحبب لأبي هو أن يراني قبل أن يغمض عينيه للنوم ويطلب مني أن أقفل أضواء الغرفة.

أكثر مداعبات أبي تتجه لي، يحذرني كثيراً من أن أصبح كأمي عندما أكبر، ويضحك من كل قلبه.

عندما جاء ابن عمي حسان من أمريكا، فرح أبي به كثيراً، يستقبله دائماً بحنان ويتحدث معه بمحبة. لم أكن أعرف السبب حتى فهمت يومها من أبي أنه يريدني أن أكون زوجة له.

حسان شاب درس القانون في أمريكا وتخصص فيه حتى نال الدكتوراه، وهو على ما أسمع شاب "خلبوص" تزوج إنجليزية وطلقها دون أن ينجب.

كنت أظن بأن أبي لا يعرف هذه المعلومات، فأفضيت بها إليه وأنا واثقة بأنني أستطيع أن أتزوجه، ليس فيه من عيب، يشبه بعض الشيء والدي لولا بعض الاندفاع عندما يتحدث عن أحلامه.

أبي ضحك وقال بأنه يعرف القصة من أولها إلى آخرها، وزاد أيضاً بأن الفتاة التي تزوجها حسان هي ابنة صديقته الطبيبة.

لعب الفأر في عبي، وبدت نظراتي المتلصصة تحاول سبر غور أفكاره، كان يتحدث بهدوء ويلقي اللوم على الفتاة لأنها لم تعرف كيف توفق بين حياتها وحياة زوجها. قلت لأبي في هدوء:

ـ هكذا أنتم الرجال تلقون اللوم على المرأة عندما تفشل حياة الزوجية.

فضحك أبي وقال:

ـ لا يا بنيتي لقد قلت لحسان عندما جاء يسألني رأيي بأن عليه أن يفكر جيداً ويختار بحرية أيضاً، وأفهمته حقيقة الحياة وأعني بها حياة المرأة في بريطانيا، وكشفت له عن أشياء كثيرة خبرتها شخصياً والتي لولاها لكنت تزوجت أمها الطبيبة التي عرفت، رغم أني قد تزوجت بأمك.

ـ وتقولها يا أبي؟

ـ وما يمنعني أن أقولها وهي حقيقة؟ الرجال يا بنيتي يحبون مظهر المرأة ومخبرها أيضاً. لا يكفي أن تدفن المرأة وجهها في أطباق الطعام لتقضي على رشاقتها لمجرد أنها نهمة.

ـ وتشتم أمي أيضاً وهي غائبة؟

ـ وما أدراك أنني أشتمها، إنني أقول الحقيقة عندما أتحدث عن الرشاقة، أما بالنسبة للطبيبة، فلم أقل لها سوى نصفها.

وضحك.

ـ معنى هذا أنك قد كذبت عليها وقد علمتنا ألا نكذب؟

ـ لا يا بنيتي. لم أكذب، لكنني أخفيت كما قلت بعضاً من مشاعري احتراماً لمشاعر أمك. لقد طالبتها بأن تكف عن هذه السمنة وهددتها بأن أتزوج، فكانت تنظر لي وهي تبتسم. نحن الرجال يا بنيتي يشوقنا أن نرى زوجاتنا في أجمل مظهر. قد تغير الأيام بعض ملامحنا وملامحهن، لكن ظلال الأمس يجب أن تظل على هيئتها مطلة كشجرة وارفة الظلال.

وصمت ثم عاود كلامه:

ـ قولي لي: ما الذي لا يعجبك في حسان؟

لم أكن أتوقع هذا السؤال. كنت أتوقع أن يسألني عن الأشياء التي تعجبني فيه، وفكرت قليلاً وقلت:

ـ موضوع زواجه هذا.

ضحك أبي وقال:

ـ انسي ذلك وخبريني: هل ترينه زوجاً مناسباً؟

ـ ولماذا يا أبي؟ هل تقدم لخطبتي رسمياً؟

ـ لا.

قالها أبي في حزم وتابع:

ـ وإنما كل الذي قاله لي بأنه يريد أن يعرف رأيك ليقدم على طلبه هذا إذا رأى هناك ما يشجعه على ذلك.

ـ أو تريد الحقيقة يا أبي؟

ـ نعم.

قالها في هدوء، فقلت:

ـ صدقني... قلبي يقول لي بأنه لا بد وأن يكون زوجاً ناجحاً، فكثيراً ما تعلم التجارب الناس أسلوب حياتهم.

ـ زوجاً ناجحاً لمن؟

سأل أبي في عفوية.

ـ لأية امرأة.

وصمت، فأحسست بأن وجهي يكاد ينفجر من شدة السخونة. أحسست بأنني أحادث صديقاً لا أباً، وشعرت بشيء من الكسوف يتسلل إلى أعماق أعماقي.

ترى... لماذا يصاحبنا الكسوف نحن الحرائر عندما نتحدث عن الزواج أو ليس هو سنة الحياة كما يقولون؟

وتمر الأيام... كلها حب، فأنا كما سبق وقلت امرأة محسودة. تزوجت حساناً، وبدأت أمارس حياتي الجديدة ومكتب زوجي يعج بمختلف القضايا من كل بلد لدرجة جعلتني أساهم في مساعدته بأن أرتب أوراقه عندما يعود.

ولكم كانت دهشتي كبيرة عندما قرأت ضمن رسائل زوجي رسالة يعتذر فيها زوجي لزوجته السابقة من أنه لن يكون قادراً على متابعة قضية شركة والدها التي تريد أن تقيمها على إحدى الشركات في جدة.

وشعرت بعد قراءة هذه الرسالة بأن حساناً فعلاً قد وضع سداً منيعاً بينه

وبين الماضي، الماضي الذي لا تزال كل أنثى يرتبط في ذهنها بمشاكله رغم تفاهة كل هذه الوساوس التي تراودنا نحن النساء.

ولقد تحدثت لزوجي حديثاً طويلاً مساء تلك الليلة، وقلت له بأن المفروض عليه، كمحام، أن يقبل القيام بهذه القضية التي شعرت بأن عائدها سيكون كبيراً، فقال وبحزم:

ـ لا.. هناك محامون غيري يمكن لهم أن يقوموا بالمهمة. أما مهمتي أنا، فهي المحافظة على هذا البيت الذي يجمعني بك عزيزتي.

ونظرت إلى وجه حسان وشعرت بأن زوجي هو أفضل زوج في العالم.

لقاء بلا موعد

الناس يملؤون الساحة الكبيرة المؤدية إلى السلالم الإسبانية في مدينة روما، بعضهم يفترش الأرض والبعض الآخر يضع أدواته الصغيرة على صناديق خشبية يرصونها بعناية، الوجوه التي تبيع الآثار الصغيرة وجوه شابة، جاءت من كل مكان في أوروبا، بعض الرسامين اختاروا الأرض لتكون مستودعاً لرسومهم بالطباشير حتى إذا ما انتهوا من الرسم انهالت القروش الصغيرة على صاحب الرسم مكافأة له على مقدرته.

بين الرسامين، يوجد أيضاً أكثر من رسامة محترفة. السلالم الإسبانية مشهورة شهرة عالمية في روما وهي دائماً مقر ومستقر للفنانين.

في هذا الجو، وبين مختلف الوجوه التي قابلتني تعرفت عليها، تلتف في ساريها الأبيض الأنيق، لا تحمل بصمات الهندوس أو حتى غيرهم، عيناها السوداوان الواسعتان يخيل لي وأنا أراهما لأول وهلة وكأنهما تغنيان أغنية جديدة وجميلة، قوامها الممشوق وبشرة وجهها السمراء يعطيانها طابع الفتنة، كل أنثى ورجل يحاول استراق نظرة إلى هذا الجمال الشرقي الطاغي.

لم أكن أظن بأنني على هذه الدرجة من الفضول، أنا الذي كنت دائماً لا أحب الفضول، لكنني وأنا هنا فقد رأيت نفسي أمارة وبشكل لا أدري كيف أسميه.

أخذت ألف وأدور وراء تلك الأنثى من مكان إلى مكان وكانت تعرف بلا شك أنني أتابعها لأنني رأيتها وهي تلتفت لي وتقول بلغة

عربية سليمة:

ـ مرحبا... الأخ عربي بلا شك.

ـ وأنت؟

سألتها، فقالت:

ـ عربية في ملابس هندية. في دمي شيء من الهند فجدتي من كشمير.

ـ ولكن كيف عرفت بأنني عربي؟

وضحكت وقالت:

ـ من أشياء كثيرة، من تلصصك على وجهي، من حركاتك الواجفة، من تصرفاتك غير الواثقة عرفت أنك عربي، وفي مقدمة كل هذا فإنني رأيت صورتك. أليس اسمك فلان؟

وابتسمت وقلت:

ـ ولكن كيف عرفت اسمي؟

أجابتني ضاحكة:

ـ قرأته مكتوباً على جاكتتك من الخلف.

فلما رأت استغرابي، قالت:

ـ لذلك قصة. تعال.

وأخذتني من يدي إلى المقهى الصيفي بعيداً عن ضوضاء الشارع.

جلست ميرفت في مواجهتي بعد أن طلبت فنجاناً من القهوة، وتمعنت بنظرتها الفاحصة في وجهي وقالت:

ـ اصدقني الأمر. لماذا تركت دنفر ودراساتك وجئت إلى هنا، إلى روما؟

التفت إليها وقلت:

ـ أنت تعرفين عني أشياء كثيرة، ولكنني لا أعرف عنك شيئاً. من أنت؟

وأجابت بضحكة:

ـ إذا صدقتني القول سأقول لك من أنا... والآن لماذا تركت دنفر؟

أجبتها:

ـ خوفاً من ملاحقة عبير.

وقالت:

ـ كنت أظنك تحبها.

فقلت:

ـ ولكني لا أكرهها، فهي زميلة، وزميلة طيبة، لكنني لم أكن أفكر فيما تفكر فيه، فهي تريد أن تتزوجني وأنا لا بد وتعرفين، ما دمت على هذا القدر من المعرفة فأنا لا أريد الزواج من خارج مدينتي ولكن...

ـ ولكن ماذا؟

قالتها في استغراب.

ـ أنت كيف عرفت كل هذه الأمور؟

وابتسمت وقالت:

ـ لذلك الأمر قصة أحكيها لك.

ومضت تقص حكاية الرسائل التي تتبادلها مع عبير منذ أن كانتا تعيشان في مدينة جدة بعد أن انتقلت أسرتاهما من دمشق.

كانت ميرفت وعبير صديقتين اتفقتا على أن تكتب كل واحدة للأخرى كل ما تصادفه ليكون في مقدور الأخرى فهم ما يجري من جهة ومساعدة الأخرى على اجتياز المشاكل فيما إذا ظهرت.

ولقد حدثتها عبير في رسالتها عني وعن رفضي للزواج إلى آخر ما جاء في الموال الذي كنت طرفاً فيه بلا رغبة، لكنها الظروف والصدف، ولكن... والتفت إلى ميرفت وقلت:

ـ أنت الآن تعيشين هنا في روما بلا شك.

ضحكت ميرفت وقالت:

ـ قلت لك بأن أسرتي تعيش في جدة أما أنا ففي رحلة دراسية أقوم خلالها بجمع أكبر معلومات ممكنة عن الرسم والرسامين إذ إنه هوايتي ودراستي أيضاً وأحضر كتاباً عن هؤلاء وأمثالهم ممن تراهم وغيرهم أيضاً من ناس بلادنا.

قلت:

ـ إذن أنت هنا بمفردك؟

أجابت:

ـ نعم. وإن كانت الرقابة الذاتية أقوى وأقدر على صون ما أقدسه وأؤمن به، هي التي تشدني، فلا تعتقد أنني أستطيع أن أسهر إلى الوقت الذي أريد، فأنا عندما يسقط قرص الشمس في البحر ويأذن الله لليوم بأن ينتهي أجد من الضروري أن أكون بعد هذا الوقت في غرفتي فأنا أكره "الصرمحة" التي تقوم بها المرأة الأوروبية أو غيرها.

وافترقنا على أمل في لقاء جديد. ترى كيف سيكون اللقاء؟ ذاك أمر شغل بالي لدرجة كبيرة جعلتني أنسى أنني في روما، المدينة التي أحب أسوارها وآثارها وأسرارها وحواشيها، وكل شيء فيها. ومضيت في طريقي لألتقي بصديقي الذي رافقني الرحلة. كنت متعباً لدرجة جعلتني أفكر في إلغاء السهرة التي اتفقنا عليها لكن دخول الدكتورة ريتا، أستاذة التاريخ الإسلامي في جامعة روما، جعلني أعدل عن هذا القرار فهي التي دعتنا لهذه السهرة، ومضينا إلى المطعم الإيطالي الذي اختارته لترينا فنون أبناء هذه المدينة وبناتها.

وبدأ البرنامج حافلاً بصور كثيرة، شاهدنا خلالها لوحات رائعة، لقصص الحب الرومانسية القديمة، ومضت الدكتورة تثرثر كعادتها قائلة:

ـ قد تكون المرأة الإيطالية أقرب إلى المرأة المصرية لا لأنها ابنة البحر الأبيض المتوسط، وإنما لأنها تشعرك في كثير من ملامحها وملامح حياتها بأنها صنو للأخرى.

ومضت الدكتورة ريتا تعدد نقاط الالتقاء والخلاف وكأنها أستاذة "علم الاجتماع" وفجأة أطلت واحدة من اللواتي كن على مقربة منا.

قالت كلوديا، وكان هذا اسمها:

ـ لا بد وأنكم من الإسكندرية!

كانت تتكلم بلغة عربية مكسرة فلما أجبناها بالنفي، قالت الدكتورة ريتا بلغتها العربية السليمة:

ـ أنا إيطالية وهؤلاء الأخوة عرب من السعودية.

وجلست كلوديا بيننا وقالت:

ـ لقد استمعت إلى حديثكم وتذكرت أيامي التي قضيتها في الإسكندرية. فأنا إيطالية مولودة في العطارين، أمضيت نصف حياتي في الأنفوشي وسيدي جابر، حتى جاء فارس الأحلام.

وأشارت إلى الرجل الذي كان يشاركها مائدتها:

ـ وخطفني لأعود مرة ثانية إلى روما. صدقوني لقد أحببت حياة الإسكندرية، لدرجة جعلتني أفتقد ثرثرة أخواتي المصريات، فعلى الرغم من أن الإيطالية ثرثارة ولكن ثرثرتها من نوع آخر، فهي تحب أن تقارن بينها وبين بطلة قصة ألبرتو مورافيا دائماً، امرأة من روما، وأنا أحب ثرثرة الإسكندرية لأنها مفيدة.

وبدأت تحكي نكتاً كثيرة ضحكنا لبعضها وصمتنا ونظر كل واحد منا إلى الآخر حتى إذا ما استأذنت عاودنا سهرتنا في حديث طويل، كدت أنسى تفاصيله من كثرة تفكيري في الأخرى "ميرفت". ترى كيف تجمع الصدف بين الناس، فتمنحهم الإحساس بالسعادة حيناً والإحساس بالراحة حيناً آخر؟

وبدأت أفكر لدرجة جعلتني أنسى كل من حولي حتى إذا ما أمضيت في ذلك لفتت نظري الدكتورة ريتا لاستغراقي في التفكير بقولها:

ـ لا بد وأن هناك ما يشغلك... ترى هل درست في الإسكندرية؟

وأجبتها بالنفي وقلت:

ـ أنا أدرس في أمريكا.

فقالت:

ـ كنت أظن أن الأخرى، وتعني الإيطالية، قد أهاجت ذاكرتك عن الإسكندرية ومصر.

وضحكت وقلت:

ـ ربما كنت أفكر في كل الذي قاله أبي عن الإسكندرية، فهو الذي درس فيها وليس أنا.

وسألتني الدكتورة ريتا عن أبي فلما عرفته قالت:

ـ أو تدري أن أباك كان من أعز أصدقائي؟

وبدأت تحكي عن فترات تواجد والدها في جدة كطبيب معروف، كنت بالفعل شاهدت لافتة باسمه على مكان ما في جدة فقلت لها:

ـ وأين هو الآن؟

قالت:

ـ يعمل في جزيرة اسمها اسكيا، أختارها لهدوئها ولأنه يوجد في هذه القرية مسجد قديم.

قلت:

ـ أو أسلم والدك؟

قالت:

ـ نعم. وإن كان لم يعلن إسلامه هذا، ولهذا فهو الوحيد الذي يزور المسجد في هذه القرية أو الجزيرة.

ومضت تصف الجزيرة وكأنها ولهى تحبها من قلبها لدرجة اشتقت أن أعقد في هذه الجزيرة قراني على ميرفت.

وسألت نفسي: ولماذا ميرفت بالذات؟ أوليست الآنسة أجنبية؟

وبدأت أفلسف موقفي لا لأرضي نفسي فقط وإنما لأسيطر على أحاسيسي تجاه تلك الأنثى التي واجهتها مصادفة.

وانتهت السهرة لأمضي طوال الليل أحاول أن أكتب حروف هذه القصة في انتظار نهايتها أو بدايتها، لا أدري، حتى إذا ما جاء موعد اللقاء كنت جاهزاً لأرى ميرفت.

وانتظرت مقدمها أكثر من نصف ساعة كنت خلال دقائقها أتحفز للقائها لأقول لها كل شيء ولأكاشفها بحبي ورغبتي في أن أتزوجها لكنها، وبكل أسف، لم تأت وإنما كل الذي تلقيته منها رسالة صغيرة قالت فيها كلمتها ثم ذهبت.

أو تدرون ماذا كان في هذه الرسالة؟ دعونا نقرأها سوياً:

"أيها الصديق الذي لم أعرفه بعد...

كنت حريصة فعلاً لأن ألقاك في الموعد الذي اتفقنا عليه لكنني ولحرصي عليك وعلى نفسي خصوصاً بعد أن درست موقفي من جميع جوانبه رأيت بأنني إذا استمررت في لقائك قد أسرقك من صديقتي وهذا أمر لا يمكن أن أقدم عليه.

فكرت كثيراً في كل ما تحدثت به إلي وعرفت من تعابير وجهك أشياء كثيرة. ثق بأنني أقدرها وأحترمها أيضاً.

لكنني، وأنا كما لا تعرف، صاحبة مبادئ يعز علي أن أسرق وقتاً من إنسان ليس لي على الرغم من أني كنت حريصة على اللقاء.

اعذرني إذا تأخرت فأنا أعرف أنك قد جئت في الموعد المحدد وأنا عندما أكتب إليك هذه الرسالة فإنما أكتبها من مكان قريب منك حاولت فيه أن أراك ولا تراني.

ثق بأن لقاءنا كان على غير موعد، ولذلك أرفض أن يكون على موعد خصوصاً وأنني مرتبطة بكلمة منحها أبي لواحد من أبناء العائلة لا أحبه ولا أكرهه، لكنني وعلى الرغم من الحرية التي أنالها فأنا حريصة على التقاليد. أوامر أبي بالنسبة إلي شيء لا يمكن أن أتنازل عن تنفيذه. سررت بالدقائق التي أمضيتها معك، وسأتذكرها يوم تعود ومعك صديقتي زوجتك".

كان التوقيع بكلمة "أنا" لأنها كانت لا تريد أن أحتفظ بالقصاصة لكنني وبالرغم من أنني لم أتزوج صديقتها، فقد رأيت أنا الآخر من الضرورة بمكان أيضاً أن ألبي طلب الأسرة الذي تناسيته سنوات طويلة فأكتب إلى أبي ليخطب لي ابنة عمي التي لم أحبها ولم أكرهها. وهاأنذا، وبعد أن مضى على زفافي أكثر من خمس سنوات، لا تزال الورقة في حافظة نقودي أنتظر الساعة التي أراها فيها لأعطيها إياها فلقد أسعدني أن أعود إلى سابق فكري فلا أتنازل عن الاقتران بأنثى من بلدي وقد كان حتى ذلك اليوم الذي رأيتها فيه وهي تدخل أحد الأسواق التجارية في هذه المدينة تمسك في يدها بطفل يشبهها إلى حد ما.

مرت بي سريعاً وكأنها لم ترني، فرأيت من الأفضل أن أنسى إعطاءها الورقة وأن أخرجها من دائرة حياتي، فبدأت أمزقها إرباً إرباً وألقي بها على الأرض في عصبية، وساعتها التفتت لي وكأنها تبتسم، هكذا خيل لي، ورأيت أن أفلسف هذه الابتسامة فأقول عنها بأنها ابتسامة شكر ولا شيء غيره لإنسان التقت به على غير موعد ونسيت موعده أخيراً.

امرأة من الجموم

أنا امرأة من الجموم، اسمي هلا، عشت أكثر سنوات حياتي في هذه القرية التي أحبها.

فيها ولدت، وفيها عاش أبي وأمي. لأبي بستان صغير نعتاش منه، كبرت وترعرعت فيه، وأحسست بالسعادة وأنا أجوب كل شبر في تلك الأرض الطيبة. صديقاتي يقلن عني بأنني طيبة رغم صلابة تفكيري. ويقلن أيضاً بأنني، رغم جمال وجهي، ففيه الكثير من صلابة الصحراء ونقاوتها وصفائها. أمتاز بالرصانة والهدوء والصبر والاحتمال. التحقت وأنا طفلة بأول مدرسة ابتدائية أنشئت في القرية، وواصلت تعليمي حتى نلت شهادتي الثانوية. أمي بيضاء وجميلة وأنيقة أيضاً، تتدلل على أبي دائماً وتقول بأن أمها تركية وأبي بوجهه الأسمر وقامته الممشوقة يضحك من أعماقه عندما يسمع هذا الحديث.

لم أكن الوحيدة التي درست حتى الشهادة الثانوية، جارتي وصديقتي سارة هي الأخرى درست معي. سارة تقول عني بأنني جادة أكثر من اللزوم وأنني صريحة، وصراحتي تصل إلى حد القسوة في بعض الأحيان. أبي اختار لي واحداً من أبناء القرية غير بعيد عنه فهو ابن أخيه ليزوجني به، تحدثت أمي كثيراً عن صالح وقالت كلاماً لا أزال أذكره. كان أكثر كلامها في صالحه فهو ابن أختها أيضاً.

نسيت أن أقول لكم إن الجموم ضاحية من ضواحي مكة، تبعد عنها بحوالى ٣٠ كيلومتراً، وتتميز بكثرة البساتين الزراعية، وتشتهر بزراعة النخيل والحمضيات، أهالي مكة يعتبرونها متنزهاً لهم،

ويقضون فيها بعض الوقت.

"صالح" هذا لا يجيد القراءة ولا الكتابة رغم أنه زينة شباب القرية جمالاً وكمالاً وأدباً. سارة صديقتي قالت لي يوم عرفت بأنه خطبني:

ـ إذا كنت لا ترغبين فيه، فابعثي به إلى أبي.

ضحكنا سوياً، وعرفت منها أن أكثر بنات القرية يتمنين الاقتران به. صالح هذا ليس بغريب علي، أنا أعرفه منذ أن كنا أطفالاً لكنني وأنا صغيرة كنت أنفر منه لمجرد إحساسي بأنه أجمل من أن يكون طفلاً. أمه دللته كثيراً، وكانت تخاف عليه من أعين الحساد، فترهق عنقه بأحجبة كنت أراها وأنا صغيرة بأنها منافية للدين والذوق أيضاً.

كبرنا معاً، حتى حان الوقت الذي ابتعدت فيه عنه، اشتغل هو بالعمل في الأرض، وانشغلت أنا بالدراسة. المرة الأخرى التي جاء فيها صالح إلى بيتنا كانت قبل شهور من كلام أبي.

شعرت بأن صالحاً أصبح رجلاً. كبر كل شيء فيه، وأصبحت نظرته أقوى وأنصع رغم ما يحيط بوجهه من جمال، وشعرت بأن قامته قد طالت وساعده قد اشتد، كما أضافت الشمس إلى وجهه سمرة جديدة لا أدري كيف أعبر عنها.

نظرت إليه يومها وقلت له:

ـ كبرت يا ابن عمي.

فقال لي:

ـ لماذا لا تقولين كبرنا معاً؟

وضحكت ومضيت إلى داخل البيت أنادي أمي، لتأتي لمقابلته. بعد أن عرفت بأمر خطبته لي، أصبحت أتجنب لقاءه وإن كنت أرى بين الفينة والفينة خالتي، التي تبثني دائماً تحياته فكرت كثيراً في الأمر، فقلت لأبي بأنني موافقة، بعد أن قررت بيني وبين نفسي أن أكون لصالح الزوجة والمدرسة أيضاً.

وقد كان، ليلة الزفاف، كانت شيئاً مذكوراً في القرية، حضر الحفل أكثر فتيات القرية وفي مقدمتهن صديقتي سارة التي قالت ولأكثر من مرة:

ـ اليوم زفاف أجمل زوجة وزوج.

ضحكت من كلامها، وقلت:

ـ إنك تبالغين.

فقالت:

ـ احتفظي لابني ببنتك يوم تلدينها، ففي اعتقادي أنها ستكون أجمل امرأة في الحجاز.

ضحكنا أكثر وأكثر، وضحكت أمي، ولكنها كانت تتمتم، تتلو آيات قرآنية، تحاول بها أن تبعد شبح الحسد عني من قول صديقتي، أبي كان سعيداً، وكذلك عمي أبو صالح المريض، أمضينا أمسية جميلة وشعرت بالسعادة بعد أن وطئت قدماي عتبة بيتنا الجديد.

وتمضي الأيام، وقد قررت ما قررت، أصبحت لصالح الزوجة والمدرسة، لدرجة جعلتنا نمضي أكثر من خمس ساعات ليلياً في الدراسة حتى هضم صالح دروس الابتدائية ودخل الامتحان ونجح بتفوق.

أحس صالح بطعم العلم، ومضى في دراسته، وحقق زوجي قدرة عجيبة على الفهم والإدراك فقد كان شعلة من ذكاء واستطاع أن ينال شهادة الكفاءة نظام ثلاث سنوات في سنة وكذلك الأمر بالنسبة للثانوية، وهو اليوم يحمل الثانوية مثلي، وفي الواحدة والعشرين من العمر، وأنا وإن كنت أصغره بشهور إلا أنها ليست كثيرة. يوم مات أبوه كان بالنسبة لنا يوماً عصيباً فصالح كان يحب أباه كثيراً، لكنها سنة الحياة... فنحن نأتي إلى هذه الدنيا ونخرج منها دون أن ندري.

تعرفون أن كل شيء في بلادنا تغير إلى الأحسن، لدرجة أستطيع أن أقول بأن قريتي هي الأخرى تغيرت. الكهرباء عمت كل مكان، والمدارس انتشرت، وصالح أصبح له أصدقاء من المدرسين وغيرهم.

في يوم من الأيام قلت لصالح:

ـ لماذا لا تلتحق بأية جامعة لتأخذ البكالوريوس؟

فكر صالح قليلاً وقال:

ـ فكرة... سأنتسب إلى كلية الشريعة في مكة المكرمة.

وقد كان ما كان، وأصبح صالح يقضي بعض الوقت في مكة وبعضه في الجموم قبل ثلاثة أعوام تخرج صالح من الكلية، والتحق بقسم الدراسات العليا ونال الماجستير واختير لأن يسافر إلى أمريكا ليحضر الدكتوراه في القانون. جاء فرحاً مستبشراً بهذه البعثة وقال لي:

ـ ما رأيك؟

ولأول مرة في حياتي أحس بأنني قد أخطأت في حق نفسي بحثه على الاستزادة من العلم. لا تظنوا أننا في حاجة ماسة إلى النقود وأن وجوده في القرية ضروري، ولقد أغنتنا ظروفنا عن هذا وأصبح لدينا عوائد كثيرة من المال تأتي إلينا من العمارتين اللتين بناهما صالح، والأخريين اللتين بناهما أبي في مكة المكرمة، بالإضافة إلى ما لدينا من دكاكين ودور في الجموم.

قلت لصالح:

ـ دعني أفكر في هذا الأمر.

واستشرت صديقتي سارة فقالت لي:

ـ ومن مثلك ستصبحين حرم الدكتور صالح عندما يعود؟

وقلت لها:

ـ أتعتقدين أنه سيسافر بمفرده؟

قالت:

ـ على الأقل في البداية. فهو، كما ترين، لا يعرف شيئاً عن المدينة التي سيدرس بها.

وجاء الليل وعاد صالح من مكة المكرمة وقد رتب أمر سفره. أحسست بفرحته الغامرة وشعرت بسعادته وفرحت أنا الأخرى كثيراً عندما قال لي:

ـ أنت السبب في هذا الذي وصلت إليه فلولاك لما تعلمت.

وأمضينا ليلتنا نناقش أمر سفره وماذا سيصنع، ومتى يمكن لي أن ألحق به؟

كرر أكثر من مرة بأنه حريص على أن آتي معه، ولكنه استبعد مجيئي قبل مضي عام، وذكر من الأسباب ما جعلني أوافق معه على ذلك. وسافر زوجي، وبقيت أنا. لم أكن يومها قادرة على الحركة، لأنني امرأة حامل. اتفقنا أنا وصالح على اسم المولود سواء كان ذكراً أو أنثى. وأحسست يوم سافر زوجي بفراغ هائل. البيت بالنسبة لي أصبح موحشاً، أحست أمي بذلك، فجاءت لتمضي معي أياماً فيه، خالتي مشغولة بأولادها، أما أمي فليس لها سواي.

قالت لي أمي:

ـ لكم أنت جميلة ورائعة وطيبة يا بنيتي فلقد استطعت أن تمنحي صالحاً السعادة في كل شيء ولكن...

وصمتت أمي.

ـ ولكن ماذا يا أمي؟

ـ لا أدري ماذا أقول يا هلا، فأنا أم وأخاف على صالح من ديار الغربة. يقولون إن نساء أمريكا قادرات على خطف الأزواج بسهولة، وصالح كما ترين صورة مغايرة للأمريكي أو الأوروبي في وجهه جمال الصحراء وبهاؤها وفي قامته شموخ الجبال جبال الحجاز.

قلت:

ـ لا عليك يا أمي، فأنا أدرى بصالح فهو كما تعرفين يحبني كثيراً ثم فوق هذا وذاك فأنا كما تقولين جميلة ورائعة.

وصمت فصمتت أمي، لكن كلامها جعلني أفكر كثيراً في صالح حتى جاءتني أول رسالة منه. قال لي صالح:

"لم أكن أظن بأنني قد أحس بالاختناق لهذه الدرجة إلا بعد أن وصلت إلى مطار جدة وأخذت طريقي إلى الطائرة. كنت فرحاً بهذه الرحلة، فإنها يا معلمتي الصغيرة غرس يديك وقد قيل في الأمثال: من علمني حرفاً كنت له عبداً، فهل ترضين.. الاختناق لدرجة جعلتني أفكر في أن أعود مرة ثانية إليك وإلى بيتي وإلى الولد الذي ستنجبين. خفت أن أفعلها، فيكون موقفك مني مغايراً لما أردت، وأنا أعرف حرصك على أن أصل إلى القمة. على العموم،

سأكتب لك كل شيء وأصف لك كل شيء".

وأخذ يسهب في ذكر الرحلة حتى وصل إلى نيويورك ومنها إلى سان فرنسيسكو، تقول الرسالة:

"ولقد استقبلني في مطارها، أحد إخواني الطلبة، كانت برفقته زوجته، فقد كانا يظنان أنك ستكونين معي ولهذا صحب زوجته معه. صدقيني ساعتها أحسست بأنني ظلمتك بالبقاء، وقلت للصديق الذي أراه لأول مرة بأنك تأخرت لأنك ستلدين قريباً. ولكم سعدت بهذا الصديق الذي احتفى بي كثيراً، وشعرت بأننا نحن أبناء هذه المملكة تجمعنا ببعض روابط كثيرة حتى وإن لم يعرف أحدنا الآخر، ولقد عرفت هنا أشياء كثيرة، لولا هذا الصديق كانت غريبة علي وعلى محيطي، لكنني تأقلمت.

أتصدقين بأنني نجحت في امتحان التوفل، وكنت أهاب هذا الامتحان؟ وفي الحقيقة لولاك أنت لما نجحت. صدقيني بأنني أفتقدك هنا، وستعجبين من كل هذا الذي أقوله، فالمرأة يا زوجتي هنا أشبه بدمية يستثمرها كل صاحب حاجة، رغم ما وصلت إليه من علم.

الشيء الذي أبهجني أن زوجة صديقي، تدرس في كلية الطب، وتعتبر مفخرة للمرأة في بلادي، فهي دائماً وفي كل امتحان تنال الامتياز باستمرار، تذكرتك كثيراً، وقلت لنفسي بأنك أنت ستكونين مثلها عندما تأتين هنا، رغم مولد طفلنا فهنا، كما فهمت، يوجد دور حضانة كثيرة يمكن أن تحضني فيها طفلنا أثناء الدراسة".

قرأت هذه الرسالة كثيراً وشاركتني في قراءتها صديقتي سارة، التي قالت لي وهي تضحك:

ـ يا بختك، فهو يتذكرك دائماً.

ونظرت إليها بطرف عيني معاتبة، فقالت وفي همس:

ـ أنت تعرفين ما أقصد فأنا صديقتك وأود لك الخير، وأرغب أن تلدي بأسرع ما يمكن لتذهبي إليه. فالرجال يا صديقتي في الغربة يضيع بعضهم ويخاف على بعضهم الآخر، من بعضهن.

وتمضي الأيام، وألد نورا. كل شيء فيها يذكرني بأبيها صالح، وتتصل رسائل زوجي التي نتبادلها في حب، حتى إذا ما أصبح عمر نورا ستة شهور، حملت نفسي ونورا وسافرنا إلى سان فرنسيسكو. كل شيء في المدينة جميل، شقتنا الصغيرة "جندوقة" كما تقول صديقتي سعاد أو الدكتورة سعاد. وبدأت أعلم نفسي لأدخل الجامعة، لكنني وبعد أن عرفت بأنني سأغيب عن ابنتي بعضاً من الوقت تناسيت الموضوع واكتفيت بأشياء صغيرة.

يقول زوجي عني بأنني قارئة نهمة، وأنا أضحك من هذه التسمية، لأن بقائي في البيت فترة طويلة بجانب ابنتي، بالإضافة إلى أن ترتيب الأكل والشقة لا يأخذ وقتاً كما كنا في الجموم، كل ذلك أتاح لي الفرصة لأن أقرأ وأقرأ وأقرأ..

وعرفت من القراءة أشياء كثيرة، عرفت المجتمع الأوروبي والأمريكي، وكيف تعيش المرأة في هذين المجتمعين، وسررت لأشياء كثيرة كنت أقرأها، وعرفت بأن أمريكا، هذا البلد الذي استطاع أن يتعايش فيه كل الناس ومن جميع الأجناس يستطيع أن يكون شيئاً بالنسبة للعالم العربي إذا استطعنا تطويقه إلى جانبنا.

ومضت أيامنا أنا وابنتي وزوجي على أسعد ما يكون، حتى دخلت حياتنا امرأة، يقول زوجي عنها بأنها زميلة عراقية. لم أرتح لرؤية الفتاة بادىء ذي بدء، فقد كانت تستخدم من أدوات التجميل أكثر مما تستخدمها طالبة، واستمرت نظرتي إليها تتصف بشيء من الخوف أصاب قلبي أنا المرأة التي لا تخاف. وتحدثت لزوجي عن شكوكي لهذه المرأة لا يمكن أن تكون صديقة مطلقاً لكن زوجي لم يستلطف الأمر، وقال:

- لا تنظري إليها هذه النظرة فهي عربية، ونحن في حاجة إلى الأصدقاء العرب .

وصمت ولم أعد إلى الحديث عنها. هي التي كانت تأتي إلى بيتنا في أي وقت اعتماداً على أنها زميلة زوجي، حتى ذلك اليوم الذي سمعتها وهي تتحدث إلى زوجي خلسة، كنت خارج البيت أشتري أشياء يحتاجها المنزل، وفتحت الباب لأفاجأ بأنها معه، مع زوجي، في غرفة الجلوس ورأسها على

كتفه، وتسللت كلماتها إلى أذني، وهي تقول:

ـ متى نتزوج يا حبيبي؟

وأعرضت عيني وأحسست بدوار عنيف يحيط بي فلم أشعر إلا وأنا في غرفة النوم وزوجي وهي يتساءلان:

ـ ماذا جرى لك؟

لم أنطق بكلمة، بل مضيت أطالع صفحة وجه زوجي، وأنا أفكر: هل يمكن أن يفعلها؟ وما هي الطريقة التي أستطيع أن أهرب به بعيداً عن مخالبها؟ هذه القطة المتوحشة التي تريد أن تهدم عشنا بإصرار؟

ورأيت من واجبي أن أعالج الأمر بشيء من الحكمة والهدوء، فزوجي رغم ظروف الحياة التي نعيشها، هو نفسه ابن عمي صالح، الذي تزوجته في قريتي الجموم. ربما غيرت منه المدنية الغربية شيئاً أو بعض شيء لكنه يظل بالنسبة لي صالح الذي صنعت منه هذا الرجل الذي يحمل الدكتوراه، فأنا قادرة على أن أحميه من هذه الغريبة وأحمي بيتي أيضاً... أو ليس هذا يكفي؟

بلا أسوار

يعز على أولئك الذين نعموا بطراوة العيش وجمال الحياة أن يفارقهم عزها بينما هم قد وطدوا حياتهم وأسلوب معيشتهم على وتيرة واحدة، تراهم مشدودين إليها بحكم ممارستهم لهذا الأسلوب من المعيشة وتلك الطريقة من الحياة.

لكن هذه الدنيا التي جبلت على أن تهب وتعطي قد تمنع في بعض الأحيان عطاءها فتلهب ظهور أولئك الذين لم يعوا حقيقة الوجود على هذه الأرض فكل شيء فيها إلى زوال، تلك حقيقة يجب أن يضعها كل واحد منا في ذهنه ونصب عينيه ليهون عليه من بعدها شح الحياة وبخلها. وهو واحد من أولئك الذين نعموا بطراوة العيش وجمال الحياة حيناً من الدهر ظنه بادئ ذي بدء باقياً أمد وجوده، فظروف الحياة التي عايش والأيام التي أمضاها لا تزال تطل من ذاكرته بصورها وأحداثها وكل شيء فيها وكأنها تكاد تلتصق بجدار فكره وقلبه، وهو قابع على كرسيه يتأمل السماء بنظرة لاهية حاول من خلالها أن يكتشف موقعه على هذه الأرض، بعد فترة تأرجح طويلة.

ترى لماذا يظل الإنسان مشدوداً لماضيه، منسجماً بعض الشيء مع حاضره متطلعاً إلى مستقبله؟

أو يخشى الناس كل الناس على ما هو آت وكيف يكون الغد؟

الذين عاشوا منهم في ضنك يأملون أن يأتي الغد بأفضل من الأمس، والذين عايشوا أمسهم في رغد يأملون أن يأتي الغد بأرغد مما كانوا عليه.

هذه هي سنة الحياة، لكن الأمور على هذه الأرض قد تختلف

بين الفينة والفينة.

ويستقرئ الماضي ليرى صورة تبدو أمام ناظريه تتلاحق في عفوية وكأنها صدى دائم لأيام لا يزال يعيشها ويعايشها يتقاسم معها أدوار الحياة في رواء عجيب يكاد يحسه ينطلق من قمقمه في دخان متصاعد ليتجسد على الأرض ذكرى لا يدري منها إلا إنها كذلك.

أو يمكن للإنسان أن ينسى لحظات السعادة وأوقات الراحة والهدوء والاستئناس؟ وهل يمكن أن يضفي الشقاء الوافد ظلاله السريعة ليطمس آثار حياة السعادة التي مضت؟

ذلك ما يفكر فيه وهو جد مشوق لأن يعرف أسباب كل هذا الانقلاب في حياته ومسبباته.

قد تختلف متطلبات الحياة بين يوم وآخر وكأنها بين مد وجزر، وهو يشعر بأن الجزر قد أصاب حياته بعد أمد طويل.

أو يكون هو السبب فيما آل إليه حاله فقد كان طوال سنوات الثلاثين لاهياً بعيداً عن أن يصنع شيئاً يستطيع أن يضيفه إلى تلك الثروة الهائلة التي أورثها إياه والده فجاءه الغد بالنسبة إليه شيئاً مغايراً جديداً يحمل إليه من المفاجآت ما يجعله يغير أسلوب حياته وطريقة معايشته لهذه الحياة.

لقد درس وتعلم، وحمل من الشهادات أرقاها وأكبرها ولكنه، مع كل هذا الذي درس وهذا الذي تعلم، لم يكن شيئاً مذكوراً لأنه لم يمارس ما درس ولم يستفد بما تعلم. كان العلم بالنسبة إليه مجرد رفاهية اختارها عن رضى وكأنه يمارس جزءاً من حياته التي عاش.

ألمعيته في الدرس قضت عليها رفاهية العيش، ضيعتها تفاهة التصرفات التي كانت بالنسبة إليه شيئاً صبيانياً لم يشعر به إلا بعد حين.. لماذا؟ أو يمكن أن يتعرف الإنسان إلى ذاته بعد توغله في سنوات العمر أم أن التجربة وليدة الصدفة بمقدار ما هي وليدة الاحتكاك؟

يقولون عن هذا الإنسان بأنه إنسان مجرب خبر الحقائق كلها وعرف الحياة فهل هو من هذا النوع أم لا؟ ذلك شيء لا يمكن أن يتكهن به، فعلى الرغم من

ظروف معايشته للأحداث التي مرت بحياته منذ ذلك اليوم الذي غادر فيه مسقط رأسه في المدينة التي أحب وخلال أكثر من عشرين عاماً تنقل خلالها من بلد إلى بلد وتعرف إلى الكثيرين وخبر الحياة وأحس بطعمها الرائق لأنه كان قادراً على أن يشتري هذا الطعم الرائق بما يملك ولقد دفع من أجل ذلك الكثير لدرجة أصبح بعدها من أولئك الذين يمكن أن يصنفوا من فئة المتلافين الذين لا يدركون للمال قيمة أو وزناً.

أنثى واحدة هي التي استطاعت أن تفهمه حقيقة واقعه يوم كان في جامعة بنسلفانيا يدرس العلوم السياسية كطالب من الطلاب المجدين.

لم تكن تلك الأنثى سوى زميلة درس شاءت الصدف أن تضعها في طريقه. جميلة رقيقة لكنها كانت فوق كل ذلك أكبر عقلاً وأفضل تصرفاً.

لم تغرها الحياة ورفاهيتها وقدرة عائلتها المادية أو تغير فيها رشدها عن التفكير في أسلوب تعايشها مع هذه الحياة.

رغم أنها منحته أجمل ما لديها فملايين والديها وتفوقها الدراسي وجمالها الخارق كل هذا كان بالنسبة إليها شيئاً عادياً لدرجة أصبح يكره فيها نفسه لأنه لم يكن مثلها كثير التواضع، قادراً على التصرف في حدود واقعه كطالب.

لقد قالت له يومها:

ـ إنك بهذه الملابس الفاخرة وهذا الزي تذكرني بالطاووس المزركش الذي يود أن يختال على رفقائه بريشه المزركش وإلا لماذا لا تكون مثل هؤلاء الطلاب، شكلاً وموضوعاً وأسلوباً؟ إنك تصرف عن سعة وكأن كل شيء ملكك وتنسى أنك تصرف من لحم حي كما يقولون فهذا أمر سيء، فلقد عرفت عنك وعن أسرتك الكثير.

إن المال لا يتكاثر إلا بالعمل وأنت لا تعمل شيئاً سوى أن تصرف ما لديك لماذا؟

لقد فكر كثيراً في كلامها هذا ولكنه كان يخرج بعد كل تفكير بشيء من اللامبالاة وينسى أن ما تقوله فتاته هو الحقيقة.

يوم غادر إلى بلاده كان كل شيء قد انتهى! أضاعه ببذخه وسوء تصرفه

فلم يبق له إلا الفتات وهذا الفتات لا يمكن أن يصنع له شيئاً.

وعاد بذاكرته إلى أحاديث جدته التي كانت تقص بها عليه يوم كان صغيراً، فلقد استطاع والده أن يجني ثروته كلها من معصرة السمسم التي كان يديرها في الشبيكة حتى إذا ما تحقق له ما أراد، انتقل من مكة المكرمة ليعيش في مدينة الرسول ﷺ.

وهناك على تلك الأرض اقترن بوالدته بعد أن سخر كل أمواله لتجارة الأقمشة التي أتت إليه بعائد استطاع من خلاله أن يوفر الحياة الكريمة لأسرته وله هو ابنه الوحيد.

لقد كان حلم والده أن يصل ابنه إلى أرقى درجات العلم طوال حياته على أن يشاركه في عمله وأفرد له في نفسه مكاناً استطاع من خلاله أن يتسلل لتنفيذ جميع رغباته في رعونة.

ترى لو كان والده اليوم على هذه الأرض، ماذا سيقول وهو يرى ثروته التي جمعها قد ذهبت في تنقلاته الكثيرة ورحلاته المتعددة؟

واليوم بعد أن فقد كل شيء، هل يمكن أن يبدأ حياته الجديدة بكد وجد، فيعيد ذلك المال الذي فقده؟

قد يستطيع بشهادته أن يعمل، ولكن الوظيفة في نظره قيد محدود الأجر لا يمكن أن تعيد إليه ما فقده وهو يرغب أن يعيد كل ما فقد من مال وبأسرع ما يمكن ولقد عاش شهوره الأولى يرمق أوضاع الحياة وتطورها في بلاده فالسنوات التي أمضاها خارجها جعلته بعيداً جداً عن مجرياتها حتى إذا ما وثق من الأسلوب الذي سيمارس به حياته الجديدة انطلق يبني مؤسسة المقاولات بطريقة فذة جعلها وسيلته للوصول إلى هدفه المنشود فهو وإن فقد المال لم يفقد عقله بعد. وبدأ بمراسلة فتاته أسبوعياً وكأنه يقدم في رسائله تلك تقارير يتلقى بعدها نصائح كثيرة طالما ساعدته على اجتياز المحنة حتى إذا ما وقف على قدميه، جاءته رسالتها معلنة عن أن مؤسسة والدها ترغب في أن تقدم خبرتها في مجال البناء لبلاده.

ومع رسالتها تلقى رسالة أخرى من مدير عام الشركة يخبره فيها عن اختياره شريكاً لهذه الشركة التي عرفت بأن هناك إمكانيات كثيرة تستطيع من

خلالها تحقيق الأرباح التي ترجوها.

ولقد فكر كثيرا في هذا العرض وحاول أن يرفضه لكنه عندما أعمل فكره، عرف بأن في هذه المشاركة مزيداً من العمل وكثيراً من المال هو في حاجة إليه.

وابتدأ العمل في الشركة الجديدة في مدينة جدة بأسلوب جديد لم يمارسه من قبل لكن قدرته على الاستيعاب منحته الفرصة لأن يبدو أكثر خبرة في هذا المجال الذي اختارته له فتاته التي عرفت كيف تبقى مجرد سكرتيرة تعمل في صمت لتوظيف قدرتها في خدمته. فهي تشعر بأن هناك واجباً يقضي عليها أن تفعل ذلك من أجله دون أن تعرف السبب.

ولقد حاول أن يعرف منها سر كل هذا الاهتمام إلا أنها كانت تضحك وتقول:

- دعني أمارس تجربتي في صمت بعيداً عن الكلام فأنا أحس بحاجتي لأن أبني شيئاً في هذه الدنيا أنا التي ولدت وفي فمي ملعقة من الذهب.

- ولكني أنا الآخر ولدت مثلك.

- لكنك أضعت هذه الملعقة في وقت ما، وها أنت تعود لتضعها من جديد بأسلوب يحسدك عليه الكثيرون.

- ولكنك تشاركينني استعادتها وأنت حريصة على أن تفعلي هذا السبب لا أدريه.

- ربما كان السبب أننا صديقان جمعتنا مقاعد الدراسة في الجامعة. أو تدرك معنى الصداقة التي تربط بيننا نحن الطلبة والطالبات؟

- وماذا أيضاً؟

- لا شيء سوى أنني أردت أن اختبر مهارتي في إجادة نوع من العمل كنت أظن أنني قادرة عليه.

- هكذا إذن!

- وماذا تريد مني أن أقول؟

- قولي ما يخالج صدرك الآن فأنت تريدين أن تصنعي معروفاً مع إنسان كان لا يعي من الحياة سوى أنانيته وحبه لذاته وملذاته.

وصمت فقالت:

ـ إذا قلت لك إنني أردت هذا أكون مخطئة لأنني لم أفكر فيما فكرت فيه لكن هناك شيئاً آخر يشغل فكري ويجعلني أتلهف على أن تستعيد مالك الذي فقدت ومركزك الأسري الذي أضعت لأنني...

وصمتت.

ـ لأنك ماذا؟

ـ أنت أدرى بما أردت أن أقول، لكن دع كل ذلك إلى حينه وتعال معي لدراسة هذه الخرائط، فغداً نحن على موعد مع عمل جديد يجلب لك ولي الراحة.

ـ ووالدك أهو مطمئن لما أقوم به ويثق بمقدرتي في صنع المستقبل الذي أريده؟

وأجابت:

ـ نعم... لطالما تحدثنا سوياً عن هذا، وهاأنذا في بلدك أرقب تطور العمل معك في لهفة من يرى ويرقب بتآخ ما يصنع وكأن هذه النتائج شيء أكبر مما يتصوره إنسان، أفهمت الآن؟

وأطرق عماد برأسه إلى الأرض والتقت أفكاره مع أفكار فتاته "هيلين" وكأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً. ترى أو تريد هذه الفتاة أن يعايش تجربتها إلى الأبد؟ ولماذا تنفرد الفتاة في المجتمعات الأمريكية بهذا المنطق والقدرة على اجتياز ما يقف أمام هذا المنطق من صعاب؟

ربما كانت صلابة الموقف هي التي أوحت لفتاته ما أوحت، وربما يكون السبب في كل ذلك هذا الشعور الذي يخامر قلبه تجاهها كامرأة في أي مجتمع أقدر على البذل والعطاء لمن تثق وتحب أكثر من الرجل.

والتفتت هيلين إليه وقالت:

ـ أولا يكفي كل هذه الثرثرة اليوم فظروف العمل تقتضي أن نكون أنا وأنت قادرين على إبداء الرأي في مشروعنا والذي نأمل أن يكون بداية الطريق في مشوار طويل بشيء فيه قوة واعتداد.

ومضت إلى خارج الغرفة وكأنها تودعه إلى لقاء قريب.

أما اليوم، فلم يعد لليأس مكان في قلبه فها هي أمواله التي فقدت في طريقها إلى العودة بعرق جبينه وقد وجد هذه الأنثى التي أحس أنها تدخل قلبه من أوسع الأبواب.

وهو يشعر بعظمة التضحية التي تقدمها، ويعرف بأنها أكبر من أن تستطيعها كل أنثى ومع هذا يشعر بالرضا وهو يتسلل إلى أعماق أعماقه ويرى بأن فقدان ماله كان السبب في أن يصل إلى ما وصل إليه.

لقد ضلت قدماه الطريق سنوات من الزمن أما اليوم فقد عرف قلبه وقدماه وكل شيء فيه الطريق إلى حياة جديدة ملؤها العمل والحب والتفاني والبناء.

وهو يحب أن يكون هذا الرجل بعد أن كان ذاك الإنسان.

ويخلو إلى نفسه وكأنه يحاسبها على ما ارتكبت طوال الدراسة من أخطاء أصبحت تسد عليه منافذ الطريق، ولقد أورثته لامبالاته ظروفاً من الزمن قلق فيها وخاف لكنّ الإرادة الصارمة والعزم القوي جعلاه يعرف كيف يحول هزائمه في الحياة إلى انتصار وهو يعرف بأن كل هذه القوة تعود إلى إيمانه بالدرجة الأولى في أن طريق العودة يجب أن يبدأ بالخطوة الأولى حتى إذا ما بدأها جاءت هيلين بأفكارها وآرائها وما قدمت لتشارك في صنع الخطوات التي تلت خطوته الأولى ولتعبّد له الطريق بأسلوب المتمكن الذي درس مشكلته وعرف حلها ومضى في هذا الحل في اعتداد وقوة وإيمان.

ترى هل يحب هذه الأنثى؟ وإذا كان يحبها، فهل يمكن أن يتزوجها؟ وهل ترضى بالإقامة الدائمة في بلده هي التي عاشت على أرض تختلف طينتها عن طينة هذه الأرض؟

أفكار كثيرة راودته تلك الليلة وهو قابع بهذه الأفكار التي جاءت فلربما كان شعاع فجر حياته الجديدة سيظهر مع اقتناعه واقتناعها بالخطوة الجديدة التي لا بد أن تكبر بعد كل هذا الذي بنته هيلين حتى إذا ما أذن فجر يوم جديد، مضى إلى مكتبه ليقابل ابتسامتها الصافية وهي تحيط بالوجه الأبيض المشرب بالحمرة بشيء من التفاؤل ومضى يحييها في صمت.

ونظرت إليه هيلين وقالت بعد أن استمعت إلى تحيته:

ـ ربما من يراك يشعر بأنك كنت طوال الليل تحاول اتخاذ قرار حاسم لكن ما يريحني هو أنني أستطيع أن أقول إنك قد توصلت إليه.. أليس كذلك؟

وأجابها بهزة من رأسه وتابع قوله:

ـ ولكنه قرار ينتظر قراراً آخر منك.

ـ حتى إن قلت إنني سأفكر؟

قالتها هيلين بدلع وهدوء:

ـ نعم.

وأطرق برأسه إلى الأرض قليلاً وكأنه يتحاشى أن ينظر إلى عينيها الخضراوين حتى لا يؤثر في إجابتها، لكن هيلين لم تصمت وإنما بادرت بقولها:

ـ لقد كان قراري أسبق من قرارك ولهذا تراني هنا.

ومد يده ليشد على يديها في صمت وكأنه بهذه الحركة يحاول أن يودع اليد البضة أماني المستقبل وأحلامه وأهدافه وكل شيء فيه. ونظر إلى عينيها ليراهما على حقيقتهما بلا إسار ولا أسوار أيضاً.

وهو من أولئك الذين يحبون أن يتخطوا الحواجز والعقبات فالفترة التي عاشها أخيراً مع هذه الأنثى منحته القدرة لأن يعرف الطيب من الرديء، وأن يصنع ما يعيد للحياة طعمها الرائق في فمه ولطراوة العيش لذتها وعزها. ولكن أو ترضى هيلين بما قرر؟ ونظر إليها متسائلاً، فتشاغلت عنه بأداء بعض الأعمال، لكنها كانت ترمقه بطرف خفي وكأنها تحاول أن تستشف أفكاره من أعماق أعماق نفسه.

ونظرت إليه وكأنها تستلهم عينيه أفكاراً محددة حتى إذا ما عرفتها هزت رأسها موافقة، فقال:

ـ أو يعني أننا نستطيع أن نتخطى كل هذه الأسوار، وأنت ستواصلين معركة الحياة معي في هذه البلاد؟

وأجابت:

ـ لم لا ، وقد قررت ما أفعل ووضعت نصب عيني ما يجب أن أضع فأنا أحس اليوم بانتمائي إلى هذه الأرض أكثر من ذي قبل.

أو تصدق عندما أقول لك بأنني أحببت هذه الأرض من أحاديثك عنها؟ لكن أفعالك كانت تخيفني وعندما جئت إليها وجدتها أكبر وأجمل مما ذكرت وأعظم.

فأسرار الدنيا كلها تتجمع على صعيد هذه البلاد التي قدر لي أن أراها عن كثب وأتعرف إليك فيها عن كثب.

فطبيعة الإنسان على هذه الأرض شيء مغاير لطبيعة الإنسان على أرضي. إنه على ما أظن أسير تعاليم ورثها نتيجة إيمانه وأنا كما أود أن تعرف، أحب الذين تعرف قلوبهم طريق الإيمان، الإيمان بالنسبة لي الأمان المطلق.

أو تصدق بأن أسرتي كانت تخاف علي أن أصل إلى هذا المفهوم لكن قدرتي على الإقناع جعلتهم يتأكدون بأنني لن أفعل شيئاً لا أقتنع به، وهاأنذا وقد اقتنعت نتيجة دراسة ما أقرأ من كتب، وأجدني وقد عرفت الكثير الكثير من الممارسة والاحتكاك فأنتم هنا على هذه الأرض أسعد حالاً لأنكم بفطرتكم تعمدون إلى الخير وأنا إنسانة أكره الشر وأحب الاستقرار.

انظر إلى أعماق أعماق نفسي تر أن قلبي اليوم بلا أسوار لأنني أردت له أن يكون كذلك.

والتفتت إليه لتراه واقفاً بجانبها ينظر إلى وجهها بكثير من الحب وكثير من التقدير، فهذه الأنثى جديرة بأن تكون زوجته وأماً لأولاده، فضحكت من أعماق نفسها الصافية وقالت:

ـ أحقاً تقول؟

ـ أقول ماذا؟

هذا الكلام الصامت الرائع أكاد أقرأه في عينيك وأحس به يطل من بين نبضات قلبي، فأنت اليوم غيرك بالأمس، فكل هذا الذي نراه لن يكون لك وحدك وإنما لأولادنا يوم نتزوج أيها الصديق العزيز، لكنني مع كل هذا، سأحاول أن أبعد عن الأولاد عندما يأتون إحساسهم بأنهم ولدوا وفي أفواههم

ملاعق من ذهب، وأعمل على تحصينهم ضد المرض الذي أصابك بادئ ذي بدء.

وضحكت، أما هو فلم يضحك، وإنما قال بجدية:

ـ خيراً تفعلين، فأنا أفكر اليوم بأسلوب يماثل ما تحسين به، وأعتقد أننا أقدر على صيانة أفكارهم لأنني وأنت سنحاول معاً تحصينهم من شرور الإحساس بطراوة العيش والبذخ، دون حساب!

وضحكا هذه المرة ومن قلبيهما معاً.

نادي الأطفال

أحبُّها هذه المرأة، لا لأنها جميلة وذكية، ولا لأنها هي المرأة التي اخترتها لأن تكون زوجتي، وإنما لأنها امرأة تحب الأطفال. يوم جاءت إلى بيتنا، كانت تحمل ضمن حقائبها حقيبة كبيرة سوداء، أذكرها وكأنني أراها أمام عيني الآن، ملأى بعرائس صغيرة كتبت على كل واحدة منها اسمها في سوار ذهبي صنعته بنفسها حول يد العروسة.

في غرفتي انتشرت كل هذه العرائس، لدرجة جعلتني أحس في بعض الأحيان بأن زوجتي امرأة تبالغ في طفولتها، لكنني، وبعد أن مرت سنواتنا في هدوء ورزقنا بالولد الأول والثاني وبناتنا الثلاث، شعرت بأنها من معدن ثمين. أحسست بعدها بأنني ظلمتها يوم قلت عنها ما قلت.

زوجتي تحب الأطفال كل الأطفال، لا تفرق بين ولديها وبناتها وأولاد الجيران، وتشعر بسعادة غامرة وهي ترى أكثر أطفال الحي يمضون يومهم في دارنا، أيام الإجازة، يسرحون ويمرحون وهي كالديدبان، تقف على راحتهم، تمنحهم حبها. تلاحظ صغيرهم، حتى لا يسقط في بركة السباحة التي أشدتها في بيتي ولم أستمتع حتى بمرآها من بعيد لأن أصوات الأطفال وطلباتهم ترهقني، وأنا إنسان يحب الهدوء.

من أجل هذا، صنعت زوجتي شيئاً جديداً لغرفة المكتبة التي أجلس فيها أكثر أوقاتي. جاءت بأخيها المهندس ليعمل على تنفيذ ابتكاراته بوضع حواجز الصوت في جدران المكتبة لدرجة شعرت

بعدها بالارتياح، لأنني لم أعد أستمع إلى أصوات الأطفال وصراخهم وهم يلعبون على طرف البركة.

كل بنات الحي وأطفاله الصغار تعلموا السباحة في بركتنا، وعلى يد زوجتي التي أصبح جل همها إرضاؤهم، لدرجة جعلت نساء الحي يشدن بتضحيتي وما تقدمه زوجتي لأطفالهن الذين أصبحوا يقضون الساعات في دارنا بنسبة تكبر عن نسبة تواجدهم في بيوتهم.

طفلتي الصغيرة مي، تغار من الأطفال وترى في انصراف أمها إلى راحة الضيوف تقليلاً من شأنها هي باعتبارها آخر العنقود. فقد كانت تريد من أمها أن تكون لها، ولها وحدها لدرجة جعلتها تتحدث في هذا الأمر ولأكثر من مرة بأسلوبها الطفولي العفوي.

قالت لي مرة:

- ما رأيك يا والدي في هذا الذي تصنعه أمي؟ أليس فيه حرمان لك ولنا منها نحن الذين نحبها؟

وقالت لي مرة ثانية:

- أتصدق يا أبي بأن أمي أخذت علبة الشوكولا التي اشتريتها لي لتوزع أكثرها على أطفال وطفلات الحي؟

كنت أستمع إلى كلمات الصغيرة بهدوء وأحاول أن أشرح لها ميزة ما تصنعه أمها. فهي بهذا الأسلوب أضافت عدداً من الأخوات والأخوان إلى أخويها وأختيها، وأصبحت تعيش بين مجموعة من الأطفال يفوق عددهم عرائس أمها.

نسيت أن أقول لكم بأن زوجتي وحيدة والديها لأنها البنت الوحيدة مع ستة أخوان يكبرونها كثيراً. عاشت في بيتها الكبير محرومة من أن تلعب أو تلاعب الأطفال لأن أمها ترى في اختلاطها بهم شيئاً غريباً لا تسمح به. ولهذا اختارت عرائسها بدلاً منهم حتى إذا ما أنجبت، انفجر حبها للأطفال وأصبح بيتنا "لونابارك" مصغرة.

عجزت في البداية عن فهم ما ترمي إليه زوجتي، حتى إذا ما كبرنا فهمت منها السبب.

زوجتي لا تكتفي بتعليم الأطفال السباحة، وإنما تحاول أن تلقنهم علوماً كثيرة. يشغل بالها أكثر دروس الدين والتربية وتقويم العادات السيئة وما إلى ذلك.

قلت لزوجتي يوماً:

ـ لماذا لا نفتح في بيتنا مدرسة للأطفال تنمين هواياتك وتكسبين من أجور هؤلاء الأطفال الذين ستدفعها أمهاتهم لك، فيكون في هذا الأمر دخل جديد تحاولين تنميته، لتكبر المدرسة؟

زوجتي تضحك من كلامي هذا وتقول لي في هدوء:

ـ أعرف أنني أضايقك بما أصنع، لكنني، وهذه الحقيقة، أجد متعة كبيرة في البقاء مع الأطفال أكبر وقت ممكن، ولهذا تجدني أضن بوقتي أن أضيعه في الزيارات والاستقبالات، وهذا من حسن ظنك فقد كفيتك شر أشياء كثيرة في مقدمتها شراء الملابس الغالية.

أفكر في بعض الأحيان في كلام زوجتي فأجد أنها على حق لأنها بهوايتها هذه أزاحت عن كاهلي مشكلة طويلة وعريضة يعاني منها الأزواج كثيراً. فزوجتي لا تحب الملابس الغالية وتأنف من ارتدائها على الرغم من أنني أشتري لها منها الكثير، فأنا إنسان دائب الحركة لا أستقر في مكاني، أعمالي تتطلب مني أنا أسافر، وعند عودتي أجد نفسي مدفوعاً لشراء الكثير لها ولبناتي وأولادي.

في رحلة من رحلات الصيف زارت زوجتي ملجأ للأطفال في أحد البلدان الغربية، ورأت الأسلوب الذي تمارسه موظفات هذا الملجأ. أشادت زوجتي بقدرتهن على منح الأطفال كل هذا الحنان، وقالت لي كلاماً كثيراً عرفت منها في نهايته بأنها تحلم بأن تشرف على ملجأ كهذا، وفجأة التفتت لي زوجتي وقالت:

ـ ما رأيك؟

ـ في أي شيء يا زوجتي؟

ـ أن نعيد ترتيب البيت فنصنع منه مكاناً نجمع فيه الأطفال، نربيهم على الحب.

والتفت إليها وأنا واجف القلب خوفاً من أن تستولي عليها هذه الفكرة الجديدة فتعمد إلى تنفيذها، وقلت:

ـ لا يا زوجتي فأنا غير موافق.

ونظرت لي زوجتي بدلال:

ـ كنت واثقة من أنك لن توافق، ولهذا رأيت أن أستشيرك في الأمر. على العموم لا عليك، سأنفذ هذه الفكرة يوماً بعد أن أحول بيتاً من بيوت أبي كملجأ أرعى فيه الأيتام واليتيمات.

ونظرت إليها في شيء من الغضب وقلت:

ـ وعندها ستفتقدينني لأنني سأهرب منك وأبحث عن امرأة غيرك تستطيع أن تمنحني الراحة بعد كل هذا العناء.

ـ وتقولها يا زوجي العزيز!

ومضيت اشرح لها وجهة نظري في فكرتها التي قالت عنها وفيما تصنعه في بيتنا. وقلت:

ـ لكنني أنا أيضاً في حاجة إلى شيء يسير من هذا الحنان فأنا وبناتك وأولادك نفتقد هذا الحنان لأن هناك من يشاركوننا فيه.

ووضعت زوجتي يدها على فمي لأصمت، ومضت تفكر وتفكر كثيراً، حتى عدنا إلى بيتنا لأفاجأ بأن "ريمة قد عادت إلى حالتها القديمة" كما يقول المثل العامي المعروف، وأصبح جل هم زوجتي أطفال الحي الذين كانوا يملؤون بيتنا في الإجازة.

في ذلك اليوم الذي جاءت فيه زوجتي إلى غرفتي وأنا مشغول، ورجتني في انفعال أن أطلب صديقي الدكتور محمود، وعندما سألتها لماذا عرفت منها الحكاية فقد دعت واحداً من الأطفال ليشارك زملاءه السباحة، ولما لم يكن يعرف السباحة بشكل جيد، فقد أوشك على الغرق لولا أنها أخرجته لقد تركته قليلاً مع زملائه لأنها كانت مشغولة بنظافة طفلة صغيرة، وبعد أن جاء الطبيب وفحصه وأعطاه بعض المطيبات نجا الطفل، وفتح عينيه وتحدث إليها في حنان.

قالت لي زوجتي:

ـ الحمد لله، فمن الغد سأقفل النادي، نادي الأطفال، وأكتفي برعاية بناتي وأولادي. لقد علمني غرق محمود أن أي أنثى لن تكون أقدر من الأم على المحافظة على طفلها.

ونظرت إلى وجهها وضممته بعيني، وقلت:

ـ نعم ما تفعلين يا زوجتي، فقد عدت إلى الصواب أخيراً.

ونظرت زوجتي إلي وقالت:

ـ ولكن على شرط.

وأجبت بشيء من الهلع لكنها تداركت هلعي وقالت:

ـ على أن تشارك أطفالك ألعابهم في البركة.

وأجبت على قولها ضاحكاً وأنا أقول:

ـ لا بأس يا عزيزتي، لا بأس، سأكون عند حسن ظنك.

وها نحن أنا وزوجتي نعاود رحلة حياتنا بعيداً عن أطفال الحي في بركة سباحتنا الشهيرة، وزوجتي تحاول أن تعلمني آداب الأكل والغطس، والسباحة على الظهر، وهي سعيدة جداً، فقد وجدت طفلاً كبيراً تستطيع أن ترعاه مع أطفالها وبناتها، الذين تحبهم.

ضياع امرأة

قصاصة ورق صغيرة، قرأها آلاف المرات، هو يعرف خط صديقه، ويعرف أن صديقه حزين كل الحزن عليه، ولكن ماذا يستطيع أن يصنع الحزن؟ لقد أضاعت عليه حياته امرأة صنعت ما لم يخطر ببال إنسان أن تصنعه امرأة.

يقولون: إن كل ما في هذه الحياة من جمال وكدر هو من صنع أنثى! وهو يعرف هذه الحقيقة لأنه عاشها ويعايشها بكل جوارحه. قال له أبوه وهو صغير يذكر هذه الكلمة بوضوح فذاكرته تعي دائماً ما يقال:

- أنت رائع يا ولدي، تستطيع أن تنجح، وتحب أن تنجح، لكن مشكلتك أنك ضعيف أمام هؤلاء الفتيات، لماذا؟ لا أدري!

كان يضحك ويبرر لأبيه ما يفعله، يقول له بأنه يحبهن ويشعر بالأمان عندما يلعب معهن.

أمه كانت تقول لأبيه:

- دع الطفل وشأنه، فأنت تحاول تعقيده بكلماتك التي لا طائل تحتها.

حتى إذا ما كبر، عرف أن الحياة تحتاج إلى إنسان يعرف كيف يصنع طريقه دون تدخل الآخرين.

أمه هي التي خطبت له، وزوجته. لم ير امرأته إلا ليلة زفافها كانت مخلوقاً جديداً لا يدري هل أحبه أم كرهه؟ لها أسنان بشعة ووجه فقد مميزات الوضوح، في أجزائه وجزئياته.

عرف أنها امرأته فقط يوم قالت له وهي في الكوشة:

ـ كنت أنتظرك، أحلم بك، أراك في منامي، لقد رسمت لك صورة!

وفي اليوم الثاني أرته الصورة، عرف أنها له، وأنها نقلت من صورة أعطتها أمه لأم زوجته التي كانت هي الأخرى صورة غريبة ومتنافرة.

المرأة يا ولدي تفقد جمالها وأنوثتها عندما تدخن! هكذا كان يسمع من أبيه، وهو يحاول أن يمنع زوجته من استخدام شيشة الجراك التي حملوها لها يوم الزفاف.

من يصدق أن فتاة في عمرها يمكن لها أن تدخن شيشة؟ عندما جاءوا بالشيشة إلى داره ظنّ أنها لأبيها عندما يزورهم في بيتهم.

ويوم عرف قال لها:

ـ أنا أكره أن تدخن المرأة سيجارة، فكيف إذا كانت تدخن شيشة؟

ظهرت امرأته على حقيقتها وانفجرت تصفه في كلمات بذيئة، حاول أن يحاسبها عليها لكنها تشنجت، وألقت نفسها على الأرض. خاف عليها، ورضي أن يعاود المسيرة معها، ومع شيشة الجراك الغريبة، ومن يومها كشرت زوجته عن أنيابها، كانت وسائل الضغط عليه تستنبطها بألف طريقة وطريقة.

مسكينة المرأة التي تستغل إيمان الرجل وخوفه من الطلاق، باعتباره أبغض الحلال إلى الله، فتمضي في غيها.

امرأته واحدة من هؤلاء تفننت في إيذائه لدرجة كره فيها البيت والزواج والمرأة.

وصبر حتى قيل إنه كابر في الصبر، بينما مضت تلك المرأة في طريقها تحيل حياة بيته إلى جحيم.

بدأت بأخته فأبعدتها وبأهله جميعاً، فصنعت بينهم وبينه سداً لتحول دون أن يعايشه أحد، حتى إذا ما استقر لها الأمر فتحت أبواب بيته لأسرتها التي كانت على شاكلتها.

مجموعة من الناس كل همهم الثرثرة والحديث عن الناس بألفاظ نابية، وجمل قاسية وسخيفة.

ترى لماذا يتحمل هذا الذي تحمله؟ لأن زوجته قد أنجبت له ابناً وابنة، أم لأنه يشعر بضعفه أمام هذه الأنثى الحائرة المتقلبة؟

جل همها أن تستنزف ماله لها ولأبويها، وكأنها تعتقد بأن هذا الأسلوب هو الذي يجعلها قادرة على أن تعيش حتى ذلك اليوم الذي طلبت فيه أن يكتب لها أول عمارة بناها من عرقه. كان يعتقد بأن ما يصنعه سيوقف طمعها وجشعها، لكنه كان مخطئاً، فهذه المرأة التي أمضت معه أكثر من عشرين عاماً استولت خلالها على جلّ ثروته تركت بيته، وتركت ولدها وابنتها، وعادت إلى بيت الأسرة وهي تطلب الطلاق في قحة، وتعتقد بأنها قد استطاعت أن تصل إلى أهدافها بحرية.

ربما لأنها عانت الحرمان منذ يوم مولدها في بيتهم الصغير، مع أب جاهل وأم حمقاء، وربما لأنها كانت تعتقد بأن الزواج صفقة عمر، وقد استطاعت أن تحقق هذه الصفقة.

ويوم بعث إليها بورقة الطلاق لم يجدها في بيتهم، فقد كانت مع والدها تجوب الأرض في رحلة طويلة حققها لها دخلها الذي حصلت عليه من عرقه ودمه وكفاحه. ولقد أحس بالغصة، عندما عرف بأن هناك زوجاً جديداً في الطريق، فلقد اختار لها والدها واحداً يصغرها بعشر سنوات؛ لا يملك من المواهب إلا صغر سنه.

هذا الذي أخذته الأسرة معها في رحلتها، هو الذي يبعث برسائلها إلى ابنها وابنتها، وهو حائر، فلقد قرأ رسائل هذه الأم إلى ولديها فلم يجد كلمة حنان واحدة، كل ما في الرسائل وصف ساخر لما تمارسه من حياة ووصف ساذج لدور اللهو التي تزورها. ولقد أبقى على رسائلها فترة من الوقت، لكنه أحس بأن وجود هذه الرسائل عبء لا يتحمله، فمزقها إرباً وألقى بها طعماً للنيران، ومضى يشمر عن ساعد الجد ليبدأ حياته من جديد، وهو يعرف بأن طريق الحياة لا يزال أمامه مفتوحاً. كان الماضي بالنسبة إليه شبحاً لا يحب أن يذكره.

وتمر الأيام وتزدهر حياته العملية وتنمو، وتعود إليه "العمائر" التي كتبها باسم زوجته التي طلقها، اشتراها مرة أخرى وأضاف إليها الكثير والكثير.

أما هي، فقد أفقدها زوجها كل ما تملك، أكلها لحماً ورماها عظماً،

حتى إذا لم يبق لديها أي شيء بعث إليها بورقة الطلاق، ولقد حاولت الأم التي لم تتعرف إلى ابنتها وولدها الاتصال بهما عند الحاجة، لكنها لم تجد شيئاً يستحق أن يذكر نتيجة هذا الاتصال، حتى إذا ما فقدت النصير، طرقت بابه ترجو صفحه وغفرانه، وتطلب منه أن يساعدها، فيقبلها كخادمة تعمل في البيت الذي كانت فيه سيدة، فلم يقبل وأمر بعد تفكير وبعد أن قرأ رسالة صديقه أكثر من مرة مدير مكتبه بأن يدفع للمرأة مرتباً شهرياً يعينها بعض الشيء عما فقدته وافتقدته.

وأحس بشيء من الراحة بعد أن أدى هذا العمل الذي أحس بأنه وإن كان قد أثقل كاهله إلا أنه أراحه كل الراحة، حتى إنه أمسك بالورقة التي كان يقرأها دائماً، ومضى يداعب بها ضوء الشمعة الصغيرة التي تعوّد أن يضعها على المائدة عند تناوله العشاء، وقد أصبحت سواداً في سواد، وعندها عرف بأنه قد تخلص وإلى الأبد من كابوسها الثقيل الذي كان يجثم على صدره طوال سنوات حياته، أحس بالراحة كل الراحة فلقد انتهت سنوات العذاب التي بدأها برحلة مع تلك المرأة.

سميرة

سيدتي امرأة جميلة، تمتاز بصفات كثيرة نادرة، كبرت على يدي. أعرف يوم مولدها بدقة، ويوم دخولها المدرسة، ويوم زفافها أيضاً. وأشعر بأنني أقرأ ما يدور بخلدها كما أقرأ أي كتاب، لا لأن سيدتي لا تجيد إخفاء أسرارها، وإنما لأنها عاشت معي وعشت معها أكثر من خمسة وعشرين عاماً أذكر تفاصيلها دقيقة بدقيقة وكأنها أمام عيني تطالعني صورها بدقة.

كل بنات سيدتي جميلات، لكن أمهن هي التي جعلتني ألتصق بها، أحبها، أخاف عليها، أتطلع إلى وجهها فأحس بالراحة وإلى جسدها وهو ينمو فأشعر بالاعتزاز فابنتي كبرت بالفعل.

يوم تزوجت سميرة، قلت لنفسي: حان الوقت لأن نفترق. لكنها أصرت على أن تأخذني معها إلى بيت الزوجية.

طلبت مني في إصرار أن أجمع لها عرائسها المختلفة التي اشتراها لها أبوها وأمها وتلك التي اشترتها هي أيضاً. نسيت أن أقول لكم بأن سميرة تحب عرائسها بشكل ملفت للنظر، وتقضي الساعات وهي صغيرة وهي كبيرة أيضاً تحاول خلالها تغيير ملابس العروسة وتجميلها وتحسين تسريحة الشعر بما يتفق مع الموضة.

اعذروني عندما أقول بأن سميرة بالنسبة لي كانت أكثر من ابنة، فأنا أحبها، أحب هذه الطفلة التي شبت وكبرت وترعرعت.

أمها سيدة تركية بحكم تربيتها، وإن كانت من بيت سعودي عريق، لكن مولدها كان في استانبول وبقاؤها فترة طويلة مع أهلها هناك أعطاها هذه الصفة، فقد كانت أسرتها من الأسر التي هربت

يوم كان لورنس ينسف خط حديد الحجاز.

لا تظلموني فأنا لا أعرف ما يعني التاريخ قيل لي بأن "الشمندفير" خط حديد الحجاز، حمل العديد من الأسر في ذلك العهد يوم بدأ الإحساس بالقومية العربية ينضج، وعندما هب العالم العربي ككل يحاول التخلص من حكم الأتراك.

أم سميرة اسمها تفيدة. الكل يناديها بالست تفيدة، وهو اسم لا يستعمل في المدينة المنورة دائماً لكنه مستخدم بشكل واسع في مصر. وتركيا والدة الست تفيدة مصرية من دمياط تزوجها جد سميرة بعد أن رآها مع أسرتها في زيارة المسجد النبوي منذ سنوات طويلة وقبل ميلاد تفيدة وسفر الأسرة إلى استانبول.

سميرة تحب الإسكندرية كثيراً، لأنها درست فيها ثلاث سنوات عندما كان عمرها ست سنوات، ظروف عمل الأب جعلنا نقضي السنوات الثلاث، انتقلنا بعدها إلى أوروبا وباريس بالذات.

والد سميرة من كبار تجار اللؤلؤ الخليجي ومكتبه في الشانزليزيه معروف جداً. عندما انحسرت هذه التجارة عدنا إلى جدة، وبدأ رب الأسرة مشواره الجديد مع حقل جديد في عالم المجوهرات.

والد سميرة رجل طيب يجيد ثلاث لغات رغم أنه من الجيل القديم الذي لم تتح أمامه فرص التعليم، ولهذا جاءت سميرة في صورة أفضل لفتاة سعودية متعلمة فهي وإن لم تنه دراستها الجامعية، إلا أنها فتاة مثقفة تقرأ بالعربية والفرنسية والألمانية والإنجليزية.

السنوات التي قضتها في جنيف كانت السبب فلقد اختار لها والدها مدرسة تجيد كل هذه اللغات بالإضافة إلى إدخالها مدرسة سويسرية الشيء الذي كان يثير التساؤل لدى المربية أن سميرة كانت تحافظ على أداء فروضها كالصلاة والصوم رغم أن ساعات الصوم كانت طويلة في أوروبا.

المشكلة التي تواجهني وأنا أتابع نمو سميرة، هذه العصبية الزائدة التي أراها تطل من وجهها عندما لا تجد ما تريده متوفراً ومن ذويها بين يديها.

وكثيراً ما قلت لها:

ـ يا بنيتي الدنيا ليست دائماً كما نريد، ولذلك يجب عليك أن تتعلمي بأن الحياة قد تمتنع في بعض الأحيان عن منح الإنسان ما يريده لسبب أو لآخر ولهذا فعليك أن تتذرعي بالصبر وتبتعدي عن هذه العصبية التي أراها تكبر وتنمو معك يوماً بعد يوم.

كانت تثور علي وتخاصمني وتنسى كل ما فعلته من أجلها، ثم تعود مرة أخرى إليّ دون أن تعتذر وكأنها لم تصنع شيئاً.

وكنت أعاود حبي لها دون أن أسألها ويكفيني منها أنها عادت لتسأل عني وعندها أنسى كل شيء إلا شيئاً واحداً هو أن أقدم لها ما تريد.

في كان تعرفت على صديقة فرنسية قدمتها لي على أنها زميلة سابقة وعندما قلت لها بأنني أعرف جميع زميلاتها في مدرسة جنيف ضحكت وقالت:

ـ أرجو أن أقدمها لأبي بهذه الصفة، فهي فتاة لطيفة عاشت لأكثر من عامين في البحرين تعمل في حقل شركات الطيران وقبلها كانت فتاة غلاف.

وعندما سألتها معنى فتاة غلاف، أفهمتني معناها وهي تضحك وقالت:

ـ ولكنها تناسبني فهي سباحة ماهرة، وتستطيع قيادة اليخوت الصغيرة وفوق هذا أو ذاك فإنها صديقة لكثيرات من ممثلات السينما، وأنا أريد أن أتعرف إلى هؤلاء الممثلات.

صمت ولم أجب، لكن والدها هو الذي سمع كل شيء. فحاول أن يؤنبها على أنها تكذب، وعندما رأى تمسكها بصداقة اليزابيث غادرنا كان وهي تبكي.

لا تظنوا أن فتاتي متحررة ومنطلقة، ولكنها عكس ذلك. فهي متحررة فقط مع صديقاتها ومن تشعر بأنهن يستحققن صداقتها.

عدنا إلى جدة وتكاثر الخطاب على بيتنا وهي ترفض. كان ذلك اليوم الذي جاءتني فيه صديقتها "أمينة" التي استقبلتها بحب وأمضت معها أكثر من ثلاث ساعات خرجت بعدها أمينة وهي تضحك حتى أنزلتها أوصلتها إلى الباب عادت فتاتي وهي تبتسم ثم قالت لي:

ـ ألا تقولين لي مبروك؟

قلت:

- ولكنني أقولها لك دائماً بمناسبة فما هي مناسبة طلبك أن أقولها الآن لك؟

قالت وهي تضحك:

- لأنني سأتزوج.

ونظرت إلى وجهها في بلاهة:

- ممن تتزوجين وأنت قد رفضت كل من جاء إليك؟

قالت:

- سأتزوج حساماً الأخ الشقيق لأمينة.

وقلت:

- ومتى كانت الخطبة؟

قالت:

- الآن.

وحدثتني بتفاصيل حديثها مع أمينة وأطلعتني على صورة حسام ومواصفاته وقدراته ودراسته وخرجت بعد هذا الحديث وأنا أؤيدها على الموافقة.

لم تمض أيام حتى زفت سميرة إلى حسام، وكانت ليلة من أجمل ليالي العمر.

كان فندق قصر جدة الكبير يومها من أوائل الفنادق الجديدة في مدينتنا التي تحب، وكان الزفاف من الليالي المشهورة التي يتذكرها كل إنسان.

أما أنا فقد كنت أتذكر كل شيء حتى ألوان فساتينها التي ارتدتها بهذه المناسبة.

رأيتها في الكوشة كأحلى عروس، وعندما رأتني وأنا أقوم على خدمة المدعوات أشارت بيدها إلي وقالت لي في أذني:

- حضري نفسك!

قلت:

ـ لماذا؟

قالت:

ـ لتنتقلي معي الليلة إلى بيت الزوجية.

وضحكت.

وانتقلت معها إلى بيت حسام، وشعرت بأن قطتي قد استكانت بعض الشيء وأصبحت امرأة تحب أن تعيش في ظل زوجها، فحسام شاب يحمل بصمات الرجولة في وجهه، وفي كل شيء فيه.

ولقد أحبت سميرة حساماً. كنت أرى الحب يطل من عينيها وباستمرار لدرجة جعلتني أضجر بكل هذا الحب لا لأن حساماً لا يقابل حبها بحب، وإنما لأن حبه كان من نوع آخر.

كان حسام من الأنانية لدرجة تجعله دائماً يحاول فرض أفكاره على سميرة وبشكل يجعلني أكرهه، ولكني أنسى كل شيء عندما أجد فتاتي التي أعرف وقد أصبحت سيدة لبيت من نوع جديد وسعيدة.

أما حسام هذا فقد كان رغم حبه لزوجته إلا أنه كان يتلذذ بأحاديثه عن رحلاته ومغامراته في تلك السفرات وكان يتحدث عن كل ذلك إلى سميرة في تبجح، حتى إذا ما ضاقت هي بكل هذه الأحاديث قالت لي عنها وكنت بدوري أقول لها:

ـ لا تصدقيه، فالمرضى بالحب يحاولون أن يعالجوا أمراضهم بأكاذيب يحاولون نثرها هنا وهناك.

كنت أبكي في قرارة نفسي على حظ فتاتي، وعلى حبها أيضاً وأحاول أن أسري عنها بكلمات لا أدري كيف كنت أقولها حتى سافرنا يوماً ما سوياً إلى لندن، وهناك حصلت الطامة الكبرى، فقد اكتشفت بنفسي خيانة حسام الذي اختار خروج زوجته مع أخته لزيارة أسرة سعودية في برايتون فجاء بصديقته الإنجليزية إلى البيت وقال لي وهو يضحك:

ـ أعرف أنك تحبينني وتحبينها أيضاً ولهذا لن تقولي لها شيئاً عن باتي.

ولم أ نطق ببنت شفة، وإنما ذهبت إلى غرفتي وأقفلت بابها وتركته معها

طوال ذلك اليوم.

وجاءت سميرة، ورأتني فسألتني عن أسباب تجهمي ولكني لم أقل لها شيئاً فلما أصرت حاولت أن أعزو ذلك إلى أنني متوعكة المزاج فضحكت وقالت:

ـ الحق علي لأنني لم آخذك معي وتركتك في البيت مع حسام. هل أزعجك حسام بطلباته؟

وأجابها حسام في برود:

ـ ولكني لم أره بعد أن تركت البيت. كان طوال اليوم في غرفته.

وأمسكت سميرة برقبتي وقالت:

ـ وهل يهون عليك أن يتناول حسام طعامه بيديه؟

ولكني أجبت:

ـ لم يكن في حاجة لي فقد كان معه من يطعمه.

وتناول حسام الكلام وقال:

ـ كانت معي باتي، صديقة الدراسة التي جاءت لتراك وأنت تزورين لندن وقد أسفت لعدم وجودك وعندما رأتها "دادتك" أحسست بأنها غاضبة وتركتنا وبقيت في غرفتها.

وضحكت سميرة وقالت:

ـ إذن فأنت تغارين لأجلي يا دادتي!

وضحكت في ألم وقلت:

ـ ليس الأمر كما يقول، لكنني رأيت أن أترك البيت ليخدمهما غيري.

وربتت سميرة ظهري بيديها وقالت:

ـ لي معك حديث أتركه إلى الغد.

ومضت مع زوجها إلى غرفتها، حتى إذا ما أشرق صبح اليوم الثاني، جاءت إلى غرفتي وقد عرفت بأنني لم أذق طعم النوم وقالت:

ـ أعرف أنك غاضبة، ولكنك لا تعرفين معنى الحياة في هذه البلاد.

قد تختلف عاداتنا عن بنات الإنجليز وأنت على حق بأنه لا يجوز أن تأتي أية واحدة إلى بيت رجل متزوج ولكن معلهيش، فأنا واثقة بأنني أقدر على إصلاح هذا الغادر الذي أحب.

وصمتت، فلم أجب بشيء ولكنني عرفت بأنها تعرف مساوئ زوجها وتصمت ففضلت أن أصمت أنا الأخرى.

حتى ذلك اليوم الذي قالت فيه:

ـ أعرف أنك بت لا تفهمين ما أصنع وما أرمي إليه، ففي الغد سأعود إلى جدة.. سنعود سوياً وسيكون لي حساب مع هذا الجاحد لن ينساه. لكنني على الأقل، لا أود أن أضع جداراً بيني وبينه في ديار الغربة. أنت تعرفين أبي لو عرف بجزء يسير مما أحس به هنا لجاء على الفور وهو رجل أصبحت صحته لا تساعده. دعيني أكمل المشوار أياماً فقط ويكفيني أنني لم أعد كما كنت تقولين عصبية!

أعرف أنني أتعبتك بعصبيتي يوم كنت صغيرة، لكنني كبرت يا دادتي كبرت وأخاف أن أبدو ضعيفة أمام رجل مخاتل كهذا الرجل.

وعدنا إلى جدة، واستقبل الجميع سميرة في حب كالعادة وجاء أبوها يسألها عن الرحلة، فلم تقل سوى أنها سعيدة. وعندما خرج أبوها من الدار التفتت لي وقالت:

ـ لا تنزعجي فهي المرة الأولى والأخيرة التي أكذب فيها على أبي، وهذه المرة ليس من أجلي وإنما من أجله. دعي أيام سعادة الأسرة تمضي وسيكون لكل حادثة حديث.

وصمت لأنني لم أكن أملك إلا الصمت، واستمرت أيامنا تسير على وتيرة واحدة، سميرة معي وحسام مع أصدقائه حتى ذلك اليوم جاء فيه حسام وهو يبكي وهو يقول:

ـ لقد قال لي الطبيب أشياء مخيفة يا سميرة.

ولم تسأله سميرة عن هذه الأشياء المخيفة التي قالها لها الطبيب، وإنما نظرت إليه بازدراء وقالت:

ـ عليك أن تسافر فلربما وجدت أن كل ما قاله الطبيب مجرد هراء.

ونظرت إلى وجهه فرأيت عينيه تلمعان بشيء من البهجة، فقلت:

ـ استطاع الثعلب أن يضحك عليها.

ومضيت إلى غرفتي، لكن سميرة طلبت مني في هدوء أن أرافقها إلى غرفتها.

وفي الغرفة أمضينا وقتاً نتداول أمر أكاذيب حسام. حتى إذا ما جاءت أخته لتتحدث إلى سميرة في لهفة تركت الغرفة لهما ومضيت لأصنع لهما فنجانين من الشاي وعدت لأسمع أخت حسام وهي تقول لسميرة كلاماً هامساً استطعت أن أجمع خيوطه، وعرفت منه أن أخاها يشكو من مرضٍ طارئ يحتاج إلى كثير من الغياب وعندما خرجت أخت حسام من البيت قالت لي سميرة:

ـ لو تأكد لي كل ما قالته لانعكس كل شيء وانقلبت موازين أفكاري.

وتلفت وأنا أسائلها عن الخبر، فقالت:

ـ حسام معرض للشلل إذا لم يجر العملية بنسبة كبيرة ومعرض للشلل أيضاً إذا أجراها ولم تنجح.

وفهمت منها أنها ستبقى إلى جواره إذا كان كل ما قيل صحيحاً. وقالت لي وهي حزينة:

ـ أليس هذا هو واجب الزوجة يادادتي؟

وها نحن نعيش أنا وحسام وسميرة في البيت نفسه. الشيء الوحيد الذي تغير هو أن حساماً لم يعد يستطيع المشي على قدميه، فقد أجرى العملية ولم تنجح وقرر الأطباء أن يعيش على كرسي وأن تعيش سميرتي مع زوجها الذي أساء إليها وفي أكثر من مرة لتبرهن بأن الزوجة تلازم زوجها في وقت الشدة أما أنا، فقد كان عزائي أن أرى بنات سيدتي وهن يكبرن ويلعبن فلا يشغل بالي سوى نظرات سميرة الحزينة والحزينة باستمرار.

فتاة من بيروت

رولا فتاة عربية لبنانية، لم تتعد سنوات عمرها الثانية والعشرين، عاشت أيام الحرب وعانت من ويلاتها وإن لم تكن ولدت فيها كما ولدت أختها نهى.

كبرت على صوت الرصاص وأزيز الطائرات وطلقات القناصين، وشاهدت الموت وهو يحصد أعداداً كبيرة ممن كانوا حولها. حتى الزهور البريئة كان نصيبها السحل في زمن انعدمت فيه المقاييس وتاهت فيه المثل وضاعت منه القيم.

لكنها، مع كل ما عانته ومثيلاتها من حيل الحرب، لا تزال صلبة العود رقيقة الإحساس، أشبه بأنثى جاهدت أن لا تسمح للحرب القذرة، أن تضع أية بصمات على قلبها ونفسها وعقلها أيضاً.

وفي وجهها براءة، وفي عينيها ذكاء حاد، رغم معالم الحزن التي تحاول أن تبعد شبحه عن عينيها العسليتين. في مشيتها لامبالاة غريبة، تبدو وكأنها تطل من خلال مظاهر الدلال الذي تحيط به نفسها والذي يبدو كطابع أصيل يلقي ظلاله على القد الأبيض الممشوق وقسمات الوجه الدقيقة المموسقة والشعر الأسود المتهدل على الكتفين كغلالة جميلة.

في قلبها حب وفي وجهها إشراقة أمل تبدو من خلال ابتسامتها الصغيرة التي تحاول أن تظهر رغم مآسي لبنان وجروح الجبل وقروح البحر الذي هجرته حورياته بعد انتشار الصياد الماكر الذي يحمل بندقيته على كتفه ويزرع القتل والدمار على الشواطئ البيضاء، يغمر البحر بدماء ضحاياه.

رأيتها تحنو على طفلة صغيرة فقدت النطق في أعقاب غارة مجهولة، على مشارف الحمراء وسوق الطويلة، هي التي لا تكبر تلك الطفلة إلا قليلاً فشعرت بأن أمومة هذه الفتاة قد تفتحت منذ وقت مبكر.

عندما سألتها عن عمر هذا الحنان الذي يطل من عينيها وهي تساهم في مساعدة تلك الطفلة قالت:

ـ لا أدري ربما كان أثر ما أراه على نفسي كثيراً فجعلني أميل دائماً لأن أساعد غيري خصوصاً وقد عرفت بأن أبي قد اصطيد وهو يساعد جاره الذي تلقى طلقة من مجهول، لكن أبي لم يمت رغم جرحه الكبير لأنني أنا وأمي الطيبة كنا من ورائه وكان الله قبل كل شيء يريده أن ينجو.

كنت أحب هذه المدينة التي يسمونها بيروت وأعتبرها قريبة إلى قلبي، فلقد عشت فيها صدر شبابي يوم كنت واحداً من طلاب الجامعة الأميركية.

في "الهورس شو" كنت ألتقي بمجموعة من رجال الصحافة يتحدثون وينكتون ويسهرون فاستغربت، فقد كانت المعارك الكلامية على صفحات جرائدهم تجعلني أحس بشيء من التناقض بين ما يكتبونه وبين ما أراه حتى إذا ما سألت أحدهم عن هذا الأمر ضحك وقال لي:

ـ أنت في لبنان!

لم أكن أفهم معنى كلمته حتى جاءت سنوات الحرب العجاف فعرفت السر، وفهمت بأن فقدان الكلمة لقيمتها هو الذي أدى بهذا الشعب لأن يحمل كل واحد سلاحه أمام الآخر.

قالت لي رولا:

ـ لقد سافرت أمي إلى كندا وتركتني وأختي وأبي فريسة الخوف عليها من هذه الرحلة الطويلة.

وضحكت وقلت لها:

ـ ربما كان في سفرها وبعدها عن هذه الأرض ما يجعلها في مأمن عن شر هذه الحرب الطاحنة.

ونظرت إلى وجه رولا. كانت تفكر بعمق في كلماتي، وفجأة رأيت عينيها

تومضان في لهفة وهي تقول:

ـ لا بد وأن نرحل جميعاً عن هذه المدينة.

وقلت لها:

ـ إلى أين؟

قالت:

ـ إلى أي مكان.

ـ ولكنك تعملين هنا.

ـ سأترك عملي وسأفكر في اختيار غيره.

وسألتها:

ـ أتجدين؟

وأشارت برأسها مؤكدة. وانقطعت بيني وبينها الاتصالات حتى رأيتها هنا في جدة تتبضع من دكان في السوق الكبير.

ونظرت إلى وجهها فشعرت بالاطمئنان، وسألتها عن أبيها وأختها، فلم تتمالك نفسها وهي ترد علي قائلة:

ـ ذهب أبي وماتت أختي وبقيت أمي عند أخيها في كندا.

قضت الحرب على كل شيء في دارنا، ولو لم أكن خارجها لذهبت أنا الأخرى. وخرجت أهيم على وجهي، في عيني دموع، وفي قلبي حرقة وفي نفسي صدى لأحاديث كثيرة وددت لو أن أبوح بها لأحد.

ووجدت نفسي أسير على غير هدى، حتى وجدت نفسي على مقربة من الميناء بحثت في حقيبتي ووجدت فيها شيئاً من المال وبطاقة هوية. ونظرت إلى الباخرة الرابضة على مقربة من الميناء وقلت لنفسي: لماذا لا أغادر هذه المدينة؟ ولم أنتظر الجواب يأتي من فمي هذه المرة، وإنما وجدت قدمي تحملانني لأقف على سلم الباخرة. واندسست بين الصاعدين حتى إذا ما وجدت نفسي على ظهرها عدت لأحاور نفسي: ترى هل سيقبل القبطان حملي وأنا لا أحمل سوى هذه البطاقة؟

ورأيت يداً تمتد إلى عيني لتغمضهما فأحسست بالأسى. ترى من هذا الذي يريد مداعبتي وأنا على هذه الحالة؟ ورفضت المداعبة وأدرت رأسي وأنا خائفة لأرى زميلاً في العمل يقف إلى جانبي وهو يبتسم، وأحسست بالراحة ومددت يدي لآخذ بيده إلى أقرب كرسي.

وقصصت عليه كل شيء. لم أكن أبكي أبي ولا أختي، وإنما كنت أنظر إلى كل تلك المآسي على أنها وصمة عار في جبين هذه المدينة وأهلها.

وانتظرت أن يواسيني زميلي في مصابي، لكنني، وبعد أن عرفت أن أسرته هو الآخر بما فيها زوجته وابنته قد ذهبوا جميعاً طعماً لنيران الحرب، أحسست بأننا متفاهمان وأن الواجب يبقى علي أنا أيضاً بأن أواسيه.

وابتسم صديقي وهو يستمع إلى كلماتي التي أحسست بها تخرج من فمي رغماً عني وقال:

ـ لقد حلت المشكلة ففي جواز سفري صورة لزوجتي أستبدلها بصورتك وعندما نصل إلى قبرص يمكنك بعدها..

وصمت فأمسكت بالكلام وقلت:

ـ يمكننا أن نتدبر أمورنا عندما نصل، فلربما استطعت الحصول على جواز سفر من القنصلية اللبنانية هناك.

وأحسست بأن العناية الإلهية هي التي ساقتني لأن أجيء إلى الميناء.

وسارت الأمور على ما نشتهي حتى وصلت إلى قبرص، وعندها أحسست بشيء من الاطمئنان لم يدم لأن حصولي على الجواز لم يكن سهلاً، حتى إذا ما تسلمت جواز سفري تنفست الصعداء.

وها نحن نتقابل مرة أخرى هنا في جدة فقد جئت لزيارة خالتي المتزوجة هنا ولا أدري ماذا سيخبئ لي الغد.

وافترقنا على أمل أن نلتقي، استمرت الحياة بالنسبة لي شيئاً لا يستحق أن أفكر فيه، لكنني وفي كل مرة أحاول أن أخرج فيها من بلدي لأزور بلداً آخر أجد نفسي مشدوداً لأن أفكر في هذه الصبية التي عرفت.

ربما لا يزال حب بيروت يطغى على حبي لأي مدينة أخرى، فأنا لا أزال

مشدوداً إلى تلك الديار التي أحسست فيها بتفتح عيني على أرضها.

بيروت هذه المرأة الجميلة التي استطاعت أن تعايش جميع أجواء الناس طعنت من وراء ظهرها بأيدي أبنائها الذين عرفوا بحبهم لها.

ومع هذا، تظل بيروت مكان تطلع الذين عاشوا في أرضها وبين أهلها وأبنائها الطيبين.

قد تكون يد الشر هي التي خطت كل ما يجري على أرضها، لكنها ستظل شامخة إلى الأبد ما دام هناك كثير ممن أحبوها يرونها جديرة بأن تعاود رحلتها مع الحياة وأظل أحاور نفسي وأتحدث إليها في إسهاب: ترى كم عدد أولئك الأطفال والطفلات الذين كبروا في أيام الحرب في لبنان؟ وهل هن جميعاً كرولا الفتاة التي عرفت؟

وغرقت في التفكير وأنا أقارن بين الحرب الأهلية الإسبانية وحرب لبنان ووجدت أن لبنان البلد الذي استطاع أن يفرخ كل هذه الأعداد الكبيرة من الكتّاب العرب الذين هاجروا بأقلامهم إلى لندن وباريس.

لبنان هذا لم يحظ وحتى الآن إلا بالنذر اليسير من أولئك الذين أرخوا لأحداثه وعرفت بأنني أنا الآخر لم أعط لبنان حقه رغم كل ما أخذته منه.

وتحدثت إلى صديقي ياسر الذي اختار باريس مربطاً لخيله عن رولا الفتاة التي رأيتها في بيروت ونسيتها في جدة، ثم عاودتني ذكريات لقائها في أكثر من مكان.

ربما كانت هي البطلة التي أحببت ككاتب وربما لأنها استطاعت أن تشدني بهدوئها ورباطة جأشها هي المرأة التي لقيت ما لقيت في الحرب من عناء وبلاء لكن كل ما لقيته لم يؤثر في ابتسامتها التي تطفو على وجهها وقلت وقلت لكن صديقي ياسر كان أقدر على إشاعة الدهشة في نفسي وهو يقول:

ـ أو تريد أن تراها؟

ونظرت إلى وجهه وأنا بين مكذب ومصدق، وقلت:

ـ أو تعرفها أنت؟

وبهزة من رأسه قال:

ـ نعم، وأعرف منها أنها تعرفك فلقد حدثتني عن لقائها بك وأحاديثها معك.

كنت مشوقاً بالفعل لأن أرى هذه الفتاة التي قفزت على الأحزان لكنني وفي الوقت ذاته، كنت أخاف أن أراها وقد هدها الحزن أو أذابها الهزال. ومع هذا، قلت له:

ـ متى أستطيع أن أراها؟

وابتسم صديقي وقال:

ـ سنتعشى سوياً في مطعم الديك خارج باريس غداً.

وافترقنا على أن نلتقي، وقلبي يحدثني بأنني سأجدها أقدر على إشاعة الابتسامة في وجوهنا من الكثيرات اللواتي عشن في هناء وسعادة.

وأمضيت الليلة ساهراً أقرأ بعض ما كتب عن الحروب في أمريكا اللاتينية حتى إذا ما غلبني النوم اخترت أن أضع إلى جانبي صورة صغيرة لرولا التقطتها لها في بيروت وهي تحنو على الطفلة التي أحببت.

وجاء الغد بأسرع مما كنت أتصور، ووجدت نفسي في مطعم الديك أنقل عيني من وجه صديقي إلى وجه رولا الفتاة التي عرفت.

ومدت يدها في هدوء كعادتها ترحب بمقدمي، واستمرأت النظر إلى عينيها ففاجأتني بأنها لم تعد كما كنت أعرف.

طار بعض الحزن من العينين الجميلتين، وحل فيهما شيء من العزم والإصرار والإرادة، وأحسست بأن رولا ليست مجرد فتاة عادية، وإنما هي رمز، رمز للمدينة التي أحببت بيروت، بشوارعها وعماراتها وحواريها وهضابها وبحرها وكل شيء فيها. أو يمكن أن يكون كل هذا الذي أراه حقيقياً أم أنه مجرد حلم، حلم لم أفق منه بعد؟

وأفقت من تأملاتي على صوتها وهي تتحدث قائلة:

ـ لقد كبرت خلال هذه السنوات الثلاث التي لم أرك فيها.

والتفت إليها قائلاً:

ـ أما أنت فتظلين على ما أنت عليه من أناقة زادها إصرارك على الحياة

جمالاً فوق جمالك.

وابتسمت رولا وقالت:

ـ أو نسيت أنني لبنانية ومن بيروت؟

قلت:

ـ وماذا يعني؟

قالت وهي تمزح:

ـ أنت تعرف ما يعني ما أقوله. قد تكون الحرب قد فرقتنا نحن أبناء لبنان، أبعدت فيما بيننا، قتلت أحبابنا، هدمت اقتصادنا، لكنها لم تقدر أن تقتل روح الطموح في نفوسنا على أن نعاود المسيرة بأسلوب جديد.

ونظرت إلى وجهها مرة ثانية أعطيتها أذني وهي تتحدث في قوة عن الآلام التي لقيتها في حياتها الصغيرة بعد أن تركت جدة واستقرت في باريس، وعرفت أنها تشرف على كتابة حكايات للأطفال عن الأمل والحياة والزهور والورود وكل ما يزرع الحب في النفوس الصغيرة.

وعندما قلت لها إنها رائعة، ضحكت وقالت:

ـ لكن روعتي لن تكمل أو تكبر حتى أراك مرة أخرى في بيروت.

وتمتمت فيما بيني وبين نفسي وكأنني أتمنى أن يأتي ذلك اليوم قريباً وقريباً جداً.

ولم أشعر بشيء مما يجري حولنا حتى قالت لي رولا:

ـ أراك ساهماً تفكر. ألا تأكل؟

امتدت يدي إلى الطبق الأنيق أحاول أن ألتهمه كما كنت ألتهم أطباق العصافير في وادي زحلة وفي العجمي والمروش والسان جورج وكل مكان في تلك المدينة التي لا تموت والتي يسمونها بيروت.

ـ فاطمة... ماذا تعنين بكل هذه الكلمات التي كتبتها؟ أو تعنين أنك فعلاً مصممة على أن تفارقيه؟ ولماذا؟

وجاء الصوت إلى أذنيها قوياً متماسكاً:

ـ وماذا تريدينني أن أفعل بعد أن أصبحت كما مهملاً في بيت لا وجود لي فيه؟ لقد تحدثت إليك في رسالتي بالكثير مما تعرفين وما لا تعرفين، لكنها وثقي عندما أقول بأنها الحقيقة. لقد أصبت بالاكتئاب وأنا انتظر أن أنفذ أفكارك بدقة وأضع كل كلماتك أمام عينيّ حتى إذا ما فاض بي الكيل وجدت أنها أفضل فرصة أن نفترق.

ـ وتقولينها يا فاطمة؟

ـ وماذا تريدينني أن أفعل؟ أعرف أنه شقيقك وأعرف أنك زوجة أخي، لكنك فوق هذا وذاك فأنت بالنسبة لي أكثر من أخت فلقد عشنا طفولتنا وصبانا معاً. أو تدرين بأنه لم يعد يأتي إلى البيت؟ أصبح مقامه ومسكنه وعمله المكتب.

ـ ولكن هذا كله من أجلك أنت التي دفعته لأن يترك وظيفته. قلت له إنك مهندس بارع، وإن مكانك العمل الحر، حتى إذا ما استمع لرأيك أخذت تطالبين بأن يوائم بين عمله وبيتك؟

وتصمت فاطمة بعضاً من الوقت، حتى إذا ما جاءها صوت هدى:

ـ فاطمة... فاطمة...

أجابت:

ـ أعرف أنك تحاولين أن تصلحي الحال بيني وبينه. قد أكون أنا فعلاً التي طلبت منه ذلك، لكنني لم أطلب منه أن يأتي في مكتبه بشريكة.

ـ ولكن شريكته هذه هي الأخرى مهندسة، مهندسة ديكور وأنت تعرفين معنى وجود مهندسة ديكور في مكتب مهندس مدني، فالعمل يا صديقتي يحتاج إلى أن يساند بعضنا البعض.

ـ أعرف ذلك، وأعرف أكثر أنهما متفقان على أن تتزوجه صديقتنا المهندسة.

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ كثيرات قلن لي ذلك فلم أستمع لهن لكنني عندما تأكدت من كلامهن عرفت أنهن على حق وأنني كنت المغفلة الكبيرة.

ـ فاطمة اعقلي، لا تتركي بيتك، سأحاول أن أجيء لعندك. فاطمة... فاطمة...

وغاب صوت فاطمة، غاب صوت صديقتها التي أحبت، حتى إذا ما جاء زوجها قالت له كل شيء وطلبت منه أن تسافر إلى جدة لرؤيتها.

"٢"

لا شيء يمكن أن يثير في المرأة غريزة الخوف على زوجها مثلما تثيرها الأقوال التي تتواتر عن وجود امرأة غيرها في حياته. لكن فاطمة ليست مجرد أنثى وزوجة فقط، فهي تعرفها جيداً منذ أن كانت معها على مقاعد الدرس في الابتدائية والثانوية والجامعة. إنسانة ذكية وعاقلة ومتفهمة للحياة، تعالج شؤونها بحكمة وروية وبعد نظر.

ولقد مرت فاطمة مع زوجها بأحداث كثيرة استطاعت أن تصل إلى إنهائها بأسلوبها المتميز وقدرتها العجيبة على ضبط النفس. ترى أيكون كل الذي قالته فاطمة عن أخيها وتعلقه بزميلته المهندسة حقيقياً؟ وإلا لماذا كل هذه الثورة؟ ستحاول أن تنام وتنسى المشكلة إلى الغد عندما تحملها الطائرة إلى جدة ولكن المشكلة ظلت تدور في أعماق أعماق نفسها لدرجة جعلتها تحلم بشيء من تفاصيلها.

"٣"

زوجها معها في السيارة التي نقلتها إلى مطار الرياض الحديث بينها وبينه يأخذ مساراً يجعلها تحس بضرورة أن تصنع شيئاً، فعلى الرغم من أن فريداً هو الأخ الأكبر لفاطمة، إلا أنه زوجها هي. حاول أن يتحدث إلى فاطمة تلفونياً لكن هذه لم تعطه الفرصة لأن يفهم كل شيء إلا أنها تريد أن تترك بيت الزوجية.

ورغم كل الذي قاله لها فلا بد وأن هناك سوء فهم وراء كل ما يجري، فهو يعرف نادراً زوج أخته، يعرفه جيداً حتى العظم كما يقولون. ربما أن أخته تمر بأزمة كما مررت بها أنت يوم اتهمتني بأنني سأتزوج عليك فريدة حرم المرحوم سعيد صديقي الذي مات.

تضحك من كل قلبها وتقول:

ـ يا ليت ذلك صحيحاً تكون عندها فاطمة قد أخطأت في حق أخي كما أخطأت أنا في حق أخيها، ثم بعد هذا كله من أنا بجانب فاطمة العاقلة التي تقول عنها أنت ذلك وجميع الناس.

ينظر إليها من طرف عينيه يمد لسانه وهو يتوعد بخفة دم:

ـ لو فعلها أخوك فسأفعلها أنا... وعندها يصح المثل "ما فش حد أحسن من حد".

تنظر إليه بغم وتقول:

ـ تريد أن تضيف إلى ما أحسه من عناء عذاباً جديداً هو أن أفكر في مستقبلي؟

وتضحك:

ـ ولكن هكذا أنتم أيها الرجال، تختارون أسوأ الظروف لتهتموا بفعل ما أنتم راغبون فيه.

"٤"

فاطمة في غرفة نومها بملابسها الكاملة وكأنها على أهبة الاستعداد

للخروج وهي إلى جانبها. كل شيء في بيت أخيها مزعج، لكن أكثر الحزانى هما سهى ونهى بنات أخيها الصغيرات. هذه الطفولة البريئة التي صدمت بمظاهر الحزن يشيع في أرجاء البيت تحاولان أن تعرفا شيئاً من عمتهما بلا جدوى.

فاطمة تصر وتؤكد على أن أخاها سيتزوج وأخوها ينكر، لكن أفكاره لم تكن واضحة فلقد طلبت منه أن يفض الشراكة برضى في الصباح ثم يعود إلى بيته ليلاً فيرفض.

فاطمة تعتبر رفضه دليلاً على صحة ما وصلها من أخباره وهي حائرة ماذا تفعل؟ وتفكر في الموضوع بشيء من الهدوء: لا بد وأنها ستجد الحل، ففاطمة ترفض أن تبقى في البيت وتصر على أن تعود معها وهي توافق على سفرها وتطلب منها بضعة أيام للراحة، لكنها تريد منها أن لا تقول شيئاً. تدع الأيام تفضفض عن كاهلها كل هذه الأحزان.

"٥"

رشا المهندسة في بيتها تنتظر وصولها بعد أن تحدثت معها تلفونياً وواعدتها على اللقاء. ها هي تستقبلها في هدوء هذه الماكرة لا تتحدث عن شيء. حركاتها تدل على أنها سعيدة، وهي بالفعل أجمل من فاطمة لكنها لا تعرف كيف تلبس.

حديثها فيه شيء من الصلافة تحملت هي بعضه حتى إذا ما سألتها عن أسباب الزيارة لم تمانع أن تقول لها كل شيء.

رشا وقد امتقع لونها، وأصبحت أشبه بمن طعنت في الصميم قالت في كلمات:

ـ لا تصدقي ما يقال فأنا لم أفكر في يوم من الأيام بأن أخطف زوجاً من زوجته ومع هذا، فأحب أن أريك شيئاً أحرص على أن لا أريه لأحد وإن كان أخوك يعرفه.

وامتدت يدها إلى شنطتها لتضع بين يديها خطاباً قرأت عنوان مرسله قالت لها رشا:

ـ اقرئيه بهدوء.

طالعت سطوره. شيء غريب لكنه مفرح، فالرسالة من خطيب رشا الدكتور محمود يقول لها فيه إنه سيعود بعد عشرة أيام ليعقد قرانه عليها.

أطبقت عينيها قليلاً بعد أن سلمت المظروف لرشا وهي تقول:

ـ سامحيني... فأنا لا أعرف كيف يجرؤ بعض الناس على الهمس بأشياء كاذبة قد يجرح البعض وقد يسيء إلى البعض الآخر.

وابتسمت، رشا لم تشاركها البسمة وإنما قالت:

ـ على العموم فتحت عيني على شيء يجعلني أعمد على إنهاء شراكتي مع أخيك لا سيما وأن في استطاعتي أن أعمل بمفردي بعد عودة خطيبي. قد يكون ما صنعت مجرد تجربة لكنها تجربة خاطئة فالمرأة لا يمكن أن تشارك رجلاً غريباً عنها في عمله.

خرجت وهي تعتذر وتقول:

ـ فاطمة لا تعرف هذا الذي قلته لك فكوني مثلي وانسي كل شيء.

وعدتها رشا بأن تفعل. تركت البيت، خرجت بسرعة لترى أن فاطمة قد تركت بيتها لزيارة صديقة انتظرت عودتها على أحر من الجمر.

"٦"

فاطمة تعود. الحزن يغتسل في أحداقها الجميلة هذا الوجه الأسمر الجميل أصبح رمزاً لشقاء طويل صنعته الأراجيف، زحفت إليه التجاعيد بين يوم وليلة.

أتطلع إلى وجهها أراقب تشنجات اليدين. أجمل ما في المرأة يضيع لحظة غضب. ابتسامتها البريئة أصبحت معدومة، و نظرتها إلى البيت والأسرة والحياة متشائمة.

ـ لماذا كل هذا الحزن يا فاطمة؟

ـ وتسألينني؟

ضحكت في أعماقي، لكن ضحكتي طفت على وجهي. نظرت فاطمة إلي وقالت:

ـ طبعاً لا يهمك شيء.. لو كان أخي الذي فعلها لأقمت الدنيا ولم أقعدها.

ـ وما يدريك أنني فعلت؟

بلهفة قالت:

ـ ماذا صنعت؟ فركشت الزواج؟

ـ زواج من؟ زواج من لا تريد أن تتزوج؟

انبرت لي وفي صوتها حدة وهي تقول:

ـ أتمزحين؟

ـ لا... وإنما أنت هي المخطئة. لم تفكري كعادتك. خانك ذكاؤك لأول مرة.

ـ ماذا تقولين؟

قالتها فاطمة في صوت يشوبه الأسى والحزن.

ـ أقول إنك مخطئة، فقد كنت عندها.

ـ عند من؟

ـ المهندسة رشا.

ـ وماذا قالت؟

ـ لم تقل شيئاً، إلا أنها أطلعتني على الحقيقة.

ـ وتقولينها؟

ـ وماذا؟ أتريدين مني أن أكذب؟

ونظرت فاطمة إلى عيني وقالت:

ـ خلصيني قولي لي ما قالت.

ـ قالت إنها ستتزوج بعد عشرة أيام من خطيبها الدكتور محمود الذي سيأتي من بعثته وإنها ستفض شراكتها مع أخي بعد الذي سمعته مني.

قلت جملتي بهدوء ورتابة، وكأنني أمط كلماتي لتصل إلى مسامعها.

ـ إذن كل ما سمعته هراء؟

ـ نعم... وللأسف.

ـ وتتأسفين؟

ـ لا تظني أنني أتأسف على الهراء الذي قيل، وإنما أتأسف على أنك وأنت العاقلة صدقت كل ما قيل.

قبلتني فاطمة على خدي وعيني وجبيني وقالت:

ـ تعالي معي إلى المطبخ.

ـ وماذا أفعل معك في المطبخ؟

ـ نلف ورق العنب أنسيت أن أخاك يحب ورق العنب كثيراً؟

ـ أخي أنا أم زوجك أنت؟

وضحكنا هذه المرة أنا وفاطمة ومن كل قلبنا، وانهمكت فاطمة في لف ورق العنب. نظرت إلى حركات يديها فشعرت بأن فاطمة قد عادت إلى طبيعتها، المرأة الناضجة العاقلة التي نستنير برأيها دائماً.

أخي يستقبلني بمرحه كالمعتاد، فاطمة صامتة، وجهها يمتلئ بسعادة مشوبة بشيء من الكسوف. قدمت طبق ورق العنب لزوجها فقال لها:

ـ وأخيراً تذكرت أنني أحب هذه الأكلة.

سكتت فاطمة. نظر إلي أخي وقال مرة ثانية:

ـ لا بد أن هذا الطعام احتفاء بمقدمك، فزوجتي لم تعد كسابق عهدها.

قلت له:

ـ أنت السبب انشغلت عنا كثيراً بمكتبك وبالمهندسة الجديدة.

نظر إلي وقال:

ـ حتى أنت تقولين ذلك؟

قلت:

ـ إذن أنت تعرف؟

وبهزة من رأسه، قال:

ـ نعم... ولكنني لم أشأ أن أناقش زوجتي في مخاوفها التي لا تعتمد على

الحقيقة. رشا ستتزوج بعد عشرة أيام.

ـ وتعرف هذا وتسكت؟

ـ ولماذا أقول عن شيء لا يهمني؟

ـ ولكنه يهم فاطمة.

ـ فاطمة تثق بي.

ـ ولهذا جئت أنا إلى هنا، لأؤكد لك هذه الثقة.

ضحك أخي وقال:

ـ قولي لهذه المجنونة إنني عشت سنوات دراستي أنتظر يوم عودتي لأخطبها وعندما أصبحت أماً أحببتها أكثر، فهل يمكن أن أضحي بسعادتي من أجل أي إنسان مهما كان هذا الإنسان؟

وأجبت:

ـ فعلها غيرك.

نظر إليّ أخي وقال:

ـ المرأة هي المرأة، مجبولة بالغيرة من رأسها حتى أخمص قدميها.

ضحكت أنا الأخرى وقلت له:

ـ جدتي كانت تقول: "يا مأمن الرجال كالذي يأمن الماء في الغربال"، ومع أنها كانت ضنينة بجدي عن أي أنثى، فقد فعلها جدي فجأة وبلا استئذان ثم بعد كل هذا ألا تعتقد أن من حق فاطمة أن تخاف عليك؟

ـ صدقيني يا أختي بأنني لم أفكر قط في هذا. فاطمة عندي شيء آخر، أكبر النساء حتى أنت.

وضحك ثم نظر إلى وجهي وقال :

ـ متى ستسافرين؟

قلت ضاحكة:

ـ هكذا تريد مني أن أغادركم بسرعة؟

أجاب أخي:

ـ لا... لكن أطفالك هناك في حاجتك، وزوجك هو الآخر يريد أن يقرأ كشف الحساب من بين يديك. لا تقولي له شيئاً فقد كفيتك مؤونة أن تتحدثي عن الذي جئت من أجله.

ابتسمت وقلت:

ـ ليت فاطمة معنا لتسمع ما قلت.

وأطلت فاطمة فجأة وهي تقول:

ـ لا عليك... لقد سمعت كل شيء. ربما كنت طائشة ولكنها سحابة صيف انقشعت تماماً.

قال أخي:

ـ وهل ترفضين إذا حلت أنثى غير رشا في العمل الذي تمارسه؟ فأنا كما ترين أحتاج لواحدة مثلها تؤدي عملها بمهارة.

قالت فاطمة وبكل جد:

ـ نعم أرفض ذلك من كل قلبي يا زوجي الحبيب.

ونظر إليها أخي بكل عينيه وقال:

ـ أمرك يا ستي.

لعبة الكراسي الموسيقية

ويمل النحل تقبيل سيقان الزهور، وتنطلق الفراشات الملونة حول أضواء الربيع، ويمد الزمان لسانه لكل أولئك الذين يعتقدون أن سنوات العمر لا يمكن أن تمضي أو تسير.

ويبدأ العد التنازلي، وتبدأ التسويات وتستمر الساعة في دقاتها الموسيقية معلنة عن أن الشموع المضاءة أخذت تتآكل تدريجياً بفعل الاحتراق.

ويظل الزمان صامتاً كالدهر، مسلطاً كالسيف، مشرعاً كفوهة بركان، هادراً كالموج الغاضب، فالحقائق تدفع الأحلام تعريها تمنحها الذبول والاضمحلال.

كل شيء هادر في أعماقه وفي عروقه فظروف الأمس الذي غاب تطل فجأة من بين عينيه وكأنها لا تريد أن تذوي أو تضمحل، ويذوب في لجة من الأضواء الحارقة وهو يجوب شوارع هيوستن التي يزورها لأول مرة.

ترى لماذا يتجه بعض الناس لزيارة مدن لا يعرفونها؟ وتطل من رأسه حكايات هذا الخافق الذي يعذبه، فلكم احتلت مساحات هذا القلب أكثر من صورة.

حتى الحنان الذي يبدو في أجواء العيون الشاحبة الهزيلة كان يعزوه إلى قلبه الذي لا يريده أن يتوقف.

مرحلة الحياة تبدأ بخطوة يوم نولد ويوم نمشي على هذه الأرض ويوم نبدأ لعبة الكراسي الموسيقية بحثاً عن مكان في زوايا هذه الدنيا ويوم نموت! وهو لا يخاف الموت، لأن الموت بالنسبة إليه كإنسان

ملم هو بداية الحياة، لكنه يخاف على أولئك الذين تركهم في مدينته.

لقد مل التجوال بين الموانئ وفي دروب الحياة بعد أن تكسر مجذافه على صخور الواقع الذي أحب فيها عرق الدنيا وضياءها وصفاءها وكدرها ونقاءها وجمالها أيضاً، ولكم مارس طموحه وفق مؤشرات لا يريد أن يستعيدها في ذاكرته بعد أن حفلت معالم الطريق التي احتلت أجواء نفسه التي لا تريد أن تهدأ أشياء كثيرة.

العالم على كبره يبدو صغيراً أمام عينيه، فتجارب الحياة على كثرتها شيء يمكن أن يضيفه الإنسان إلى قدراته.

طفولته، شبابه، حياته، سنوات دراسته التي أمضاها، صور تتلوها صور تملأ أحداق العين وهو أشبه بالنحلة التي كلَّت تقبيل سيقان الزهور.

كم فراشة احترقت وهي تحاول الوصول إلى قلبه هذا الذي يحترق.

لم يكن يظن أن الأمر سيصل به إلى هذا الحد هو العنيد العتيد الذي أمضى صباه وشبابه يلف "كالمدوان" بين القاهرة ومدريد وكان وباريس ونيويورك ونيوجرسي.

لكل مدينة من هذه المدن في نفسه ذكريات يعرفها ويحبها ويكرهها أيضاً. فالملل يدب في شرايين الإنسان كما تدب النملة في طريق وعر صلد.

ترى كيف يصف هذه المدينة التي يزورها اليوم؟ لقد اختلف كل شيء عن سابقه في أمريكا وأصبحت هذه الزيارة ولهذه المدينة بالذات مرحلة جديدة من مراحل حياته التي يؤرخ لها في صمت، هو الذي كره قراءة كتب التاريخ يوم كان على مقاعد الدارسة.

وأخذ يحدق في وجوه الصبايا، العجائز، الرجال، فقد اعتاد أن ينظر إلى كل شيء، حتى الفاترينات الملأى بألوان كثيرة من الثياب.

وبدأ يسترجع مواقف الخوف في حياته. إنه يذكرها جيداً الأولى يوم ولد، أحس به عندما رزق بأول ولد كان يفكر في أمور هذه الدنيا دفعة واحدة.

الظلام الذي عايشه وهو في بطن أمه أحلى بكثير من كل هذه الأضواء الرقراقة، عينا الطبيب والقابلة وكل من كان معه في غرفة الولادة يراقبه، حتى

عندما حملته القابلة من ساقيه لتدفع بما تبقى في أمعائه خارجها وهي تضرب ظهره بيديها أحس بشيء يلهب حواسه ولكنه لم يجد غضاضة كبيرة في أن يتذكر تلك الأنثى أم بديعة، القابلة التي تقولها في امتنان في كل مرة تشاهده فيها وكأنها تشير إلى أنها تعرفه معرفة أكيدة.

والمرة الثانية عندما دخل الامتحان، امتحان التخرج... أحس بأن كل من في الصالة يراقبه وهو يكتب، وشعر بشيء من القشعريرة، فالناس يخافون من الامتحان لكن خوفه أكبر لأنه سيفتقد بتخرجه أشياء كثيرة: القاهرة التي أحبها، وأم سعيد الشغالة التي كانت تصنع له الطعام وتحاول أن تخفي عيوبه عن أمه عندما تزوره قادمة من بلادها، وسعاد الفتاة التي أحب.

ويخاف للمرة الثالثة عندما اقترن بزوجته، فهذه المرأة التي لم يرها إلا للحظات غدت زوجته، ولا يدري كيف يمكن لها أن تقبل كل نقائصه ويقبل كل حسناتها.

وترمقه عين امرأة عجوز حتى إذا ما نظر إليها ابتسمت من كل قلبها ثم سألته:

ـ إلى أين ومن أي بلد؟

لكنها وبعد أن عرفت أنه من الشرق، لوت بوزها ومطت شفتيها وتركته فقد كانت تظن أنه برازيلي أو إسباني على الأقل.

لا بد وأن هذه العجوز برازيلية أو مكسيكية ولهذا تحن لسحنة أي واحد من أبناء جنسها، حتى الناس تراهم يميل بعضهم إلى الآخر عن تصميم وإصرار وعناد وسبق تصور.

غداً سيلتقي بوجوه لا تعرفه، وجوه خيرة وأخرى بين بين، لكنها لكثرة ما مارست من عمل اختلط في نظرها الطيب والرديء. واستمرأ الحديث إلى نفسه برهة من الوقت حتى إذا ما وصلت به قدماه إلى غرفته وجد من يربت على كتفيه بهدوء.

والتفت إلى الوراء ليرى امرأة نصف، يعرف وجهها ولا ينساه لكنه يكاد لا يدري من هي.

ربما كانت هذه كالأخرى التي هربت من وجهه بعد أن عرفت أنه من الشرق.

وكد ذهنه حتى إذا ما أحس باسم المرأة على طرف لسانه أحس بشيء من الفرحة:

- سونيا كيف حالك؟

ونظرت إليه في هدوء وقالت له:

- لا تظن أنني لا أعرف أسباب وجودك هنا فقد طلب مني صديقنا محمود أن أكون بجانبك في محنتك وإن كنت لا تستحق هذا الشرف.

مد يده ليحتوي يدها يتشبث بها كطفل، حتى إذا ما ابتسمت قال لها:

- لا بد وأنك قد سامحتني على كل ما صنعته معك يوم كنا صغاراً.

قالت:

- ليس لهذا الأمر قد جئت فإني كما تعرف طيبة وطيبية قلب ناشدها صديق لتكون بجانب إنسان ما عرفته يوماً ما ثم نسيته بقية عمرها.

وابتسم هو الآخر ولكن على خجل وقال:

- ألا ترحلين؟

والتفتت إليه وقالت:

- وإلى أين أذهب؟ لقد أتيت إلى هنا لأكون بجانبك، ولا تظن أن للماضي دخلاً في أن أكون هنا، فأنا كما تعرف امرأة متزوجة وأم، لكنها مهنتي جعلتني أستجيب لرجاء صديق أحترمه كثيراً وإن كنت أنت نفسك لا تستحق مني هذه العناية.

وأشاح بوجهه قليلاً عنها وهو يقول:

- أنت تزيدين ألمي.

- ألمك من ماذا؟ هذا العارض الضعيف هو شيء كان يجب أن يكون لكنه ليس كبيراً كما ظننت. لقد قرأت كل شيء عنك وعرفت من جراحك مشكلة قلبك فلا تخف فقلبك يا صديقي مليء بأشياء كثيرة.

وضحكت ثم تابعت قولها:

ـ لا عليك... لننس الماضي ولنترك شيئاً واحداً: أنت مريض وأنا طبيبة وهذا يكفي.

وتمتم بينه وبين نفسه وهو يقول: ها هي واحدة من هؤلاء الفراشات لا تزال على حالها.

قالت له سونيا:

ـ ماذا تقول؟

قال:

ـ لا شيء.

قالت:

ـ لا تكذب. قل الذي قلته لي دون لف أو دوران.

وترجم لها كلماته فضحكت وقالت:

ـ لا تزال على حالك تحلم وتحلم وتظن أنك بأحلامك قادر على تحقيق ما تريد. أنت يا صديقي مجرد إنسان بلا هوية، قتلته الأيام والليالي وأفكار السوء ولو لم تكن كذلك لما بقيت كالشجرة العجفاء.

ـ ولكني تزوجت.

قالها في عناد.

ـ أعرف أنك قد فعلتها مع مسكينة عاشت أيامها ترمقك وأنت سائر في طريقك، أعرف كل شيء، فقد اشترطت على محمود أن أعرف مالا تريد أن أعرفه. وهذا الذي عرفت قلته لزوجي بعد أن استأذنته في تلبية رغبة صديق كمحمود أما أنت..

وقلبت شفتيها في ازدراء:

ـ فأعود لأقولها بأنك لا تستحق مني العناية هذه العناية لو لم أكن طيبة وطبيبة.

ـ إذن أنت لا تزالين تحملين في نفسك مني على هروبي من بين يديك يوم

كنا معاً في جامعة دنفر.

ـ لا...

قالتها في هدوء، وتابعت:

ـ وإنما الذي أزعجني أنك كنت تكذب.

ـ كنت أكذب من أجلك، فلولا هروبي من أمام الرغبة في اقترانك بي لبقيت هنا وهذا شيء لا أريده ولا تريده عائلتي.

ـ ولماذا لم تصارحني بالأمر؟ لعبت بعواطفي وأفهمتني أنك تريدني زوجة حتى إذا ما رغبت أنا الأخرى فيك هربت أنت.

أتدري أن هروبك جعلني أغير منهاج حياتي فأدرس الطب وأتخصص في القلوب والقلوب المريضة على أن أعالجها من أوهامها وجراحها وأمراضها أيضاً؟

ونظر إلى وجهها. كل شيء فيها يذكره بالماضي يوم كان حتى إذا ما قارن بينه وبين نفسه بين الماضي الذي عاشه والحاضر الذي يراه وقد سلبه مقومات الراحة بهذا المرض المفاجئ الذي ألم به.

وركن قليلاً إلى الصمت فقالت:

ـ فيمَ تفكر؟

قال:

ـ لا شيء... لا شيء!

قالت:

ـ الناس يخافون الماضي أما أنت فتهاب الحاضر.

ـ نعم...

قالها في استغراق وكأنها تخرج من باطن بئر عميق. قطع نداء التليفون الحديث بينه وبينها وجاءه صوت زوجته مشجعاً:

ـ كيف حالك؟

واستجمع قدراته على الهدوء ليجيبها وهو يضحك:

ـ بمب... غداً سيجرون العملية لا تخافي.

ـ ومن قال لك بأنني خائفة؟ فأنا أدعو لك ومن كل قلبي.

مسكينة المرأة في بلاده، يستغل الرجل طيبتها أسوأ استغلال وهي هادئة صابرة تضع أذناً من طين وأذناً من عجين.

حتى تلك التي تخاف على زوجها تعرف كيف تفهمه أنها غير خائفة.

طبيعة المرأة في أرضه طبيعة طيبة وهو يعرف كل ذلك ولا ينساه.

وتبادل مع سونيا أحاديث طويلة عن حياتها وأسرتها وزوجها وعن قلبه وكيف هو حاله. ضحكت سونيا وهي تقول:

ـ لن أتحدث إليك بلغة الطب الآن وإنما بلغة تجيدها أنت أكثر مني، فالذين يستخدمون قلوبهم أسوأ استخدام يجعلونها تخفق دائماً وتنشط في خفقاتها ولهذا فأنتم تستهلكون هذه القلوب سريعاً.

ودعها وودعته على أمل اللقاء غداً، ومضى إلى غرفته يفكر في أمر هذا الغد الذي ينتظره بفارغ صبره.

الرداء الأبيض يرتبط بذهنه بأشياء كثيرة عرفها يوم مولد أول طفل له وهو في المستشفى يعايش الوحدة يستمع إلى الموسيقى الخافتة التي تتسلل إلى ذهنه عبر جهاز الراديو.

التلفزيون في مكانه يعايش الصمت وكأنه يريد أن يخلو إلى نفسه بعيداً عن أن تكون له أية صلة بالناس وفي هذا الوقت بالذات.

سونيا بابتساماتها تطل عليه هادئة وهي تقول:

ـ هل أنت جاهز؟

وأحس بوجيب قلبه يترقرق بين صدره ودقاته تعلو وأنفاسه تهبط فتذكر في تلك اللحظة اليوم الذي قابل فيه هذه الأنثى التي استطاع أن يصنع منها صديقة كان يوماً رائعاً بالفعل، وتطلع إلى النتيجة ليرى أن اليوم هو نفس اليوم والتاريخ هو نفس التاريخ والشهر هو نفس الشهر وإن تغيرت السنوات وقال في خفوت وهو يحتضن عينيه:

ـ نعم جاهز.

لم يشعر بوخز الإبر التي أخذت تتسلل إلى جسده وأحس وهو ينام ملء عينيه بأنها إلى جانبه رغم هربه منها.

وابتدأ يمارس مع نفسه أحلاماً لا يدري كيف جاءت لكنه يذكر تفاصيلها وهي تطل في حيرة تغلف آفاق حياته بمجاميع كبيرة من الوجوه البيضاء والحمراء أخذت تتسلل إلى الواجهة بدون أي ترتيب حتى إذا ما أطلت زوجته بوجهها وابتسامتها أحس بشيء من وخز الضمير، فهو هنا وفي أدق حالات المرض، لا يزال بعد ينبض بذكريات كان يجب أن يسدل عليها ستاراً من النسيان.

ساعات وساعات أمضاها في غرفة العمليات لم تكن بالنسبة إليه سوى مجرد حلم وحلم طويل حتى إذا ما تفتحت عيناه مرة ثانية صافحه وجه امرأة شابة تحدثت إليه بلغتها العربية المكسرة قائلة:

ـ الحمد لله على السلامة. وأين سونيا؟

قالها دفعة واحدة وكأنه ينتظر رؤية هذه المرأة مرة أخرى. لا يدري ما الذي يريده منها، لكنه أخذ يعترف بينه وبين نفسه هذه النفس بهذه الرغبة بلا جدوى حتى إذا قالت له الطبيبة التي كانت في مواجهته:

ـ إنها هناك.

وسألها:

ـ أين؟

قالت:

ـ في غرفة الأطباء تتحدث مع أسرتك.

رائعة هذه المرأة فلقد صنعت معه أكثر من معروف وقد يكون السبب في كل هذا الذي صنعته صديقه محمود وقد يكون.... وصمت عندما رأى سونيا أمام الباب في مواجهته تنقل عينيها بين وجهه ووجه الطبيبة، حتى إذا ما وصلت إلى سريره قالت:

ـ أو تدري أنني كنت خائفة عليك؟

وأجابها:

ـ لماذا؟ هل عملية قلبي من النوع الخطر؟

ـ لا.

قالتها في هدوء:

ـ ولكني خفت عليك أكثر لأنك بمفردك لا عائلة ولا زوجة ولا ولد.

ـ أتظنين أن خوفك علي لهذا السبب؟

وأجابت:

ـ وماذا سيكون السبب يا شاطر إذن؟

قالتها في استهزاء وهي تكرر كلمتها تلك في مرح ظاهر ثم أردفت:

ـ هي تستأهل كل خير.

ـ من؟

ـ زوجتك... لقد حدثتها وكانت تبكي. لكن أنا حزينة من أجل هذه المرأة فقد استطعت أن أنأى بنفسي من شباكك لأجدها قوية ومتماسكة وكنت السبب ولكنها هي التي تعيش في شباكك اليوم أيها الصديق الذي لا يعرف الوفاء.

وانخرط في حديث طويل مع هذه المرأة التي أحبها يوماً ما لكنه هرب من طريقها لأنه خاف عليها أن لا يكون بمقدورها أن تعيش معه هو الذي كان دائماً يخفق قلبه لمرأى ظل أنثى تخايله من هنا أو من هناك.

وكرر لها الشكر وهي تودعه قائلة:

ـ سأعود إلى بيتي وزوجي وستعود أنت إلى بيتك وزوجتك حتى إذا ما قدر لنا أن نلتقي مرة ثانية، أرجو أن يكون لقاؤنا في مكان أفضل من هذا المكان ومع السيدة حرمكم المصون.

همومي كبيرة، لكنها وعلى الرغم من أنها كبيرة، لكنها لا تحزن فأحزاني صغيرة، أراها وتراني وألمح على وجه المرآة آثار هذا الحزن الذي يبدو وكأنه يطل على استحياء.

الماضي شبح، شبح جميل، واعذروني لهذه الأوصاف، فالأشباح ليست كلها على درجة واحدة من السوء، وأنا امرأة لكنني لست كبقية نساء هذه الأرض اللواتي يحلو لهن أن يبقين في الظل يتسترن وراء رجل.

لا تحكموا علي بسرعة فتظنوا بأنني امرأة مسترجلة فقدت أنوثتها منذ يوم مولدها، لا، وإنما على العكس، أجمل مما تتصورون. وجه يقولون عنه بأنه كفلقة الشمس، وعينان واسعتان كُحلتا بكحل رباني وابتسامة مشرقة وشعر أسود غزير وطويل كالليل بعدما ينتصف.

في صوتي رعشة ورثتها عن أمي؛ فالدماء التي تجري في عروق أمي من أكثر من مكان، فيها شيء من آسيا الوسطى وبلاد طاغور والقطب الشمالي.

لا تضحكوا في أكمامكم، فأمي تركستانية الأصل طائفية المولد، أبوها من هناك وأمها هندية انحدرت من أم كانت تعيش في القطب الشمالي، ووالدي من هذه الصحراء التي أحبها.

يقولون إن الدماء عندما يختلط بعضها ببعض تعطي أجمل ما عندها ولهذا كنت أنا نوعاً فريداً من الجمال، تميز بالأنوثة والخفة واسمي أيضاً جميلة، اختاره أبي عن عمد وسبق إصرار، فهو اسم أمه التي أحبها.

مشكلتي أنني امرأة، وإن كنت في تفكيري أشعر بأنني أقوى من أي رجل، في منطقي قوة الرجل وانصياعه للحق وإن كنت أميل إلى تغليف أفكاري حتى لا تبدو على السطح منافية لأنوثتي الطاغية.

تزوجت ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أفترق عن زوجي برغبتي، أحس بأنه لا يستطيع احتوائي بيديه فأهرب أعيش مع زوجي الثالث أجمل أيام عمري، فهو الوحيد الذي استطاع أن يكبح جماح نفسي، وهو أيضاً الذي استطاع أن يستولدني ابنتي هبة.

لم أرزق من زوجي الأول ولا الثاني بأطفال وهي نعمة أحس بها، وأعتقد بأن طلاق المرأة التي عندها أولاد مشكلة ما بعدها مشكلة.

كثيراً ما أتذكر زوجيّ الأول والثاني وأقارن بينهما وبين زوجي الحالي، أبحث في صفحة كل واحد منهم على حدة وأخرج بعد تفكير عميق بأن زوجي الأخير يملك من مقومات الحياة والرجولة ما تجعل كفته تميل على كفتي الاثنين.

زوجي شاب وأنا أصغر منه وإن كنت أنا الزوجة الأولى في حياته. زوجي يداعبني كثيراً، وأنا أخاف من مداعباته فهو يقول بأنه أخطأ عندما اختارني كزوجة أولى وأنه من الأفضل أن يتزوج ثانية وثالثة، ليتعرف على ما يرضيني.

عندما يتحدث زوجي عن هذا الأمر لا أشعر بالحرج وإنما بالضيق معاً وأحس وكأنه يمسك بعنقي ليلويه هنا وهناك وأحس بأن أنفاسي تكاد تختنق.

هذا الأمر هو من أكبر همومي وهو الذي يشغل بالي، وكيف لا، والمرأة أخوف ما تخافه أن يقترن زوجها بواحدة أخرى غيرها؟

يزعجني زوجي بأسئلته المتكررة عن زوجيّ السابقين وكيف كانا؟ وأحاول في كل مرة أن أتحدث معه عن هذه الأمور بشيء من اليقظة، فمطلوب مني أن لا أذكر محاسن زوجيّ مهما كان السبب، وأنتم تعرفون الأسباب فلا داعي لذكرها.

نسيت أن أقول لكم بأن زوجي هو الآخر، تجري في دمه بعض الدماء التي تجري في عروقي فجدته لأمه تركستانية الأصل جاءت مع ابنيها يوم هروب

التركستانيين من الحرب البلشفية واستمرؤوا البقاء في الطائف، وإن كان أبوه وجده من هذه الأرض.

وهو شاب درس الهندسة، ويهوى كثيراً الرسم. متفتح على الحياة عاش سنوات طويلة في كاليفورنيا بأمريكا بادئ ذي بدء. كانت أيامنا معاً شهور عسل صحيحة وصادقة، فزوجي غيور ومحب ولطيف وواسع الأفق والثقافة، لكنني وبعد أن مضت سنوات من العمر عشناها سوياً، أحسست بأنه وإن لم يكن يفصح عما يخالجه، لكنني كنت أقرأ ما بفكره من وراء الكلمات، التي يتحدث بها سواء إلي أو إلى أصدقائنا وأسرتنا عندما يأتون لزيارتنا.

في مناقشة صامتة بيني وبينه، عرفت أنه اندهش عندما عرف بأن صديقه الذي يصغره بخمسة أعوام وشريكه في مكتبه الهندسي سيتزوج بسيدة مطلقة.

وعندما سألته عن السبب، حاول وبعد أن أحس بغلطته أن يضفي على كلامه شيئاً من الظلال، فقال:

ـ تعرفين أن الناس هنا ليسوا جميعاً مثلي، ولو كنت أنا مثلهم أيضاً لما تزوجتك. لقد منحتني فرص التعليم ومواجهة الناس في أمريكا الفرصة لأن يكبر عقلي، ويقفز على مثل هذه الحواجز، ولولا أنني كنت كذلك لما عشنا معاً يا جميلة!

صمت، ولم أجبه ونظرت إليه في حب، وكأنني أحاول بهذا الصمت أن أخترق عالم تفكيره، هو الذي كنت أفهم كل ما يقوله.

ففي مرة أخرى كره أن يرتبط أخوه بامرأة، مات زوجها وعندما قلت له بأن امرأة أخيه لا ذنب لها في موت زوجها، قال:

ـ وما يدرينا أنها ستقارن بعد أن تتزوج بأخي بينه وبين ذلك الذي بنى بها لأول مرة؟

تركت الغرفة، ولم أكمل حديثي معه، وذهبت إلى غرفتي أجهش بالبكاء، وكنت أنتظر منه أن يأتي، ليعرف سبب خروجي هكذا من عنده، ولكنه لم يفعل.

انشغل فكري، وبدأت أحس بأن زوجي يحاسبني، بينه وبين نفسه، على

أنني تزوجت قبله من اثنين لا واحد وهذه هي المصيبة.

وبدأت أحس بأنني أعيش في دوامة من الحزن؛ لدرجة جعلتني أحاول أن أمنح زوجي مزيداً من الحب بأسلوب جديد؛ لكنه كان يكتفي دائماً بالابتسام.

مرة قال لي وهو يضحك:

ـ لو كنت أنا الذي تزوجت قبلك وليس أنت، ألا تحسين بالغيرة من زوجتي التي طلقتها؟

قلت وبحزم:

ـ وكيف أغار وأنا أعرف بأنني أفضلها ولهذا اخترتني أنت بدلاً منها؟

فقال:

ـ مجرد كلام تقولينه اليوم، لكنك عندما تفكرين فيما قلته لك؛ تجدين نفسك تعيشين شبه دوامة.

نظرت إليه في حب صامت، وأنا أغالب دموعي فقد عرفت ما يقصده زوجي من حديثه ولكني لم أكمل، وقلت له وأنا غاضبة:

ـ لا بد أنك تقصد من هذا الحديث أمراً آخر، فالتي تزوجت بآخر هو أنا ولست أنت.

قال:

ـ قد يكون ذلك صحيحاً، لكنني لم أرد أن أحرجك بمثل هذا السؤال فحاولت أن أقول العكس.

وصمت. وأعدت النظر إلى وجهه، فأنا أحب هذا الوجه كثيراً وقلت:

ـ وهل أتيت أمراً إذّا بما صنعت؟

قال:

ـ لا لكنها مجرد أسئلة حاولت أن أعرف جوابها عندك.

قلت:

ـ هل ذكرت في يوم من الأيام اسم واحد منهما أمامك؟

قال:

ـ لا... ولكن ما يدريني أنك تقارنين في السر بيني وبينهما.

وابتسم وحاول أن ينهي الموضوع بأن يخرج من الغرفة.

لكن حديثه شغلني كثيراً، وآلمني أكثر، حتى أصبحت أعيش في دوامة من التفكير أحس بها زوجي بعد أن هزل جسمي وزاد شحوب وجهي.

صديقتي حنان شعرت بالمحنة التي أقاسيها في بيتي فقالت لي:

ـ أنت تخفين عني أمراً ما لا تودين أن أعرفه، لكنني أستطيع أن أقول فقط إنك تعيشين في دوامة، فما السبب؟

سوفت معها كثيراً، وحاولت أن لا أقول شيئاً حتى طفح الكيل وأضحى جل همي أن أعرف رأيها في كل هذا الذي يتحدث به زوجي.

ضحكت عندما قلت لها ذلك وقالت:

ـ إذن هو "يتمحك" زوجك هذا يا صديقتي، وإلا لماذا لم يناقش نفسه في هذا الموضوع قبل أن يتزوجك؟ لا أكتمك فأنا أعرف ما قيل يوم طلب سعد من أمه أن يخطبك من أسرتك، فللجدران كما يقولون آذان كثيرة. كانوا جميعاً ضد هذا الزواج، لكنه استطاع بإدراكه وقدرته على الإقناع أن يصل إليك، بعد جلسات طويلة حضرت الأسرة بأجمعها النقاش وشاركت فيه. ربما هناك شيء آخر، فالرجل عندما "يتمحك" يكون بالفعل ناوياً على أن يتزوج.

ـ وتقولينها يا حنان؟

ـ وماذا تريدينني أن أصنع؟ أكذب عليك أنت صديقتي وحبي لك وصداقتي فوق كل شيء؟

والتفتت إلي قائلة:

ـ هل قصرت معه في شيء؟

ـ لا...

قلتها بسرعة فقالت:

ـ فكري كثيراً، وانظري فيما حولك ربما كان هناك شيء ما بخلت به على زوجك، أو حتى أصبح يفتقده فيك، وإلا لما فكر فيما فكر فيه؟

نظرت إليها في بلاهة، فضحكت وقالت:

ـ أنت ذكية. لماذا تحاولين أن تفهميني بأنك غير قادرة على اكتشاف النقص الذي أحسه زوجك فيك فجأة؟ لا عليك يا صديقتي، ابحثي جيداً ودعينا نتحدث في هذا الموضوع مرة ثانية.

حنان هذه جارتي وصديقتي منذ أيام الدراسة اختارت حقل التعليم حتى وصلت إلى الثامنة والعشرين ولم تتزوج بعد.

كنت أسألها دائماً عن السبب وهي الفتاة الجميلة الذكية المتعلمة، فتضحك وتقول:

ـ الزواج قسمة ونصيب.

ولا أعقب.

في الزيارة الثانية لحنان قلت لها بأنني فعلاً لم أستطع الوصول إلى أي شيء يجعلني أحس بأنني السبب في تغيير نظرته، فقالت:

ـ لا أدري!

وأحسست يومها أنها هي الأخرى تريد إنهاء الحديث وعدم الخوض فيه مرة أخرى لكنني قلت:

ـ لماذا ترضى بعض الفتيات بالزواج من رجل متزوج؟

واندهشت لسؤالي وقالت:

ـ قد تكون الرغبة في بعض النفوس في امتلاك أزواج الأخريات.

قلت:

ـ لكنها مشكلة نحن السبب في وجودها.

ضحكت في اقتضاب:

ـ وكيف تقولين نحن؟

قلت:

ـ لو لم توافق المرأة على أن تتزوج رجلاً متزوجاً، لما استطاع الرجل الوصول إلى غرضه.

ضحكت حنان هذه المرة في شيء من الاستهتار أرهبني وقالت:

ـ عندما تصل المرأة إلى سن فوات قطار الزواج تتشبث بأي رجل.

قلت:

ـ كيف؟

قالت:

ـ حلم المرأة أي امرأة أن تتزوج تتدلل صغيرة وفي ذهنها مواصفات لزوج لم يصل بعد، حتى إذا ما غذت بها سنوات العمر، قبلت بمن لم ترض به في السابق فكيف إذا كان من سيخطبها وحتى إذا كان متزوجاً صالحاً لها و تحبه؟ ستقبل عليه وتحاول أن تسلبه عقله ولبه أيضاً وتبعده حتى عن زوجته الأولى.

ـ أتعنين أن زوجي سيتزوّج علي؟

ـ وما يدريني!

قالتها بفزع لم أحاول أن أعطي له معنى، حتى إذا ما عدت بذاكرتي وأنا أتحدث إلى زوجي في موضوعات كثيرة كنا نخوضها سوياً رأيته يتبرم بكلماتي، ويقول:

ـ أتدرين يا جميلة بأنني أفكر في أن أتزوج؟

وضحكت وأنا تعسة، وقلت له:

ـ ولماذا؟ إذا استطعت إقناعي بالسبب ربما ساهمت في خطبة واحدة من أجلك.

ـ وتفعلينها؟

وأحسست بالسكين يكاد نصله يصل إلى أحشائي، فقلت:

ـ لا. مجرد مزحة ومزحة ثقيلة فأنا لا أقبل أن تشاركني فيك امرأة.

ـ لكن رجلين شاركاني فيك قبلي؛ ومع هذا تريننى لا أغار منهما.

وصمت قليلاً، ثم عاود الكلام:

ـ قد تكون الرغبة أن أفهم دخيلة نفسك عندما أتزوج بأخرى هو السبب الذي يجعلني أفكر في هذا الأمر.

ـ وتقولها بجد؟

ـ ولماذا أكذب؟ لقد فكرت كثيراً في هذا الأمر؛ وقلت لنفسي هي فرصة لأن تحس جميلة بما أحس وتشعر بما أشعر.

ـ وماذا تشعر؟

ـ أشعر رغم أنك لم تقولي أي شيء بغيرتي منهما.

ـ ومنذ متى كان هذا الشعور؟

ـ ظهر بوضوح بعد مولد طفلتي، ومع هذا صبرت أمام كل ما كانت تحدثني به نفسي حتى ضقت ذرعاً بعد كل هذه السنوات، ورأيت أن أفكر في شيء آخر قد يجعلني سعيداً.

ـ أتعني الزواج بأخرى؟

ـ ولم لا ما دمت قادراً على ذلك.

بكيت وبكيت، ولكنني لم أرجه بأن يعدل، ورأيته يخرج ولأول مرة دون أن يكفكف دمعتي.

وهاأنذا أعيش مع همومي الكثيرة، ولكن رغم أنها هموم كثيرة إلا أنني أحاول أن أواجه كل شيء فيها بشجاعة. وبدأت أفكر في أمر زوجي الأول والثاني، وأخذت أستعرض أحوالي وأنا في بيت الزوجية الأول والثاني وخرجت من المقارنة بأنني تزوجت الأول وأنا طفلة دون أن أعرف معنى الزواج، ورغم أني لم أظل كثيراً في بيته إلا أنه كان أفضل بكثير من زوجي الثاني.

أما سعد هذا؛ فنسيج يختلف عن الاثنين، أحببته من قلبي وشعرت بأنني فعلاً أصبحت امرأة، فقد كان قادراً على أن يمنحني السعادة ولم يبخل بها علي.

زرت معه العالم، ورأيت كيف يعيش الناس هناك، واستطعت أن أحقق أحلامي في جواره حتى يوم مولد أول طفل لي أحسست بعدها بأنه أكثر سعادة لدرجة خفت معها أن أفقدها، وقد كان.

ترى من يصدق أن الحياة التي ابتسمت لي، ومنحتني هذا الزوج المثالي،

تعود لتأخذه مني وفي وقت أنا أحوج فيه إلى وجوده؟

لن أرتكب من الحماقة ما ارتكبته سابقاً فأطلب الطلاق! بعد أن أصبحت لي هذه الابنة يكفيني أنه بجانبي وإن كان قد أصبح شيئاً يغاير ما كان عليه.

ويومها صدقوني لا أدري كيف أصفه؟ فلقد كنت أعيش بمفردي في البيت بعد أن فهمت من سعد زوجي أن سيغيب لمدة شهر عن بيته وأسرته ولم أسأله السبب؛ فقد رأيته يتحدث إلي في اقتضاب تعودته منه أخيراً. كنت ألملم في ذاكرتي الأشياء الحلوة التي عرفتها معه، لكن كل هذه الذكريات ضاعت مني وأنا أتلقى مكالمة من صديقة لم تكن تزورني دائماً.

قالت لي وفي هدوء:

ـ أظنك غير مدعوة لفرح حنان الليلة؟

وأجبتها:

ـ وهل يمكن أن تتزوج حنان دون أن تدعوني؟

وضحكت المرأة، وجاء صوت ضحكاتها في أذني غريباً ولاذعاً، واستمعت إلى كلماتها وكأنها طلقات رصاص تنفذ إلى أعماق أعماقي.

أتدرون من هو الذي ستقترن به حنان صديقتي؟

إنه زوجي، زوجي أنا... وألقيت بسرعة التلفون من يدي وصوت المرأة يواصل طريقه إلى أذني هذه المرة وقد اختلط بعزف الطبول التي نسمعها دائماً عندما يكون هناك زفاف وزفاف جديد!

العاصفة

وكان الأمس غداً عندما أحست بمباهج الدنيا، فالجديد الجديد يصبح مع الأيام القديم القديم. تلك هي سنة الحياة، نعايش الأمس واليوم والغد وننتظر السنوات التي تجيء لتضيء معالم الطريق أمام أعيننا التي كبرت.

طيور النفارى التي سمعتها تناديها من فوق الشجرة في يوم من أيام الخماسين كانت مجرد مزحة نسيتها يوم العاصفة وهي تتطاير ومعها أوراق الخريف التي فقدت بريقها تحت الشمس.

كان الزمن مجرداً من التوقيت عارياً من الرمز ينضح بالعرق والدموع، وأشلاء الأشجار العاتية تذوب في دوامة أعاصير الخريف، الذي ينسى وهو يلثم جذوع الأشجار كل شيء.

فهو قادر على انتزاعها، وغراس النمل الصغيرة تحتضن توأمها في حنان وكأنها تغفو على زر شجرة ورد ألقت بأيديها وأرجلها إلى جانب قنوات الماء.

طحالب المياه الخضراء تكسرت على شواطئ الأقنية بينما أخذت ضفادع البركة الصغيرة ترقص وهي تشدو بأهازيج ملتها آذان الطيور النائمة.

هي وحدها التي تخاف صوت عواء الليل عندما يتسربل في الظلام الدامس فليالي الخريف الصدئة تستنكر دوامات الحقد الأزرق تقتلع جذوع الأشجار وهي تبكي.

هذا البيت القديم، بدواليبه الكثيرة وشرفاته المطلة على جدران العاصفة أشبه بسجن كبير تترقرق جنباته وهي تصد مجرات الرياح.

براكين الخوف تغلي في صدر القاعة الكبيرة أبوابها تصطفق أرائكها تطقطق وأنوار اللمبات الكهربائية التي انكفأت فجأة تحت ضغط انحسار الطاقة جعل كل شيء في البيت يخيفها حتى الهواء الذي يلامس وجنيتها يضايقها هو الآخر لأنه يأتي مشدوداً برغبة في القسوة.

عندما تنفلت موازين الغابة يصبح البستان الكبير مجرداً من جميع ميزاته.

فالعاصفة التي زحفت وراء شبح الأمطار جعلتها تهرب فجأة بعد أن أغرقت كل شيء.

حتى "الرانوتة" المياه المنحدرة القوية التي تجيء في أعقاب هطول المطر لها صوت ودوي يزيد من أهوال الليالي المتمردة وكأن الخريف الذي أخذ ينتصف يحاول أن يهرب هو الآخر.

زوجها في المدينة، وأطفالها يحتضنون الأرض يغطون في نوم طويل وهي على مقربة منهم ترقب صدورهم وهي تعلو وتهبط في ميكانيكية.

ليست هذه الليلة الأولى التي تعايشها بهذا المقدار من الهلع ففي كل عام كانت على موعد مع العاصفة بلا مؤنس أو رفيق إلا هؤلاء الصغار الذين يزداد عددهم كل عام واحداً.

وهي تذكر كيف ولدت نهى في مثل هذا اليوم من قبل سبع سنوات مضت وانقضت.

كانت العاصفة قد بدأت تطل رويداً رويداً، حتى إذا ما ازداد أثرها وتأثيرها أخذ صدرها يعلو ويهبط ووجهها يشحب وجسمها يرتجف كورقة شجر اختارتها العاصفة في طريقها عن عمد.

وأحست بالبسمة تملأ وجهها كله، فنهى التي ولدت مع العاصفة والتي أراد لها الله أن تعيش هي اليوم من أجمل بناتها وأكملهن عقلاً وفهماً وإدراكاً.

وهي تذكر الدقائق التي سبقت مولدها حتى إذا ما علا صوت بكائها أصمت أذنيها عن فحيح العاصفة وهدأت نفسها.

وأطلت من بعد على الوجه الصغير الذي عاشت في أجوائه فترة من الزمن لا تدري ماذا تصنع.

كانت أشبه بامرأة بدوية جاءها المخاض وهي في طريقها من المدينة إلى القرية مع هذا، فهي لا تريد أن تتذكر كل تلك اللحظات لا لأنها مؤلمة وإنما لأنها كانت جميلة.

نهى هذه الطفلة التي كبرت وربيت ونمت واستطاعت أن تشب في صور هؤلاء الذين يملؤون رحاب البيت عند هدوء العاصفة صخباً وضجيجاً.

ومع هذا، فهي تحب العاصفة ولا تكره الضجيج وإن كانت تخاف الاثنين معاً.

في العاصفة ولدت معها الحياة، وفي العاصفة مات أبوها ذات ليلة، وهي تحب التي ولدت وتحب الذي مات وتعرف جيداً أنها والعاصفة كجذور عريشة العنب التي زرعتها، ويومها يوم كبرت أحست بشيء من الانقباض زال أثره بعد أن جاءها زوجها يحمل خطبة نهى.

نهى ابنتها تتزوج وتسافر. لقد كبرت الصغيرة وآن لها أن تصبح زوجة، فنساء المدينة كن يتزوجن ولم تصل الواحدة منهن إلى الرابعة عشرة سنة بعد.

وهي تذكر حفل عرس نهى، فلقد ازدانت "الرفيعة" بستانها المفضل بالثريات الكهربائية التي مدت حتى وصلت إلى أول الطريق القادم من قباء وحول البركة كانت تتربع زهور الياسمين في مراكنها الفخارية، ومن حولها ورد المدينة الأحمر.

لشد ما تغيرت أحوال الناس في هذه المدينة الطيبة إلا هي، ففي هذا البيت ولدت وفي ديوانه الكبير اقترنت بزوجها وفي غرفه الواسعة ولدت نهى وأولادها الآخرين ولكن... أين نهى اليوم؟

وتضم إلى صدرها قلادة ورد يابسة وضعتها في صندوق الخطابات فهذه هي أول رسالة وهذه هي الثانية وهذه هي التي وصلتها أخيراً.

زوجها يداعبها ويقول لها:

ـ أنت دائماً هكذا تعيشين بعاطفتك حتى مع زهور الحديقة تبكين عندما تذهب نضارة وردة وتبكين أكثر عندما تموت "فلة".

فلة قطة صغيرة تركية جاءت إلى البيت ذات يوم واستمرأت العيش معهم

فيه فلم تبخل عليها بالحب.

بعض الناس يصنعون الحب وبعضهم يزرعونه وبعضهم يقتلونه وهي من أولئك الذين يزرعون الحب ثم يصدرونه إلى الناس، كل الناس.

ومع هذا، تظل دائماً تتعطش إلى أن تمنح الحنان لزوجها والحب أولادها. ونهى التي تعيش خارج مدينتها مع زوجها الذي يدرس الدكتوراه في جامعة أكسفورد البريطانية.

"٢"

الناس في كمبريدج يملؤون الشوارع وهي في طريقها إلى شقتها. كل شيء رغم كثرة الناس يسير كالمعتاد إلا أن الهدوء يغلف وجوه الجميع. الخريف لم يترك للأشجار أن تستمتع بأوراقها، فأصبحت كل الأشجار عارية من أي كساء، والسماء ملبدة بالغيوم والشتاء القارس على الأبواب.

نتف الثلج تقذف الشوارع والنساء والرجال معاً بقطعه البيضاء التي تنتهي إلى فقاعات يتساقط منها الماء عند مباني جامعة أكسفورد، توقفت قدماها قليلاً ففي نهاية الشارع وعند بائع الحلويات الهندي التقت بزوجها الذي أمسك بيديها في فرحة كيس الملابس في الحقيبة اليدوية الكبيرة دخلا معاً إلى دكان الحلويات حيث اشتريا بعض الحلوى واستمرا في السير قليلاً.

شقتهما لا تبعد كثيراً عن مباني الجامعة. فتحت الباب، حياهما الإنجليزي العجوز بابتسامته الوقورة وشعره الأشعث وامتدت يده لتحمل الحقيبة من يدها، لكنها طلبت منه بود أن يتركها فباستطاعتها حملها إلى المصعد.

قال لها الرجل الشايب:

ـ هناك مفاجأة لك يا سيدتي، فأخوك كان قبل بضع دقائق هنا.

نظرت إليه وإلى زوجها وقالت:

ـ أين هو الآن؟

وأجابها الرجل باقتضاب:

ـ قال إنه سيعود بعد ساعة عندما عرف أنكما لستما في الشقة.

شكرت الرجل ثم دلفت وزوجها إلى المصعد حتى إذا ما فتحت باب الشقة وجدت أمامها خطاباً يحمل خط أختها. فتحته وعرفت أنه قد أرسل منذ مدة وعرفت أيضاً أن أخاها في طريقه إليها.

جو بريطانيا كالمرأة لا يمكن أن يستمر على حال. كل شيء قد تغير وانهمرت الأمطار بشكل مفاجئ تصحبها بروق ورعود ملأت أجواء الغرفة نظرت إلى زوجها.

ابتسمت، أمسكت بيده وقالت:

ـ أخي هنا وفي بيتي؟

نظر إليها زوجها بحنان وقال:

ـ بل قولي في بيته وهذه هي فرحتنا فسنصبح في ديار الغربة ثلاثة بدلاً من اثنين.

ـ أو تعني أنه سيبقى هنا؟

ـ نعم، وقد كنت أحب أن أفاجئك، فضياء سيلتحق بنفس الجامعة. رتبنا الأمر بهذه الطريقة. وأمي أظنها هي الأخرى ستأتي يوماً.

تمتمت بينها وبين نفسها وقالت:

ـ مسكينة أمي. الجو هنا سيذكرها دائماً بيوم مولدي أثناء هبوب العاصفة.

قال بحنان:

ـ العاصفة التي منحت البيت بعد كل هذا الاجتياح الكثير من الحب.

ـ إذن أنت تعرف القصة؟

ـ قالتها لي حماتي، وقالت لي أكثر بمقدار ما تخاف أمك من العاصفة لكنها تحبها، أولم تهدها العاصفة قمراً مثلك؟

خجلت بعض الشيء وإن كانت في أعماق قلبها مسرورة بوصفه لها بالقمر ولكن لم تصمت.

ـ القمر أصبح شيئاً مبتذلاً بعدما داسته الأقدام.

ـ ذاك الأمر لا يمكن أن يقضي على مكانته، فالذي ديست هي أرضه أرض القمر، أما القمر فيظل نشوان في سمائه يطل على أهل هذه الدنيا باستعلاء.

ـ شاعر أنت يا زوجي.

ـ أكثر من درس في جامعة أكسفورد كانوا شعراء في كل شيء أكسفورد يا عزيزتي جامعة محظوظة فيها اثنان أنا وهو وأنت أيضاً في الطريق إليها بعد أن تكملي فهم مواقع الحياة في هذه المدينة.

ضحكت من قلبها. دق جرس الباب، جرت لتفتحه، صافحها وجه أخيها، ألقت بنفسها على صدره وأخذت تجهش بالبكاء.

يحار المرء في دموع المرأة، أحياناً تأتي دموعها لإزالة همومها وأحزانها، وأحياناً تجيء في أعقاب فرحة غامرة تضفي على مشاعرها فتنقلب الموازين ويصبح البكاء علامة فرح واضحة.

"٣"

لا جديد في هذه المدينة الرمادية التي أصبحت تحمل هم شتائها قبل كل شيء.

السنوات التي أمضتها فيها لم تمنحها القدرة على أن تتأقلم مع هذه الأجواء المضطربة، فاكفهرار السماء، والمطر المتزايد والثلوج التي تندف هنا وهناك وكأنها تحيل بيوت المدينة وشوارعها وكل شيء فيها إلى قطعة ثلج بيضاء.

شهور حملها تمضي، وهي عندما تراجع الطبيب تدرك بأن أيام الولادة قد قربت، لكنها لم تكن تظهر أبداً بأنها قد أصبحت مهيأة لأن تستقبل القادم والقادمة بهذه السرعة.

زوجها وأخوها خارج المدينة، وهما في طريقهما إلى لندن لاستقبال أمها

التي رأت أن تأتي لتعينها على استقبال الوافد أو الوافدة وهي وحدها في البيت وإن اختلف المكان واختلفت الصورة فالفارق كبير بين بيتهم في الرفيعة على مقربة من قباء وبين بيتها الذي تعيش.

الساعة تدق الثانية وآلام المغص الذي داهمها يشل حركتها وأصوات الرعد المتتالية تهز كيانها وصفير الرياح يملأ أرجاء الغرفة رغم كل ما صنعته الحضارة من موانع.

كل شيء في الشقة يخيفها، يذكرها بيوم ولدتها أمها.

لقد قالت لها أمها كل شيء وهي تدرك كل شيء وتخاف كل شيء وتود أن لو كان بإمكانها أن تبكي.

إصبعها على قرص التلفون، أدارته ببطء. آلام المخاض تعاود هجومها في قسوة. صوت الطبيب من المستشفى يجيء أشبه بعربة إسعاف. قالت له إنها بحاجة إليه، ثم قفلت السماعة. لم يترك لها الألم فرصة للحديث، ورن جرس التلفون. صوت الطبيب يخاطبها ليسألها ماذا تعني. قالت له كل شيء، وأنها تحس بآلام المخاض وأن زوجها ليس في البيت وأن أمها لم تصل بعد وأنها وأنها، ثم بكت.

حاول الطبيب طمأنتها. أمسكت بذراع الكرسي، أخذت تنتقل من كرسي إلى كرسي. ليتها لم تأت إلى هذه الدنيا. الدوار يصيب رأسها، تحاول أن تكون يقظة، تفلح بأن تصغي بكل جوارحها لجرس الباب. كل شيء يسير على ما يرام. الطبيب والممرضة ورجال الإسعاف في مواجهتها.

لملمت أغراضها بسرعة. حملها الطبيب ومساعدوه على نقالة صغيرة بعد أن أعطاها حقنة لم تشعر بعدها بأي شيء.

فتحت عينيها، فوجدت نفسها على سرير أبيض وحولها أمها وزوجها وأخوها. ألقت برأسها على وجه أمها وأخذت تبكي وتقول:

ـ العاصفة يا أماه.

الأم تضحك وتضحك، والزوج يضحك هو الآخر، وأخوها أيضاً يضحك.

نظرت إلى الوجوه المبتسمة، ولم تستطع مواصلة الحديث. كان عليها أن تستمع فقط عندما قالت لها أمها:

ـ كم كانت العاصفة رحيمة بك يا ابنتي.

لم تفهم معنى كلام أمها، فتساءلت في إيماءة صغيرة، فعاودت أمها الحديث:

ـ كان الطبيب أسرع إليك مني. يوم ولدتك لم يكن هناك أحد، وكما أنني فرحت بمقدمك فأنت بلا شك أكثر مني فرحة فلقد رزقك الله بابنة وولد وهذا يكفي!

هي أمي

ذاكرتي تعجز عن الوصف، فأنا إنسانة أدمت ضلوعي كثرة الجراح، فالقلب عندما ينزف دمه يصبح كالعين سواء بسواء، عندما تنفذ الدموع. لا تقولوا بأنني امرأة، والمرأة تحب دائماً أن تضيء شموع العطف من حولها بأية طريقة، وإنما تذكروا بأنني، وإن كنت امرأة، لكنني كنت امرأة صاحبة قلب من ذهب.

أتعرفون كيف يجتاح الزلزال مدينة أو قرية؟ يأتي فجأة متيقناً في ثوانٍ يثير الهلع والرعب في النفوس، يقتل من نحب ومن لا نحب، بعض الذين يقتلهم الزلزال، يموتون دون أن يدروا وبعضهم يموت من الفزع والخوف وانتظار المجهول.

أكثر من زلزال اجتاح قلبي، وقتل الفرحة فيه، حتى أصبحت شرايين دمي تنزف، أحسست بها بعد أن داهمني الخوف أكثر من مرة، حاولت فيها أن أقف عكس التيار.

أمي امرأة صعبة قوية الشكيمة، بلغت من العمر عتياً، لكنها تعرف كيف تمسك برأيها الذي تقوله دون خوف أو وجل. كل من في البيت يهابها، ولا يحب أن يقف أمامها عندما تريد شيئاً.

حتى إن أبي الذي نحبه ونخافه هو الآخر، يحاول أن ينأى بنفسه من أن يصطدم بها. وهي مجموعة من خليط من الدماء اجتمعت كلها فيها فهي تركية، من أصل شركسي ولدت في استانبول وكبرت في دمشق وتزوجت في المدينة المنورة.

رأسها مملوء بأفكار وهمية عن الدماء التركية. تتعامل مع الجميع بكبرياء ملموسة، لاقيت من حبها وعطفها وأسلوب فهمها لهذا الحب، وطريقة تصرفها فيه الشيء الكثير.

أبي إنسان يملك من مقومات الرجولة لو قسمت على بضع مئات من الرجال لكفتهم. لا تظنوا أنني ألقي القول على عواهنه، مجرد حب ابنة لأبيها، لكنها الحقيقة.

كل هذه الرجولة والفهم والإدراك لأوضاع الناس والحياة يضيع فجأة، يتبخر، يصبح لا أساس ولا وجود ولا ظل له عندما يرى أمي ويستمع إلى كلامها.

ستقولون إنه يحبها، وأقول أنا بأن هناك شيئاً غير الحب يجعلها تسيطر على أبي بحيث فهمت عندما كبرت وعرفت هذا الشيء. لقد بدأ أبي من الصفر، وكبر مع الأيام. كان في أيامه الأولى شيئاً مغايراً لما هو عليه الآن في البيت، وكانت أمي من أسرة موسرة ضحت بهنائها العائلي وارتضت أن تقترن به وعاشت لياليها برفقته تلقي في طريق دربه أوراق الورد والياسمين وزهور العالم.

لم تكن أمي على ما هي عليه الآن. قد يقولون بأن النعمة قد أبطرتها، فعندما تغير حال أبي وأصبح شيئاً لا يمت للماضي بصلة تنكرت للماضي وبدأت تمارس حياتها بأسلوب جديد حاول أبي أن يحجمه دون جدوى حتى إذا ما استشرى مرضها تركها تصنع ما تريد وانزوى يرقب ما تفعل وهو غير راض في ركنه المفضل.

ولدت في فترة الرخاء وولد أخي في فترة الشدة، كان الفارق بين عمرينا لا يتعدى العشر سنوات لكنها كافية لأن أعرف منه كل هذا الورم الذي أحسه في تصرفات أمي.

أخي هليهلي، بسيط يكره التعقيد ويرفض أن يتدخل في شؤون البيت. أمي تباهي به وتخافه وهو لا يلقي لا إلى الحب ولا الخوف بالاً يكفيه أن يعيش كما يريد يخرج، يتنزه، يسافر، ويطلب مالاً يشتري سيارة، ينفق عن سعة رغم أنه وصل إلى السن التي يجب أن يعتمد بها على نفسه.

لا تظنوا بأن أخي لا يعمل، بل يعمل ويعمل كثيراً ويكسب أكثر لكن يده مخروقة، فهو يقضي على ما يكسب وعلى ما لا يكسب، فلسفته في هذه الحياة أن يعيش ليومه فقط.

حاولت أمي تزويجه أكثر من مرة وكان في كل مرة يقبل حتى إذا ما أصبح

قاب قوسين أو أدنى من ليلة الزفاف نفض ريشه وهرب إلى مكان بعيد لا ندري عنه شيئاً.

أمي تقول بأن عيناً أصابته وهو صغير وأنا أضحك لأنني أعرف أخي، يهاب أن يرتبط بامرأة ويشق عليه أن يكون رجل بيت كأبي مثلاً.

ثمة شيء أحاول أن أخفيه حتى عن نفسي حيال كل هذا الذي أراه وأقارن بين بيتنا وبيوت بنات عمي اللواتي كن في سني قد يختلف الأمر وقد يختلط، فالحياة في بيوت بنات عمي شيء لا أكاد أحس بشيء منه في بيتنا.

لا تظنوا بأنني أكره أمي، وإنما أحبها لكن عصبيتها تجعلني دائماً على غير وفاق معها.

يقولون إن الفتاة عندما تكبر يصبح من حقها أن تتلمس طريقها في هدوء ورعاية الأسرة والبيت والمجتمع.

عندما تخرجت من الجامعة كان يوم عيد في بيتنا وإن كان هذا العيد قد اختلط بشيء من الأسى، لأن أمي كانت تصر على أن أتزوج وهذا حق طبيعي لها ولي ولكن المشكلة هي من هذا الذي سأتزوجه؟

أمي تشعر بأننا قد وصلنا إلى نوع من الحياة يجب أن لا ننزل عن مستواه وننسى أيام الكفاح الذي خاضته مع أبي.

ولهذا فهي تريد أن تزفني لرجل هو عبارة عن بنك متحرك، له أكثر من تجربة في عالم الزواج، بدعوى أنني الأقدر على ترويضه والعيش بهناء معه في بيته.

أنا وأبي لسنا من رأيها ولهذا اختلفنا وبدأ الزلزال يأخذ طريقه في سماء وجدران البيت للمرة الثالثة فقد سبق هذا العريس لخطبتي اثنان غيره.

عندما رفضت خطبة العريس الجديد شنت والدتي علي حرباً لا هوادة فيها وقالت بأنني إنسانة لا أعرف طريق قدمي، وأن التعليم الذي تلقيته قد خرب مفاهيمي تجاه الحياة والناس والأسرة والبيت وتحملت كلامها على مضض، حتى إذا ما فاتحتني صديقتي "مها" في أمر زواجي من أخيها الذي تخرج حديثاً من الجامعة رأيت أن أنصت إلى كل التفاصيل التي تقول:

- رأيت صورة فارس، وأعجبني فيها أنه في نفس سني، وعرفت أنه محاضر في الجامعة ويحضر للدكتوراه وعرفت وعرفت ووافقت حتى إذا ما جاء

فارس وأبوه إلى أبي لخطبتي أمهلهما أياماً ليعرف رأيي ورأي أمي.

ويومها واجهتني العاصفة بكل زلزالها المثير، وقالت أمي كلاماً عن هذا العريس الفقير الذي سأعيش أكافح وأكافح وأكافح ولا تدري ماذا ستكون نتيجة الكفاح خصوصاً عندما عرفت بأن فارس سيصبح دكتوراً للفلسفة أي على حسب زعمها "دكتور كلام وبربوغندا" وما إلى ذلك..

حاولت أن تثنيني عن الموافقة فلم أقتنع، وهكذا زففت إلى فارس الذي أحسست بأنه مناسب لي فعلاً، لولا أنه هو الآخر ضحية أم عنيدة، تأصلت فيها روح السيطرة والتحكم، لدرجة جعلتني أحس بالألم من تصرفات زوجي التي لا يؤمن بها حتى إذا ما طفح الكيل، أمرت زوجي بأن يطلقني فعدت إلى بيت أبي لتواجهني عواصف الأمس وزلازله بما هي أقوى وأصعب مما كانت لدرجة جعلتني أحس بأنني أصبحت ضعيفة لا حول لي ولا طول وأبي يهمس في أذني بقوله:

ـ كان عليك يا ابنتي أن تتحملي نتيجة اختيارك.

ونظرت إلى وجهه وقلت:

ـ حتى أنت يا أبي؟

ولمحت عينيه وهو يغالب دمعهما في هدوء وقال:

ـ لا أعني من كلمتي إلا أنني كنت أريدك أن تنتصري!

ـ أنتصر على من؟ على أمي؟

ـ لا... تنتصرين لأحلامك وقلبك ونفسك، لظروف حياتك. للمستقبل الذي ظننت أنك قادرة على أن تصنعيه.

وبدأت أحكي لأبي قصة زوجي مع أمه، قلت له كل شيء فاستغرب أن يكون هناك إنسان في مثل هذه الأيام على شاكلته، لكنني ابتسمت وقلت:

ـ وما الفرق بينها وبين أمي؟

وأجاب والدي في هدوء:

ـ لا... لا تقوليها فأمك، وإن كانت متصلبة وعنيدة، إلا أنها لا يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه أم زوجك.

أتعرفون لقد مرت ثلاث سنوات تزوج زوجي بأكثر من واحدة، ثم طلقها

وبقيت أنا أرفض أن أتزوج، حتى جاء اليوم الذي توفيت فيه أم زوجي، استمعت إلى النبأ، وعزيت مها بوفاة أمها، ثم نسيت الموضوع.

لكن مها لم تنس ذلك بل تعاود زيارتي. تحدثت مرات ومرات عن الحب الكامن في نفس زوجي تجاهي وقالت كلاماً طويلاً عن أمها أرادت به أن تهيئني للعودة لزوجي.

وبدأ فارس يواصل حديثه لي عبر التلفون. قفلت بسرعة التلفون أول مرة عندما سمعت صوته، ثم بدأت أستمع قليلاً قليلاً لحديثه حتى ذاب الجليد الذي صنعته أمه وهو أيضاً طوال كل تلك السنوات.

وعندما جاء أبي يسألني فيما إذا كنت أوافق على العودة إلى زوجي لم أقل شيئاً فعاود الكرة مرات ومرات وفي المرة الثالثة قلت له بشجاعة:

ـ ما رأيك أنت يا أبي؟

وتحدث أبي حديثاً طويلاً عرفت فيه أنه يرغب في عودتي إلى بيت زوجي فقلت:

ـ على شرط.. بمظاهر فرح جديدة.

واستغرب أبي قولي هذا فقلت:

ـ أريده أن يحس بأنه لا بد ويستعد للقائي بفرح.

أمّن أبي على كلامي، وذهب عني حتى إذا ما جاء إلي مرة أخرى أعلن موافقة زوجي على كل شروطي، لكن أمي التي لم تكن في الصورة وأعلنت مرة أخرى رفضها لكل الذي صنعه أبي بكبرياء واعتصمت في غرفتها مريضة.

وهاأنذا أعيش في دوامة الصمت ألملم جراحي، أحاول أن أخرج أمي من دائرة المرض الذي داهمها بسببي وكأنني أُعاقب نفسي على ما صنعت.

ولقد مر على هذا الأمر أكثر من عام، ظل فارس يتابع خطواته في أثري، وأبي يكابد الانتظار وأنا لا أزال في مكاني، أُداوي جراح أمي الحزينة، التي قالت لي أخيراً إنها موافقة على عودتي إلى زوجي ولكن بعد فوات الأوان، فقد آليت على نفسي أن لا أعود إلا بعد أن تشفى وتعاود تسلطها في البيت فقد أزعجني أن أراها على ما هي عليه من هدوء، أنا التي تعودت على أن تكون ملء العين والبصر في هذا البيت الذي صنعته فهي أمي.

وُجوه بلا مكياج

(رواية)

ط ١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

كل شيء يثير التساؤل في نفسه؛ فلقد تعود دائماً أن يبحث عن الحياة وأسرارها بأسنانه وقلبه وعينيه، فالتحليق في عالم السماء ليس أمراً سهلاً وإن كان ممتعاً لبعض أولئك الذين اختاروا العيش في أجواء السماء، وهو واحد من أولئك الذين وضعوا مستقبل أيام حياتهم أمام أعينهم.. عاش منذ أول يوم رأت فيه عيناه النور وهو يحلم، وتحققت أحلامه كلها وبقي شيء واحد فقط لم يتحقق بعد، فالذين تعلموا مهنة الطيران يحلمون دائماً بالاستقرار بعد رحلة عمر طويلة.

سنوات عمره التي مضت صنعت من هذا الإنسان الذي يعيش حياته التي يمارسها كفراشة لم تمل بعد رحيق الأزهار، يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن مطار إلى مطار، تهدهد أفكاره أحلام كثيرة كانت بالنسبة إليه مجرد أفكار.. وأفكار فقط. لكن أفكاره هذه لم توصله إلى حقيقة الحياة التي يريدها، فقد تكون قدماه التي ضلت طريقها بين الموانىء بحثاً عن المرأة قد ساهمت إلى حد كبير في صنع هذا الجدار القاسي الذي يراه منتصباً أمامه كلما فكر فيها، لماذا، لا يدري! ربما لأنه كان من معدن يغاير معادن الرجال الذين عرف، وإلا ماذا يمكن أن يقول؟

لقد عاش سنواته العشر بعد تخرجه من كلية الطيران في سانت هيرست البريطانية كطيار حربي هو الذي أراد لنفسه هذه الهوية حتى إذا ما عاد إلى وطنه رأى أن يبدل موقعه إلى موقع آخر فاختار الطيران

كمهنة.. فهو يحب التنقل بين الموانىء، تعجبه أضواء المدن التي يرتادها، ويقنعه تفكيره بأنها الوسيلة التي يمكن من خلالها أن يصل إلى بغيته.

أليس يقال بأن السفر إلى جانب كونه متعة فهو أيضاً مدرسة كبيرة؟ وهو يحب أن يتعلم من هذه الدنيا الواسعة دروساً عملية.

وهو لا ينسى سنوات الدراسة في الكلية؛ فقد أمضى خلالها أياماً عصيبة حلم بعدها بأشياء كثيرة تحققت رغم جميع ما أحاط بحياته من مآسٍ ومشاكل كان أعظمها موت أمه بعد شهر من تخرجه.. ولحق بها أبوه، ولم يبق له من دنياه إلا أخته التي تزوجت صديق عمره وسيم الذي تخرج معه من الكلية.

وسار في طريقه الذي رسمه لحياته بأسلوب كان يضحك عليه من كل قلبه عندما يكون بينه وبين نفسه. فهو وزوج أخته ـ رغم الصداقة التي تجمع بينهما ـ كانا على النقيض تماماً، ذاك يرفض (اللف والدوران) ويرضى بأن يظل أسير أسرته وعائلته، أما هو فشيء مغاير لكل هذا وذاك، ولقد قالتها له أمه أكثر من مرة:

ـ لقد أولاك أبوك طباعه التي كنت آمل أن لا ترثها؛ لأنها في نظري كانت السبب الرئيسي في ذلك الخلاف الذي عشناه ورأيته أنت بعينيك أكثر من مرة.

وكان يضحك من كلام أمه ويرى أباه واحداً من أعظم الرجال؛ لأنه لا يهاب المسؤولية ويرتجل المواقف ويعيش ليومه فقط دون أن يخشى ما سيأتيه في الغد!

وهو يحب هذا الغد بكل ما فيه من مفاجآت ويعتقد بأن من يهاب الغد يعيش طوال حياته أسير هذا الخوف فكأنه مشدود إلى الأرض بسلاسل حديدية يكرهها ومن كل قلبه.

ويوم عرف (ماغي) أهدته رفيقته تلك سلسلة ذهبية أرادت بها أن تطوق عنقه لكنه رفض ذلك في حرص من يأمل أن يبقي على صداقته بلا إحراج.

كانت ماغي فتاة ذكية عرفت كيف تدخل إلى قلبه، لكنها رغم ذكائها وجمالها الباهر وأسرتها الغنية، لم تستطع أن تفرق بين عقليتها البريطانية وعقليته التي نشأ عليها كشرقي، فهو على الرغم من انفلاته وعدم تقيده بتقاليد

الحياة في بلده، إلا أن هناك أشياء لا يمكن أن يحيد عنها، منها أن الفتاة التي يصادقها يجب أن تكون له. . وله وحده!

وماغي فتاة تؤمن بقانون المصادقة والاحتمال وتظن بأن هذا المبدأ قد يكون وسيلتها للوصول إلى قلبه.

ولقد استطاعت في البداية أن تشده إلى قصرها الذي تعيش فيه خارج مدينة لندن فعاش شهراً واحداً عاد بعده إلى شقته الصغيرة التي اختارها لتكون مكانه المفضل في إجازاته خارج الكلية.

يسترجع نتفاً من أحاديثهما المشتركة يوم كانت ماغي صديقته الوحيدة، فيذكر كل كلماتها معه ويتذكر ذلك الحديث الذي أقضّ مضجعه ليلتها حين جاءت إليه فرحة مستبشرة وهي تنهي إليه بأنها، وبعد أن راجعت طبيبها، عرفت بحملها الذي أحست بأنه سيكون شيئاً جميلاً وغالياً أيضاً!

ولقد ضحك ملء شدقيه من سذاجتها وشعر بأن ما تقوله كأوروبية لا يمكن أن يتقبله كشرقي، فطلب منها أن تمضي معه إلى طبيب يعرفه يمكن أن يخلصها من هذا العبء الثقيل الذي حط عليه فجأة. ولقد سألته يومها بلهفة:

ـ ولماذا تريدني أن أفعل هذا؟

أجابها:

ـ لأنك أولاً وأخيراً لست زوجتي وأنا أرفض أن يكون لي ابن أو ابنة من امرأة مهما كانت هذه المرأة إذا لم تكن زوجتي ومن بلادي أيضاً.

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين نظرة أحس معها بشيء من الحيرة، فهذه الفتاة الحامل والتي تنظر إلى الأمر من زاوية مغايرة لما يراه. . يحس بها تثقل كاهله بعض الشيء.

وتحدثت ماغي بعد فترة صمت فقالت:

ـ إنني أريد أن أحتفظ به لنفسي ولن يكلفك هذا سوى أن توافق على رغبتي فأنا أحس بأنك لست لي أما هو ـ وأشارت إلى بطنها ـ فستكون له مكانة عندي.

وصمتت، فقال:

ـ هبي أنني وافقتك على هذه الرغبة المجنونة فما يدريك أنني سآخذها أو آخذه عندما يبلغ السن التي يجب أن يكون تحت رقابتي؟

ـ ولماذا يكون تحت رقابتك ما دمت لست زوجتك؟

ـ ولكنه مني وأنا أكره أن يعيش فلذة كبدي على أرض غير أرضي.

ـ ثق بأنك بهذا الإصرار تجعلني أكره الأيام التي عشتها معك. ثم لماذا تبخل علي بهذه الذكرى التي لن تكلفك شيئاً؟

ـ ستكلفني أشياء كثيرة لا تحسّينها لأنك لا تعرفينها، ولو كنت تدركين ما يخالج نفسي تجاه هذا الأمر لقلت غير ذلك.

قالت:

ـ ولماذا لا نحتكم إلى صديقك فريد ونقبل بما يشير به علينا فأنا أعرف أنه إنسان صادق وذو آراء صائبة.

واتفقا على الاحتكام إلى فريد الذي كان غائباً عن لندن فترة من الوقت.. وقبل عودته تدخل القدر وحل هذه المشكلة وأصبحت ماغي حرة من حملها الذي بكته كثيراً.

ترى أين ماغي اليوم ولماذا يتذكر هذا الذي يتذكر؟ ألأنها أول فتاة دخلت حياته أم لأنه أحبها فعلاً كما يحب المراهق أول أنثى يصادفها؟

ولكم أحس بالعار وهو يستقبل ماغي مع صديق عربي آخر تعرفت عليه فأصبح أسير جمالها فوافق على الاقتران بها وهو يعلم ماضيها الشائن.

هل انعدمت النخوة في دماء البعض حتى يقبل هذا العربي مثل هذا الموقف؟

يومها قال له صديقه الذي خلفه مع ماغي:

ـ ربما إنك لم تزل على شرقيتك لم تطور حياة العصر من مفاهيمك الشرقية شيئاً، فأصبحت أسير عاداتك وتقاليدك التي أظن أنها انتهت في زمننا هذا؟

ونظر نظرة حانقة وقال:

ـ بل قل إنك تريدها لتعينك على حياتك في بلادها، أنت الغريق المفلس.

ـ لا . .

قالتها ماغي وكأنها تشك في صدق كلماته، وأضافت:

ـ بل ربما الغيرة، لأنني أصبحت له، ولو كنت أنت الذي دعوتني لمثل هذا لما تأخرت، ولن أتأخر أيضاً حتى ولو جاءت رغبتك هذه متأخرة.

ونظر إلى صديق ماغي نظرة ماكرة وقال:

ـ حلال عليك يا عم ولكن ثق بأنني إذا أردتها فسأنال ما أريده منها.

ومضى في طريقه يتحسر على الشيم والأخلاق التي انهارت والأخلاق التي انهارت وضاعت.

الفصل الثاني

الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل، وهو في غرفته في فندق الماردياان يطل على الأمواج البشرية التي تسير على الكورنيش، وصخب الطريق يصل إلى أذنيه ممزوجاً بضحكات الشباب الذين كانوا يعربدون في الشارع الخلفي للفندق الكبير، وعلى مقربة منه غرفة (سالي) المضيفة السويسرية التي التقاها على متن طائرة.

فيها هدوء السويسرية وجمال الفرنسية وتقاليد الألمانية، لأنها ولدت في زيوريخ لأب من أصل ألماني وأم فرنسية. رشاقة قدها أنموذج فريد بين السويسريات اللواتي عرف عنهن بأنهن أقرب إلى الدمامة منهن إلى الجمال! جاءته على استحياء وهي تقدم مرطباتها في كابينة الطيار، أحس بنظراتها تتسلل إلى وجهه ويديه فعرف عمّا تبحث، ثم تجاهل ذلك الذي تبحث عنه.

في عينيها زرقة بحر صافية، يحيط بوجهها الأبيض، شعرها البلاتيني الغزير الذي ينساب على كتفيها كشلال ثلج لم تقس عليه حرارة ولا برودة، وفي شفتيها القرمزيتين نداء صارخ لكلام طويل ود أن تسمعه لحظتها ثم عدل، حتى إذا ما تكررت رحلاتها معه، أصبح يحادثها ويلاطفها بكلمات أجادها مذ كان على مقاعد الدراسة في لندن.

قالت له في أول لقاء على الأرض:

ـ صدقني، أنا أكسب في موطني أضعاف أضعاف ما أتقاضاه من شركة طيرانك، لكنني كفتاة غربية، قد لا تصدقني إذا قلت إنني عندما قرأت ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ودرست بعض كتب الشرق، جئت

إلى هنا إلى هذه الصحراء بحثاً عن مغامرة!

أجابها في هدوء ودون أن تختلج عيناه:

- وأرجو أن تكوني قد صادفت ما أردت؟

قالت:

- لا. فما مر بي مجرد أحداث عابرة لم تغنني عن الأصل، أصل الحكاية التي جئت من أجلها.

- ولماذا تقولين لي ذلك؟

أجابت في هدوء:

- ربما لأنك من طينتي، لأن عينيك اللتين أراهما تبرقان عند لقاء ظل فتاة جميلة أكد لي ذلك فجئت أطلب مساعدتك.

- ولكن المغامرة لا تطلب من صاحبها مساعدة أحد.. حتى ولو كان صديقاً!..

ضحكت وقالت:

- هذا يعني أنك قد فهمت ما أرمي إليه إذن..

حاول أن يتغابى فقالت:

- أنت رجل من الشرق عاش سنواتٍ من حياته في الغرب ولهذا رأيت أنك أصلح من يقوم بهذه المغامرة لكن إذا ما رفضت اخترتك مستشاراً لي..

وعادت إلى ضحكاتها الهادئة.

- ولكن كيف تريدينني أن أبدأ مغامرتي؟

- لا عليك. دع ذلك لي وللأيام..

ولم تكمل وإنما مضت إلى عملها في هدوء وكأنها لم تقل شيئاً.

أيمكن أن يكون وجودهما هو وهي في هذا الفندق مجرد مصادفة؟ ولماذا لم تمض (سالي) إجازتها في زيورخ إذا لم تكن قد صممت على أن تبدأ ما جاءت من أجله؟

وسمع نقراً على باب الغرفة، فأذنَ للطارق أن يدخل فدخلت سالي وعلى

رأسها تاج من نور أفرطت يد الحلاق في تزيينه وقد التحفت برداء طويل وفي يدها وردة بيضاء ألقت بها بين يديه وقالت:

ـ هي لك.

وأجاب:

ـ أتعنين الوردة؟

فابتسمت ولم تجب فشجعه صمتها على الثرثرة فسألها:

ـ وكيف عرفت أنني سأقضي إجازتي هنا؟

فقالت:

ـ ذلك أمر سهل لا أظنه يغيب عن ذهنك فأنت صديق كثير من الطيارين وأنا كذلك.. ولهذا عرفت.

ـ والآن ماذا يمكن أن أفعل؟

ـ نبدأ المغامرة ولقد أخذت لك ولي مكاناً هادئاً في الفال دازير، عند صديقة لي تركها زوجها في رحلة عمل سنقضي الليلة هناك على أنغام الموسيقى فقم ولا تتكاسل.

وألقت بشالها على الكرسي ثم تناولت سيجارتها وأشعلتها في هدوء وتابعت كلامها:

ـ باستطاعتك أن تنهي ارتداء ملابسك خلال فترة تدخيني لهذه السيجارة.

ودون أن يناقشها مضى يرتدي ملابسه في الغرفة وقد أدارت ظهرها إليه، فأحس بشيء من الحمى تسري في عروقه وهو يراها في هذا الوضع حتى إذا ما انتهى قال لها:

ـ هيا ولكن لا سيارة عندي هنا.

فقالت:

ـ لقد دبرت كل شيء فسيارة صديقتي تنتظرنا في الكراج.

نظر إليها نظرة زادته إعجاباً بهذه الانثى التي تفكر في كل شيء ولا تدع أي شيء للمصادفة.

حتى إذا ما وصلا إلى الفيلا الصغيرة التي تربض بين أحضان الأشجار الكبيرة كانت هناك أصوات الأمواج تهدر في المكان تمنحه شيئاً من الثقة بتواجد الحياة ونشاطها على الأرض.

كان كل شيء في المكان يبعث الراحة والهدوء لكن ما أثاره فعلاً أن صديقة سالي التي استقبلتهما لم تكن أوروبية، بل كانت امرأة من جبال لبنان ولدت لأم فرنسية وأب لبناني فجاءت مزيجاً من جمال الشرق وجمال الغرب، فمشت على استحياء وهي تستقبل ضيفيها إلى الصالون الشرقي الذي كان غريباً في هذا المكان. ودار الحديث بين الثلاثة وكان أكثره عن التقاليد بين الشرق والغرب، وكيف أن هناك تبايناً بين عادات الشعوب وفي أكثر المناطق.

ولقد هاله تحرر المرأة الشرقية عندما تترك موضعها الذي ولدت فيه ولكن (صفاء) اللبنانية لم تكن معه في هذا الرأي فهي تؤمن بأن لبنان قطعة من أوروبا وليس من الشرق الأوسط؛ لهذا فلا فوارق بين مجتمعها وهذا المجتمع!

وأدارت صفاء جهاز الفيديو لتطل عليهم فيروز بأغانيها الجبلية، وهي تدق قدميها على الأرض في غضب، فكانت وسيلة لاستكمال الحديث الذي بدأ.

كان بجسمه في ذلك المكان.. أما قلبه وعقله وفكره فهناك في بحمدون وعين عنوب والرابية، وبيت مري وبيت شباب، فجو الغرفة يوحي له بكل هذه الصور التي يراها تبدو من بين تلافيف عقله في هدوء.

ولقد شاقه أن يعرف رأي هذه المرأة في حياتها التي تعيشها وأسلوب عيشتها التي تمارسه فقال:

ـ لم أكن أظن أنني سألتقي بأنثى عربية وفي هذا المكان لكنها فرصتي لأن أعرف رأيك في مواطن الضعف والقوة بين أسلوب المرأة في الشرق والغرب معاً.

أجابت صفاء وبدلال:

ـ قد تكون المرأة الشرقية أوفر حظاً في الاستمتاع بدلها على زوجها أو من تحب، وهي هناك تعيش عيشة الأميرات مهما صغر شأنها، لأنها تعلم بأنها عندما تعيش فإنما تعيش في كنف رجل.

كثيرات اللواتي تعلمن ومارسن عملهن في لبنان لكنهن جميعاً يبقين رغم ثيابهن الأوروبية في إهاب جداتهن اللواتي يعلمن بأن أكتافهن ليست في حاجة لتحمل مسؤوليات الحياة.

ـ إذن أنت تعتقدين بأن عمل المرأة الشرقية مجرد ترف؟

ـ لا، ما هذا أردت.

قالتها صفاء وتابعت:

ـ وإنما الذي أردت أن أقوله بأن التأرجح في المرأة حين وضعتها تطلعاتها للمستقبل وتلفتها للماضي في هذا الموضع، وأنا هنا إنما أقول رأيي عن المرأة اللبنانية، أما تلك التي تعيش في صحرائك فهي نسيج آخر فيما عرفت ممن قدر لي أن أراهن فهن يعتمدن في كل شيء على آبائهن وأزواجهن وإخوانهن. وهن هنا عندما يعملن إنما يعملن من أجل بنات جلدتهن، وهذا في رأيي ـ وبعد أن خبرت الحياة ـ يبعد كل البعد عن الحياة في بلدك.. أجد نفسي مشوقة لأن أكون واحدة من حريم الصحراء.

وضحكت ثم تابعت قولها:

ـ لقد جربت الحرية من خلال حياتي في لبنان، وجربتها أكثر من خلال زواجي بهذا الرجل الذي يغيب عن بيته أياماً وليالٍ وراء لقمة العيش، فما أمرّها. ولا أكتمك ولن أكون مغالية إذا قلت بأنني كرهتها هذه الحياة، وإنني أفضل حياة المرأة الصحراوية فهي لنا نحن الحرائر أكرم وأفضل. انظر إلى سالي فلو قدّر للمرأة في الغرب أن تعمل في حقلها الطبيعي لما قدر لها أن تراك ولكنها طبيعة الحياة في بلادك أكرمت الأنثى فمنحتها من الأعمال ما يتفق وطبيعتها ويبعدها بالتالي عن مواطن الزلل.

ـ وتقولينها يا صفاء؟

ـ ولماذا لا أقولها إذا كانت الحقيقة؟ فأنا عربية تجري في عروقي الدماء الشرقية، لي من التقاليد ما أحب ولي منها ما أكره وأنا هنا رغم كل مظاهر الحرية أكره هذه الوحدة القاتلة وأكره أيضاً تعرضي للفتنة من أي رجل يقابلني في الطريق، ولقد قلت لزوجي ذلك ورجوته أن ينقلني إلى لبنان، فقال لا

يمكنني هذا لسببين أولهما: الحرب، وثانيهما: أن كل ما ذكرت لا يعطيك الفرصة لأن تطلبي ما تطلبين، فالحياة كما تعرفين تحتاج إلى أن نسايرها.

ـ وماذا يعني زوجك بهذه المسايرة يا صفاء؟

ـ يعني أن أستمتع بها كما تستمتع سالي بوقتها معك! أو لا يكفي هذا لنتخيل الفارق الكبير بين الشرقية والغربية حقاً؟ ومع هذا فالتعاسة التي تعانيها الغربية تزداد أكثر من ذي قبل لتفكك الأسرة تارة ولهروب الزوج تارة أخرى.

تصور.. قد تخطف الأخت في هذا المجتمع زوج أختها لتعيش معه دون زواج، ثم تتفرج بقية الأسرة على ما حصل وكأنه شيء عادي. ولكن لنترك ذلك جانباً ونتحدث فيما يجدي فلربما كان لكلامي وقعه الذي لا أحب خصوصاً على صديقتي سالي التي أعرف عنها الكثير وأعرف سبب هروبها من زيورخ لتعيش في صحرائك بعيداً عن بيتها هي التي لا تهاب رقابة الأسرة، فالمرأة في المجتمعات المتقدمة أصبحت لا تكترث برقابة مجتمعها.. ومع هذا ففي اعتقادي أنها أسيرة نظريات جديدة أوجدها الرجل في مجتمع المرأة ليغل يديها ويشدها إليه بخيوط من حرير قد تراها وقد لا تراها، لكنها أسيرة هذه الخيوط الحريرية بإرادتها وبدونها أيضاً!

الفصل الثالث

باريس في الليل أشبه بامرأة لبست أجمل ثيابها وحليها ثم تعطرت في انتظار فارسها الجديد الذي يأتي على حصانه ليأخذها بين أحضانه.

وهو يعرف كل شبر في هذه المدينة التي يسمونها مدينة الأضواء واللهو.. يعرفها لكثرة ارتياده لأماكن اللهو ويعرف أسرارها ومتاحفها.

وتنساب سيارة المرسيدس ٥٠٠ الجديدة التي تقله وبقربه فتاته الجديدة اليزابيث وقد بدت أشبه بجنية من حوريات البحر، في ملابسها الحمراء وشعرها الأسود يتدلى في فوضوية عجيبة، وهو يمعن النظر في الطريق الذي تتراكض فيه مئات السيارات في عجلة.

ويتذكر كيف تحدث إلى هذه المرأة بعد أن أعطته سالي رقم تلفونها وكلمة السر التي يمكن لها بها أن تستقبله كصديق، فهي صديقة لواحد من كبار الأثرياء في بلاده عرفها في زيارة لمبنى الكريستيان ديور مع زوجته، فلم يشأ أن يفلت منه الصيد.

لكن كل هذا ليس مهماً الآن.. يكفيه أنها معه ومعه وحده. وترجل من السيارة وهي برفقته حتى إذا ما طرقت الباب الخشبي انفتحت كوة صغيرة شاهد من خلالها صورة امرأة شابة عليها مسحة الحزن وانفتح الباب ليدخلا سوياً إلى نادي مدام روجيه الشهير ملتقى الصفوة من أبناء العالم ورجال الأعمال فيه..

ودار بعينيه في أرجاء المكان متفحصاً يسبقهما واحد من عمال النادي الذي منحهما ركناً قريباً من البيت بجانب أسرة من بلجيكا

مكونة من ثلاث فتيات وأمهن ووالدهن.

واستقر به المقام بعض الوقت وعيناه تجوبان المكان في نظرات متلصصة حتى إذا ما دار رأسه نحو ذلك الذي يجلس في مواجهته انفرجت شفتاه عن ابتسامة وعرف فيه صديقه جوزف اللبناني وزوجته.

وامتدت يد جوزيف مصافحة وكأنه يهنئه على حسن اختياره لرفيقته، وقال في همس:

ـ أنت دائماً هكذا رزقك في رجليك، فهذه الفاتنة لا تمنح وقتها لكل طارق.

فقال له:

ـ أو تعرفها؟

وأجابه جوزيف:

ـ ومن لا يعرف القمر! لكن قل لي كيف استطعت أن تصل إليها؟

ـ لذلك قصة سأرويها لك في وقت آخر.. لكنني كما قلت أنت إنسان حسن الحظ ولهذا كانت من نصيبي الليلة.. وكل ليلة!

ـ وتقولها في ثقة؟

ـ ولماذا لا أقولها وأنا أعرف نفسي؟

وتدخلت اليزابيث لتقول في كلمات قليلة:

ـ ولماذا تتحدثان بالعربية.. أتخافان أن أشارككما الحديث؟ ولكني واثقة بأنكما تتحدثان عني.. أليس كذلك؟

أجابا بهزة من رأسيهما. وغادر جوزيف مكانه ليلحق بزوجته ومضى وهو يحدج المكان بنظراته المتلصصة فأدركت رفيقته بأنه من النوع الشره الذي لا يكتفي برفقة أنثى واحدة فقالت:

ـ لم أكن أظن أنك على هذه الدرجة من الواقعية في الحياة، ولقد خبرت العديد من مواطنيك، فكانوا عجينة سهلة في يدي أستطيع تشكيلها على هواي، لكنك أنت، على ما يبدو، صعب التشكيل كما قالت سالي التي أعزها والتي طلبت مني أن أصحبك في سهراتك طوال تواجدك هنا، ولقد ترددت كثيراً في

تلبية رغبتها لولا أنها ألّحت علي وقالت «ستجدينه شيئاً مغايراً لكل من عرفت فهو كالجواد الأصيل لا يمكن أن يلحق به في ساحة سباق». وها أنت تثبت كل ما قالت. أو أعجبتك هذه الفتاة؟

وأشارت إلى جارتها التي كانت مع أسرتها والتي كانت ترتدي ملابس تظهر أكثر مما تخفي. وأردفت:

ـ سأعرفك بها فهي امرأة تحب مثلي النوع النادر من الرجال!

نظر إليها نظرة عتاب فكأنه يحاول أن يبرر نظراته بأنها مجرد رغبة في التعرف على المكان وقال:

ـ الأمكنة في نظري كالمرأة بعضها تألفه وبعضها يألفك، ولهذا فأنت عندما ترين عيني متلصصة هنا وهناك فإنما لأبحث عن هذه الإلفة.

وضحك لكن اليزابيث لم تضحك! ومضت إلى (نورا) التي عرف اسمها بعدئذ وطلبت منها بعد أن ألقت بتحيتها على الأسرة أن تشاركها الجلوس لفترة ففعلت.

ولم يطل بها المقام حتى طلبها أبوها للرقص فقامت تتهادى على الحلبة لتؤدي معه رقصة من رقصات الشباب المجنون فقال لرفيقته:

ـ كيف يقوى هذا العجوز على هذا النوع من الرقص؟

فقالت:

ـ لا تستغرب فهو وإن كان بلجيكي المولد فإنه وأسرته عاشوا طوال سنواتهم في السنغال!

ـ وما دخل السنغال في قدرة هذا الرجل على أداء مثل هذه الرقصة ببراعة؟

تجيب رفيقته:

ـ أو نسيت أن مصدر كل هذه الرقصات هي أفريقيا؟ فلقد مارس الرجل أنواعاً أقسى من هذه الرقصة وأسرع، لكن ما بالك أنت، ألا تريد الرقص؟

ـ لا أدري ربما لذلك أسباب فأنا على الرغم من إجادتي لجميع أنواع الرقصات إلا أنني أرى أن الرقص إهدار لطاقة الإنسان فيما لا طائل تحته.

ـ وهو أيضاً تنفيس للشباب يجعلهم ينفضون عن طريقه جميع مشاكلهم ثم

ينسونها.

ـ وهل تُنسى المشاكل؟

ـ لا أدري! هكذا يقولون وإن كنت أنا شخصياً لم أعرف بعد أية مشاكل في حياتي..

قالتها اليزابيث فرد عليها ضاحكاً:

ـ ولكنك بوجودك معي تبحثين فعلاً عن المشاكل فأنا أبوها وأمها!

ونظرت إليه في شوق وكأنها تحاول أن تختبر تأثير سحرها على وجهه فلم تستطع أن تستشف شيئاً؛ فقد كان وجهه كالصخر لا ينبىء بشيء حتى إذا ملّت النظر قالت في دلال:

ـ ربما أنت من هواة الرقص الهادىء، تعال.

وأخذت بيده إلى الحلبة، ومضيا يرقصان في هدوء.. وعيناه تتابعان الفتاة البلجيكية التي بدت أكثر أجزاء جسدها لأعين الحاضرين بلا خجل منها أو حتى من والدها الذي كان يرمق عيون الآخرين وفيها الكثير من الافتتان بها! حتى إذا ما دقت الساعة الرابعة ليلاً غادرا المكان إلى شقتها الواقعة في شارع جورج سانك.

وهناك التقت عيناه بأكثر من صورة لصديق يعرفه منذ زمن بعيد وإن حالت ظروف العمل بينه وبين أن يراه فعندما رأت اليزابيث كثرة تلصص عينيه على صور صديقها قالت:

ـ أهو صديقك أم إنك تريد أن تسبر غور المكان؟

أجابها في هدوء:

ـ هذا وذاك!

ـ إذن أنت تعرفه؟

ـ وما جدوى معرفتي له ما دمت أعرفك أنت أولاً ولكوني أنا وهو على طرفي نقيض، فبينما يتوج حياة صديقي المال والشهرة أعيش أنا على مرتبي أجوب الديار في طائرة الشركة التي تستخدمني.

ـ قد تكون أنت أسعد حالاً منه.

ـ نعم ـ قالها في حب ـ ولسبب واحد.

ـ ما هو؟

ـ هو يدفع وأنا أحب!

ـ ومن هي الحبيبة؟

فأشار إلى صورتها؛ فضحكت وقالت:

ـ كل ما أرجوه أن تنسى أنك عرفتني يوم تقابله.

ـ ولماذا تطالبينني بهذا؟

ـ لأنني أعرفكم معشر الشرقيين فأنتم تتباهون بمن تعرفون من نساء وتنقلون أخبارهن لأصدقائكم وعندما تفعل سأكون الضحية، لأنني لن أجد المال الذي يأتيني منه فأنت لا تملكه.

وابتسمت ولكنه لم يبتسم وقال في شيء من الجدية:

ـ لا عليك فقلبي قفل ضاعت مفاتيحه ولهذا تظل أسراري ملكاً لي لا يشاركني فيها أي إنسان.

ـ ولا سالي؟

ـ ولا سالي أيتها العزيزة!

نظرت إليه بطرف عينيها ولم تكمل وإن كانت نظرتها أبلغ من الكلام فهو يعرف معاني مثل هذه النظرات عندما تأتي من حسناء لرجل قدمته لها حسناء أخرى!

وشاء له حظه أن يفهم معنى تلك النظرة فقال:

ـ لا تظني أني بقولي هذا أتنصل من حبي لسالي بل على العكس فأنا أحبها على طريقة الأوروبي الذي يزداد حبه لأنثاه عندما تقدمه لقمة سائغة لأنثى أكثر منها جمالاً ورقة!

وضحك فشاركته الضحك ثم قالت:

ـ كنت أظن أني سأغلبك.. لكنني وجدتك أعرف مني وأرسخ قدماً..

وصمتت فقال:

ـ يعجبني في المرأة الفرنسية قدرتها على الفهم وأصالتها في الإدراك وبديهتها في التوصل إلى الأحكام وفق ذبذبات القلب التي تتحرك في أحشائها لأنها كامرأة تجيد أشياء كثيرة في مقدمتها أنها أقدر على اجتذاب الصيد إلى داخل الشرك وإنما اليوم مجرد صيد لا أقول عنه بأنه سمين.. ولكنه على أي حال نوع جديد يمكن لصديقتي أن تستشف خفاياه وتختبر ما في أعماقه فقد تمنحها معرفتها إمكانات جديدة تجعلها أقوى شكيمة وأقدر على اجتذاب الفريسة!

ـ ولماذا تريد أن تغير مقاييس هذه الدنيا، ففي الحياة تكون الأنثى هي الفريسة؟

ـ هذا إذا كانت في بداية الطريقة أما أولئك اللاتي رسخت أقدامهن فهن أعرف بمتاهات الطريق حتى من الصياد نفسه!

وطغى الظلام على جو الغرفة فعرف أن رفيقته تريد منه أن يصمت فصمت على أمل أن تتاح له فرصة الحديث مرة أخرى..

الفصل الرابع

السماء تغسل أقدام الشاطىء اللازوردي الممتد حول ضاحية كاليفاد بأثينا العاصمة الإغريقية التي أحبها، فكأنه والمطر على موعد.. فأثينا وضواحيها تفتقد الدموع لكثرة ما يضحك سكانها من الناس ومن حياتهم ومن كل شيء..

والبحر هذا المارد الذي صنع أمجاد بضع مئات من أغنياء العالم يرقد في هدوء.. يقلق راحته ضجيج البواخر واليخوت التي انتشرت في كثير من زواياه.

وهو على اليخت «ماجستيك» يعايش مجموعة مختارة من أغنياء العالم، يحسبون أموالهم بالملايين ويحسب أمواله في جيوبه فقد كان صادقاً مع نفسه يعرف أن الحياة لا تساوي كل هذا العناء الذي يحتمله البعض جرياً وراء المادة.

وهو لا يكره المال.. لكنه يحب أن يوظفه لملذاته، ويشعر بأن صداقته لأصحاب رؤوس الأموال قد تكون مصدر سعادة له ومصدر شقاء لهم، لأنه يقارن بين نفسه وبين هؤلاء الذين يضيعون وقتهم في الصفقات ومن حولهم تتحلق النساء بأبهى زينة دون أن يرف جفن واحد منهم لمرأى ثغر جميل أو ابتسامة هادئة، أو خصر ناحل!

وهي عروس من الشرق (فيتنامية) تحمل على رأسها باقة من الشعر الأسود تخطر في ملابسها الرقيقة.. تملأ قدح هذا وقدح ذاك في أدب بالغ ونعومة محسوبة!

ولقد قارن بين هذه المضيفة وكل هؤلاء النسوة اللواتي يتشبثن بأذرعة أزواجهن فوجد المقارنة في صالح هذه الشرقية التي اختارت

جنسيتها البريطانية عن حب ما عدا (سارا) هذه المرأة الإيطالية التي غدرت بزوجها بعد أن نكبته الأيام في ثروته فأضحى لا يملك سوى الفتات فاندفعت تطلب الطلاق حتى إذا ما حصلت عليه تزوجت واحداً من ملاك السفن والعاملين في تجارة البترول.

لم يكن زوجها الجديد غريباً عنها فهو وإن كان يحمل الجنسية اللبنانية إلا أنه يعيش حول العالم في يخت عائم، طالما قضت فيه أياماً من حياتها فهو لهذا يعتبر من أعز أصدقاء زوجها السابق الذي ألقت به في مهاب الريح بعد أن هيأ لها سنوات جميلة كانت تقول عنها بأنها أجمل سنوات العمر!

ولقد سمع أشياء كثيرة عن هذه المرأة التي تكبره بعشر سنوات على الأكثر، فقد كان حديث أكثر أصدقاء اليخت عنها وعن صلتها بالمافيا وكيف أن رجالها يستغلون أنوثتها وجمالها الطاغي في اجتذاب حوت القرش الكبير إلى شباكهم!

وكم حاولت سارا أن تغازله فهرب منها بأسلوبه الذي يجيده لا خوفاً منها وإنما رحمة بزوجها الذي تجري في عروقه دماء عربية، لكنها وبعد أن ضيقت عليه الخناق وقع في الفخ وكان يأمل أن يكتفي بفتاته الفيتنامية التي راحت ترقب ما يجري بعينيها في هدوء!

ولقد انتحت سارا به مكاناً قصياً في آخر اليخت تحادثه وتلاطفه وعيناها من خلف نظارتها السوداء تحدق في الأمواج المتلاطمة ومن حولها تجري أسماك القرش في هوس وجنون، حتى إذا ما هدأ وجيف قلبه التفتت إليه بحنان بالغ وقالت:

ـ وماذا يخيفك؟

ـ أنت!

ـ أنا؟ . . لقد حاولت أن أستميلك إلى جانبي لكنك كنت تهرب من عيني، لماذا؟ ألهذه الدرجة أبدو بشعة في ناظريك؟

وتمتم بينه وبين نفسه، وقال في صوت هادىء:

ـ كل شيء فيك يخيفني، فأنت امرأة الجمال وزوجة الملياردير، كما كنت

زوجة سابقة لواحد مثله ثم فوق هذا وذاك ففي عينيك إشعاع غريب يجعلني أضيع في حدقتيهما، وكأنهما مافيا الحب!

وضحكت في كمها وقالت:

ـ فهمت ما تعنيه ولكن لن أقول بأنني غير ذلك لأنك لن تصدقني وكل ما أريد قوله بأنني وإن كنت بكل هذه الصفات فلا بد أني أستثيرك، ثم علاوة على كل ذلك فأنت بوضعك وما أعرفه وتعرفه أنت لا يمكن أن تهاب (مافيا) الحب أو حتى أية مافيا أخرى!

ـ وزوجك يا سيدتي؟

ـ يغط في نومه كعادته بعد أن يملأ كرشه بطيب الطعام!

ـ إذن أنت لا تحبينه، فلماذا اقترنت به؟

ـ ذاك أمر لا أظن أن من المفروض أن أقدم حساباً عنه، لكنني سأقول لك الحقيقة، فأنا امرأة أخاف الفقر وأحب أن أعيش دائماً في بحبوحة، وهذه البحبوحة في العيش لا يمكن أن يوفرها لامرأة مثلي سوى الأغنياء من أمثال زوجي الأول والثاني وقد يأتي الثالث قريباً!

ـ وموقفي أنا إذن ماذا سيكون؟

ـ أنت في نظري مجرد صديق أرتاح لأن أقضي بعض وقتي في صحبته ولن أكذب عليك، فأصدقائي ممن هم على شاكلتك أكثر من أن يحصوا على أصابع اليد!

ـ وزوجك أيعرف ذلك المسكين؟

ـ وماذا يهمني إن عرف أم لم يعرف؟ يكفيه أنه اشترى علاقة الزوجية بي بما يدفعه من تكاليف نفقاتي الباهظة.

وصمتت فلم يصمت وإنما تابع حديثه:

ـ ولكني يا سيدتي من طينة جبلت على أن تأخذ ولا تعطي خصوصاً في أمور كهذه فأنا لا أملك قيمة أصغر هدية يمكن أن أقدمها لأميرة أحلامي.

ـ بل قل أسيرة أحلامك فأنا أحب الأسر لبضعة ليال وأيام حتى إذا مللته، ذهب كل واحد منا في طريق!

ـ والفيتنامية التي أعجبتُ بها؟

ـ هي لك في الأوقات التي لا أستطيع أن أراك فيها!

ومد يده يشد على يدها البضة وكأنه يعلن موافقته على كل كلمة فقالت:

ـ إذن أنت حر الليلة أما ليلة الغد فستكون لي ولي وحدي، لأنني سأكون في اليخت أنا الأخرى وحدي أيضاً!

ـ وبدونه يا سيدتي؟

ـ نعم. أنسيت أنه سيذهب إلى هيوستون ليكمل صفقة البترول الذي اشتراه ويريد بيعه؟

ـ وماذا سيكون نصيبي من هذه الصفقة؟

قالها ضاحكاً، فأجابت:

ـ أولايكفيك أن أكون أنا من نصيبك؟

ـ وكيف لا يا سيدتي لكنني أخاف أن يشطب اسمي من ذاكرتك بعد هذا اللقاء!

ـ وهل يعز عليك أو علي أن لا نعي حقائق الأشياء في هذه الحياة، إذ إن كل شيء فيها زائل حتى أجسادنا التي تمشي على اليخت!

ـ أنت فيلسوفة يا سيدتي!

ـ وأنت شاب متعب.. ولكنك تناسبني وهذا يكفي على الأقل في الوقت الحاضر، أما الآن فيمكنك أن تمضي إلى صديقتك الفيتنامية، لأنني ألمح خيالها يبدو من بعيد وكأنها تبحث عنك!

وانسلت من مكانها وبقي هو في مكانه يرمق الموج وأسماك البحر يعتدي بعضها على البعض الآخر فلم يحس بصوت فتاته وهي تبادره بتحية المساء، حتى إذا ما شعر بفداحة خطئه قال في شيء من الرصانة:

ـ لم أكن أظن أنني سألقاك هنا فهل انتهت نوبة عملك على اليخت؟

وبهزة لطيفة من رأسها أجابت بالإيجاب، ثم مدت يدها وسلمته رسالة وصلته بالتلكس من اليزابيث تشعره فيها بأنها في طريقها إلى اليونان وأنها

وسالي ستكونان في فندق الهيلتون بعد بضعة أيام.

نظرت سو إلى وجهه وقالت بأدب:

ـ لا بد أن سيدي هو فالنتينو هذا العصر جاء من الصحراء كما يبدو بدلاً من أن يأتي من إسبانيا؟

ـ وهل هناك فارق كبير بين إسبانيا والصحراء؟

ـ لا.. لا أدري.

قالتها سو وتابعت:

ـ وإن كنت أعرف مما قرأت بأن العرب احتلوا إسبانيا فترة من الزمن فمنحوها أشياء كثيرة: جمال عيون نسائها، وقدرتهن على الغناء والرقص.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ لا أدري.. لا أدري.

وتركته في مكانه مشدوهاً وانصرفت فناداها لكنها لم تجب فعاود النداء وعندما توقفت قال لها:

ـ سنكمل حديثنا بعد ساعة.

ـ كما تشاء يا سيدي ولكن أين؟

ـ في غرفتي. فأنا بحاجة إلى عشاء خفيف.

ـ ولكنني لا أعمل هذه الليلة.

ـ دبري الأمر بطريقتك فأنا كما تعلمين أحب أن أغفو مبكراً وأن أحلم كثيراً ولكن مع من أحب.

ومضى إلى سريره وتاه في أحلامه التي أخذت تظهر خفايا إحساساته التي كان يحاول أن يخفيها عن نفسه ولم يصح إلا على لمسة فتاته الفيتنامية التي أخذت تبتسم في وجهه في هدوء..

الفصل الخامس

إرضاء الناس غاية لا تدرك. تلك حكمة كان يسمعها ولا يأبه لها.. لكنه اليوم، يحادث نفسه في رصانة ويقول: إرضاء النفس غاية لا يمكن إدراكها لذوي النفوس التي تقفز على حواجز الزمن لتدرك يد المجهول الذي يغفو في ظل شجرة صفصاف وارفة الظلال وهو في إلفة مع المجهول.

ففتاته التي عرف رسامة قادرة جاءت مع زوجها لتعرض لوحاتها في معارض (جدة) هذه المدينة الجميلة، فقد أمضت أكثر سنوات عمرها تجوب شوارع السان جرين في باريس والاسبانيش استيرز في روما ولا تبدو على حقيقتها وهي تخطر في ثوبها التونسي في فندق الشيراتون.

ولقد حضر حفل تكريمها الذي أقامه بعضهم لهذه الوافدة وشعر بشيء ما يشده إليها، فتحدث معها حديثاً طويلاً شاركته فيه عيناه المتلهفتان للتلصص دائماً على أجواء الآخرين.. ولقد أدرك منذ اللحظة الأولى أنه قادر على اجتذاب هذه الأنثى بالإطراء فمضى يستعرض قدرات عقله على استيعاب لوحاتها التي كانت على ما يبدو أشبه بدوائر غامضة غير مفهومة، حتى إذا ما ارتاحت إليه عرف منها أشياء كثيرة!

عرف فيها أن أمها الفرنسية هي التي شدتها إلى هذا النوع من الدراسة.

وعرف أن زوجها، رغم ثقافته الواسعة، إلا أنه يبدو أشبه بطفل

صغير في تصرفاته. وعرف أنها ترتاح كثيراً للسباحة في البحر أثناء الليل.

ولقد اتفق معها على زيارتها في أعقاب عودتها إلى (سوسه) مكان إقامتها في تونس.

ولقد شاء حظه أو حظها أن تكون رفيقة رحلته إلى تونس حتى إذا ما حطت الطائرة، تسلم زميله منه زمامها ليمضي أياماً ثلاثة في هذه المدينة العربية التي أحبها.

يقولون إن المدن ترتدي كالنساء أجمل فساتينها في الأفراح والأعياد.

وتونس كما هي العادة.. تستخدم شتى أنواع المساحيق والعطور تتبرج لزوارها كما تتبرج الأنثى في الصيف، لأنها تعلم بأن تواجد العديد من السياح فيها يعني توافر السيولة النقدية التي يحتاجها مثل هذا البلد الذي يساير معالم النهضة الأوروبية في تحفظ.

ولكم كان مقامه في (الحمامات) مثيراً وجميلاً في الوقت نفسه! ففي هذه الفنادق الممتدة على طول الشواطىء والتي بنيت بأسلوب عربي معاصر.. يقبل البحر أقدام الشاطىء في حنان ويسامر الناس كل الناس الوافدين إلى هذه المنطقة من جميع أنحاء العالم طوال الليل يأكلون ويشربون ويسبحون تحت ضوء القمر الحالم!

ولكم أعجبه مقامه هناك وأعجبه أكثر أن يلتقي بالعديد من الفتيات الوافدات من جميع أنحاء أوروبا وأمريكا كلهن جئن للاستجمام والراحة والبعد عن ضجيج المدينة والاستحمام تحت ضوء الشمس الحانية!

لكن أكثر ما أثاره هو أن تعمد فتاته إلى دعوته بالهاتف لقضاء الليل عند صديقة لها في (بورسعيد) المكان الهادىء والقريب من العاصمة.

لقد شهد منظراً أخاذاً اختلطت رؤاه بذهنه فترة طويلة من الزمن فلقد اعتاد الناس أن يروا البحر يقبل أقدام الشاطىء.. أما في بورسعيد فقد كان الجبل هو الذي يحاول أن يتطاول على البحر فيمنعه من أن يغسل صخوره الناعمة الملساء!

كان مع (سعاد) في ذلك المكان زوجها وصديقتاها نهى وسحر اللتان كان

جمال كل واحدة منهما يغاير الأخرى ففيما كانت الأولى أشبه بفتيات الصحراء السمر، كانت سحر شقراء تميل في تبرجها إلى أشكال الفتيات الأوروبيات. . لكنه شعر بشيء من الخجل عندما رأى أن لغته العربية لم تسعفه ليعرف بعض معاني كلمات الفتاتين! ومع هذا آثر أن يمضي في تعلم معاني الكلمات الجديدة كطفل وجد لعبته المفضلة أمام عينيه فجأة!

ولقد حاولت سعاد أن تمنحه ليلة من ليالي العمر. . فتلفنت لأكثر من صديقة، حتى إذا ما اكتمل الجمع أخذت سحر عودها لتغني أغنية محمد عبده (أيوه) في لهجة محببة، ومضت نهى ترقص على أنغام موسيقاها وإيقاع زوج سعاد الذي بدا في أوج سعادته بضيفه. لكن كل هذا، وإن راق له، إلا أن طبيعته وفضوله في التعرف على أحوال النساء جعله ينتحي بنهى فترة من الوقت في حديث هامس حاول أن يبدو طبيعياً فيه وغير متكلف.

ولقد عرف بأن الأولى طبيبة أسنان والثانية مذيعة تلفزيون، وأنهن جميعاً تلقين تعليمهن في باريس.

ولكم شاقه أن يعرف رأيهن في نوع الحياة التي يمارسنها، وتلك التي تمارسها أولئك اللواتي جئن سائحات من كل حدب وصوب!

فقالت الأولى:

ـ تجد أننا نحن الحرائر نتوق إلى شيء يسير من الحرية نتنسم من خلالها ظروف الحياة بأسلوب يغاير أسلوب أمهاتنا وجداتنا. ومع هذا نجد أنفسنا نستمرىء هذه الحرية لدرجة نصبح بعدها أسرى لهذه الحرية.

وقالت الثانية:

ـ لن أكذب عليك عندما أقول لك بأن شبابنا أصبح يخافنا نحن اللواتي تلقين تعليماً عالياً خارج بلادنا انطلاقاً من أننا أثناء غربتنا قد نكون عرضة لتجربة الخطأ والصواب وينسون جميعاً أن أنصاف المتعلمات في هذا المجتمع أقرب منا نحن المتعلمات من السقوط في شرك الحريات السائبة! لقد تقدم لخطبتي أكثر من شاب. . لكنه وفي آخر لحظة هرب لأنه يعتقد بأنني سأكون صورة طبق الأصل عن أمي وأمه بعادات مجتمعنا وتقاليده وهذا هو الذي

أرفضه لأنني أؤمن بحق المرأة بأن تعيش كأنثى لها آراؤها وأصدقاؤها وصديقاتها.

وأجاب في شيء من التساؤل:

ـ أصدقاؤها؟

ـ نعم أصدقاؤها، فلولا صداقتك لصديقتي هذه التي التقتك في وطنك لما رأيتك هنا.

فرد بقوله:

ـ ولكنك نسيت أنني من بلد يقدر التقاليد ويحافظ عليها.

وضحكتا من قلبيهما ضحكة أصمت أذنيه ثم قالت سحر:

ـ لا أريد أن أزعجك.. ولكني سأروي ما حدث، لقد خرق واحد من مواطنيك الذين كانوا يعيشون هنا كدبلوماسيين جميع الأعراف الدبلوماسية عندما أعطى نفسه الحق بأن يغازل امرأة مسؤول لأنها سايرته وتحدثت إليه بشوق على أمل أن يعرف أن موقعكم أنتم أبناء البلد المقدسة غير مواقع الآخرين.. ولقد تحدثت زوجة ذلك المسؤول إلى زوجها الذي نقل ذلك إلى زميله في بلادكم.. فكانت النتيجة نقل المسؤول بأسرع ما يمكن، بل لقد عرفت بأنه قد أوعز له أن يترك العمل الدبلوماسي لأنه أخطأ خطأً لا يغتفر!

الصداقة يا صديقي لها مساوئها بين المرأة والرجل ولها محاسنها فهل بعد ذلك يمكن أن نفرق بين صديق وصديق؟

ـ لا، ولكنني لا أؤمن بهذه الصداقة لأنها مرفوضة في مجتمعنا الديني.

ـ ولماذا تمارس ما ترفضه إذا كنت لا توافق على مثل هذه الصداقة بين الرجل والمرأة؟

ـ لا أدري فلربما غلبت علي صحراويتي فجعلتني هكذا أهرف بما لا أعرف. فهل يكفيك هذا؟

وارتفع صوت سحر قائلة:

ـ يكفينا هذا الآن ولهذه الجلسة على الأقل ولكن دعني أوجه لك هذا السؤال بصراحة. فنحن نعرف بأنك لم تتزوج فإذا قدر لك أن تتزوج فمن منا

تختار؟ ولا تظنَّنَّ أنها دعوة مفتوحة للزواج وإنما هي للحوار فقط!

وأجاب بلا وعي:

ـ ولا واحدة.

فقالت صديقته الرسامة:

ـ هذا يعني أنك تريدها بالطريقة التي تزوجت عليها أمك أباك؟

ـ لا. ولكنني عندما أقرر الزواج فلتثقن بأنني سأتزوج واحدة من مواطناتي وبالطريقة التي تجعلني أوفق في الوصول إليها.

ـ ولماذا هذا الإصرار ما دمنا جميعاً عربيات ومسلمات؟

أجاب بلا وعي مرة أخرى:

ـ قد تكون المدنية الزائفة هي السبب في إصراري هذا، فأنا وإن كنت أحب أن أتعايش مع هذه المدنية.. إلا أنني لا أرغب أن أراها تزحف إلى جزيرتي.

فقالت نهى:

ـ أولاتظن أنها أنانية منك بأن تمارس هذه المدنية وتستمتع بها حسب قولك، ثم ترفضها عندما يصل بك الأمر إلى الزواج؟

وأجاب في هدوء:

ـ هناك أمران يتجاذبانني: فأنا وإن كنت قد عشت أكثر سنوات حياتي خارج وطني بحكم الدراسة أولاً وبحكم العمل ثانياً.. إلا أنني أظن بأن ذلك كله كان له تأثير قوي على تفكيري لدرجة جعلتني أؤمن بأن الرجل قد جنى فعلاً على المرأة في كل هذه المجتمعات فجعلها مجرد سلعة، علمها الدلال ومنحها أدوات التجميل واختار ملابسها بعناية ليستمتع بها هو وحده، وفوق هذا وذاك نجدها راضية بكل هذه القيود وكأنها قد استمرأت وظيفتها الجديدة حتى إذا ما كبرت وشاخت ألقى بها في الطريق لتدوسها الأقدام.

انظري إلى واجهات المحلات التجارية تجدي صور النساء تنتشر في لافتات تكشف عن جسد المرأة في إغراء.. وكأنها لا تزال بلد الجارية التي تباع في سوق النخاسة، هذه واحدة.. أما الثانية، فلا بد أنها تشغلك كما

شغلتني فعلب الليل ملأى بالكثيرات اللواتي يتبرجن من أجل الرجل في سبيل لقمة العيش وكان بإمكانهن أن يربأن بأنفسهن عن مواقع الهوى والغرق التي يضعهن فيها الرجل.

حتى المافيا هي الأخرى استغلت أنوثة المرأة من أجل أعمالها الإجرامية فلم تبخل بدمائها أن تسفح على قربان الرغبة في جمع المال الحرام.

أما مجتمعي فالمرأة فيه شيء آخر، لا لأنها الأم والأخت والابنة فحسب، وإنما لأنها فوق هذا كله وبعده كرمها الدين ومنحها الحرية التي هي في أمس الحاجة إليها فكانت صنو الرجل الطيب يا سيدتي العزيزة!

انظري إلى المرأة في المجتمعات العصرية.. لقد فقدت الكثير وفقدت اسم أسرتها عندما تزوجت وأصبحت مجرد تابعة صغيرة لزوجها.

ولو أنها في بعض المجتمعات كأمريكا وسويسرا قد تأخذ نصف ثروته عندما تطلق.. قد يكون ذلك صحيحاً لكنها ستفقد كل ما ربحت لأن ذلك كله سيكون من نصيب زوجها الجيد أليس كذلك؟

نظرت الفتيات كل واحدة إلى الأخرى، ثم قلن:

ـ ولماذا نفسد سهرتنا بحوار كهذا لا طائل منه؟ تعالوا نمتع أسماعنا بموسيقانا العربية، فجو المكان يوحي بأنه لم يخلق لمثل هذا الكلام..

وضحكوا جميعاً إلا هو فقد أخذ يفكر طويلاً في حياته التي يعيشها.. ولم يتنبّه إلاَّ على صوت زوج سعاد وهو يدعوه بأن يتفضل لتناول بعض الطعام.

الفصل السادس

الحياة ملأى بالأشواك لا يستطيع إزالتها عن طريقهم إلا أولئك الذين يعرفون كيف يمارسون حياتهم بقوة واقتدار.

وهو في مكانه.. في بيته الصغير يرمق أخته وهي تحنو على صغارها، وقد غلف الحزن وجهها فجعلها تبدو في سن أكبر من سنها. لقد مات زوجها الطيب فجأة، لكن الحياة تعطي وتأخذ وهي اليوم بالنسبة إليه شيء جديد جعله يفكر في عمق..

لقد مضى ما يقارب الشهور الثلاثة على موت صديقه وزوج أخته.. لكنه يشعر بثقل هذه الأيام على كاهله، فهو يحب أخته ويحب صغارها الثلاثة لدرجة جعلته لا يرضى بأن يعيش في بيتها بل تشاركه بيته وتقاسمه حياته.

ولقد رفضت أخته الأمر بادىء ذي بدء حتى إذا ما ألحّ قالت له:

ـ سأكون مع أولادي عبئاً ثقيلاً عليك، فأنت كما سمعت من زوجي لك من ظروف حياتك ما يجعل وجودي في البيت عائقاً لا يمنحك حرية التصرف!

نظر إليها في هدوء:

ـ وماذا قال لك أيضاً؟

قالت:

ـ لا شيء لكنني وإن كنت أعرف عن حياتك القليل، لكن هذا القليل يكفيني.

وصمت ينظر إليها نظرة عتاب وقال:

ـ لقد عشنا معاً صغيرين وكبرنا أيضاً حتى إذا زففت لزوجك كان اتصالي بك دائماً، فأنا لفرط حبي لك اخترت صديقي الذي مضى وإن كان قد ترك لي هؤلاء ـ وأشار إلى أبناء أخته ـ هذا واجبي ليس تجاهك بل تجاهه أيضاً.. كما أنني أنا أيضاً في حاجة لمن يرعاني في بيتي هذا.

ـ ولماذا لا تتزوج؟

ـ سأفعل ذلك يوماً وعندها سأنتقل إلى الطبقة الثانية من هذا البيت فلا تفكري في شيء كهذا اليوم.

ـ وكيف لا تريدني أن أفكر وأنت كما أرى لا تزال عازباً رغم أنك قد تعديت الحلقة الثالثة من العمر.

ـ وماذا يعني هذا لي؟ فأنت تعرفين بأن مهنتي تحتم علي أن أكون دائماً بعيداً عن البيت، ثم هناك أمر آخر.. فمن من صديقاتك ترضى بأن تتزوج واحداً مثلي؟

ـ لا أدري..

قالتها أخته في هدوء، وأردفت:

ـ لكن زواجك ليس المعضلة فالمعضلة فيك أنت، يكفيني أن توافق لأجد لك المرأة التي تناسبك.

ودفعت إليه بقصاصة ورق، فيها عنوان (سمية) الفتاة التي تمضي دراستها في جامعة نيويورك وقالت:

ـ إنها كما تعرف يا أخي ابنة خالك الذي مات قبل أن تراه، فسنواته التي قضاها في الهند جعلته دائماً بعيداً عنا، حتى إذا ما عاد إلى المدينة، كنت أنت في عملك في جدة. لطالما تحدثت أمها عنها بكثير من الحب، فهي تدرس الطب في تلك المدينة بعد أن اجتازت البكالوريوس، ربما استطعت ان تراها في رحلتك.

ـ ولكن لماذا تعطينني عنوانها؟ أتظنينها مناسبة لي؟

ـ أعتقد ذلك كما تعتقد أمها ذلك أيضاً فهي تزورنا باستمرار.. ولقد تحدثت لزوجي عن ذلك كثيراً فهي تظن فيك الخير.

وضحكت فقال:

ـ لا عليك سأذهب لأراها عندما تسنح لي الظروف.

ـ وتعطيها هذه الهدية فهي مني إليها.

ـ لا بأس..

قالها في فتور وكأنه يريد أن ينهي الحديث، فتاه مع أفكاره. ترى كيف سيقابل هذه الفتاة؟ وماذا سيقول لها عندما يراها؟

وأحس بشيء من الخوف هو الذي لم يخف في حياته من مقابلة امرأة. لماذا؟ لا يدري! ونظر في وجه اخته فرأى ابتسامتها الصغيرة تطل في شوق وكأنها تبارك خطوته التي لم يبدأها بعد، وكأي شاب سأل أخته:

ـ هل أجد لديك صورة للدكتورة؟

ـ ولماذا تريد الصورة؟

ـ لأتعرف عليها دون أية حاجة لمفاجآت عندما أوصل إليها هديتك!

ـ لهذا فقط تريد أن ترى صورتها؟

ـ إذا أردت الصدق لهذا أردت صورتها ولشيء آخر أفكر فيه كما تفكرين أنت فيه.

ومضت أخته تعانقه في حب وتقول في شيء من الأمل:

ـ ترى هل يقدر لي أن أرى اليوم الذي يجري فيها أولادك مع أولادي في هذه الدار؟

ـ ربما كان ذلك قريباً، لقد مللت حكاية البقاء بمفردي، بعد أن جئت أنت إلى هذا البيت.

ـ وتقولها؟

ـ نعم. أقولها لأنها ترضيك.. أولست اليوم أعود إلى وظيفتي السابقة فأصبح مسؤولاً عنك وعن أولادك أيضاً كما ستصبحين أنت مسؤولة عن أولادي قريباً بإذن الله، أيكفيك هذا؟

وبهزة من رأسها أجابت:

ـ تلك أمنية غالية من أماني حياته وحياتي، ولقد ذهب هو قبل أن يراها وبقي علي أن ألاحقك لأرى هذه الأمنية وقد تحققت لي.

ـ لك ولي أيتها العزيزة.. والآن دعيني أرتب شنطتي، فقد آن وقت رحيلي.

ـ دعني أرتبها لك.

ـ لم أتعود ذلك من قبل.

ـ سأعودك أنا على ترتيبها كما ستعودك هي على ذلك بعدئذ.

ـ لا بأس ولكن آمل أن لا تنسي شيئاً من احتياجاتي.

ـ لا لن أنسى فأنا أعرف دائماً ما تحتاجه وفي قمة كل ذلك هذا الذي في يدي.. «القرآن».

قالتها في هدوء، وأحس بدمعة صغيرة تنحدر من عينيها وقالت:

ـ أوتصدق بأنه يوم توفي كان يحرص على أن يقرأ فيه قليلاً؟

وربت كتفيها في حنان ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، وجعل تفكيره ينصب عليها تلك التي سيراها قريباً.

يقولون إن الأذن تعشق قبل العين أحياناً وهو الذي كان يضحك عندما يسمع هذا الشعر يجد نفسه مشدوداً إليها، ولكن كيف له أن ينسى كل من عرف من فتيات؟ وهل بمقدوره أن يلقي ستاراً كثيفاً بينه وبين الماضي؟

ربما كان ذلك صعباً بعض الشيء ولكنه يهوى اجتياز الصعاب.

ولقد أمضى ليلته في غرفته يقلب أوراق الماضي في هدوء حتى إذا ما أحس بالنوم يداعب جفنيه استغرق في نوم عميق ولكنه قام مذعوراً فهي المرة الأولى التي يتأخر فيها في نومه.

وفي الطائرة كان وجود (سالي) المضيفة هذه المرة ليس مجرد مصادفة، فهو الذي طلب من غرفة العمليات أن تكون سالي من ضمن مضيفات الرحلة فقد احس بحاجة لأن يتحدث إليها بعض الوقت، حتى إذا ما استقر بهما المقام في فندق (الكونكورد لافييت) طلب من سالي أن يلقاها على انفراد فرحّبت وتواعدا على اللقاء بعيداً عن أعين الفضوليين الذين كانوا يترصدون حركات سالي من زميلاتها.

وفي مطعم الفندق قالت سالي:

ـ أشك كثيراً أنك على عهدي بك. فأنا أراك ساهماً واجماً تفكر في أمر تريد أن تقدم عليه ولكنك تهابه في الوقت نفسه؟

أجابها:

ـ صحيح كل ما ذكرته، فأنا اليوم أهاب ما سأقدم عليه وإن لم يكن من الخطورة بمكان. . لكنني وإن كنت لا أدري رأيها لا أظن أنها سترفضني وخوفي هنا يأتي من أنني أخشى أن أسيء إليها هي التي لم ترني حتى الآن.

ونظرت إليه سالي في استغراب وقالت:

ـ أهو حب جديد طرق قلبك؟

ـ لا هذا ولا ذاك وإنما أفكر في أن أتزوج.

ـ ومن هي هذه الشقية التي سترتبط بك يا كابتن؟

قالتها سالي في سخرية وأكملت:

ـ وهل أنت ممن ترضى أن ترتبط به أنثى؟

ـ ذاك هو ما أخافه يا سالي ولكنني اليوم أحدثك حديث الصديقة، فأنت كما تعرفين أقرب الناس إلى قلبي.

وصمت فضحكت وقالت:

ـ وكيف تريدني أن أوافق على أن تتزوج غيري ما دمت تريد الزواج؟

ـ ولكننا تحدثنا في هذا كثيراً يا سالي فزوجتي بلا شك ستكون من جزيرتي كما سبق وقلت لك.

ـ وما يدريك أنها لم تعرف غيرك؟

ـ ذاك شأني، ففتياتنا يا سالي لا يعرفن غير أزواجهن، أيكفيك هذا؟

ـ لا يا كابتن. أنت قصير النظر إذا كنت تظن هذا فأنا أعرف الكثير من فتيات بلادك اللواتي سافرن معي هنا وهناك وأعرف كيف يفكرن. . صحيح أنهن لا يجرؤن على أن يكن مثلي أو مثل صديقاتي لكنهن على كل حال لهن قلوب تنبض وعيون تنظر وأحلام يردن تحقيقها.

ـ وماذا أيضاً يا سالي؟

ـ قل لي من هي منكودة الحظ وأين تعيش لأقول رأيي بصراحة، ثم قبل هذا كله هل تعرفها؟

ـ لا . .

قالها في صدق.

ـ وكيف تجرؤ على أن تتزوج ممن لا تعرف؟

ـ هي مجرد فكرة أوحت بها أختي إلي لدرجة جعلتني أفكر فيها بصدق وهأنذا في طريقي إلى نيويورك لأراها.

ـ وخطيبتك يا كابتن في نيويورك؟ وماذا تعمل . . ؟

ـ طبيبة تدرس هناك.

ـ وتريدني أن أصدق بأن طبيبة عاقلة يمكن أن تقبل بك زوجاً يا صديقي الطيب؟

ـ ولم لا يا سالي؟

نظرت سالي إليه نظرة ذات معنى وقالت:

ـ وهل ستقول لها بصدق عن ماضيك الأسود يا صديقي؟

ـ ولماذا أقول لها ذلك؟

ـ إذن لن تطلب منها أن تفضي لك بماضيها أيضاً؟

ـ وما يدريك يا سالي بأن لها ماض؟ إننا في بلادنا نكره المرأة صاحبة الماضي، ونسعى إلى تلك التي تبحث عن الحاضر والمستقبل . .

وصمت فقالت سالي:

ـ مشكلتك اليوم يا صديقي أكبر من أن أعرف طريقها للحل لأنني فوجئت بها . . ثم إنني لا أصدق بأنك أنت الذي تتحدث معي وبهذا الاسلوب. إننا يا صديقي عقليتان مختلفتان فأنت شرقي بطبيعتك رغم مظهرك الذي يوحي بتخليك عن شرقيتك! ومع هذا لا يسعني إلا أن أبارك لك خطوتك، وكان الله في عون تلك المسكينة . . فلربما كانت القادمة الضحية الجديدة لك ولكن بأسلوب جديد مبتكر!

الفصل السابع

كثيراً ما يحمي الجليد النباتات من أضرار البرد.. لكن من يحمي القلب من صدمات العاطفة؟ ذاك أمر شغل باله فترة من الزمن هو الذي جالد الحياة وخبر أنواعاً كثيرة من النساء.

يقولون بأن للعقل دائماً ردة فعل قادرة تأخذ في طريقها ظروف الأمس لتمنح المستقبل صورة مغايرة للصورة التي شاخت بعض الشيء ولقد سرح ببصره وهو في مكانه في فندق «والدرن استوريا» يتطلع إلى الناس في الصالة الكبرى بكثير من اللامبالاة، حتى إذا ما أطلت عليه فتاة جزيرته التي تحدث إليها هاتفياً قام من مكانه يرقب مشيتها الهادئة في كثير من الشوق ومد يداً باردة ليصافح اليد البضة في شيء من الخوف وكأنه يقابل المرأة لأول مرة!

ولقد نظرت إليه ضيفته بشيء من التحفز حتى إذا ما هدأت نفسها بعض الشيء أخرج الرسالة والأمانة التي يحملها لها من أسرتها.. ومضى يتمعن في وجهها وهي تقرأ رسالة أمها في شوق حتى إذا ما انتهت منها شكرته في اقتضاب وكأنها تودعه بابتسامتها الهادئة، لكنه أصر عليها أن تتناول غداءها معه فاعتذرت في أدب، فقال:

ـ ربما وجدت من غير المناسب تكريم واحد من أبناء عشيرتك جاء إلى هنا ليراك ويقدم مع رؤيته لك تقديره واحترامه لجدك وقدرتك على المضي قدماً في تلقي هذا النوع من العلم، فدراسة الطب في أمريكا شيء كما فهمت صعب للغاية.. لكن لا تنسي بأنني هنا بمفردي، ولا أقوى على أن أدعو من لا أعرف لتناول طعام الغداء معي فإن كنت ترفضين دعوتي فلا أقل من أن أقبل دعوتك التي

لم توجهيها لي فما رأيك؟

نظرت إليه فقالت:

ـ لم أعتد أن أدعو رجلاً إلى مائدتي، هذه واحدة. والثانية لم أعتد أيضاً أن أقبل دعوة رجل إلى الغداء أو العشاء فأنا هنا رغم ما أجد من حرية أثق بأن هذه الحرية لها حدودها فلي كما تعرف عاداتي وتقاليدي.

وصمتت.. فقال:

ـ ولكن هناك رسالة أخرى من أختي نسيتها في حقيبتي.. فهل تسمحين بأن آتي بها إليك؟

وبهزة من رأسها قالت:

ـ لا بأس. سأنتظرك ريثما تعود..

ـ وتعدينني بأن لا تقرأيها هنا؟

ـ ولماذا تريدني أن أعدك؟

ـ لأنها هي التي طلبت مني أن أقول لك ذلك.

ـ لا بأس ما دامت هذه رغبتها.

وصمتت فمضى يحضر رسالة أخته إليها حتى إذا ما سلمها الرسالة قفزت من مكانها ومضت مودعة وتركته في مكانه يفكر في أمر هذه الطبيبة فهي نسيج يغاير جميع من يعرف، ولقد انتظر طويلاً أن تحادثه دون جدوى حتى إذا ما آن موعد عودته تحدث إليها قائلاً:

ـ لطالما انتظرت أن أسمع جوابك على رسالة أختي.

وأجابته:

ـ ولكنني لم أعدك بأن أجيبك عليها بل وعدتك بأن أقرأها بمفردي!

ـ وكيف وجدتها؟

وأجابت (سمية):

ـ لم أكن أود أن أتحدث في أمرها إليك، ولكنك ما دمت قد طلبت ذلك فإليك ردي: قد تكون أختك صادقة في إحساسها وشعورها وحبها لك

وصداقتها لي لكني أرفض الفكرة فكرة الزواج بهذه الطريقة، ومع هذا هناك في بلادي الكثيرات من الحرائر اللواتي يوافقن على هذه الطريقة لأنهن يعشن هناك، أما أنا فجل تفكيري ينحصر في أمر واحد هو أنني أريد رجلاً يعرف عن حياتي بمقدار ما أعرف عن حياته وهذا حقي، فهل ترضى بأن تفضي بأسرارك إليّ؟

فأجابها:

ـ أفكر في الأمر.

صمتت فقال:

ـ لا أعتقد أن في إفضائي بكل هذه الأسرار ما يساعد على تثبيت الصورة لشخصي الضعيف أمامك ومع هذا لا مانع عندي إذا كنت ترغبين.

ـ اتفقنا، إذن قل لأختك بأنني سأعود إلى جدة مع نهاية الربيع، وعندها سنلتقي ونفكر بصوت مسموع.

ـ وهل سيسمح لك أهلك بأن أراك هناك؟

ـ ومن قال إنهم لن يسمحوا؟ أنسيت أنني طبيبة؟

ـ وهنا أليس من حقي أن ألقاك مرة ثانية؟

ـ لا. لأن هذا الأمر لا يمكن أن يتم فأنا هنا في دراسة ودراستي تأخذ كل وقتي. ثم أنسيت بأنني لا أستطيع لا الغداء ولا العشاء معك لأنني لم أستأذن من أبي أو أمي؟

وسكتت قليلاً ثم قالت:

ـ سأترك لأختك صديقتي رسالة كتبتها في فندقك وأرجو أن تحملها معك، لكنني في هذه المرة آمل أن تقرآها معاً أنتما الاثنان!

وأنهت مكالمتها في هدوء وأخذ هو يفكر في كل هذا الذي جرى ويجري معه. فهذه الفتاة وإن كان أحس بشيء من الجرح لأنها لم توافقه على رغبته بأن يمضي معها بعضاً من الوقت إلا أنه يحترمها فهو يؤمن بأن هذا هو المطلوب أن تفعله كل فتاة من بنات جزيرته.

ولكن.. أوليس كل هذا الذي قالته فتاته مجرد كلام؟ ثم أيضاً أليس من

المعقول أن تكون فتاته قد تمارس في حياتها هنا مع الغرباء ما لا ترضى أن تمارسه معه؟

لقد صمم على أن يختار طريقة جديدة يستطيع من خلالها التعرف على فتاته وما تصنع في بلاد الغربة. ربما قد تكون ظروف الحياة في المجتمع الذي قد تعايشه قد أثرت في نفسيتها بعض الشيء وربما يكون العكس ومع هذا فهو الذي تبنى الترافع عن المرأة في جزيرته أمام كل أولئك اللواتي تعرف عليهن وعرف الكثير من أسرارهن.

أيمكن أن يصبح هكذا عاجزاً كما يبدو أمام هذه المرأة التي تبدو أمامه لغزاً.. فلقد حل كثيراً من الألغاز بالنسبة للكثير من الفتيات اللواتي عرفهن، ولكن فتاته في نظره لغز جديد يجب أن يعرف كنهه.. وإلا فماذا يمكن أن يقول عنها إذا صح بأن تصرفاتها معه إنما هي تصرفاتها نفسها مع الجميع؟

أويعني هذا أن المجتمع الذي ولد وعاش فيه يستطيع أن يضع بصماته على الإنسان أي إنسان بحيث لا يمكن لأي مجتمع آخر أن يضيف إلى هذه البصمات بصمات أخرى؟

لا يدري وإن كان يود من كل قلبه أن يعرف كل شيء عن قدرة المجتمع في تأصيل القيم في نفوس أبنائه وبناته.

ولقد عقد مقارنة بينه وبين هذه الطبيبة؛ فخرج من هذه المقارنة بأنه على الرغم من جميع ما ارتكب من أخطاء إلا أنه في قرارة نفسه لا يقل إيماناً بجدوى التقاليد التي أورثها المجتمع لإنسانه في كل مكان وزمان..

الفصل الثامن

أيام العمر تمضي وهو في مكانه يتذكر أحداث الأمس القريب والبعيد معاً. . فلقد عادت فتاته إلى بلادها مرفوعة الرأس شامخة الأنف بعد أن نالت أرقى درجات العلم في الغربة، وزفت إلى ابن عمها الذي لم يكن يظنه مناسباً لهذه الفتاة، فهو وإن كان دمث الأخلاق حسن السيرة إلا أن تحصيله العلمي لم يتعد درجة البكالوريوس في الإدارة، خرج بعدها إلى معترك الحياة ليكون واحداً من أقدر شباب بلاده على توظيف كفاءته في جمع المال بأسلوب مغاير لأساليب الآخرين، فلقد امتاز (سعيد) بقدرته على توظيف كل من يعمل معه لصالح العمل فكانت مؤسسته أول مؤسسة تشرك العاملين في أرباحها.

ولكم أحس بالغصة لأن فتاته قد فضلت ابن عمها عليه، ولكنه لم ييأس حتى إذا ما اقترن هو بواحدة من بنات الأسرة انصرف إلى تربية أبنائه وعينه على تلمس أخبار سعيد وأسرته حتى إذا ما كبر ابنه، طلب من زوجته أن تخطب لابنها ابنة (سمية) هذه التي كانت تجمع إلى جميل الخصال طلعة بهية ورائعة.

وأمعن فكره في الأيام والليالي والسنوات التي أمضاها طائراً يفر في كل مكان حتى تلك المحطة التي أصدر فيها القومسيون عدم صلاحيته للطيران!

ولكم أحس بالعجز وهو يتطلع إلى زملائه وهم يرتدون ملابسهم في طريقهم إلى الطائرة وهو يقبع في مكتبه في غرفة العمليات يرقب سير العمل في هدوء يشوبه شيء من الحزن لابتعاده عن أجواء الفضاء

لكن أكثر ما كان يغريه أنه، وبعد أن رزق من زوجته بثلاث بنات وابن واحد، كان كأي رجل همه أن يرى أول حفيد له بعد أن أصبح على أبواب الخامسة والخمسين من العمر.

قد تكون أيام الشباب قد ولت لكنها علمته مع مضيها أشياء كثيرة يحس بها تداخل نفسه رغم إحساساته بالراحة. . فحياة الأسرة التي يعيشها منحته منطقاً جديداً فلسف به حياته رغم كل الذي كان، لكن حزنه كان يشتد عندما يقارن بينه وبين هؤلاء البنات اللواتي رزق بهن وهذا الولد الذي أصبح على أبواب الزواج لكنه مع هذا صورة مغايرة لشبابه الذي أفناه.

ربما كان الأمر كما يقولون: الورد قد يخلف الشوك. . وقد يكون العكس، وولده هنا نسيج مغاير لنشأة أبيه لم يعش الحياة التي عاشها بل غدا صورة لجيل جديد يراه دائماً في صور أصدقاء ابنه الذين اختارهم بعناية.

إن فرط الإحساس بالشبع يجعل الإنسان يحس بكثير من الغنى، وولده هذا الذي يراه أقرب صلة بجده الذي ذهب، ولهذا فهو يحاول دائماً أن يتذكر بأنه قد عاد إلى الصواب.

هذا الصواب الذي يعايشه ابنه منذ أن ولد. . وكأنه يحاول أن يعطي صورة قريبة لإنسان اليوم الذي عرف طريقه إلى الهدى منذ بداية حياته.

وهو لهذا يحس بالسعادة التي يشوبها شيء من الضيق، لأن بناته قد كبرن وهو يخاف عليهن كل الخوف.

لماذا؟

ربما لأن حياته لم تكن على حال يرضاها. . وربما لأنه عرف الأبواب الخلفية للحياة فخاف عليهن منها. ولكن قد تكون (هدى) أقرب إلى طبيعة أمها من (سهى) وقد تكون (ثريا) أقرب إلى طبيعة أخيها من طبيعته، ومع هذا يجد الخوف يتسلل إلى قلبه فهو يتمنى أن يراهن جميعاً في بيوت الزوجية.

وقد كان. . لكنه كان على حساب البنات، فأزواجهن الثلاثة كانوا أقل شأناً ومستوى من بناته. ولكن ما يضيره وهن على كل هذا الحب وهذا الوفاق؟

وانبرى يرمق الأسرة الجديدة بعد أن كبر الجميع وأحس بأنه وإن كان قد أخطأ في الأصل لكنه عاد بقلبه ونفسه وقدميه إلى طريق الصواب.

ترى ماذا يخبىء المستقبل لابنه الذي كبر؟ وهل سترضى ابنة (سمية) بابنه زوجاً؟

أسئلة كثيرة وجدها تطل فجأة في ذاكرته تنتظر الجواب لكنه آثر أن يدع الجواب لها ولأمها هذه المرة واختار أن ينسى للحظات وهو يطالع وجه زوجته الضاحك يطل عليه في هدوء لتقول له:

ـ لقد وافقت الأم على قران ابنتها بفريد.

وانتابه شيء من الذهول حاول أن يخفيه عن عيني زوجته وقال:

ـ كنت أظنها لن توافق.

وأجابته زوجته في استغراب:

ـ ولماذا لا توافق؟

ولم يجب عن تساؤل زوجته وإنما آثر أن يصمت فبادرت زوجته بالكلام:

ـ ربما لا تعرف ابنك، فهو على درجة كبيرة من الأخلاق ترغب فيه كل فتاة.

وأمن على كلماتها وكأنه يحاول بهذا أن يدفع بها للخروج من الغرفة ليبقى بمفرده مع أفكاره التي أخذت تتوارد في أشكال عجيبة ومتباينة عادت به لأيام كان يعرف عنها الكثير والكثير لكنه يريد أن ينساها لأول مرة فالسفر عبر العيون مسؤولية ضخمة يجب أن يراعي ظروفها أولئك الذين كانت العيون محطة راحة لأحزانهم وأفراحهم وقلوبهم وأمانيهم.

ترى كيف يعاود قلبه هذا الخفق المتتالي الفريد؟

إنه يكاد يسمع نبضاته تطل من وراء الضلوع في سمفونية حزينة ابتدأت بالذكرى ولم تنته بعد وإن كانت قد امتلأت جوانبها بالكثير الكثير من الألم الطاغي.

غداً سيرى ماذا صنعت الأيام (بالطبيبة) التي عجزت مدنية أمريكا أن تصهر عودها أو تعجمه، فهل استطاع الزمن أن يضيف لسطور الماضي سطوراً جديدة؟ ربما... من يدري!.

قلوب ملّت التّرحال

(رواية)

ط ١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

السرّ الكامن في أغوار النفس لا يمكن أن تغتاله الأيام ولا السنون، لأنه دائب الحركة سريعها. يختار مكانه على الأرض في قدرة عجيبة، تملأ أصداؤها رحابة الأفق وزوايا الطريق وهضاب الأرض وجبالها الشامخة.

وهي امرأة من نار، صيغت بأبهى حلة فكانت أشبه بأفروديت اليونان التي ألهبت خيال الكتّاب والشعراء والأدباء في العصور الاغريقية القديمة، وجهها في لون بياض الثلج، لكنه الثلج الذي تطلع الشمس خلفه، فيتورد ويشفّ، وجسدها جسد أنثى جعلت منها دمية جميلة تتناولها الأيدي بالحنان والتوجيه، وقلبها رغم صقيع المدينة التي ولدت على أرضها «استكهولم» أشبه بفرس متأجج العاطفة يغالي في الانتقاء ويصمم على أن ينال من الحياة أجمل ما فيها وأشهى.

تركت بيتها هناك على بعد عشرة كيلومترات من العاصمة استكهولم، وهي في الرابعة عشرة دون أن تحمل شيئاً من متاع الدنيا سوى مؤهلاتها التي ذكرت، حتى إذا ما جابت الآفاق خرجت بتجارب كثيرة جعلت منها الفارسة والرياضية وصاحبة أجمل قدّ وأحلى منظر. امتهنت الاستعراض بجميع أنواعه فكانت من أجمل عارضات بيوت الأزياء في باريس وأمريكا واليونان. وساهمت في حرق أعصاب الكثيرين ممن كانوا يشاهدونها وهي تختال على خشبات المسارح في ملابسها الزاهية وأنغام الموسيقى تأمر الأقدام الرقيقة وهي ترقص على براعم الورود في شوق ومحبة.

عرفها فلم يعرف الهدوء، وانتابه دوار لذيذ شعر به يزلزل كيانه وهو برفقة ذلك الصديق الذي أحب.

كان كلّ شيء في الفندق الكبير (ميريديان أثينا) يثير الدهشة لروعة المنظر وجمال التنسيق، لقد عاصر المكان منذ ذلك اليوم الذي وضع فيه صاحبه أول حفنة من تراب على أرضه الواسعة، لكن هذه الدهشة لم تزل تصيبه وهو يدقق في ملابس الغانية التي جاءت تمشي على مهل برفقة صديقه.

وقد فاته أن يلقاه في المطار فآثر أن يلقاه هنا، ونظر إليه وإليها فلم تختلج عيناها أو عيناه، وسأله عنها فقال في برود:

ـ «سوزان».

فضحك من كل قلبه وهو يصافح اليد التي امتدت بين نظرات صديقه الذي كان يرافقه وهي تلسع الظهر الأبيض المشوب بالحمرة في إصرار من يأمل في التهام ذلك الطبق الرائع.

وانتهت حفاوة الاستقبال بحفاوة أخرى، فلقد أصرّ صديقه على أن يحضروا حفل اللّيلة خارج الفندق، فأراد أن يعتذر، فقالت هي:

ـ أوتعتذر وأنا معك؟

فأجاب في هدوء بلا، فقالت:

ـ كنت دائماً أكره هذه الكلمة فأنا أحبّ نعم أكثر، لكنني هذه المرة أحببت هذه «اللا» اللعينة منك.

وضحكوا وساروا جميعاً وأعين الفضوليين ترقبهم في هذه المدينة التي قلما ترمق الأعين فيها إنساناً ما، لكنها سوزان! وفضّل الصمت وإن لم ترض هي صمته، حاولت أن تثيره فقالت:

ـ وماذا بعد.. لديّ حكايا كثيرة أحبّ أن أقولها لك.. فأنا وأنت نحبّ الخيل ونكره الرياح.

وأجاب:

ـ وما يدريك أنني كذلك؟

قالت:

- مشيتك تدلّ على أنك فارس ماهر وأنا كذلك.. ولكن رغم حبّي للحصان العربيّ فأنا أكره فيه أنه لا يحتفظ بقدراته عى اقتحام المسافات الطويلة كبعض الرجال مثلاً!

ضحكت سوزان وتابعت:

- لهذا سأتركك.

وظنّها كلمة عابرة منها لا معنى لها، غير أنّها مضت.. لكنه وهو في طريقه إلى المطار رآها وسألها:

- إلى أين؟

قالت:

- إلى القاهرة.

ونظر حوله عسى أن يجد إنساناً معها، فقالت:

- أوتعتقد أنني سأذهب بمفردي؟

قال:

- لا.

فقالت:

- سأرافقك هذه المرة دون أن تطلب مني ذلك.

فضحك وظن أنها نكتة. كيف عنَّ لهذه الأنثى أن ترافق مثله وقد ذهب منه رواء الشباب وبدأ الشيب يغزو مفرقه؟

فضحكت وقالت:

- أعرف ما تفكر به.

- وفيم أفكر؟

- في كلّ ما قلت، فأنت تظنّ أنني غير صادقة، لقد حاولت أن أظفر بمصاحبتك وركوب الخيل هنا، فلم أظفر سوى بنزهات ليلية أكرهها لأنّها تقعدني إلى كراسي الليل، فأنا أحب الضوء والشمس والحصان والحركة و.. أنت..

ـ أنا يا سوزان؟

ـ ولماذا تعجب؟

ـ لأنني لم أسمعها منذ أن ماتت أمي وتركتني يافعاً في التاسعة عشر من العمر.

جاء صديقه، فصمت ولكنها لم تصمت ومضت رابطة الجأش تحمل حقيبتها الصغيرة وأشياء أخرى لا يدري كنهها، وهو لم يعتد رؤية ما تحمله النسوة عند السفر، ومضوا في طريق واحد، والتقت الأيدي في رحلة صمت مثيرة كأجراس موسيقى راقصة تتسلل إلى الأعماق وتغوص في الأوردة والشرايين تمنحه الراحة والهدوء وشيئاً يسيراً من الأمل. ونظر إليها فرأى في عينيها زرقة البحر وهدوء الجبال وشموخ الأنثى. كان كلّ شيء فيها مثيراً للتساؤل، فهي امرأة ذات إطار غامض لا يمكن لإنسان أن يكتشفه من أول نظرة، ولما طالت نظرته إليها، قالت:

ـ أوتعرف أنّني أحب الصحراء؟

وبلا تردد سألها:

ـ أي صحراء؟

ضحكت ضحكة ناعمة ولم تقل شيئاً، فاحترم صمتها، وأخذوا طريقهم إلى الطائرة ونظرات من حولهم تلسعه وتدغدغ إحساسه في آن واحد، فهي أشبه بجنية قدمت لتوها من أعماق البحار الدافئة.

واحتوته الطائرة وصديقه، تجوب به آفاق هذه الدنيا الصغيرة، وعاد بذاكرته لأيام مضت يوم كان يعيش هناك في مكان ما على مقربة من النيل الخالد يرمق أشجار النخيل وهي ترسم مع أشجار الصفصاف العتيقة لوحة رقيقة المعالم منحها راسمها كلّ مضامين ومعاني الجمال.

ترى.. كم من السنين مضت على كل تلك الذكريات؟

وسرح بخاطره في أضواء الشمس وهي تتسلل عبر النافذة الصغيرة فلم يشعر بيدها وهي تحاول أن توقظه من حلم طويل، ولكنه شيء نادر الحدوث، فعلى كراسي الطائرة التقت عيناه بعيني واحدة من بنات جلدتها في طريق عودته

من أمريكا إلى كوبنهاجن، وأخذ يقارن بين الأولى والثانية لحظات قصيرة لكنها كانت كافية لأن يقتنع بأن من هي على مقربة منه أجمل وأبهى وأعطر!

ونظر إليها على أمل أن يكتشف من عينيها ما تخفيه في أغوار نفسها، لكنها كانت تلملم ما بخاطرها. وكانت تحاول أن تخفي أفكارها عنه، فآثر الانتظار على مضض لكنها لم تمنحه الفرصة لأن يهتدي ثانية إلى أفكارها هي لأنها كانت أكثر من خبيثة.

الفصل الثاني

كلّ شيء في فندق شيراتون مصر الجديدة يدلّ على الاستعجال، فمباني الفندق وردهاته وكلّ شيء يوحي أن من قام ببنائه قد راعى الوقت بمقدار ما كان يراعي الوصول بالعمل إلى النهاية في أقرب وقت ممكن.

موظفو الاستقبال ينظرون في دهشة إلى القادمة الغريبة، يمسكون بجواز سفرها، يتطلعون إلى الوجه الأبيض الأنيق بكثير من الفضول وكأنهم يحاولون أن يقرأوا ما بين السطور بلا جدوى، والصالة ملأى بصنوف من البشر جاءت من كل حدب وصوب، كلّهم اختار القاهرة لإشباع هوايته في رؤية الآثار التاريخية من جهة، ولكون الحياة الاقتصادية في مصر أرخص كثيراً من أيّ بلد آخر.

وملابس النساء أشكالٌ متقاربة متنافرة، في بعضها الكثير من الذوق وفي أكثرها تنافر في الألوان. المرأة الأمريكية العجوز تبتسم في وجه القادمة وكأنّها تسألها في هدوء عن الأرض التي جاءت منها حتى إذا ما مرّت بها انسلّ عطرها في أنفها يزيد شهيتها للفضول.

وهو في طريقه إلى المصعد كان يرمق رشاقة الأقدام الشابة في صمت وهي تتطلع إلى الناس في لامبالاة عجيبة حتى إذا ما احتوت الغرفة رقم (٤٠٠٣) القادمة، كانت هناك غرفتان أخريان، ألقى بنفسه على سرير إحداهما، وألقى صديقه بنفسه على سرير الغرفة المجاورة.

أحداث الأيام التي أمضاها في أثينا تطل في إصرار غريب من بين ذاكرته تعلن عن رغبتها في الظهور كشريط سينمائي، أحداث

تقضّ مضجعه فلا تدع للنوم سبيلاً لعينيه رغم أن الوقت كان أسرع ممّا يتصور.

دقّات أنيقة على الباب الخشبي، وينفتح الباب ليجدها أمامه وابتسامتها الواسعة تسبق خطواتها الرشيقة. استأذنت في الدخول لكنها لم تنتظر جوابه، ومضت إلى كرسيها لتمسك بزجاجة عطره المفضل ثم تلقي بشي من رذاذها خلف أذنيها في دلال، استغرب ذلك منها، فضحكت وقالت:

ـ تلك عادتي فأنا أحبّ عطور الرجال والرجال.

صمت ولم يتكلم ومضى يكمل ارتداء ملابسه حتى إذا ما انتهى منها قال:

ـ هيا بنا.

قالت:

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري، فصديقي هو المكلّف بترتيب أمور السهرة في هذه المدينة.

ـ لكنك قلت بأنك تلقيت دراستك هنا؟

هزّ رأسه إيجاباً، وقال:

ـ لكن السنوات باعدت بيني وبين هذه المدينة.

وخرجا ليجد صديقه قد سبقهما إلى الصالة ومضى يدردش مع امرأة ظنّها إيطالية بادىء ذي بدء، حتى إذا ما استمع إلى لكنتها عرف أنها أمريكية ومن ميامي، تطلعت إلى سوزان وقالت:

ـ أهي ملكة جمال؟

هزّ رأسه وأجاب:

ـ نعم، لكن أحداً لم ينصبها في مسابقة بل نصبت هي نفسها على عرش قلوب الناس.. كلّ الناس.

ضحكت سوزان وقالت:

ـ أنت إنسان يعرف كيف يجامل.

ـ وما يدريك بأنني أجامل؟

ـ لأنك ظللت طوال الرحلة صامتاً كالدهر دون كلام.

ـ يكفي أنني أسمع أنفاسك وأتحدث إلى نبضات قلبك في هدوء.

واتّسعت البسمة على شفتيها وقالت:

ـ ماكرٌ أنت يا صديقي تعرف كيف ترضي غرور الأنثى، أية أنثى، ولكنك غير قادر على. . .

ـ وهل تظنين أنّك أنثى؟

فنظرت إليه.

قال:

ـ أنت شيء يغاير كلّ النساء، صُنعت من طينة مغايرة من عطر يسمونه على ما أظن عطر ليلة الميلاد.

وصمت. . فقالت:

ـ ميلاد من؟

ـ ميلاد الجنية العذراء التي يتحدثون عنها في بطون الكتب، ولهذا كنت أنت مزيجاً من. . والـ. . .

وصمت، فقالت:

ـ قلها. . قلها ولا تخف فلقد قالتها أمي من قبلك، وقالها أول رجل في حياتي.

ـ وكم كان عمرك؟

ـ الرابعة عشرة من العمر.

ـ وأين كان ذلك؟

ـ على مقربة من دار شقيقتي التي سبقتني إلى الطريق.

ـ وهل كانت أختك في مثل حلاوتك؟

ـ لا أظن.

قالتها في اعتداد وأكملت:

ـ وإن كانت أمي أجمل وأحلى.

ـ وأين هي الآن؟

ـ مع أبي، تستمطر السّماء اللّعنة على اليوم الذي التقته فيه.

ـ لماذا؟

ـ لأنه من طينة غير طينتها، فبمقدار ما هو رقيق وأنيق، فهي موضوعية وفوضوية وإن كانت جميلة مثلي.

ـ مثلك تماماً؟

ـ مثلي تماماً في كلّ شيء.

ـ أوتصفين نفسك بأنك فوضوية و. . .

ـ نعم، أنا كذلك متى أردت وغير ذلك عندما تريد.

ونظرت إلى عينيه في ولهٍ شاء أن ينساه ولأول مرة في تاريخ حياته، بلا جدوى.

الفصل الثالث

الساعة تدقّ الواحدة بعد منتصف الليل، وكازينو الليل مليء بروّاده من جميع الأصناف، لكن شيئاً غريباً يجعله ينظر إلى تلك الأماكن نظرة اشمئزاز.

صوت المغنية يضيع بين رداءة أجهزة الصوت التي اختارها صاحب المحلّ. وكلمات الأغنية مزيج من كلمات لا لون لها ولا أصل ولا حتى رائحة.

وسحر حمدي، الراقصة تمّد عينيها من بين الكواليس لتخرج إلى السكارى في ترنّح، وهو وهي على الكرسي المتعب ينظران إلى الناس في تعالٍ عجيب.

كلّ شيء في الصالة يوحي بالفقر. حتى ملابس النسوة اللواتي جئن لزيارة الملهى مزيج من الألوان الصارخة المتنافرة، المساحيق على الوجه رخيصة باهتة، والأضواء أشبه بالقناديل التي وضعت بارتجال.

ارتفعت الأكفّ تصفيقاً للجسد الذي يتلوّى على الأرض في حركات سمجة توحي بالغيظ أكثر من الأسى.

كانت أعين الناس منصبة كلّها على الجسد الذي ضمخته صاحبته بأفضل أنواع العطور، أما الوجه فلم يأخذ منهم سوى نظرة عابرة.

تطلّع إلى وجه سوزان فرآه يشرق بمعانٍ كثيرة، سألها:

ـ ما رأيك؟

فقالت:

ـ تريد رأيي في الراقصة؟

قال:

ـ نعم.

قالت:

ـ جسد رائع، ولكنه ممتلىء قليلاً لكثرة الأكل.

ـ ورقصها؟

أجابت في اقتضاب مصير:

ـ قد أرقص أفضل منها.

ـ والموسيقى؟

ـ رديئة رداءة كل هذا الذي أراه في هذا المكان.

ـ لأجل هذا لم أعد أزور القاهرة، فأنا أعرفها يوم كانت في مجدها تسبق مدن منطقتها في الجمال والأناقة والنظافة.

ومضى يرمق الراقصة وهي تؤدي عدة رقصات شعر بعدها بأنه في حاجة إلى الراحة.

سألته وصديقه:

ـ أولا يكفينا هذا العناء؟

فقالا على الفور:

ـ نعم.

وأخذوا طريقهم إلى ميناهاوس.

كان يحسّ بالاختناق داخل علبة الليل لكنه شعر بالراحة بعد أن دخل المكان الجديد، وامتدت أكثر من يد لتحيته من رواد المكان، عرف للتو أولئك الذين صافحوه رغم أنه باعدت بينه وبينهم السنون، هو فجأة يراهم أمامه ويعاود رحلته مع الذكريات.

نظر ممدوح إلى سوزان وقال:

ـ أهي زوجتك؟

ولم يجب خوفاً من أن يكون في إجابته شيء من الإحراج، لكنها بادرت وقالت:

ـ لا، بل صديقة وصديقة بالإكراه.

وضحكت وضحك ممدوح.

ومضى إلى المائدة يطالع برنامج الحفل في هدوء وذكريات السنوات الطويلة تكاد تقفز من بين عينيه في سلسلة من المناظر الفريدة.

ترى أين زميلات الأمس... أين سوسن ونوسة وفريدة وفردوس؟ وأين أصدقاء الأيام الماضية؟ ذهبت الأيام والسنون بهم جميعاً ولم يبق له سوى خيال هزيل يبعث ببعض الدفء في نفسه التي كبرت وشاخت قبل الأوان.

نظر مرة أخرى إلى وجه سوزان هذه الصغيرة الشقراء التي أقضّت مضجعه وجعلته أسير ظروفها. حتى إذا ما التقت عيناه بعين واحدة ممن كنّ يتابعن برنامج الحفل، رآها تهمس في أذن صاحبها وتحدثه ببعض كلمات ثم تبتسم وتحني رأسها وكأنها تحييه.

ترى من هي؟ لا يدري، لكن سوزان لم تترك له فرصة التفكير بل قالت في شقاوة محببة:

ـ إنها تنظر إليك وكأنها صديقة قديمة.

فتح عينيه على كلماتها، ليجد صديقه سمير زوج فردوس الزميلة القديمة يصافحه في شوق وهو يقول:

ـ أين أنت طوال هذه المدة؟

رحّب به وطلب أن يجلس بجانب سوزان فأبى وقال:

ـ أتريدها أن تنغّص عيشتي هذه الليلة.

ضحك وقال:

ـ من هي التي تهابها يا سمير؟

فردوس صديقتك طويلة اللسان، إنها ترمقني وترمقك بنظرة قد تكون نسيتها أنت، أما أنا فلا، لأنها دائماً معي.

وتوجه من مكانه ليسلّم على فردوس بكلمات مغمغمة، حتى إذا ما عاد إلى مكانه قالت سوزان:

ـ أنت على ما يبدو مشهور جداً هنا يا صديقي.

ولم تصمت بل واصلت حديثها قائلة:

ـ فهذه الأنثى (وأشارت إلى فردوس) على ما أظنّ لها معك ألف حكاية وحكاية.

قال:

ـ لا.

فأطبقت فمها عن الكلام ومضت تزدرد بضع لقيمات من صحنها في هدوء، وهو معها ومع فردوس ومع ذكرياته التي خبت، ولكن سمير لم يرد أن يصمت بل واصل قائلاً:

ـ دائماً أنت هكذا، حظّك يفلق الصخر مع النساء.

وصمت قليلاً ثم عاود حديثه:

ـ ترى أهي صديقتك منذ زمن؟

قال:

ـ بل صديقة جديدة.

وضحك.. قال سمير:

ـ ليت لي واحدة مثلها، فلقد كرهت الحياة مع الأخرى طوال هذه المدة.

وصمت.

ـ أوتقولها يا سمير؟

ـ وما يمنعني من أن أقول ما قلت؟ فالنساء يصطدننا نحن الرجال حتى إذا ما وقع واحد منّا في مصيدتهن أطبقن عليه ومضين ينغّصن عيشه، ولكن على فكرة.. هل أنت متزوج؟

أجاب:

ـ نعم.

ـ وكيف تسمح لك زوجتك أن تخرج مع مثل هذه الغانية؟

قال:

ـ لا عليك، هي قصة طويلة لا يمكنني أن أختصرها لك في كلمات قليلة لكنني سأشبع فضولك، فقد قرّرت أن أكتبها في رواية، وعندها ستقرؤها.

قال صديقه:

ـ أنت هكذا، لديك من الأعذار ما تستطيع به أن تقفل الأبواب على أيّ سؤال يأتيك، ومع ذلك فمبروك يا عمّ فالظاهر أن عهد الصرمحة لم ينته بالنسبة لك رغم الشيب الذي غزا مفرقك.

فضحك ولم يعقب.

وترك سوزان تتحدث إلى سمير وكأنه يقول لها كل ما يعرفه عنه، هو الذي جلس مبتسماً وهو يستمع لحكايا الأمس التي لملمتها الذاكرة وقذفت بها إلى جوف المجهول.

الفصل الرابع

لا شيء يثير الرغبة في نفسه لأن يواصل رحلة التفكير في الماضي لولا هذه الصبية التي دخلت حياته فجأة، فقلبتها رأساً على عقب، وفي فترة قصيرة وكأنها تسطو على خزائن قلبه العامرة بذكريات شتى أسدل عليها الستار فترة طويلة.. حتى إذا ما جاءت هي أخذت تقلب أوراقه القديمة في شقاوة محببة.

ولقد أحسّ بأن سنوات عمره قد عادت به إلى أيام زهرة حياته بعد أن التقاها والتقى معها بأشياء كثيرة كانت حبيبة إلى نفسه ثم نسيها رغماً عنه، ولكنه اليوم يجد صعوبة بالغة في أن ينساها، لا لأنه يذكرها، ولكن لأنّها تذكره بها.

وأطبق عينيه كمن يحلم ليرى مسيرة حياته منذ ذلك اليوم الذي غادر فيه مسقط رأسه من المدينة متوجهاً إلى مكة المكرمة ثم القاهرة فأمريكا، ولقد تطورت أساليب الحياة في بلاده وانفتحت آفاق كثيرة له ولأمثاله ممن استطاعوا أن يستوعبوا مشاكل العصر على أرضهم في أسلوب تميز بالفطنة والحذر، ولكن ذلك كله أوجد شيئاً من الفجوة بين الماضي الذي عرف عاداته وتقاليده، وبين الحاضر الذي يعايشه.

كثير من التقاليد الغريبة زحفت على أرضه من مصر أولاً فأوروبا فأمريكا وهو يعرف أن بعضها كان أكثر قساوة وأشد تخريباً لجسم البيئة الأصلية التي انكفأت تلملم جراح الفوارق بين المجتمعات التي تدّعي التقدم ومجتمعه الذي عاصر القيم فارتفع بها هنا وهناك..

هناك من سقط مضرجاً بدمائه في ميدان الحضارة، وهناك من

استطاع أن يقضي على حواجزها لأنه عرف ويعرف معنى الحضارة، وهناك الأصالة التي رضعها منذ صغره. ومع هذا تبدو هذه الصبية أمام عينيه في شقاوتها المدللة وكأنها تحاول أن تسلب عقله الذي ظنّ أنه استطاع به أن يهدّىء من روع هذا الخافق المعذب، فلطالما تحدث إليه أصدقاؤه عن شهيته القادرة على هضم مشاكل الحياة في حيوية حسده عليها حتى أقرب أصدقائه.

ومضى يقارن بين أيامه التي مضت وأيامه التي يعيشها ليجد شيئاً كبيراً من التشابه والتنافر فهو يعيش الإثارة بجميع عناصرها على أرض هذا النيل الخالد.

لقد تحدّثت إليه سوزان عن تجاربها في الحياة وقالت كلّ شيء بلا خوف وبلا تردد وكأنها تروي حكاية لذيذة سمعتها من إحدى جدّاتها، وهو هنا يرى الحكاية وكأنها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.. كثيرات غيرها قابلهن في حياته في برن «واستكهولم» وفي ميامي وجنيف وفي الشرق الأقصى وفي هامبورج وحتى في شوارع «نابولي» القديمة.

لكنها نسيج يغاير كلّ هؤلاء، لا لأنها جميلة كجمال الصباح الندي، ولا لأنها فاتنة فتنة ورود الليل وهي تفوح رائحتها على من حولها، وإنما لأنها واضحة وضوح الشمس.. لا يمكن أن تداري، أو تلفّ، أو حتى تدور في حلقات مفرغة.

كانت تعرف ما تقول، وتعرف أيضاً كيف تأخذ ما تريد، ولقد استطاعت هذه الأنثى أن تسرق قلبه وكأنها تلهو. لكنها وهذه الحقيقة، وهو الخبير بالنساء والعارف بخبايا أفكارهن، يجدها شيئاً جديداً ومثيراً وشهياً أيضاً، فلقد ملّت الطفلة حياة الضياع واشتاقت لأن تعيش لأيام مع واحد مثله يكبرها كثيراً كوالدها الذي تركته مع أفراد أسرته لا يستر جسده شيء ما.

علماء النفس يصفون هذه الحاجة، حاجة الأنثى لمثل من في سنّه إلى صفات يعرفها، ولكنه اليوم يرى أن كل ما قيل حول هذا الموضوع ليس دقيقاً أو حتى فيه بعض الصدق.

فهذه الأنثى غيّرت مفاهيم حياته ومنحته القدرة لأن يستشف من معاشرته لها نوعاً من التجربة لم يكن يصل إليه لو لم يعرفها، فهي تحب الخيل، وترغب أن تزفّ إلى رجل الصحراء لتأتي بوليدها، وقد اجتمعت فيه صفات أهل

الصحارى، وجمال سكان البلاد الباردة، وهي باردة كالجليد عندما تراها العين لأول وهلة حتى إذا ما أثيرت أصبحت زنجية تغلي دماؤها غلياناً!

أهي حمقاء أم مجنونة؟ لا هذا ولا ذاك، إنها شيء آخر يضاف إليه أنها تعشق التجربة، والتجربة في كثير من الأحيان عدو للأنثى الصالحة ولقد مرّت بتجارب كثيرة حدثته عنها، وحدّثها هو الآخر في خبرة عن تجاربه فكانت تصيخ سمعها لتعرف المزيد.

ترى.. أوتودّ هذه الأنثى أن تكتب شيئاً لبنات جنسها؟ لقد سألها ذلك السؤال فقالت بلا اهتمام:

ـ لا. وإنما أريد أن أعيش حياتي.

وأجابها:

ـ ولكنك تعيشينها.

فقالت وبهزّة من رأسها:

ـ نعم، وسأستمر في معايشتها حتى أغادر هذه الدنيا، فلقد ورثت من أمّي قدرتها على الصمود ومن أبي قدرته على الاختيار، أويكفيك هذا؟

وصمتت، فآثر هو الآخر الصمت قليلاً. تحركت من مكانها في الصالة الكبيرة في الفندق واندفعت تقبل فتاة سمراء واسعة العينين، دقيقة الملامح، أميل إلى القصر منها إلى الطول في شوق وحب حتى إذا ما انتهت قدمتها إليه باسمها مجرداً من أيّ تعريف «كريستينا». وابتسمت كريستينا وقالت:

ـ أنت إذن من هناك؟

ولكنه لم يعرف معنى الكلمة وقد حاول كثيراً أن يعرف ما ترمي إليه دون جدوى، وفي الطريق إلى الكافتيريا اتّخذت كريستينا مجلسها على مقربة من الباب وكأنها في انتظار عريسها الذي تحب.

دار الحديث بين سوزان وكريستينا بالإنجليزية في البداية حتى إذا ما ملّت كريستينا هذه اللغة اختارت الألمانية التي تجيدها.

ولقد حاول أن يعرف شيئاً مما كان يدور بين الاثنتين، ولكنه لم يصل إلى النتيجة لأن مفردات هذه اللغة التي تعلّمها صغيراً لم تمكنه إلا أن يلمَّ بجزء

قليل من الحكاية.

ولقد سأل سوزان عن القصة فضحكت وقالت له كل شيء عن كريستينا، فهي واحدة من بنات أشهر مصمم أزياء في أثينا، ملّت المهنة واختارت أن تزف لواحد من أبناء الصحراء، وهي اليوم تمضي شهر عسلها مع رفيق دربها في القاهرة لتستعيد ذكريات وطنها مع صديقاتها اللواتي يعشن فيها بعد أن غادرت أديس أبابا إثر الانقلاب الذي نجح على هيلا سلاسي.

هذه الفتاة السمراء التي عاشت حياتها في أثينا وفق معدلات جديدة لا يريد أن يتذكرها، جعلته يتمعن في وجهها لفترة خالتها كريستينا شيئاً غريباً سألته عنه فقال:

ـ كنت أقارن بينك وبين هذه الجنية.

وضحكت كريستينا وقالت:

ـ ولكنني مللت حياة البحار الباردة وآثرت أن أظلّ جنية سمراء من حوريات النيل الذي التهم قبل الإسلام العديد من الفتيات الجميلات بلا سبب.

لقد أهدى الإسلام لبنات الفراعنة وللقبطيات الحرية، حرية اختيار الزوج الذي تريد أن تزف إليه بدل أن تزفّ إلى هذا النيل الذي يقتلع الأشجار في طريقه.

كم من النساء ذهبن ضحية غدر هذا النيل الذي تحب.

وكم من النساء حماهن دينكم من أن يصبحن عرائس لنهر جاحد يقتل من يحب وهو يبتسم حتى إذا ما فاضت روح من أحب ألقى بها في غياهبه لتعيش فترة من الزمن تطفو بعده جثة ذهب رواؤها وجمالها وكلّ شيء فيها.

الفصل الخامس

الطريق إلى المقطّم أشبه برحلة عذاب قصيرة في شهر «يونيو»، فجوّ القاهرة في هذا الشهر أشد حرارة مما كان يعهد، وهي بجانبه بملابسها الشفافة الخفيفة ترقب الطريق في لهفة وكلّ شيء في وجهها يثير كوامن الشوق لاحتواء هذا الجسد النحيل الممشوق القامة، وامتدّت يدها تداعب وجهه في رقة حتى إذا ما التقت عيناه بعينيها قالت:

ـ صدقني، لم أكن أتصور أنني سأصبح سعيدة بما أنا عليه الآن، فقد كنت أظن أنها مجرد نزوة تنتهي بمغامرة صغيرة أعود بعدها إلى أثينا أو باريس أو أي مكان في الدنيا لأحكي عنها لصديقاتي حكايا طويلة..

وصمتت، فقال:

ـ وكيف أصبحت هذه المغامرة؟

نظرت إلى وجهه وقالت:

ـ سمّها مغامرة، فأنت أكثر دراية مني بمعاني الكلمات، لكنني وبعد أن عرفتك أصبحت أقول عنها إنها فرصة استطعت أن أهيّئها بأسلوبي حتى إذا ما أطبقت بيدي عليها وجدت نفسي أذوب حسرة على الأيام والليالي التي كنت أجوب فيها المدن كفراشة لا تستقرّ على رأي، أبحث عما لا أعرف.

ـ وما رأيك الآن؟

ـ رأيي أن أعود معك إلى الصحراء.

ـ هكذا بلا زواج؟

ـ ولماذا يتزوج الناس إذا كانوا قادرين على إسعاد أنفسهم بدون هذه الروابط التقليدية القديمة؟

ـ ولكنك تعلمين بأنني لا أقدر على اصطحابك إلى الصحراء.

ـ لماذا؟

ـ لأنني زوج، وأولادي يماثلونك سناً.

ـ وهل هناك ضير أن يكونوا كذلك؟

ـ لا . . . لكن تقاليدنا لا تسمح.

فضحكت سوزان وقالت:

ـ لأول مرة أسمع منك هذه الكلمة التي لا تعني بالنسبة لي شيئاً ما، فالتقاليد وليدة ظروف اصطنعها الإنسان، وهو القادر على كسرها واجتيازها والقفز عليها إذا أراد.

ـ لكن الأمر ليس بهذه السهولة.

ـ إذن. تعود معي إلى أثينا وباريس واستكهولم، فأنا قادرة على كسر كلّ التقاليد هناك، وسأقدمك لوالدي على أنك صديقي الذي أرغب أن أمنحه ما يريد. . أوتصدقني أن أبي سيهزّ كتفيه بلا مبالاة. وسيترك لك غرفته لتمضي لياليك معي فيها، فهو حريص على تلبية رغباتي!

ـ نزواتك على ما أظنّ؟

ـ سمّها ما تريد، لكنها في نظري رغبة قد تستمر وقد تضعف، ويوم تضعف سأقول لك ذلك بكل وضوح.

ـ وتتركينني؟

ـ وماذا في الأمر؟ وهل في الإمكان أن نبقى معاً إذا مللتني أو مللتك؟

نظر إلى وجهها وأخذ يتمعن في معاني كلّ كلمة قالتها. ويبدأ في المقارنة بين هذه الأنثى وزوجته، فلا يخرج من المقارنة بما يريد، فهو يحبّ زوجته ويحترمها ويقدّرها، وهو في نفس الوقت يشتهي هذه الأنثى ونزواتها، ويدرك

أن ما يصنعه مجرد حماقة، وحماقة كبيرة، لكنه لا يزال مشدوداً إلى هذه القطة اللعوب.

ويطول صمته حتى إذا ما وصلا إلى الإصطبل اندفعت سوزان كطفلة لتمسك بعنان واحد من الخيول التي امتلأ بها الاصطبل وتمضي في سباق عنيف مع نفسها، بينما كان هو مكانه ينظر إلى الأفق ليرى الماضي يثير غبار الشك في صدق أحاسيسه تجاه هذه المرأة التي جاءت صدفة ولا يدري إن كانت ستذهب صدفة أم لا.

التفت إلى صديقه فوجده يحملق هو الآخر في الأفق وكأنه يبحث عن حلّ لمشكلة صديقه التي بلا حلّ. فآثر أن يمضي معه في اللعبة وجلّ همّه ألا يقع الفأر في المصيدة، حتى إذا ما التقت العينان لمح على وجه صديقه مسحة حزن.. فقال:

ـ ما بك، كمن فقد عزيزاً عليه؟

أجابه صديقه بضحكة باردة:

ـ وهل تركت لي ما ألهو به؟

ـ أوتقصد سوزان؟

ـ ومن غيرها؟

ـ وما ذنبي إذا كانت قد اختارت ليالي الشتاء الطويلة؟

ـ ما هذا أعني، ما أعنيه هو أنني أنا وأنت إطار غريب لصورة فريدة. انظر إلى عيون النسوة وهنّ يرمقننا في دهشة لفوارق شتى لا أظنها تخفى عليك، فأنا بذقني المدببة، وأنت بشعرك الأشيب ووجهينا اللّذين يحملان بصمات الصحراء أبعد من أن نكون لهذه المرأة..

وأشار إلى سوزان التي أخذت تلوح بيديها وهي تقفز حاجزاً من الحواجز الخشبية بحصانها الأشهب الذي اختارته، حتى إذا ما ابتعدت جاءت إحداهن وكانت تتحدث بالإنجليزية وسألته:

ـ أهي سكرتيرتك؟

أجاب بهزّة من رأسه:

ـ نعم.

وكان يكذب، وتابعت الفتاة حديثها:

ـ أظنها محظوظة لأنها تلهو مع مديرها كما تريد.

وضحكت.. رأى صاحبه من واجبه أن يتجه بالحديث منحى آخر، فأخذ يسألها عن عملها وبلدها وهي تجيب في اقتضاب، حتى إذا ما جاءت سوزان إليهما قال لها:

ـ أويمكن أن تقدمي يا سوزان هذه الخدمة، فتدعي الآنسة سالي لترافقنا رحلة الليلة هذه؟

فأجابت:

ـ ولم لا؟

ومضت تتحدث إلى الفتاة وكأنها تعرفها من مدة حتى إذا ما أقنعتها بالدعوة طلبت منها أن تعود إلى الفندق قائلة:

ـ سأذهب من الغد إلى فندقك وأحمل متاعك لتمضي أيامك هنا معي في غرفتي فأنا وحيدة.

وضحكت سالي وقالت:

ـ أمنيتي أن أعيش في فندق مثل فندقك، فأنا كما تعرفين ليس بمقدوري أن أسكن فيه، لكنني سألبّي رغبتك وألبّي رغبتي وطموحي في أن أعيش يوماً أو يومين كأصحاب الملايين.

وعادا إلى الفندق ليجدا عند مدخل الصالة الكبيرة فتاتين جميلتين شابتين تنظران إليهما وإلى الفستانين في دهشة حتى إذا ما اقتربت إحداهن وسألت سوزان:

ـ أولست أنت فلانة التي مثلت الفيلم الفلاني؟

أجابت سوزان:

ـ نعم.

وأشارت إليه وقالت:

- وهل هو المخرج؟

فأجابت سوزان:

- لا. بل صديقي.

وتابعت قولها:

- أويكفيك هذا؟

فقالت الفتاة:

- لا، وإنما أرغب أن أعرف عنه وعنك المزيد، فأنا صحفية من مدينة بروكسل في بلجيكا..

ولم تنتظر سوزان أن تكمل الفتاة حديثها بل قالت:

- تعالي إلى غرفتي بعد ساعة فلربما استطعنا أن نتحدث في حرية.

- وهل ستقولين لي كل شيء؟

- ولِمَ لا ما دمت تريدين ذلك. إننا يا صديقتي، أنت وأنا أول من نتّخذ من ماضينا أسلوب حياة نستطيع من خلاله أن نكسب ما يعيننا في حياتنا من أن نعاود المسيرة ذاتها.

- وهل في حياتك كلّ هذه الإثارة التي تجعل منها مادة للقراءة؟

وأجابت سوزان في كلمات هادئة:

- ثقي أن في حياة كل إنسان ما يستحقّ أن يقرأ ويفهم أيضاً، فالتجارب وليدة الاحتكاك كما أنها قد تكون وليدة الصدفة.. ولربما استطعت أن أمنحك شرف أن تكوني واحدة من أشهر الصحفيات إذا كنت تصرّين على ذلك!

ومضتا إلى غرفتها حتى إذا ما استقرتا فيها اندفعت أصوات ضحكاتهما إلى أذنيه تتسلل رويداً رويداً فأحسّ بشيء من النعاس، أخلد بعده إلى النوم لتعاوده أحلامه هذه المرة في شيء من الخشونة حتى لينهض من فراشه وكأنه يريد أن يعطي الطريق لصوت ضميره الذي صحا وهو نائم.

الفصل السادس

سنوات الضّياع تختلف بين شخص وآخر.. تظهر وتختفي وفق أسلوب مقنع قد يكون من الصعب على غير من عاشها أن يدركه، وهو أبعد من أن يكون قد مارس كل هذا الضياع الذي يحس به يلفه من رأسه إلى أخمص قدميه.

صديقه وسوزان وسالي في الغرفة المجاورة، ولا يفصل بين الغرفتين سوى باب خشبي كان يحب دائماً أن يراه مفتوحاً. وأصوات الفتاتين تعلو وتخفت وضحكات صديقه تطغى في بعض الأحيان على ضحكات الشقيتين، وهو يفكر في الأمس وفي الغد، حتى إذا ما هدأ التفكير.. أسرع إلى فتح حقيبته الصغيرة يبحث عن عنوان لصديقة تذكرها في تلك اللحظة، أما زوجته فهو يعرفها جيداً فهذه المرأة الفاضلة التي ملأت بيته سعادة وجلالاً وإشراقاً لا يعرف كيف يكافئها على التزامها الصمت عن نزواته، فهو متأكد أنها تعرف الكثير عنه ولكنها تداري وتحاول أن تترك أمر إصلاح نفسه للزمن.

ترى، لو عرفت كيف يمضي لياليه هنا، هل ترضى عنه؟ وإن تغاضت فهل يرضى هو نفسه.. عن تصرفاته؟

لحظات قصار كان خلالها أشبه بناسك يعاود مسيرة الفضيلة في هدوء، لكنها لحظات فقط عاد بعدها إلى الاستماع لأحاديث صديقه والفتاتين حتى إذا ما انسلّ صوت سوزان إلى أذنيه وهي تقول:

ـ نعم أحبه، وأحبه من كل قلبي رغم فوارق السن التي بيننا..

أحسّ بسعادة غامرة تملأ قلبه!

نظر إلى وجهه في المرآة فرأى ابتسامة فخر تملأ وجهه، وهي

تنطق سعادة بكل ما سمع، فهو على ما يبدو ما يزال يتمتع بميزات كثيرة، لكنه مع كل هذا يتوق إلى أن يكون كذلك دائماً ولا يدري.

ومضى إلى الغرفة المجاورة وهو يبتسم حتى إذا ما سأل سوزان عن ذلك الذي تحبه، قالت وفي هدوء:

ـ هو أنت يا صديقي.

وصمتت، فنظر إلى صديقه الذي كان بدوره يتابع نظراته في وجه سالي الفتاة البلجيكية التي قالت على الفور:

ـ لك حق في أن تحبيه، فهو على ما يبدو أكثر رجولة من كثير ممن عرفتهم في بلادي وغيرها أثناء ترحالي المتواصل.

وتدخّل صديقه في الحديث فسأل سالي:

ـ وما رأيك بي؟

فقالت:

ـ قد لا تنقص عن صديقك في رجولته بشيء، لكنك، وهذه الحقيقة، لا يمكن أن تكون أفضل منه رغم شبابك.

ـ ويوم أصل إلى سنه؟

ـ لا أدري!

أجابت سالي وتابعت:

ـ ولكن دعنا من ذلك وتعال نكمل حديثنا مع سوزان، فأنا قد أصبحت مشدودة إلى هذه العفريتة الصغيرة. فأنا وأنت معاً الليلة وغداً وحتى نسافر.

ـ وسوزان؟

ـ لصديقك الذي يحاول أن يتغابى كثيراً.

والتفتت إلى سوزان وغمزتها بإحدى عينيها وكأنها تحرّضها على أن تحتفظ برجلها.

أما هو فقد كان كمن يغشى مثل هذه المجالس لأول مرة، حتى إذا ما أحسّ بذراعي سوزان يطوقان عنقه، نسي كلّ من بالغرفة، ومضى يطالع صفحة

وجهها بكثير من الحب يخاله في البداية مجرد نزوة لكنه عندما يفكر في كلّ الذي جرى بعد ذلك يثق بأنه كان على خطأ كبير. وامتدّ الصمت فترة من الوقت، حتى قطعته سالي قائلة:

ـ سوزان، لقد حان وقت الخروج فتعالي نستكمل زينتنا في هدوء بعيداً عن رقابة هذه العيون الصحراوية التي تلسع أجسادنا كشمس أغسطس الحارة.!

وضحكتا سوياً، أما صديقه فلم يضحك، وإنما مدّ يده إليه ومضيا إلى الغرفة الأخرى وكلّ واحد ينظر إلى الآخر في بلاهة، حتى إذا ما طال صمتهما انفجر صديقه في وجهه ضاحكاً وهو يقول:

ـ لم أكن أظنك قادراً على أن تستعيد شبابك بمثل هذه الصورة، إن فتيات اليوم يملن لأصحاب التجارب العنيفة وأنت واحد منهم على ما يبدو!

ترى... هل تحبه فتاته فعلاً أم إنها ترى فيه شيئاً جديداً ومثيراً تأمل أن تخرج بعده من حياته وقد أضافت لتجاربها تجربة جديدة؟

ولكن مع كل ما يفكر وتفكر سيسير حتماً مشواره كله إلى النهاية، وسيرى كيف تنتهي قصة سوزان هذه التي أحبها رغم أنفه.

ولقد شعر لفكرته هذه بشيء من الاطمئنان حتى إذا ما بدت سوزان أمامه، سارع إلى لقائها ومضى الجميع إلى صالة الفندق في طريقهم إلى فندق الهيلتون، حيث كان هناك «سمير» وزوجته في انتظارهم ولقد أحسّ بشيء من الخوف يساور قلبه لأول مرة وهو يرى ما فعلته الأيام بزوجة صديقه التي كانت زميلة يوماً ما، وما لبثت المغنية التشيلية تلقي بأغنيتها على أسماع الجميع:

«وتكبرت أنت..

وبقيت أنا.. أنظر إليك.. كأنثى تحاول أن تمسك بأطراف ثيابك..

يا صديقي الذي أحب..

كل ما فيك يملأ قلبي حناناً عليك...

لأنك أنت الذي منحتني الراحة..

ومنحت قلبي الهدوء..

لم تكن بالنسبة لي مجرد حبيب...

بل كنت كل شيء... تأمل أن تجده أنثى صغيرة مثلي...
فإذا أحببتك أكون صادقة في حبي لك... وإذا كرهتك أكون كاذبة..
يا صديقي الذي أحب».

وتمسك المغنية ميكروفونها وهي ترجو الجميع أن يردّدوا معها بعض كلمات أغنيتها:

«غداً سترحل...
وسأبقى أنا أنظر إلى المرآة لا لأرى وجهي، وإنما لأرى وجهك...
وجهك المهيب، وقد بدت تغزو مفرقك أسلاك الفضة...
يا صديقي الذي أحبّ...
غداً سترحل...
وسأرحل أنا.. لألحق بك.. ونلتقي ونغيب عن هذه الدنيا لنعيش معاً على أرضك التي لم أرها.. وإن كنت رأيتها في عينيك.
يا صديقي الذي أحب...
يا أجمل وجه رأيت.. عشت في خاطري ودمي فترات من الوقت..
ولهذا التقيتك.. لأرى الصحراء في عينيك..
ستبقى لي... وسأكون لك...
يا صديقي الذي أحب».

ويصمت صوت المغنية، ويتعالى التصفيق من كل جانب، وتلتقي عينا سوزان بعينيه في لحظة سرحان لذيذة ودّ لو أنها تبقى إلى الأبد ولا تنتهي، لكن صوت سمير أخرجه هذه المرة من أحلامه ليقول له:

ـ ترى.. كم دفعت للمغنية لتقول ما قالت؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنت.

ـ ولماذا تظن ذلك؟

ـ لأن الأغنية بمواصفاتها تنطبق عليك وعليها.

ـ وما ذنبي إذا كانت الحقيقة هي التي تظل دائماً؟

ـ أوتظن ذلك؟

ـ نعم.

وتدخلت سوزان في الحديث، قالت:

ـ لست وحدك الذي تعتقد أن الحقائق تظل وتكبر، بل أنا أيضاً.

وضحكوا جميعاً إلا هو، فقد كان في تلك اللحظة أشبه بغربال ضخم حاول أن يلقي عن طريقه أفكاره كثيرة، منها ما يحب ومنها ما يكره.

وهو في لحظات السعادة لا ينسى أكاذيبها، وإن كان يحاول أن يفلسف أكاذيبه هو مع نفسه، أكاذيبه التي اختارها بعناية.

الفصل السابع

بين خبايا الصدور تستقر ذكريات الماضي كعرائس بحر. . . كزهور برية. . . ارتبط شذاها بعبير الأرض السمراء التي استندت على وسائد حريرية، جاءت هكذا فجأة كما هي الحياة، وهو يرغب أن تظل أسرار الماضي حبيسة، فلا تطل على الناس كعناقيد العنب التي أحبها وهي تتدلى من بين ثنيات الضياء ذات يوم، عندما كان يرمق الفتنة وهي تظهر ليلامس جسدها ضياء الشمس على مقربة من البحر الأزرق.

ففي مدينة «كان» عرفها، وفي «ميونخ» نسيها كما نسي غيرها يوم كان في «لوس أنجلوس» وفي طوكيو، وهونج كونج، وأمستردام، وأخيراً. . ها هو هنا في القاهرة مع واحدة من بنات استكهولم.

ترى. . . هل سيتسنى له أن ينساها كما نسي غيرها؟ أم إن جميع الأسباب التي منحته الفرصة لأن ينسى كل هاتيك الفتيات كانت على غير ما هي الآن؟

لا يدري، وإن كان قد عقد العزم على أن ينسى، ويعود إليها، إلى من أحب وتزوج، فهي من الأرض التي نبت عليها وتنفس هواءها يوم كان صغيراً.

ولقد عاهدها على أن يعود إليها ويتزوجها، وقد وفى بوعده، وزاد بأن أنجب منها أبناءه، وهو يعرف كم كانت سعيدة يوم عاد ويوم تزوجا.

زوجته تختلف عن كل من عرفهن، لأنها رضعت لبناً يغاير في خصائصه الأشياء التي عاصرتها وتعاصرها كل بنات حواء اللواتي

عرف، فالأصالة شيء لا يمكن أن يقدَّر بثمن في هذه الدنيا التي أصبحت ملأى بأنواع كثيرة من المعادن الرخيصة.

ولكن. . أين كلّ اللواتي عرف من هذه التي تجلس على مقربة من سريره تنعم بحمامها اللذيذ وتدندن بين الفينة والفينة باسمه في كلمات مفهومة وغير مفهومة؟

قد يعشق هذه الفتاة التي التقاها صدفة، وقد يحبّها، ولكنه قبل كل هذا وبعده يعشق الحرية ويكره الارتباط إلا بتلك التي تقبع في بيته تنتظر عودته بعد كل رحلة، وهذه على ما يبدو لا تؤمن بالارتباط إلاّ لفترة، وإلا ماذا يمكن أن يقول عن فتاة لم تتعدَّ العشرين من العمر ولها من التجارب مثل ما له؟

الحياة خارج بلاده تؤكّد أن المرأة بلا عمر، ولقد حاول طوال أيامه التي أمضاها أن يكون لها بقلبه وبعقله وجسده، لكنه لم يستطع لأن صورة الأخرى ماثلة أمام عينيه وهو يعرف معنى تواجد صورتها هكذا دائماً.

وتطلّ عليه فتاته في إشراقة مضيئة هدمت كل تفكيره، فغدا أسير هذه الطلة. نظر إليها وقال:

ـ صدقيني كنت أفكر في أن أغادر غرفتي قبل دقائق، فقد كرهت أن أظلّ أسيرها في انتظارك وأنت تلهين مع سالي وتتحدثان في سفسطة طفولية.

وأجابت سوزان:

ـ ومن قال لك إنها معي؟

ـ أين هي الآن إذن؟

ـ مع صديقك تحاول تدوين أفكارها في هدوء.

وضحكت، فقال:

ـ ألا تدخلين؟

ـ وماذا تراني أفعل؟ فأنا كما أبدو بثياب الحمام. .

ودخلت لتضع جسدها على سريره. .

قالت:

ـ لا أدري كيف أصفكم أنتم أبناء الصحراء، ففيكم فراسة القادر، وشهامة الفارس بالإضافة إلى أنكم تجيدون اختيار كلمات الغزل فتهيئون لإناثكم مزيداً من الراحة والاستقرار، إنني أشعر بسعادتي هذه الأيام مكتملة لدرجة أنني أود لو أكون واحدة من حريمك.. إذا أردت!

قالتها في صدق وعفوية، ثم أردفت:

ـ إن المرأة في المجتمعات التي يسمونها متطورة، أكثر من سلعة يلعب بها الرجل بأسلوبه، فهو يدخل في روعها المساواة، وإن شئت الحق فهي مظلومة لأنها تعمل أكثر من الرجل، تساعده في البيت والعمل ومع هذا ينظرون إليها كدمية يستخدمونها في إعلاناتهم ومجونهم أيضاً. فكم من الجاسوسات استخدمن أبشع استخدام من أجل الرجل، وكم امرأة كشفت عن جسدها تعرضه مقابل شهرة زائفة.

إن مجتمعكم أفضل في نظري من أيّ مجتمع فأنتم تخافون على المرأة وتمنحونها الأمان والحياة والاستقرار.

ـ أويعني هذا أنك راغبة لأن تعرفي شيئاً عن ديننا الذي جعلنا كذلك؟

ـ قد يأتي ذلك اليوم، فأنا أعرف بأن نظام الأحوال المدنية في السويد قد أخذ بعضاً موادّه من دينكم، ولكن ليس لهذا الأمر رميت، وإنما أردت أن أقول ما أسعد المرأة التي تعيش في مجتمعكم المثالي.

ـ لكن هناك واجبات كثيرة أيضاً عليها، فالمطلوب منها أن تكون داخل إطار روابط زوجية مقدسة.

ـ أعلم ذلك، وأثق بأن هذا يكفي المرأة ما دام هناك طلاق تستطيع بموجبه أن تستعيد نفسها عندما ترى أنها لا يمكن أن تستمر مع رجلها. ولكن ما لنا وكل هذا؟ أوتعرف أن الأيام التي قضيتها معك هنا هي أسعد وأجمل أيام حياتي، ففي الغد ستعود أنت إلى بلادك وأهلك، وأعود أنا إلى عملي الذي بدأت أحسّ بثقله على كاهلي، ولا أكتمك، فأنت السبب في كل ذلك، ومع هذا فسأكتب لك وأنا أعبر الشاطىء اللاّزوردي في الرفيرا، وسأذكرك في عيون كلّ من ألقاهم من الرجال، وسأظل أحس بأنفاسك تتردد حولي وأنا أتابع سباق موت كارلو، وسأكتب إليك مطولاً، ولا أدري إن كنت أنت تستطيع

أن تفعل ذلك، لكنني أطالبك به، رغم يقيني أننا سنلتقي بين الفينة والفينة، فأنت وأنا كثيرا الترحال ولا بدّ أن نلتقي.

وصمتت، فقال:

ـ وما فائدة اللقاء؟

وأجابت:

ـ كثيرة هي الفوائد، وأولها أن نربط مشوارنا الصغير بمشوار آخر فلربما كان في جعبة الأيام ما يمنح قلبينا الاستقرار، فأنا أؤمن بأن الزمن قادر على أن يصنع أشياء كثيرة.

ـ وماذا تريدين أن يصنع لنا؟

ـ لا أدري.

قالتها في صدق وعفوية، وتابعت حديثها:

ـ أنت أعرف بما يعشش في خيال بنات أوروبا اليوم، لا شيء سوى الحرية، وهذه الحرية في نظري هي الخراب الأول الذي قضى على الأسرة والبيت وطرد السعادة من المجتمع الذي نعايشه.

ـ وتقولينها؟

ـ ولماذا لا أقولها ما دامت هي الحقيقة؟ فلقد مللت حياة الترحال رغم جمالها، ولولا أنك غير قادر على احتوائي في دارك وفي أرضك لأسرعت باللحاق بك لكنني لا أريد أن أكون عبئاً ثقيلاً ينغّص عيشك، فأنا شابة بإمكاني أن أجد طريقي بين أنياب هؤلاء الذئاب الذين تراهم يرتدون أفخر الثياب ويرتادون أفضل الحانات والمطاعم.. ومع كل هذا لندع ذلك ولنحتفل هذه الليلة بساعات الوداع، ففي الغد سترحل أنت وسأرحل أنا!

الفصل الثامن

الصحافة الأوروبية تتحدث بإعجاب عن أول فيلم مثلته الممثلة السويدية (سوزان)، بعنوان (الصحراء)، ففي مجلة الباري ماتش ريبورتاج طويل مع الممثلة التي وصفتها المجلة بأنها النسخة المتفوقة من الممثلة القديمة «أنجريد برجمان». ولقد قرأ ما كتبته الصحيفة الفرنسية «باري ماتش» عن هذه الفتاة المتمردة التي لم يستطع ترويضها سوى واحد من أبناء الصحراء، أبت أن تذكر اسمه رغم محاولة الصحيفة الكشف عن اسمه وعمله.

وفي مجلة (شتيرن) الألمانية كان هناك حديث آخر لا يختلف كثيراً عن الحديث الذي نشرته (الباري ماتش) وإن كانت هناك تفاصيل عن الأيام التي أمضتها سوزان مع صديقها الصحراوي في القاهرة، وكيف أن هذا الصديق قد استطاع أن يأسر قلبها لدرجة تجعلها تضحي بكل هذا المجد السينمائي الكبير مقابل أن يدعوها هو للالتحاق به.. ولقد أحس ساعتها بمزيج من الحب والتقدير لهذه الإنسانة التي عرفها لأيام، ومع هذا فهي لا تنسى الأيام التي أمضتها معه فتتذكره في كل حديث، رغم أنه لم يحاول الاتصال بها بعد عودته إلى بلاده.

احتفظ بأعداد المجلات والصحف في درج مكتبه، وكان يقرأ كل ما كتب المرة تلو الأخرى، وفي كل مرة يخرج بمعان جديدة جعلته يبدو أمام نفسه كمراهق صغير ودّ لو يطير إليها ويحتويها بذراعيه.

ولكن ليس كل ما يرغبه الإنسان في مجتمع كمجتمعه يستطيع أن

يصنعه فماذا سيكون حاله لو باحت باسمه هذه المرة؟ هل ستصمت عن ذكر اسمه.. أم إنها ستقدمه لأصدقائها وصديقاتها ومجتمعها الذي تعايش؟

أراد أن يكتب لها رسالة، فمضى يكتب ويكتب.. ثم يمزق ما كتب، وأخيراً رضي عن كلّ الذي كتبه، فدفع بالرسالة إلى البريد ليأتيه ردها جريحاً كقلبها الذي عرفه.

صديقي العزيز...

«قد تكون أنت في صحرائك أقدر على قراءة أفكاري كعادتك، فأنت أنبل إنسان عرفته وكنت حريصة على ألا تنساني، ومع هذا لم أجد لي مكاناً في قلبك، ربما كان ذلك لظروفك التي عرفت، وربما لأنك لم تكن تريد ذلك.

صدّقني لقد فوجئت وأنا أقرأ رسالتك، أنك ما زلت تذكر سوزان.. بشقاوتها ونزواتها التي عرفت.. أحسست بأنني فرحة جداً بهذه الرسالة لأنها جاءت في حينها، وكنت أظن أنك لا تقرأ ما أكتبه وما تكتبه الصحف عني، ولكنني وجدتك أكثر فهماً وهضماً ومتابعة لكل ما يكتب.. ولقد أعجبتني عبارتك التي قلت فيها إنني صورة أفضل من مواطنتي «أنجريد برجمان» مما جعلني أفكر كثيراً في هذا الذي قلت.. فأنجريد كما تعرف تركت «هوليود» لتلتحق بروسيليني في إيطاليا، والإيطاليون أقرب الأوروبيين إلى الشرق الأوسط، فدماؤهم الحارة، وعاطفتهم الجياشة ليست مستوردة، وإنما موروثة، ولقد قرأت في كتب التاريخ كيف أن الفتح الإسلامي قد جاب جنوب «إيطاليا» وفرنسا وبعض بلدان أوروبا لكن الشيء الذي لم أستطع فهمه هو... هل تريدني أن ألحق أنا بك كما لحقت أنجريد بروسيليني الإيطالي؟

يا صديقي العزيز. لا بدّ وأنك قرأت ما قلته عن رجل الصحراء الذي علّمني الحبّ والذي أدين له بكل نضارتي وشبابي من جهة، وبقدرتي على تحمل أعباء العمل الذي أمارس من جهة أخرى.. ولم أذكر اسمك حباً وخوفاً عليك، فأنا لا أزال أحن إلى أيامي معك، وأعتبرها ذروة ما كنت أصبو إليه، ففي مجتمعي الذي أعايش أرى أنواعاً من الناس كلهم يجرون ورائي، ولكنني أنا الذي أجري وراءك اليوم، فهل ترى بصيص فائدة من ذلك؟

لقد أنار لي خطابك طريقي وأعطاني الأمل وإن كنت لا أتشبث بكل

الآمال وأكتفي على الأقل بأن أراك، إذا كنت قادراً على رؤيتي، وإلا قل لي كيف يمكن أن ألقاك لأفعل؟

لقد طلقت حياة العبث وأصبحت أكثر هدوءاً من السابق وملأت فراغي بهواية جديدة هي الرسم. . ويوم تأتي إلى مرسمي ستجد لك أكثر من صورة وستستغرب لأنني رسمتها من الذاكرة وكأفضل ما تكون، ولو شئت لأهديتك واحدة من هذه الصور التي جسدتها بعض لوحاتي والتي تمثلك في أوضاع مختلفة. . ولكن لا تخف فلن يراها سواك.

لك حبي وصداقتي وإلى لقاء.

سوزان»

ترى. . هل يصدق كل ما قرأ. . أم إن كل ما كتبته هذه الأنثى مجرد هذيان؟ إن المرأة في كثير من الأحيان لا تفرق بين الحب والامتلاك، أو تريد سوزان أن تضيفه إلى قائمة من تمتلك؟ ذلك أمر لا يستطيع أن يؤكده لأن ظواهر الأمور لا تعني هذا، كما أن بواطنها قد تؤكد العكس. ولكنه وهو في مكانه غير قادر على تحديد مكانه في قلب هذه الأنثى، فالأيام التي أمضاها على قصرها غير قادرة على منحه ما يرغب أن يعرفه، وهو اليوم أكثر التصاقاً ببيته وأرضه، لكن هذه الرسالة قلبت كثيراً من الموازين في عقله الراجح، سيهمل أمر الرسالة وسيلقي بها في سلة المهملات بعد أن يمعن في تمزيق كل حرف فيها!

ولكن لماذا يمزّقها؟ سيحتفظ بها وينساها أو يتناساها. . ثم يتركها يوم يرحل ليعرف أولاده حقائق هذا الأب الذي هو بالنسبة لهم شيء آخر، لا يماثله أي أب. . وسيعرف أولاده أن الإنسان هو في حقيقته مزيج من الخير والشر معاً وهو أيضاً كذلك.

ارتاح بعض الشيء لتفكيره هذا. . ومضى يلقي بالرسالة في صندوقه الذي يحتفظ فيه بأشيائه الصغيرة، وهو يحدّق في سقف الغرفة، حتى إنه لم يسمع صوت ابنه يستأذن في الدخول، حتى إذا ما أحسّ بوجوده التفت إليه بكل جوارحه وحبّه وحنانه، ونظر إلى وجهه نظرة شعر بها شيئاً آخر يعلو على كل

شيء في هذه الدنيا فهو أكثر هدوءاً ورزانة، ويملك كل مقومات الخير في نفسه أضعاف ما يملك، وابتسم وهو يستعرض حياة ابنه الذي أحب، حتى إذا ما سأله «خالد»:

ـ ما بال والدي يفكر اليوم بعمق؟

قال في عفوية:

ـ أفكر في غدك الذي سيأتي، فالغد كما تعرف يا بني ينتظر مفاجأتك لي، وأنا مشوق لأن أرى أحفادي، فلربما كانوا أحسن مني ومنك يا بني. .

وضحكا سوياً.

الفصل التاسع

الناس في المدينة الصغيرة أكثر استمتاعاً بالأصيل وهو يرخي شعور الذهب ليختفي وراء الأمواج المتلاطمة.. وهو وحده على الشاطىء الهادىء يرمق السماء الصافية بعينيه اللتين تبحثان عن النجوم، وذكريات الأمس القريب والبعيد تتلاحق في مخيلته.

شاطىء «كان» الذي كان يعجّ منذ الصباح بالنساء اللواتي جئن من كل مدينة وقرية بحثاً عن لقمة العيش والمتعة والحياة، كل واحدة منهن لها أمنية، هذا الشاطىء يكاد يصبح خلواً من الناس عندما يختفي قرص الشمس من السماء الزاهية.

وهو لا يدري ماذا يصنع، فهو يعرف أن «سوزان» صديقة اليوم والأمس هنا، دون أن تعرف أنه هنا.. ينظر إلى فندق «الكارلتون» ومزيد من الفضول يسيطر على حواسه حتى ليفقد قدرته على الصبر، ثم مضى يقفز الدرج الصغير ليأخذ طريقه إلى فندقه، فقد يجد في غرفته بعض العزاء عن هذه الأفكار التي تراوده.

لماذا لا يراها ويتحدث معها؟ ولكن ترى كيف تستقبله بعد كل هذه السنوات؟ وهل بمقدوره أن يكذب على زوجته التي جاءت معه إلى هذه المدينة؟

وتلتقي عيناه بعيني زوجته، فيحسّ بشيء من تبكيت الضمير، فهذه المرأة التي شاركته حياته لا تدري عنه إلا أنه زوجها فقط.

ومضى إلى الحمام يزيل عن جسده أملاح البحر وهو يدندن بأغنية قديمة أحبها كثيراً ولم ينسها، حتى إذا ما انتهى من حمامه تناول ملابسه في عناية ومضى يستأذن زوجته في السهر هذه الليلة مع

رفيق عمره الذي قابله على الشاطىء فجأة.

لم ينتظر ردّها عليه، وإنما مضى إلى الطريق يقطع أمتاره التي تفصل بين فندقه وفندقها حيث تقطن، حتى إذا ما وصل إلى الصالة وجدها تجلس بعيداً على مقربة من مجموعة من الرجال، شعر بكثير من الغيظ لمرآهم.

كانت في تلك اللحظة فتاته التي عرف، وإن كانت الأيام قد منحتها تغييراً طفيفاً، فقد كانت ملابسها خليطاً جميلاً من آخر صيحات الموضة، هي التي كانت تكره أن تعيش أسيرتها يوم عرفها، وراح يتصفح الوجه الأبيض لحظات من الوقت خالها دهراً طويلاً حتى إذا ما التفتت سوزان إليه هبّت واقفة واندفعت لتلقي بنفسها بين ذراعيه، مما جعل كل المصورين الذين يحيطون بها يلتقطون هذه الصورة.

استمع لصوتها وهي تعاتبه:

ـ أنت إذن هنا ولا أدري..

وأجابها في هدوء:

ـ لست وحدي وإنما أنا معها.

ـ أوتعني زوجتك؟

هز رأسه إيجاباً، فقالت:

ـ دعني أتعرّف إليها، فهي على ما أعتقد أكثر روعة مما أتصور.

ولم يجب، وإنما انتحى بها مكاناً بعيداً، لاحقه فيه أكثر من مصور، فكلّ من كان حول النجمة السينمائية الرائعة يود لو يعرف اسم هذا الوافد الذي يحتل كل هذا الجزء من قلب هذه الأنثى.

ومضى الحديث طويلاً متعرّجاً حول الأيام التي مضت والرسائل التي كانت تبعث بها إليه والصمت الذي استمر فلم يحد عنه قيد أنملة.

استمرت لحظات اللقاء ساعات طويلة صعد بعدها إلى جناحها ليمضي ساعات أخرى استمع خلالها إلى الأغاني التي سبق وأهداها إياها في «أثينا» «ومصر» وافترقا على أمل اللقاء.

لكنه في الصباح الباكر وبعد أن طالع صحف المدينة وقرأ ما كتبته، شعر

بكثير من الارتياح، ففتاته تعزو كل مجدها إليه على أنه معلمها الأول الذي مهد لها طريق الشهرة، ولم تحاول أن تذكر شيئاً آخر عن علاقتها به.

لكن أحدهم ـ وكان على ما يبدو سليط اللسان ـ قال في تعليقه كلاماً يدل على عدم اقتناعه بما ترويه الممثلة القديرة وقال إنها وفي هذه اللحظة تبدو أقدر على التمثيل من أي وقت آخر.

ولقد حاول جميع المحررين معرفة التفاصيل من سوزان عن معلمها، فلم يفلحوا. كل ما نشر مجرد صورة له ولها تحمل اسميهما معاً وكلمة صغيرة فقط.

ولكم حاول أن يخفي الصحيفة عن عيني زوجته بلا جدوى، وأحس بكثير من الحرج وزوجته تنقل عيناها بين صفحات الجريدة ووجهه، وكأنها تستغرب وجود صورته مع هذه الفاتنة، لكن المسكينة لم تجرؤ على أن تفاتحه في الأمر وفضلت أن تصمت، ورأى هو كذلك أن يلوذ بالصمت، حتى إذا ما أمضى النهار كله كعادته معها، استأذن في الخروج ليلاً واللحاق بأصدقائه، فقالت:

ـ ربما كنت على حق، فصديقتك الفاتنة على ما يبدو من كبار نجوم السينما.

هزّ رأسه بالإيجاب ومضى يلفق قصة معرفته بهذه الفاتنة، وحاول أن يمزج بين الحقيقة والخيال فقال:

ـ أولا يكفيك أنني قد اخترتك دونها؟

ـ وهل كانت خطيبتك؟

ـ لا.. ولكنها زميلة قديمة، عرفتها وأنا أدرس في أمريكا.

ـ ولكنها صغيرة وفي سن أولادك.

لم يعقب بشيء على كلامها وإنما مضى في ترديد كلام طويل لا يدري كيف جاءه في تلك اللحظة، فنظرت إليه زوجته في هدوء وقالت:

ـ ادعها لتناول الغداء معنا، إذا رأيتها في طريقك.

ـ سأفعل ذلك إكراماً لك يا عزيزتي.

نظرت إليه ولم تجب، فخرج من الغرفة إلى فندق «الكارلتون» ليرى رفيقته

الصغيرة تنتظره في مجلسها، فقد كانت تخاف ألا يعاود الزيارة بعد أن نشرت الصحف صورهما معاً.

اختارا البقاء في مكانهما المطلّ على الحديقة بعيداً عن أعين الفضوليين، ولما سألته هل رأت زوجته صورتهما، أجاب بالإيجاب وشرح في إيجاز كل كلامه معها وطلب منها أن تلبي دعوة الغداء معه وزوجته. لم تستغرب، بل رحبت ومن كل قلبها بهذه الدعوة، فسترى مع الغد زوجته وتتحدث إليها مطولاً، ولكن ترى.. كيف ستكون المقابلة، وهل تستطيع أن تخفي عن زوجته حبها له هي التي لم تتعود على الكذب؟ لقد عاشت في مجتمعها صريحة تتصرف كما تريد!

نظرت إليه وقالت:

ـ ثق أنني سأحاول أن أبدو طبيعية معها، وأملي أن أوفق، ثم ما رأيك هل لا زلت على رأيك بأن تكون بعيداً عني، أم إن هناك أملاً في أن أراك قريباً مني، فأسعد بهذا الأمل كما سبق وتحدثنا معاً؟

وأطرق برأسه إلى الأرض قليلاً وقال:

ـ لا أدري ولكنني أثق بأنك تقدرين موقفي فأنا وأنت من طينتين مختلفتين رغم كل ما يحيط بنا وبقلبينا من حب، لكن كل هذا لا يكفي.. ثم هناك من الأمور ما يجب أن نمعن النظر في عواقبه، خاصة فيما يتعلق بمستقبل أولادي. هذه القيود التي تشدني أكثر من أن تدعني أتصرف وفق رغباتي، فنحن في بلادنا نسير وفق ظروفنا وحياتنا وتقاليدنا وأشياء كثيرة قد تفهمينها وقد لا تفهمينها لكنها الحقيقة..

وصمت، فرأى على وجهها ابتسامة صغيرة ظللت الوجه الأبيض بشيء يعرفه ولا ينساه.. وقالت:

ـ سأبقى على وفائي لك ما دمت قادرة على أن أراك، وسنلتقي.

ـ ويوم تتزوجين؟

ـ سأقول له كل شيء قبل أن أرتبط به.. فإذا كان الرجل الذي أنشده رحبت به وإلا..

ـ وإلا ماذا؟

ـ سنترك ذلك للغد يا صديقي.

وفي الغد جاءت سوزان إلى الفندق ومدت يدها تحيي زوجته. وأخذت مكانها على الكرسي.

كانت زوجته من ذلك النوع الهادىء من النساء، ذات شخصية آسرة قوية، لكنها تخفي كل قوتها في حدتها وحديثها الذي يبدو وكأنه أشبه بمحاولة هادئة لمعرفة خبايا أمور هذا الزوج وهذه الفتاة، ونظرت إليها سوزان نظرة ذات مغزى لكن زوجته كانت لها بالمرصاد، قالت:

ـ ربما لا أكون على ذلك الوصف الذي تحدث به لك زوجي.. فأنا كما ترين امرأة منحت زوجها السعادة من خلال أولادها الذين تحب، وأنا لست أيضاً على ذلك المستوى من الجمال الذي أنت عليه، وإن كان هو لم يصفك لي.. لكني أكاد أعرفك من خلال نظراته إلى وجهي، هذا الذي أخذت تعبث به التجاعيد.

ثم صمتت.. ولما لم ترد سوزان بكلمة تابعت قولها:

ـ لم أكن أشارك زوجي إهماله لك طوال هذه المدة، فأنا أقرأ رسائلك..

ونظرت إلى زوجها قائلة:

ـ عفواً، فالذنب في هذا ذنبك.. لأنك لم تكن تحافظ عليها في مكان بعيد عن فضول زوجتك، ومع هذا فلم أكن أغار منك عليه، لا لأنه اختارني وبقي علي.. وإنما لأنني أعلم بأنه كان عاقلاً ولم يتبعك، وإلا فقد كلّ شيء، وفقد فوق كل هذا حبك الذي كنت أراه من بين سطور الكلمات صادقاً وبريئاً.. وهذا هو الذي جعلني لا أسأله حتى رأيتك معه في صورة واحدة وعلى أكثر من صفحة من جريدة، فتاقت نفسي لأن أعرفك عن قرب، وها أنت معي تجعلينني أفخر كثيراً بزوجي، فهو إنسان ذَواق يعرف كيف يختار، فأنا كما ترين لست معدومة الجمال ولكنني قليلة الحظ معه.. ربما كانت لي فضائل كثيرة لا يجدها فيك، وسامحيني على هذه الصراحة، فأول فضيلة لي عليك هي أنني وهو ننتمي إلى أرض واحدة، وهذا وإن يكن كافياً بعض الشيء

إلا أن هناك أشياء أخرى.. منها أنني لم أكن في يوم من الأيام لإنسان غيره، وهي حسنة لا يقدّرها المجتمع المتحرر كما أقرأ.

نظر إليها زوجها وقال بالعربية:

- إحسان.. هي ضيفتك!

التفتت إليه وقالت:

- هي ضيفتي وضيفتك أيضاً، ولكنها من أرض جبل أبناؤها على الصراحة، ولهذا لا أظن أنها ستؤاخذني على ما أقول.

التفتت سوزان إلى إحسان وقالت:

- كنت أشفق عليك قبل أن أراك لكنني وبعد هذه الدقائق التي أمضيتها معك، أحبك يا سيدتي وأحترمك، فهل لسيدتي أن تقبل صداقتي؟

ضحكت إحسان وقالت:

- بشروط..

- وما هي الشروط؟

- أن تتخلي عن صداقته هو!

وبالصراحة نفسها أجابت:

- لا... فهذا قد يرضيك لكنه لا يرضيني.

ثم التفتت إليه وقالت:

- ولا يرضيه أيضاً!

ألقى بناظريه إلى الأرض خجلاً من هذه الزوجة الطيبة التي تناظر فتاته هكذا بأسلوب لم يتعوده منها، وقال:

- ولماذا لا نكون جميعاً أصدقاء؟

نظرت زوجته إليه وقالت:

- هل يمكن أن تكون هناك صداقة بين الرجل والمرأة؟ أم إنك قد ألغيت من حسابك وضعك الأسري.. وتقاليد مجتمعك.. وتعاليم دينك؟

وصمتت، فقالت سوزان:

ـ ولماذا تعقدين الموضوع يا سيدتي بهذه الطريقة؟ فالرجل كما ترين هو لك دائماً، ولا أظنك تخافين أن يكون صديقاً لمن استطاعت أن تجد نفسها من خلاله، فأنا لن أسرقه منك، كما أنه هو الآخر سيرفض هذه المحاولة مني، ولهذا فنحن متعادلين في الرغبة.

ـ الرغبة في ماذا؟

وأجابت سوزان:

ـ الرغبة في أن تعيش هذه الأسرة في سلام.

ـ وما يدريك أنها ستعيش إذا بقي هو على موقفه منك؟

ـ كلّ ما مضى يجعلني ويجعلك تثقين في طهارة قلبه وقدرته على أن يكون كما تريدين.

وصمتت، فقالت إحسان لزوجها بالعربية:

ـ غريب أمرك وأمرها يا عزيزي.. إنها على ما يبدو عنيدة، وأنا كذلك.. وإن كنت أعقل منها فسأقبل صداقتها لك، فهل لك أن تزف ذلك إليها؟

وأجابها زوجها:

ـ ولماذا لا تقولينها بنفسك؟

فنظرت إليه نظرة ذات معنى وقالت لسوزان ما قالته لزوجها وبالإنجليزية هذه المرة.

لكن سوزان لم تستغرب بل فكرت وقالت:

ـ مدّي يدك يا سيدتي لنتصافى.. فأنا بعد لحظة من التفكير وجدت أنه من العدل أن أختفي من حياتكما.. لكنني أودّ أن تظلي تذكرينني وتسألين عني عندما تجدين نفسك في حاجة إلى صديقة، فأنت من معدن يغاير معادن النساء في مجتمعك، إنني أعرف ذلك لأنني قرأت كثيراً عن هذا المجتمع.

ثم التفتت إليه وقالت:

ـ من كان لديه مثل هذه الأنثى، وعلى هذه الدرجة من الجمال والذكاء والرصانة، وجب عليه أن يحافظ عليها، وأن لا يمدّ بصره إلى خارج الحدود..

وضحكت، ثم مدّت يدها مرة ثانية وهي تعتذر عن الغداء لأنها فعلاً لا شهية عندها للأكل، وقالت وهي تسير إلى صالة الفندق:

ـ سأذكرك يا سيدتي وأذكره، فهل أطمع أن لا تنسياني أنتما الاثنين؟

هزت إحسان رأسها مؤمنة، أما هو فقد كان في واد آخر، يحاول عبر طريقه أن يتذكر لحظات لقائهما هناك في أثينا، وفي «مصر» وفي «كان» ثم أخيراً وهو يعيش لحظات انتزاع حب جارف يتعلق بقلبه ويتشبث بالبقاء، حتى إذا ما قام يطرده أبى أن يزول وقاوم، وكأنه يرى في مقاومته لذة لا تعادلها لذة.

لكنه مع كل هذا يحسّ بشيء من الزهو، فامرأته عاقلة، وبعقلها استطاعت أن تبعد شبح هذه الأنثى عنها.. وبحكمتها استطاعت أن تبعد طيفها عنه.. رغم إعجابه الشديد بها.. تلك التي استولت على قلبه فترة من الزمن!

الفصل الأخير

لا شيء مهمّ بعد كل هذه السنوات الطويلة، فلقد ذهب الشباب وولى.. ولم يعد من ذكريات الماضي سوى رذاذ قليل، تشاء المصادفة وحدها أن تعيده للظهور وهو على كرسيه ينظر إلى وجه امرأته في حنان، فلطالما استطاعت هذه المرأة برجاحة عقلها أن تقفز على جميع أخطائه في محبة، لكن ما يقلق باله ويسهد ليله هو هذه الرسالة التي يحاول أن يقرأها للمرة العشرين.

لقد عرف أن سوزان ماتت.. وهي في أوج مجدها وشبابها، ذهبت ضحية هوايتها التي كانت تمارسها في محبة. لقد أودت المياه المالحة والقمر الساطع بحياة أجمل زهرة عرفها. إن الموت هو نهاية هذا الإنسان الذي يتحرك في عفوية ويكافح ويناضل في قسوة.. ذهبت وهي في قمة سعادتها تحتفل بعيد زواجها الخامس عشر على ظهر يختها الأزرق على مقربة من المدينة التي أحبت «مونت كارلو» ولقد تفننت الصحف في ذكر رواية موتها وهي تسبح بعد الثانية من منتصف ليلة من ليالي أغسطس الحارة، وعلى مقربة منها على اليخت مجموعة من الأصدقاء والصديقات، كانت كمن كفنها القمر ودفنها الموج ورحبت بها مياه البحر الزرقاء.

غاب القمر في رحلة اللاعودة، وبقي الأصدقاء يبحثون عمن يجمع شملهم في رحلة صيد جديدة، ولقد بكى يومها كما لم يبك على أنثى رغم أنه كان بعيداً عنها لا يدري من أمرها سوى ما يقرأ، ولقد بعث يومها برسالة عزاء لابنتها «كارولين» التي لم يرها، وإن

كان يظن بأنها صورة صادقة للأم التي ذهبت في أغوار البحر بلا ضجيج.

لكن ملامح الوجه الأبيض أكثر عمقاً ونضجاً من تلك، هكذا خيل إليه وهو يطالع صورتها تتصدر صفحات «النيويورك تايمز» وغيرها من الصحف، وأحس بالضياع وكأنه لا يزال معها كيوم عرف، لكن ذلك لا يساوي أحزان ما يقرأ، فالرسالة واضحة الكلمات، فيها من سبق الإصرار ما يجعله يتأكد من أن ابنه «خالد» الذي أحب يريد أن يقترن بهذه الفتاة، وكأن الدنيا وسوزان تريدان أن تنتقما منه.. وتسقط الصورة من بين يديه لتلتقطها زوجته في هدوء وتعيدها إليه في شيء من الثقة وهي تقول:

ـ هي التي بعثت بهذه الرسالة إليك إذن.

ويصمت دون أن يجيب ولكنها بعد أن واصلت هجومها في كلمات لاذعة أحس بأن من واجبه أن يقول شيئاً:

ـ ولكن هذه الصورة ليست لها، كما أن الرسالة من إنسان آخر.

ـ لمن هي إذن؟

ـ لكارولين... ابنتها.

ـ والرسالة؟

ـ من ابننا.. خالد..

ـ وماذا يريد ابننا من كارولين؟

ـ خمني.. فلربما استطعت أن تصلي إلى ما يريد.. يريد أكثر مما أراد أبوه، فابنك يا سيدتي يرغب في الاقتران بهذه الفتاة وكأنه على موعد جديد مع شيء كاد ينساه أبوه.

وتضرب إحسان بيدها على صدرها وتقول:

ـ لكن هذا الأمر لن يكون.

ـ وكيف نستطيع أن نوقف ما يخبئه القدر.. وهل أقدر أنا أن أقف أمام رغبة ابنك؟

ـ أنا وحدي القادرة على شرح الأمر له، فهو ابني.

ألقى إليها بالرسالة لتقرأها في إمعان، وكل كلمة من رسالة «خالد» تقول إنه يحبها ويريدها وهي كذلك. لكن كلمة صغيرة جعلت إحسان تتوقف قليلاً، فخالد يذكر بأن أم كارولين كانت في فترة من الزمن تعرف أباه هكذا قالت له كارولين وهي لا تعرف أكثر من ذلك.

ليت «خالداً» هنا اليوم لتناقشه وتحاوره وتتحدث إليه، لكنه في «سان فرانسسكو» وكارولين هي الأخرى هناك، وهي هنا تفصل بينها وبينه آلاف الأميال.

وتمسك إحسان بورقة صغيرة تودعها كلمات منها إلى ابنها ترجوه فيها أن يأتي إلى جدة فصحتها ليست على ما يرام وتطالبه بألا يبت في أمر الزواج قبل أن يراها، وتودعه الرسالة ليلقيها في البريد ثم يعاودان رحلة الانتظار، انتظار لقائهما بخالد الذي لا يدري من أمر ما يُخبأ له شيئاً، فكثيراً ما كانت دنيا الواقع ملأى بمفاجآت كثيرة، تثير في النفس كوامن الغيظ والشجن أيضاً.

وتمر الأيام بطيئة مملة، حتى إذا عاد خالد ليلقي بوجهه في صدر أمه التي أحب، ينظر إليها في حنان وكأنه يتلمس أمر هذا الداهم الذي جعلها تستعجل مجيئه على غير عهده بها... وتتحدث إليه أمه حديثاً طويلاً حاولت أن تثنيه فيه عن حب كارولين، لكنه ينتفض في ذعر قائلاً:

ـ أوتعرفينها يا أماه؟

فقالت في هدوء:

ـ وأمها يا بني.

ـ وكيف ذلك؟

ومضت تقص على ابنها خلاصة موجزة لأحداث عاشتها في القرب وفي البعد حتى إذا ما انتهت من كلامها قالت وفي وجهها شيء من التضرع:

ـ وبعد هذا أترى من حقك أن تتزوجها يا بني؟

وأجاب خالد:

ـ لا يا أماه، ولكن ما يخيفني هو أنني لا أستطيع إفهامها حقيقة الأمر.

وهونت عليه أمه بعض الشيء وقالت:

ـ لكن كل ما قلته سر بيننا، فأبوك لا يعرفه، ولكن دع الأمر لي، فلربما أستطيع مساعدتك. سأمضي معك إليها في «سان فرانسسكو» وسنتحدث طويلاً في جميع الأمور، وسأقول لها كل شيء، وعندها سيكون لكل حالة لبوسها كما يقولون.

ـ ولكن. . .

ـ لا تقل شيئاً، يكفي أنك عرفت ما يجب إلا أن تعرفه، ولولا هذه الظروف التي نمر بها لما عرفت ولبقيت في قلبي ذكرى لأيامي مع أبيك الذي نحب.

ـ ولكن يا أماه. .

والتفتت إليه وقالت:

ـ أتريدني أن أكون راضية عنك؟

ـ وكيف لا أريد وأنت أمي؟

ـ تصرف يا خالد وكن رجلاً إذا كنت تريد مني ألا أزعج نفسي بلقائها.

ـ وكيف أتصرف؟

ـ افعل ما فعله أبوك وابعد بنفسك عنها فهيَ من طينة تغاير طينتك، فالمرأة مثلها لا يمكن أن تعيش في أرض غير الأرض التي هيئت لأن تعيش فيها، وهو على ما أعتقد ليس بالأمر السهل الذي يمكن لنا أن نتجاوزه.

ـ أوتعنين أنها لا تصلح كزوجة؟

ـ لا هذا ولا ذاك، وإنما هناك عوامل تجعلك تفكر كثيراً في الاستغناء عن الارتباط بها، فهي ليست لك.

ـ ولا أنا لها يا أماه.

ومضى إلى حيث كان والده يقبع على كرسيه مفكراً قال:

ـ لا عليك يا أبي، فأنا أعرف وأنت تعرف، وأمي هي الأخرى تعرف، وإن كانت تريد مني ومنك أن لا يعرف أحدنا ما تعرف، ولكنني سأتصرف في الأمر بمفردي، فأنا وحدي الذي يجب أن يغتصب نفسه كما كنت تفعل مع نفسك، وسأنسى كارولين كما نسيت أنت سوزان أمها، وسأبقى أذكرك وأذكر

أمي وأذكر مجتمعي وتقاليده، فهو أولى بنا جميعاً من كل هذا الذي نعايشه وعايشناه، أليس ذلك ممكناً يا أبي ما دامت لدينا الإرادة الصادقة والقدرة على أن ننسى؟

ونظر أبوه إلى وجهه فرأى فيه صورته بشكل أفضل، فهذا الذي أمامه شيء آخر يغاير نسيجه يوم كان يجري وراء الجديد في كل مكان. وصمت قليلاً ومضى يحدث نفسه: ربما كان هذا الجيل أقدر على صيانة مجتمعه من جيلنا الذي سبقه ربما، من يدري؟

لكنها وحدها التي تعيش هناك، في «سان فرانسسكو» لا تدري، وستكون في هذه المرة أحسن من أمها التي عرفت، ويوم عرفت رحلت بعيداً. فسنوات العمر كما يرى تجري وتجري، وهو الذي يظل هنا وحده مع هذه السيدة التي يسميها الناس زوجته.

أما هو، فيسميها شيئاً آخر، فهي ملاك، وملاك طاهر، عاشت سنوات المحنة دون أن تتأفف مع مراهق كبير مثله، لم يفقد الأمل بأن يعيش كما يريد ووفق طقوس كان يظنها كل شيء بالنسبة إليه حتى إذا ما مضت به سنوات العمر، شغلت أوقاته ظروف الأولاد، وخالد هذا واحد منهم.

إن الرياح لا يمكن لها أن تهز الأشجار العالية، وإذا أصابتها فإنما يكون هذا للحظات وهو يعشق هذه اللحظات، فهو خلالها يصبح كمن يرقص على الجليد في أرض ملأى بالأعشاب والحشائش والزهور التي تنتظر انقشاع الغيوم لتظهر من بين ثنايا الأرض أقحواناً يملأ شذاه الجبال والهضاب في ذلك الوادي الذي كان في يوم ما قلبا ينبض ويعشق ويحب كمراهق، ومراهق كبير.

ويزداد به الشوق، فتغتاله ذكرياته التي يحاول أن يطردها هذه المرة في شجاعة ما بعدها شجاعة، ويلتقي بالوجه الذي أحبه.. وجه زوجته هذه السنديانة الكبيرة التي لم تهزها عاتيات الرياح فظلت في موقعها قوية قادرة.

أصيلة هي زوجته أصالة هذه الأرض، وطاهرة نقية في نقاء وطهارة هذه الجزيرة التي يراها تكبر وتكبر، فقد ولدت جزيرته هذه كبيرة، وستظل كذلك حتى يأذن الله لهذه الأرض أن تختفي وتزول..

سنوات معه

(روايــة)

ط ١ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

تتضاءل أنوار الشمس عندما تأخذ الغيوم طريقها إلى السماء كأجمل ما تكون الغيوم. بيضاء ناصعة صنعها الطل والمطر الذي تحمله وزاد من روعة جمالها تشكيلاتها التي أخذت تبدو من بعيد وكأنها أشبه بصور رسمها فنان عبقري حساس.

وجدة، في ذلك اليوم، ليست تلك المدينة التي أعرفها، فلقد خلت من الناس وأصبحت هذه المدينة على صغرها أشبه بواحة مهجورة خاوية ولا غرابة في ذلك ففي الغد سوف يأتي العيد، عيدُ الحج الذي يجمع الناس كلهم على صعيد منى بعيداً عن بيوتهم وحتى أولئك الذين كانوا يستيقظون مع الفجر ليلتقوا مع أمواج البحر في رحلة الرزق وأصبح جل همهم أن يتفرغوا لأداء شعيرة الحج التي دعتهم لأدائها فلبوا النداء.

وأنا، أنا بمفردي في هذا البيت الذي يطل على النورية. بيت من حجر قديم زخرفته الأيام وأمالت بعضاً من أجزائه، فقد كانت بيوت جدة كلها من هذا النوع الذي كادت تقضي عليه مظاهر التطور والذي لم نعد نرى سوى القليل منه في وسط البلد.

عيناي اللتان أتعبهما السهر تلمعان من وراء أهدابي الطويلة وجفناي رغم أنه أصابهما شيء من الانتفاخ للسبب نفسه إلا أنهما ينضخان بالجمال، وقوامي الأبيض الطويل يضفي على شعري الأسود شيئاً من روعة الليل وجمال النهار.

أمي ذهبت مع أبي وبعض أفراد العائلة إلى مكة وبقيت أنا، فقد

كان بقائي أمراً تحتمه الظروف، فأخي المسافر سوف يأتي من رحلته في الغد.

هل تصدقون إذا قلت لكم إنها أول مرة أبقى فيها أو أعيش بمفردي في هذا البيت؟

شعرت في الحقيقة بأنني أعايش فراغاً لا أكاد أصدق أنني فيه وعلى أي حال، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أبقى فيها بمفردي لكنها لم تكن الأخيرة.

أبي يتحدث عن قدرتي على مقاومة الألم بانشراح ويثني على تفكيري ويربت على رأسي وكأنه يستملح مني كلمتي التي كنت أقولها له:

ـ لن أترك هذا البيت يا أبي... لن أتركه.

كثر الخطاب على دارنا، فالفتاة في بيتنا تتزوج عندما يصل سنها إلى الرابعة عشرة، وأنا أكره أن أتزوج من أي إنسان. ربما لأنني ارتبطت منذ صغري بصورة ظلت في أعماق نفسي يوم كان لنا الحق نحن البنات في أن نلهو ونلعب مع الأولاد. ربما... ولكن من يدري!

عمتي التي تماثلني سناً تقول بأنني طفلة شقية لا يمكن أن يحبها أحد رغم كل جمالي. وأنا أضحك، أضحك وأقول:

ـ الأطفال يا عمتي عندما يكبرون لا يتذكرون كل أولئك البنات اللواتي عرفوهن لكنهم يتذكرون فقط من كانت قادرة على أن تلفت أنظارهم وتتغلب عليهم حتى في صميم ألعابهم.

بيتنا الذي فرغ من الناس كان دائماً يمتلئ بكل الناس وكأنه الحج. ولقد منحني ذلك الفرصة، كل الفرصة لأن أفكر وأفكر وأقدر عواقب رفضي أن أتزوج.

أمي تدرك أهمية البيت والأسرة وأنا من أسرة محافظة امتهن أبوها التجارة وبَرع فيها واستطاع أن يمنح أسرته رغد العيش وما تتمناه من سعادة وهناء.

لا أقول بأنني أفضل من كثير من الزميلات، لكنني حتماً أحسنهن حالاً لأن أبي يحبني وأمي كذلك وهما في علاقتهما معاً يهيئان لي جواً رائعاً أعيش فيه ويتحملني الجميع فيه رغم شقاوتي وكثرة لهوي ولعبي.

البنات اللواتي من جيلي ويقطنّ حارتي "المظلوم" بجدة يرثى لحالهن لأنهن يفقدن ميزات كثيرة عندما يكبرن. فهن يفقدن المرح والشيطنة والكلام مع الجيران واللعب في الحارات بل والخروج والزيارات، ويقبعن في البيت يساعدن أمهاتهن في أشغال المطبخ وترتيب البيت بانتظار القسمة والنصيب.

كنت أنا من صغري كما أسمعهم يقولون آنف من العمل في البيت ولا أعمل إلا ما أرغب فيه وأتوق إلى الجري "كعيشة ولد".

"عيشة ولد". التصقت بي هذه الكلمة أو الصفة لدرجة يصعب علي أن لا أسمع أحداً من الأسرة يقولها عني.

بيوت جدة متلاصقة وقلوب جيرانها ملتصقة بقلوب بعض أيضاً، ونحن لا نعرف من أمور الزينة إلا الكحل وشيئاً من عطر الورد أو الياسمين أو البنفسج. عندما جاء أبي لنا بأول زجاجة عطر أصبح يومها بيتنا أشبه بمولد، كل واحد منا أخذ الزجاجة بين يديه يقلبها ويفتحها ويشم العطر الذي بداخلها.

جدتي، عندما عرفت مكوناتها، قالت عنها بأنها محرمة علينا لأن الكحول يدخل في تركيبها بل ونصحتنا ألا نستعملها. في أعلى بيتنا سقيفة نضع فيها ألعابنا ونجري فيها ومنها إلى السطح عندما كنا نريد أن نهرب من أهالينا. في ذلك اليوم أخذت جدتي زجاجة العطر وخبأتها فيها.

لم تكن جدة على هذا الاتساع. كانت رقعة أرضها صغيرة والكهرباء في أول دخولها إلى البيوت المتوسطة. حتى التلفون "أبو يد" لم يكن لنا الحق نحن النساء في استخدامه. تصوروا أن أخي الذي يصغرني بسنوات عديدة له كامل الحرية في استخدامه دوني ودون أخواتي وحتى أمي وجدتي. هكذا فرضت التقاليد علينا. جدران من طين نعيش خلفها شئنا أم أبينا. ومع هذا كله، كنا نضحك من أعماق أعماقنا ونحاول أن نلهو.

عندما نخرج من بيوتنا كنا أيضاً نتلفلف في ملاية سوداء مريحة تغطي أجسادنا وعيوننا وسواعدنا وحتى كفوف أيدينا. ولهذا عندما أجبروني على لبسها كنت أكرهها وأفضل البقاء في البيت وزيارة الجيران الذين أحبهم عن طريق السطوح ليلاً بدلاً من طريق أبواب البيوت.

أمي عندما تنزعج من أي حركة أؤديها تقول عنها بأنني مسترجلة وأنا

أضحك عندها ولكن بنعومة تنفي عني هذه التهمة وتثير أمي فتقول:

ـ لا أدري كيف يتسنى لك أن تضحكي بهذه الطريقة.

خالتي نهى قالت لي مرة:

ـ أنت جميلة يا سهير.

وأنا أطرب لإطراء خالتي وأحبها كثيراً فأنا، للعلم، رضعت من ثديها وأنا صغيرة ولطالما سمعتها فيما بعد تتنهد بحسرة على ما فعلت. لقد كانت تريد لابنها زوجة في مثل جمالي الذي تفتح بشكل ملفت للنظر بعد أن كبرت وتعديت مرحلة الطفولة.

مع كل مراسم الخوف من العالم الخارجي، أبي يصر على أن أتعلم وأنا كذلك. يوم ذهبت إلى المدرسة كان يوم عيد لكنني لم أكمل تعليمي. توقفت عند الإعدادية وحرص أبي بعدها أن أبقى في البيت.

إخوتي يرون فيّ مثالاً نشطاً لكنهم يخافون أن يقلدوني، ولهذا كنت أجد لذة عندما أدفع بهم لتقليدي لينالوا "علقة" من أمي. أبي كان يضحك دائماً ويقول:

ـ هذه البنت لو جاءت ولداً لكانت أنا.

وأنا أؤمن بكلام أبي وأحبه وأقدره وربما أكثر من أمي لا لسبب سوى لأنه يعرف ما أريد وينفذ أو يأتي بما أريد.

عندما عادت الأسرة من أداء فريضة الحج محملة بالهدايا قالت جدتي:

ـ هديتي لسهير دعوت الله تعالى لها عند الكعبة بأن يسعدها.

ركضت نحو جدتي يومها وارتميت في أحضانها وقلت لها:

ـ تلك والله يا جدتي أجمل هدية أنالها في حياتي. دعوتك هذه يكفي أنها تدل على أنك راضية عني.

أبي وأمي ينظران إلي بسرور بينما أخذت جدتي تتمتم:

ـ لقد طلبت أيضاً من ربي أن أرى زفافك يا بنيتي العزيزة قبل أن أموت وأغادر هذه الدنيا.

ـ ولماذا تموتين؟ كلنا نحبك يا جدتي.

أجبت بعفوية ودون تفكير. ترى هل يجاب طلب جدتي الحبيبة؟ ذلك ما كنت أفكر فيه وأنا أنظر إلى وجهها الذي يشع منه الحب والطيبة.

ولقد أصبحت بعدها أضحك من أعماقي وأنا أراها أو أسمعها تعاود دعوتها تلك وتكررها المرة تلو المرة بين الحين والحين. نعم كنت أضحك لأني لم أكن أعي مطلقاً معاني هذه الدعوة أو على الأصح هذه الرغبة. لكني بعد أن كبرت وعرفت معنى أن تعيش الفتاة في انتظار فارسها، فهمت كل كلمة من كلمات تلك الجدة التي أحبها.

فالمرأة هذا الكيان الذي يتطلع إلى الحياة ويراها من وراء الظروف التي هيأها الله تعالى لها تتمنى في أعماقها أن تصبح سيدة بيت وربة أسرة وأُمًّا وربما لمجموعة من الأطفال.

وفي رأيي أن المرأة، بدون أن تتزوج، تظل مجرد إنسان يعيش على هامش الحياة. ولقد سألت نفسي في بعض مراحل عمري الأولى فيما إذا كنت سوف أدعو لابنتي عندما تكبر بمثل دعوات جدتي هذه، لكني لم أجد الجواب على هذا التساؤل إلا بعدما كبرت ووعيت. فنحن الفتيات الصغيرات لا ندري من أمور الحياة إلا ما نراه وكل هذا الذي نراه لا يمكن أن يصل بنا إلى فهم حقائق الحياة وواقعها الحقيقي.

أما أمي، فقد كانت تتطلع إلى وجهي بعد عودتها من الحج وكأنها تراه لأول مرة فازدادت دهشتي وأنا أراها تندفع في حنان أحسست به كبيراً قوياً متدفقاً كالشلال في هذه المرة وأنا التي ما تعودت منها إلا على الشخط والزجر.

وبدأت أفلسف كل هذا الذي أراه، واعتقدت أن غياب الأسرة عن بيتنا في جدة خلال أيام الحج هو السبب في كل هذا الحنان والحب الذي أراه ينفجر في صدر أمي نحوي.

لا أدري إذا كنت في تفكيري هذا على خطأ أو على صواب ولم أفكر فيه كثيراً بل تركت الأيام لتجيب عليه وتضع النقاط على الحروف.

الفصل الثاني

في بيتنا امرأة لكنها ليست ككل النساء. لا أدري لماذا أخاف من رؤية وجه هذه المرأة أنا التي لا أخشى أي شيء، وتجاه أي شيء مهما كان.

أمي عندما تراني أتجنبها تدعوني لأن أقدم لها الشاي والقهوة وشيئاً من "كماج" الذي كنا نصنعه بأيدينا إذ لم يكن في جدة يومها "جاتوهات" أو "تورتات" ونحوها.

من حفاوة أمي بهذه المرأة عرفت أنها تريد شيئاً ترغب أمي فيه. نعم كنت أظنها جاءت تخطب لابنها واحدة من أخواتي، فأنا أعرف أن لها ولداً من زوجها الثاني وبنات من زوجها الأول.

لا أكتمكم القول. لقد كنت أستغرب أن تتزوج المرأة وتطلق ثم تتزوج ثانية لأني أعرف أم إحدى زميلاتي التي كانت قد طلقت وبقيت حتى اليوم بدون زواج.

سألت هذه المرأة يوماً لماذا طلقت؟ لم تجب، وإنما زغرت في وجهي فخفت وبلعت تساؤلي وهربت من أمامها.

أمي لحقتني وعنفتني وقالت:

ـ كلام كهذا لا يجوز أن تقوله فتاة مثلي.

عندما سمعت من أمي قصة طلاقها فيما بعد التزمت الصمت ولم أعد أسأل بل وزال عني الخوف الذي كان يعتريني كلما رأيتها لأن تجربتها الزوجية تلك والتي خرجت منها بالطلاق وبحفنة من البنات كانت قاسية لدرجة أن تلك القسوة انعكست على ملامحها. لكني لم

أترك المناسبة تفلت من يدي، فسألت أمي على الفور بعد أن روت لي قصتها عن السبب في كثرة ترددها على بيتنا.

أجابت أمي وهي تحاول أن تخفي شبح ابتسامة ظهرت على شفتيها:

ـ إنها تجيء من أجلك.

قاطعتها وأنا أتساءل في تعجب ودهشة:

ـ من أجلي أنا؟

ـ نعم من أجلك، إنها تريدك زوجة لابنها.

قالت لي أمي ذلك وكأنها تفضي إلي بسر لم يحن وقت ذيوعه بعد. ضحكت وقلت:

ـ ولكن من قال لك يا أمي بأنني أريد أن أتزوج؟ ثم إنه لو انعدم وجود الرجال لما تزوجت ابن هذه المرأة التي لا أرتاح إليها.

صاحت أمي في وجهي وقالت:

ـ هذا ليس من شأنك وإنما من شأن أبيك فوفري كلامك لنفسك.

لذت بالصمت وأنا مستغربة: أيجوز حقاً أن أتزوج برغبة أبي وأمي فقط؟ هززت كتفي ومشيت، لكن كلمات أمي شغلتني فأخذت أتبادل الأحاديث أنا وأختي الصغيرة في هذه المصيبة التي حلت على بيتنا.

يوم جاءني أبي يعرض رغبة سعيد ابنها في الزواج مني رفضت. أسلوب أبي كان واضحاً وذكياً ولماحاً عندما قال:

ـ أعرف أنك تكرهين أمه ولكن أحب أن أقول لك بأنني بحثت وسألت عن العريس وعرفت ما أرضاني ثم فوق هذا كله، هو لن يسكن في جدة. سوف يكون مقر عمله في بيروت وسوف تعيشين هناك لوحدك، ملكة متوجة في بيتك.

صمت. أما أبي، فلم ينتظر موافقتي وإنما أعلن عن موافقته هو وكأنه بهذه الموافقة يحسم الأمر.

أخذت الأسرة تستعد ليوم الزفاف الذي جاء بأسرع مما تصورت. نسيت الأمس وبدأت أفكر في معنى أن أتزوج وأن أسكن بيروت، وأطربني الأمر في مجمله فأنا سوف أترك هذه الملاية التي لا أحبها ولن أعود إلى ارتدائها كما

أنني سوف أستمتع بالحياة في بيروت وأرى أشياء كثيرة كنت أسمع عنها ولم أكن أظن بأنني سوف أراها بنفسي.

استقبلت يوم زواجي بشيء من التحفظ المشوب بالحذر والأمل معاً حتى إذا ما انتهت مراسم الزواج أخذت وزوجي شنط ملابسنا وذهبنا إلى المطار لنقضي شهر العسل بعيداً عن البيت. وللحقيقة أقول: ذهبت وفي رأسي أحلام كثيرة كنت آمل أن تتحقق.

وما إن حطت قدماي على أرض بيروت، حتى أخذني زوجي إلى شقتنا في شارع فردان في رأس بيروت، منطقة سكن الأثرياء والأجانب وحيث تسير فتظن نفسك أنك تسير في أحد شوارع باريس أو روما. وهكذا وصلنا شقتنا وأقفل الباب على زوجة وزوجها في شهر العسل.

استمتعت بالفوضى التي يعيشها زوجي ورأيت أنها قمة سعادتي وأنها الحياة التي كنت أتوق إليها وبدأت ألهو وألهو وزوجي يلهو معي، ليلنا سهر ونهارنا نوم.

لم نترك ركناً جميلاً في بيروت بل في لبنان كله إلا وزرناه. استمتعنا بثلوج جبال لبنان وشواطئه وقضينا الأوقات الطويلة في حضن طبيعته الساحرة. جبت أسواق بيروت كلها واشتريت أحدث الأزياء الأوروبية والشرقية التي تمتلئ بها هذه الأسواق.

ومضى عامان من عمري بل وأكثر من عامين. وفجأة شعرت بالقرف وبأنني قد استنفدت طاقتي ولم أعد أتحمل هذه الحياة التي أعيشها. ولعلكم تستغربون إذا قلت لكم إن عم محمود بواب العمارة التي نقيم فيها كان هو السبب.

كنت أراه في دخولي وخروجي وهو منكب على عمله بهمة ونشاط رغم بلوغه الستين من عمره. في البداية كنت أشفق عليه وأمنحه بعض المال ظناً مني أنه بحاجة إليه ليعيل أسرة كبيرة أو يعالج زوجة مريضة ولكني فيما بعد وعندما سألته عما يجبره على العمل وهو في هذه السن فوجئت به يجيب:

ـ الحمد لله أن ابني الوحيد أحمد يعمل في دبي ويرسل لي ولأمه مبلغاً من المال يضمن لنا بحبوحة من العيش، ولكني لا أتخيل نفسي أعيش عاطلاً عن العمل إذ ما فائدة الحياة يا بنيتي دون أن يكون للإنسان هدف يعيش من

أجله أو عمل يمارسه فيسعد به هو ومن حوله؟

كلمات العم محمود أخجلتني من نفسي وجعلتني أفتح عيني على حقيقة شعرت بعدها بالقرف والتعاسة فأنا بالفعل إنسانة تائهة وتعيش على هامش الحياة بلا هدف ولا فائدة.

كتبت لأمي أبثها أحزاني، واقترحت عليها أن أعود إلى جدة لمواصلة تعليمي خصوصاً وأن الحياة التعليمية قد بدأت تدب في بلدي وأصبح بإمكاني مواصلة الدراسة. جاء رد أمي بأن ذلك أمر أقرره أنا وزوجي.

زوجي يرفض أن يفارق حياة اللهو التي ينغمس فيها، وأنا ألح عليه وأصر على العودة وأخيراً وبعد أن اختمرت الفكرة في ذهني قلت له في حزم:

ـ سأعود إلى جدة.

حاول أن يثنيني عن عزمي، لكني رفضت بإصرار، فقال:

ـ ستندمين.

ولكني لم أندم.

سافرت إلى جدة، وعدت إلى بيت والدي، وأصبح زوجي يقسم أيامه بين بيروت وجدة وإن كانت مدة بقائه في بيروت أطول من مدة بقائه معي في جدة ولكني لم أكترث للأمر فأنا وزوجي قد أصبحنا على طرفي نقيض. أو ليس العلم نوراً والجهل ظلاماً؟

رحلة العلم طويلة شاقة، ولكنها لذيذة جعلتني أشعر بسعادة غامرة فها أنا أرى نفسي أنثى غير الأنثى وامرأة غير المرأة التي كنت على صورتها في تلك الأيام التي أمضيتها في بيروت.

أنهيت تعليمي الثانوي وعملت بعدها مدرسة في مدارس البنات كما سجلت اسمي كطالبة في جامعة الملك عبد العزيز لأواصل رحلتي العلمية. نسيت أن أقول لكم إن زوجي جاء بعد انتهائي من المرحلة الثانوية يريد أن يستعيدني مرة أخرى لأعيش معه في بيروت، ولكن إصراري على أن مرحلة الفوضى في حياتي قد انتهت إلى الأبد جعله هذه المرة يرضخ لطلبي ويعود هو ليعيش نهائياً في جدة.

اختار لنا بيتاً جميلاً على مقربة من أهله ولكن تعليمي وبعدي عنه فصل بيني وبينه وأوجد هوة سحيقة لا مجال لتجاوزها والتغلب عليها إلا في أن يتغير هو. طلبت منه أن يكمل تعليمه مثلما فعلت ولكنه رفض وقال:

ـ لماذا أتعلم؟ هل تريدينني أن ألتحق بوظيفة تقيدني؟ لدي من المال ما يكفيني شر ذلك.

إجابته لم تعجبني كما أن تصرفاته أيضاً أصبحت لا تعجبني وبدأت بذلك رحلة أن أعيش مع نفسي وأهلي وإخوتي وإن كان هناك سقف يجمعنا سوياً.

ومضت سنون الحياة هادئة رتيبة، ورزقت بطفلة كانت هي الأولى والأخيرة فعلمي أنار طريقي ومنحني الفرصة لأن أعرف الطيب من الرديء وأن لا أحمل نفسي أكثر مما أطيق فقد رأيت بأم عيني أن مستقبلي مع هذا الرجل الذي يحب نفسه غير مأمون.

سارت أيامي كما أريد وأشتهي فقد كان زوجي يقضي أكثر شهور السنة خارج المملكة وكنت لا أنزعج من تصرفه إذ لم يعد أي انسجام بيننا على الإطلاق. والدي هو الذي أصبح يتزعج كثيراً لسفره ويحاول أن يناقشه فيه.

ولعلكم تتساءلون عن موقف أمي! أمي كعادة النساء في بلادنا تطالبني بالصبر حفاظاً على بيتي ولكن إلى متى أصبر؟ ذلك شيء لا أدريه.

ربما لأنني كنت في أمس الحاجة لوجود هذا الرجل والد ابنتي حتى لا تحرم هي منه، وربما لأنني كنت أخاف أن يقال عن بيتي إنه بدأ يهتز ويتداعى وربما...

لكني مع كل ذلك كنت أفكر وأقارن بين يوم زفافي وسفري إلى بيروت وبين يوم عودتي إلى جدة والتحاقي بالمدرسة الثانوية ثم بالجامعة.

شريط طويل أخذت أطالع صوره في حب وألم. إحساساتي كلها في الأيام القليلة التي يقضيها زوجي في بيتنا في جدة تكاد تصرخ معلنة أنني أصبحت غريبة عنه تماماً.

أصدقاؤه يملؤون غرف البيت... وأنا من أنا؟ مجرد امرأة تعرف كيف تسعد زوجها وتلبي رغباته دون أن تفكر بنفسها.

حاولت أن أقطع شعرة معاوية كما يقولون، لكنني كنت في كل مرة أصل فيها إلى هذا الحد من التفكير، أتنازل عن كل أفكاري بسهولة وسرعة عجيبة خوفاً على حياة ابنتي التي أراها صورة مغايرة لصورتي يوم كنت صغيرة في مثل سنها.

مسكينة المرأة عندما تتعثر حياتها. تضيع أحلامها شيئاً فشيئاً وتذبل وقد تموت كما تموت الزهرة التي فقدت من يرعاها. لا، لا.... أنا لا أريد أن أكون تلك الزهرة التي تذبل وتموت في غير أوانها.

حياتي بعد كل هذا الذي صنعته يجب أن تصبح ملكاً لي، لي أنا ولهذه الطفلة التي تتجسد فيها كل أحلامي وآمالي وأماني.

الفصل الثالث

عندما يصاب الإنسان باليأس من إنسان ما، يبدأ في التفكير بأن يهرب إلى حياة أخرى غير تلك التي يعيشها.

بيتنا أصبح مجرد مكان نختلف إليه أنا وزوجي فأنا مشغولة بعملي الذي أؤديه والذي يحتل أكبر وقت من يومي وهو مشغول بأصدقائه وفسحه وسهراته.

في الليل كنت أهرب من البيت لزيارة زميلاتي حتى إذا ما وجدت أن زوجي لم يعد يسأل عني أو عن أي شيء يتعلق بالبيت قلت لنفسي: لماذا لا أروح عن نفسي وأسافر؟

وسافرت أول مرة مع إحدى أخواتي إلى مصر. شعرت في مصر أنني حرة لكنها حرية المرأة التي تعرف طريق قدميها في الحياة.

أمضيت الإجازة وعدت وأنا سعيدة لأعاود مسيرة حياتي في جدة وليتأكد شعوري بأنه بيني وبين زوجي فراسخ وأميال رغم أننا نقيم تحت سقف واحد.

أما زوجي، فقد استمرأ الحياة بعيداً عن أي مسؤولية تخص البيت أو تخص ابنته وترك لي مقاليد أمر البيت تماماً فأصبحت أنا رجل البيت والمرأة فيه. لم يعد يسأل عن أي شيء. يكفيه أن يجد طعامه وفراشه وملابسه التي يحتاج إليها جاهزة حاضرة. وحتى لا أظلمه، فإني سوف أصرح أنه أحياناً كان يستخدم يديه في إعداد طعامه عندما أتناسى أنا هذا الأمر.

ابنتي الحبيبة تكبر يوماً بعد يوم. أرسلتها في أول الأمر إلى لندن للدراسة في أثناء الصيف ثم استمرأت إرسالها إلى هناك لتدرس طوال

العام الدراسي فأنا قد تعلمت وأخذت شهادتي الجامعية من بلدي ووفق تخطيطي ولهذا حرصت على أن تتعلم ابنتي وتدرس مثلي بل وأفضل.

كان من الممكن طبعاً أن تدرس هنا في جدة خصوصاً وأنه أصبح ولله الحمد عندنا جامعات تعتبر من أفضل الجامعات في العالم كله ولكن رغبتي في أن تكون بعيدة عن جو البيت الذي نعيشه أنا وأبوها جعلني أصبر على بعدها عني عندما اخترت لها أن تتعلم في المدارس الداخلية في لندن.

لا أنكر أنني سافرت كثيراً برفقة زوجي في بداية إقامته في جدة وبعد عودته نهائياً من بيروت وأنني زرت لندن وباريس وروما وأمستردام بل وكل مكان في هذا العالم تقريباً ولكنه، حتى في هذه الرحلات إلى الخارج، كان الجو العائلي بيني وبينه لا يتغير. هو له برنامجه وأحلامه وأفكاره وطريقته في قضاء الإجازة، وأنا لي برنامجي وأحلامي وأفكاري.

في الشهور التي كان يغيب فيها لوحده عن البيت مسافراً في رحلة إلى هنا أو هناك. كثيراً ما كنت أناقش نفسي حول حياتي معه وأتساءل إلى متى أستطيع أن أعايش هذا الرجل؟ أحياناً كنت أنظر إلى ابنتي فأراها تكبر وتكبر فتسيطر على عقلي فكرة أنني ما أزال صغيرة وأنني قادرة على الانتظار. فأنا لا أريد أن أطلب من زوجي الطلاق رغم كل هذا الذي فعل ويفعل لأنني كنت أخاف على ابنتي من شبح هذا الطلاق.

استمرأ زوجي حياته على هذه الصورة وكان يظن بأنني سعيدة. ربما لأنني لا أشكو أو أتذمر كثيراً. نعم! كان يظن أنني سعيدة رغم أنني كنت أغوص في إحساس يجعلني أشعر بالتعاسة والألم والمرارة فأنا أريد من زوجي أن يكون رجلاً بمعنى الكلمة وزوجاً يعرف كيف يبني بيته ويربي ابنته، لكنه لم يكن يفعل أي شيء من هذا.

حتى عندما دخلت بيتنا خادمة أجنبية، شعرت بأنها هي الأخرى أصبحت تكره زوجي. لم أسألها عن السبب، فقد كنت أعرف أن خشونته في معاملتها وفي معاملتي في الأوقات التي يتواجد فيها في البيت هي السبب في ذلك.

مضيت في طريقي لا أعبأ بشيء ولا أفكر بشيء سوى سعادتي التي ضاعت وأفلتت من بين يدي بسبب زوجي هذا. بين الفينة والفينة وعندما كنت

أسافر إلى هنا وهناك مع صديقاتي أو أخواتي أو حتى عندما كنت أقضي الأمسيات بينهن أو معهن على شاطئ البحر الجميل كن جميعاً يعتقدن أنني سعيدة. سعيدة لأني أضحك دائماً وأبتسم في كل الأوقات مع أني وفي أعماق أعماقي كان يعشعش ويقبع أقسى أنواع التعاسة والشقاء.

شاء حظي، في أحد الأيام، أن ألتقي بأخت صديق الطفولة. ربط العمل بيني وبينها وأصبحنا صديقتين تفضي كل واحدة إلى الأخرى بهمومها وأحزانها. ولقد حزنت جداً عندما عرفت من أخت صديق الطفولة أنها هي الأخرى امرأة معذبة تزوجت وضاقت بزوجها فتركت بيت الزوجية بعد أن استولدها زوجها ولدين.

لقد كان دائماً يحاول أن يستولي على راتبها ويهرب إلى خارج البلاد في رحلة مع الأصدقاء حتى إذا ما ضاقت بما يفعل وعرفت أنها غير ملزمة بدفع نفقات البيت وأن الزوج هو المسؤول الأول عن هذه النفقات رفضت أن يستمر هذا الوضع فكان أن طلقها هذا الشقي وتركها مسؤولة عن تربية ولديها اللذين استولدها إياهما.

تقولون إن المرأة دائماً تعرف طريق قدميها في الحياة إذا ما أجادت الإنصات إلى أحاديث الأخريات وتجاربهن في هذه الحياة فذلك يساعد في إنارة دربها ويكسبها قوة تعرف من خلالها كيف تنتزع الأشواك من قدميها، وأنا أحسن الإنصات وأجيد الكلام أيضاً وزميلاتي يحببنني كثيراً لهذه الميزة التي أتحلى بها. عندما أتأخر عن مجالسهن يأتين إلى بيتي ويقضين أكثر الأوقات عندي ومعي.

أما زوجي، فرغم أنه يكون أحياناً في البيت في غرفته ولكن كيف يقضي أوقاته فذلك شيء لا أعرفه خصوصاً إذا قلت لكم إنه من النوع الذي لا يحب العمل ويعتمد على أخويه اللذين اختارا له شراء أكثر من عمارة هنا وهناك من المال الذي ورثه عن والده وعلى ذلك يصبح كل ما عليه الاستفادة من ريع أملاكه والتمتع بمباهج الحياة على حد تعبيره.

تلك هي ليالي وأيامي أجتر ذكرياتها وأشعر بأن أسعد أيامها حياتي هي عندما أسافر مع إحدى أخواتي إلى أي مكان في هذا العالم. أي بالهروب من

الواقع الذي أعيشه.

وأصبحت أدمن السفر وأدمن زيارة الأماكن السياحية الجديدة وأسعد بلقاء صديقاتي في الحضر والسفر ولن أنسى أن أقول بأنني وابنتي أصبحنا أشبه بأختين تعرف كل واحدة منهما أحاسيس الأخرى وكانت تلك والحق يقال هي قمة سعادتي الفعلية.

زوجي كان يواصل طريقته في الحياة في البيت وخارج البيت وبنفس أسلوبه اللامبالي الذي استنه لنفسه وكأنه يحاول بهذا الأسلوب أن يزيد من تعاستي أنا التي أصبحت أعيش حياتي على هامش الحياة بعيداً عن بيتي حتى وأنا في داخل هذا البيت.

حاولت أن أحادثه في هذا الأمر ولكنه وفي كل مرة أحاول أن أبدأ حديثي معه أجده يفلت مني بأعذار لا أدري كيف يسوقها هذا الرجل ومع هذا كان يردد باستمرار لي ولابنته بأنه يحبنا ويريدنا.

ابنتي بدأت تثور على الواقع الذي يمارسه هذا الأب مع أمها فكانت ترفض أن تمضي حتى بعض أوقاتها معه وتطالبه باستمرار أن ترافقني في غدواتي. وجاء ذلك اليوم الذي شعرت فيه بأنني لم أعد قادرة على تحمل ذلك العناء، أفهمته بهدوء بأنه بأسلوبه هذا إنما يبني جدراناً من الإسمنت بيني وبينه، لكنه قال وهو يضحك:

ـ وماذا تريدين؟ ألا يكفيك كل هذه الحرية تتمتعين بها؟

طفح الكيل بي وقلت محتدة:

ـ وهل طلبت منك أنا هذه الحرية؟

لم يجب وترك البيت. كنت أظنه لن يعود، لكنه لم يكن ليقوى على أن يترك البيت الذي يجد فيه كل ما يرغب ووفق ما يرغب ما دام هو هنا في جدة.

وعاد في الليل في موعده تماماً يدندن بأغنية قديمة سمعتها منه مراراً وكأن شيئاً لم يحدث.

استمعت إلى صوت الباب الخارجي وهو يقفل ثم إلى صوت الفيديو في غرفة المكتبة وكان من عادته أن يفعل ذلك دائماً ليواصل سهر الليل انتظاراً لأن

يطلع النهار ويأوي إلى فراشه. ألم أقل لكم إن ليل هذا الرجل نهار ونهاره ليل!

آثرت أن أصم أذني فلا أسمع صوت الفيديو الذي فتحه وقفلت باب مخدعي جيداً. تلمست عيناي طريقهما إلى النوم دون جدوى إذ كانت صور الحياة التي أعيشها وأعايشها تواصل البروز أمامي بشكل مخيف يجعلني مشدودة لها وهي تطل في قسوة، وأنا المرأة التي تكره القسوة.

الفصل الرابع

أختي الصغرى جميلة مثقفة وهي في عمر الزهور، تجنح أحياناً إلى الخيال وتشاركني أفكاري ولكنها تحب دائماً أن تحلم وأحلامها دائماً تتحقق.

كل من يعرفها يقول إنها محظوظة. في وجهها براءة الطفولة، وفي قوامها جسد امرأة وفي عينيها ألمح ضياء الفجر وعتمة الليل وهدوء النفس المضطربة. وهي تعايشني المحنة، وتتقاسم معي أحاسيس الضياع التي أحسها وتملأ علي بيتي شيئاً من الراحة.

ألمحها تطل بقامتها المشدودة أشبه بأفروديت الإغريقية. في ابتسامتها سحر، وفي صوتها رنة أسى وحزن اكتسبتها من طول معاشرتي. عندما تضحك، تضحك من قلبها وتظن أنها قادرة على انتشالي من وهدة الألم الذي يصادر إحساسات الراحة في نفسي. لا تقولوا إنني أطيل الحديث عنها فلولا هذه الأخت وإطلالتها لضقت ذرعاً بهذه الحياة.

إيماني بالله وثقتي بأنه سوف يمنحني الحزم كان يسيطر على أفكاري في هدأة الليل وحتى في سطوة ضوء النهار. أختي هذه خطبت ثم تزوجت وخرجت من بيتي وأضافت إلى أعبائي أعباء جديدة.

تعرفون ما يجري بين الزوج والزوجة، وأختي حساسة تلجأ إلى صدري عند أول بادرة ألم. كنت أهدهدها وأقول لها بأن الحياة تقتضي منا أن نصمد، أن نلين، أن نتفاءل، أن نبتسم، وتخرج من عندي إلى بيتها لتواصل مسيرة الحياة مع زوجها الذي تحب.

مشكلة أختي أنها صغيرة وعنيدة وهي تسير على نفس دربي، تمضي في دراستها الجامعية لتحصن نفسها ضد ظروف الزمن وتضارب الحياة.

إذا قلت إنني أحب أختي أكثر من نفسي لا أكون كاذبة. لقد عاشت محنتي وأشعلت شمعة فرح وتفاؤل في عز عتمة أيامي.

همست في أذني بما يعزيني عن آمالي والأحلام التي فقدت ويجعلني أصمد أمام محنتي وآلامي. سافرت معها وسافرت معي إلى خارج البلاد وسعينا معاً إلى مرتبة من المعرفة هناك في تلك المدن التي زرناها. أليس في السفر سبع فوائد كما يقولون؟

بيني وبينها تشابه كبير في الأحلام والآمال والأماني لكنها أقل مني تحملاً وأسرع إلى الشكوى، ولولا وجودي إلى جانبها بعد زواجها لأصبح لديها أكثر من مشكلة.

زوجي لا يحب أختي هذه ولا يكرهها ولكنه يشعر بأنني حفية بها أكثر من أي إنسانة أخرى وهو لا يريد أن تكون لي صديقة تعايشني الحياة ومشاكلها.

يوم تزوجت تنفس الصعداء وظن أنه قد تخلص منها لكن الأيام أثبتت عكس ما يظن ويريد فقد أصبحت هي وزوجها ضيفين في بيتي يدخلانه في أي وقت مما أضفى على بيتي الكثير من الحيوية وعلى نفسي الكثير من السعادة، أنا المرأة التي لا تحب زيارة الأهل أو الأقارب أو الأصدقاء في بيوتهم. ربما حياتي مع زوجي جعلت مثل هذه الصفة تلتصق بي... لا أدري!

أختي الأكبر مني تحبني كما تحب الأمهات بناتهن، لكن أفكارها كما يقولون "دقة قديمة" وإن كانت صائبة. يوم همست في أذنها بأنني أريد أن أتخلص من زوجي بالطلاق لم تصدق ما سمعت وطلبت مني أن لا أذكر ذلك أمامها أبداً.

أختي هذه الأخرى أحبها لكنها من نوع آخر فريد. تحب دائماً أن تأخذ زمام المبادرة في كل شيء. سافرت معها هي الأخرى، وحاولت أن أرسخ صداقتي بها ولكن تسلطها على الأخريات كان يمنعني من أن أستمر في مصادقتي لها. ومع ذلك كله، أجد نفسي أحن إليها بين الفينة والفينة، أحن إلى مشاكستها، وأحن إلى معاركنا معاً وأتقبل كلامها كله بحسناته وسيئاته.

أختي هذه أريد أن أزوجها، أن أفرح بها. أريد أن أراها وقد أضاءت شموع الفرح في عشها الصغير فليس شرطاً أن تكون حياتها الزوجية كحياتي. فهناك كثير من النساء ينعمن بحياة زوجية سعيدة هادئة. أليس كذلك؟

وأنا بطبعي أميل إلى أن أرى كل من أعرف ومن لا أعرف وهم يعايشون الفرحة والسعادة بل الحب والصفاء وكل هذه المعاني الحلوة التي حرمت أنا شخصياً منها.

والآن وبعد أن كبرت ونضجت، أصبحت أعيش في بيتنا أرمق كل هذا الذي يجري فيه بفلسفة. فأنا لم أعد تلك الأنثى التي تمر على الأحداث مرور الكرام.

أما فلسفتي الجديدة التي اكتسبتها من سني حياتي، فهي أن لكل أمر سبباً وأن من أسباب ما وصلت إليه أنا وزوجي أنني أولاً، تزوجت صغيرة جداً لا أعرف من أمور الدنيا سوى اللعب واللهو. وثانياً، لأنني لم أحسن الاختيار. وثالثاً، لأنني وقفت كل هذه السنوات موقف المتفرج مما يحدث لي ومما يعتمل في نفسي وذاتي وكياني حتى إذا ما طفح الكيل وبدأت أضيق بنوع الحياة التي جعلني زوجي أمارسها انتفضت كطير بلله المطر وهو يهرب من رصاص صياد غير ماهر. نعم أنا ذلك الطير وزوجي ذلك الصياد غير الماهر.

ووصلت إلى قراري، فالحياة، على سعتها، تدعوني لأن أبحث عن مخرج ما دمت قادرة على اختيار طريقي وتحسس موضع قدمي في البيت وخارج البيت في محيط أسرتي ومجتمعي وحتى في هذه الدنيا الواسعة.

لكم حرصت على أن أقول لأختي الصغرى عن كل شيء يعتمل في نفسي. ولكني أشعر بأنني الأكبر وأنني أنا المسؤولة عن هذه الأخت التي أخذت بعض صفاتي وألقت ببعضها الآخر في البحر. وعليه، فقد كنت أكتفي بأن أتركها تشاهد ما يحدث في بيتي دون أن أحاول التعليق على ذلك الذي حدث.

ولقد مرت بي أحداث خلفت مرارة كبيرة في أعماق أعماقي وكانت كافية لتضع أمام عيني علامة استفهام كبيرة دون أن تدع لي الفرصة كي أنقذها أو أنتقدها فالمرأة في عالمها الذي تعيش فيه ورغم ظروف الحياة التي تحيط بها، تظل في كثير من الأحيان أشبه بهذه العلامة التي تنتصب في رؤوس الأشهاد

صغيرة كانت أم كبيرة.

أو ليست المرأة، كما يصفها بعضهم، لغزاً محيراً وعلامة استفهام يحل رموزها البعض ويستعصي على البعض الآخر الوصول إلى حلها أو إلى ما تعنيه هذه العلامة؟

فكرت كثيراً: تُرى لماذا تكبر علامة الاستفهام أمام عيني؟ ولماذا تظل مستعصية الحل تمد لي لسانها الطويل في هدوء وصمت ودونما أي سخرية؟

أيكون ذلك لأشعر بالمزيد من الأسى والحزن؟ ربما ضاعفت مسيرة الأحزان في حياة البشر من أحزان البعض ومن سعادة الآخرين. لا. لا تستغربوا فذلك ما كان يحدث بالنسبة لي ولزوجي. نعم! كثيراً ما كانت أحزان بعض الناس وسيلة تسلية وفرح عند البعض الآخر وكأن المثل القائل: "مصائب قوم عند قوم فوائد" يبدو دائماً ويظهر بصورة أو بأخرى بل ولا يحاول أن يختفي من تجاويف الذاكرة التي ترسم ظروف الأمس صوراً متلاحقة تظهر وتختفي ونحن في بعض الأحيان نجدّ في البحث عنها بلا هدف وكأننا مجردون من عوامل الفهم والإدراك لحقائق الحياة ولحقائق ممارساتنا لهذا الغبن في الحياة أو التواجد فيها.

أو لستم معي في أن الحياة على هذه الأرض تحتاج من كل من أمثالي أن يتعرف إلى دقائقها بفهم وإدراك وحب ودون أن ينظر إلى ظروف الأمس القاسية في كثير من الأحيان؟

الفصل الخامس

أشياء كثيرة جدت في بيتنا الصغير. أطفال الأمس كبروا وكبرت معهم آمالهم وأصبح كل واحد منهم يفكر بأسلوب يغاير أسلوب الآخر لكني مع كل ما أراه أجد تفكيري دائماً ينصب على أبي، هذا الرجل المبتسم المملوء حيوية ونشاطاً يعرف كيف يعيش، قفز على حواجز الحياة، وتمشى مع آمال وتطلعات الشباب، بينما بقيت أمي تراوح مكانها ومع هذا كله، فأنا أشعر بأنه يحب هذه العجوز الجميلة.

أبي يحب السفر ويعشق النزهة ويميل قلبه إلى ارتياد أماكن الجمال وأنا مثله أحب السفر بعد أن أدمنته. قال لي في إحدى الأمسيات:

ـ لولاي لما رأيت الحياة في أمريكا.

وهذا صحيح فقد استطاع هذا الأب أن يخرجني من دوامة العيش الذي أضناني وأتعسني ليأخذني لأرى العالم كسلوى وعزاء لي وحتى أتحرر من ربقة أحاديث عجائز عائلتنا والتي تدور في مجملها حول حظي التعيس في الزواج، تلوك ألسنتهن كلمات الشفقة علي كلما مررت من أمامهن أو كلما سمعت اسمي يتردد أمامهن.

في رحلاتي وأسفاري إلى الخارج، أعترف أنني لم أستطع أن أتأقلم مع كل ذلك الذي أراه في أوروبا وأمريكا، فالمرأة هناك لم تعد امرأة. أصبحت لا تخشى على أنوثتها من زحف التتار، ضاعت قدماها في الطريق، ولقد عز علي أن أرى بعض بنات جنسي هن الأخريات تضيع أقدامهن في السفر ويتحللن من كونهن عشن على هذه الأرض.

التعليم الذي منح المرأة القدرة على حسن الاختيار أصاب بعضنا بالغرور وملأ قلوب بعضنا بالنعمة. لقد أصلح التعليم من حال الغالبية العظمى منا لكن الفئات الأخرى من النساء أراهن في كل رحلة يطللن علي بوجوه تعلوها ابتسامات عجفاء لا أحبها ولا أجيدها.

في مجتمعنا الطيب أشياء كثيرة طيبة، وفيه أشياء أخرى رديئة لكن الرديء يمكن أن نقاومه ونقومه بالتعليم نعمة هذا القرن على المرأة.

في بلادي صنع التعليم من المرأة هذا الكيان الشامخ الذي أراه ويراه معي الكثيرون. وأنا هنا لا أبحث وأناقش الذي أقوله وإنما أستعرض حياة كل أولئك اللواتي يشكلن هذه النماذج المختلفة التي أراها وأنا أسير في طريقي في دروب الحياة.

بمقدار حبي لصديقاتي، أشعر بأن أكثرهن غير سعيدات ربما لأنهن قرأن وفكرن أكثر مما تحتمل رؤوسهن الصغيرة وربما لأن أحلامهن كانت أكبر من قدراتهن أو مما يتاح لهن تحقيقه وربما لأن الحياة لا يمكن أن تعطي الإنسان كل ما يرغب ويشتهي.

في أمريكا التقيت بالمرأة الأمريكية فشعرت بأنها رجل في إهاب أنثى. ضاعت خطواتها بين الحرية والتحرر وأصابها ما أصابها حتى أصبح الكثير من الرجال يبحثون عن زوجات مطيعات من الشرق الأقصى.

قد تكون المرأة في الشرق الأقصى أقدر على صيانة نفسها وصياغة أسلوب تعاملها مع الرجل على كل شيء من الحب والتفاني والاحترام، لكن المرأة في أمريكا شيء يغاير كل هذا فهي تشعر بأنها صنو للرجل تصنع ما يصنع وتعمل ما يعمل وتكسب كما يكسب ولذلك فهي تقاسمه ماله عندما يطلقها.

في المجتمعات المتقدمة، رغم كل مظاهر الاحترام التي يمارسها المجتمع مع المرأة، نجد أنه يقسو عليها ويصنع منها ركاماً من الأخطاء حتى إذا ما ضاعت قدماها أُلقيَ بها طعماً للطريق.

ألم تلتقوا بالمرأة المسنة العاملة في القطار والطريق وأماكن النظافة؟ انظروا إلى وجوه النسوة اللواتي أقعدتهن الحياة. ستجدونها مشدودة بأصباغ لا

تغني عن فعل الزمن ولا تزيد من حلاوة الوجه وإنما تمنحه القبح بعد الجمال والخشونة بعد الرقة. ومع هذا، تصر المرأة العجوز هناك على استخدام مستحضرات التجميل بشراهة. تأكل وتضحك وتنكت وتتحدث بصوت عالٍ وتقول ما تريد بل وتطلب ما تريد من الرجل وتمنحه ما يريد إذا وجدت ذلك الذي يريد وهي في ذلك السن ظناً منها أن هذا يؤكد وجودها كأنثى على خارطة الحياة وتتناسى أن المرأة بطبيعتها تميل إلى تأكيد وجودها هذا من خلال أولادها وأحلامهم وأمانيهم.

الناس في العواصم الكبيرة مجرد أناس لا يعرف الجار جاره. في بيتنا القديم في النورية كان كل واحد منا يعرف جاره أما اليوم، فقد طغت المدنية على كل شيء، وارتفع البنيان وشمخ، ودخل إلى مجتمعنا عناصر غريبة جاءت لتبني معنا ثم طاب لبعضها المقام لفترة كانت كافية لزرع مفاهيم وتقاليد أخرى إلى جانب تلك التي عرفناها في الحي الذي كنا نقطن فيه في النورية.

بمقدار ما أحب السفر وأحب التنقل والترحال، لا أجد الراحة إلا عندما أعود إلى بيتي ولكن، مع كل هذا الذي أقوله، ما إن أرتاح من إحدى أسفاري حتى أحن إلى السفر مرة أخرى وكأنني نحلة ضلت طريق سعيها.

هذا الزوج القابع ضمن أركان البيت كمتاع من أمتعته هو السبب. وأنا من أنا؟ لم أكن سوى امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قدرة، أعطتها الأيام بعضاً من القوة فهبت تدافع عن أحلامها التي أضاعتها، راحت تبحث عنها في كل مكان، تأمل أن تلتقي بها وتأمل أن تسعد مع رجلها وأن ترى النساء كل النساء يعشن إلى جوار أزواجهن يحلمن بالحياة السعيدة بعيداً عن مشاكل الحياة ومنغصاتها. ولكن.. هل كل الأزواج سواء؟

في إحدى رحلاتي، التقيت بواحد من أبناء بلادي. شاب في مقتبل العمر ابتلي بزوجة كريهة المنظر لكنه، ورغم كل ما يراه من مظاهر الجمال، يحنو على هذه المرأة ويساعدها ويتمسك بها من قلبه.

عندما سألته بفضول عن السبب، قال ببساطة وهدوء شديد:

- إنها زوجتي!

أين زوجي القابع في سراب أحلامه يتعرف إلى طبيعة الرجل في أرق

الرجال؟ أين هو ليعرف كيف يحب الزوج زوجته ما دامت هي كذلك وحتى إذا لم تكن جميلة؟ أما إذا كانت جميلة فلا بد وأن يتحسن الحال إلى الأفضل كما يفترض.

وتتزواج الصور: صورة زوجي، بعده عني، وصورة أبي الذي أحب لأخرج بعد كل هذا من هذه المقارنة بفلسفة جديدة أكاد أحسها وهي تنطلق من عقالها في نفسي التي أخذت تبدو من أغلفة الماضي شيئاً جديداً مميزاً.

فالمرأة لم تعد ذلك الكم المهمل الذي يربض على أطراف القرية في البيت القديم. المرأة أصبحت شيئاً آخر يسر العين ويبهج الخاطر فهذه الآلاف المؤلفة التي انتظمتها مسيرة الحياة الجديدة. ستدك بأقدامها أحجار الأمس وهي تلبي نداء الحياة في حياة الأنثى وطهارتها ونقائها، وسوف يأتي الوقت الذي تقفز فيه الحرائر على مشاكل الأمس المترسبة في أعماق الرجل. أو ليس الرجل هو الصنو المدهش الذي يسير على الدرب ذاتها وفي نفس أجواء المعرفة التي تسربلت بأبهى ظروفها؟

وتتوالد الأفكار ثم تتداعى وكأنها تعلن عن ثورة مكبوتة في أعماقنا نحن الحرائر حتى إذا ما التقت واحدة منها بالأخرى انطلقت كلماتنا تجلجل في أسماع الدنيا بأسلوب هادئ رصين يصنع الجسور ويقيم من فوق الجسور طريق الأمل الذي نأمل أن نراه يتجسد على الواقع في دنيانا نحن الحرائر دائماً وأبداً.

الفصل السادس

أحلم كما تحلم العصافير، وأستعيد من موقعي في بلكونة داري التي منها هذا الفضاء اللامتناهي المثير.

كل شيء في طفولتي بدأ يظهر. أحسست بأنني لم أكن مجرد طفلة.. ربما لأن أعماق أعماقي تختزن من الذكريات ما يجعلني قادرة على أن أقارن بينها وبين حياتنا التي نعيش.

سهى صديقتي سمراء اللون ضاحكة السن تتلاعب الحروف والكلمات على شفتيها عاطفية تحب دائماً ولا تكره وتعتقد بأن الحياة مجرد قفص يعيش فيه العصافير كما تريد وتنسى بأن الإنسان أسير العادة وظروف مجتمعه. هذه الفتاة الغارقة في رومانسيتها تجهل الكثير من مناقب الحياة ومثالبها. عاصرت حياتي في الجامعة وحياتي وأنا مدرسة وحياتي وأنا زوجة أيضاً. نتغيب عن بعضنا البعض قدر ما نتغيب ولكن عندما نلتقي، نشعر بأن إحدانا لم تغب عن الأخرى.

هناك انسجام كبير بيننا يولد في أنفسنا هذا الشعور الذي أتحدث عنه. قالت لي مرة:

ـ إن المرأة مجرد حروف صغيرة وإن الرجل عبارة عن كلمات وإن الحروف عندما لا تعرف كيف تختار مكانها في الكلمات تتغير معاني هذه الكلمات.

أذكر أنني أجبتها ضاحكة:

ـ أنت فيلسوفة يا صغيرتي.

وهي، إذا أردتم الحقيقة، ليست صغيرة بالنسبة لي فأنا وهي من

عمر واحد تشابهت معنا سبل الحياة وتغيرت كثيراً من ظروفها أيضاً.

وأردفت قائلة:

ـ المرأة يا صديقتي أحاسيس تتلاطم في أجواء الأمواج من أعالي البحار لتحط تارة على رصيف الميناء أو عند رمال الشاطىء تارة أخرى. ذلك قدر المرأة تدري أو لا تدري ولكنها يجب أن تعيش لا كما تعيش العصافير، وإنما طليقة في رحاب هذه الدنيا. تخلص لمن تحب، وتعطي الحياة شيئاً كبيراً منها ومن ذاتها وكيانها وحياتها والرجل يظل الرجل إلا عندما يصبح زوجي.

وأضحك وتضحك هي من أعماقها وتضحك معنا أختي الصغرى التي أحب والتي كانت تشركنا تلك الجلسة.

وأظل أنا بعد أن تنتهي الضحكات أفكر. فأنا أحلم كما تحلم العصافير فعلاً. أحلم بأن أطير وأحلق بعيداً عن هذا القفص الذي وضعت نفسي فيه بملء إرادتي.

وأمعن النظر في أقوال من أعرف لأرى من خلال ذلك ظروف الحياة التي مرت بها حفنة من الصديقات شاء حظهن الطيب أو العاثر أن يلتقين مع الفجر الغائم أو النور الساطع. بعضهن في لهو ولعب وحياة مشرقة وأمل باسم، وبعضهن في عذاب وضنك وشقاء لا يحتمل.

سهى صديقتي هذه تحلم وأنا أحلم وصديقاتي يحلمن ولكن أحلامنا تضيع هباءً. ونحن ندري ونعرف ونظن بأننا قادرات على صيد كل هذه الأحلام.

إحدى الزميلات من المدرسات اللواتي أعمل معهن أصبحت مع مرور الوقت من أعز صديقاتي، ضاقت بالحياة فترة حتى إذا ما أراد الله تعالى لها أن تتعايش مع حياتها الجديدة أصبح في إمكانها أن تمنح الأخريات النصيحة.

قالت لي في أحد الأيام:

ـ قد يكون الطلاق أبغض الحلال إلى الله تبارك وتعالى، لكننا عندما نفكر في طلبه في الأحوال التي تتطلبه يجب أن نطلبه. انظري إليّ لتري كيف تحول ظلام الأمس في حياتي إلى نور لأنني طلبت الطلاق وأصريت عليه بعد تجربة فاشلة مريرة. لقد تزوجت لأحرص على أن أعيش حياتي بهناء وسعادة فكان

العكس والعكس تماماً.

نحن يا أختاه لا أمل لنا عندما نفقد حياتنا داخل بيوتنا ونقضيها مع أزواج لا يشعرون بأهميتنا وبالتالي لا يحاولون صيانة حياتهم الزوجية على النحو الذي أراده الله سبحانه وتعالى. عندها، يجب أن نصنع لأنفسنا شيئاً ما يمنحنا الحياة.

أحلم كما تحلم العصافير، ولا أنسى كل هذا الذي أراه وأسمعه وأحس أنني كريشة في مهب الريح تتقاذفها الأفكار الكثيرة الإيجابية منها والسلبية. أصمم على الطلاق وأعلن عن تصميمي لنفسي. لا ليس لنفسي تماما، فأنا إنسانة وإن كنت قليلة الكلام إلا أنني أحياناً أحب أن يشاركني التفكير والتصميم قلة من الناس الذين أثق بهم. أختي الصغيرة مثلاً وصديقتي التي أحب، وابنتي التي كبرت، بالإضافة إلى جدران غرفتي التي لا تعرف الصوت وإن كانت قد شاركتني الاستماع إلى جميع أنواع الغناء فالموسيقى والغناء، هما العلاج الذي أمارسه لتطبيب نفسي في هدأة الليل وحتى في صحوة النهار.

ثم بعد كل هذا، البحر بأمواجه وأصواته وأحاديثه وكل شيء فيه. في رحابة صدر هذا العملاق تجد الأنثى مثلي نفسها مرة ثانية وهي تستنشق عبيره الجميل. ألستم معي بأن عبير البحر يصبح أحياناً عبير رجل نحبه؟ قد يختلف معي بعض أولئك الذين يرون بأن أسرار البحر قد تصبح أحياناً أسهل اكتشافاً من أسرار الرجل؟

وتكبر الابتسامة على وجهي رغم ظروف المحنة التي أعايشها لكنها، وإن كانت كما أسميها "محنة"، إلا أنها لن تستطيع الاستيلاء على نفسي وعقلي وقلبي وتفكيري فأنا امرأة تعرف طريق قدميها في قوة واقتدار.

قد تحلم في كثير من الأحيان، لكنها عندما لا تتحقق أحلامها، تبدأ في التفكير من جديد في الطريقة التي تستطيع بواسطتها اكتشاف الخطأ في أحلامها هذه.

ستقولون بأن كل ما أردده سفسطة لا طائل من ورائها وأقول أنا بملء فمي:

ـ لا. لا.. تطل من بين شفتي رغم كل الظروف. فالإنسان هذا الذي

استطاع أن يبني هذه الحياة ويملأ كل مدنها وقراها بأحاسيس الحياة على تنوعها قادر، إذا امتلك ناصية نفسه، أن يصل بأهدافه إلى بر الأمان رغم كل ما يحيط به من أشواك وعقبات.

ونظرتُ بعدها إلى المرآة لأتأمل وجهي عيني وأشاهد في هذا الوجه وتلكما العينين نظرة عزم وإصرار أخذت تحيط بشفتي ووجهي كله. ثم لأرى نفسي بعين الخيال، وقد استطعت أن أخرج من هذه المحنة التي تكبر وتكبر ليزداد أثرها وتأثيرها علي. ولكن...

قد تكون عزيمة المرأة في بعض الأحيان أقوى من جدران الشواطئ، فالمرأة عندما تحس بنفسها كالطير الجريح تبدأ في البحث عن الطريق الذي يمكن من خلاله أن تجد بوارق أمل لتستطيع به ومن خلاله الوصول إلى ما تهفو إليه وتصبو.

تلك هي إحدى حقائق وجودنا وتواجدنا على هذه الأرض. منذ ذلك اليوم الذي اختارت فيه أمنا حواء البقاء على أرض هذه الدنيا وهي في رحلتها الجديدة تواصل بناء معالم الحياة على هذه الأرض بأسلوب أراده الله تعالى ليصبح الإنسان بعد ذلك كله ظل الله عز جل وخليفته على أرضه.

الأرض التي يمكن أن تصبح الخير كله إذا أجاد الإنسان دوره في هذه الحياة سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة.

فالمرأة هي حضن هذه الأرض منها يستمد العالم قوته وقدرته لأن يكبر وينمو ويتعايش مع ظروف الحياة في ظل إرادة قوية تنبع من إيمانه بحقائق الحياة خيرها وشرها، حلوها ومرها.

الفصل السابع

ارتفعت الأيدي تصفق للسيدة التي أخذت مكانها في حلبة الرقص وهي تحاول في كبرياء انتزاع نظرات الإعجاب من كل هذه العيون الجميلة التي أخذت تتحلق وتحملق في وجه وجسد الراقصة.

في المجتمعات النسوية، وفي أفراح الأسرة، يدخل النساء الفرحة على القلوب ويشاركن أسرة العريس والعروس بالمجاملة والرقص وإسعاد الآخرين.

سامية تجيد أنواع الرقص الرجيعي والسامري والكويتي، ووجهها وشعرها الأسود الحالك ويداها وجسدها وخصرها وجمالها. كل ذلك يساعدها على أداء أية رقصة فمجتمع المرأة المقفل أقدر على إسعاد المرأة من مجتمع الرجل.

سامية هذه صديقتي أعرفها عن قرب وأعرف أنها لم تكن سعيدة في يوم من الأيام. أولئك اللواتي شاهدنها في حلبة الرقص، وأنا أولهن، داخلهن إحساس آخر غير ذلك. عندما انتهت من رقصتها سارعت ونبضات قلبها تدق بشكل واضح تجلس إلى جانبي. قلت لها:

ـ كيف تقدرين على اختزان الألم وإبراز الفرحة؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة باهتة:

ـ كتب علينا نحن النساء شيء من الشقاء صنعه الرجل لنا ومع هذا نبحث عن الرجل فهذه سنة الحياة. لقد جئت ودموعي على خدي. جئت إلى دعوة سهى، فكما ترين، اليوم يوم فرحها فلا أقل من أن أشاركها الفرحة ولتظل أحزاني حبيسة في صدري ما دمت

قادرة على ذلك. أنا مثلك يا سهير أعايش الوحدة منذ أكثر من عشرة أعوام رغم وجود زوجي في بيتي ومع أولاده تارة وعند الأخرى زوجته الثانية تارة أخرى. وأنت تعرفين، فهذه الأخرى التي أتكلم عنها كانت من أعز صديقاتي لكنها وبعد أن فتحت لها بيتي استطاعت أن تأخذه مني.

لو قارنت بين نضارتي ونضارتها ووجهي ووجهها وجمالي وجمالها لخرجت من هذه المقارنة لصالحي ومع هذا، فقد ذهب إليها، وإذا ما عاد فلأيام في بيتنا. هو لا يدري ماذا يفعل لأنني كنت أنا الرجل والمرأة في بيتنا وأما هناك، فحتماً سوف يختلف الأمر. إلا أنني أصدقك القول عندما زاد الكيل عن حده، شعرت بأنني مخطئة وأن علي أن أتحرك وبالأمس فقط جاءتني ورقة الطلاق بعد معارك دامية.

أتظنين أنني سعدت بها؟ أقول لك الحق: لا، وإن كانت هذه الورقة منحتني التحرر من ربقة هذا الظالم الذي كان يظن بأن بيتي ملجأ له ولأصدقائه. لقد طاف أنحاء العالم بجهدي وكدي. كان يأخذ رواتبي أولاً بأول وفي كل مرة عندما يأخذ واحداً منها كان يتركنا ويسافر ومع ذلك فليس سهلاً على المرأة أن تحطم بيتها بيديها وصدقيني أنها لا تفعل ذلك إلا إذا سدت في وجهها كل السبل والمنافذ.

تقولين بأنه عندما يراني أحد أولئك الذين حولي يظنون أنني سعيدة، وأنا أحب أن أغرس هذا الإحساس في قلوبهم لعدة أسباب ربما منها أنني أخاف من شماتة الصديقات أو الزميلات وأنت تعرفين جيداً ماذا أعني. اتهمني أهله بأن هناك شخصاً آخر في حياتي وأنني لذلك أنا مصرة على الطلاق وهاهي الأيام تكذب هذه التهمة.

الناس، يا صديقتي، تهمهم مظاهرنا وأنا أريد منهم بمظهري المرح هذا أن يشعروا بأنني سعيدة وإن كنت في داخلي أجتر إحساسات التعاسة والمرارة.

فكرت في كل هذا الذي تقوله هذه الصديقة وقلت لنفسي: إنني أنا أمر بهذه التجربة وأستمع إلى كل ما يقال وأكاد أعرف ماذا سيقال فيما بعد، لكنني مصممة وتصميمي نابع من أنني أعرف ما أريد ولماذا أطلب هذا الذي أريده.

عندما تعطي المرأة تحس بظلم الرجل، تنسى حبه والرجل عندما يفقد

احترامه في قلب المرأة يصبح مجرد إنسان على هامش حياتها. حياة المرأة والرجل عاطفة مشوبة بالأمل. عندما تضيع أقدامنا في الحياة الزوجية، نشعر بالأسى لكننا عندما نهدأ نجد أن أفضل الحلول هو الطلاق.

أفكر كثيراً في هذا الأمر وأعرف أنه دوائي الناجح فكيف بالله تريدون مني أن أحيا مع ظل رجل لا يحب أن يمنح بيته أي شيء لا المال، ولا الحياة، ولا حتى الحماية والاستقرار؟

البيت بالنسبة له مخدع نوم وغرفة طعام يمنحه كل ما يريد دون أن يدفع الثمن وما أتفه الثمن عندما نقدمه من أجل إقامة بيت سعيد.

سامية صديقتي تنظر إلى وجهي ملياً وتضحك وتقول:

ـ أعرف أنك تفكرين وتتأملين حياتك. لكنني قبل هذا وذاك أعرف جيداً أنك إنسانة راجحة العقل قوية الشخصية ولهذا فأنا لا أخاف عليك كما أخاف على نفسي.

قلت لسامية:

ـ هل ستتزوجين؟

ضحكت من غباوة سؤالي كما قالت لي فيما بعد وأجابت:

ـ لو سألني أحد غيرك مثل هذا السؤال لقلت لا. لكن ما دام السؤال منك فأقول: لا يضمد جراح المطلقة إلا أن تستطيع أن تحتل قلب رجل يحبها ويحترمها ويبعد عن نفسها شبح الماضي التعيس الذي عاشته.

صمتت لحظة ثم تابعت كلامها قائلة:

ـ وأنت؟ إنك صغيرة وجميلة.

ابتسمت وتمتمت:

ـ شكراً لك يا سامية على هذا الإطراء.

ـ ولكنك لم تجيبي على سؤالي!

تساءلت سامية. قلت:

ـ لندع الأمر نتحدث فيه ونناقشه فيما بعد.

وغادرت المكان الذي يجمعنا إلى بيتي وكلمات سامية ترن في أذني.

نعم! أخذت أفكر في كلام هذه الأنثى التي أحب. ترى هل صحيح أنه يضمد جراح المرأة التي ترغب أن تطلق أن تتزوج ثانية؟

وعلى أي أساس سوف تبني قواعد هذا الزواج الجديد؟ وهل قبل هذا كله يمكن أن يصيب امرأة مثلي في زواجها الثاني ما أصابها في زواجنا الأول؟

مجموعة أسئلة أخذت تتطاول على ذاكرتي في قوة حيناً وفي شحوب حيناً آخر. لكن هذه الأسئلة أصبحت فيما بعد بالنسبة لي ليست مجرد أسئلة تتراقص أمام عيني بلا هدف، وإنما أسئلة أجوبتها تدوي في عقلي وتستقر في أعماق أعماقي.

وانتصبت أمام عيني سامية صديقتي أتخيلها بلباس الفرح الزاهي مرة أخرى وبجانبها هذه المرة زوجي. نعم زوجي أنا، فقد كنت أشعر بأنه هو الآخر سوف يسارع إلى الزواج بمجرد أن يحس أنني مصممة على الطلاق ولا ألومه أو ليس الرجل بشكل عام هو الآخر في حاجة إلى امرأة كما هو الحال بالنسبة للمرأة؟

ـ هذا صحيح.

ابتسمت وقلت لنفسي في مرارة: ولكن هل الأمر كذلك بالنسبة لزوجي؟ لا أدري ولا أود أن أدري. ربما لأن بعض الأمور ومثل هذه بالذات يجب أن تظل في مكانها بلا معرفة تاركين للزمن مهمة أن يجيب عليها ويضع النقاط فوق حروفها.

الفصل الثامن

لم أكن أظن بادئ ذي بدء أنني قادرة على تفسير ما يجري في بيتنا لنفسي لكنني وبعد أن استطعت الإمساك بكل تلك الأمور، بدا لي زوجي على حقيقته إنساناً تافهاً متلافاً مادام يعيش على هامش الحياة. الرجال يبنون أنفسهم بقوة ويصنعون لزوجاتهم بيوتاً قادرة على حمايتهن من غدر الزمان.

أنا الرجل في البيت وفي الخارج. زوجي يعتمد على قدراتي في الإمساك بهذه الأمور ولم يعد يهمه شيء. تبدى لي كل ذلك الضياع الذي بدأنا به مرحلة العمر في بيروت مجرداً من كل شيء وعرفت أن زوجي يحب الحياة السهلة المريحة لا يريد أن يعمل ويكفيه أن زوجته هي التي تعمل ويكفيه أيضاً أنه غير مطالب بأي شيء تجاهها فراح يدمن السفر والسهر ليلاً لينام طوال النهار. ابنتي التي أصبحت شابة عرفت كيف تميز وتختار فاختارتني لأنني كنت الوحيدة في حياتها. الأبناء والبنات يختارون دائماً من هو أحرص على مصالحهم.

الشهور التي كانت تقضيها ابنتي في لندن أكسبتها نظرة خاصة. وبمرور الزمن، أصبحت تتطلع إلى الحياة كامرأة وكانت تسألني السؤال تلو السؤال عن كل الذي يجري بيني وبين أبيها وأنا لا أبخل بقول الحقيقة.

أمي تتأرجح في موضوع طلبي للطلاق. أحياناً ترفض الطلب وتستنكره، وأحياناً تباركه. أما أبي، فقد كان في رحلة طويلة بعيداً عن أرض الوطن.

ولكني أعترف أنني، وقبل عام واحد من تاريخ طلبي الطلاق من

زوجي، حاولت أن أكون معه في مشاكله الخاصة ولقد وقفت إلى جانبه في بعض الأحيان حتى ضد أبي وكان هذا خطأ مني أغفره لنفسي حين أفكر أنني كنت بذلك أحاول أن أحمي بيتي من شبح الطلاق الذي كان يقترحه والدي عندما يرى كيف أعيش مع زوجي وكيف أننا غريبان تحت سقف واحد.

والآن، عندما أفكر بيني وبين نفسي لماذا لم أطلب الطلاق من قبل وزوجي هو زوجي لم يتغير فيه شيء أشعر بأنني كنت مخطئة تماماً.

طوال مدة عملي كنت أنا التي أدفع مصاريف البيت وأتحمل مسؤولية كل أموره. ربما اختلطت الأمور في عقلي، لكنها بدت واضحة في نهاية الأمر فأسرار البيوت أمانة لدى الأزواج والزوجات وزوجي يفضي إلى كل من هب ودب بأسرارنا حتى ضقت بما يفعل ولما حدثته عن هذا اعتذر.

بيني وبين زوجي آلاف الأميال، هو في لندن وأنا في جدة. عندما عرف حقيقة طلبي حاول الاتصال بي تليفونياً. في المرات التي تحدثت فيها إليه شعرت به يقول وكأنه لا يصدق ما يسمع:

ـ لم أستطع تحمل الصدمة. أنا أحبك. تعودت عليك ولا أستطيع الاستغناء عنك. لا بد أن هناك من يحاول إفساد ما بيني وبينك. صدقيني لقد بكيت عندما تأكدت من هذا النبأ.

قاطعته وأنا أقول بهدوء:

ـ لا تقل هذا الكلام. أنت وحدك الذي أفسدت ما بيني وبينك ثم قبل هذا كله وبعده لماذا تبكي وهل يبكي الرجال؟

في المرة الثانية قال وهو يحاول أن يثنيني عن عزمي:

ـ ستندمين.

ضحكت بمرارة وقلت:

ـ وعلى ماذا سأندم؟ أنت تعرف بأنني كل شيء في البيت وأن وجودك وعدمه فيه سيان.

قال بصوت منخفض وكأنه يحاسب نفسه:

ـ أعتذر لك وأعدك أن أنفذ كل رغباتك. سوف أغير أسلوبي في الحياة.

سأسعى لإرضائك.

أجبت بكلمة واحدة هي:

- ولو.

وأقفلت السكة في وجهه.

وبعدها، ولأول مرة في حياتي، أرى زوجي يحاول أن يكلمني بالساعات وهو الذي كان يبخل أن يسأل عني وعن ابنته تليفونياً عندما يسافر بالشهور.

عندما أحس بأن الطير سيغادر القفص وأنه لن يعاود سيرته كما كان السيد المطاع في بيتنا دون أن يدفع الثمن، حاول أن يسترضيني. لا بد أن الرجال الآخرين ليسوا كذلك.

أسمع من بعض صديقاتي ماذا يفعل الرجل ليكون فارس بيته وحامي زوجته. يعرف طريق قدميه، يبني بيته، يسعى لتحسين دخله، يعمل على إسعاد أهله بشتى الطرق .

زوجي لا يهمه شيء إلا أن يأكل في البيت وينام ثم يخرج ليلهو ويمرح أو يدعو أصدقاءه إلى البيت ليلهوا ويمرحوا معاً فيه.

هذا البيت الذي من مفروض أن يكون مكاناً مقدساً وليس مرتعاً يلهو فيه أحد الزوجين ويمرح دون أن يحسب حساب من فيه. على أي حال، هو أيضاً لم يعد في نظري كذلك بعد أن لاقيت فيه من زوجي ما لاقيت.

نظرت إلى المرآة بعد أن جالت أفكار كثيرة متضاربة في عقلي فوجدت أنني لا زلت جميلة كما كنت دائماً إن لم أقل قد زاد بهائي وعرف الهدوء طريقه إلى نفسي وحركتي وأحسست بأن ما صنعته لهذا الرجل أي زوجي فوق طاقتي وقدرتي فهو أولاً وأخيراً لا يحب إلا نفسه ولا يعمل إلا على إسعادها متناسياً حقوق بيته وواجباته نحو من فيه.

لو كان يعرف كيف يبني هذا العش الذي ليس له فيه إلا ذكريات صنعها بنفسه ولنفسه فقط. وما أضعف هذه الذكريات عندما تكون منقطعة عن ذكريات الآخرين، عندما تكون باهتة وبلا حركة أو حياة. ما أضعفها لأنها تموت بسرعة فلا عاطفة فيها ولا حرارة.

ماتت ذكريات لبنان ورحلاتي معه، لأن كل واحد منا كان في عالمه

الخاص ولم يبق سوى شيء واحد هو هذا الألم الذي أحس به يطبق على قلبي وصدري لدرجة يكاد يخنقني. أنا التي عرفت كيف تخطط لحياتها وعرفت كيف تدفع بنفسها لأن تصل إلى ما تريد بعد سنوات من الضياع.

استدركت الحالة التي وصلت إليها أيام حياتي في لبنان وتفردت عليها أنا الأنثى الضعيفة. أو ليست حواء ضعيفة في هذه الأرض؟ وفي حاجة إلى الحماية والرعاية والكتف القوي الذي تستند عليه في حياتها؟

زوجي لم يكن هذا القوي الذي أستند عليه، فالرجال أمثاله يكونون في العادة مشغولين بأنفسهم وأحلامهم السخيفة التي يبنونها من ورق أو يعلقونها في الهواء. صحيح أننا نحن النساء لنا قدرة على الصبر والتحمل وأن هذه القدرة كبيرة جداً ولكن إذا ما طفح الكيل نزعنا أنفسنا من دوائر الصمت التي تضيق وتضيق لنفلت بعدها منها وأعصابنا مشدودة إلى المستقبل نرمق بوادره في كبرياء وهدوء وصمت أيضاً. ونحن ندرك كذلك بأن القدرة على اجتياز مساحات الألم فيها الكثير من الكبرياء التي يجب أن تتحلى بها المرأة.

دور المرأة في هذه الحياة أكبر من دور الرجل فلقد أرادها الله سبحانه وتعالى لتكون منبعاً لهذا الصفاء الذي يلف ذاكرة الأيام والليالي. يدفعهما لأن يصبحا شيئاً جديداً تستثمره المرأة في اجتياز مسالك الحياة ومعابرها نحو الأفضل وكأنها في سباق مع نفسها التائهة التي وجدت طريق أقدامها بعد لأي.

وارتاحت نفسي، وأخذت أجمع شتات الماضي لألقي به في دواليب الحياة ثم أقفل كل أبواب تلك الدواليب، وبدأت نفسي تصفو وأحلامي تظهر مرة أخرى.

شعرت بأن روحاً جديدة تدب في أعطافي، وأخذت ألملم ذاتي من خلال الدروب المحزنة ويدي تمسك بوردة حمراء جميلة أطلت من وراء أشواكها في شموخ وكبرياء .

كان في جعبتي كلمات وكلمات رحت أودعها صدري في الماضي لتظل حبيسة فيه، أرددها لنفسي دون أن أجرؤ على البوح بها لأي إنسان آخر. ربما لأنني كنت أشعر في ذلك الوقت أنها أكبر من أن تتحقق، أو أن تحقيقها هو المستحيل بعينه.

الفصل التاسع

يقولون بأن التاريخ يعيد نفسه ويزيدون بأن أكثر ما كتب في التاريخ إنما كتب لرغبة معينة. فالتاريخ عبارة عن شخصين يصف كل واحد منهما الواقعة كما يحبها أو يراها لا كما هي تماماً ثم يأتي من بعدها من يمضي على منوال أحدهما لهدف ما أو دون هدف.

لقد فرض التاريخ من منطلق الأحداث أحداثاً كثيرة نقرأها ثم لا ندري إن كانت فعلاً حقيقية أو لا كحرق طارق بن زياد لسفنه وهو الذي كان يحارب بشراسة وبلا هوادة من أجل نشر دين الإسلام. والثابت فعلاً أنه لم يكن دافع المسلمين الذين جاءوا لفتح الأندلس الخوف من أن لا يعودوا إلى أراضيهم وبلادهم، وإنما كان يدفعهم إلى كل ذلك إيمان بمبدأ فالحرب في سبيل الجهاد واجب مقدس.

كل إنسان في هذه الدنيا يجاهد بطريقته الخاصة من أجل حياته وسعادته والمبدأ الذي يؤمن به وأنا الآن أجاهد من أجل التخلص من العبء الذي أريد أن يزاح عن كاهلي. ولم يعد شغلي الشاغل وتفكيري المتواصل سوى متى أنتهي من هذا العذاب الذي يلاحقني.

ومن منطلق الحقيقة أقول لا شك أن أية امرأة هي في حاجة إلى رجل تحتمي به. أما إذا ما انعدم وجود هذا الرجل وانقلبت الآية وأصبح هو الذي يحتمي بها فماذا يكون الحال؟

قد تضحكون وتقولون بدهشة إن ما أقوله لا يمكن أن يكون واقعاً أو حقيقة لكنها للأسف حقيقة تحدث في بعض حالات الزواج وأنا وحياتي مثل حيٌّ على هذه الحقيقة. لتتصور كل الزوجات أن أزواجهن يغيبون عنهن لأكثر من أربعة شهور في كل نصف عام فماذا

يفعلن وكيف تكون حياتهن؟

تقول صديقتي رؤى إنها لن تفتح باب بيتها لعودة مثل هذا الرجل إليه وإليها وأقول أنا: لقد حاولت ولم تنفع المحاولة ولذلك فأنا اليوم أدافع عن حياتي قبل فوات الأوان.

ابنتي تعرف تماماً دقائق ما أصنع وما يصنع أبوها وهي معي في محنتي لا لأنها لا تحب أباها، وإنما لأنها تعرف وهي التي اجتازت سنوات الطفولة وأصبحت صبية يافعة أن ما يفعله أبوها مغاير لطابع نواميس الحياة.

يوم حضرت حفل زفاف صديقتي رؤى، خيل إلي أن هناك غيوماً تطل من وجه الصديقة. لم أصدق أنها طلقت من رجل لأسباب تعرفها هي وتعرفها أسرتها تماماً ثم تقع في نفس الظروف والأحوال التي أدت إلى طلاقها من زوج آخر.

قالت لي بعدها بأيام:

ـ كتب علينا نحن اللواتي نتعلم أن لا نستفيد من أخطائنا بمقدار ما يستفيد الرجل.

أزعجني حديثها وقلت لها بحدة:

ـ تحدثي عن نفسك فقط يا رؤى فليست كل من تعلمت على هذه الشاكلة التي تتحدثين عنها.

أجابت رؤى بسرعة:

ـ لا تحتدي يا أختاه. لقد قصدت من كلامي هذا أن الرجل ربما كان أكثر واقعية فلا يتكرر الخطأ معه كما يحدث معنا نحن النساء وإن تعلمنا أو حتى وصلنا إلى درجة عالية من العلم.

كلام رؤى جعلني أفكر وأفكر لأخرج بنتيجة محددة وهي أن رؤى على حق فالمرأة عاطفية وعاطفتها تدفعها في كثير من الأحيان إلى رؤية غائمة.

وتذكرت صديقة أخرى كانت تظن أن بإمكانها أن توقع في شباك صيدها أي رجل ويا ليتها كانت جميلة. لقد كانت خيالية ولا تملك رؤى واقعية للحياة فكان أن بقيت سنوات عمرها التي مضت بلا رجل ومن يدري ربما ستبقى

كذلك إلى ما لا نهاية.

أنا، والحمد لله، لست من هذا النوع الخيالي. إنني واقعية إلى أبعد الحدود، فأنا امرأة تعرف تماماً حاجة المرأة إلى الزوج وتعرف أيضاً معنى أن يكون هناك زوج في بيت كل امرأة فلكل من الاثنين واجب يجب أن ينفذه وحسب ولكن إذا لم يتم ذلك فليس معنى ذلك نهاية العالم بل معناه أن على كل منهما أن يسعى لتحقيق ذاته عن طريق آخر.

أختي التي لم تتزوج مقهورة من الرجال عموماً، وهي ترفض كل من يتقدم لخطبتها وتقول:

ـ ها أنت وغيرك ممن أعرف أمامي صورة قاتمة للحياة الزوجية وبعدها تريدينني أن أتزوج؟

أجبتها قائلة:

ـ أنت مخطئة. إن ما حدث معي ومع غيري لا يمكن تعميمه. نعم. الخطأ لا يمكن تعميمه. وعلى أي حال، يجب على المرأة والرجل أن يعرف كل منهما طريق الخير والصواب وينأيا بنفسيهما عن الخطأ بكل صوره وأساليبه وإن كان الخطأ في بعض الأحيان هو الطريق إلى الصواب لأننا نتعلم منه ونكتسب خبرة وعبرة.

أمي تنهر أختي كلما سمعت منها مثل هذا الكلام وتقول لها:

ـ ستظلين عانساً ويوم أمضي ويمضي أبوك ستعرفين أنك كنت ظالمة لنفسك فأنت لا تقدرين معنى أن يكون بجانب المرأة رجل خصوصاً في أواخر أيامها.

ابنتي، بعد أن جاوزت سنواتها السابعة عشرة، أصبحت تميل إلى مناقشتي وأنا لا أتأخر عن الحديث معها وكلما رغبت في ذلك.

وأنا أعرف بأنني بهذا الأسلوب أحفظ كرامتي وأعرف ابنتي بحقيقة الحياة التي نحياها في بيتنا كما أعرفها بما يبعد عنها شبح المشاكل التي تمر بها الفتاة أي فتاة في مثل سنها.

عندما طلبت من ابنتي أن تتحجب رفضت. لم تقتنع، وأنا لم أحاول أن

أضغط عليها. أما عندما طلب منها خطيبها أن تفعل ذلك، فعلته بسرعة ودون مناقشة.

فرحت لذلك، وعرفت أن ابنتي مقتنعة تماماً بخطيبها، وعرفت فوق ذلك بأن زوجها طيب سوف يكون هذا الخطيب لابنتي. مشوار الحياة ليس سهلاً على المرأة ولا حتى في مجتمع فاضل كمجتمعنا رغم أن المرأة فيه تعيش معززة مكرمة.

طريق المعرفة في الحياة محفوف بالفهم الشامل لحقائق الصراع الذي يجري في أعماق النفس البشرية فالإنسان هذا الذي يولد باكياً لا يمكن أن تهدأ أحلامه ولا أمانيه ولا مشاكله حتى وهو يفرح. ولعل هذه هي الحقيقة التي تشدني وتجعلني واقعية لا تجنح إلى الخيال.

عندما أذهب إلى البحر مع أسرتي، أحس بأن هذا الغادر الكبير أشبه ما يكون بالرجل فهو تارة هادئ ودود وخير إلى أبعد الحدود يمنح الثراء والنماء لكل من يقصده ويسعى إليه، وتارة قوي عنيد وغادر يقضي على ضحاياه ويدفنهم في أعماق أعماقه وهو، في كل حالاته، صامت مع أن أمواجه وحيواناته لا تهدأ.

ومع ذلك، فإن هذا البحر الذي أحب أن أراه من شرفة بيتي بزرقته المحببة إلى نفسي هو الذي يهبني القوة لأن أقف في وجه الضعف النفسي الذي يراودني في بعض الأحيان مما يجعلني أفهم معنى أن أكون امرأة تعرف طريقها إلى الحياة.

في آخر مرة ذهبت إلى شاطئ البحر، شعرت بأنني أقوى منه. نظرت إلى أمواجه التي تتلاحق، وأحسست بأن كل موجة بحد ذاتها أشبه برجل يلاحق الموجة الأخرى دون أن يصل إلى أهدافه إلا عندما تكبر هذه الأمواج على جوانب الشاطئ الكبير.

أمي تكره البحر منذ ذلك اليوم الذي غادرت فيه بيتها في استنبول متوجهة مع أبي إلى جدة.

كان ذلك الأمر في القديم القديم، لكنها تتذكر كل شيء وتعتقد أنها كانت في غنى عن ركوب هذا البحر الذي جعلها تستوطن بيتنا مع أبي وأمها التي جاءت معها.

ومنذ ذلك التاريخ لم تعد إلى بيتها القديم. فقدت الطريق إلى ذلك البيت بعد أن اختارت رجلها وبيتها الجديد ولهذا فقد كانت حريصة على أن لا أفقد بيتي عندما سافرت مع زوجي في بداية حياتي الزوجية إلى بيروت.

ذكريات بيروت بكل ما فيها من عفوية أهلت عليها التراب وأصبحت بالنسبة لي مجرد ركام أرفض بشدة أن أبحث بين رماده عن الماضي.

ذهب الماضي بكل ما فيه من خير وشر، وأصبحت أسيرة الحاضر الذي أتطلع إليه ولا أجده لا لأنني أفتقد طريقي في المسيرة، وإنما لأنني حائرة والحيرة هي التي تشدني لأن أفكر وأفكر وأتذكر.

وما أصعب أن ينسى الإنسان نفسه من خلال الذكريات وأنا امرأة صلبة العود قادرة على إدراك الحقائق في صمت وبلا ضجيج وهذه، في نظري، ميزة تتميز بها النساء اللواتي لا تعرف الدموع طريقها إلى عيونهن إلا برغبة وحب وفلسفة.

بمقدار ما أحس أجدني قادرة على العطاء، عطاء الأنثى القادرة وليس عطاء تلك التي هضمها الدهر وجردها من أسلحتها ساعة ضيق.

ربما لا أكون إنسانة عرفت الضيق وجربت الملل وسعت إلى أن تنال سعادتها بأظافر يديها اللتين لم تعرفا بعد الخضاب، وخضاب يدي المرأة في بعض المجتمعات العربية دليل على الرفاهية التي أحاول أن أصل إليها بأسناني، بجهدي وتعبي ودون الاعتماد بعد الله تعالى سوى على نفسي.

الفصل العاشر

في غمرة البحث عن الذات، يتجه الإنسان إلى معرفة ما حوله، فتراه يبحث وينقب في صحائف كل أولئك الذين يعرفهم ليرى إلى أي مدى يستطيع أن يهضم هو الآخر مشاكله ومعاناته وهل بمقدوره أن يضمد جراحه أم لا.

زميلتي هناء قالت لي:

ـ لا أدري لماذا تشدني الصداقة لأن أعترف لك بأنني، رغم إحساسي بشخصيتك القوية، إلا أنني أشعر بأن هناك ما يمكن لي أن أصوره بدقة دون أن أفهمه فأنت إنسانة رقيقة وتمنحين نفسك القوة والقدرة على هضم المشاكل ولكني، مع ذلك، أكاد ألمح في عينيك صدى ألم دفين تختزنينه في أعماقك بل إنني أحياناً أراه في ثورة غضب مجنون يجعلني أخاف عليك منه يا صديقتي.

ضحكت، وفي أعمق أعماقي إحساس بأن هذه الزميلة الصديقة استطاعت أن تسبر أغواري وتدخل إلى أعماقي وتكشف عما يعتمل فيه من أحاسيس أجاهد كثيراً في أن أخفيها حتى عن أقرب المقربين إلي.

لقد كانت عَينا هذه الصديقة الحبيبة النافذة أقرب إلى أعماق نفسي من أي أنثى أخرى. قلت لها وكأني أحاول أن أقنع نفسي:

ـ لا عليك، فما تلمحينه أحياناً في عيني ليس أكثر من سحابة صيف سوف تنقشع قريباً بإذن الله تعالى.

قالت:

ـ أعرف أنك كتومة، وأعرف أنك قادرة، وأعرف فوق هذا وذاك أنك لا تخلطين بين الصداقة وأسرار البيت ولكني أحس بأن في بيتك بالفعل شيئاً ما لا أدري كنهه.

نظرت إلى هناء نظرة متفحصة. خفت أن تكون بالفعل قد عرفت شيئاً ما عن حقيقة ما يجري داخل بيتي وأنا التي أحاول أن أخفي هذه الحقيقة عن أعين الجميع ولكن ما جعلني أطمئن هو أنها ليست على صلة بأحد من أهل بيتي ممن يعرفون أو يحسون بها.

وفجأة قالت لي هناء وقد تلون وجهها بألوان باهتة، أحسست معها بأنها تغالب دموعها:

ـ لا عليك يا صديقتي لن أسألك، ولكنني سوف أستودعك سراً لم أهمس به إلى أحد. نحن البنات اللواتي درسنا وعرفنا طريق أقدامنا بدأت مشاكلنا يوم أصبحت هنالك فوارق كثيرة وواضحة بيننا وبين أمهاتنا. عندما كبرت كنت كأي فتاة أبحث وأنقب عن الوليف فالمرأة، كما تعرفين، ترغب دائماً في الزواج والاستقرار مع وليف تحبه وتكمل مسيرة حياتها معه وإن لم تقل ذلك صراحة أو علانية. ولقد كنت أنا جريئة في أفكاري لدرجة أنني فكرت في أن أخطف ذلك الوليف أو الزوج من بين شباب الأسرة. لا تستغربي. لقد سألت نفسي ترى هل للمرأة الحق في الاختيار؟ وعلى أي حال، كنت كلما اتجهت عيناي إلى واحد من شباب الأسرة أجده يفلت من يدي لتطبق عليه وبشدة فتاة أخرى لا يعرفها هو ولا يدري الكثير عن ظروفها. أو يمكن أن تولد المعرفة فيما بيننا في مجتمعنا شيئاً من العزوف عن الزواج ممن عرفناهم؟ يبدو لي من تجربتي أن الأمر في النهاية على هذا النحو بالفعل.

قالتها هناء بمرارة وسخرية، وتابعت كلامها قائلة:

ـ لقد كنت أفكر بهذا الأمر بجدية، لكنني بالطبع لم أجرؤ على أن أهمس بما أفكر لأي إنسان وخصوصاً أمي. فأنت تعرفين مجتمعنا، يحتاط كثيراً ويغلف بعض الأمور بتقاليد وعادات يضعها أمام المرأة وينسى الرجل رغم أنه لو تم تنفيذ تعاليم ديننا بحذافيرها بهذا الصدد لتغيرت النظرة إلى مثل هذه الأمور.

أبي يوم جاءني يقول:

ـ لقد كبرت يا صغيرتي.

لم أعر كلامه أي شيء من الأهمية أو الاهتمام ولكن وبعد أيام عرفت ما يعني.

أما أخي، فقد جاءني هو الآخر يقول بأن صديقاً له قد اختارني لأكون زوجة له. نظرت إلى وجهه وسألته:

ـ ولكن ما رأيك أنت؟

ـ ارفضيه.

قالها بحزم، فقلت:

ـ وكيف أرفضه وهو صديقك ويمكن عن طريق ذلك أن أتزوج من إنسان نعرف الكثير عن ظروفه وهذا أفضل كما تعرف يا أخي.

تمتم قائلاً:

ـ ارفضيه لنفس هذه الأسباب، فهو صديقي وأنا أعرفه تماماً. إنه مثلي تائه لم يعرف طريقه بعد.

ضحكت وقلت:

ـ أتدري معنى ما تقول؟

قال:

ـ نعم.

وأضاف:

ـ الشباب الذين يعتمدون على آبائهم في كل أمور حياتهم لا يصلحون للزواج.

فهمت ما يعنيه وما يريد أن يقوله لي. إنه يريد أن يقول إن هذا الشاب الذي تقدم لخطبتي يعتمد اعتماداً كلياً على أبيه فأبوه هو الذي سوف يزوجه وأبوه هو الذي سوف يتكفل بمصاريف أسرته فيما بعد. واتخذت قراري، فقلت لأمي إنني لا أريد الزواج، ونقلت أمي الخبر إلى أبي وإخوتي وعندما سألوني

عن السبب قلت:

- إنني أريد رجلاً يعتمد على نفسه، يبني بيته بيديه ويعيل أسرته من عرقه وتعبه فذلك أضمن لبناء حياة زوجية سعيدة.

نظرت إلي أمي دون أن تفهم معنى ما أقول وقالت:

- ولكنك بذلك تقضين على سعادة أخيك أحمد، فقد اتفقنا مع أهل العريس أن نخطب أخت عريسك لأخيك أحمد.

أصريت على الرفض وقلت:

- إنني أرفضه لأنه رجل لم يمارس العمل في هذه الحياة وإنما عاش ولا يزال في كنف والده عالة عليه وأنا أرفض مثل هذا الوضع. ربما تكون غلطة أبيه. وبالفعل، هنا بعض الشباب في مجتمعنا يعيشون عالة على آبائهم. يظن هؤلاء الآباء أنهم بذلك يصنعون لأبنائهم حياة بعيدة عن مخاطر ومنغصات الحياة وهم مخطئون تماماً.

أمي لم تفهم ولا كلمة مما قلت، وقاطعتني قائلة بعد أن نظرت إلي بقسوة:

- كلام فارغ هذا الذي يمتلئ به دماغك.

ثم نادت أبي وأخذت تقص عليه هذه الآراء الغريبة كما وصفتها.

حاول أبي أن يفهمني، ولكن ضغوط أمي كانت أقوى وأقدر، فالمرأة أحياناً، وحتى تلك الجاهلة، أقدر على تنفيذ رغباتها مع زوجها من أي إنسان آخر.

عندما لمعت في رأسي تلك الفكرة، أذعنت لرغبة أمي ووافقت. لقد قلت لنفسي: "قد يتسنى لي بأن أغير من أسلوب حياة زوجي بعد الزواج"، وتزوجت، وأصبحت واحدة من أفراد أسرة زوجي لا رأي لها لا في البيت ولا في الخروج والذهاب لزيارة أمها إذا ما مرضت أو ألمت بها وعكة ولا حتى في اختيار لون فستانها. لقد كان والد زوجي هو الذي يقرر وهو الذي يختار دونما أي مناقشة أو سؤال.

هربت من كل ذلك بالفعل كمدرسة. حاولت كثيراً أن أقول لزوجي بأننا

يجب أن نبني حياتنا بأنفسنا فعلى الأقل والده لا يدوم لنا طويلاً. حاولت أن أقنعه بأن نستقل بحياتنا ونعيش على راتبي إلى أن يبدأ حياته العملية بأسلوبه الخاص وللأسف ضعف شخصية زوجي حالت بينه وبين أن يصنع شيئاً ويغير من واقع الحياة التي نحياها.

ضقت ذرعاً بحياتي تلك، وتاهت أفكاري هنا وهناك وبدأت المشاكل. انصرفت عن زوجي ولكني فوجئت بأخت زوجي تفعل مع أخي مثلما أفعل. أما أنا، فعندما طفح الكيل أضربت عن العودة إلى بيت الزوجية. أبي ساعدني في ذلك، ولكن أمي رفضت. أخي شدد علي بأن أفعل ما أراه في صالحي ورأيت في عينيه عزماً أدركت معه أنه هو الآخر يريد أن يترك زوجته.

ضحكت يومها بمرارة، فقد عرفت أنه يشجعني على ذلك لأن له مصلحة في ذلك وأن الأمر ليس بحثاً عما تريده أخته أو عما هو في مصلحة أخته وسعادتها. ولكن لا بأس سوف أتناسى الأمر وأواصل إصراري على ما أريد وبالفعل تحقق لي كل ما أريد وهاأنذا أعيش مطلقة في بيت أبي. أخي هو الآخر طلق زوجته وأمي تلصق بي كل التهم. إنها تتهمني بأنني السبب في خراب بيت أخي وفي تدمير العلاقة بين الأسرتين.

نسيت أن أقول بأن أم زوجي تَمُت بصلة القرابة إلى أمي وأنها فوق ذلك صديقة حميمة لها وأن أبي هو أيضاً صديق حميم لوالد زوجي. ولقد ضاعت كل هذه الصداقة وعِشْرة السنين على حد تعبير أمي، على صخرة عنادي وأفكاري التي لم توافق هي عليها في أي يوم من الأيام.

وصمتت صديقتي هناء لحظة لتكمل كلامها قائلة:

ـ لا أظن بأن مشكلتك يا سهير أكبر وأعقد من مشكلتي هذه التي حدثتك عنها.

هززت رأسي وأجبت:

ـ لا عليك. يكفي ما قلته لي. أما قصتي، فدعيها إلى ذلك اليوم الذي أكتب فيه قصة حياتي "سنوات معه"، وأيامي مع الحياة، مع الأمل، مع العذاب والألم، ومع المعرفة والنور وإشراقة الفجر التي تلوح في الأفق بقوة وشموخ وكبرياء.

وذهبت وتركتها تنتظر على أمل أن أحكي ما في جعبتي بينما أنا كنت أفكر بكل أحداث حياتي وحياتها فهذه الفتاة التي تعذبت، تعذبت برضاها وعن اقتناع. أما أنا فما هو ذنبي إلا أني قبلت أن أزف إلى زوجي وأنا صغيرة؟ ونظرت إلى صورتي التي رأيتها تطل من وراء إطارها الأنيق.

كانت نظراتي في الصورة نظرات أنثى لاهية فقد نسيت أن أقول بأنها كانت صورتي مع زوجي يوم كنت أعيش معه في لبنان.

ضحكت وأنا أنظر إلى الصورة وقلت لنفسي:

ـ لا أكون صادقة مع نفسي إذا قلت بأنني أكره هذه الصورة لكني مع هذا أحتار في تفسيري للحب والكره بالنسبة لهذا الموضوع، فالصور تمثل مراحل في حياة الإنسان وأنا في حاجة لأن أعيد النظر في تفاصيل تلك المراحل من خلال لقطات لمراحل في حياتي جاءت هكذا عفواً ودونما تخطيط. وربما هذا ما جعلني أحب تلك الصورة فهي بالتأكيد حافز لي لكي أمارس حياة أكثر تفهماً وأكثر عطاءً.

ابتسمت في وجه أمي التي كانت تجلس قبالتي وأنا أفكر في الصورة وما تمثله في حياتي من معانٍ، ولم أقل لها شيئاً وأنا أندفع إلى تقبيلها في هدوء من عرفت الطمأنينة طريقها إلى نفسه. أما أمي، فقد كانت نظراتها تأخذ شكلاً آخر غير ذلك الشكل الذي أعرفه، تأخذ شكل تساؤل وتفاؤل ورجاء. أو ليس قمة ما تفكر به الأم وترغبه هو أن ترى السعادة والطمأنينة تغلف حياة أبنائها وبناتها وتطل من بين عيونهم؟

أخذت طريقي إلى غرفة أمي لأندس في فراشي وقد نضوت عن نفسي مخاوف كثيرة وآلام أكثر أرجو أن أنساها أو أتناساها وأنا في مرحلة الخلاص من هذا العذاب، عذاب سنوات حياتي معه، مع زوجي.

وأخذت أقلب في خيالي ألبوم صور حياتي لتطالعني صور الماضي بكل دقائقه وتفاصيله، وأحسست بعد فترة من الوقت أمضيتها في التأمل والتفكير أنني في أمس الحاجة لأن أهرب من أجواء الماضي وأن أبدأ حياة أبحث فيها عن نفسي وذاتي بأسلوبي الخاص بعيداً عن كل التأثيرات الخارجية ودون أن يساهم في مساعدتي أي إنسان حتى ولا أمي أو أبي.

وأصريت على هذا الموقف فيما بعد وأنا أتطلع إلى وجه أمي وهي تحمل أكوام ألبومات الصور التي دفعتها إليها لتتخلص منها فأخذت ترصها في دواليب الصالة الأنيقة في عناية ورفق وكأنها تخاف على الذكريات من أن تضيع في خضم ما نعيشه ونعايشه أو أن لا يأتي المستقبل بأفضل منها. أما أنا، فقد كنت واثقة من وضوح ومن إشراقة فجر جديد يضيء حياتي ويغلفها بالسعادة التي أتطلع إليها.

الفصل الحادي عشر

هذه المرأة تثيرني، تملأ نفسي بإحساسات القرف. ربما لأنني الوحيدة التي أعرف عنها ما أعرف. إنها تظهر غير ما تبطن. تراها فتحسبها ملاكاً يمكن لنا نحن النساء أن نتخذها نموذجاً لنا في هذه الحياة وحتى في ملابسها وحديثها لكنها تخفي في قرارة نفسها شيئاً فظيعاً أو أنا أراه كذلك فأنا إنسانة تعرف طريق قدميها في هذه الحياة.

عندما تكره أو تحب تشعر من تكره أو تحب بحقيقة موقعها أما أن أكون مثل سعيدة هذه وأصنع ما تصنع فأخفي ما أريد أن أفعل أو أفعله بالخفاء وبعيداً عن العيون ثم أقف لأتفرج على نتائج ما فعلت أو بالأصح على الضحية التي أصبحت كذلك بسببي وأواسيها بكلمات معسولة ناعمة وكأني أخاف عليها وأغار على مصلحتها أكثر من أي إنسان آخر فذلك شيء لا يمكن أن أرضاه لنفسي أبداً.

في مجتمعنا قليلات هي اللواتي مثل هذه المرأة، وأنا أحارب هذا المفهوم في العلاقات الإنسانية وأحاول أن أزرع عكسه في نفوس طالباتي وصديقاتي وكل من أعرف. تارة أوفق وتارة أفشل وبين النجاح والفشل خيط رفيع.

أنا أؤمن أن طبيعة المرأة المسلمة تقتضيها أن تكون إنسانة تدين دائماً بالحقائق الكريمة التي يودعها الدين في قلوب الناس كما أؤمن أيضاً أنه لا يكفي أن ندرس ونتعلم وإنما يجب علينا أن نطبق كل هذا الذي تعلمناه.

ورغم أنني أعرف حقيقة سعيدة، إلا أنني تناسيت كل ما أعرف يوم رأيتها في أحد فنادق أثينا أثناء زيارتي لهذه المدينة الإغريقية

القديمة الحديثة. هالني ما كانت عليه حالتها. لقد كانت أشبه بغانية متبهرجة وكأنها تريد أن تجسد فتنتها بكل هذه الملابس الغالية التي ترتديها.

طبعاً لم أسلم عليها في بادئ الأمر وإنما تجاهلتها وتجاهلت أنني أعرفها فهالها ذلك وأقبلت تسلم هي علي.

قلت بعد أن أطلت علي بوجهها المصبوغ بشتى مستحضرات التجميل:

ـ لم أعرفك. ثم من هؤلاء الذين برفقتك؟

قالت بلا مبالاة:

ـ أصدقاء زوجي ونساؤهم.

قلت مستغربة:

ـ وهل يرضى لك زوجك أن تظهري على هذه الشاكلة وتخالطي أناساً أو على الأصح رجالاً ليسوا هم من أهلك ومجتمعك؟

قالت وكأنها تحاول أن تتهرب من كلامي:

ـ زوجي مسافر وتركني هنا أمانة أو ضيفة عند هذه الأسرة الصديقة.

تساءلت ولدي إحساس صادق بأنها تكذب:

ـ وهل يرضيك هذا؟

أجابتني بحدة:

ـ وماذا في الأمر.

قلت:

ـ لا شيء سوى أنك في بلدك على نقيض ما أنت عليه الآن.

قالت:

ـ رغم أن الأمر يخصني وحدي ولي مطلق الحرية في أن لا أجيب على تساؤلاتك وتعليقاتك إلا أنني سوف أفعل باختصار ذلك يا عزيزتي شأن وهذا شأن آخر.

صمتت بضع لحظات كنت أنا أفكر فيها كيف أتخلص منها، فأنا لا يشرفني أن ألتقي بمثل هذه النماذج من النساء ثم قالت:

ـ أريد منك خدمة.

وتابعت كلامها بعد أن رأت نظرة تساؤل تطل من عيني:

ـ لا تقولي شيئاً عن الذي ترينه عندما تعودين.

تحولت نظرة التساؤل في عيني إلى نظرة استنكار واحتقار وتمتمت قائلة:

ـ أتخافين كلام الناس؟

ضحكت في خلاعة ومياعة أقرفتني وهزت رأسها أن نعم. طمأنتها وزدت على طمأنتي لها جملة واحدة:

ـ لا أريد أن أعرفك يا سعيدة لا هنا ولا هناك في بلدنا.

عدت لأجدها تكتب تقريراً عني لرؤسائي في العمل. نسيت أن أقول لكم إن أصل معرفتي بها كان يوم أصبحنا زميلتين في العمل. المهم في ذلك التقرير أنها تدين سلوكي أنا في أثينا. إلا أن من لطف الله تعالى أن حبانا برؤساء يقدرون ويفهمون ولذلك، فإن ذلك التقرير اعتبر عملاً كيدياً ولم ينظر فيه خصوصاً وأنه جاء بدون توقيع كما فهمت من مديرة المدرسة.

طبعاً أنا الوحيدة التي كنت أعرف من أرسل ذلك التقرير، ولكني لم أعر الموضوع أية أهمية أو اهتمام فأنا أعرف نفسي وأعمل ما يرضي ربي ويرضي نفسي ويحقق لها الاحترام والتقدير في عيون جميع من حولي. ومرت الأيام وجاء موعد الترقيات لأجد نفسي وقد أصبحت مفتشة أو موجهة تربوية اعترافاً بقدراتي ونشاطي والتفاني الذي كان أسلوبي في العمل.

والتقيت مرة أخرى وجهاً لوجه مع سعيدة. فقد جاء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه للتفتيش على المدرسة التي كانت سعيدة قد أصبحت مديرة لها. وهالني ما رأيت مرة أخرى، إذ إنه يظهر أن الأيام لم تصلح من اعوجاجها فهي تمارس التسلط وأسلوب إظهار غير ما تبطن والذي تتقنه تماماً كما سبق وأخبرتكم مع المدرسات والموظفات اللواتي يعملن في المدرسة.

قلت لها بحزم:

ـ سأعطيك فرصة لأن تحسني من أسلوب عملك وأسلوب تصرفك مع المدرسات وإلا فسوف أكتب أنا هذه المرة تقريراً مفصلاً عنك.

بكت وراحت ترجوني وتستعطفني أن لا أحدث أحداً بهذا الذي دار بيننا، ووعدتها مرة أخرى بأن أكتم حقيقة ما أرى تماماً كما فعلت يوم كنا في أثينا بعد أن وعدتني هي أن تعود إلى جادَّة الصواب.

نعم. أعطيتها الفرصة ولكن ماذا تظنون؟ لم تتغير أبداً، وإنما أخذت تدس لي عند المسؤولين مرة أخرى. هذه المرة جنت سعيدة على نفسها إذ كانت نتيجة دسها علي أن ظهرت هي على حقيقتها.

والنتيجة مفهومة. لقد فقدت عملها، ولم أعد أراها.

دارت عجلة الأيام لأجد سعيدة تأتي بعد سنوات من هذا الذي حدث إلى بيتي. لا تستغربوا. لقد جاءت تعتذر فلقد استمرت في أسلوبها الخاطئ في الحياة حتى فقدت كل شيء. فقدت عملها، وفقدت زوجها، وابتعد عنها الناس، كل الناس، وأصبحت وحيدة تعاني الفشل وتعايش الأسى والمرارة.

قالت لي:

ـ عرفت أنني مخطئة في أسلوبي وممارساتي في الحياة ولكن بعد فوات الأوان.

قلت:

ـ الحمد لله فربما اليوم تبدئين حياتك من جديد وبأسلوب آخر مغاير لأسلوبك السابق.

قالت:

ـ ولكن المجتمع لا يغفر.

وتركتني ومضت، لأفكر وأفكر فالحقيقة تظل تنتظر الفرصة لتكشف عن نفسها وتطل بوضوح. عندما أطلت حقيقة هذه المرأة ووضحت، عرفت أنها ضاعت وتاهت قدماها في الحياة نتيجة ظروف معينة أما عندما عرفت خطأها وتابت واستغفرت وعادت إلى جادة الصواب، تذكرت الماضي وكل أولئك الذين أساءت إليهم وحاولت أن تصلح ما سبق وإن أفسدته.

تذكرت الماضي وكل أولئك الذين أساءت إليهم وحاولت أن تصلح ما سبق وأن أفسدته ترى هل عليّ أن أفعل مثلها؟ أقصد هل علي أن أبحث عن ظلال الماضي؟ عن ظلال صغيرة في حياتي أكون قد نسيتها ولم أروها. ظلال تظل مختفية عن الأنظار إلى أن نبحث عنها فنجدها تظهر ليظهر بظهورها إحساسنا بكل دقائق الماضي وممارساتنا فيه الخاطئة منها والصائبة.

تذكرت طفولتي وأيام دراستي ويوم عقد قراني ومولد ابنتي. تذكرت كل من حولي وعلاقاتي معهم. وأخذت أنظر إلى تلك الصور، صور هذا الماضي الذي عشته بهدوء عجيب تظلله الدهشة حيناً والخوف حيناً آخر والأمل أحياناً أخرى. والناس لهم ما لهم وعليهم ما عليهم تظل ظروفهم هي التي تصنع لهم الطريق إذا كانوا ضعفاء أما الأقوياء فهم الذين يعرفون كيف يمضون في حياتهم يقتلعون الأشواك من طريق أقدامهم وقلوبهم تخفق بالحب وعيونهم تتطلع إلى المصابيح الملونة بحب وحب كبير.

وأنا واحدة من أولئك اللواتي تتطلع عيونهن إلى المصابيح المضاءة لأرى من خلال هذه المصابيح رؤى قد تغنيني عن التفكير في كل تلك الأيام التي مضت وانقضت. وأنا أيضاً من أولئك اللواتي مطالبات بأن يكن القدوة لغيرهن. أو لست أمًّا ومربية أجيال؟

ما أجمل أن يصبح الإنسان قادراً على منح المجتمع أجمل حالاته ليصبح من بعد ذلك كله إنساناً يعي مسؤولياته تماماً من خلال فهمه لوقائع الحياة التي تشدنا لأن نصبح فيها صورة صادقة وصريحة لهذا المجتمع النظيف الذي نعيش فيه نحن أبناء وبنات هذه الأمة التي استطاعت أن تمنح الحضارة أجمل ما لديها من أفكار وأحلام وأماني.

ترى هل استطعت أن ألقي الأضواء على حالة سعيدة، هذه الغريبة التي أراها تطل من خلال ذاكرتي؟ فأنا عندما أكتب ما أكتب لا أرغب من كل هذا الذي أسجله إلا الوصول إلى الأهداف التي نتطلع إليها نحن أبناء وبنات هذه الأرض التي أهدت النور للعالم كل العالم.

أمي عندما استمعت مني إلى تفاصيل قصة سعيدة قالت وفي هدوء:

ـ أنت على حق في كل ما صنعت وعليك أن تقري عيناً بما فعلت لأنه الواجب الذي يجب أن تصنعه كل فتاة أو امرأة تنتمي إلى هذه الأرض الطاهرة.

نظرت إلى وجه أمي وقلت:

ـ كنت أعلم بأنك توافقينني على كل هذا الذي صنعت لأنك أنت التي جعلتني أمضي في طريقي في هذه الحياة بثقة وثبات وبأسلوبي الواقعي والذي هو امتداد لأسلوبك أنت يا أمي العزيزة.

الفصل الثاني عشر

بعض النساء في مجتمعنا تغرهن المظاهر وتذبحهن المحاكاة لدرجة تجعلهن يحاولن دائماً أن يعطين لمظهرهن وأسلوب حياتهن ما لم يكن لهن أو لأزواجهن قدرة عليه ولهذا يختلط كل شيء في ذهن بعض الأسر، وتطفح مظاهر المباهاة على أبشع ما تكون.

عندما نحاول أن نضع على كواهلنا ما نستطيع، تبدو مسيرة الحياة الزوجية وكأنها تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال.

مظاهر الأفراح في حياتنا وأعباء هذه الأفراح تقضي دائماً على كل وسائل الراحة النفسية، ويبدأ الصراع بين العقل والقلب والمنطق وتطفو أشياء جديدة على السطح لا أسباب لها إلا لأننا بدأنا حياتنا خطأ والذين لا يقدرون عواقب الخطأ لا يملكون القدرة على التحلل منه.

أكثر زميلاتي عشن ليالي الزفاف مبهورات بالأضواء وفخفخة كل هذه المظاهر التي ندفعها كضريبة لمحاكاتنا للآخرين لو استطاع كل إنسان أن يتحلل من كل هذه المحاكاة وأفرد لحفلات زفافه ما يستطيع على ضوء إمكاناته لسلمت حياته ولمضى في طريق الحياة الزوجية على خير ما يريد.

بعد الانتهاء من "ليلة الزفة"، يبدأ التفكير. وعواقب هذا التفكير قد تكون وخيمة وقد يصبح عبئاً على الحياة الزوجية وقد تمنح الأخريات فرصة للنق والنكد لأن ما بني على الكذب ذرته رياح النفاق.

كم أنثى ضاعت فرحتها وابتسامتها في شهر العسل. قضى عليها

إحساسها بالمشاكل التي سبقت الزفاف وشهر العسل.

صديقتي خيرية ذهبت ضحية هذه المظاهر لأنها مارست الضغط هي وأسرتها على أسرة الزوج فجاراها هو وأسرته وهي التي تنتمي إلى أسرة مرتاحة في تنفيذ كل مظاهر الفرح التي أرادوها فكانت النتيجة أن غرق الزوج في الديون وأصبح راتبه يذهب لتسديد هذه الديون مما اضطرهما أن يعيشا على راتبها تارة وعلى ما تستطيع أن تخطفه من أبويها تارة أخرى حتى استمرأ زوجها الحال وأصبح كل همه أن يدخر نقوده لنفسه ولسعادته الشخصية.

يصرفها في السفر إلى الشرق الأقصى بعيداً عنها حتى إذا ما انتهت نقوده هذه، عاد إليها وهو خانع وحتى في خنوعه فهو يطالبها بأن تنقذ حياته من الهوة التي يتردى فيها.

وبدأت المشاكل تتراكم بينهما. حتى الحب الذي كانت تكنه هي لزوجها ضاع وسط المشاكل التي تراكمت ويوم ذهبت إلى بيت أبيها تنفس زوجها الصعداء واقترن بواحدة من أبشع زميلاتها إلا أنها كانت أكثر قدرة على الصرف عليه وعلى البيت.

صورة جديدة أصبحت تتفشى في مجتمعنا، صور يأنف لها الآباء لكنها موجودة. عندما تحدثت لأبي عن هذه الصور، شد شعره في أسى وضيق وقال:

ـ يا لضيعة الشباب وضيعة مجتمعنا المتفرد بالحب المتأصل بمكارم الأخلاق.

تفشت في المجتمع عادات طارئة جلبها بعض أولئك الذين جاءوا إلى بلادنا في ظل ظروف البناء والتعمير باحثين عن الرزق واستطاعوا وهم يعيشون بيننا أن ينفثوا في مجتمعنا سموم مجتمعهم، ولقد تلقينا كل تلك العادات الواردة علينا تارة بالترحاب وتارة بالخوف والقلق وتارة بالاشمئزاز.

عندما تتفشى في المجتمع الأصيل عادات سيئة مستوردة، نراه ينكر هذه العادات حتى إذا ما زاد عددها وممارساتها أخذ يتقبلها على مضض وهو يعرف أنها ضريبة أن يكون في مجتمعنا هذا العدد الكبير من مختلف البلدان بعاداتهم وتقاليدهم وسخفها وحسنها إذا كان هناك شيء حسن فيها.

خيرية عندما قالت بأن زوجها لم يكتف بأخذ كل ما في البيت حتى ملابسها استنكرت أنا هذا الأمر لكنها زادت بأن قالت بأن خلعها منه كلف أباها حفنة من المال زادت على أعبائه أعباء أخرى.

أما زوجها، فقد انطلق بالمال يلعب ويلهو ثم احتل قلب أخرى ربما لو عرفته على حقيقته لما وافقت أبداً على الاقتران به، لكن كثيراً ما يكون مصدر ألم المرأة امرأة أخرى مثلها. لو فكرت المرأة بإقدامها على خطف رجل من أسرته ملياً ونتائج ذلك لما أقدمت على ذلك أبداً، ولو فكرت صديقة خيرية بأنها تبني سعادتها على أنقاض سعادة صديقة لها لما فعلت ما فعلت.

المهم أن زوج خيرية التي تخالعت معه استمرأ الوضع وسلم الجديدة السوء حتى خرجت هي الأخرى وكما تقول خيرية أصبح الدور على هذه الجديدة كي تشتري حريتها بالمال كما فعلت هي ولكن يا ليت أسرتها كأسرة خيرية تملك المال الذي تشتري به حريتها تلك. لقد كانت من أسرة مستورة متوسطة الحال ولهذا وقع العبء، كل العبء، على راتبها الذي يجب عن طريقه أن تسدد كل ما سوف تستدين لتتخلص من رجل لا يمكن أن يقال عنه إنه رجل بل شبه رجل على أفضل تعبير.

أشكال وصور من زيجات مختلفة أخذت طريقها إلى الزوال بعد أن فقدت مقومات الحياة لأنها لم تبن على أساس من الصدق والصراحة.

أخبرت أبي بعضاً مما سمعت، وكنت أظنه سوف يستغرب هو الآخر كل هذا الذي ذكرت إلا أنني فوجئت بصوته الهادئ الوقور يؤكد من جديد بأن كل هذه الظواهر ليست إلا نموذجاً من الحياة موجود في كل مكان في العالم إلى جانب نماذج أخرى مختلفة وتحمل طابع الفرح والتفاؤل. وقال أبي من ضمن ما قال:

ـ لقد جارت بعض ظروف الحياة التي يراها الناس خارج أرضنا على بعض من مفاهيمنا. قد يكون السبب لأن بعضهم لم يستطع أن يتأقلم مع كل هذا الذي يراه وقد يكون السبب ظروف الحياة الجديدة التي تفرض بدورها مسؤوليات جديدة على البيت والأسرة. وقد.. وقد..

وقد يعزو والدي هذه المفاهيم الجديدة التي غزت مجتمعنا والتي

نستنكرها إلى انحسار الفهم والإدراك لحقائق الحياة على أرضنا التي نعيش عليها ومع هذا، كان أبي متفائلاً إذ قال إن ذلك ضريبة وبعض الإفرازات السلبية التي جاءت نتيجة تلك الخطوط التي نخطوها في درب المدنية والحضارة الحديثة التي نتسربل بها.

أحسست، رغم رنة الهدوء التي تغلب على صوت أبي، أن الألم يعتصر قلبه بسبب ما تردت إليه أحوال بعضنا نحن أبناء وبنات هذه الأرض المعطاء. ومضيت إلى فراشي وفي ذهني أفكار كثيرة كنت أود لو أفصح عنها لأبي العزيز لولا أنني وجدت نفسي في أمس الحاجة إلى النوم بعد يوم حافل طويل.

الفصل الثالث عشر

اليوم عاد زوجي من رحلة طويلة غاب خلالها عني أكثر من أربعة شهور. عاد ولكنه عاد هذه المرة نادماً بعد أن عرف رغبتي في الطلاق منه. إنه يريد مني أن أنسى كل الذي فات وأن أبدأ حياة جديدة معه.

لم أكن مستعدة لأن أستمع إلى أية كلمة يقولها لأنني أعرف كل هذا الذي سوف يقول وأؤمن بأن زوجي وقد استمرأ حياة الدعة يهمه أن يكون مشدوداً إليّ وإلى بيتي أن يستظل بظلي في كل شيء.

في هذه الفترة، جاء إلى بيتنا خاطب لابنتي ولكني كنت في حالة نفسية سيئة فلم أحاول أن أعرف من هو وقد أجبت أهله بسرعة ودون ترو أو تفكير:

ـ ابنتي صغيرة وتريد أن تكمل تعليمها العالي.

كنت أود بهذا الأسلوب أن أدفع عن هذه الصغيرة غوائل الزمن ومشاكل الرجال عن طريق اختيار الوقت المناسب.

جاءت إلى زيارة جدة شاعرة أسترالية تعرفت إليها في إحدى الجمعيات النسائية. عرفت أنها مطلقة، فدفعني الفضول لأن أتحدث إليها وفهمت أن مشكلتها كامنة في أعماقها، فزوجها قد هرب من سيدني كلها إلى أمريكا وقطع صلته بها وبابنته الوحيدة وهي، أي الشاعرة، لا تدري شيئاً عنه حتى الآن. وللعلم، فإن ابنتها قد كبرت وأصبحت شابة. وسألتها:

ـ لماذا لم تتزوجي من بعده؟

أجابت:

ـ صدقيني لم أجد إنساناً أستطيع من أجله أن أضحي بحريتي أو أضيعها بعد أن استرددتها فجأة ودونما تخطيط مني.

في الغرب يقتلون الزهور ويسكتون دعاء العصافير. مجتمعهم لا يهمه ما يجري بين الأسر، كل الذي يهم الناس هناك العمل وللعمل فلسفة وشروط.

سهى صديقتي قالت لي اليوم إنها تأمل أن تجد ضالتها خلال شهر. لم أكن أدري ما تعنيه. ضحكت وضحكت وقلت:

ـ سأجد العريس المناسب في هذه المدة.

تساءلت:

ـ جاءك أحد يطلب يدك؟

هزت رأسها وقالت:

ـ لا، ولكني سأخطفه.

أعرف هزار سهى لذلك لم أعلق أبداً على ما قالته، ومضيت في طريقي لرؤية أمي التي قالت لي بحنان ظاهر:

ـ عرفت كل شيء يا بنيتي والآن أنت حرة تتصرفين بمستقبلك كما يحلو لك، وأنا واثقة أنك أصبحت ناضجة قوية تعرفين طريق قدميك.

سألتها ممن عرفت فأجابت:

ـ من زوجك.

قلت مستغربة:

ـ ولكنه أتى يصلح ذات البين بينه وبينكم وبينه وبيني أيضاً.

ضحكت أمي وقالت:

ـ كلام.

وأرتني رسالة كتبها زوجي لي. لم أجد فيها ما يجعلني أواصل قراءتها وقلت لأمي:

ـ أعيديها إليه.

افتر ثغر أمي عن شبه ابتسامة وقالت:

- يا بنيتي لماذا لا تحاولين قراءة كل ما كتبه لك في هذه الرسالة؟ من يدري، فلربما كان لك رأي آخر فيما يود أن يقوله لك.

لم أقتنع بكلام أمي، وأصريت على رأي أبي وخرجت عائدة إلى بيتي. في البيت أحسست بأنني حرة بعض الشيء لكنني كنت مضطربة في الوقت الذي كان يجب أن أكون فيه فرحة ومستبشرة. هذه الحقيقة أقولها وأعترف بها وأنا في دهشة من أمري. ولقد صاحب اضطرابي هذا ساعتها إحساس بأنني فقدت سنوات طويلة من عمري. هذا الشريط الطويل من الأيام التي أمضيتها معه يبدو أمامي وكأنني أواصل رحلة الأيام في قلق. أما عندما هدأ وجيف قلبي وهدأت كل تلك الخواطر في نفسي، فقد أحسست بأن ابتسامة واسعة تأخذ طريقها إلى ثغري.

فلسفة الطلاق فلسفة رائعة تميزنا بها نحن المسلمين، فكم من النسوة المسيحيات يعشن في مجتمعهن بعيداً عن أزواجهن معلقات كما يقولون فلا هن بالمتزوجات ولا هن بالمطلقات لأن دينهن لا يبيح الطلاق.

المحاكم العادية، في كثير من بلدان أمريكا وأوروبا، أجازت هذا الطلاق بعد أن وضح لها الشرور والآثار السلبية لرفض مثل هذا الأمر.

المرأة ليست أنثى فقط بل هي أيضاً أنثى تتطلع إلى مزيد من الفهم نحو كل ما يتعلق بواقع الحياة. العلم والطب وحتى المجتمع حررها من ربقة الرجل. في القرون الوسطى في أوروبا وفي الوقت الذي حرر الإسلام المرأة، كانت المرأة الأوروبية ترزح تحت نير استعباد الرجل.

وتجول في رأسي أفكار وأفكار. إنني مقتنعة بجميع خطواتي، وأعتقد أنني في عمر أعرف معه طريق قدمي.

ذهب عهد الوصاية وأصبحت أنا في وضع أستطيع معه أن أناقش الناس كل الناس وأدافع عن نفسي وعن حياتي. في القديم كانوا ينظرون إلى المطلقة نظرة مختلفة. تغير المجتمع وعرف الناس الصواب من الخطأ.

صحيح أن بعض المطلقات لم يتقنَّ استخدام الحرية التي يحصلن عليها

بعد الطلاق، وهذا بالطبع خطأ وخطأ كبير، إلا أنني دائماً أقول لنفسي: لا يمكن أن نعالج الخطأ بخطأ مثله وبيوتنا، كما تعلمون، تغيرت ظروف تشكيلها فقد أعطتنا المدنية أشياء وأخذت أشياء أخرى ونحن مع ما نأخذ ونعطي في حوار مستمر.

ليس كل الرجال مثل زوجي وليست كل النساء مثلي. ومع هذا، فالمرأة تحن إلى صدر يستطيع أن يحميها ويمنحها الأمان والاستقرار مهما وصلت إليه من تعليم.

والمرأة، هذا المخلوق الناعم، تصبح أيضاً قطة متوحشة عندما تدافع عن نفسها ومكاسبها في المجتمع. ثم إنه بالتأكيد، مع كل هذا التقدم العلمي والتقدم الحضاري، فإن قدرتها على الدفاع عن نفسها قد زادت إلى حد كبير. وككل شيء في العصر الحديث جديد ولكنه مؤثر فإن للمدنية ضحاياها إلا أن هؤلاء الضحايا قلة لا يمكن أن توقف لأجله تيارها الكبير.

أختي الصغيرة تنظر إلى وجهي وتقول:

ـ إحلويتي يا أختي وبدأت الحياة تتسلل إلى وجهك.

هؤلاء الصغار كم هم صادقون عفويون في أحاديثهم ومع هذا فأحاديثهم مقنعة وتدخل القلب رأساً.

سهى جاءت تدعوني لزيارة صديقة لها. رفضت وطلبت منها أن تبقى معي.

هذه السمراء التي تعتز بجمال عينيها وافقت عندما رأت الفرحة التي ينطق بها كل تعابير وجهي والتي أحالت بيتي إلى دنيا من الفرح وأخذت تهز جسدها على أنغام الموسيقى التي كانت تصدح في كل أركان البيت. من يرانا أنا وهي في تلك اللحظة وعلى الحال الذي كنا عليه يظن بأننا فقدنا عقلنا وأضعنا طريق الصواب وسبيل الرشاد والتفكير المتزن ولسنا اثنتين تحمل أقلهما درجة البكالوريوس.

لحظات الفرح يعشقها الإنسان، تتسلل إلى قلبه وعقله وتنسيه أشياء كثيرة ليصبح أقرب إلى من يعيش منساقاً إلى عاطفته فالإنسان كما تقول سهى في حاجة إلى "خمس دقائق جنان".

أمي زارت بيتي في تلك اللحظات فجأة، وسهى لا تكف عن الرقص والركض هنا وهناك مجسدة الفرحة التي أعيشها. وإن كنت أنا، بحكم نشأتي، لا أحاول أن أسايرها بما تفعل.

أمي تضحك من أعماقها وتتذكر أياماً من عمرها، أيام كانت شابة صغيرة منطلقة وتقارن بين مشاكل المرأة اليوم ومشاكل المرأة في الأمس أو خلال حياتها الماضية وتقول عن خلافاتها هي مع أبي إنها كانت مجرد "ملح طعام".

ابنتي تنظر مشدوهة إلى سهى، وهي تميل إلى هذه الأنثى التي عرفت كيف تستميلنا جميعاً ثم تنخرط في حديث مرح مع أمي تتخلله هزات صغيرة من جسدها وهي جالسة وكأن أذنها مع الموسيقى التي تصدح في البيت والتي ترقص سهى على أنغامها.

أما أنا، فقد كنت أضحك من أعماقي. ويومها بالذات عرفت كم أنا بحاجة إلى الضحك، إلى المرح، إلى تعويض أيام الهم والنكد والغم التي رافقتني بعد زواجي.

وعندما وضحت الرؤية أمام عيني وبدأت أفهم حقيقة وجود الإنسان على هذه الأرض، رفعت أمي يديها تدعو لي وهي تودعنا وتغادر بيتي ثم قالت:

ـ هلا أتيت للغداء معنا؟

اعتذرت في حب ورفق، وقبلتها في وجهها وإذا بعينيها تلمع ببريق أظنني لم أره فيها إلا في ليالي أفراح أخواتي عندما زففن إلى أزواجهن. هذه الأم وكل أم هي ذخيرتنا في هذه الحياة ترضعنا مع لبنها أشياء كثيرة في مقدمتها الحب والحنان وما أحرى الحب والحنان عندما ينطلق من عيني المرأة.

سأختار طريقي بعد الآن في هذه الحياة بنفسي وسأتحرر بالطلاق من معايشة هذا الرجل. نعم سأحيا حياتي الخاصة بعد أن أستريح من مشاكلي معه. ولكن ماذا أريد؟ وماذا يمكن لي أن أفعل؟ صور كثيرة أخذت تطل من بين عيني لكنها صور جديدة لا أدري كيف تسربت إلى أعماق أعماقي.

المرأة طفل كبير يهمه أن يجد الحنان وإذا ما افتقد هذا الحنان، أخذ يبحث عنه هنا وهناك.

أما أنا، فنسيج آخر. لا أستطيع أن أصدق نفسي عموماً أجد أنني في تماسكي تتضح لي قدرتي الكبيرة على صياغة ألوان الحياة الجديدة التي سأمارسها وعلى هذا النحو الذي يرضيني ويحقق ذاتي وكياني. يكفيني ما مر بي من عذاب سأستقبل غدي بابتسامة مشرقة. قد لا أنسى سنواتي معه، مع زوجي، لكني سأحاول أن أنساها فأنا لا أريد أن أتذكرها وإن كانت هي جزء من هذا الكيان الذي هو أنا.

الفصل الرابع عشر

إجازة الربيع تمنحني دائماً القدرة على اجتياز الألم فأنا، بحكم كوني أنثى، أجد أحاسيس الضعف تكاد تنفجر داخل أعماقي وهي تمارس تسلطها على تفكيري. لكنني عندما أخلو إلى نفسي، أشعر بأن هذا الضعف الذي يرافق حياة المرأة لكونها امرأة يفجر في أعماقها قوة كبيرة تدفعها إلى التفوق والانطلاق حتى إلى المجهول.

صديقاتي تثيرهن قدرتي على امتصاص الألم، وأسرتي تنظر إلى هذه القدرة على أنها إرث أورثتني إياه أمي الحبيبة. ومع هذا، فأنا أدرك تماماً أن أية صفة مثل هذه تلتصق بالأنثى ليست بالضرورة إرثاً متوارثاً دائماً، إنما تكون أحياناً شيئاً ما يمكن أن تكتسبه المرأة وبمقدار ما تتمتع به من قدرات وهي تشق طريقها بين الصخور.

عندما أطالع وجوه العديد من زميلاتي أجد ظلم الرجل لهن واضحاً جلياً. يظهر بصورته العارية على وجوههن التي لطخنها بالأحمر والأزرق أو الأخضر. هذا الرجل الذي يمد يده إلى كل ركن من أركان حياة المرأة وهو يضحك.

هل أنا متحاملة على الرجل؟ لا.. لا تقولوا هذا، فقصص الزميلات ممن جرحهن الرجل تفوق الحصر. هذه مع أبيها، وتلك مع أخيها، وثالثة مع زوجها ولكني مع هذا، أؤكد أن مشاكل المرأة مع الزوج هي أكثر المشاكل التي تطفو على السطح ولا تقولوا مرة أخرى إنني متحاملة على الأزواج.

مشاكل الآباء سهلة والإخوة كذلك أما مع الزوج، فهي ليست على تلك السهولة التي يظنها بعض الناس.

نهاد فتاة جميلة هادئة الطباع، مزاجها يقارب مزاجي، نلتقي في صفات كثيرة وإن كنا نختلف في أمر الخنوع للرجل. لم أكن أعرف شيئاً عن حياتها حتى إذا ما قصت علي حكايتها اضطرب لسانها وتلعثمت وتاهت وكأن زوجها يلاحقها بكرباجه. عفواً ليس بكلامه القاسي وإنما أيضاً وبالفعل بكرباجه. هل رأيتم رجلاً يستعمل السياط إلى جانب ألفاظه النابية مع أقرب الناس إليه؟ مع زوجته؟

صديقتي نالها ما نالها من قسوة الرجل حتى إذا ما اشتكت إلى أسرتها قالت لها الأسرة:

ـ نحن لا نتدخّل في ما يجري بين المرأة وزوجها.

مثالية تحتاج لإعادة النظر فيها. بمقدار ما تسوء علاقات المرأة نتيجة تدخل الأسرة نجد هنا أن الأمر مختلف ومختلف تماماً.

تقول صديقتي "نهاد" ربما كان الذنب ذنبها لأنها أرغمت أسرتها على قبول هذا الزواج. وأقول أنا شيئاً آخر، فالخطأ كل الخطأ من صديقتي هذه لأنها سكتت منذ البداية وكان من الممكن أن تقف في وجهه منذ ذلك الوقت وتوقف ظلم زوجها لها من أول مرة.

يمارس الرجل لعبته مع المرأة حتى إذا ما رآها تستكين وتستهين بكرامتها امتهن وذل هو هذه الكرامة وهذا بالطبع رأيي في هذا الموضوع وأعتقد أنني على صواب أليس كذلك؟

إجازة الربيع قضيتها مع هذه الصديقة التي تسافر لأول مرة إلى خارج البلاد بعد أن تزوجت وانفصلت عن زوجها. لقد استطاعت في النهاية وبعد أن عرفت نقاط الضعف فيه أن تستغل هذه النقاط لصالحها.

أشعرته بأنها قادرة على إلحاق الضرر والأذى به تماماً كما يفعل هو بها سواء مادياً أو معنوياً. قالت له هذا الكلام وأضافت بأنها قادرة على أن ترد له الصاع صاعين كما يقولون بل وتعرف كيف تفعل ذلك تماماً وأنا لا أطمع في أن أعرف ذلك الذي تعرف كيف تفعله خصوصاً وأنها الآن قد تحررت منه تماماً.

في القاهرة أمضيت مع "نهاد" وبعض الصديقات أجمل الأوقات وأسعدها. لم يكدرني في هذه الإجازة إلا تصرفات بعض النساء اللواتي تركن بلادهن وجئن يقضين الإجازة هنا في ربوع مصر ليتمتعن بشيء من الانطلاق على حساب التقاليد. ذلك أمر جعلني أشعر بالضيق بل وأشد شعر رأسي في بعض الأحيان، فإساءة استخدام الحرية تعني أننا غير مؤهلين لهذه الحرية أليس كذلك؟ الحرية هي أن يتمسك الواحد منا بحقوقه وينفذ ممارساته بصورة تتصف بالأدب والتهذيب ودون أن تمس أيًا ممن حوله خصوصاً إذا كان هذا الذي نتكلم عنه هو أهله وناسه ومجتمعه وتقاليد وعادات بلاده.

قالت لي إحدى الصديقات أثناء هذه الإجازة:

ـ تعالي نذهب معاً لنرى مها.

سألت:

ـ ومن مها؟

أجابت:

ـ صديقة قديمة وزميلة وسيدة بيت.

وزرناها في الفندق. أحسست أثناء الزيارة بأن هذه السيدة رغم غناها تعيش في قلق. وعندما ناقشتها في أسباب القلق أشارت إلى صورة زوجها وقالت وهي تتنهد:

ـ هو السبب، فهذا الرجل يعيش عالة على أبي وأنا أكره أن يكون زوجي على هذه الصورة.

سألتها:

ـ ولماذا اخترته؟

أجابت:

ـ لم أختره أنا وإنما اختارته الأسرة.

واستمعت إلى حديثها فعرفت منها أنها تزوجت به وهو يبدو على أنه يحمل مواصفات الزوج الطيب لكن الأيام كشفت عما في باطنه وأظهرته على حقيقته كوصولي يسعى لأن يكسب من وراء زواجه، وهدفه المكسب فقط لا

غير. ظهر لها ذلك جلياً من تصرفاته معها. حاولت إقناعه، حاولت أن تعيده إلى الصواب، إلى رشده، إلى طريق العمل الذي يسلكه الرجل الذي يحمل مواصفات الرجل الأصيل ولكنه رفض قائلاً:

ـ مال أبيك يكفيني ويكفيك.

أحست أنها ضائعة، وعندما أخبرت أباها بهذا الأمر ضحك هو الآخر ولم يعلق عليه بشيء. ربما خشي أن يهدم حياتها ولذلك سكت ولم ينبس بأية كلمة.

وهكذا عاشت مع هذا الزوج الذي يعلن بفخر أنه قانع بما كسبه نتيجة اقترانه بها حتى أصيبت بالقرف منه ومن تصرفاته فبدأت تعاقبه بأسلوبها الخاص لكنه قال لها:

ـ لا عليك، اصنعي ما تريدين ولكن تأكدي دائماً أنني سوف أظل زوجك وإلى الأبد. لا لأنني أحبك وإنما لأنني أحب نوع الحياة التي يوفرها لك والدك.

خرجنا من زيارة مها وأنا أفكر. لم أكن وحدي المرأة المخدوعة بزوجها في المجتمع، فهناك صور أخرى كثيرة قاسية كصورة حياتي مع زوجي ولهذا كنت أضحك في مرارة وأنا أعود إلى الفندق الذي أنزل فيه لأكتب ما أكتب حتى إذا ما انتهيت من كتابة ما أريد قالت لي صديقتي نهاد:

ـ سوف تقضين أيامك في كتابة قصة حياتك التي لن يقرأها أحد.

نظرت إليها بحنق وقلت:

ـ لا عليك.. سترين.

وعندما عدنا إلى جدة، رغبت في زيارة مها التي تحدثت إليها في القاهرة فوجدت الكثير الكثير مما قالته عن زوجها وعلاقته بها هو تماماً كما ذكرت، وعرفت أن المرأة إذا عرفت كيف تسوس الرجل وتعامله ينتقل الألم منه إليها إذا كانت قاسية أما إذا كانت طيبة، فقد يتناسيان الألم معاً وهذا أجمل ما في الوجود.

ولكن لماذا يظل قلبي هو الذي ينزف ألماً في الوقت الذي يضحك فيه

الناس كل الناس؟ لماذا؟

ونظرت حولي أفكر في كل أولئك اللواتي عرفتهن وحدثتكم عنهن وبقيت أقارن بين ما أصابني وما أصاب بعضهن فوجدت بأن قلوبنا، نحن الحرائر، يدميها الرجل وهو يلهو بل وكأنه لا يدري ما يصنع ولكن هل كل الرجال كزوجي؟

سؤال عاد يطل من بين كل ذكريات وأحداث حياتي. وجاء الجواب حاسماً هذه المرة. جاء الجواب بالنفي وإلا لما وجدنا هذا الكم الوفير من الأسر تعايش الراحة والسعادة بأسلوبها وهي تمضي في رحلة الحياة القصيرة.

وأخذت بعض الأضواء من خلال أفكاري التي تجمعت تتسلل إلى نفسي رغم كل مظاهر المتاهة التي تعايشها. وقد يأتي اليوم الذي أنسى فيه كل هذا الذي مر بي وقد لا يأتي ولكني واثقة بأن الذنب لم يكن ذنبي في كل هذا الذي لقيت. أو لسنا جميعاً مسيرين في هذه الحياة؟ أم إن الأمر يحتاج إلى مناقشة ومناقشة طويلة؟

وعدت إلى نفسي أواجهها بكل الذي عرفت على أن ألتقي بذلك الذي يعيد لبصيرتي رؤيا معالم الطريق في عالمي الذي عشت ومن خلال الأحلام التي ضاعت والأماني التي تاهت.

وأحسست بأنني قادرة على الإمساك بنصل الخنجر الحاد الذي يريد البعض توجيهه إلى المرأة بلا ذنب والعكس بالعكس.

الفصل الأخير

كثيرون هم المرضى الذين يستردون عافيتهم بعد طول عناء. يستردونها بعد أن فقدوا الأمل بأن يصلوا إلى غايتهم تلك التي أرادوها وتطلعوا إليها. فجأة يتحقق الأمل وتعاود الابتسامة انطلاقها على الوجوه الضاحكة وتنطلق الأحلام تعربد في سماء عروقهم الوردية. وأنا.. من أنا؟ لا أقول بأنني عانقت الألم حتى النهاية، لكنني عشت أكثر أيامه ولياليه كأنثى تحلم بعيش دافئ مثير.

أغرقتني الظروف في حروب تختفي حيناً وتظهر أحياناً أخرى، وساهمت ظروف الحياة في إيجاد المناخ المناسب لأن يعشش الألم في نفسي بدلاً من المرح والفرح. لكنني مع هذا كله، لم أفقد الأمل لأنني كنت أعرف بأن نقاط الضوء في حياتي لا تزال تصر على الانطلاق في وضوح أمام ناظري.

ورقة الطلاق التي تسلمها أبي أعطاها لأختي التي وضعتها في ظرف وردي وكتبت عليه ما كتبت وأشفقت علي بما كتبت بأن وضعت وردة بيضاء ناصعة اللون ألصقتها بعناية ليصلني المظروف مع أخي.

لم أكن أظن في تلك اللحظة إلا أن ما حمله أخي لي مجرد نكتة من نكاته فقد نسيت أن أقول لكم بأن أخي يعشق النكتة. فضضت الظرف أقرأ السطور القليلة لتنطلق بعدها من حنجرتي زغرودة وأنا التي لا أعرف كيف أزغرد.

جاءت ابنتي ثم الخادمة على أثر الزغرودة. أمسكت بكتف ابنتي وقبلتها على وجهها وخدها وقلت بصوت عالٍ:

ـ حان وقت الحرية. حان وقت الحرية.

ابنتي لم تفهم ولم تع ما قلت، لكنها صمتت وأخذت بيدي إلى أقرب كرسي ارتميت عليه وأعطيتها الظرف لتقرأه وقلت:

ـ أخيراً طلقني أبوك.

قالت ابنتي في صوت هامس:

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

نظرت إليها بقلق فقالت ضاحكة:

ـ وماذا تريدين مني أن أقول؟

أمسكت بيدها وهززتها وأنا أردد:

ـ سأكون أمك وأباك يا بنيتي.

قالت:

ـ أعرف هذا فهو ليس جديداً عليك.

قلت:

ـ سيزداد عطفي وحناني وعطائي ورجائي فيك.

قالت:

ـ وأنا لم أفتقد هذا العطف والحنان منك يوماً في حياتي يا أمي العزيزة.

قلت:

ـ سأجعل منك ابنة بارة بأبيها.

قالت:

ـ وهذا أمر أعرفه عنك ولا أستغربه منك فأنت إنسانة رائعة، رائعة جداً وطيبة.

قلت:

ـ لن أحرمك من رؤية أهل أبيك.

قالت:

ـ أعرف أنك سوف تكونين أكثر إصراراً على هذا الأمر من ذي قبل.

قلت:

ـ إذن هل تفتقدين شيئاً؟

قالت:

ـ نعم.. أفتقد الحكمة والمنطق عند أبي الذي ضاع وأجدهما في كل حركة أو لفتة أو إيماءة منك.

قلت:

ـ أتحبينه؟

قالت:

ـ لقد علمتني أن أحب والذين يحبون لا يعرفون كيف يكرهون. ثم أليس هو أبي؟

قلت:

ـ إذن سوف تكونين بارة به.

قالت:

ـ وبك أيضاً.

قلت:

ـ سأصنع لك يوم تتزوجين فرحاً رائعاً أرى نفسي فيه.

قالت:

ـ وهل يكفي الفرح والاحتفال إذا لم يضمخ الزواج نفسه بالحب والتفاهم ودواعي الاستقرار؟

وتركتني ومضت إلى حال سبيلها.

هذه الفتاة يحيرني فيها عقلها. إنه كبير، كبير جداً، بل هو أكبر من سنها.

وجاءتني بعد فترة من الوقت تقول إنها تريد أن تتحدث إلى أبيها. وتحدثت إليه طويلاً، تحدثت إليه حديثاً كله حب ودفء وحنان وشعرت معه بأن هذه الفتاة هي الفتاة التي أنجبتها فأنا، وإن كنت قد كرهت الحياة مع أبيها، إلا أن

مثالياتي تأبى علي أن ألغي الحب من قلبها الصغير خصوصاً إذا كان هذا الحب لإنسان هو أبوها رغم كل الذي صنع.

أمسكت يدها وشددت عليها وأنا أتمتم:

ـ إنك يا بنيتي امتداد لي وأفخر بذلك وأعتز. أريدك أن تتعلمي من أخطائي وأخطاء أبيك ما يكفل لك في المستقبل حياة هانئة سعيدة.

وأغمضت عيني لأرى سنواتي معه، مع أبيها وقد انتهت ومضت إلى حال سبيلها. ضاعت بعد أن ضاع حبه من قلبي واحترامه من نفسي ورأيت أن تشاركني التجربة كل فتاة مقدمة على الزواج من بنات جنسي. ألست أنا أولاً وأخيراً بحكم خبرتي ووظيفتي الموجهة التي تحاول توجيه النشء في البيْت والمدرسة؟

ومددت يدي إلى الأوراق الكثيرة التي كتبتها، وأخذت أعيد قراءة كل سطر فيها بل كل كلمة وكل حرف ومن ورائي سنوات وسنوات أشعر أنها ضاعت مني لكنني مع كل هذا لن أهتم وأغتم أو أقلق.

سأبدأ من جديد. سأحاول أن أشق طريقي في هذه الحياة هذه المرة دون متاعب أو مشاكل أو آلام، لا لأنني امرأة عرفت طريقها وحسب، بل ولأنني إنسانة أعشق التفاؤل وأحب الأمل وأعيش في ظلالهما وما أجمل أن يعايش الإنسان حياته على هذه الأرض مع الأمل والتفاؤل وحب الحياة. ما أجمل أن يعايش الإنسان حياته على هذه الأرض بكثير من الإنسانية التي تقوده إلى هذا الأمل والتفاؤل والحب.

ونظرت إلى وجه ابنتي الذي يمثل البراءة والأمل والتفاؤل وكل المعاني الجميلة، واغرورقت عيناي بدموع الفرح وأنا أقبل وجهها بحب وكأني أستقبل مع كل هذا الذي أفعله وأحسه حياته القادمة كلها. أستقبلها بأسلوب جديد، جديد جداً هذه المرة.

انطلقت بعد ذلك إلى غرفتي لأخلو بنفسي، وتطلعت إلى المرآة وكأنني أرى وجهي لأول مرة وقد انعتق من إسار الألم. كانت فرحتي كبيرة لدرجة

شعرت معها بالراحة والارتياح، وتنهدت من كل قلبي وأنا أعاود النظر إلى المرآة لأرى نفسي وقد عدت إلى سنوات صباي أبدأ مرحلة عمري من جديد.

دخلت ابنتي غرفتي بعد أن نقرت الباب بأصابعها نقرة خفيفة، وعندما وجدتني غارقة في التفكير والتأمل لم تنبس ببنت شفة فكان صمتها أبلغ من أي كلام. وامتدت يداها بعد ذلك لتلتقي بيديَّ، تشدني إلى الواقع دونما كلام، ثم لتلقي بنفسها في أحضاني أنا الأم، أنا المرأة التي بدأت تعشق ربيع الحياة من جديد وتحاول أن تمارس مسيرة حياتها في ضوئه.

أو ليس من حقي كإنسانة أن أعيش وأن تعيش ابنتي معي بأمن وهدوء وسلام وأن تمضي حياتنا في مسيرتها التي رسمها الله دون أن أحس بالخوف أو أعايش القلق والألم والعذاب؟

والتقت عيناي مع الأمل العائد المضمخ بورود الثقة وشعاع الإيمان، وامتدت يداي إلى قلبي لأستمع إلى دقاته التي غدت في تلك اللحظة موسيقى هادئة تمنح المكان جمالاً وروعة، وتسللت إلى أذني أصوات دافئة خلتها نسيتني وأنا في موقفي الذي أعايش. لكنها جاءت على موعد هذه المرة بعد أن كان الألم يغلف حياتي بلا موعد.

واستلقيت بجسدي على أول كرسي جاء على مقربة مني لتطالعني صورتي وأنا أبتسم. نظرت إليها طويلاً ثم نظرت إلى وجهي في المرآة هذه المرة فلم أر فارقاً بين ابتسامتي وتلك الابتسامة التي انطلقت على وجهي في تلك الصورة القديمة، صورتي قبل أن أتزوج.

وقلت لنفسي: آن للبسمة أن تعاود مسيرتها على وجهي كما تفعل دائماً مع كل أولئك الذين يعرفون كيف يصنعون تفاؤلهم حتى من وراء الألم.

وامتدت يداي، يدا امرأة تشعر أنها ولدت من جديد لتتلقف ورقة الطلاق ثم تحنو عليها وكأنها تمسك بشيء ثمين تخاف أن يضيع كما ضاعت منها كل تلك السنوات، سنوات معه.

وهكذا..

"إن المرأة مجرد حروف صغيرة، وإن الرجل عبارة عن كلمات، وإن الحروف عندما لا تعرف كيف تختار مكانها في الكلمات تتغير معاني هذه الكلمات".

"المرأة يا صديقي أحاسيس تتلاطم في أجواء الأمواج من أعالي البحار لتحط تارة على رصيف الميناء أو عند رمال الشاطئ تارة أخرى. ذلك قدر المرأة تدري أو لا تدري، ولكنها يجب أن تعيش لا كما تعيش العصافير وإنما طليقة في رحاب هذه الدنيا. تخلص لمن تحب وتعطي الحياة شيئاً كبيراً منها ومن ذاتها وكيانها وحياتها والرجل يظل الرجل إلا عندما يصبح زوجي".

الضياع

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م
ط ٧ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

- مشكلة قابلة للحل
- الرجل الذي لا يكذب
- مشكلة أخرى
- شهادة ميلاد
- ومات زوجي!
- البيت الآخر
- عندما تتحقق الأحلام!
- الأرملة الطروب
- أبي الذي أحبه
- حلم كبير
- أمٌّ صغيرة
- الضّياع
- السّر الكبير
- كبير العائلة
- زوجتي التي كبرت
- جميلة ومثقفة
- الزفاف
- الوعي الباطن
- قمر ١٤
- من أجلي... أيضاً
- سنوات القحط
- الزوجة

مشكلة قابلة للحل

صدقوني عندما أقول لكم، بأنني فتاة غير سعيدة، رغم الظروف التي أعيشها، وأعايشها، فأنا وإن كنت ولدت في جزيرة جربا، إلا أنني كبرت في العاصمة تونس، بيتنا من البيوت القديمة الكبيرة التي تتميز بلمسات أندلسية قديمة.

يوم بعثت بي الأسرة إلى لندن في أعقاب تخرجي من الثانوية، عشقت هذه المدينة وأحببتها، فلندن يضيع فيها الإنسان إذا ما رغب، أو حتى إذا لم يرغب.

طفولتي زاهية، لم أجد فيها ما يعكر، سوى أن أبي دائم الترحال، وأمي سيدة جميلة، لم تتعلم جيداً وإن كانت تجيد تربية الأطفال بحزم وحب، وإخوتي الأولاد شبوا عن الطوق، سافر أحدهم لأمريكا، والآخر إلى بلجيكا وعاد الثاني وبقي الأول بعد أن تزوج هناك.

بين الحين والحين نتلقى رسائله وهداياه، وهي على قلتها مفرحة.

يوم دخلت معهد الألسن، كنت أعتقد أنني عندما أتخرج سأصبح مدرسة، لكن جارتنا زينب كرهتني في التعليم، وبدأت أفكر كثيراً، حتى انتهيت إلى أنني فتاة، تحسن الترحال وتعشقه.

الفترة التي أمضيتها في لندن كانت رائعة، لا يشوبها شيء سوى هذه الحرية التي يتمتع بها الفتى والفتاة سوياً، وخرجت من لندن وأنا واثقة بأن هناك فارقاً بيننا نحن أبناء المغرب وهؤلاء الناس.. وأكذب إذا قلت إن الحياة هناك لم تستهوني.

يوم عودتي، ذبحت أمي خروفاً بهذه المناسبة، وعندما تخرجت من معهد الألسن، فعلت الأمر ذاته، لكن ما حزَّ في نفسي أنني بقيت شهوراً طويلة بلا عمل.

تصوروا فتاة في عمر الزهور، جميلة، وأنيقة، وتجيد لغات ثلاثاً، ولا تجد عملاً. أمي كانت تدفعني لأن أتزوج، أكثر من خاطب جاء إلى بيتنا، لكنني رفضتهم جميعاً، لأن أحلامي كانت كبيرة وطموحاتي أيضاً.

فكرت أن ألتحق بالتمثيل، أو حتى الغناء. وقلت لأمي بأن علي أن أتعلمهما، رفضت بشدة بعد أن دقت على صدرها بيديها مستنكرة، ويوم جئت إليها بفكرتي الجديدة، لم ترفض، ولم ترض.

لكنها قالت لي:

ـ فكري كثيراً، فالعمل بين السماء والأرض عمل صعب.

قلت لها:

ـ لكنني سأرى مدناً كثيرة.

هزت رأسها بعصبية:

ـ وماذا تستفيدين؟

قلت بعناد:

ـ التجربة.

فصمتت ثم قالت:

ـ ستعلمينها يوم يفوت الأوان.

ـ أوان ماذا؟

ـ أوان الزواج عندما تصبحين عانساً.

ونظرت إلى وجه أمي وقلت:

ـ وجدتها..! سألتقي بالعريس المنتظر على الطائرة.

ضحكت أمي وقالت:

ـ الأحلام نفسها التي حلمتها يوم كنت صغيرة وإن اختلفت المواقع، وفي

النهاية تزوجت أباك هذا الذي تعرفين.

ونظرت إليها وقلت:

ـ أنت متضايقة من الزواج به إذن!

قالت:

ـ لا . . لكن الحقيقة أنه لم يكن من جملة أحلامي. .

وتابعت كلامها قائلة:

ـ الظروف يا بنيتي تفرض على الإنسان أن يقبل بأقل القليل، ما دام الكثير لا يريد أن يأتي.

ضحكت. . وبدأت أفكر في كل شيء، وبدأت أعمل كل ما يمكنني لأن أقبل كمضيفة، ويوم قبلتني شركة الطيران فرحت كثيراً، وبدأت أشق طريقي في عملي الجديد بهمة.

كنت أقارن بيني وبين البنات اللواتي يعملن معي، فأجد نفسي متفوقة جمالاً وعلماً لكنني كنت كسولة، حتى إذا ما صادفت فتحية زميلتي من المغرب أحسست بأنني وجدت من أعتمد عليها. وسارت أيامي على ما أشتهي.

أحياناً أفكر بجديّة بأن أنهي عملي وأعود إلى بلدي لأستريح، فغربتي وإن طالت إلا أنني كنت أفتقدها عندما أجيء إلى بيتنا في تونس، أشعر بأنني مشدودة بحبال إلى الأرض طوال مدة الإجازة. . مرات كثيرة كذبت على أمي وقطعت إجازتي وذهبت وصديقتي إلى إسبانيا وإيطاليا وباريس.

في إسبانيا أحسست بالراحة، ربما لأن في دماء أهلها تجري دماء عربية. أما في باريس فقد كنت أخاف من الضياع في هذه المدينة الغولة، هكذا كنت أسميها. أما في بلاد البرتومورافيا، فكنت أتضايق، لأنني أعود بعد كل رحلة لأقوم بريجيم قاس يحرمني من الأكل أياماً طويلة، أنا التي أحب الإسباجيتي والكبسة والكسكس وكل ما هو جميل ولذيذ.

لا أظنكم في حاجة لأن تعرفوا الخطوط التي أعمل عليها، يكفي أن أقول إنها خطوط عربية جعلتني أحس بعروبتي في أكثر من موقف، فقد كنا نحن العربيات المفضلات دائماً في التوظيف والترقية وغير ذلك.

صوت أم كلثوم يطربني، وأحس بنشوة عندما أستمع إليها، وكذلك عندما أستمع لصوت طلال مداح.

غربتي أحسها وأنا بعيدة عن مكان عملي في المدة الأخيرة. حتى لندن بدأت أضيق بها ورأيت أن أنتقل إلى الشرق الأقصى.

في بانكوك رأيت بشاعة الفقر، وفي طوكيو أحسست بقيمة الآلة، وفي كوريا، عرفت أن الإنسان مجرد رقم صغير، وفي باكستان أحسست بأنني إنسانة يكفي أن أذكر اسمي ليعرفوا أنني مسلمة، فهذه الصلة في نظرهم تكفي.

يوم وصلت إلى نيويورك أحسست بشعور قاس ومخيف يسيطر عليّ، أتعرفون ما هو؟

شعرت وكأن ناطحات السحاب في هذه المدينة الرمادية التي لا تنام تحاول أن تطبق علي لتطحنني فيما بينها، ويوم عدت إلى جدة رجوت أن لا أعيد التجربة، فالعالم رغم صغره يختلف باختلاف الأمكنة والناس، حتى صور الناس تبدو مغايرة بعضها البعض.

في نيويورك التقيت فجأة باليهودي القذر، يحمل على ظهره معطفه الأسود، وقبعته التي أكل الزيت أطرافها، وتبدو هي الأخرى تسخر من هذا الغارق في حمأة الذهب يجري ليعده ويقتنيه ثم يموت.

فكرت أكثر من مرة في زوج غني شاب أستطيع من خلاله اقتناء ما أريد، وبدأت أحلم، أطالع وجوه الرجال، ألمح الابتسامة المشفقة على وجوه النساء، فنحن المضيفات نستقبل الناس بابتسامة قد تغوص في أعماق من يراها وقد تغيب.

حتى هذا الشاب الأسمر الذي تسربل في ردائه ليبدو أكبر من سنه، أحسست شقاوته تطل من عينيه؛ وهو يسألني من أين أنت؟ أجبته وعيناي تنظران إلى وجهه، أحسست بأنها المرة الأولى التي يحادث فيها أنثى، فانكسف.

حاولت أكثر من مرة أن أجره إلى الحديث، حتى إذا ما ذهب عنه خجله، ناداني قائد الطائرة ليقطع علي حبل تفكيري.

أتظنون أن مهنة المضيفة جميلة ولذيذة؟ كلنا يراها كذلك في البداية، ثم تصبح شاقة، وهي كذلك لأننا نعيش نهباً لذكريات، أما أجمل ما فيها فهي أنها تنسى، ويوم نتذكرها نضحك، نضحك من غبائنا، لأننا نتذكرها.

أحدهم قال لي: «يعيشك» وهو يظن أنني سأبادله تحيته بلهجتي بتحية أفضل، لكنني كنت مشغولة أفكر في سنوات العمر التي مضت، وأنا على حالي أهرب من الغربة إلى غربة أكبر.. حتى التقيته.

لا تظنوا بي الظنون، فالذي التقيته ليس عريساً هذه المرة، وإنما كان كتاباً يتحدث عن أحلام المرأة عندما يغيب عنها شباب العمر، فعرفت أن ما أصنعه كان خطأ، فالمرأة مكانها البيت والأسرة، ولكن معي أصبح الأمر مع إيقاف التنفيذ.

وتنازلت عن طموحاتي. كنت أفكر في أن مهنتي ستزوجني بمن أريد، لكنها أبت عليّ ذلك فرأيت أن أترك الأمر للظروف، وبدأت أتنازل في كل يوم عن شرط من الشروط التي وضعتها لفتى أحلامي، حتى جاء فإذا به يحمل كل الأحلام التي أردت إلا حلماً تظل المرأة تبحث عنه..

فهو مثلي يعيش من مرتبه. فهل تودون أن تعرفوه؟ دعوني أقدمه لكم وأنا أبتسم هذه المرة، فالذي تزوجته كان زميلاً لي في الجامعة فرقتنا وجمعتنا الأيام عندما التحق هو الآخر مضيفاً مثلي على الطائرة ذاتها التي أقلتنا هذه المرة إلى تونس لأبدأ حياة جديدة، فلقد رفض زوجي أن أعمل مضيفة، وبقي هو يزرع الأرض، بينما أعايش أحلامي في البحث عن مكانه هذه المرة أنا التي أعرف معنى الغربة، غربة الإنسان سواء أكان هذا الإنسان أنثى أم رجلاً.

أتودون الصدق؟ بعد ثلاثة أعوام بدأت أخاف على زوجي هذه المرة ولا تضحكوا فقد أصبح هو كبير المضيفين، وعرفت يوم تعيينه معنى أن يكون كذلك، ومعنى هذا الأمر أن كثيرات سيخطبن وده، وخوفي أن يخطب هو ود إحداهن ثم ينساني، فبكيت وظللت أبكي حتى جاءني صوته في التلفون يقول لي:

ـ أنا في طريقي إليك، في إجازة طويلة فقد رفض رئيسي إعادة تجديد عقدي.

وعندها ضحكت وضحكت، ومن أعماق قلبي رغم أنها مشكلة لكنها في نظري قابلة للحل.

الرجل الذي لا يكذب

صديقتي أرتينا فتاة سمراء البشرة، شعرها طويل، وجمالها فطري، وقوامها رشيق، في وجهها ملاحة أفريقيا، وشقاوة الهند، وحلاوة جزر المارتنيك.

في جزر المارتنيك يعتقدون أن أشجار عباد الشمس أقدر على امتصاص الضوء من أية زهرة أو شجرة، ولذلك فهم يصفون فتياتها بأنهن أجمل من زهرة عباد الشمس. هذه الزهرة التي لا نعيرها نحن أبناء الشرق أية أهمية سوى أنها قادرة على أن تمنحنا زيوتها إذا تركناها تنمو.

في باريس عرفتها عندما كنت في طريقي إلى مبنى كلية الحقوق. لفتت نظري بابتسامتها الصباحية، فتوقفت لأمد لها يداً شرقية حميمة حييتها بها، ثم نطقت اسمي وبلدي.

قالت ـ وبهزة من رأسها ـ إنها تعرف اسمي وتعرف أنني طالبة جديدة في هذه الكلية.. فضحكت واستغربت في آن. لكنها بلغتها الانجليزية قالت لي وهي تهمس في أذني همسات قليل:

ـ هي عاداتنا نحن أبناء وبنات المارتنيك نحن دائماً نبحث عمن يقاربنا في لون البشرة.

ضحكت مرة ثانية، ونظرت إلى بشرتها السمراء الصافية وإلى بشرتي، فوجدت فارقاً كبيراً بين اللونين،شئت أن لا أذكره ومع هذا أعجبتني أرتينا.

منذ ذلك اليوم الذي تعارفنا فيه لم نفترق، وأصبحنا صديقتين نمضي ساعات الدرس معاً. أرتينا ساعدتني على الدرس والتحصيل،

فهي إلى جانب كونها ذكية، فهي قد سبقتني في دراسة الحقوق. الشيء الذي أثارني هو أن أرتينا بلا أسرة. أمها ماتت، وأبوها كذلك، وهي لا تعرف من هذه الدنيا سوى خالها الذي بعث بها لكي تدرس في باريس.

تقول عن خالها بأنه رجل يعيش جل حياته في دار السلام.. ويعمل في حقل التجارة، ميسور الحال، وإن كان لم يكن كذلك يوم غادر جزيرته إلى افريقيا.

ظروف أرتينا المادية معقولة، فهي ـ ومن أجل أن تعيش حياة مناسبة ـ تعمل بضع ساعات في مؤسسة أزياء معروفة.

وجه أرتينا قريب الشبه من بناتنا اللواتي يعشن في الصحراء.. جمال مع شيء من الثقة والاعتداد بالنفس، وشموخ مع شيء من الكبرياء.

عندما أقارن بيني وبين أرتينا أجد أننا متشابهتان في أشياء كثيرة، فالاعتداد بالنفس وسيلة لهدف كبير نسعى نحن الاثنتين إلى الوصول إليه.

في كثير من الأوقات أجد نفسي أفكر كثيراً في سنوات حياتي التي مرت، وأجد لذة كبيرة في تذكر الماضي الذي ذهب.

أصيلة جزيرتي التي ولدت على أرضها، يكفيني فخراً هذا الزخم الذي أحسه ينمو على شواطىء أرض، وعلى سطور الصحف، وأشعر بالعشب الأخضر الذي كنت أشاهده وأنا في القطار في طريقي إلى مونت القريبة من باريس، وكأنني أشاهد مروج سنابل القمح المزروعة في الصحراء.

ليست مشكلة أن تكون أمي من فيينا فأبي درس هناك في شبابه، ونال شهادته منها وتزوجها بعد أن أسلمت وحسن إسلامها، وأصبح اسمها منى.

منى ـ أمي هذه ـ هي التي جعلتني أحب التعليم. فلقد ساهمت أمي بالعمل في أمريكا عندما كان أبي يتلقى دراساته العليا هناك حتى التحق بالبعثة السعودية.

كانت تصنع كل هذا من أجلي وأجله حتى كبرت.

لا تظنوا بأنني ولدت في فيينا بل في جدة، لأن أمي أصرت يوم كان أبي في أمريكا، أن تأتي لتلد أول مولود لها بين أسرته.

مَنْ مِن النساء الأجنبيات يصنع هذا في القرن الذي نعيش فيه؟ أمي فرحت كثيراً يوم جئت في مستشفى خالد إدريس القديم الذي أعرفه كل المعرفة وتعرفه الكثيرات.

إصرار أمي على أن تشرف على ولادتي طبيبة جعل المستشفى يبحث عن طبيبة امرأة حتى وجدها. ويوم جاءت الطبيبة الباكستانية ارتاحت أمي لرؤيتها. أما اليوم فبنات جنسي الطبيبات كثيرات، ثم شاء الله لأبي أن يعمل في جنيف فعشنا سنوات هناك هو في عمله وأنا في مدرسة سويسرية.

عندما كبرت انتقلت أمي معي إلى باريس، وبقي أبي في جنيف يمارس عمله، ويزورنا في نهاية الأسبوع.

كثيراً ما كنا نقضي الإجازة في جدة في بيت جدي، الذي يعجبني طرازه الشرقي المميز. لي صديقات من الأسرة أحبهن من كل قلبي. جدتي. كانت تتمنى أن تزوجني لطلال ابن عمي، الذي حدثتني عنه كثيراً، وأرتني صورته. فطلال يدرس في لندن، وقد وعد بأن يأتي لرؤيتي.

ويوم أن جاء إلى جدة، كانت عيني ترف وقلبي يدق. فهي المرة الأولى التي أقابل فيها رجلاً أعدوه ليكون زوجي، رغم أنني أعرف تفاصيل حياته من صوره التي التقيت معها في البومات الصور التي تحتفظ بها جدتي، إلا أنني وجدت في (طلال) شيئاً آخر غير الذي عرفت.

ربما لأنني لم أعرف في حياتي إنساناً سوى أبي، وربما بهرتني تلك الرصانة التي رأيتها تحيط بمعالم الوجه الأبيض الأنيق، فهو بالإضافة إلى اعتدال قامته. يميل وجهه إلى الجمال، وإن كان لا يمكن أن يوصف الرجل بهذا الوصف.

كنت أقارن بينه وبين من رأيت من نجوم السينما، فأجد طلالاً يفوقهم هيبة ورجولة.

ولقد أمضينا يوماً رائعاً، تحوطنا عناية الجدة التي انفرجت أساريرها، وهي تلمح السعادة على عيوننا، وفي وجوهنا، فتبتسم وكأنها تقول لي:

ـ ألم أقل لك كم هو رائع هذا الطفل الذي كبر؟

ولقد تحدث إليّ طلال حديثاً مستفيضاً عن حياته في لندن وكيف يمضي أيام دراساته هناك، فشعرت بشيء من التحفظ حيال أشياء كنت أود أن أسأله عنها دون أن يجيب. ولكني لم أحفل بكل هذا، فقد كنت في قمة السعادة. فلقد أعجبني طلال..

وتمر الأيام جميلة كما تعودت.. تعرفت فيها إلى الجوانب المشرقة في حياة الأسرة، وعرفت كم يحب الواحد الآخر في هذه البيوت التي اجتمعت على الصفاء.

حتى ذلك اليوم الذي رأيت فيه فوزية. فوزية واحدة من قريباتي من بعيد كنت أراها دائماً وأحس بأن في هذه الفتاة شيئاً من الغموض والحقد أيضاً تناسيته بعد كل لحظة لقاء.

لكنها في ذلك اليوم كانت شيئاً آخر، حاولت خلاله أن أمنحها ثقتي بأسلوب مفتعل رأيت أن أنساه هو الآخر.

فقد كانت فوزية في مثل عمري، وكنت أظن أنها تتوق هي الأخرى للزواج من طلال. فهمت هذا من جدتي، عندما سألتني عن أسباب تكشيرتي بعد خروجها. لكنني لم أقل لها نصف الذي قالته لي فوزية، فلقد كانت تتحدث كشيطانة، في أسلوب من يجيد المكر والخديعة.

قالت في هدوء:

ـ انتبهي، فطلال دون جوان كبير. أراد في فترة أن يتزوج فتاة من جزيرة نائية لكن أباه رفض ذلك.

وقالت لي أشياء كثير نسيتها فجأة، وإن كانت تطل بين الفينة والفينة من بين ذاكرتي حتى إنني حاولت أكثر من مرة أن أسائل طلالاً عنها ثم أصمت لا خوفاً منه ولا خوفاً منها على نفسي، وإنما خوفاً من أن يظهر أنني لا أثق به. ولكن عندما سألت أرتينا عن حياتها، قالت وبهدوء إنها كانت ستتزوج في يوم من الأيام من شاب من بلدي.

واستمعت إلى كلماتها في هدوء، حتى إذا اختلط عليّ الأمر، وبدأت أفكر في أن تكون صديقتي هي المعنية بالأمر ضقت ذرعاً بتفكيري. حاولت أن

أنسى الأمر، لكن لا سبيل إلى ذلك. وبدأت أسأل أرتينا عن أشياء كثيرة جعلتها تلتفت إليّ وكأنها تسألني بعينها أو تعرفينه؟ وأبعدت عيني عن أن تلتقي بعينيها وقلت:

ـ وما اسم هذا الشاب؟

قالت:

ـ ذلك سر لا يمكن أن أهمس به إلى أحد، لكنني سأريك يوماً ما، هديته التي أهدانيها يوم افترقنا في هدوء.

وعاودت السؤال عن كيفية افتراقهما، فضحكت وقالت ببساطة:

ـ كنت أحبه أكثر مما كان يحبني، فرأيت أن أختفي من طريقه خصوصاً عندما علمت بأن أسرته تمانع زواجه مني، وكانت هذه هي قمة تضحيتي. صديقي كان رجلاً شهماً وكريماً وكنت أنا مثله، ولهذا تركت دراستي في لندن وجئت إلى باريس.

وابتدأ الفأر ـ يلعب في عبي ـ لكنني كنت أيضاً ذكية، فأخذت ألف حول الموضوع، حتى عرفت كل شيء، وتبين لي الأمر واضحاً فقد كان الشاب هو طلال الذي أحببت. وبدأت أفلسف أحاديث صديقتي وأغلفها بأوراق من السلوفان، لكن وفي كل مرة يكشف لي بأن طلالاً كان رجلاً، فلم يكذب عليها أبداً وافترقا على ود وإن قالت هي بأنها كانت تحبه أكثر مما كان يحبها.

حتى ذلك اليوم الذي رأيت أن أصارح أرتينا، فقلت:

ـ أو لم يكن اسم صديقك طلالاً؟

ـ نعم.. وهو أيضاً ابن عم لك.

ـ وتعرفين؟

ـ أعرف أكثر من ذلك فلقد كتب لي يرجوني أن أرعاك وقال لي بأنه يحبك كثيراً ولهذا وضعت نفسي في طريقك.

ونظرت إليها وأنا غير واثقة من كل الذي تقوله، فقالت:

ـ صدقيني يا إحسان فهذه هي الحقيقة فنحن الذين نعيش في الغربة بعيداً عن أهلنا لا نكذب.

لقد قالها لي وبعبارة أوضح أكد لي بأن كل الذي كان بيني وبينه مجرد صداقة، وإنه باسم هذه الصداقة والحب الذي أكنه له رجاني أن أرعاك وقد فعلت.

ورفعت يدها إلي بخطاب شعرت بأنه قد قرىء مئات المرات، وقرأت كلمات طلال التي بعث بها إلى صديقته فأكبرته. فهو صادق وإن كان لم يقل لي عنها شيئاً.

وقرأت جملته الأخيرة وهو يقول لها:

ـ دعيها تعرف كل شيء، فأنا وإن كنت أحبها ومن كل قلبي، إلا أنني أود أن أكون صادقاً معها ومع نفسي ومعك وسأقول لإحسان عن كل الذي بيني وبينك يوم تعود.

وهكذا ازدادت مكانة أرتينا في قلبي وأصبحت أقدر صداقتها لي أكثر من ذي قبل..

أما طلال فقد وعد بأن لا يأتي إلى باريس وإنما سينتظرني مع الأسرة في القاهرة ليقيم حفل الزفاف هناك.

وقد وافقت على كل ذلك واشترطت بأن يدعو أرتينا لحضور الزفاف وأنا واثقة. لا أدري هل أصبت في الإصرار على دعوتها أم أخطأت لكنها الحقيقة، فأنا أثق في حب طلال لي، وأثق في صداقة أرتينا لي هي الأخرى.

ترى لو كان طلال قد كذب علي فهل أتزوجه؟

واستغرقت فترة من الوقت في التفكير شعرت بعدها بأنني سأتزوج طلالاً لأن الكذب لا يعرف طريقه إلى قلبه ولسانه، وهذا هو غاية ما تريد المرأة من الرجل هو أن لا يكذب.. لا يكذب.

مشكلة أخرى

أنا من أنا؟ طفلة شقية شبت عن الطوق بسرعة. من يراني يعتقد أنني قد تعديت العقد الثاني من العمر وبدأت أدب إلى العقد الثالث، لكن شهادة ميلادي تثبت بأنني لم أتعد الخامسة عشرة من العمر يوم قدر لي أن أتزوج.

زوجي عندما قرأ وثيقة الزواج استغرب كثيراً وظن أن هناك خطأ ما في حقيقة مولدي.. لكنها الحقيقة فيوم جاءت ابنتي إلى النور، كنت قد تجاوزت السنة السابعة عشرة.

زوجي مهندس تخرج من الجامعة يمارس عمله في إحدى الشركات الكبيرة لكن طموحاته لا تقف عند حد. يوم جاءني يعلن بأنه اتفق مع زميل له على فتح مكتب هندسي شراكة كان عيداً بالنسبة له ولي.

شريكه في العمل أخذ على عاتقه العمل صباحاً، وزوجي أخذ على عاتقه هو الآخر أن يعمل ليلاً حتى تستتب لهما الأمور وتسير إلى الأحسن، وعندها يستقيل زوجي من عمله في الشركة ويتفرغ للعمل.

تحملت زوجي وغيابه عن البيت شهراً، شهرين، ثلاثة شهور، ثم رأيت من المناسب أن أقول له كل ما أشعر به من ضيق. فأنا طفلة وجميلة ومدللة. أبي كان يصنع الكثير من أجل أن أظل سعيدة، فأنا وحيدة أبويّ. زوجي أخذ الأمر ببساطة وطالبني بشيء من التضحية، ثرت في وجهه لكنه لم يتقبل ثورتي وترك البيت ومضى في طريقه إلى المكتب.

أخذت أفكر كثيراً في هذا الذي حصل. عند عودة زوجي حاولت أن ألاطفه، لكنه ظل على تكشيرته حتى نام. في الصباح ولأول مرة بعد زفافنا خرج زوجي من البيت دون أن يتناول طعام الإفطار، ولم يعد لتناول الغداء ولا العشاء. استكثرت الأمر، ورأيت أن زوجي قد أخطأ في حقي كثيراً.

لم أكن أظن أن مجرد كلمة صغيرة مني يمكن أن توصلنا إلى ما وصلنا إليه. لي ما يزيد عن الثلاثة شهور أعايش زوجي في البيت؛ هو في غرفة وأنا في غرفة أخرى.

تصوروا كيف يمكن لفتاة مثلي أن تعيش في بيت مع إنسان لا يحادثها؟ فكرت كثيراً في هذا الأمر وقلت لنفسي: لو أمكن أن أتحدث لأبي عن هذه المشكلة.. لكنني تراجعت، لم أرد أن يتدخل أبي فيما يجري بيني وبين زوجي.

أمي زارتني في البيت وحاولت أن تتعرف إلى المشكلة، لكنني لم أرض أن أفضي بها إليها لأنني اعتبرت أن هذا الأمر هو مشكلتي أنا الوحيدة التي عرفت الموضوع مني هي أخته (رنا) التي أعتبرها كأختي وقد رجوتها أن لا تقول شيئاً لأحد، فكانت عند حسن ظني بها.

أتعرفون كيف انتهت هذه المشكلة؟ انتهت ذات ليلة عندما طلبت والدته منه أن يتناول طعام العشاء عندها.

يومها تحدث لي وقال كلاماً كثيراً حاولت أن أهضمه بلا جدوى، لكني كامرأة متسامحة رضيت أن أتناسى هذه المشكلة ونعاود مسيرتنا الزوجية. ومع هذا ظلت في قلبي نقطة صغيرة سوداء حاولت أن أزيلها منه دون جدوى.

قلت لنفسي: ما دام زوجي على هذا القدر من العناد، فالحياة معه رغم كل شيء ستصبح صعبة. وحمدت الله لأنني اكتشفت ما اكتشفت ونحن في أول الطريق.

صممت بيني وبين نفسي على أن أتركه إذا لم أستطع أن أبعده عن هذا العناد. فكرت في الأمر طويلاً. لم تهن علي عشرته ولم تهن أن تعيش بنتي (هناء) بلا أب سنوات وبلا أم سنوات أخرى.

في يوم من أيام الربيع جاء زوجي يعلن بأنه قد توصل إلى القرار الحاسم وقرر أن يترك الوظيفة وينصرف إلى مكتبه مع شريكه. سألته عما إذا كان قد اتخذ هذا القرار عن إيمان ورغبة أولاً، وعما إذا كان المكتب سيدر عليه أرباحاً تكفينا مؤونة البيت.

نظر إلي نظرة جانبية أدهشتني. وبحركة لا شعورية من يديه قال:

ـ لماذا تتدخلين في أمور لا تعنيك؟

نظرت إليه بحب وقلت:

ـ وهل أمر حياتنا معاً وبيتنا لا يعنيني؟

وبدأت أحاول أن أفهمه معنى تساؤلي لكنه أصر على رفضه بأن أتدخل واعتبر مجرد سؤالي هذا إهداراً لكرامته كرجل فضحكت، وعندها قال لي وهو منفعل:

ـ أتضحكين؟

وأجبت بهدوء:

ـ ولماذا لا أضحك ما دمت تفسر الأمور بأسلوب جدك؟

اعتبر كلامي هذا شيئاً لا يمكن السكوت عليه، واختلفنا بعد أن أقام الدنيا ولم يقعدها، لكنني أصريت على أنني لست مجرد كم مهمل في هذا البيت فلي أحلامي وتطلعاتي التي هي جزء من أحلامه وتطلعاته.

وصمت، لكنه لم يصمت بل طلب من أبيه أن يتدخل.

وعندما سمع أبوه كلامه، قال بابتسامة:

ـ ربما كانت هي على حق وربما كنت أنت أيضاً على حق، أدري بأنك تريد أن تجنبها مشاكل الحياة وتبعد كل متاعبها عنها ولكن ليس بما صنعت.

ابتسمت وقلت لعمي:

ـ لا بأس ربما كنت مخطئة، فلم أطرح تساؤلي بالطريقة المناسبة وأنهيت الموضوع.

لكن أباه لم ينهه كما أراد هو بل كما أردت أنا وقال رغماً عنه، وهو

يهمس في أذن ابنه:

ـ أنت هكذا كأمك تندفع وتدفع من تحب إلى خصام وجدل ليس هو من حقك.

اعتبرت همسة عمي ردة اعتذار لي وتناسيت الموضوع.

وتمر الأيام وكل شيء على ما يرام. المكتب في ازدهار، والعمل كثير، والعقود أكثر وزوجي حائر ماذا يصنع من أجلنا.

بيتنا تغير بعد أن قام زوجي بشراء الأرض وبناء الفيللا. أكثر من سيارة أمام البيت.

لم أكن أظن بأن التغيير الشامل الذي طرأ على حياتنا كان نتيجة لأن زوجي عرفت يداه الاستدانة من البنوك. كنت أكثر من عمياء لأنني تركت الأمور تجري على ما هي عليه دون مناقشة.

وأصبحت لا أسأل عن أي شيء في حياة زوجي العملية.

ويوم جاءت أخته وقالت لي بأنه على علاقة مع سيدة غنية تريد الاقتران به، لم أهتم وحاولت أن أبدو طبيعية، ولكني ناقشتها في الطريقة والأسلوب الذي تستطيع هي أن تساعدني وتساعد أخاها أيضاً في إبعاده عنها.

رنا أخت زوجي فتاة عاقلة، فهي طبيبة تعمل في مستشفى حكومي وتتطلع لأن تدرس جراحة التجميل، ولها شخصية تجعلها قادرة على مناقشة أخيها.

عرفت منها أن مشروع الزواج من السيدة الثرية قد انتهى بعد أن أفهمت زوجي المشاكل التي تلحق به خصوصاً وأن السيدة أرملة ولديها طفلان.

في الآونة الأخيرة ران على زوجي صمت غريب، فهو يدخل البيت ليفكر ويخرج منه ليفكر أيضاً، حاولت أن أعرف سبب التفكير بلا جدوى لكنني شعرت بأنه يعيش مشكلة كبيرة لا يريد أن يفضي بها إلي.

يوم جاء أبي إلى بيتنا قال لي كل شيء.

عرفت أن زوجي استمرأ معيشته الأخيرة وأن مصاريفه كثرت وأعمال المكتب قلّت، وأن البنوك تطالبه بمبلغ لا بأس به.

واجهت زوجي بالأمر، فاعترف، وقلت له بأنني مستعدة أن أتنازل عن

الفيللا وجميع وسائل الفخفخة وأعود إلى بيتنا الصغير وقلت له أيضاً بأن في إمكانه أن يبيع كل مجوهراتي ليسدد دينه.

ضحك زوجي من سذاجتي وقال:

ـ كيف تريديننا أن نعود إلى بيتنا السابق، وكيف تريدين مني أيضاً أن أبيع مجوهراتك وهي هدية من والدك لك؟

قلت له:

ـ لا عليك فوالدي لا يرفض أن أضحي من أجل بيتي.

وأصر على موقفه وخرج من البيت وهو ينوي على شيء لكنني لم أعرف هذا الشيء إلا مؤخراً.

عندما عاد زوجي إلى البيت وجدته منشرح الأسارير وكأن كل شيء قد انتهى؛ سألته عن المشكلة، قال لي بأنه استطاع أن يقفز عن جميع الحواجز وبهذا لم يعد مديناً للبنك، حاولت أن أعرف التفاصيل لكنه أصر على سابق موقفه وعاد يقول لي:

ـ ألا تثقين بي؟ لقد فعلت كل شيء من أجلك ومن أجل ابنتنا.

حتى جاء ذلك اليوم الذي عرفت فيه كل شيء! عرفته من رنا أخت زوجي.

أتعرفون كيف حل زوجي المشكلة؟ لقد اختار أسهل الطرق بالنسبة إليه وتزوج المرأة الأرملة التي تكبره لتقوم هي من جانبها بدفع كل ديونه، ولقد أخفى زوجي عني كل ما صنع حتى عرفت ما عرفت وعندها لملمت كل أغراضي ومضيت إلى دار أبي مع طفلتي، التي تسألني دائماً عن أبيها بلا جواب، ولا أدري.. وإن كنت أظن أنني بما صنعت قد أضفت إلى المشكلة مشكلة أخرى. ألستم معي في ذلك؟.

شهادة ميلاد

اسمي سناء، بيضاء البشرة كستنائية الشعر، مهضومة أضحك من كل قلبي، وأعايش الحياة بأصالة بعيدة عن أي انفعال.

أمي تناديني سناء، أما أبي فلا يعترف بهذا الاسم رغم أنه هو الذي سجله في شهادة الميلاد أبي يناديني باسم زهراء، ولدت على شواطىء بردى في مدينة دمشق التاريخية.

في بيتنا الكبير بالقصاع قرب باب توما، مجرد ذكرى للمنطقة التي أسكن فيها مع أسرتي في بيتنا الذي نملك، يجعل من أتقدم إليهم يظنون أنني مسيحية، وأنا من بيت إسلامي عريق. لكن المنطقة التي أعيش فيها منطقة مسيحية. مجرد التفكير في أنني سأتلقى هذا التساؤل كان يثير خجلي لا أدري لماذا.

يقولون إن المكان دائماً يرتبط في أذهان الناس بأشياء التصقت به، ولذلك من الصعب عليهم أن يتناسوها.

كل دمشقي يعرف أن باب توما والقصاع منطقة أكثر سكانها من المسيحيين، ولهذا فلي صديقات فيهنّ، ولي صديقات أخريات من الطرف الآخر.

في حارتنا شيء من الحرية للمرأة لا أراها في المناطق الأخرى. ربما لأن المرأة في مجتمع الأقليات تتعلم أكثر من المرأة في المجتمع الأكثر. عندما صممت على رفض كل من يتقدمون لخطبتي لمجرد رغبتي أن أتخرج من الجامعة. لقي هذا التصميم حتى من أمي شيئاً من الازدراء حتى أخواتي اللواتي هن يصغرنني تزوجن أيضاً.

عندما أعود بذاكرتي لأيام الطفولة أجد أنني لم أتغير مطلقاً. أحلامي وأماني وطموحاتي هي هي، وكأنها تبدو أمام عيني ككتاب مفتوح أستطيع أن اقرأه رغم أنني نلت شهادة البكالوريوس من كلية التجارة قسم محاسبة تلبية لرغبة أبي إلا أن هاجسي الأول هو أن أرى الدنيا، أن ألف وأدور حول الكرة الأرضية، ويوم بعث بي أبي إلى إيرلندا لدراسة اللغة الانجليزية كان من أسعد أيام حياتي، لأنني حاولت أن أستفيد من محطات النزول، فرأيت روما وباريس وعرجت على لندن ثم بلفاست وأولستر التي أعجبتني كثيراً.

سحنتي الأوروبية كانت تجعلني أختفي بين مجموعات البنات الانجليزيات اللواتي كن يستغربن كثيراً عندما يعرفن بأنني عربية. وعندها يتحدثن عن جمال عيون العرب وعن أن عيني خضراء اللون، إلا أنها واسعة وجميلة تبدو كشيء مغاير لعيون هؤلاء الأوروبيات.

في باريس حاول أحدهم إغرائي وأنا في شارع الشانزليزيه أتفرج على تصوير سينمائي، حاول أن يستدرجني للعمل في السينما فرفضت بإباء وشمم.. فأنا فتاة أهوى السفر ولا أعشق الاستعراض.

أحببت باريس وبنات باريس وشدني إلى هذه المدينة شارعها الكبير الشانزليزيه الذي امتلأت طرقاته ومعارضه بأضواء كثيرة خلتها بادىء ذي بدء أنهم يعيشون مهرجاناً من مهرجانات باريس.

وعرفت أخيراً أنهم ينتظرون ليلة عيد الميلاد بفارغ صبر.

في زيارتي لإحدى المكتبات، التقيت وجهاً لوجه بالكاتبة الفرنسية ساجان التي حسبت أنها مريضة، حتى إذا ما سألتها عن السبب في كل هذه المرارة التي تحيط بوجهها المتغضن أجابت في اقتضاب وقالت:

ـ ربما كان السبب أن حياة المرأة في باريس ليست على ما يرام دائماً.

نظرت إلى وجهها متمعنة لأعرف سبب هذا الألم والمرارة، فعاودت هي سؤالها لي:

ـ كيف تسنى لك أن تعرفي أنني فرانسواز ساجان؟

قلت لها كيف استقبلت قراءة أول رواية لها في مدينتي دمشق، وطلبت

منها أن تكتب على غلاف كتاب كنت أحمله كلمة إهداء صغيرة فقالت:

ـ لا.

وأعطتني كتابها القديم الذي كانت تحمله في حقيبتها الجلدية، وقد خطت يدها أول عبارة إهداء لي.

ثم استدارت وقالت:

ـ ما اسمك؟

حتى إذا ما خطته لم تصدق أنني من مدينة كوليت خوري ومن حارتها أيضاً. ووقفت معها قليلاً نتحدث، حتى إذا ما استأذنت بأن تمضي إلى غايتها عادت مرة أخرى لي وقالت:

ـ أتودين أن أوصلك بسيارتي؟

ضحكت من قلبي وقلت:

ـ لا فأنا في إجازة.

وأكملت بأنني في طريقي إلى لندن لأدرس..

تنهدت بحرقة وقالت:

ـ ليتني أعود إلى ذلك اليوم الذي كنت فيه مثلك.

ولم أنتظر منها أن تكمل بل سألتها:

ـ وماذا كنت ستصنعين؟

قالت:

ـ أتجنب عثرات الأيام التي صادفتها بعد نجاحي الأول.

واختفت.

لا أدري لماذا أذكر كل هذا. ربما لأنني أردت أن أكتب قصة حياتي أنا أيضاً وخبرتي الصغيرة وأنا الطفلة المدللة التي جاءت تبحث عن الحياة بين أجواء المدن، بعد أن ودعت مؤقتاً الشرق ولهيبه وكبرياءه فمدينتي دمشق مدينة يملأ أجواءها كبرياء الإسلام منذ ذلك اليوم الذي استخدمها فيه معاوية بن أبي سفيان كمنطلق لرسالة دولة الإسلام وكقاعدة للأمويين..

وعاودت التسكع في شوارع باريس، فباريس تحب الذين يتسكعون في طرقاتها حتى إذا ما تعبت قدماي اخترت مقهى الفوكيه لأحط على أحد كراسيه.

نظرت حولي فوجده مجموعة من الرجال تختلف سحناتهم وإن كانوا على ما يظهر لي من منطقة واحدة، وكأن كل واحد منهم من مدينة. وبدأت أحملق في وجوههم ببلاهة حتى إذا ما طرقت سمعي لغتهم. هتفت من أعماقي مرحة.. عرب هم ولا شك. نظرت إلى أقربهم مكاناً وابتسمت، فكشر عن وجهه، لكن صديقه لكزه بيده وقال له بلغة فرنسية مكسرة:

ـ مرحباً.

فأجبته بالعربية مرحبة فقال:

ـ لا بد وأن الأخت من باريس!

قلت:

ـ ماذا تعني؟

فتلعثم وقال:

ـ أعني أنك جزائرية من مواليد باريس.

قلت:

ـ لا بل دمشقية، من بلد هذا.

وأشرت إلى الرجل الثالث الذي كانوا يتحوطون حوله. فالتفت لي وضحك.

أتعرفون من كان الرجل؟

ستقولون بأنني أحاول أن أضحك عليكم وأني أمنح نفسي قدراً من المباهاة لا أستحقها لكنها الحقيقة. فنزار قباني من كبار شعراء دمشق الذين قرأت لهم كما قرأت للشاعر عمر أبو ريشة. وإن كان الفارق بين الاثنين كبير وواضح. كلاهما في نظري مدرسة شعرية أحبها.

نظر لي نزار بنصف عين مفتوحة، فتمعنت في وجهه لأرى تأثير وفاة زوجته عليه، فلم أجد شيئاً سوى ذلك الذي قرأته في شعره عنها، فأحسست

بأن الشعراء أحياناً يقولون وأحياناً ينسون في غمرة مشاكلهم مع الحياة كل ما قالوه.

سألته عن بلقيس، فلم يجب. لكنني أحسست أن سؤالي حرك شيئاً من لواعج شوقه لامرأته التي استشهدت. بعد هنيهة قال:

ـ أو تعرفينها؟

قلت بهزة من رأسي نعم وأشرت إليه وقلت مرة ثانية:

ـ منك أنت، من أشعارك، من حديثك عنها.

نظر إليّ بعينيه الرماديتين وقال:

ـ المرأة يا سيدتي هي هذا الشعور الذي يلامس شغاف قلوبنا تجاه ما تصنعه لنا نحن الرجال، فكيف الأمر عندما تكون الحبيبة زوجة؟ ثم كيف يصبح الأمر عندما يفقد الرجل زوجته وحبيبته في آن واحد؟

ولم يكمل. فآثرت أن أصمت أنا الأخرى وكان صمتي وصمته وصمت الآخرين بضع دقائق حداداً على بلقيس التي عرف وعرفت وعرفها الناس.

لا تقولوا بأنني أستعرض في كلماتي التي كتبت ظروف حياة إنسان قابلته لا يستطيع أن يكذبني فيها إنسان فأنا صادقة وصدقي يأتي من أن ما حصل ليس لي فضل فيه سوى أنه مصادفة، ومصادفة لذيذة.

مدينة بلفاست وفي معهد اللغة الانجليزية الذي التحقت به شعرت بالوحدة. ربما لأن أكثر الدارسين في المعهد من خارج إيرلندا. لم يكن أو تكن أي عربي أو عربية بين كل هذه المجموعات ولهذا بدأت أحس بالغربة تحيط بي وتطبق بقبضتها على عنقي، حتى جاءت كريستين. لا تظنوا أن كريستين هذه عربية مسيحية وإنما كانت من الشرق الأقصى من طوكيو. شدني إليها أننا أنا وهي من الشرق.

كريستين فتاة طيبة القلب فيها صفاء الشرق ونقاوة أجوائه. وهي في مفهوم أولئك الذين يعرفون معاني الجمال جميلة جداً فأمها ألمانية وأبوها ياباني.

في اليوم الأول الذي التقيت بها كانت شفتاها تضحك وهي تلقي بتحية الصباح علي. شدني إليها رقة تعبيراتها في الدرس والتحصيل.

لم تكن مثل الأخريات تندفع لمصادقة الرجال. بل كانت ترفض أن تدعى بمفردها لأي حفل.

في البداية كانت صداقة انتهت لأن تشاركني السكن أنا التي عشت طوال الشهور التسعة بمفردي عند العائلة الإيرلندية حتى إذا ما اطمأن قلبي لها دعوتها لمشاركتي الغرفة، فكانت دعوتي لها شيئاً أثار في نفسها الكثير من الحب. فقد اختصر مصاريف السكن بالنسبة لها ولي إلى النصف.

وتمر الأيام وأعود إلى مدينتي دمشق لأستنشق هواء هذه المدينة العبق بذكريات التاريخ وأملأ عيني بمرأى المسجد الأموي، وأتجول في الصالحية وشارع بغداد، والمهاجرين. حتى إذا ما استقرت بي الحياة تقت للغربة والسفر قال لي أبي وهو يضحك:

ـ وماذا بعد كل هذه الغربة؟ ألا تحبين أن تعملي في مكتب أخيك؟

قلت:

ـ لا.

قال:

ـ لماذا؟

قلت:

ـ لأنني عندما درست المحاسبة لم أهيىء نفسي لممارستها. وأنت تعلم يا أبي بأنني أردتك أن ترضى فأنت الذي طلبت مني ذلك، أما اليوم وبعد أن كبرت فهل لي أن أرجوك أن تمنحني بعض الوقت لأمارس مهنة جديدة وسأعدك بأنني لن أعمل فيها أكثر من عامين أعود بعدهما إلى مدينتي.

نظر إليّ في دهشة ممزوجة بشيء من الخوف، فأبي يحبني ويخاف علي خصوصاً بعد أن تزوجت آخر العنقود وبقيت أنا وحدي دون زواج.

وتابع حديثه في صوت أحسست بالهيبة وهي تتسلل إلى أعماق أعماق نفسه وقلت:

ـ لم أمل الغربة بعد يا أبي (فالغربة ليست في المكان وإنما هي تستقر في أعماق النفس عندها يحس الإنسان بالضياع).

وتصورت نفسي وقدماي تسيران في طريق جديد لا أدري إلى أين يوصلني. أحسست بعدها أنني بمفردي في الغرفة رغم وجود أبي.

ودخلت أمي علينا الغرفة فجأة فواجهها أبي بكلامي فقالت:

ـ لا عليك دعها تتحسر على أيام الصبا عندما تواجه العنوسة وستتذكر أن مكان المرأة هو البيت..

والتفت لأمي قائلة:

ـ ما تقولين يا أماه هو الحقيقة فالبيت هو المكان الطبيعي للمرأة ولكن أي بيت؟

قالت:

ـ بيت الزوجية.

واستدرت إليها بوجهي وأنا ألامس بيدي خصلات شعرها الذي خطته الفضة قائلة:

ـ لأنجب بعد ذلك عشرة أطفال مثلك يا أماه؟

وقالت أمي في هدوء:

ـ وماذا في هذا الأمر؟ ألسنا في حاجة لأن يكبر عددنا نحن الذين نجاور إسرائيل؟

وبدأت أعرف ما تعنيه أمي، فالمرأة السورية كالرجل السوري سواء بسواء تشغلها السياسة.

استدرت مرة أخرى لأمي وقلت:

ـ لا بأس دعوني أعمل بضعة أشهر خارج مدينتي، ويوم تجدون الزوج المناسب سأعاود رحلتي إليكم.

ضحكت أمي وقال أبي:

ـ لك رأيك فأنت قد كبرت بما فيه الكفاية، لكنني أود أن أتساءل ما هو نوع العمل الذي ستمارسينه؟

قلت بصوت هادىء:

ـ أجوب ديار العالم على ظهر طائرة.

خبطت أمي على صدرها وقالت:

ـ أوتعنين أنك ستدرسين الطيران؟

قلت:

ـ لا يا أماه، فلم تعد عندي قدرة على الاستذكار والدراسة ولهذا سأختار مهنتي لأكون ضمن طلاب الثقافة الذين يرون أن السياحة في بلاد العالم جامعة مفتوحة ينهلون منها كل شيء. فأنا يا أماه سأعمل.

وصمت فقالت:

ـ تعملين ماذا؟

قلت:

ـ مضيفة جوية.

ومات زوجي!

وتثاقلت قدماي وأنا أسير في الطريق المؤدي إلى فندق نوفابارك في باريس، فهذه المدينة التي لا تنام حرمتني أنا الأخرى النوم طوال ليلتين كاملتين، كنت أفكر خلالها في رحلة زوجي التي جاءت هكذا على عجل رغم إننا في إجازة بعد شهور عمل طويلة. ثم أعاود التذكر لكلمات صديقة من بون التي تلقيتها وهو خارج الفندق تقول: فالتوقيع على توكيل شركة المباني الجديدة قد حان وهم في الشركة يستميتون لإنجازه بأسرع ما يمكن.

دينا صديقتي مشغولة مع زوجها بشراء ثياب ابنتها التي تجهزها للعرس ولولا انشغالي أنا الأخرى معها في هذا الأمر لزادت حيرتي وازداد تساؤلي عن الزوج الغائب.

رغم التلفون الذي أعطانيه زوجي يدق باستمرار، أستمع إلى صوت السكرتيرة التي توصلني به لأتحدث معه بضع دقائق أعود بعدها إلى حالة من التراخي والكسل، وأشعر بأن باريس على رحابتها تضيق بي.

وبدأت أسائل نفسي أترى يكون قد حدث شيء لزوجي يجعله يعاود رحلة الشقاوة التي سمعت عنها؟ فأضطرب ثم أتذكر رحلة العمر مع هذا الشقي الذي أحببت ولا تظنوا بي الظنون فأنا لا أعني بالشقاوة إلا القدرة على الحركة والسفر وهما أمران نلت منهما ما نلت طوال العشرين عاماً التي انقضت من زواجي.

يقولون إن مضي سنوات طويلة كهذه على زوجين يحب أحدهما الآخر أكثر قد تضعف الحب بين الزوجين. لكنني أرى الأمر عكس ما

يقولون فسنوات زواجي أضافت لشبابي رونقاً وجمالاً فأنا الآن في السادسة والثلاثين أم لطفل شب عن الطوق ويدرس في أمريكا.

تصوروا كيف تتزوج الفتاة في السادسة عشرة من العمر ثم تنجب بعد عام ولولا زوجي لكان عندي أكثر من دزينة أطفال.

من يرى زوجي يظن أنه في الخامسة والعشرين رغم أنه أكبر من هذه السن بعشرين عاماً لكن تقاطيع وجهه تجعله يبدو أصغر بكثير من سنه فهو من أولئك الذين ينطبق عليهم الوصف (وجه طفل) رغم كل السنوات.

زوجي أبيض اللون، أشقر الشعر ولد في قباء وكبر ونشأ بين جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة.

في القاهرة تزوجت بعد أن نجح زوجي في بكالوريوس التجارة. شهر عسلي كان عملاً رائعاً متواصلاً من أجل أن أنجح أنا، وقد نجحت في الثانوية واخترت البقاء مع زوجي.

أسرة زوجي من الأسر الغنية، وبيتنا بيت متوسط.

كبرياء أمي كان يقف حائلاً بين أن يكون هناك انسجام بين الأسرتين.

ترى لماذا أتذكر كل هذا؟ الآن صديقتي التي أحب، والتي أقضي طوال يومي معها نفتش معارض الأزياء بحثاً عن الجديد لزفاف ابنتها من مستوى أسرة زوجي إن لم تكن أكثر ثراء.

زوجي يتحدث بالتليفون يقول في كلماته المعسولة:

ـ كيف أنت في باريس يا عزيزتي؟

أرد في تثاقل:

ـ لا جديد فيها سوى غيابك.

يضحك زوجي ويبدأ في سرد أخبار الاجتماعات، وبهمس واضح يطلب مني أن أسامحه لأنه سيتأخر ليومين أقفز من فراشي، أصيح وأنا أرتعد:

ـ لا..

لكنه يهدىء من انزعاجي ويقول:

ـ أنت دائماً عاقلة. أنسيت أننا في حاجة لدخل جديد بعد أن كبر ابننا يا عزيزتي؟..

أحس بصوته يهدهدني. أهدأ قليلاً وألملم ضعفي وحزني وانزعاجي لأواصل حديثي معه ثم أنسى كل شيء عندما يقول:

ـ أو تدرين كم أفتقدك هنا يا عزيزتي؟

باريس مملة مقرفة، النهار طويل والليل أطول، برامج التليفزيون هي الأخرى برامج سمجة. أعدو في خطوات إلى باب الغرفة لأقفله ثم أخرج، أمشي في الطريق. الأضواء تنير لي طريق أقدامي.

الرجال يسيرون زرافات والنساء كذلك وأنا وحدي. من منكم عانى الوحدة في باريس؟ قد تقولون بأن وحدتي كلام فالإنسان مهما كان يمكن أن يتسلى في باريس، ولكن صدقوني لم أشعر بالوحدة كما شعرت بها وأنا في هذا الطريق الممتلىء بالناس.

صادفتني امرأة عربية نظرت إلى وجهي، تحدثت إلي قالت إنها من جنوب لبنان، حكت قصتها، لم أشعر بأنني أستمع إليها بمقدار ما كنت أشعر بأنني أستمع إلى نفسي فهي زوجة وأم ذهب زوجها ضحية رصاصة طائشة، فوجدت نفسها فجأة تعيش بين الذئاب.

نظرت إلى وجهها فرأيته مشرقاً بعكس كل ما ترويه فظننتنا أنها تكذب، فقالت وكأنها تقرأ أفكاري:

ـ لا عليك فنحن النساء لكثرة ما نلاقي ولصعوبة ما نجد تتبلد أحاسيسنا تجاه هذا الذي نراه ونجده ولهذا تجديني أحكي قصتي وكأني أتحدث عن أشياء لا تهمني مطلقاً.

ركزت نظري عليها، فرأيت شفتيها تختلجان في نعومة فقلت:

ـ ألم تكوني تحبين زوجك؟

قالت وبصدق:

ـ لا.. ونعم.. فقد كنت أحبه بشكل كبير في الشهور الأولى من زفافنا وبعد أن استولدني طفلة حتى إذا ما عبرت بنا السنون ضاع من قلبي الحب وإن

اختلطت فيه المشاعر فقد علمت بالصدفة أنه يلعب بذيله مع صديقة لي. وستستغربين عندما أقول لك بأنني هنا مع هذه الصديقة التي قدر لها أن تنجو من حرب لبنان لتعيش في هذه المدينة، فهي فتاة أصابعها من ذهب لأنها تعمل في حقل الأزياء وأجمل أزياء باريس من صنع يديها. لقد علمت صديقتي بوفاة زوجي، فبعثت تدعوني لأن أعيش معها. وولدي الذي كبر هو الآخر وأصبح يمضي أكثر أيامه في مدرسة داخلية.

أعدت النظر إلى المرأة وسألتها:

ـ وهل تحدثتما معاً عن ذلك الغائب الذي فقدتماه؟

ضحكت ريما وهذا هو اسمها وقالت:

ـ كثيراً وكثيراً جداً.. لكنها كانت تقول لي بأنها أحبته قبل أن يتزوج بي وأنه هو الذي فضلني عليها، حتى إذا ما رضيت أن تعيش معه في الظل رضي هو الآخر استكانة لهذا الأمر.

نظرت إليها وقلت:

ـ ألا تختصمان؟

قالت وبدهشة:

ـ نختصم على ماذا؟

ضحكت وقلت:

ـ على موقف كل واحد منكما منه هو الذي مات ومن الصغير؟

قالت ريما:

ـ ربما أحسست بشيء من الاعتزاز والفخر عندما عرفت أنه تزوجني أنا وأحبها هي. لكنني أفرح أكثر لأنني لولاها لضعت في طريق الروشة أو المزرعة أو باب إدريس.

ودعتها وأنا على مقربة من فندقي وذهبت ومضيت أنا أنظر إليها وهي في الطريق، حتى إذا ما أحسست بأنني عدت وحيدة، أخذت طريقي إلى غرفتي ليرن جرس التلفون جاء صوت زوجي ناعماً كعادته يتسلل إلى أذني قال بهدوء:

ـ سامحيني فلقد أضعت عليك إجازتك. لقد جد في الأمر ما يدعوني لأن

أذهب إلى لوزان مع المجموعة لنسجل الشركة لدى الاستشاري.

ضربت بيدي على صدري وقلت:

ـ إذن ستغيب أياماً أخرى!

قال وبنفس النعومة:

ـ لا، ليست أياماً كثيرة هي يومان فقط نعود بعدها لمواصلة الإجازة ولن أسمح لنفسي بأن أتركك بعدها لا في باريس أو غير باريس.. ثم على فكرة هل اشتريت معطف الفراء الأبيض الذي أعجبك في دار الفراء التي رأيناها سوياً؟

قلت له:

ـ أو تريدني أن أشتريه وأنت غائب؟

قال:

ـ لا عليك.. يمكنك شراؤه ببطاقتك الأمريكية أكسبرس التي أعطيتك إياها قبيل مغادرتنا جدة..

قلت بعناد:

ـ لن أشتري شيئاً. يكفيني أنني أستمتع كامرأة بشراء ما تحتاجه صديقتي دينا لابنتها.

وانقطع الخط دون أن أعرف لا اسم الفندق أو تلفون الاستشاري أو أي شيء آخر. ووقعت في حيرة لم ينقذني منها سوى أن الأسرة في جدة قد طلبتني على التلفون.

تحدثت باختصار وعرفتهم جميعاً أنني في انتظار عودة زوجي من عمله.

أبي حرضني بأن أقفل باب غرفتي بشكل جيد عندما أكون فيها فوعدته.

أمضيت ليلة بائسة رغم أني في باريس.

وعندما صحوت وجدت نفسي قادرة على أن أكتب رسالة.. ففعلت،

وبدأت أجمع نفسي وأهيئها لرحلة الصباح مع صديقتي التي تحدثت لي تلفونياً معتذرة عن الخروج هذا اليوم، شكرتها بعد أن أخذتني الحيرة فما أصنع طوال هذا اليوم وتناولت فطوري ثم أخذت طريقي إلى الشانزلزيه لأقضي وقتي كله على مائدة صغيرة في مقهى عادي أرشف قهوتي وعيناي منصبتان كلها على الطريق.

لم أكن أظن بأن بعض محلات الأزياء تصور أزياءها في الطريق. أعجبني فستان أسود تلبسه امرأة شقراء. قصة الفستان غريبة، وإن كان في مجموعته حشمة خالص كما يقول المصريون، أخرجت ورقة وقلماً وبدأت أرسم الفستان على أمل أن أصنع مثله.

تحدثت لي إحدى العارضات وهي تسألني من أي بلد أنا، فأخبرتها باسم مدينتي وبلدي فقالت:

ـ أنت إذن من (بلد السعادة)؟

لم أفهم بادىء ذي بدء حتى إذا ما عرفت بأنها تقصد أننا نعيش حياتنا بالطول وبالعرض في سعادة لأني بسؤالها أحسست بشيء كبير من الراحة والفخر والاعتزاز.

الساعات تمر وأنا في مكاني، حتى إذا مللت الجلوس على كرسيّ الصغير جررت قدمي في الطريق إلى الفندق.

ذكريات السنوات التي قضيتها مع زوجي جميعها تطل من وراء الماضي عبارة عن مسلسل تلفزيوني أشاهد فصوله على الشاشة الصغيرة.

جمال الأيام، حلوها، شهر العسل، سنوات الكفاح، بيتنا الصغير في جدة.

ابني الذي كبر، الأسرة التي أحببت، أمي، أبي، أخوتي، صديقاتي في الدراسة..

طوال الأيام الثلاثة التي أمضيتها في انتظار عودة الغائب كانت قاسية،

لكن الأقسى هو ما تلقيته بعد طول انتظار.

فلقد مات زوجي على أثر حادث وهو يجوب مدن سويسرا وقراها مع صديقة فرنسية قضت نحبها هي الأخرى في حادث السيارة المشؤومة.

صدقوني رغم كل الألم الذي أحسست بوفاة زوجي، فأنا لا أزال أذكر أنه قد مات في سيارة ترافقه فرانسواز فتاة من جزيرة اسمها لاريبو قريبة من مدغشقر فرنسية الجنسية لا أدري ما هو نوع الصلة التي تربطها بزوجي العزيز الذي مات فجأة.

البيت الآخر

في كثير من القرى تلد المرأة في البيت أو الغيط، أو حتى وهي في الطريق إلى قرية ثانية بدون عناء. لا ورود ولا أزهار ولا زغاريد تملأ أرجاء البيت. أمي من هذا النوع من النساء رغم أنها لم تعش في القرية. في أعماق أعماقها صلابة وحب وحنان أيضاً. أهم ما ورثناه منها الصبر، هذه الصفة التي لازمت أمي في حياتها حتى اليوم الذي ماتت فيه.

لا تظنوا أن أمي أمية وجاهلة، ولم تتعلم. لا، يكفيها أنها تخرجت بالبكالوريا يوم كان للبكالوريا شأن.

في مدينة الاسكندرية عاشت سنوات الدراسة، ثم عادت مع أسرتها إلى مسقط رأسها جدة وتزوجت أبي.

قالت لي جدتي بأن أمي تحملت أوجاع الولادة بمفردها يوم جئت إلى الحياة في بيتنا الكبير في قصبة الهنود لم يكن أحد معها في البيت سوى خادمتها (سنية) الزنجية السوداء التي جاءت بها إلى بيت زوجها معها ولهذا سمتني أمي (يسرية) تفاؤلاً بولادتي السهلة التي جعلت أمي ترتاح إلى هذا الاسم وتختاره.

أمي كانت تقول لي:

- نحن يا بنيتي ذوات ضلع مكسور! هكذا يقولون عنا، لكننا في حقيقة الأمر أكثر قدرة على تحمل الشدائد حتى من بعض الرجال.

عندما كبرت، كنت أتطلع إلى وجه أمي وأقارن بينه وبين وجهي ووجوه كثير من النساء أجد أمي أجملهن وأكملهن وأحلاهن أيضاً.

لا تقولوا بأن العادة تحكم، فالابنة ترى أمها دائماً ـ وإن لم تكن جميلة ـ أجمل نساء العالم. لا بل الحقيقة هي أن جمال وجه أمي وروعة حديثها كان يأسرني ويأسر كل من يراها حتى صديقاتي اللواتي كن يأتين إلى بيتنا عندما خرجنا من قصبة الهنود إلى البغدادية، كن يقلن لي ذلك:

ـ يا بختك، عندك أجمل وأحلى أم.

مع كل هذا الجلد الذي أراه متمثلاً في قدرة أمي على تحمل الصعاب. فقد كانت تتحمل أسرة أبي ومضايقاتها بصدر رحب ودون أي تبرم.. إلا أن أمي كانت في غاية من الأناقة تصنع فساتينها بنفسها لدرجة أن من يراها كان يظن بأنها تشتريها من شانيل في باريس، وتاكس في أثينا، كل الذي كانت تصنعه أمي هو أنها تقرأ صحف الموضة وتضيف لكسرات الفستان الذي تستسيغه لمسات جديدة تجعله يبدو غريباً وجديداً.

أبي يحب أمي بدرجة كبيرة وهي مستودع أسراره، ولهذا كان يستشيرها في كثير من أموره التجارية، ويعزو كبر ثروته إلى أنها هي التي كانت تقود خطاه إلى النجاح.

مع كل مطلع عام أبي يقدّم لأمي هدية صغيرة، عبارة عن مبلغ صغير مقداره مائة ألف ريال، يضعه في حسابها في البنك مضى على هذه الحكاية خمسة عشر عاماً.

وبعدها انتقلنا إلى بيتنا الجميل في الحمراء، أمي هي التي اشترت الأرض وأخوها وضع الخرائط ونفذها حتى إذا ما انتهى كل شيء قالت لنا ولأبي عن الحكاية فخرجنا في عصر ذلك اليوم لنرى المفاجأة التي أذهلتنا.

انتقلنا إلى هذا البيت الذي ماتت فيه أمي. نسيت أن أقول لكم بأن كل من ولدتهم أمي من بعدي ـ رغم كل العناية ـ كانوا جميعاً يموتون صغاراً. اكتشفت أمي السبب وصمتت ولم تقل شيئاً حتى ذلك اليوم الذي أفضت أمي بسرها لي بعد أن طلبت مني أن لا أكشفه.

أبي مغرم بي وأمي فهو يقضي ساعات فراغه معنا، يتحدث إلي وأنا صغيرة. عندما كبرت شعرت بأنه يسرق بعض الوقت مني ومن أمي قلت يومها لأمي فقالت:

ـ أبوك يا بنيتي مشغول جداً . . فلا ترهقيه بكلامك.

وأخذت الأيام تمضي بنا وأمي قبل موتها وبعد أن عرفت السر فهمت أسباب غياب أبي.

في البيت كنا نعيش مع جدتي لأبي أيضاً سيدة تركية عجوز تجاوزت السبعين عاماً وخطت السنوات على تقاسيم وجهها خطوطاً متغضنة كثيرة.

رغم أنها تجيد التركية بحكم مولدها، إلا أنها كانت لا تتحدث بها إلينا.

مرة قلت لها:

ـ لماذا لا تعلمينني لغتك؟

فقالت في حزم:

ـ لغتي العربية أنت تعرفينها بلا شك، أما التركية فلست بحاجة إليها الآن. إن جيلك ـ بلا شك ـ في حاجة إلى لغات ولكن لغات حية (انجليزي، فرنسي، ألماني) أشياء كثيرة كهذه قد تفيدك يا عزيزتي.

جدتي فيلسوفة رأت الحياة على أرضنا وهي تتطور بالتصرف الكثير من الحكمة والحكايات وتجيد العزف على العود.

في يوم من الأيام أمسكت بعودها القديم أتطلع إلى أصدافه بغرابة ضحكت جدتي وقالت:

ـ نحن من جيل يغاير جيلكم. لم يكن لدينا البيانو أو الأورج، كانت كمن تجيد عزف العود لا تحاولي أن تتباهي بهذه الإجادة. أتصدقين بأنني لم أعزف على عودي بعد أن تزوجت جدك إلا ثلاث مرات! آخرها يوم مولدك.

طلبت من جدتي أن تعزف لي ابتسمت وقالت:

ـ أعطيني إياه.

وأخذت تداعب أوتاره ـ بجدية ـ أدهشتني ليونة أصابعها، هي المرأة العجوز حتى إذا ما استمتعت لمعزوفتها رقص الهوانم، تبادر لذهني وخيالي صور ومشاهد لمدينة استانبول والبسفور، والفتاة الصغيرة التي تقدم القهوة التركية في صالات فندق هيلتون.

أدهشني أن تكون إجادة جدتي للعزف على هذه الدرجة فسألتها:

ـ هل درست عزف العود يا جدتي؟

ابتسمت من كل قلبها وقالت:

ـ يا حسرة.. كل الذي تعلمته هو من جوارينا اللواتي كن في بيتنا في استانبول.

بدأت أناقش جدتي في حكاياتها عن بيتها في استانبول حتى عرفت أنها من أسرة غنية نذرت أمها يوم ولدتها أن تزوجها لرجل من أهالي المدينة. وهكذا تزوجت جدتي بجدي، وانتهى بها المقام في طيبة الطيبة ثم انتقلت مع الأسرة من مكان إلى مكان.

أخوها يزورها بين الفينة والفينة، ويطمئن عليها، لكنني لم أره منذ أكثر من خمس سنوات تقول جدتي بأن ابنته الصغيرة تعيش هنا في جدة. بادىء الأمر قبل أن أعرف سر أبي وأمي الذي قالته لي قبل وفاتها لم أكن أدري شيئاً، أما اليوم فقد وضح كل شيء أمامي.

فجدتي هذه العجوز التي أحبها كانت سبباً من أسباب النكد في بيتنا.. لولا أن أمي كانت عاقلة. فقد فرضت على ابنها أن يتزوج ابنة أختها التي جاءت إلى المملكة بعد أن تزوج أمي.

رفض أبي هذا الطلب، وفي يوم من الأيام قاله لأمي، فرحبت أن يلبي رغبة أمه على شرط أن لا تقطن هذه الدخيلة بيتنا.

وانتهى الأمر وتزوج أبي برشيدة هانم التركية ابنة خالته وأسكنها على مقربة من بيته وأصبح له منها ولدان أخذا يشبان عن الطوق ويكبران.. لكنهما لم يزوراني أبداً، ربما لأن أمي قد اشترطت هذا الأمر أيضاً.

واليوم، وبعد أن ماتت أمي، فكرت كثيراً في الأمر ورأيت الفرصة سانحة لأتحدث لهذه الجدة حديثاً طويلاً عن كل هذا الذي جرى في بيتنا ثم أطلب منها في النهاية أن تساعدني لأن يوافق أبي على إسكان الغريبة وأخويّ هنا في بيتنا.

بكت جدتي كثيراً وترحمت على والدتي وعرفت أنني كأمي إنسانة رقيقة القلب فأخذت تقبلني وتدعو لي، حتى إذا ما حان الوقت المناسب، طلب مني

أبي أن يأخذني إلى البيت الآخر لأجلب في عودتي أخويّ وزوجة أبي إلى بيت أمي الذي أهدتني إياه ودموع الفرح تبدو على وجه العجوز، أما أبي فقد أخذ يقبلني بحنان وحب ويدعو لي من كل قلبه.

فقد كنت في رأيه أستحق هذا الدعاء.

عندما تتحقق الأحلام!

أحلم دائماً بأن أجوب العالم، أرى من خلال تجوالي أنواع الحياة، الناس، الأرض، الزهور، الأشجار، الأنهار، البحار، الأطفال.

في رحلتي الأولى إلى اليابان، لم أستطع أن أرى شيئاً ربما لأنني كنت أعايش دوامة من التفكير في شأن من شؤون حياتي الخاصة، لا أريد أن أتحدث عنه، وأفضل أن أنساه، وفي طوكيو بالذات افتقدت كل ما يقال عن المرأة اليابانية، وكيف أنها مستودع أسرار الرجل، تعيش على راحته، وتمشي دائماً خلفه، ربما لأن كل هذه الأمور قد انتهت مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وربما لأن أكثر التقاليد اليابانية ضاعت بعد أن دخل الأمريكان إلى المدن اليابانية.

الشيء الوحيد الذي أحببته، هو يوم الجد! الشوارع مقفلة والناس يتجمعون على الرصيف، وكل مجموعة من الشباب تحمل على رأسها في محفة جدها الذي غذ في العمر وأصبح مجرد شبح إنسان فقط.

لا أنسى بسمة الشبح وهو يوجهها لي عندما ابتسمت أمام وجهه، حياني بهدوء وواصل نظراته إلي، كان في عينيه شيء يلمع لا أدري كنهه لكنه كان شيئاً مؤثراً للغاية.

في الفندق الصغير الذي أمضيت فيه ليلتين، والمطل على البحيرة الكبيرة التي تتجمع فيها مياه الثلوج والأمطار التي تحط على جبل فوجي، بقيت ساعات أتطلع إلى الطبيعة..

أزهار اليابان كالمرأة اليابانية تصافحك ضحكاتها حول عينيها، قبل أن تراها على شفتيها. لا أدري لماذا كانت هي المرأة الوحيدة التي كانت تلبس الكيمونو، قالت لي إنها مضطرة للبس هذا الكيمونو لأنها مدعوة إلى حفلة عرس عائلي.

بيوت اليابانيين صغيرة لكنها لا تحتوي على صور لرأس العائلة. سألت عن ذلك، قال لي واحد من أبناء القرية إنهم يخافون أن تتجسد في الصورة روح إنسان آخر، ولذلك يكتفون فقط بأن تكون مقابر آبائهم وأجدادهم على مقربة منهم. ففي كل برطمان صغير، بقايا رماد لجثة حبيب، كتب اسمه بالألوان، ليعرف عنه الباقون كل شيء.

الناس ينظرون إلى هذه المقابر بشيء من الاحترام، بينما كنت أنظر للأمر بغرابة.

نادوجا الفتاة اليابانية ذات الشعر الكستنائي، والتي تعمل كنادل في الفندق، بيضاء مشربة بالحمرة، قالت لي إن في دمائها دماً روسياً، فأمها اقترنت في الحرب برجل روسي هرب، وبقيت هي مع أمها تتطلعان إلى الباب كل ليلة على أمل أن يعود بلا فائدة.

عدت من القرية الصغيرة إلى طوكيو وذكرى فوجي وجبلها، وصور هذه البحيرة تخايلني، في القطار لم أكن أرى شيئاً، لكنني لمحت على البعد رجلاً يجلس على مقعد القطار وامرأة إلى جانبه بملابسها التقليدية واقفة. نظرت للرجل والمرأة، وسألتها لماذا لا تجلس هي ويقف هو.

أشارت بحزم إليه.

فقال وهو يضحك:

ـ أتريدنا أن نصبح ككل هؤلاء الناس أمريكان؟

ضحكت وعرفت شيئاً كثيراً منه. فبعض الأسر لا تزال تحتفظ بعاداتها ولا سيما المرأة.

حادثت المرأة، ولكنها لم تتكلم إلا عندما أذن لها زوجها فعرفت أنها درست علم الآثار في جامعة السوربون في فرنسا، ولكنها قبل هذا وبعده يابانية.

في هذه اللحظة عرفت بأن القطار الذي تركبه بدون سائق، وأن المسؤول عن المحطة في طوكيو هو الذي يسيره.

وصلت فندقي في طوكيو، فندق كبير غير الأول أشبه بمدينة كبيرة. وأحسست بأنني أعايش المدينة الأمريكية على أوسع نطاق وإن كان كل من حولي هم يابانيون.

في شارع جنزا اخترت أن أرى اللؤلؤ الياباني. دخلت أول دكان صادفني، ورأيت أشياء كثيرة ومثيرة الألوان جميعها يشترك الإنسان في صنعها داخل الأصداف البحرية. حاولت أن أشتري شيئاً منه لكن نقودي كانت على وشك النفاد.

نظر إلي الرجل وقال:

- مس سيكورا.

ونظرت إلى الآنسة فرأيتها يابانية هي الأخرى تتكلم العربية، حدثتني عن أيامها في القاهرة وبيروت، وعرفت أنها كانت تعمل في السفارة اليابانية هناك.

قالت لي مس سيكورا إن بإمكاني أن أشتري ما أريد، على أن آخذ البضاعة وأحول المبلغ من بلادي بعد العودة.

سألتها:

- وهل تطمئنون إلى أنني سأبعث بهذه القيمة عندما أعود؟

هزت رأسها وقالت:

- أكيد، فالسعوديون لا يمكن أن يأكلوا حقوق الناس؟

أطربني كلامها وسألتها:

- من أين عرفت أنني سعودي؟

قالت:

- من هذا.

وأشارت إلى جواز سفري الذي كان بيدي.

واشتريت ما أريد وأخذت عنوانها وعنوان الشركة، وبدأت صداقتي

بالآنسة اليابانية.

عندما عدت إلى مدينتي أرسلت قيمة العقد وبعثت برسالة شكر إلى سيكورا، وبدأت مراسلتنا تأخذ شكلاً حميماً هذه المرة.

في إحدى رسائلها قالت لي إنها ستكون في إجازة وستقضيها في هونولولو، وتمنت أن يكون لدي الفرصة لتراني هناك. عمدت إلى ترتيب أمر رحلتي إلى هونولولو التي أقرأ عنها كثيراً، وأخذت الطائرة إلى لوس أنجلوس ومنها إلى هونولولو.

شاقني أن أرى مضيفات الطائرة الأمريكية وقد لبسن جميعاً فساتين طويلة مزركشة بالزهور. عرفت من إحدى المضيفات أنها العادة.. ففي جزر الهونولولو يفضلون دائماً أن ترتدي المرأة فستاناً طويلاً.

في مطار الجزيرة استقبلوني استقبال الفاتحين، مجموعة من الفتيات يحملن الزهور والورود يضعنها في أعناق الرجال والنساء معاً.

في فندق هيلتون الذي هو عبارة عن مجموعة فنادق التقيت بمس سيكورا التي كانت تتوسط مجموعة من فتيات الجزيرة.

شاقني أن يكون اسم واحدة منهن فلسطينياً حتى إذا ما سألت عن معنى الاسم قالت لي إحداهن إنه اسم لزهرة برية تنمو بكثرة في هذه الجزر.

بدأت أتحدث عن فلسطين الأرض التي سلبت من بلادنا حديثاً طويلاً شعرت بأن أكثر الحاضرات لا يعرفن شيئاً عن المشكلة رغم أن التلفزيون في هذه الجزيرة من أفضل تلفزيونات العالم، ويعطي برامجه بالانجليزية واليابانية.

كل شيء في هذه الجزر يمنح الراحة والهدوء، لكن أغلب الوجوه التي تأتي للسياحة إما أمريكية أو يابانية.

سائق الحافلة السياحية التي كنا نتنقل بواسطتها لنرى بقية أجزاء الجزيرة والجزر الأخرى اتضح لي أنه يهودي من أبناء هذه الجزر لكثرة استعماله لكلمة: ابن العم وابنة العم، وهو تعبير يهودي حرفي. سألته عن ذلك فضحك وأكد أنه يهودي الديانة. عندما عدنا إلى الفندق فضل أن يودعني بكلمة الوها، فرددت عليه بمثلها ورد علي جميع من كانوا في الأتوبيس، إلا واحدة لم ألتفت

لها بادىء ذي بدء لأنني كنت أظنها استرالية لكنني عندما سمعتها تناديني بالعربية أجبتها ووقفنا نتحدث ملياً.

عرفت منها أنها فلسطينية بالدم وأن كانت مولودة فعلاً في أستراليا، وعرفت منها أن أباها قد توفي منذ سنة، وأن أمها في رحلة علاج بعد أن أمضت أمها أكثر من ستة شهور في المستشفى بعد وفاة زوجها، وعرفت أيضاً أن أباها ميسور الحال حيث ترك لها ولأمها ثلاثة فنادق وعمارتين ورصيداً لا بأس به في البنك وهو الذي جاء أول ما جاء إلى سيدني وعمل شيالاً في المحطة.

أصبحنا أنا ومس سيكورا وناهد وأمها نكون مجموعة نتحرك دائماً مع بعض وإن كان بشيء من البطء.

سيكورا كانت سعيدة فهي تتحدث العربية وناهد أيضاً وإن كانت أم ناهد لا تعرف إلا القليل.

اتفقت سيكورا وناهد، على أن تلتقيا في سيدني، أما أنا، فلم أعد بشيء وإن كنت قد رأيت على وجه الصغيرة رغبة في أن أتحدث بشيء ما.

في اليوم الخامس جاءتني ناهد وهي تقول:

ـ غداً سأسافر إلى استراليا.

وصمتت. حزنت عندما رأيتها هي الأخرى حزينة، وقلت لها:

ـ ربما يتسنى لي أن أزورك عندما أتمكن من ذلك.

سألتني بشيء من الخوف عن سيكورا. وفيما إذا كانت خطيبتي. قلت:

ـ لا.

فارتاحت نفس ناهد وهدأت ثم التفتت لي:

ـ ما رأيك لو طلبت منك أن تتزوجني؟

فوجئت بالطلب وبدأت أتلعثم وقلت:

ـ لا أعتقد أنني قادر على تلبية هذه الرغبة لأسباب منها أنني لا أحب أن أعيش خارج بلدي.

وصمت.

قالت:

ـ لكني موافقة على أن أعيش معك في بلادك.

قلت:

ـ ولكن هناك سبب آخر.

قالت:

ـ ما هو؟

وبهدوء قلت وأنا أنظر إلى وجه الصغيرة:

ـ لأنني فعلاً متزوج، وعندي ولد أيضاً.

ضحكت ناهد ضحكة مفتعلة وقالت:

ـ لم أكن أظنك كذلك، فسامحني وانس الأمر، لكني لا أزال أكرر دعوتك بأن تزورنا في سيدني، فسترى مدينة جميلة.

قلت لها، وبنفس الهدوء:

ـ سآتي لكنني هذه المرة سأصحب زوجتي.

ورأيتها تبتسم وهي ترتجف حتى إذا ما غادرتني واختفت بين جموع الناس، هدأت نفسي أنا الآخر لأنني كنت أخاف أن أضعف وأتزوج هذه المخلوقة وأنسى زوجتي وولدي، وأجري وراء حلمي بأن أرى الناس والأرض والجزر وكل شيء.

الأرملة الطروب

أنا وجاكلين كنيدي نشترك في صفة واحدة تقريباً. هي أرملة مرتين وأنا مطلقة مرتين وإن اختلفت الظروف وتغيرت الحوادث. حتى في الشكل قد لا نختلف فتقاطيع وجهها قريبة من تقاطيع وجهي وإن كنت أنا أحلى منها وأجمل.

ولدت في قرية صغيرة هناك في البعيد على جبال الحجاز في قرية صغيرة من قرى الباحة حيث تقع سلسلة جبال الحجاز وتمتد طرق القرى والمدن أشبه بالثعبان لأنها وإن كانت فسيحة إلا أن بها كثيراً من الانحناءات.

صديقاتي يقلن عني إني محدثة بارعة ولا أدري كيف اكتشفن فيّ هذه الصفة فأنا أعتقد في نفسي بأنني مهرجة ومهرجة كبيرة!

لم أعش كثيراً في هذه القرية وإنما كبرت في مدينة الطائف، وسكنت أنا ووالدتي وأخواي في شارع البخارية ثم انتقلنا من الطائف لنعيش في جدة، حيث هناك تزوجت المرة الأولى.. والمرة الثانية.

أميل دائماً إلى أن أكون في الأماكن الخلوية ولذلك أهوى الإقامة بعضاً من الوقت في مزرعة أبي الصغيرة في وادي محرم، هذا الوادي الذي أعرف كل جزء فيه وأتذكر كيف كان أبي يقطر الشيح والكادي، وعطر الورد.

في الصيف كان أبي يؤجر جزءاً من بستانه لطلاب النزهة من أبناء مكة المكرمة وجدة. وهكذا تعرفت إلى أسرة زوجي الأول التي أصبحنا فيما بعد عندما كنا في جدة أصدقاء وأصدقاء خلصاً.

الرطوبة في جدة تمنحني إحساساً بأنني أمشي في حمام دائم

فكما قلت لكم رغم وجود المكيفات فأنا أتوق لأن أعيش في الأماكن الخلوية.

سنوات حياتي التي تنقلت خلالها من قريتي الصغيرة إلى الطائف وإلى وادي محرم، وإلى جدة، وإلى مكة جعلتني أهتم بتفاصيل الأشياء خصوصاً أنني امرأة دقيقة الملاحظة قادرة على اكتشاف تفاصيل أي فستان ترتديه أنثى حتى عندما كنت في المدرسة في الطائف كنت أنقل لوالدتي أشكال فساتين زميلاتي الصغار لتصنع لي مثلها.

أبي رجل يحب البداوة لكن المال فاض من بين يديه بعد فورة الأراضي وقد استطاع خلال تجواله أن يشتري من هنا وهناك أجزاء صغيرة وكبيرة من الأراضي. اشتراها بآلاف الريالات وباعها بالملايين.

بيتنا في جدة مجموعة فلل كبيرة وصغيرة كلها ملك لوالدي.

أمي امرأة نقاقة تحب دائماً أن تتدخل في أعمال أبي، وتتحدث وكأنها تعرف كل شيء وهي لا تعرف شيئاً.

عندما كنا في القرية طلبت أمي من أبي أن ننتقل إلى الطائف، وعندما كنا في الطائف طلبت منه أن ننتقل إلى جدة، ثم طلبت منه أن ننتقل إلى المدينة المنورة. أمي لا تعرف الاستقرار أفكارها عفوية، تتحدث بما تراه دون أي تفكير، أو حتى فهم بدقائق الأمور.

أبي من النوع الهادىء رجل طيب يسمع كثيراً ولا يحب أن يحتفظ بهذا الذي يسمع رغم أنه يستطيع أن يعرف كيف يوقف أمي عند حدها.

أتريدون أن أحدثكم كيف تزوجت زوجي الأول؟ قلت لكم إننا ـ وأعني أنا وأمي ـ قد تعرفنا بأسرة محمود، عندما جاءوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بوادي محرم، ومنذ ذلك اليوم ارتبطنا بصداقة عميقة أنا مع أخوات محمود وأمي مع أمه.

عندما سكنا في جدة كان عمري الثامنة عشرة، رأتني أم محمود ونقلت أوصافي لولدها ولم تمض ثلاثة شهور إلا وقد أقيم حفل الزفاف في فندق المريديان بين مجموعة كبيرة من السيدات.

ويومها أحسست بأنني أكاد أطير من الفرح فملابسي الأنيقة ومجوهراتي كانت مثار الحديث عند كل من رآها. . أمضينا أكثر من تسعة شهور وأنا ومحمود نجوب العالم وقد كان (محمود) يدرس في أمريكا رأيت خلالها أوروبا وباريس ولندن وكوبنهاجن ونيس وكان وروما وزرنا كندا واستقر بنا الحال في لوس انجلوس.

في لوس انجلوس شعرت بأنني غريبة وأن محموداً الذي يعيش معي هو غير محمود الذي أعرفه.

لم تعجبني حياة الأمريكان ولا تصرفاتهم، وبدأ الخلاف يدب بيني وبينه حتى إذا ما بدأ يستشري تركت لوس أنجلوس وعدت إلى جدة لأعاود رحلتي في هذه الحياة مع أمي بعد أن تزوج إخواني.

أبي يحبني كثيراً ويحرص على سعادتي وقد حاول كثيراً أن يثنيني عن عزمي بترك محمود، ولكني كنت مصممة وهكذا حصل الطلاق واحتفظت كل أسرة بود الأسرة الثانية.

وتمضي الأيام، لا جديد لدي إلا أن محموداً قد عاد وفي ذراعه فتاة أمريكية عرفتها وعرفتني، فقد كانت هي السبب في إصراري على الطلاق، وإن كنت لم أفصح لأنني وجدت في الصبر على ما أكره راحة كبيرة لنفسي.

فكرت كثيراً في كل الذين تناوبوا على خطبتي، كانوا شباباً في سن محمود أو أكبر قليلاً أو أصغر. لكني رأيت أني لن أتزوج إلا من يكبرني سناً وهكذا جاء لبيتنا (رياض).

رجل بمعنى الكلمة، درس وتعلم وجاهد وكافح حتى أصبح صاحب مركز مرموق من رجال الأعمال الناجحين. طائرته تقبع دائماً تحت تصرفه، وبيته عبارة عن قصر جميل. أمه ماتت وأبوه هو الآخر مات عندما كان صغيراً.

قلت لنفسي: ربما جاءت فرصتي لأن أعيش كما أريد، امرأة وسيدة بيت مرة أخرى، وأملك وأتصرف.

وتزوجنا ومضى شهر العسل ونحن ننتقل من بلد إلى بلد لكنني طوال هذا الشهر كنت أدرس شخصية زوجي في هدوء.

هالني أن أكتشف بأن زوجي رغم كل الغنى الذي يعيش فيه فهو بخيل

وبخيل جداً. بخله يظهر عندما يحتاجه أي إنسان فهو يأبى أن يساعد أحداً ولكنه قد يصرف آلاف الدولارات على حفل عشاء في مطعم مكسيم وغيره من المطاعم الأخرى!

حاولت أن أتأقلم مع هذا الزوج، ولكنني وجدت بعض التصرفات الأخرى التي أشعرتني بأنه يرى فارقاً بينه وبيني. يتحدث عني كبدوية.. لا أعرف كيف أستخدم وسائل الحضارة، وهو يمزح لكني كنت أشعر أنه يعني كل كلمة يقولها.. وعدنا إلى قصره لأشعر أني مجرد أثاث يتنفس ويتحرك.. كان مشغولاً بصفقاته وأصدقائه وشركاته وكان يريد مني أن أكون مجرد حلية، أمسك بذراعه في حفلاته التي يقيمها ليتباهى بجمالي، وكأني جوهرة استطاع أن يشتريها من السوق!

ضغطت على نفسي كثيراً وقلت لها أكثر من مرة بأن عليّ أن أصبر لكني لم أطق هذا الصبر وتركت القصر بعد خناقة دارت رحاها بيني وبينه، عندما رفضت أن أكون برفقته في حفل عشاء أقامه أحد أصدقائه.

وعدت إلى بيتي ونظرات أبي تلاحقني، لكني في هذه المرة قلت كل شيء له وقلت لأبي:

ـ لقد علمتني أن أكون حفية بكرامتي، ولهذا أرفض أن أعود لزوجي مهما كان الأمر.

وها قد مر على هذا الكلام أكثر من عامين، عدت خلالها إلى دراستي، واخترت مهنة الطب تلك التي عشقتها وكأنني أدفن آلامي وأحلامي فيها.

واستمرت حياتي وأنا سعيدة حتى وجدت صورة جاكلين الأرملة الطروب، وبدأت أقارن بينها وبيني لأخرج بهذه القصة التي جعلتني أحس بأننا متساويتان في الشكل والحظ، وإن كانت هي أرملة لرجلين وتبحث عن الثالث، وأنا مطلقة من اثنين ولا أبحث عن الثالث! يكفيني أنني جربت وفي مقتبل العمر الزواج والطلاق. ويكفيني أيضاً أن أكون قادرة على العطاء من وراء دراساتي الطبية، فأنا واثقة أن الكثيرات من بنات جنسي في حاجة لمثيلاتي، ممن ظلمن في زواجهن، وأصبحن غير قادرات على الزواج مرة ثالثة وإن كانت الكثيرات يستطعن هذا وفي مقدمتهن صديقتي التي لا أعرفها ولا تعرفني جاكلين الأرملة الطروب!

أبي الذي أحبه

قالت لي وهي تغادر المنزل لتذهب إلى السوق:

ـ خلي بالك إذا رن جرس التليفون فلا تجاوبي!

نظرت إلى وجهها بدهشة وقلت مستغربة:

ـ لماذا؟

لم تجب، وإنما ابتسمت في وجهي ومضت تلتقط حقيبتها ومعطفها ودلفت إلى الخارج بعد أن أقفلت باب الشقة في شيء من الهدوء.

رن جرس التليفون، مددت يدي لألتقطه، تراجعت، تذكرت كلمات صديقتي وزميلتي في المسكن وتركت التليفون يرن ويدق أكثر من ٣ دقائق أخلد بعدها للهدوء.. وبدأت أنا الأخرى أخلد أيضاً إلى السكون.

شقتنا صغيرة ولكنها أنيقة في بساطة.. الشارع الذي نطل عليه دائم الحركة. ففي (كوينزواي) كل شيء يموج بالحركة والضجيج.

تذكرت أن اليوم هو يوم ميلادي الذي نسيته، ونظرت إلى المرآة، ورأيت وجهي يطفح بالبشر، ويمتلىء صحة وشباباً، فاطمأنت نفسي وقلت:

ـ سنة جديدة يا جميل..

اندفعت إلى المسجل أبحث عن أغنية أستمع إليها لأبدد وحشة المكان.. لم أجد أغنية تروق وهذه المناسبة. اكتفيت بأن أجلس إلى جانب المائدة، وبدأت أكتب رسالة إلى والدتي. لكنني لم أستطع أن

أكتب أكثر من ثلاثة سطور. ربما لأنني كنت مشغولة الفكر ـ قليلاً ـ خصوصاً وإنها المرة الأولى التي تخرج فيها صديقتي في الشقة بهذا الأسلوب.

أخذت أنظر إلى السقف وأنا أفكر في سنوات العمر التي مضت، وبدأت أحس بأن فرص الحياة تزداد تعقيداً أمام الإنسان سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة. والدتي تزوجت وعمرها خمسة عشر عاماً، وأنا في الثانية والعشرين لا أزال أواصل دراستي لأتخرج كطبيبة صاحبة اختصاص.

مجرد التفكير بأني سأصبح طبيبة تجميل أخذ بمجامع قلبي. وتصورت أنني وصلت إلى نهاية حلم بسرعة عجيبة.

أمي كانت تريدني أن أبقى بجانبها، وأتزوج فور حصولي على الشهادة الثانوية، أذكر كلماتها ترن في أذني، وأذكر أيضاً إنها كانت غير سعيدة عندما اخترت دراسة الطب.

كانت تقول لي إن مرحلة الطب مرحلة طويلة، لا أقدر عليها، وعندما نلت البكالوريوس هنأتني بشيء من التحفظ وقالت لي وهي تربت على ظهري:

ـ أرجو أن يكفيك هذا القدر من التعليم.

ضحكت في وجهها ولم أجب! وقلت لنفسي:

ـ هأنذا في لندن أواصل دراستي بمفردي بعد أن عاشت معي أمي أكثر من شهور ثلاثة، واختارت هي بنفسها صديقتي هذه التي تسكن معي.

رن التليفون مرة ثانية، تشجعت، أمسكت بسماعته، جاء الصوت إلى أذني وملؤه الفرح، كان الصوت صوت أختي الصغيرة، قالت لي بفرحة:

ـ سنة حلوة.

وأعطت السماعة لأمي التي أحسست أنها تبكي لأنها لم تكن معي في هذه المناسبة. طمأنتها وقلت لها:

ـ لم أكن أدري بأن هذا اليوم يوم مولدي لأنني كنت مشغولة.

فازداد ألمها حيرتها وقالت:

ـ قد أكون أنا السبب لأنني تركتك بمفردك، الشتاء لا بد قاس. هل لبست ما اشتريته لك من ملابس الشتاء؟

ضحكت وطمأنت أمي وقلت لها:

ـ لم أعد طفلة صغيرة يا أماه.

أفراد الأسرة واحد تلو الآخر تحدثوا بإسهاب إلا أبي. سألت عنه قالت أمي إنه في أمريكا يزور أختي التي ولدت طفلاً هناك وهي تقضي سنوات دراستها مع زوجها الذي يدرس الدكتوراة.

أمي قالت مرة أخرى:

ـ لا بد وأن أباك سيتحدث إليك بالتليفون ويهنئك بهذه المناسبة.

لكني لم أنتظر. فور ما أقفلت أمي السماعة بدأت أطلب رقم أختي وأتحدث إليها حديثاً طويلاً أعاد لي كل ذكرياتي.. فجأة جاء صوت أبي هذه المرة قوياً هادئاً أكثر مما تعودت. وفهمت من أبي أنه سيزورني وهو في طريقه إلى جدة.

المفتاح يدور في قفل الباب، صديقتي دخلت فجأة، وضعت أشياء صغيرة كانت تحملها على المائدة. نظرت، فوجدتها تورتة تليق باثنتين وشمعة أيضاً، وانهمكت صديقتي في إعداد المائدة الصغيرة، حتى إذا ما انتهت جاءت إلي أنا التي كنت أرقبها في صمت، وفتحت جهاز المسجل ليأتي صوت المغني وهو يغني: «هابي بيرث داي تويو».

أمسكتها بحنان، وشعرت بأنني أحبها فعلاً، وأنها ليست مجرد صديقة وإنما أخت في الغربة.

وهكذا أمضينا الليلة حتى دق جرس التليفون مرة ثالثة، وأخذت صديقتي تتحدث بغمغمة.. لم أفهم شيئاً مما كانت تقول، لكني لم ألتفت إلى كل كلامها، واعتبرت أن حديثها شيء خاص بها.

صديقتي بريطانية الجنسية، عراقية المولد، جاءت مع والديها اللذين توفيا في حادث سيارة، بعد أن كبرت ترك لها أبوها حقلاً صغيراً في بلدها وإيجار شقتها التي كانوا يقطنونها، تعمل معي في المستشفى في القسم الإداري. أحبتها أمي وطلبت منها أن ترعاني في غيابها.

طويلة بلا إسفاف، وجهها أبيض خال من النمش، وعلى خدها حبة بغداد

لأنها كانت قد ولدت فيها. أمضيت الليلة في أحلام جميلة، تخيلتها هي أيام طفولتي يوم كنت أعيش في جدة.

بيتنا القديم تراءى لي بمشربياته وهو يطل على (سوق الندى) قبل أن تتغير جدة وتنداح معالمها.

اليوم أسرتي تعيش في بيت من ٣ طوابق في حي اسمه (الروضة)، برزت معالم جدة تظهر لي في أحلامي، وشعرت بأن شيئاً ما قد رد إلي.. فأنا أحب هذه المدينة وأعشقها من كل قلبي.

عندما استيقظت وجدت الفطور معداً. تناولت إفطاري بسرعة، وقرأت الورقة التي تركتها صديقتي، فهي لم تكن تريد إزعاجي في هذا اليوم ولهذا حضرت إفطاري تخليداً للمناسبة وهكذا ذهبت بمفردها إلى المستشفى.

غيرت ملابسي، وخطوت بسرعة إلى الباب.. لكن جرس التليفون أوقفني مرة أخرى، فرفعت السماعة ليتسلل إلى أذني صوت الدكتور عبد الرحمن زميلي في العمل، وهو يهنئني بالسنة الجديدة. استغربت أنه يعرف ذلك، لكنه قال إن (ماجي) وهذا هو اسم صديقتي التي ينادونها به ـ وإن كان اسمها الأصلي (جميلة) ـ هي التي أخبرته. شكرته بهدوء، لكنه أصر على أن يطيل لحظات المكالمة قائلاً إنه قد أعد هديته لي لتلك المناسبة.

رفضت بسرعة مبدأ تقديم هدية لي من غريب، وذكرته (بمجتمعنا) الذي نعيش فقال:

ـ لا عليك نحن لسنا أطفالاً بادىء ذي بدء، كما أننا لا نعيش في جدة.

أقفلت السماعة ومضيت إلى المستشفى؛ لأفاجأ أن كل زملائي وزميلاتي قد عرفوا بهذه المناسبة، وأن كل واحد وواحدة منهم قد أحضر هدية صغيرة، اضطررت لقبولها مرغمة، كما اضطررت لقبول هدية الدكتور عبد الرحمن.

لكن المفاجأة كانت عندما فتحت هدية الدكتور، فوجدتها شيئاً ثميناً يدل على معنى.. بدأت أفكر ولأول مرة في هذا الزميل!

وأخذت صور صديقاتي وهن في الكوشة تتراءى لي تباعاً، ووجدت نفسي أسرح في تفكير لا نهاية له، ولكني قطعت على نفسي هذا التفكير وبدأت أشمر

عن سواعد الجد، وبدأت عملي حتى إذا انهمكت فيه جاءت فترة الغداء، فوجدت نفسي على المائدة التي تضم زميلي، ووجدته يتحدث طويلاً عن أسرته وعن أحلامه وأمانيه وشعرت أن شيئاً ما يخامر خيال زميلي، أعرفه ولا أتحدث عنه وحاولت أن أنسى الموضوع حتى إذا ما عدت وزميلتي إلى البيت تحدثنا سوياً وعرفت أن زميلي يطاردها دائماً، ليعرف كل أخباري منها، وأنه قال لها بكل صراحة إنه ينوي خطبتي.

ولأول مرة سألت ماجي عن رأيها فيه، فقالت كلاماً جميلاً أحسست بارتياحي إليه وشعرت من أعماقي أنني لا أرفض خطبته إذا تقدم لي بها.

ومرت الأيام، وأنا وزميلي نزداد تقارباً وإلفة.

حتى إذا ما أعلن رغبته لاقترانه بي، كتبت لأبي رسالة طويلة حدثته فيها عن تفاصيل الموضوع وطلبت منه أن يمنحني رأيه في هذا الخطيب، وأسرته وأشياء أخرى.

وجاء خطاب أبي هذه المرة طويلاً يذكر بالتفاصيل نتيجة تحرياته عن زوج المستقبل، ويقول في نهايته بأنه موافق على شرط أن يرى هو شخصياً زميلي (عبد الرحمن)، ووضع موعداً لزيارته لي، وقال إن أمي وأم عبد الرحمن صديقتان من قديم، وأن عبد الرحمن قد كتب لأمه وأبيه عن هذا الموضوع كما وأن والد عبد الرحمن قد فاتحه في الأمر.

كل من في المستشفى عرف عن الخطوبة، وبدأنا نتعامل على هذا الأساس، حتى إذا جاء الصيف، جاءت أسرتي وأسرته، وتم حفل عقد القران في فندق انتركونتننتال واشترط أبي أن يكون الزواج عندما أنهي تخصصي وأعود وخطيبي إلى جدة.

سافرت الأسرة.. وبقي والدي في لندن فترة من الوقت، أحسست بوجوده بشيء من الراحة.. لكني استغربت أن يقضي أبي كل هذا الوقت في شقتي أثناء غيابي.

بادىء ذي بدء لم أعط الأمر شيئاً من الأهمية، لكني أحسست بعدها بأيام

أن هناك شيئاً ما يجري تحت قدمي. . لم أعرف كنهه في الأول، حتى إذا ما اكتشفته هالني الأمر وفهمت أن صديقتي تريد أن تغير أفكار أبي، وتجعله يهتم بها اهتماماً كبيراً لدرجة لا تفارقه فيها عندما لا تكون في عملها.

سألتها السر فقالت:

ـ لم أكن أريد أن أقوله لك، بل تركته لوالدك يتحدث لك عنه فأنا، كما تعرفين من بلد عربي أحن لأن أعيش في بلد عربي أيضاً.

وأخذت تبرر موقفها بكلام غريب لا أفهم معناه. لكن ما زاد في الطين بلة أنها تريد أن تتزوج أبي.

استمعت إلى كلامها وأنا في دوامة من التفكير، تحدثت إليها عن الفارق بين عمرها وعمره. . ضحكت وقالت:

ـ وما المانع؟

تحدثت عن أشياء أخرى. . عن كيف ترضى أن تتزوج إنساناً له زوجة وبنات وأولاد أكبر منها سناً! فقالت:

ـ قد تكون الظروف هي التي تفرض علينا نحن (الحرائر) موقفاً ما لا يستسيغه بعضنا وإن استساغه الآخرون.

تذكرت أمي، تذكرت بيتنا، وتذكرت إخوتي، وهالني أن يتهدم هذا البيت هكذا فجأة. وبدأت أفكر، وأفكر ولم أجد سوى خطيبي أحادثه في الأمر وآخذ رأيه. .

قال لي:

ـ قد يكون الأمر صعباً وعلينا جميعاً الحديث فيه. . لكن دعيني أفكر في أسلوب يجعلنا نتخلص من هذه المشكلة.

وطلب مني أن أخبر أخي فقط ليتحدث إليه تليفونياً ويطلب إليه العودة إلى (جدة) فلربما كسرت عودته هذه من شدة الرغبة في زواج هذه الصديقة.

قلت لخطيبي:

ـ إنني أرفض أن أعيش معها في بيت واحد.

قال:

ـ قد تخطئين إذا فعلت هذا الأمر فهي تحت رقابتك اليوم. تحمّليها من أجل أمك ومن أجل أبيك، فأنا أعتبر أن كل ما قالته نزوة من نزوات الكبار. إننا لم نعرف بعد رأي أبيك في هذا الأمر.

سألته:

ـ وكيف نستطيع أن نعرف؟

قال:

ـ دعيني أدبر الأمر بأسلوبي.

وهأنذا بعد أن مضت أكثر من عشرة أيام حاولت خلالها أن أنسى كل شيء وإن لم أنس ذلك حتى إذا ما أفضى إلي خطيبي بنتيجة حديثه مع أبي هالني أن تكذب هذه المرأة. فلقد طلبت منه أن يساعدها لأن تجد عملاً في جدة وكانت تحاول أن تقارب بينها وبينه كابنة، وهذا هو كل ما في الأمر.

وعدت إلى بيتي لأجد أبي ينتظرني هناك، حتى إذا جاءت صديقتي أمرني بأن ألملم ثيابي، وأغادر الشقة إلى أخرى استأجرها لي.

وبدأنا أنا وأبي نتحدث في كثير من الحرية. أفضيت له بمخاوفي وقلت له كل شيء وعرفت أن أبي لا يفكر مطلقاً في مثل هذه العلاقة فهو راض عن زوجته وعن بيته وعن أسرته.

بعد أسبوع من هذا الحديث، جاءت أمي وإخوتي وطلب أبي من عبد الرحمن أن يتم زفافه حتى إذا ما غادر لندن شعر بالرضا لوجودي في كنف زوج اخترته واختارني بحرية.

وهأنذا أتناول شهادتي من يد أستاذي الطبيب الجراح (همرتون) المعروف. كانت سعادتي وسعادة زوجي بنجاحنا كبيرة، لكن كان استغرابنا أكبر لأننا عرفنا أخيراً بأن صديقتي ماجي استطاعت أن تدير رأس هذا العالم

الكبير وأن تخطفه من زوجته وأن تتزوج به رغم فارق السن.

لكن الشيء الوحيد الذي أسرنا هو أنها استطاعت أن تجعل هذا الأستاذ يسلم قبل أن يقترن بها. وجاءت ماجي إلي وكأنها تدعوني وزوجي لحضور حفل صغير يقام بهذه المناسبة. فماطلت في الإجابة وكأنني أتصور ماذا يكون الحال لو كان مكان هذا الطبيب أبي الذي أحبه.

وإن كانت فرصتي لأن أتحدث إلى هذه الصديقة التي أصبحت عدوة فيما بعد وقلت لها:

ـ كيف تجرؤين على أن تكذبي على والدي بما قلته؟

ضحكت ماجي وقالت:

ـ لكنني لم أكذب. كنت أتصور أنني استطعت أن أجعل من أبيك عجينة صغيرة في يدي لكنه أفلت مني وإن لم يفلت مني أستاذك هذا.

وأشارت إليه. نظرت إلى وجهها، فرأيتها تتحدث ببساطة، فقلت:

ـ لماذا صنعت ما صنعت رغم كل الذي فعلته لك أمي؟

كنت ساعتها قد عرفت أنواع المساعدة التي قدمتها أمي لهذه الغادرة من أجل أن تكون برفقتي.

ضحكت ماجي مرة ثانية وقالت:

ـ صدقيني لا أدري لماذا أميل دائماً إلى الرجال أصحاب الخبرة! ربما لأنني كنت أشعر دائماً بحبي وحاجتي لأبي الذي مات، وربما لأن أمي هي التي أودعت في قلبي سر هذا الحب. فأمي كانت قد اقترنت بأبي الذي يكبرها بعشرين عاماً وعاشت سنواتها كلها سعادة.

وأعدت النظر إلى وجهها وقلت:

ـ لكن كيف استطعت أن تضمّي الدكتور هو الآخر إلى جانبك؟

قالت:

ـ أنسيت أنه قد أسلم ومن حقه أن يترك الأولى؟

تركت ماجي في مكانها، ومضيت في طريقي أبحث عن زوجي، فقد كنت في أمس الحاجة إلى من أتحدث إليه ومن يمكن لي أن أتحدث إليه بحرية أكثر من زوجي؟

واستغرقني التفكير بعضاً من الوقت أحسست أنني في حاجة كبيرة للراحة بعيداً عن هذه الشيطانة التي عاشت بعضاً من الوقت وخدعتني كصديقة وهي أبعد من أن تكون صديقة.

لكن الشيء الوحيد الذي لم أعرف له جواباً وهو لماذا طلبت مني صديقتي أن لا أرد على التلفون يوم تركتني وخرجت لتحضر تورتة يوم الميلاد؟

حلم كبير

الذين يغتالون الشمس، يسرقون الضياء، يصيغون من بهائه فساتين فرح، وخوذات فارس، ودمى لطفلة، يقطعون أوراق العاصفة وهي تئن، ينسون أنفسهم في غمار الأحزان، يستيقظون، ينامون، يملؤون جنبات الوادي بصراخهم الهستيري الممل، والطريق تبدو من وراء أوراق الأشجار، أشبه بأنثى شاحبة اللون نزفت دماؤها على قارعة الطريق.

أنفاس القرية تبدو من وراء مصابيح الكهرباء أشبه بوميض نجم ضل طريقه بين الموانىء، بحثاً عن هضبة يرتاح على جنباتها في هدوء، وصهيل الجياد العربية يقطع سكون العاصفة، وكأنه يحاول أن يجردها من عوائها بعد فترة انقطاع وهو يغذ السير بحثاً عن نصفه الذي فقد في هذه القرية التي ترتاح مع الفجر وتهدأ مع الغروب، ولد هنا على أديم تلك التلة، فقد كان هناك بيته الذي تربى وكبر فيه.

حكايا الأمس أشبه بأشرطة سينمائية، الجبال.. أوراق الشجر.. زهرة الياسمين الفريدة وهي تعبق في أجواء البيت الصغير.. أمه.. أبوه.. أخوه.. أسرته كل أفراد عائلته.. هناك عاشوا مجردين من آلام المدنية، وذل الصخب، وعداوة الجيران، بركان ثائر يجعله يلقي بحقيبته الصغيرة على شريط الكرسي، يتطلع إلى «بهلول» فقد غزا الشيب شعره الأسود المنفوش.

يرتمي على الكرسي، يطلب من الواقف أمامه (براد أبو أربعة) وشربة ماء، يتفرس الواقف في وجهه، ثم يلقي بنفسه على صدره وهو يقول:

ـ محمود! أين كنت؟ وكيف عرفت قدماك طريق العودة؟ ظننا أننا فقدناك إلى الأبد.

وتطل مع الكلمات العفوية سنوات العمر التي مضت، تعلن في الوقت نفسه عن دقائق عمر مضى وهو يجري هنا وهناك، بين هذه القرية، أبو وشيع، وخيبر، والمدينة، ووادي الصفراء، وجدة، ومكة المكرمة، والقاهرة، وأمريكا آخر الأمر.

يصمت وكأن لسانه يأبى أن يقول شيئاً سوى أن يشير إلى البيت.. أين ذهب؟

يضحك «بهلول» ويقول:

ـ ذهب كما ذهب غيره. ألا تدري أين أسرتك؟

ويهز رأسه: لا..

وكأنه يحادث نفسه.

فيستمر «بهلول» في ضحكاته ثم يعاود حديثه:

ـ أبوك رحل بعد أن رحلت.. ورحلت أمك..

ـ وأين رحلت أمي؟

ـ ماتت!

ـ كيف؟

ـ بعد سفرك بشهور، وجدها أبوك على مقربة من شجرة الدوم، وقد أسلمت روحها إلى بارئها. لكنها كانت تمسك بشيء، أتدري ما هو؟ كان (غترتك) التي تعرف، يوم كنت تهش على غنمك بعصاك، ثم رحل أبوك إلى المدينة!

ـ أعرف أنه رحل قبل أن ترحل أمي، فقد كنت معه.

وأخذ ينظر في وجه «بهلول» بعد أن أحس بشيء من الراحة، فها هو صوته يعاود الظهور مرة أخرى.

ـ لا.. أنت لا تعرف! بل أنا الذي أعرف. قال لي أبوك إنك سافرت

بعدما عاد هو إلى القرية، جاء بها إلى هنا لطلب أمك وكأنها لا تريد أن تموت بعيدة عن قريتها.

ـ أتدري أنني بكيت لموتها؟ هذه السيدة التي رحلت إلى المدينة ثم عادت وكأن شيئاً لم يتغير فيها..

ـ أو تدري أنها كانت أكرم منك علي؟ كانت تطعمني بيديها لأنني كنت صديقك؟

ـ صديقي أنا؟

ـ نعم، صديقك! ألم نرع البهم سوياً وأنت صغير؟ كنت أغني لك، أجمع شويهاتك، أحلبها، أحنو عليك، وكنت تسميني «بهلول» بعد أن فقدت أنا اسمي الأصلي.

نظر كالحائر! «بهلول» يحكي قصته وهو يعرف أطراف هذه القصة.. ولكن أين أبوه وباقي الأسرة؟

ـ في الدمام شغلتهم ظروف الحياة عن معاودة زيارة القرية، وزيارة قبر أمك. أختك خديجة تزوجت، تزوجها شهار ابن العم محيسن.

ـ وأين شهار؟

ـ يقولون إنه أصبح مهندساً قد الدنيا، يعرف أسرار الشمندفير الذي أرى صورته في بعض الصحف، خديجة جاءت إلى هنا وشهار كذلك. لكن أباك لم يكن قادراً على أن يأتي. كبر المسكين.. اغتالت سنوات عمره الحياة هدت حيله زوجته الجديدة «نهى» بنت العم سعيد..

ـ وهل تزوج أبي؟

ـ وهل تريده أن لا يفعل بعد أن ظل وحيداً بعد وفاة أمك؟

ـ ولكن أمي لم تمت.

ـ وكيف تقول هذا وأنا الذي مشيت في جنازتها؟

ـ لا أدري!

قالها في نزق، وهو يحلم وإحساسات الألم أشبه بسكاكين تقطع أحشاءه.

ربما كان «بهلول» هذا يهذي.

ـ «بهلول» لا يكذب أنت تعرف هذا!!

ـ أعرف.. لكن من كان يكتب لي دائماً من المدينة؟

ـ لا أدري.

قالها «بهلول» في حزن:

ـ ربما كانت أختك قبل أن تتزوج!

ـ هذه المسكينة هي التي تأتي. تصنع (أكل الحول) حول أمك، ثم توزع الطعام الذي تصنعه على الفقراء رحمة لأمها.. ها.. ها.. هذه المسكينة كانت تحب أمها، أما أنت فلم تكن كذلك! كنت قاسياً، هربت إلى ديار الإفرنج، سعيت لأن تكون شيئاً ولا أدري إذا كنت هذا الشيء لأنني أراك تعود.

نظر إلى «بهلول». هذا الرجل الذي يراه بعد غياب يزيد عن العشرين عاماً لا يهذي. كلماته وإن كانت متقطعة، لكنها قاطعة، وحاسمة! وأخلد قليلاً إلى الصمت، لكن «بهلول» هزه بكلتا يديه وقال:

ـ أنت مهموم يا صديقي! اعذرني! لم أكن أقصد ما قلت لكنها أمك كانت بالنسبة لي أماً أنا الآخر.. فأنت تعرف كيف كانت ترعاني. ربما. ولأكون صادقاً فأنا غير قادر على إخفاء حقيقة مشاعري عنك. كنت أقول لها بأنك ولد طيب، وكانت تبتسم لي، وتطالبني أن أعاود الحديث عنك، فأشير إلى أماكن اللهو التي كنت نرتادها، نلعب (السيجة بعر)! أظنك تعرف هذه اللعبة، أم نسيتها في غمرة البلوت والدامة والشطرنج؟

أمك إنسانة رائعة رائعة جداً وأصيلة أصالة هذه الأرض، أصالة هذه القرية وأهل القرية.

لا تضق بي ذرعاً، فأنا صديقك، جئت لك بعد سنوات طويلة، كنت أحتفظ لك خلالها بكل ما لا أقوله، كنت أحادث نفسي أكلمها. كيف سأقول لك كل هذا؟ لكن هل رأيت أباك؟

ـ لا، لم أره بعد! فأنا وإن عدت بالأمس إلى جدة، فالمدينة، لكنني كنت

أحرص على زيارة القرية.

ـ وتعلم بأنهم عنها غائبون؟

ـ نعم، أعرف ذلك. بعد أن عرفت أشياء كثيرة. ولكن أين أصدقاء الأمس؟

ـ اغتالتهم ظروف حياتهم فنأوا عن هذه القرية بعيداً.

قالها «بهلول» ثم صمت.

ـ وهل تغتال الظروف حياة الإنسان؟

ـ نعم! كما يغتال الناس الشمس، والضياء، والقمر، وكل شيء جميل. والحياة يا صديقي ليست كلها مرحاً، لكنها تبدو كذلك عند أمثالي من الناس الذين لا يضيقون بما تصنع. ولهذا فأنا كما أنا، لا جديد أرويه، وإن كنت لم أنس الماضي ولا كلام الماضي ولا حتى حديث الماضي.

في هذه القرية ولدت، وفيها أموت، سنوات حياتي ملكي، لا يقبلها أحد، ولا يقضي على روائها إنسان.

ـ وهل تزوجت يا «بهلول»؟

ـ إن كنت أنت تزوجت فأنا لا، ولماذا يتزوج أمثالي؟ ليأتوا ببهاليل جدد؟

ـ البهاليل يا صديقي كالعباقرة، تصنعهم ظروفهم، وأنا كذلك، أوليس هذا صحيحاً؟

ـ أنا ملك لهذه القرية، أحب أن أشم أريجها دائماً، وأتطلع إلى زهورها وعواصفها، أخرج في الصباح أزور الأماكن التي عرفتها صبياً، حتى إذا ما كبرت، لم أجد أحداً يرتادها سواي.

شغلت «الكورة» الصبية. إنهم يلعبون بها في فناء هذه المدرسة الكبير، انظر! إنهم يمتلئون صحة، زرعت الرياضة في قلوبهم البهجة بما يمارسونه من رياضة وفي نفوسهم شيء من الفخر والعناد.

انظر! إنهم يخرجون زرافات، لكنهم يمرون بالقهوة يسألون عني عندما لا يرونني فيها، أما إن كنت موجوداً، فيكفيهم أن يحيوني. انظر!

ونظر إلى حيث وقف طفل صغير امتدت يده بقطعة حلوى، أعطاها

«البهلول» الذي فتح أوراقها ثم ألقى بها في فم الطفل سعيداً ومسروراً قائلاً:

ـ هي لك.

قال الطفل:

ـ لكنني حفظتها من أجلك.

ـ أعرف ذلك وأعرف أنها قد وصلتني لكنها لك.. ومني لك..

ابتسم الطفل، وعرفت ساعتها لماذا يحب الأطفال هذا الرجل، ولماذا يحب بهلول هؤلاء الأطفال.

وأخذت أرقب الطريق، على أمل أن أجد من خلال تأملاتي أجوبة مقنعة لما يختمر في ذهني ساعتها، أنا الذي أمضيت طوال أيام عمري، أشد الرحال لأصل إلى ما وصلت إليه من علم ومعرفة.

ومضيت أناقش نفسي في هدوء، حتى إذا ما طال صمتي، قال لي «بهلول»:

ـ أظنك لم تصل بعد إلى رأي دقيق حول كل ما يشغل بالك، لكن دعني أطمئنك، فإننا هنا في هذه القرية؛ وهذا يكفي، قد يغيب الواحد منا عن أرضه وينأى، وهو في كل مرة يحاول أن يبرر لهذا الغياب ولنفسه أسباباً معقولة.

وقد يسافر أحدنا طلباً للرزق كما فعل والدك، وقد يسافر غيره طلباً للعلم كما حصل معك، لكن كل هؤلاء المسافرين سيعودون ومع كل واحد منهم أمل يأمل أن يعاود تحقيقه بعد العودة.

ـ وأنت ألا تزال تفكر فيها؟

كان الجواب مفاجئاً، لكني رأيت أن أتعامى عن صلب الجواب، فقلت:

ـ ألا تعتقد أن من حقي أن أفكر فيها وهي أمي؟

لكن بهلول لم يضحك هذه المرة وقال:

ـ أنا لا أعني أمك وإنما أعنيها هي «سلمى» فتاة الأمس التي تعرف، أتريد أن تسألني عنها شيئاً أم أنك تريد أن تخفي أسئلتك بأسلوب مقنع؟

وطربت بالفعل لتساؤلاته فلم أنكر:

ـ حقاً قد يكون جميع ما قلت صحيحاً فأين هي الآن؟

ـ إذا قلت إنها تنتظرك فستظن بي الظنون كعادة كل من في هذه القرية، وستقول بأنني أهذي، ولكنها الحقيقة.

لقد جاءت بالأمس إلى هنا، وكانت في حيرة مثلك تماماً، وكان معها أبوها وأمها، ولم تسأل عن شيء ما، لكني تحدثت إليها، وعرفت أنها هي الأخرى تسأل عنك، وقد قلت لها بأنني سأكون واسطة العقد بينها وبينك، فلم تصدق، وضحكت.

ورفع «بهلول» لي بقطعة ورق قرأتها بشغف، وعرفت أن سلمى لا تزال تذكر الماضي بجميع حذافيره، وعرفت أكثر، أنها كما وعدتني، تنتظر عودتي من بلاد الغربة لنمضي سوياً في رحلة الحياة على أساس من الواقعية والأمل بعد أن ملت طول الانتظار، وعرفت أيضاً أنها في طيبة الطيبة، وعرفت وعرفت..

لكنني لم أنتظر، بل اندفعت إلى «بهلول» أقبله وأمضي في طريقي إلى «سلمى» هذه المرة، وأمامي طريق معبد أستطيع أن أسير فيه شوطي إلى النهاية.

وبدت ذكريات الأمس تطل من بين عيني وكأنها تحدد معالم رحلة طويلة بدأت منذ نعومة أظفاري وحتى هذا اليوم الذي أعتبره يوم العودة، وبدأت أحس أن بعض الناس، وليسوا كلهم هم الذين يغتالون الشمس ويسرقون الضياء.

أما «بهلول» هذا فهو شيء آخر من الناس، يمتلىء قلبه بالحب والحنان لدرجة الفيضان، وهي أسمى صفات الإنسان، هذا الذي يعيش على أرضه وهو في حلم كبير، يبدأ يوم مولده ولا ينتهي.

أمٌ صغيرة

الناس في الطريق يواصلون سيرهم الحثيث إلى المسجد، ليؤدوا صلاة الجمعة، وهو معهم يسير كالهائم لا يدري ماذا سيصنع عندما تنتهي الصلاة.

ابنته الكبيرة التي ترعى إخوتها الصغار تخطب، ويخطبها صديقه إبراهيم لابنه وهو لا يدري ماذا يستطيع أن يجيب.

إذا وافق فمن الذي سيرعى هؤلاء الصغيرات اللاتي تركتهن أمهن بعد أن قضت نحبها وهي تلد صغرى البنات؟

في الصباح نظر إلى وجه ابنته (ناجية) بكثير من الحب وقال لها وهو يمسح شعرها الأسود:

ـ لقد كبرت وأصبح من حقك أن تزفي لزوج يسعدك، بدلاً من أن تظلي هنا معي ومع إخوتك.

ناجية تبتسم وتقول:

ـ لا عليك يا أبي! أنت تقول لي هذا الكلام منذ أكثر من عام. أعرف أنك تحبني وتود أن تراني زوجة، ولكن صدقني، أنا لا أشعر بهذه الرغبة، وتكفيني أمومتي لهؤلاء الأخوات اللواتي ترى كم أنا متعلقة بهن. ثم كيف يمكن لي أن أقبل بأن أزف وأتركهن لك.. من يرعاهن؟

ـ قد أتزوج وعندها لن تكون هذه بمشكلة!.

ـ لا!

قالتها بحزم.

ـ لو كنت ترغب في الزواج لتزوجت منذ أكثر من عشر سنين يوم توفيت أمي. لكنك لا تريد الزواج وتخاف علينا من زوجة الأب. أنا أعرفك، أعرفك جيداً وأعرف حبك وحدبك.

ـ لكنك وصلت إلى سن يجب أن تتزوجي فيه.

ـ تعني الرابعة والعشرين؟

ـ نعم.

ـ وإخوتي سنا.. وسهى.. وسمية.. وسعاد.. ألا ترى أن أكبر واحدة فيهن لم تبلغ الرابعة عشرة من العمر؟.. ثم لا تنس أنهن جميعاً يدرسن في المدارس.

لقد رضيت يا أبي أن أكون أماً صغيرة من أجلك وأجل أمي وأجل هؤلاء الأخوات، ونسيت سنوات الحرمان. واليوم تريدني أن أفقد تضحيتي كلها من أجل أن أتزوج؟

لا. أقولها بملء فمي، فإنني إنسانة جبلت على أن أؤدي واجبي خصوصاً من أجلها وأجلك يا أبي.

أو تذكر كم كانت راضية وهي على فراش الموت ترمقني بعينيها الجميلتين؟ لقد أغمضتهما في أعقاب ما قلته، لا. سأكون أماً صغيرة بلا شك.

وتتوالى الصور صور الأيام التي أعقبت وفاة هذه الزوجة الجميلة الصابرة. لكم شعر بالفراغ بعد أن توفيت، لكن فتاته الصغيرة.. وهذه (الأم) التي اختارت البقاء في البيت في خدمة أخواتها لم تدع له فرصة أن يتضايق بما جرى.

إرادة الله فوق كل إرادة، وهو إنسان مؤمن، يعرف بأن الحياة مجرد قطار يقف في محطات قصيرة، ومحطات طويلة.

زوجته تلك التي أحبها من كل قلبه والتي دفعته لأن يصل إلى ما وصل إليه، لم تكن مجرد زوجة، وإنما كانت بالنسبة إليه شيئاً أكبر من ذلك كله. فهو يذكر كيف حاربت لتقترن به، هو الفقير الذي لا يملك شيئاً لمجرد إنها أعطت

أخته وعداً بأن تقترن به.

كانا صديقين منذ الصغر بحكم الجوار، حتى إذا ما كبرت حفصة وازداد عدد طلاب يدها من أبيها. قالت له أخته:

ـ لماذا لا تخطبها؟

ـ أخطبها أنا؟

ـ نعم أنت. ألست رجلاً؟

ـ بلى ولكنها من طينة تغاير طينتنا يا أختاه!

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ انظري إلى أحوالنا وأحوال أبيها تجدي معظم الفارق بين بيتنا وبيتهم.

ـ وهل هذا يكفي ليحول بينك وبين أن تتزوجها؟

ـ ومن يدريك أنها سترضى؟

ـ أنا متأكدة من رضاها.

ـ أنت؟

ـ نعم أعرف أنها تنتظر خطبتك ولقد تحدثت إليها عن هذا الأمر فضحكت، وفهمت أنها لا ترفض.

وتمر أيام الخطبة، فالزواج، فالزفاف، فالعمل. كانت إنسانة كبيرة، صنعت من دكانه الصغير، هذه المؤسسة الكبيرة التي ينعم بخيراتها هو وبناتها، لكنها بعد ذلك ماتت، وبقيت ابنتهما الكبرى، صورة مصغرة لحفصة الغالية.

هذه الأم الصغيرة، التي يحبها ويحب أن يراها زوجة لا يدري كيف يصنع؟

ويفكر، ويفكر حتى إذا لم يجد حلاً لمشكلته أدى صلاة الجمعة وعاد إلى بيته محملاً بالهموم.

ليت أخته موجودة معه اليوم، لكنها في بلد آخر، ولقد حاول أكثر من مرة أن يتحدث إلى أخته.

يطلب منها العون والتفكير في أمر هذه الفتاة التي تأبى أن تتزوج وترضى

أن تبقى في خدمة أخواتها على أمل أن يتزوجن جميعاً وتظل هي. ويزداد حنينه إلى تلك التي مضت. ربما لو أنها كانت موجودة لما وصل إلى هذا الحد من الانزعاج في التفكر، ربما..

ولكم أمضه التفكير في هذا الأمر حتى إذا ما وصل إلى بيته قابلته ابنته بالكثير من الترحاب وهي تقول:

ـ اليوم يوم الفسحة يا أبي.

ـ نعم.

قالها بصوت لا أثر فيه من الحياة وكأنه يجيب لمجرد الإجابة ثم تابع قوله:

ـ قولي لهن بأننا سننزل إلى جدة هذا اليوم.. فلربما كان بإمكاننا أن نبيت في فندق بجوار البحر ما دامت إجازة البنات قد بدأت.

ويتسلل كلامه إلى آذان الصغيرات اللواتي وفدن جميعاً إلى حيث يجلس، وأخذت كل واحدة منهن تقبله امتناناً واعترافاً بجميل فضله، هو الأب الحنون، إلا الصغيرة فقد قالت له:

ـ ولماذا لا نذهب إلى الهدا؟

ونظر إليها وقال:

ـ ولماذا الهدا؟

ـ لأرى الصخرة التي كانت أمي تجلس عليها. أو نسيت أن أختي قالت لي عن كل شيء تحبه أمي (الله يرحمها)؟

وطفا الدمع من عينيه، ثم عاود سؤال الجميع فأجمعن على أن يوافقن الصغيرة ويمضين الليلة في شيراتون الهدا!

ربما كان باستطاعته أن يفكر بهدوء من خلال وجوده في هذا الفندق. بعيداً عن الناس.

كل شيء في فندق الهدا يساعد على التفكير، الجو، مكان الفندق، غرفه، مناظره الجبال التي تحيط بالفندق، أزهار الهدا، الخضرة التي تحيط بالمكان، وبناته من حوله، يلعبن على البساط الأخضر (والأم الصغيرة)، كديدبان

برفقتهن؟ تأبى إلا أن تحرس كل هذه الطفولة الصغيرة، وهو ينقل بصره في المكان باحثاً عن إنسان أي إنسان يمكن أن يتحدث معه حتى إذا ما شك في إمكانية الوصول إلى هذا الشخص الذي يحادثه اكتفى بأن ألقى على صفحات الكتاب الذي يحمله نظرة سريعة ثم ألقى به على الطاولة.

شريط الذكريات يمر بخياله. هذه هي المرة العاشرة التي يأتي فيها إلى هذا المكان الذي تحبه زوجته بعد مماتها.

خادم الفندق يطلبه ليتحدث في التليفون. أمسك بسماعته ومضى يتحدث مع أخته حديثاً طويلاً نقل لها فيه جميع أحاسيسه تجاه الصغيرة، وأحلامه التي تراوده حيالها وأشياء كثيرة كانت تشغل باله، حتى إذا ما انتهى حديثه قالت له أخته:

ـ ولماذا تصنع من هذا الموضوع ما يجعلك تفكر فيه بهذا الشكل؟

وبصوت حاد أجابها:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أن المسألة محلولة. إذا استطعت أن تقنع العريس بأن يبقى معكم في البيت بدلاً من أن يأخذ عروسه إلى بيت آخر.

صمت برهة ثم عاود الحديث قائلاً:

ـ لم أفكر في هذا الحل. لكنه ربما يكون الأمثل. دعيني أتصرف بشكل يجعلنا نصل إلى هذه النتيجة، وسأحاول من جانبي أن أشرح مشكلتي لإبراهيم فهو يستطيع هو الآخر أن يمنحني ويمنح ابنتي وبناتي الأخريات السعادة التي نتوخاها.

أقفل السماعة بهدوء بعد أن أنهى حديثه التلفوني وأخذ يدير القرص مرة ثانية ليأتيه صوت صديقه إبراهيم الذي رحب به سائلاً:

ـ أين أنت يا رجل؟

بدأ يتحدث معه في إسهاب حول المشكلة، حتى إذا ما انتهى منها قال له:

ـ ربما كان بإمكاني أن ألبي رغبتك إذا استطعت أنت أن تلبي رغبتي فالصغيرة ترفض أن تتزوج وقد وجدت الحل فيما قلته لك.. ما رأيك؟

قال:

ـ لا بأس، ولكن إذا أردتني أن أقنع ابني بما طلبت وهو كما تعرف شيء هام لأننا كنا أنا وأمه نريده أن يسكن معنا لكنني ومن أجلك سأقبل طلبك مقابل أن تقبل أنت الآخر بفكرتي.

قال:

ـ قلها ولا تخف فلا بد لي أن أنفذ فكرتك فأنا أعرف حبك وحدبك.

قال:

ـ سأجعل العريس يقبل بما ارتأيت على أن يشارك في إيجار الدار ومصاريف الأسرة.

ـ ولماذا تقول هذا الكلام لي؟ ألن يصبح زوج ابنتي كابني؟

ـ أعرف ذلك لكنه شرطي وأظنه سيكون شرطه أيضاً.

وبهدوء قال:

ـ موافق.. قبلت شرطك.

قال:

ـ إذن سيكون زفاف الأم الصغيرة الخميس القادم.

وبهدوء مرة أخرى وبشيء كبير من الفرح قال:

ـ سيكون كذلك إن شاء الله.

والتفت إلى حيث تجلس ابنته وملأت عيناه دموع الفرح حتى إذا ما وصل إلى المكان قال للجميع.

ـ دعونا نعود مرة ثانية إلى مكة فيوم الخميس القادم عقد قران أمنا الصغيرة.

نظرت إليه ابنته بعيون متسائلة وطمأنها هو الآخر بعينيه وقال:

ـ لا عليك ستبقين معنا.. بعد أن ينضم زوجك إلى أسرتنا أيتها الغالية العزيزة..

الضياع

أفتقد النور من خلال دياجير الظلمة، أبحث في الوجوه التي أراها تشرق بالبسمة، صورة قديمة ودعتها بالأمس وقلبي يكاد يعتصر في داخل صدري، أنا الذي عشت سنوات عمري جلها ألمح الفجر يصحو على شفاه حمراء دافئة ظللها الطل ورعتها الأحرف المضيئة المشرقة.

حياتي مجرد صورة، حلم، حكاية، يتصل بعضها ببعض وكأن جملها القصيرة ترديدة لنغم حائر.

الناس يصنعون الحياة، لكن بعضهم يفتقد روح الحياة عندما يبحث عن ظله من خلال واقع ما يعيش. ظروف الأمس أشبه بحكايا جنيات ضاعت أقدامهن في الطريق وهن يبحثن عن المتعة من وراء أمواج البحار الدافئة.

أضواء القمر الحاني تغتسل في أحداق البحر بحرية والرمال الحمراء أحال الضوء لونها إلى ألوان جديدة تتناسق كنغم حائر وتتماسك أشبه بما تتماسك به جمل موسيقية يخطها ملحن بارع، لا جديد يمكن أن يضاف إلى الأصل. فالأصل عطاء والصورة غطاء للعطاء الذي أصبح علامة حائرة تظهر وتبدو ثم تختفي وراء أسراب الطيور المهاجرة.

في ظل الأشجار الكبيرة، يعيش البشر متجاورين أشبه ما يكونون بالطيور التي خرجت من أقفاصها ذات صباح بعد أن ودعت الأمس بعيداً عن ضوضاء المدينة.

وأنا وهي نسمة بلا هدف، تلوح وجوهنا سمرة أنيقة اكتسبناها

من البحر فالبحر هذا العملاق الساحر، يعرف كيف يهب ويعطي، ويعرف أيضاً كيف يبخل. سنوات المد في حياتي كانت كبيرة معطاءة، حتى إذا ما أخذ الجزر طريقه أمام عيني بدت معالم الطريق أشبه بغابة ملأى بأشجار الشوك الكبيرة.

كثيراً ما يحلو للإنسان أن يضيء شمعة في النور، بعد أن أضاء شمعات في الظلام، لكن الأضواء الصغيرة تضيع في خضم الأضواء المشرقة.

اسمي بلبل. تقولون إنه اسم غريب، لكنه التصق بي منذ سنوات طويلة، وإن كنت لم أولد به فاسمي الحقيقي إحسان.

ولدت كما يولد الأطفال في مخدع نوم أمي.. يوم لم يكن بمقدور النساء أن يلدن في المستشفيات.

سنوات عمري أعدها بليالي الربيع التي عشتها هنا وهناك.. لكنها على وفرتها تعتبر قليلة.

القرية التي ولدت وكبرت فيها اسمها الشفا. تنام مع ولوج الليل وتصحو مع زقزقة الطيور وإشراقة الصباح. كل ما فيها يطل على الأرض من هضبات صغيرة، يتلاصق بعضها ببعض، فصول السنة الأربعة نراها بوضوح، ومع هذا تظل الحيرة تغلف هذا القلب الصغير الذي أراه يشب عن الطوق في لامبالاة عجيبة.

ربما كانت ظروف الأمس بالنسبة لي شيئاً لا طعم له ولا لون، حتى إذا ما كبرت لم أتعرف على حقائق الأيام من خلال استمراريتها وممارستها للياليها لكنها تظل العنصر الشيق الذي ننتظره كل يوم مع الشروق والغروب وكأننا مشدودون إلى هذه الأرض بوثاق من حرير لا يمكن أن ينقطع ولكن.

أين مني؟ تلك التي قطعت معها شوطاً من الحياة لا بأس به؟ ربما كانت حياتنا مجرد حلم لم نناقشه سوياً بالشكل الذي نريد، حتى إذا ما افتقد أحدنا الآخر، حاول كل واحد منا أن يضيء في طريق الآخر شمعة.. لكنها على أية حال شمعة من نوع رديء استطاعت مع أول هبة ريح أن تنتزع أضواءها وبأسرع ما يمكن.

ربما لأننا ارتبطنا بأشياء كثيرة. ولكن لم يكن ذلك الرباط قوياً.. لا يهتز أو يتأثر.. ربما لأننا خضنا تجاربنا الصغيرة ونحن ننظر إلى الحياة نظرة من لم يستطع أن يتعرف على خباياها.

ربما، وإلا، لماذا أصبح هكذا في موقعي الذي أقف عليه مجرد إنسان رافض لظروف ما صنع دون أدنى تفكير؟

أحلام الصغار تظل دائماً صغيرة إذا لم تكن على مستوى تستطيع معه أن تكبر ولهذا ضاعت أحلامي مع أول رشة مطر وزعقة رعد. ضاعت كما تضيع الأقدام في الطريق الشائك.

نظرة واحدة على تلك الأيام التي انقضت تجعلني أحس أحياناً بأنني مجرد فقاعة في جدول ماء نهري.. تسكب الجبال فيه ذرات عيونها دفعات ودفعات.

لا شيء يمكن أن يوصف بها لأصالته.. أستطيع أن أتحدث عنه من هذا المنطلق، وإن كنت أحس بأنه فعلاً أكبر من أن يكون أصيلاً فقط، لكنها الحياة تظل تمد لسانها لمن لا يعرف كيف يقهر مشاكلها في قوة.

تزوجت عن حب، وشعرت بأنني لم أكن جديراً بمن تزوجتها ففرطت بها بعد شهور، تركتها وأنا أبكي لمجرد أنني لا أستطيع أن أعايش الرتابة في بيت صغير.

كنت أشبه بالجرذ الصغير الذي يخاف منابت النور في جحور الصحارى، ولم أسعد يوم عاودت رحلة الأمس بأسلوبي. كانت تتجاذبني نزعتان مغايرتان الواحدة للأخرى، فبمقدار حبي للأرض كنت أتوق للانطلاق للحرية الرعناء، حتى إذا ما مارستها وسعدت بها، عدت مرة ثانية إلى حيث كنت وأنا أشكو، لكن شكواي لم تكن عند مستوى الألم، فمضت حياتي على تلك الوتيرة من الشكوى والاستهجان حتى رأيتها ونظرت إلى وجهها لأرى ومضة الحسن تتألق على الشفاه الرقيقة ولمسة الحزن تطل من بين عينيها. كانت تبحث في الطريق عن شيء ما لا أدري كيف أصفه، لكنني على أية حال لم أكن في حاجة لأن أصفه لأنني استطعت أن أبتسم في هدوء للوجه الأبيض النير.

قلت لها:

ـ أنت عربية.

فابتسمت وبهزة من رأسها أجابت:

ـ لا أدري.

وخرجت كلماتها من فمها بلكنة فرنسية دلت على أنها وإن كانت ولدت على أرض عربية، إلا أنها بين بين لا تستطيع أن تنطق حرفاً من كلام أهلها.

وابتسمت وأنا وهي نمارس رياضتنا في حديث يتنقل بين الفرنسية والعربية. كنت أنطق كلماتي بصعوبة لتفهمها وكانت تنطق أجوبتها بنفس الصعوبة، حتى إذا ما وصلنا إلى مقهى الفوكيت قلت لها:

ـ ما رأيك؟

وأجابت:

ـ بمَ.

ـ أن نرتشف فنجاناً من القهوة.

ودخلنا إلى المقهى، وكأنها في تلك اللحظة تجيب على جميع أسئلتي في صمت.

فالفوكيت هذا المقهى الرائع الذي يقف كمعلم من معالم حضارة الشانزلزيه فيه ركني المحبب لأتحدث إلى نفسي بصوت خفيض.

واحترت أين أضعها، فقد كان على مقربة مني مجموعة من العرب، أردت أن أختفي عنهم بلا جدوى، حتى إذا ما تسللت إلى الركن الصغير، وضعت يدي على أول كرسي وقلت لها:

ـ والآن ربما كان لي معك حديث.

وبهزة راقصة وكلمات قليلة قالت:

ـ ولكنه حديثي وليس حديثك.

ونظرت إلى عينيها فقالت:

ـ كنت أرمقك تسير حائراً منذ ثلاثة أيام في الشارع نفسه، لكنني لم أسر معك فقد خفت أن تقول عني بأنني سفينة من سفن الركاب اللواتي يسرن في

هذا الشارع وأنا آنف أن أكون كتلك السفن. لكنني اليوم وبعد أن رأيت الحزن يشع في وجهك قلت لنفسي ليقل ما يقول. يكفيني أن أعرف شيئاً عن هذا العربي الغريب.

ـ وكيف عرفت أنني عربي من غير أن أتحدث إليك؟

ـ من حرصك على الحياة وأنت تصافح بعينيك وجوه الناس. كان الناس أشبه بالغرقى أمام ناظريك، وأنت فقط الربان الذي تستطيع أن تهب الحرية لكل الغرقى، لكنني ـ وثق أنني صادقة ـ اكتشفت أنك أنت الآخر مثلي غريق غريق غريق؟

ـ وهل أنت غريقة؟

ونظرت ثريا بوجهها الجميل وعينيها الواسعتين نظرة شعرت بأن كل مآسي الدنيا تعيش في أعماق هذه البحيرة الساكنة، ثم قالت:

ـ لو قلت لك غير ذلك لكذبت عليك، وإلا ما رأيت في امرأة تعيش في باريس لتأكل وتشرب دون أن يكون لها رأي في حياتها التي تمارسها أو حتى انتماء إلى هذه الأرض أو تلك، فأنا جزائرية الأصل ولدت في وهران وكبرت في باريس وتعلمت ورأيت الحياة وأنا صغيرة حتى إذا ما كبرت لم أدر من أنا.

هل أنا عربية أم أنني فرنسية! قد يكون لساني فرنسياً ووجهي وجسدي وقلبي عربياً وأفكاري هي الأخرى عربية لكنني بلغتي الفرنسية أعيش مرفوضة من عروبتي وحتى من لغتي الفرنسية التي أتحدث بها.

ومضت تتحدث عن حياتها في سخرية، لكنها كانت أكثر سخرية ومرارة، جعلتني أنفض عن نفسي غبار الكسل، وأستجمع تفكيري في هذه المشكلة التي فاقت مشكلتي فأنا إنسان عشت حياتي على أرض تراودني أفكار التحديث الذي أراه يطل من كل أرض، وأرمقه في رغبة دون أن أجرؤ على أن أصل إليه، أما هي فشيء آخر، أنثى ممارسة، مارست حياة الضياع بين بلدين لا تدري إلى أيهما تنتمي.

وعاودت الاستماع إلى حديث طويل يفيض بالحرارة، رغم أنها ـ هذه المرأة ـ في وضع لا غبار عليه، فهي تعيش بقدرتها لا على الانتماء وإنما على الثقافة.

ونظرت إلى وجهها مرة أخرى، وقلت: قد يكون من الممكن أن يسمى الانتماء إلى ثقافة نوعاً ما قانوناً من الاسترخاء الذهني الذي يمكن للإنسان من خلاله أن يقيس انتماءه إلى أية أرض، لكن شيئاً من هذا لم يكن وارداً، لأنها وهي الفتاة الجزائرية المولد والجنسية، تكتشف ضياع انتمائها بثقافتها، هكذا قالت لي، وهذا يكفي.

وبدأت مرحلة جديدة من حياتي في هذه المدينة التي يسمونها باريس، أما أنا فقد كنت أسميها مدينة ثريا.

كانت تضحك وتضحك من هذه التسمية لكن إصراري عليها جعلها تقبل التسمية ثم ترضاها آخر الأمر.

حتى جاء يوم الوداع قلت لها:

ـ سأذهب.

قالت:

ـ أعرف أنك ستذهب.

قلت لها:

ـ إلى بلدي.

قالت:

ـ أعرف أنك ستذهب إلى بلدك.

ـ وأنت؟

قالت وهي تضحك:

ـ سأضيع في هذه المرة وستكون أنت سبب ضياعي، فقد منحتني ظل أمل أراه أشبه بالقشة. ألم تقل عن باريس بأنها مدينة ثريا؟

لقد قررت أن أنسى توهان نفسي وضياع قدميّ، وعرفت أنني قادرة بعد لقائك أن أبقى هنا في هذه المدينة.

قلت:

ـ مدينة ثريا؟

قالت:

ـ نعم مدينة ثريا ما داموا لا يريدوننا هناك، أو لا يكفيني هذا أنني تعلمت منك أيها الوافد من المشرق العزيز أشياء كثيرة أولها كيف أجسد انتماءاتي وهذا يكفيني على الأقل؟

ونظرت إليها وأنا أودع المكان والمدينة وأعود إلى انتمائي أنا الآخر.

السر الكبير

كل شيء يثير في نفسه الإحساس بالضيق. هذه الغيوم المتراكمة السوداء التي أخذت تغطي أكبر مساحة من السماء، وهذه الشمس التي حجبتها السحب فبدا نورها شحيحاً ضعيفاً، وأصوات الرياح تصنع في المكان المعزول شيئاً من الرهبة خالط دمه وعايش فكره وتفكيره هو الذي كان يظن بأنه بعيد جداً عن كل هذه المؤثرات.

الطريق شبه مهجور، تراكمت عليه ظروف الجو من جهة، وحال هطول الأمطار بين الناس وبين أعمالهم ساعات وساعات بينما كان هو خلالها ينظر إلى الشارع الصغير المتفرع من الشارع الرئيسي نظرة حب.

ففي هذا البيت عاش أجمل سنوات صباه وفتوته، حتى إذا ما اشتد عوده وكبر، خرج للبعيد ينظر إلى المجهول الذي جعله يغيب عنه طوال أكثر من عشر سنوات تنقل خلالها بين الرياض.. ولندن.. وفورت كولينز القرية الصغيرة في مقاطعة كلورادو الجميلة.

ربما كان هناك شبه اليوم بين شتاء حائل وشتاء تلك القرية التي أحب وإن كانت حائل في الآونة الأخيرة لا تقل استقطاباً لأدوات الحضارة لكن يحبها أكثر وأكثر.

صوت أمه يناديه وكلمة (يا بعد عيني) تخترق طبلة أذنه، تجعله يرنو ببسمة يمتلىء بها إلى وجهه الجميل.. هكذا كانوا يقولون عنه عندما كان صغيراً يجري في الحواري والأزقة يضفر شعره الأشقر ويستنشق عبير الأرض في حرية.

أبوه مثله، يهوى السفر والتنقل، فلا يعود من سفر إلا إلى سفر

وإن كانت وسائل السفر قد تغيرت بينه وبين والده، فأبوه من بدو الشمال يرى في السفر وسيلة من وسائل طلب العيش فهو في المدينة المنورة تارة وفي خيبر تارة أخرى وفي المدينة القريبة من الحدود السعودية تجارته (نوق الصحراء) مصلحته أن يكبر الصغير ليخلفه في تجارته.

حتى إنه أخذه يوماً ما في سفرة قريبة عاد بعدها وهو يرجو أن لا يكرر الرحلة لطول المسافة من جهة ولصلابة الحياة وشظف العيش أصيب بالقرف فقد كان كل شيء في هذه الرحلة يهد الحيل.

لكن أباه نسيج آخر تسربت في عروقه ظلمة الليل وحرارة الشمس حتى أصبح مجرد هاوٍ يختار طريقه في الصحراء بحرية من يعرف كيف يستقبل الغد ويستدبر الراحة.

وبمقدار ما كان يكره مشاق الطريق يكره هذه النجوم المتراكمة التي يحس بها تعطل مسيرة التفكير في عقله الذي ذوى منذ أمد ليس بالقصير.

يقولون إن الأفكار تتلاقح كما تتلاقح الأزهار، فالحوار الهادىء الرصين قد يمنح الطرفين قدرة على انتقاء الأفضل لكنه يشك في قدرته على الحوار في هذا الجو الشتائي الذي يعيش.

النساء في المدينة جميلات بملابسهن الطويلة وقدودهن النحيلة وعيونهن الواسعة، وخصلات شعورهن تتهادى على أكتافهن في حرية.

وهو يعشق الجمال، في الزهرة، ووجه طفل، وابتسامة امرأة. ويحس بأنه يضيع عندما يجلس في جوا شجرة على مقربة من ينبوع ماء. ويذكر أهازيج الصباح يرددها ذلك الفلاح العجوز وهو يجوب أرجاء مزرعته الصغيرة بحثاً عن لقمة العيش ومن حوله تجري شويهاته الصغيرة وهو عن لعبها لاه بما يصنع.

ربما كانت الحياة يومها في حائل شيئاً يغاير هذا الذي يراه. حتى الأطفال الذين كانوا يخلفون الشيخ في بيته الصغير المصنوع من اللبن الجاف، وألواح الخشب كتبت عليها بعض سور القرآن يرددونها في خشوع.

لطالما أحس بعصا الشيخ تلهب جسده الصغير في أيام الشتاء القارص.. لمجرد أنه غاب بخياله عن أرض الواقع الذي يعيش حتى إذا ما عاود الرحلة

إلى الواقع، ظن أن بالشيخ مسّاً من الجنون وإلا لماذا يقسو رجل كهذا على أطفال في مثل عمره؟

أمه.. أبوه.. إخوته.. عناصر الحياة التي عاشها تحاول أن تأخذ مكانها في سلسلة عجيبة من الذكريات.. حتى يوم صلى العيد في مصلى العيد مع والده لأول مرة، شعر خلالها بأنه يريد أن يطير مصفقاً حول هذا العالم الذي سمع أخباره من جهاز الراديو الكبير.

ما أجمل الحياة إذا استطاع الإنسان أن يقطف زهورها بلا مشقة وما أصعبها عندما تبدو قاسية.. مملة.. ضجرة.. كضجره من كتاب المعلم الذي عاش فيه سنوات وسنوات.

ويوم زفت أخته إلى قريبه صخر، كان سعيداً لدرجة جعلته يقارن بين سعادته وسعادة هذه الأخت التي أخذت تطل البهجة من عينيها في تألق.

حتى ثياب العرس القديمة اندثرت معالمها بعد أن أخذت الحياة تجري على أرضه بأسلوبها المتجدد.

ويوم سافر إلى الرياض، كان يحلم، لم يشعر بالغربة. جل همه أن يجري على هذه الأرض حتى إذا ما استتبت له الحياة هناك في مدرسته اختار مصاحبة الأصدقاء الذين يحلمون مثله في خارج المدرسة.

وكم شعر بشيء من الحب وهو يرى مدينة الرياض وقد امتلأت شوارعها من البطحة إلى المطار القديم بالمياه التي تراكمت لغزارة الأمطار التي سقطت لأكثر من عشرة أيام شاهد خلالها بعض بيوت الطين وهي تهوي أشبه بحبة بسكويت عندما يضعها صاحبها في فنجان شاي.

ويوم رحل على طائرة الداكوتا إلى جدة في طريقه إلى أمريكا كان يوم عيد بالنسبة إليه، فقد التقى يومها بسيدة أمريكية جرب ما استوعبه من لغة في الحديث معها بلا جدوى حتى إذا ما ضحكت العجوز من رطانته بالانجليزية قالت له وبهدوء:

ـ أنت تحتاج إلى إعادة دراسة لهذه اللغة.

لكن زميله محمود الذي كان قد درس في بيروت فترة من الوقت طمأنه

وقال لها:

ـ لا عليك فسيجيد يوماً ما يا سيدتي هذه اللغة.

وقد كان..

وتتجه به الأقدام في المدينة الكبيرة، نيويورك وهو في طريقه إلى فندقه حتى إذا ما عاد افتقد صديقه الذي كان برفقته حتى إذا ما أمضى أكثر من ساعتين في قلق دائم جاء صديقه لينقذه من حيرته فلم يستطع أن يوقف بكاءه.

هزه صديقه عدة مرات وسأله:

ـ ما الأمر؟

وعندما حكى له ما أحس، ضحك من قلبه وقال:

ـ ولا يهمك. ستتعرف إلى الطريق بعد أن تدرس هذه الخريطة.

نظر إليها ولم يعرف شيئاً منها فآثر الصمت كما آثر السلامة، فقطع على نفسه عهداً بأن لا يخرج من الفندق بمفرده مهما كان الأمر.

يحار الإنسان كثيراً في تصرفاته.. لكنه عندما يضل طريق الصواب من خلال هذه التصرفات يزداد وجيف قلبه وتصبح دقاته أشبه بدقات الطبول يوم زواج أخته. وهو يذكر سنوات حياته في فورت كولينز بجمالها وصخبها وروائحها وهدوئها ومرها وعقمها أيضاً. ويدرك بأنه قد أخطأ في حق أنثاه التي عرفها يوم أن خرج إلى دائرة الضوء، فشارك بعض أصدقائه من الأجانب سهرات الليل.

حتى (هناء) الفتاة العراقية التي أعجب بها.. علمت بالخبر وأصبحت تتجنب اللقاء والحديث معه.

ربما يكون قد أخطأ في حقها وحق نفسه فهو وإن كان لم يعدها بالزواج إلا أنه فكر في هذا الأمر أكثر من مرة.

واستمرأ الخطأ، حتى إذا ما غذت قدماه السير في هذا الطريق اندفع فيه برغبة ودون رغبة. لكن اندفاعه لم يفت في عضده، فقد استطاع وفي فترة الدراسة أن يصل إلى ما يريد.

ويوم اقترن بكاتلين.. شعر بأنه قد ارتكب جرماً في حق نفسه وحقها..

لأنه لم يزل يعيش في قريته بعيداً عن مدينته التي أحبها، فهي تمثل حضارة ربما لا تلتقي وحضارة أرضه، ويوم قرر أن يعود إلى أرضه ووطنه قالت له كاتلين وبهدوء:

ـ دعنا نفترق إذا كنت تصر على أن تأخذني معك.

ـ وكيف لا أصر ولي عندك طفلة صغيرة تشدني برباط أكثر إليك؟

ـ لا عليك، فأنا أستطيع أن أجعلها تعيش معي في مدينتي..

هذه الحمقاء الغبية التي ركبت رأسها عناداً وتصلباً جعله يفقد الثقة في قدرته على إفهامها معنى أن تظل ابنته معها إلى الأبد.

ولكم حاول أن يفهمها أن تجرب نوع الحياة على أرضه فلربما استطاع أن يصل معها إلى حل وفي هدوء.

لكنها قالت، وبإصرار أشد:

ـ ولماذا لا تبقى أنت هنا تعمل في أمريكا؟

ـ أبقى أنا هنا؟

قالها في استهجان جعلها تضحك وتقول:

ـ على الأقل ستكون على مقربة من ابنتك ما دمت تحبها أكثر مني.

وسافر إلى وطنه على أمل ربما يستطيع في يوم ما أن يأخذ الطفلة قبل أن تكبر لكن أمله خاب عندما عادت رسائله إليه تحمل كلمة (غيرت العنوان).

عشر سنوات طوال اقترن خلالها بفتاة من أرضه، أنجب منها ابناً وابنة لكنه لا يجرؤ أن يحدث زوجته أو حتى أطفاله على أختهم التي تركها.

واليوم وهو يشعر بكل هذا الضيق الذي يساوره يجد نفسه دون أن يحس أمام صديقه الذي عرف حتى إذا ما أخذ مكانه في مواجهته قال له وبهدوء:

ـ لم أكن أظن أنها لا تعرف بقصة الطفلة.

والتفت إليه وقال:

ـ من؟

ـ زوجتك.. أختي.

ـ وكيف لها أن تعرف ما دمت أنا نفسي قد خبأت عنها حقيقة هذا الأمر. وأنت أيضاً؟

وضحك الصديق وقال له:

ـ صدقني كانت تعرف كل شيء عنك مني، وقبل أن تقترن بك لكنها فضلت الصمت فلم تسألك طوال هذه المدة. أما اليوم فلن تستطيع أن تصمت وهي تتسلم برقية من أحد أقارب الفتاة الأمريكية تقول فيها:

لقد ماتت المسكينة بعد أن تركت الطفلة في بيتها. ماتت في فراش المرض في المستشفى بعد أن أعطتها عنوانك وطلبت منها أن ترد الأمانة إليك.

ـ أتقول ذلك صدقاً؟

ـ نعم.

وسلمه البرقية ليقرأها وهو يبكي وملء قلبه فرح، فرح غامر لا حد له ولا وصف لعودة الابنة ومعرفة الزوجة بسره الكبير.

كبير العائلة

في مدينة حبيبة على نفسي ولدت وعلى أرضها كبرت وفيها نشأت، هذه المدينة التي تحرسها القلوب والشرايين والأوردة، قلوب أبنائها وأفئدتهم وجوارحهم. وقد ضاقت بأن يكون لها سور عندما عرفت وعرف سكانها أن الأسوار لا تحمي المدن؛ إنما الذي يحميها هو الحب الذي يجلجل في سمائها، والعشق الذي يبدو في جفون أبنائها، والاحترام المتبادل.

وكلما عاش الحب ونما وكبر استطاع الناس أن يصلوا إلى الإنس والأمان.

اسمي اسم قديم ورثته عن جدتي لو أخبرتكم به لضحكتم، فالناس اليوم يختارون أسماء أبنائهم وبناتهم بطريقة جديدة، تجعلني أحس بالغثيان عندما أستمع إلى أم تنادي بنتها باسم ليس من العروبة بمكان.

اسمي (حفصة) وهو اسم لسيدة جليلة القدر هي ابنة الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، والخليفة الذي قال عنه الرسول: «لو كان هناك نبي من بعدي لكان عمر».

جدتي دمها خليط فهي شركسية الأصل، تركية المولد، عربية المنشأ، في لهجتها تذوب فوارق اللسان، عيناها كعيني المها لكنهما خضراوان واسعتان يستطيع أن يغرق في حدقتيهما الإنسان ولهذا كانت عيناي مطابقتين لعيني جدتي، لدرجة جعلت أمي عندما تناديني تنادي: يا عيون أمي!

أمي تحب أمها وتخشاها في الوقت نفسه، وإن كنت أنا لا

أخشاها، لأنها تحبني ولأنني طفلة؟

كبرت في بيتنا الكبير في باب الشامي، وهذا البيت عبارة عن أربعة بيوت متداخلة تتعانق فناءاتها الواحدة مع الأخرى؛ لذلك تجعلنا نحن الأطفال نستغني عن اللعب في الطريق.

يقولون عن أمي بأنها من ذوات القدود الحلبية، وهي ورغم أنها لا تعرف حلب لكنها لفرط جمالها وحسن معاشرتها لضيوفها وصفوها بهذا الوصف، لأنها كانت محدثة بارعة وست بيت تعرف كيف ترضي زوجها وأولادها وزوارها جميعهم.

بين بيتي و(كتّاب فاطمة هانم) في الساحة مشوار قصير، أقطعه صباحاً وظهراً مع مربيتي «فضة» الزنجية السوداء التي جاءت من السودان مشياً على الأقدام لأداء فريضة الحج، وهي عندما استقرت في المدينة المنورة قررت ألا تعود.

يوم الأربعاء يوم فريد في بيتنا. فأكثر الأطفال الذين شبت سواعدهم وكبروا بعض الشيء، يذهبون مع أبي إلى سيدنا حمزة على صهوة جياد تأتينا من مزرعتنا في قباء، كنت الطفلة الوحيدة أو المرأة الصغيرة، التي ترافق هذا الوفد وقد كان إخواني وأبناء عمومتي يتدربون على الرماية بالسهم والرماح حتى إذا ما انتهوا من هذا الدرس، ذهبوا إلى بركة (المصرع) البستان القديم الذي كانت بركته من أكبر برك المدينة، وعندها يبدأ دورهم في تعلم السباحة.

قد تستغربون وتسألون لماذا سمي هذا البستان بالصرع؟ عندما سألت جدتي عن السبب قالت:

ـ إن شهداء أحد قد صرعوا في هذا الموقع.

بعدما ننتهي من تعلم السباحة، نمضي جميعاً إلى بيت (الشيخ الدرندري)، شيخ المصرع، صاحب البيت الكبير الذي يقع على وادي سيدنا حمزة. كان الوادي يمتلىء بالمياه عندما تنزل الأمطار في الأماكن القريبة من المكان.

في أحد الأيام اضطررنا أن نعيش داخل البيت عدة أيام لأن السيل قد داهمنا ولأننا لم نقو على اجتيازه.

أمي وجدتي وصاحبتهما يفضلن قضاء الأربعاء في بستان «الزهرة» في العيون وهذا البستان هو من أكبر بساتين المدينة وأكثرها خضرة.. لدرجة يقال عنه إن الحمار إذا قطع لجامه وانفلت من الزريبة، أضاع أصحابه الساعات تلو الساعات بحثاً عنه حتى يجدوه.

العيون منطقة قريبة من سيدنا حمزة مليئة بأشجار النخيل، ومنها يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الغابة. وكم سمعت عن هذه الغابة ولكن لم أجرؤ أن أقول لأبي خذني معك إليها.

مربيتي «فضة» تقول إنها مليئة بالأسود والنمور والفهود. كنت أسمع كلامها بشيء من الانفعال وحتى حديثها عن الدجيرة والغول، وأخبار أتت بها من بلدها تحدثنا عنها كحكايات وحواديت أطرب لها، وأحياناً أخاف ولكني أصمت.. أحسّ بالانفعال لدرجة جعلتني أحلم بها في نومي كثيراً.

عندما توفيت جدتي لأمي بكت أمي عليها كثيراً، ولكن أبي كان أكثر بكاء عليها من أمي، سألته عن السبب قال:

ـ كانت صديقة لأمي، وعندما ماتت أمي اتخذتها والدة لي وعشت وأنا لا أفرق بينها وبين أمي، لطالما كانت هي الصدر الرحب الذي يبت في كثير من الأمور بيني وبين أمك بعد زواجنا.

في أحد المرات زرنا (جبل أحد) وصعدنا أنا وأخي إلى مكان يسمونه (الطاقية) كان عبارة عن تجويف في قلب الصخر يشبه طاقية الرجل.

وضع أخي رأسه في باطنه كتجربة، ولكنه لم يستطع أن يخرجه فصار يبكي ويصيح حتى جاء الرجال وأخرجوه معاً من هذه الورطة.

بيت عمي في مكان داخل المدينة اسمه «السين» لا أدري لماذا سمي بهذا الاسم. ربما لأنه يقع على ما يشبه نهر «السين» في باريس حيث يقع على مجرى سيل أبو جيدة الذي يأتي من قباء مخترقاً المدينة في السابق أما اليوم فلا وجود لهذا السيل مطلقاً.

مسجد «العريضي» من الأماكن التي كان أبي يأخذنا إليها أثناء مجيء الحجاج من البر إلى المدينة. نسيت أن أقول لكم إن عمي يعمل مديراً لمركز

الجوازات، لهذا السبب يتفقد مركز الجوازات. وقد كنا نمضي معه بعضاً من الوقت قريباً من مسجد العريضي.

أيام أمضيناها ونحن نعدها، وكأننا نستعجل الزمن لنقفز على سنوات عمرنا ببلاهة، وإلا بماذا يمكن أن أسمي الرغبة التي كانت تراودني في الانعتاق من ظروف الحياة التي أمارس؟ حتى إذا ما تزوجت انتقلت من دار إلى دار ومن أسرة إلى أسرة لا يفصل بينهما سوى جدار بيتنا الكبير.

كان الناس في بلدي نسيجاً لا أستطيع أن أصفه، يجمعهم الحب برباط واحد، وفي بيت واحد، وتحت إمرة إنسان واحد هو (كبير العائلة) كما كان يحلو له أن يلقبوه.

لم يكن لزوجي حق منحي إذن الخروج كما كان ليس من حق الآخرين التمتع بهذا الحق. كلهم تحت إمرة (الكبير)، الذي يلوب ويلوب وكأنه يفني نفسه ليمنح أسرته وبيته وإخوانه وزوجاتهم السعادة، كل السعادة حتى إذا ما انفرط الحال وتركت المدينة إلى جدة بعد أن عاد زوجي من رحلته إلى القاهرة وقد تسربل برداء علمي ناله هناك.

قلت لنفسي: حان لنا أن أكون أنا وهو كبير العائلة!

وفي جدة مارست حياتي بالطول والعرض، وكأنني أنتقم لشيء من الأسر. عشت رغماً عني في البيت الكبير.. حتى إذا ما كبر أولادي وأصبح لزاماً علي أن أبحث عن خطيبة لأكبرهم، سألت نفسي: ترى هل سأمارس نفس الصرامة التي كانت تمارسها زوجة أخ زوجي الكبير؟

أمور الحياة على أرضي قد تغيرت لدرجة شعرت بعدها في زياراتي لبيتنا، وغير بيتنا، إن تلك العادات قد اندثرت وإن نظاماً جديداً أخذ طريقه إلى الظهور. حتى المرأة، أصبح لها شأنها في اختيار الزوج فلم تعد تلك الدمية التي تنتظر عريسها دون معرفة.

ربما لأننا ونحن نمارس تطورنا العلمي أصبحنا شيئاً آخر أزال أشياء كثيرة منها الطيب والرديء.

انسجمت مع نفسي وأرضاني أن أرى بناتي وأولادي يكبرون، وسعدت

بظروف الحياة التي نعيش رغم كل المعاناة وافتقدت أشياء أخرى كثيرة تلك الروابط الأسرية التي ادخرناها لتكون أسلوب حياتنا عندما نكبر.

حتى إن أمي فقدت رونقها الأول، وأصبحت كجدتي ولكن بلا هدف. فإخوتي الذين تزوجوا تركوا لها البيت بعد وفاة أبي، لتمارس حياتها فيه في هدوء.

كان يوم الجمعة اليوم الوحيد الذي يجمعها بالآخرين على مائدتها، وكانت تهيء نفسها لهذا اللقاء فتتجمل بأحلى الملابس، وكأنها في طريقها إلى عرس تقيمه إحدى صديقاتها. وكنت أسألها عندما يقدر لي أن أكون في زيارتها، عن السبب فتقول ربما كانت هي نزوة.. أردت أن أظهرها في بيتي ليراها أبنائي وبناتي بدلاً من الآخرين.

ـ وهؤلاء الزوجات؟

ـ دعك منهن. يكفيهن أنهن استطعن استلال محبة أبنائي لهن، وهذا يكفي.

كانت أمي حريصة على أن يكون عندها أحد من الأطفال تربيه فبخل عليها الجميع ولم أبخل عليها أنا وزوجي فتركت لها (عاليا). اسم عجيب ليس كاسمي ستقولون ذلك لكنها سنة الحياة. فالحياة لا يمكن أن تظل على وتيرة واحدة ولكن دعونا من كل هذا. حتى الأسماء يغيرها الزمن. وتعالوا أحدثكم عن الخطيبة التي اخترتها لابني.

هي جميلة جمال الزهرة البيضاء اليانعة، رقيقة رقة مياه المطر العذبة، هادئة مثقفة تجيد أكثر من لغتين، وتعزف على البيانو وتتحدث معي بحرية.

ولكم أحببت هذه الصبية من أول يوم، لكنني، وثقوا عندما أقول لكم ذلك بأنني فوجئت بها وهي توافق على الخطبة بشرط صغير، قالت عنه بأنه كذلك وهي لا تعرف بأن ما اشترطته هو شيء أكبر من كل شيء بالنسبة إلي.

أتدرون ماذا تريد هذه المجنونة؟ هي تريد أن تكون وزوجها في بيت لا يشاركهما فيه أحد! ولهذا فهي تشترط من أجل أن توافق على الخطبة قبول هذا الشرط، لم أدر ماذا أقول، لكنني أحسست ورغم أنني أحس بأن في طلبها هذا

ما يبعد ابني من بيتي، إلا أنني أجبتها وبكل هدوء:

ـ هو لك يا صغيرتي. فنحن الحرائر نتفق جميعاً على أن نكون ملكات لبيوتنا.

وأخذت أنظر بعيني إلى الوراء إلى الأيام التي عشت فيها في بيتنا في (المدينة) وقلت لنفسي: لشد ما تغيرت الحياة على أرضي وتطورت لدرجة كبيرة وكبيرة جداً.

زوجتي التي كبرت

هذه المرأة التي أحبها رغم كل الذي صنعته؛ ربما لأنها فقدت أمها وأباها دفعة واحدة، وربما لأنها زوجتي وابنة عمي ومن لحمي ودمي وربما.. وربما.. لكن ما يثيرني أنها تقدر هذا الحب ثم تنسى في غمرة عصبيتها كل شيء، وتبدو إنسانة غريبة لا أدري كيف أصفها.

«هدى» هو اسم زوجتي التي كبرت معي وتوثقت عرى صداقتها بي وبأختي منذ الطفولة. كنت أراها إلى جانبي في البيت وفي البستان وحتى عندما نسافر للحج أو العمرة أو حتى إلى خارج المملكة.

بيتنا في باب الشامي في «المدينة المنورة» بيت قديم، وبستاننا في «قباء» من البساتين المشهورة بكرمها المتميز عن بقية الكروم.

في باب الشامي ولدت زوجتي بعد عام واثني عشر يوماً من مجيئي إلى هذه الدنيا، أمي اختارتها منذ الصغر زوجة لي لا لأنها ابنة عمي فقط وإنما لأنها ابنة أختها، فأبي وعمي متزوجان من أختين وإن كانت أمي تفوق أختها جمالاً وكمالاً وحسناً وأدباً.

لا تقولوا إنني كأي إنسان أقول عن أمي هذا، بل هي الحقيقة تعترف بها حتى خالتي وزوجتي أيضاً.

عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر عقد أبي قراني على هدى وأصبحت بذلك هدى زوجتي وإن لم أدخل بها إلا بعد أن أنهيت دراستي الجامعية.

عندما كنا صغاراً كنت أختلف مع هدى في كثير من تفاصيل الأشياء التي تصنعها مع بنات عمي الأخريات. لكنني في النهاية

أرضخ لما تصنع وأعفو عن كل إساءة ترتكبها في حقي بعدما أؤنبها على ما تفعل.

أبي وعمي شريكان في عملهما التجاري، عاشا طوال عمريهما هكذا، وحتى بعد وفاة جدي وإن كان أبي يهتم أكثر بشؤون الزراعة والبستان.

هدى زوجتي عصبية جداً، تثور لأتفه الأسباب، وتعتقد أن كل شيء في هذه الدنيا مهيأ لأن يستجيب لطلباتها. ربما لأن أمها وأباها كانا لا يرفضان لها طلباً، وربما لأنها كانت مدللة من الجميع فقد كانت أجمل بنات العائلة.

في العيد كانت أختي تختلف كثيراً مع هدى، فقد كانت الثانية رقيقة القلب تحاول دائماً جمع الصديقات من حولها، فشبت وهي على وفاق مع جميع بنات العائلة إلا هدى.

عندما تزوجت من هدى، حاولت أن تضع بيني وبين أختي حاجزاً كنت أحاول دائماً أن أكسره، وكان هذا أكثر ما يزعج زوجتي لأنها كانت تعتقد بأن الزواج هو امتلاك كامل للزوج لتستطيع من خلاله تنفيس رغباتها.

حاولت كثيراً أن أفهم زوجتي خطورة ما تصنع، لكنها «تستهبل» المواقف وتضحك من كل قلبها دون أن تجيب بحرف واحد.

في شهر العسل هناك بالقرب من بحيرة «لوزان» كان أول خلاف بيني وبين زوجتي، لم أكن أعرف أنها غيورة بهذا الشكل السيء. فقد كان هناك أكثر من مجموعة عربية تقف على مقربة منا، وكانت إحداهن أشبه بالمرأة الكاملة التي عرفت كيف تختار أناقتها بأسلوب محتشم أردت أن أريه لزوجتي في هدوء، لكنها لم ترض بملاحظتي، وأخذت تقارن بينها وبين تلك المرأة التي لا أعرفها، لدرجة أحسست أنها تحاسبني على أنني حاولت أن أشاركها إحساسي بمحافظة السيدة على أناقتها من جهة وعلى احتشامها من جهة أخرى.

في الفندق أمضينا يوماً حافلاً بالأحاديث، كنت خلاله الضحية لأنني لم أشأ أن تظل على عبوسها واكفهرارها.. فاستمرأت الحال، ومضت في ممارسة دلالها ودلعها بأسلوب جعلني كثيراً ما أنفر منها ثم أعود. ألم أقل لكم بأنها ابنة عمي؟

وفي باريس أصرت زوجتي على أن تشتري معطفاً من «الفيزون» لا حاجة لنا به. حاولت أن أثنيها عن هذا العزم لكنها رفضت، وظل المعطف أسير خزانتها لأكثر من عشرة أعوام حتى إذا ما أخرجته مرة لتريني إياه وجدته وقد أصبح بالياً لدرجة عجيبة.

ضحكت يومها وقلت:

ـ مسكينة المرأة أحياناً، لا تعرف كيف تستمتع بما يصرفه زوجها من نقود في أشياء لا ضرورة لها.

فاضطربت زوجتي، وقضيت أياماً ثلاثة في نكد دائم ومستمر، عندما تلد أختي ابنة تقول:

ـ إن حظها في الحياة ليس كما تريد وتأمل، لو كان المولود ذكراً!

وإذا جاء المولود ذكراً عادت ريمة إلى حكايتها القديمة.

مجموعة متناقضات تمشي على الأرض، لا رابط بينها وبين حياتنا في مدينتنا التي نعيش. حتى أمي أصبحت تنفر منها ومن زيارتها عندما اختارت أن تقطن في دار خاصة بها بعد أن تفرق بنا الحال، وأصبح كل واحد في الأسرة في بيته بمفرده.

أكثر من مرة فكرت بأن أؤدبها بأن أتزوج عليها؛ لكنني أرفض الفكرة من أساسها، وأعود إلى سابق هدوئي، أحاول أن أعالجها في هدوء.

قرأت أكثر كتب علم النفس، وأصبحت عندي في الدار مكتبة نفسية كانت مثار التعليق ممن أعرفهم من الأصدقاء، فقد كانت دراستي مغايرة لهذا العلم. فأنا مهندس، ومهندس مدني أدير شركتي في هدوء.

الشيء الوحيد الذي كان يسرني في زوجتي أنها كانت على حاسة جيدة عندما تشاهد رسماً لبناء أو لمركز تجاري أحاول تصميمه، كانت آراؤها في نقد ما أعمل صائبة، وكثيراً ما أخذت بها ونفذتها، ولقد قلت لها أكثر من مرة:

ـ لماذا لا تحاولين قراءة كتبي الهندسية؟

كانت تمد بوزها وتقول:

ـ أنسيت أنني خريجة ديكور؟ بالإضافة إلى أن المرأة خبيرة في الديكور

حتى وإن لم تدرس هذا النوع من العلم.

مرة.. في إحدى زياراتنا لليابان وكوريا أفردت لي الشركة التي أتعامل معها واحدة من موظفات العلاقات. نظرت زوجتي إليها بكبرياء وشمم، وطلبت منها أن تعود إلى الشركة وتأتي برجل.. فهي لا تطيق أن تقوم امرأة بالعناية بها وبزوجها.

قلت لها بيني وبينها:

ـ كان بإمكانك أن تقولي ما تريدين دون أن تحرجيها.

لكنها ضحكت من كل قلبها وقالت:

ـ ولماذا نحاول أن نكتسب عادة النفاق التي يمارسها الآخرون؟

أشعرتها بأنها مخطئة، وأن ما تفعله سيعود علينا بالضرر؛ لكنها لم تقتنع ومضت تمارس أسلوبها المثير معي لدرجة جعلتني أقرر بيني وبين نفسي أن لا ترافقني في أية رحلة قادمة..

عندما عدت من زيارة ألمانيا التي قمت بها بمفردي حاسبتني حساباً عسيراً على الأيام التي قضيتها هناك. كانت تبحث في جيوب «بدلي» عن شيء ما تريد أن تصنع منه جسراً «للعكننة»، حتى إذا لم تجد شيئاً، أخذت تعايرني بأنني لم أجلب لها هدية مناسبة.

وبعد عودتي من كوريا وهونج كونج وجدتها تلوي «بوزها» لأنني كتبت لها في بطاقة بريدية: «إن ريتا أخرتني عن السفر إلى طوكيو أياماً» في هونج كونج.

كانت تظن أن ريتا امرأة وعندما أفهمتها بأن ريتا اسم لإعصار معروف في الشرق الأقصى، أخذت تتبجح بأنها تعرف ذلك، ولكنها فقط أرادت أن تختبر أخلاقي؛ فلربما كانت ريتا شيئاً آخر غير هذا الإعصار.

مسكينة زوجتي فهي إنسانة لا أستطيع أن أصفها بالتعقيد فقط، وإنما بأشياء أخرى كثيرة تضاف إلى ما تعانيه من عقد قديمة. حاولت أن أفك إسارها طوال سنواتي الماضية معها وحتى ذلك اليوم الذي جاءت فيه زوجتي تطالبني بأن أعرضها على اختصاصية في أمراض النساء والولادة.

سألتها عن السبب فقالت في هدوء:

ـ ربما كنت حاملاً، ولهذا أود أن أتخلص من هذا الحمل.

وسألتها مرة ثانية في دهشة عن الأسباب فقالت:

ـ أنت تعرف مبلغ حرصي على مظهري وجمالي وأخاف أن يغير الحمل شيئاً مني في نظرك.

ضحكت وقلت لها:

ـ لا عليك فهذه هي رسالة المرأة.

قالت:

ـ أن تحمل وأن تلد؟

قلت:

ـ نعم.. وهل تشكين في ذلك؟

قالت:

ـ هكذا أنتم الرجال تريدون من المرأة أن تشقى بالحمل والولادة حتى إذا ما همد بريق شبابها وانطفأ جمالها تغيرت نظرتكم إليها.. وبدأتم تلفون وتدورون، وأخذتم تفكرون في الزواج من أنثى شابة تفوقها جمال ومظهر.

نظرت إلى زوجتي وقلت لها:

ـ ربما أنت مخطئة. فالرجال ليسوا على هذه الشاكلة.

وانفجرت في وجهها دفعة واحدة وقلت لها:

ـ لقد تحملت غيرتك وكبرياءك وأشياء كثيرة لا أود أن أقولها الآن لكنك تعرفينها.. وانتظرت طوال كل هذه السنوات عسى أن تعودي إلى رشدك وصوابك؛ لكنك استمرأت الدلع وأصبحت بهذا الدلع صورة مقيتة لا أحب أن أراك بها مطلقاً.

ونظرت لي زوجتي نظرة متسائلة وقالت:

ـ أنت إذن تكرهني.

قلت:

ـ أكره ما تمارسينه من أفعال لا أرضاها ولا أعتقد أنك ترضينها لنفسك.

وانخرطت في بكاء مرير ثم غادرت الغرفة. وبدأت أفكر في هذه المجنونة التي أضعت حياتي معها دون أن أصل إلى نتيجة. حتى الحمل والولادة ترفض أن تؤديهما برغبة.

وخرجت من الدار لفترة من الوقت حتى إذا ما عدت وجدتها هي الأخرى قد غادرته إلى بيت أهلها، وهأنذا أمضي شهوراً طويلة في بيتي بمفردي، حاول خلالها أهلي وأهلها أن يقربوا بيننا لكنني رفضت وكأنني أعاقبها على عدم رغبتها في الحمل والولادة.

أما اليوم وبعد أن عرفت بأنها قد انتقلت إلى المستشفى لتلد طفلنا أو طفلتنا لا أدري فقد أحسست بأنني أحبها، أحبها من كل قلبي، هذه المخلوقة التي أعتقد أن ظروفها كلها ستتغير بعد أن تلد المولود أو المولودة التي سيهبنا الله إياها.. والتي أو الذي أنتظره على أحر من الجمر.

جميلة ومثقفة

سهى صديقتي في وجهها إشراقة الفجر، وفي عينيها بسمة الضحى، وفي جبينها فلقة القمر. تمتاز بقوام نحيل وقد مياس، من يراها يحس بأن فيها شيئاً من الكبر، أما الذين يحتكون بها ويعايشونها يعرفونها على حقيقتها، فهي أنثى دمثة رائعة الجمال والخلق على درجة كبيرة من الثقافة عاشت سنوات طويلة في مدينة روما مع والدها الذي كان يعمل هناك.

صديقتي سهى ليست صديقة قديمة، فمعرفتي بها لم تزد على سنوات الدراسة في الجامعة. لكنني خلال هذه المدة استطعت أن أعرف الكثير عنها، وعن أسرتها.

فأبوها من أوائل الشباب الذين اختاروا السلك الدبلوماسي. ولد في المدينة، ودرس بها، وكان من أوائل الذين نالوا تعليمهم الجامعي في أمريكا يوم لم تكن في بلادنا جامعة.

صديقتي سهى محدثة بارعة، تستطيع أن تمسك بأطراف الحديث ساعات دون أن يمل منها مستمعوها.

قالت لي في إحدى جلساتنا:

ـ أو تدرين يا سعاد؟ إن المدن في العالم كالمرأة تغير فساتينها بتغير المناسبات.

لم أكن أدري ماذا تعني بهذه الجملة، لكنها وبعد طول تفكير قالت لي ضاحكة:

ـ المرأة يا عزيزتي أنواع: منهن من تحَب، ومنهن من تحِب،

ومنهن من تخدم، ومنهن من تخاف، ومنهن من يخاف منها.

في نيويورك كانت تخاف، وفي روما كانت تضطرب، وفي باريس كانت تصر على أن تشيع الفرحة في أعماق أعماقها، وفي لندن كانت تغفو وفي طوكيو كانت تحلم.

هكذا قالت لي، ولم أكن أفهم كل ما تقول ربما لأن تجوالها حول العالم مع والديها منحها الثقة في النفس والثقافة الكاملة.

عندما فهمت ما تعنيه كلماتها أصبحت أناقشها دائماً حتى عرفت بأن روما في الصيف أشبه بامرأة تبحث عن مايوه قديم لترتديه، بينما يختلف الأمر بالنسبة لكان ونيس وبلاد شمال أوروبا التي كانت تقول عنها بأن مدن هذا العالم تتميز بالدفء والحركة والصراحة.. وهي أي المدن لا يهمها كثيراً ماذا تلبس يكفيها أنها ترتدي من الملابس ما تجده مناسباً لها.

أما باريس فقد قالت عنها إنها أشبه بامرأة تلبس ملابس السهرة صيفاً وشتاء لأن نساءها أنيقات مفرطات في اختيار ديكورهن بعناية.

عندما سألتها عن بون وامستردام ضحكت وقالت:

- قد تكون بنية هاتين المدينتين قوية ومتماسكة لكنها تحمل في أعماقها إحساساً بالطفولة.

يوم خطبني سمير جئت أسألها الرأي فقالت وهي تضحك:

- ولماذا تسألينني أنا؟ الجواب عن سؤالك يكمن في مشاعرك، إحساسك الداخلي بهذا الفارس الذي جاء يدق بابك.

استشرق قلبي وإحساسي بالراحة ونظرت إليها في حب، وعندما أفتاني قلبي وافقت على خطبة سمير. وهأنذا أعيش أيامي أنتظر اليوم الذي تنتظره كل فتاة.

عندما تخرجت وسهى من كلية الاجتماع أصبح ليس سهلاً علي أن أراها كما كنت أراها في كل يوم لكنني وإياها اتفقنا على أن يزور بعضنا البعض ثلاث مرات أسبوعياً.

في الزيارة الأخيرة التي قمت بها لرؤية سهى أحسست بأن صديقتي

مشغولة عني بشيء ما حاولت أن أعرفه منها بلا جدوى. وخرجت من عندها وأنا الأخرى مشغولة فكراً. لكنني وبعد أن عرفت الحقيقة أكبرت تلك الصديقة وقلت لنفسي:

ـ أين لي أن أجد مثيلاً لها بين صديقاتي؟

أتدرون ما كان يشغل ذهن صديقتي ذلك اليوم؟ فلقد صدمت سهى عندما حدثها والدها عن رغبة خطيبي، الذي تقدم لخطبتها هي الأخرى ولما كانت تعرف كل شيء عن خطبته لي فقد أخبرت والدها بالموضوع، وطلبت منه أن يصرفه بأية طريقة لأن أمثال هؤلاء الشباب لا يصلحون للزواج ما داموا هكذا سريعي التأثر والتغيير.

يوم عرفت الموضوع قلت لها:

ـ لماذا لم تخبريني عن خطبته لك؟

فضحكت وقالت:

ـ لم أكن أرغب أن أزعجك في حينه. لكنني وبعد أن خرجت من عندي خفت أن تمضي في إجراءات الزواج فطلبت من خديجة أن تشعرك بما فعل هذا الغادر، حتى إذا أقدمت على الزفاف كنت على علم بكل هذا الذي يصنعه هذا الغادر.

ـ إذن أنت التي قلت لها عن أمر الخطبة؟

ـ نعم وكان هدفي من ذلك أن تعرفي الموضوع. فعلى الرغم من رفضي فلربما كان لك رأي في إنسان يجب أن يغير ثيابه بأسرع ما يمكن.

ضحكنا سوياً. وحاولت معي أن تنسى الأمر أما أنا فلم أنس وبعدها بأيام، أشعرت والدي برغبتي في فسخ الخطبة فوافق بعد أن عرف الأسباب.

والدي رجل صارم لكنه يحبنا. وهو رغم مظاهر الصرامة التي تبدو على وجهه يميل إلى الحوار.

أما أمي فقد كانت تنظر للموضوع من زاوية أخرى، ولهذا لامتني على فسخ الخطبة.

قلت لها:

ـ أو ترضين لابنتك أن تتزوج إنساناً يخطب فتاة أخرى وهو خاطب لها؟

قالت وكأن الأمر لا يعنيها في شيء:

ـ وماذا في الأمر؟ لقد تزوجت أباك في ليلة ظلماء فقد اتفق جدك وعدد من أقاربه على زفاف أبيك لابنتهما، وفي ليلة الدخلة حصل ما حصل وكنت أنا في بيت أمي. وقد جاءت عمتك إلى بيتنا وقالت كل شيء لأمي، لكن أمي لم تقل شيئاً حتى سألتني.

وعندما عرفت أن زواجي بأبيك فيه مزايا كبيرة (فالعريس لقطة) قلت لنفسي لقد بعثه الله إلي، فلماذا أرفض؟ وعندما قبلت خرجت من بيتي في تلك الليلة إلى بيت أبيك بعد حفلة زفاف كبيرة لم يعرف المدعوون أسباب تغير العروس إلا بعد حين.

نظرت إليها وهي تتابع كلامها:

ـ أو تدرين ما حصل؟

لقد بقيت من كانت من حظ أبيك بلا زواج، وماتت وهي عانس. أما أنا فقد عرفت كيف أحصل على نصيبي من الحظ. الزواج يا ابنتي قسمة ونصيب فلماذا تردين نصيبك؟

ونظرت إلى أمي وقلت لها:

ـ وهل كنت سعيدة بعد زواجك؟

قالت لي وشيء من الحسرة يغلف قلبها:

ـ إذا شئت الحق فأنا لم أكن كذلك.. فقد فهمت أنني فرضت على أبيك الذي كان يأمل أن يتريث بعد تلك الصدمة. أو تدرين أن الجليد الذي كان يغلف حياتي مع أبيك لم يذب إلا عندما أطليتِ أنت وأطل أخوك من بعدك؟

ـ وتريدين مني أن أصاب بما أصبت به؟

ابتسمت أمي وقالت:

ـ ربما لم أكن على حق لكنني لا أدري فأنا جل همي أن أراك تتزوجين.

ـ لكن عصرنا يختلف عن عصرك يا أماه فنحن نتعلم وندرس ونعمل.

وجاء الجواب حاسماً منها هذه المرة وهي تقول:

ـ ولو.. فالمرأة يا ابنتي حظها الأول والأخير أن تكون سيدة بيتها.. بيتها

هي لا بيوت الآخرين.

- وماذا تعنين ببيتها.. أليس بيت أبي بيتي؟

- بيتك حتى تصلين إلى سن الزواج وعندما تكبرين وتظلين بلا زواج يصبح إحساسك بالوجود حتى في البيت الذي ولدت طارئاً كما كانت تحس أختي خالتك سميرة..

ضحكت من كل قلبي وطمأنتها بأنني سأتزوج وقلت لها بأن العرسان ستركض إلى بيتنا لأنني جميلة ومثقفة.

مضى على كلامي مع أمي أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا لا أزال في بيتنا.

لا أقول بأن العرسان لم يأتوا لكنني كنت مفرطة في عنادي، فأبيت أن ألبي طلب أي واحد منهم.

وعندما كبرت كان جل همي أن يأتي أي إنسان.

واليوم وبعد أن تزوجت صديقتي سهى، وأصبح لديها من الأولاد بنتان وولد، ذهبت إلى بارئها أثر مرض قصير.

بكيتها فيه زمناً طويلاً فقد كنا صديقتين رغم أنها متزوجة وأنا عازبة.

كنت أحس بحبي الكبير لهاتين البنتين والولد وكان إحساسي بأنهم في حاجة إلى رعاية يداهم نفسي بين الحين والحين حتى جاء ذلك اليوم الذي قال لي فيه أبي بأن سليماً زوج صديقتي يريد الاقتران بي، فلم أقل شيئاً بل طلبت من أبي أن يعطيني فرصة للتفكير.

وبدأت أتحدث للبنتين كل واحدة على انفراد وشعرت أن هناك رغبة منهما، فهما اللتان طلبتا من والدهما أن يتقدم لي، فوافقت.

وهأنذا أعيش في بيتي الذي قالت عنه أمي بيت الزوجية وإلى جانبي بنتان وولد لم ألدهم. فقد ثبت بالكشف الطبي أنني عاقر ولا يمكن أن ألد.

ترى ماذا أقول عن تلك الصديقة التي أحبتني حية وميتة سوى أن أترحم عليها، وأن أصنع من قلبي سياجاً يحمي هؤلاء الصغار الذين تركتهم لي، لأسعد بهم أنا، أنا وحدي.

الزفاف

سيدتي امرأة، رائعة، ليست كبقية النساء، في عقلها رجاحة، وفي قلبها طيبة، عاشت أشبه بملكة متوجة، تأمر وتنهي في بيتها الكبير طوال أكثر من خمسة عشر عاماً، كنا نضحك أنا وهي عندما نتذكرها، ونسميها أعوام العز.

صدقوني عندما أقول بأن سيدتي رغم كل ما يملكه زوجها من مال، كانت لا تأنف من مشاركتنا أعباء العمل في البيت، تشمر عن ساعد الجد، وهي تصنع ما تحتاجها ولائم زوجها الكريم، فزوجها، أعني سيدي، من وجهاء المدينة وكبار أعيانها، يتمتع بإطلالة عجيبة، وابتسامة جميلة ورائعة.

عندما جئت إلى هذا البيت، كنت طفلة صغيرة لم يتعد عمري الخمس عشرة سنة، وهكذا بقيت كل سنوات عمري أرمق الحياة وهي تجري في هذا المنزل. كنت أظن أن سيدتي لا يمكن أن تعمل، حتى جاء اليوم الذي تغيرت فيه نظرتي إلى هذا الموضوع، ففي أعقاب وفاة سيدي، ضاعت الثروة نتيجة إفراط سيدتي في الثقة بأحد إخوان سيدي الذي كان بعيداً عن حقل التجارة.

أولاد سيدتي كانوا يتلقون العلم في المدارس، وكانت سيدتي تحرص دائماً على أن يكونوا بعيداً عن مشاكل الثروة.

المضاربات التي شغل بها سيدي الجديد، جعلت الثروة تنساب من بين أصابعه رويداً رويداً، حتى جاء ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى سيدتي يشكو سوء حظه، ويطالبها بأن تبيع بعضاً من أراضي الأولاد للاستمرار في التجارة. سيدتي رفضت هذا الطلب، وقالت في هدوء:

ـ يكفينا ما أصابنا.

وعندما سألها كيف يتسنى لها أن تدبر أمرها، ضحكت وقالت:

ـ لا عليك فسترى.

ومنذ ذلك اليوم تغير أمر وجودنا في البيت الكبير، وأصبحت سيدتي حريصة على أن تصنع من نفسها ظلاً واقياً لأولادها: حسن وحسين ونجاة.

رفضت أن تترك البيت الكبير، وصرفت جميع الخدم، واكتفت بأن أكون إلى جانبها، وبدأت حياتها الجديدة.

سيدتي طبيبة، درست الطب في القاهرة وإن لم تمارس عملها منذ أن تسلمت شهادتها، لكنها وبعد أن صار ما صار، أصرت على أن تمارس المهنة، وبدأت تبحث عن عمل يعينها على تربية الصغار، حتى وجدته، وعندما وجدته تحدثت إلي بإسهاب عن أول يوم قضته في هذا العمل.

حدثتني عن الطفلة الصغيرة التي جاءت بها أمها إلى المستشفى، وهي في حالة هلع لأن الصغيرة قد انتابتها حمى قاسية وكانت تجربة الأم هي الأولى.

وحدثتني عن المرأة التي قالت بأنها حامل لأكثر من ثلاث سنوات، وعندما أفهمتها سيدتي بأنه حمل كاذب، لم تستمع إليها المريضة وإنما تركتها بعد أن أثخنتها لوماً وتجريحاً!

سيدتي كانت سعيدة رغم مشاكلها الكثيرة، فقد أصبحت المسؤولة الأولى عن الأسرة في البيت وفي العمل أيضاً.

لم أكن أظن أن مهنة الطب، مهنة إنسانية ومتعبة حتى التقطت أذني مكالمة بين سيدتي وإحدى جاراتها اللواتي لم يكن يعرفن أنها طبيبة حتى إذا ما عرف الجميع ذلك، أصبح من السهل عليهن استدعاؤها ليلاً ونهاراً.

أم صبحي، سيدة عجوز، بلع ابنها قرشاً معدنياً، طلبت من سيدتي أن توافيها إلى بيتها، حاولت سيدتي أن تفهمها بأن مثل هذا الأمر خارج عن طبيعة عملها، وأن على زوجها مراجعة المستشفى، لكن جارتنا أم صبحي لم تقتنع فاضطرت سيدتي لأخذ الطفل إلى المستشفى والبقاء معه حتى استطاع الطبيب إخراج العملة من المريء، وبعدها عادت إلى الدار منهوكة متعبة.

فكرت سيدتي في إقامة عيادة صغيرة في بيتها تتقي بها شر المراجعات الليلية، فغدت هذه العيادة ملتقى للكثيرات اللواتي أصبحن يراجعنها لسبب ودونما سبب.

ضحكت سيدتي وهي تتحدث معي عن أغرب مراجعة التقت بها في عيادتها بالأمس.

كانت سيدة سورية في منتصف عمرها متزوجة ولها أكثر من ولد تعيش في المدينة منذ أكثر من عشر سنوات.

فتحت أذني، وبدأت ألتقط حديث سيدتي، أتدرون ماذا تريد هذه المرأة؟

لقد جاءت لخطبة سيدتي لابنها الذي يصغرها بعشرين عاماً!

وعندما سألتها عن ردها، ضحكت مرة ثانية وقالت:

ـ لقد سألتها عن السبب، الذي جعل ابنها يطلب منها هذا الطلب، فقالت بسذاجة ودون تردد: إنها وابنها يرغبان في نيل الجنسية، وهذا لن يكون سهلاً بدون هذا الزواج!

حاولت سيدتي أن تطيب خاطرها، وأن تعتذر عن تلبية هذه الرغبة الغريبة، لكن المرأة لم تقطع الأمل، وإنما عاودت الزيارة لأكثر من مرة، حتى طلبت مني سيدتي أن أرفض استقبالها.

في غمرة حديثي عن سيدتي نسيت أن أتحدث لكم عن الحسن والحسين، وعن نجاة فهم، وإن كانوا جميعاً متقاربين في السن، لا يفصل بين كل واحد منهم سوى مدة يسيرة قد لا تزيد عن العام، إلا أنهم جميعاً كانوا أبناء مثاليين، فنجاة تدرس الطب، والحسن والحسين يدرسان الهندسة.

وعندما أحسّت سيدتي رغبة كل واحد منهم الالتحاق بالجامعة، جمعنا أغراضنا وتوجهنا إلى جدة، وسكنا في إحدى الفيلات القريبة من الجامعة، حتى إذا ما سارت الحياة بالأسلوب المناسب، استطاعت سيدتي أن تعيد بعضاً من ثروة زوجها ببيع بعض الأراضي في فورة أسعارها التي عمت العالم كله، وبدأنا نعايش الحياة بأسلوب جديد في قصر حديث في الحمراء يطل على الكورنيش.

لكن سيدتي مع هذا كله رفضت أن تغلق العيادة، ومضت تمارس مهنتها في هدوء ودون ضجة لكنها في ممارستها الجديدة لم تكن تحرص على زيادة الدخل فقد كان دخلها يكفيها، وابتدأت رحلة الحياة تسير وفق ما كنا نعيش بدون ذلك الرجل الطيب زوج سيدتي.

كبرت نجاة وأصبحت هي الأخرى طبيبة لها دورها في الحياة وتزوجت وأنجبت، وبقي الحسن مع أمه بعد أن تزوج أخوه هو الآخر وعاش في بيته، وابتدأت أقلق على سيدتي، خصوصاً وأنا أراها دائماً ساهمة الفكر.

قلت لها مرة:

ـ لماذا تفكرين؟

قالت:

ـ أفكر كيف سأظل بمفردي بعد زواج ابني الصغير، سيخلو البيت ونبقى أنا وأنت، فقط يا مبروكة.

وبكل براءة قلت لها:

ـ ولماذا لا تتزوجين؟

وضربت بكفها على صدرها وقالت:

ـ أنا أتزوج وبعد هذا السن؟

قلت:

ـ ليس في الأمر حرج، لقد قرأت الكثير عن الأم التي تتزوج بعد أن تمنح أبناءها كل حياتها حتى إذا ما كبر الجميع انصرف كل واحد لتدبير شأنه.

لكنها لم تقبل برأيي ونسينا الموضوع حتى جاء ذلك اليوم الذي خطب فيها ابنها «وفاء» ابنة الطبيب الجراح المشهور. نظرت إلى وجهها فرأيت الفرحة الصادقة تطل من عينيها رغم كل إحساساتي السابقة عن بقائنا أنا، وهي بمفردنا، لكن إرادة القدر كانت أقوى منها ومني فلقد جاءتها وفاء وهي خجلة تود أن تحادثها في أمر من الأمور حتى إذا ما اختلت بها، تناهى لي كلامها وهي تتحدث مع أم زوجها المقبل أتصدقون ماذا كانت تريد هذه الفتاة؟

كانت تخطب الطبيبة لأبيها الطبيب الذي عاش عمره كله بعد وفاة زوجته

يرعى ابنته حتى إذا ما خطبت، جد عزمه على الزواج ومن سيدتي التي فرحت بأنها لن تبقى بمفردها في البيت، بل سيكون معنا أخيراً رجل، يقوم بتأمين حياتينا معاً.

وضحكت من كل قلبي، وأنا أرى بسمة السعادة تطل من وجه سيدتي الذي لا يزال شاباً وجميلاً رغم كل ما صنعت، ورغم السنين التي انقضت من عمرها. وعرفت أن وفاء كانت ذكية وموفقة عندما أخرجت سيدتي من صومعتها.

وارتفع صوته، يعربد في أجواء الغرفة:

ـ لا أريد، لا أريد، لا أريد أن أراها، فلقد ضقت بها وما تصنع ذرعاً.

استغربت واستغربت معنا زوجته التي كانت تستمع إلى صوته، ورأيت وجهها وهو يمتلىء بالغضب، ورأيت الألم يعصر قلب هذه الأنثى الرائعة، ضاع الغضب في لحظة جعلتها تحاول وهي القادرة بأن تعود إلى طبيعتها السابقة، ربما كان سرير المرض في أعقاب عملية ناجحة وسيلة لفهم مواقف الإنسان، أي إنسان وربما كان العكس.

وخرجت من الغرفة أفكر في هذا الذي أسمعه، فالمرأة هي ابنة عمي، وهو صديقي وطوال سنوات الزواج لم أر شيئاً يدل على أن هناك ثورة عارمة تلتهب في أعماق خالد.

ربما لأنه كان قادراً على امتصاص الألم، وربما لأنه هو أيضاً لا يدري ولا يود أحداً أن يدري بما يحس.

في الغرفة المجاورة بقيت فترة، وعلى سريري الصغير أمضيت الليل كله ساهراً، فأنا وإن كنت أعمل طبيباً، إلا أنني لم أقم بالعملية لخالد. زوجته شاركت في تخديره باعتبارها طبيبة تخدير، أما أنا فكنت فقط في استقباله في غرفته بعد أن عاد.

حاولت أن أنام، لكن النوم جافى عينيّ، فخرجت لألتقي بهند. رأيت في عينيها شيئاً من الألم تغالبه بابتسامة، قلت لها:

ـ لماذا لم تنامي؟

قالت:

ـ لأنني كنت مشغولة بأمره.

وأشارت إلى غرفته. لم أجد الفرصة مواتية لأسألها الرأي في كل هذا الذي قاله زوجها، لكنها فهمت من كلامي ما أريد وحاولت أن تتغابى، ونظرت إلى وجهها مرة أخرى فقالت وفي هدوء:

ـ لا عليك دع ما يعتمل في خاطرك لفرصة ثانية نتحدث فيها بهدوء بعد أن يشفى.

طمأنتها بابتسامتي، ووعدتها بأن لا أسأل حتى ترى هي من جانبها أنها قادرة على الإفضاء. ومضيت إلى غرفتي. حاولت أن أنام بلا جدوى وأخذت أتطلع إلى السقف بنظرات حائرة. ترى ماذا يعني خالد بكلماته تلك؟ ولماذا وافق على أن تخدره زوجته الطبيبة إذا كان يعرف أنه سيفضي بأشياء كهذه وهو مخدر؟

حتى إذا ما جاء الصباح ذهبت لزيارته آثار البنج لا تزال عليه وإن كانت قليلة الأثر، والإعياء واضح على عيني الدكتورة هند، ومع هذا كانت تبدو وكأنها لم تستمع إلى شيء ما من زوجها الذي أخذ ينظر إلى وجهها في إعجاب.

ترى أو يمكن للإنسان أن يضع جداراً من الإسمنت بين نفسه ووعيه الباطن؟

لاحظت انشغال الزوجة بأمور زوجها وهي تجوب الغرفة، وعرفت من وجهها أنها لم تذق طعم النوم، لكنها مع هذا كانت تتحدث بالتلفون لتلقي بأوامرها إلى المديرة التي أعرفها حتى إذا ما انتهت من كلامها طلبت أن تتحدث مع هدى.

لم تكن هدى ساعتها في البيت، وإنما في الجامعة ولهذا لم يكن غريباً أن تطلب هند من المربية أن تخبرها بضرورة زيارة أبيها في المستشفى بعد الغداء.

انتظرت قليلاً في الغرفة. بدا كل شيء أمامي رمادي اللون، لكنني مع كل

هذا الذي رأيت لم أعد أستطيع فهم الموقف، حاولت كثيراً أن أجري الحديث مع هدى، لكنها كانت تأبى أن تعطيني الفرصة، خرجت وفي قلبي إحساس بشيء غامض لا بد هو السبب، كلمات صديقي الذي أحب.

أخذت أمضغ الوقت وألوك بين شفتي كلمات لا أدري كيف أصوغها لأن أفكاري كانت مشتتة، حتى إذا استطعت أن ألملمها قليلاً بدأ الماضي يطل من بين عيني بذكرياته جميعها.

اخترت طريقي إلى غرفة الاجتماعات في المستشفى لألتقي مرة ثانية بالدكتورة هند. كانت أشبه بامرأة فقدت الكثير من حماسها قلت لها باسماً:

ـ ألا تزالين تفكرين في معاني الكلمات التي قالها زوجك؟

وبهزة من رأسها أجابت:

ـ لا أدري. لكنني وعلى كل حال لا يمكن أن أنساها مطلقاً.

أمضينا بعض الوقت نتحدث في أمور كثيرة ثم خرجت مرة ثانية إلى غرفة الكشف. كان هناك عدد كبير من الناس التقيت بهم ثم انشغلت بفحصهم حتى إذا ما انتهيت عدت إلى بيتي لتناول الغداء.

أحست زوجتي بانشغال فكري فقلت لها عن المشكلة، لكن زوجتي ضحكت وحاولت أن تغير الحديث. على فكرة زوجتي سيدة إنجليزية درست التمريض ولها صديقة أخرى تعمل في المستشفى من بلدها نفسها، وعندما أحست زوجتي بضيقي قالت:

ـ سأبسط لك الموضوع، فاليزابيت صديقتي مغرمة بصديقك وترى أنه الرجل الذي يناسبها.

وصمتت.

قلت:

ـ وهل قالت هي ذلك لك؟

قالت:

ـ نعم.. وأضافت وتحدثت بأكثر من ذلك فقد كانت تجري وراء صديقك بلهفة.

عندها فهمت المسألة، وفهمت أكثر بأن أليزابيث كانت تحاول دائماً إيقاع صديقي في شراكها، هو الذي احتار كيف يصدها عن طريقه حتى إذا ما وجدها مصرة، طلب من زوجتي الإنجليزية المساعدة.

وسألت زوجتي:

- لماذا لم تقولي ذلك لي؟

وببرود معهود في الإنجليزيات قالت:

- لم أكن أظن أن هذا يهمك.

أفهمت زوجتي بضيقي منها لأنها لم تخبرني بهذا الأمر لكن المسكينة لم تكن تفهم، فالفارق بين مجتمعينا كبير. وبدأت أعرف ظروف صديقي كلها، حتى إذا ما تحدثت إلى اليزابيث عن الأمر وجدتها غير سعيدة لا لأن زوجتي أخبرتني بالحكاية، وإنما لأنها لا تستطيع أن ترى صديقي لوجود زوجته بجانبه دائماً. أفهمتها بأن عليها أن تنأى بنفسها عن كل هذه المشاكل، وأفهمتها حقيقة الموقف، وحقيقة شعور صديقي، وبدأت أفكر في الطريقة التي يمكن لي بها أن أفهم الدكتورة هنداً المسألة، حتى إذا ما التقيت بها في المستشفى، وتحدثنا كثيراً أحسست بأنني أستطيع أن أزيل شوائب ما علق بذهنها فقد كانت من ذلك النوع الطيب الدؤوب.

قالت لي:

- أو تريدني أن أتحدث إليه؟

قلت وبهزة من رأسي:

- نعم. ولكن ليس قبل أن يصبح قادراً على استيعاب كلماتك؟.

- حتى بعد أن عرفت؟

وأجبت:

- حتى بعد أن عرفت ما عرفت.

وبابتسامة مشرقة قالت:

- أرجو أن يغفر الله لي ظلمي لهذا الزوج وظلمي لابنته فقد كانت ابنته هي

أيضاً ابنة لأختها التي ماتت، وهي في عز شبابها، فقد كنت أفكر فيها بأنها السبب.

واسترجعت في نفسي ذكريات زواج صديقي الذي كنت أغبطه على زواجه من ابنة عمي التي تطلعت كثيراً لزواجها لكنها رفضت، وقارنت بينه وبين زفافي أنا وبين الدكتورة هند وزوجتي، فوجدت أن المقارنة ليست في صالح زوجتي مطلقاً، وقلت لنفسي: لننس هذه المشكلة، فدماؤنا التي تكونت تحت سماء هذه الصحراء لا يمكن أن تتغير.

وخرجت لأزور صديقي في غرفته، فرأيته هادئاً ساكناً وبجانبه زوجته وهي تضحك، وللمرة الأولى لم تستطع الدكتورة هند أن تكتم ما عرفت فتحدثت في إسهاب مع زوجها الذي تحب.

نظر لي صديقي من طرف عينيه وقال:

ـ حتى أنت يا بروتُس!

قلت له وأنا ضاحك:

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟

قال وملء عينيه إحساس بحب جارف لهذه السيدة التي أحب زوجته الدكتورة هند:

ـ ليس أقل مما صنعت وهذا يكفي.

قمر ١٤

أنا من أنا؟ هل أنا إنسانة مجنونة؟ لا أستطيع أن أصف نفسي بهذا الوصف. فكل شيء في حياتي يجعلني لا أدري لماذا أحس بهذا الإحساس الذي ينمو ويتزايد مع الأيام.

ولدت كما يولد الأطفال، في مكان هادىء في مدينة خميس مشيط، وكان مولدي مع مولد القمر في ليلة واحدة. ولهذا أسمتني أمي ووافق أبي على أن أحمل اسم قمر.

عندما كنت صغيرة بدأت أحس بمعنى تسميتي بهذا الاسم فأنا وإن كنت على جانب كبير من الجمال إلا أن حيويتي وشقاوتي كانت أكثر من اللازم.

عائلتي من أسرة متوسطة.. لكن أبي كان حريصاً على أن أتعلم وأن أصل إلى أرقى درجات العلم خصوصاً وأنني كنت الابنة الوحيدة في الأسرة.. لأن أمي لم يعد من حقها أن تنجب. منع الأطباء أبي أن يجعلها تنجب لأن قلبها ضعيف ولا تتحمل متاعب الحمل والولادة.

عندما بلغ عمري الرابعة عشر، كانت الأسرة تقول عني قمر (١٤) لدرجة جعلت الكثيرات من سيدات الأسر الغنية والتي تفوقنا ثراء يحاولن خطبتي لأبنائها لكنني لم أكن أرفض لأن الأمر لم يكن يعنيني، بل يعني أبي وأمي.

أبي كان يصر على أن أكمل تعليمي ولهذا انتقل بي وأمي من خميس مشيط لأكون معه في مدينة جدة.. وبهذه الطريقة استطعت أن أدخل الجامعة، وأن أدرس فيها الطب وأن أستمتع بحياة مغايرة

لحياتنا في خميس مشيط.

ازدادت معارف الأسرة في جدة وأصبح خطابي أكثر من المتوقع ولكنني كنت في هذه المرة أنا التي أرفض أن أتزوج. بهرني التعليم لدرجة شغلني وجعلني أفكر في هذا الخافق الذي كان يدق عندما أتذكر ابن عمي دخيلاً الذي كبر هو الآخر وإن كان قد اختار طريقاً آخر غير طريقي.

يظل ابن عمي الرجل الوحيد الذي كنت أطيل التفكير في أمره لسبب ودونما سبب ربما لأنه من لحمي ودمي وربما لأننا عشنا سنوات الطفولة معاً.

في جدة لم أكن أرى دخيلاً إلا نادراً، لأنه كان يقطن الرياض المدينة. لكنني عندما أراه أقبل عليه في شوق وأنسى أن اسأله عن أحواله، حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى بيتنا وهو يقول:

ـ أتدرين يا قمر بأنني قد قررت الانتقال إلى جدة مع أمي بعد وفاة والدي فلقد أحسست بأن أمي راغبة في تغيير المكان الذي تعيش فيه.

وأطرقت برأسي قليلاً ثم قلت:

ـ ربما كان الأفضل لنا أن نكون هنا في جدة لنستعيد ذكرى الطفولة.

واحمر وجهي عندما أحسست بأنني قد تلفظت بجملة لا معنى لها إلا إذا كان وعيي الباطن قد أراد ذلك ونظرت إليه فرأيت الجدية بادية على وجهه يسألني:

ـ ولكنك لم تسأليني عن عملي وماذا أفعل؟

وبابتسامة لاهية قلت:

ـ أعرف أنك قادر على ترتيب حياتك بمقدار كبير كما كنت ترتب ألعابنا يوم كنا صغاراً.. ولكن صحيح ماذا تعمل الآن؟

ومضى دخيل يقول لي في شيء من الإسهاب كيف بدأ يعمل بالثانوية كموظف في شركة وكيف استطاع أن يشتري أول أرض في السليمانية بالرياض وكيف باعها وكيف ترك الوظيفة وبدأ مشروعه التجاري بحصيلة ما جمع من قيمة الأرض وإلى أين وصل.

وأخيراً عرفت منه بأنه صاحب مؤسسة كبيرة تعمل في حقل الأجهزة الطبية

وأنه لم يترك فرص التعليم تضيع من يده بل استطاع أن يحصل على ليسانس الحقوق من جامعة بيروت العربية، وإنه الآن في طريقه لنيل الماجستير من جامعة الأزهر في الشريعة كل ما قاله من معلومات كان جديداً علي لا أعرفه وإن كنت سعدت بما سمعت لأنني كنت أميل إلى دخيل ابن عمي وأقدره.

عند هذا الحد توقف تفكيري وقلت له:

ـ وماذا ستعمل هنا؟ هل ستفتح مكتباً للمحاماة؟

ـ لا.

قالها بجدية وتابع:

ـ ولكني سأجعل مكتبي في جدة المركز الرئيسي لعملي ومكتب الرياض الفرعي وسيبقى سالم فيه.

ـ سالم من؟

قلتها في فضول.

ـ ابن خالك. فهو شريكي بجزء صغير في المكتب، بدأنا سوياً في العمل ولا زلنا، نسير بالأسلوب ذاته.

وانتهى اللقاء ربما على أمل من جانبي هذه المرة على أن نلتقي ونتحدث.. حتى إذا ما مضت الأيام نسيت كل شيء وأخذت طريقي بنفس الشعور أمارس تدريبي في المستشفى بعد أن نلت شهادة البكالوريوس.

لم تعد ساعات اليوم تكفيني للبقاء بجانب المرضى. ربما لأنني عانيت يوم كانت أمي مريضة هناك في الخميس. لم تكن الحياة الصحية في بلادي على ما هي عليه الآن حتى أبي كان هو الآخر يحاول أن يثنيني عما أفعل عندما مرضت تلك العزيزة.

لم أتحدث لكم كثيراً عن أمي فأمي من المنطقة ذاتها التي ولد فيها أبي يقولون إن دماء تركية تجري في عروقها لأنها أكثر بياضاً وشقرة.

كنت أقارن وأنا صغيرة بيني وبينها؛ فأقول أمي أجمل.. أما هي فقد كانت تقول دائماً:

ـ أنت قمر، قمر ١٤.

طوال فترات نوبتي في المستشفى كنت أتحدث لأمي عن الطفل الصغير الذي فقد أمه وعن الشاب الذي أصيب بمرض شلل الأطفال وعن السيدة التي كان حملها كاذباً وعن.. وعن.. وكانت تستمع لي كثيراً وتقول:

ـ أنت حساسة يا قمر لدرجة كبيرة وهذا سيتعبك يا بنتي خصوصاً وبعد أن اخترت مهنة الطب فالطبيب يجب أن ينسى كل شيء بعد خروجه من المستشفى.

أبي مبهور بما حققت من نجاح لدرجة كنت دائماً محور حديثه بين أصدقائه هو الذي صنع لنا كل هذه الإشراقة في حياتنا التي نمارسها.

أكثر من مرة قال لي هو:

ـ ألم يحن الوقت لتفكري في أن يكون لك أسرة وبيت؟

وكنت أجيبه ضاحكة:

ـ وهل أنا هنا معك ومع أمي بدون أسرة وبيت؟

ويهز أبي رأسه ويقول:

ـ أنت تعرفين ما أقصد.

لا أدري لماذا كنت أتهرب من توجيهه لي هذا السؤال وأبحث عن أي حديث آخر يحول بيني وبين الاستمرار في الكلام حول هذا الموضوع، حتى تلك الليلة التي عدت منها منهوكة القوى بعد عمل متواصل وجهد كبير بذلته مع مريضة جاءت إلى المستشفى.

قال لي أبي وبجدية:

ـ أتعرفين من خطبك مني اليوم؟

قلت وكعادتي:

ـ خطابي يا أبي كثيرون فأنا طبيبة وجميلة كأمي.

ضحكت أمي لهذا الإطراء وإن لم يضحك والدي وقال:

ـ ابن عمك جاء بنفسه إلي بعد أن حاول أكثر من مرة أن يفهمني عن طريق أصدقائنا وبعض أفراد الأسرة بأنه يريدك شريكة لحياته.

ولم أجب وإنما قلت بعد لحظة صمت طويلة:

ـ سأفكر في الأمر يا أبي.

ومضيت إلى غرفتي أقلب الأمر على كل الوجوه فدخيل شاب تحلم بالزواج به كل أنثى وفوق كل هذا فهو ابن من أبناء عمومتي.. دخله معقول.. ووسيم.. ومثقف ثقافة أصيلة فلم يترك نفسه لعمله وإنما مضى ينهل العلم بأسلوبه حتى استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه وأنا.. وإن لم أكمل أكمل لنفسي.

كلمات أبي القليلة أعادتني إلى أجواء حياتي السابقة، إلى طفولتي، إلى مراتع صباي، إلى كل شيء وددت أن لا أنساه. لكنني وبعد أن مضيت في طريقي لا أكاد أتذكر هذا الماضي.

بيتنا في الخميس، ألعابنا أنا ودخيل عندما كنا صغاراً. لقد تغيرت الحياة كثيراً على أرضنا لكنّ أصالتنا تظل باقية: أمي، خالاتي، جيران أمي، حتى تلك العجوز التي كانت تنظر إلينا شذراً ونحن نعاود اللعب في مياه الأمطار كانت تتحدث بلغة لم نفهمها يوم كنا صغاراً أما اليوم فقد وضح كل شيء أمام عيني فقد كانت العجوز تخاف علينا وتحذرنا من الأمراض التي لم نكن ندري عنها شيئاً..

ولكم سعدت برؤية العجوز عند زياتها مع حفيدتها لعيادتي في المستشفى. لا أكتمكم بأنني لم أتمالك نفسي وأنا أراها وهي تقول:

ـ ما شاء الله يا بنت. قدرتي توصلي وتصيرين دكتورة كبيرة.

أمسكت يدها بحنان، وسألتها عن أحوالها وعن كل شيء، وعرفت منها أنها تعيش من أجل هذه الحفيدة التي ماتت أمها.

ولقد أبكتني كثيراً وهي تتذكر ابنتها فاطمة، لكنها استطاعت أن تحافظ على هدوئها وأن تشيع البسمة في وجهي وهي تقول:

ـ لا تزالين قمر ١٤ كما كنا نسميك يا بنتي.

وتابعت حديثها تتساءل:

ـ ألم تتزوجي بعد دخيلاً الآن؟

وتتابعت أسئلتها علي وأنا أجيبها في هدوء. حتى إذا ما أنهيت كشفي على حفيدتها قالت لي وفي هدوء:

ـ لا تضيعي عمرك هكذا فنحن الحرائر أحوج ما نكون لأن يكون لنا أسرة وبيت.

ورنّت كلماتها في أذني كما رنّت كلمات أبي لكنني بعد كل هذا رأيت أن أنسى كل شيء عن الزفاف الذي تحلم به كل أنثى.

مضيت في عملي غير آبهة بكل شيء.

حتى دخيل ابن عمي الذي كنت أميل له وأنا صغيرة.. تناسيته وأنا أسير في طريقي نحو المجد العلمي الذي أردته حتى إذا ما فاض به الكيل وأبلغت أبي بأن عليه أن ينتظر إن أراد ولكن دخيلاً لم ينتظر.. انتهى إلى قرار باركته بنفسي.

فقد تزوج دخيل وأصبحت له أسرة.. وأشرفت أكثر من مرة على علاج زوجته وبقيت أنا قمر ١٤ بلا زوج لكنني لن أقول أو أكابر بأنني لم أتأسف، ففي بعض الأحيان أحس بأنني قد ظلمت نفسي وفي كثير من الأحيان أشعر بأنني قد ظلمت أبي وأمي.

فهأنذا اليوم بعد أن توفي أبي وأمي أبحث في قرارة نفسي عن زوج أرضى عنه فلا أجد.

ربما لأنني خائفة وأنا الطبيبة المشهورة من الزواج ومشاكل الأسرة أنا التي أنصح جميع تلميذاتي بأن يبكرن في الزواج على أمل أن لا يأتي ذلك اليوم الذي تحتاج فيه المرأة، أية امرأة إلى زوج.. أي زوج.

من أجلي... أيضاً

كثيراً ما أقرأ ما تكتبه الصحف أشعر بأنني مشدودة إلى بعضها خصوصاً عندما تكون الكاتبة أو الكاتب إنساناً مرموقاً معروف الاسم.

سهير البابلي الفنانة المصرية تقول إنها دائماً في حاجة إلى حماية رجل. أقرأ ما تقوله هذه السيدة وأضحك في أعماقي لأنني على نقيضها، أحب أن يكون الرجل في حمايتي، ربما لأنني كبرت، وكنا أرى أمي هي كل شيء في البيت والأسرة حتى أبي كان يستمع لكل ما تقوله في شغف ربما لأنه يحبها وربما لأنه يخافها. لكن أمي ليست من النوع المخيف، فجمالها هادىء، ووجهها يمتلىء بالحنان، لكن نظراتها أحس بها بعض الأحيان كسياط تلسعني عندما أخطىء.

أبي يحب أمي.. لا شك في هذا، لكن الشيء العجيب أن أمي لم تكن تحب أبي. فكانت تنظر إليه على أنه زوج وأب، وأن الحب شيء لم يخطر لها على بال. سمعتها تتحدث عن هذا لإحدى صديقاتها، كانتا تضحكان حتى إذا ما رأتني طالبتني في حزم أن أذهب لغرفتي.

عندما كنت صغيرة كنت أحب أمي لكنني أحب أبي أكثر، وعندما كبرت صرت أخاف أمي وأحترم أبي.

سألته ذات مرة عن أسباب رضوخه لطلبات أمي فضحك، وقال: كبرت يا دينا، وبدأت تسألين لكن دعي كل هذا إلى يوم ما من الأيام، فسأحدثك فيه عن كل شيء.

استغربت هروب أبي من الإجابة، لكنني لم أحب أن أضايقه فصمت.

أمي تنعت أبي دائماً بأنه ضعيف أمام أبنائه وبناته. وهو في الحقيقة ليس كذلك. ولهذا كنت أنزعج عندما أسمع أمي تقول هذه الكلمات، وأنظر إلى أبي فأراه يبتسم، ويغمز لي بطرف عينيه وكأنه يحاول أن يبعد عني شبح التفكير في كلام أمي، لكنني كنت أفكر بكل عقلي وكياني في أمر أمي وأبي والأسرة، نسيت أن أقول بأننا ثلاث بنات وصبي. كنت أنا الكبيرة وإن كان الفارق فيما بين الأعمار لم يكن كبيراً في المدرسة.

عندما كنت صغيرة، كنت أحس بأنني أقوى شكيمة، وأقدر على الجدل من أية طفلة. صديقاتي اللواتي واظبن على صداقتهن معي كن قليلات لكنهن كن ينقدن لي هكذا دونما سؤال، وكنت سعيدة بأنني أستطيع أن أكون مؤثرة فيهن.

بيتنا يستقبل الكثير من الضيوف، وأبي يحب الضيوف. لكن أمي لم تكن تتحمل الضيوف كثيراً رغم أنها لا تصنع شيئاً في البيت، ففي بيتنا أكثر من خادمة. أخواتي الوحيدات اللواتي كنت أضعف أمامهن وأحاول إرضاءهن بأية طريقة. أما بالنسبة لأخي فقد كنت عدوانية وشرسة في كثير من الأحيان.

أخي فيه الكثير من الوداعة وهو يشبه أبي بشكل واضح. كان ذكياً وأنيقاً في الوقت نفسه. صديقاتي معجبات برجولته التي ظهرت فنحن جميعاً أصبحنا في سن الشباب.

عمتي إنسانة فيها الكثير من الصلافة والكبرياء وهي الوحيدة من الأسرة التي توقف أمي عند حدها ولهذا فأمي لا تحبها ولا تكرهها وإن كانت تحاول دائماً أن لا تفتعل معها ما يجعلهما تعودان إلى خصومتهما، فقد عرفت أن عمتي وأمي قد قاطعت الواحدة منهما الأخرى أكثر من مرة وكان أبي هو الذي يصلح بينهما، المرة الوحيدة التي حضرت خصامهما كنت استمع إلى كلمات الاثنتين فاعجب، فكلتاهما يخيل لي أنها على حق وأنا لا أدري.

أبي يتحدث لي دائماً ويقول عني بأنني ذكية وشيطانة، ويحاول أن يفهمني معنى أن أسير على أسلوب أمي.. لكنني أستمع من هنا وأنسى من هنا. ربما لأن كثيراً من الأمور يتوارثها الإنسان عن أحد والديه دون أن يدري. عندما

تزوجت اخترت زوجي وفيه الكثير من الشبه من أبي، وكنت أظن بأنني سأكون سعيدة. لكنني وبعد أن أمضيت أكثر من خمس سنوات بدأت أشعر القرف والملل أيضاً.

أمي كانت تسألني دائماً عن حياتي الزوجية فلا أذكر لها شيئاً. كنت في كل مرة أطمئنها دون أن أذكر لها شيئاً حتى اكتشفت هي الأمر بنفسها وعرفت بأنني صورة طبق الأصل منها فحاولت أن تصلح من شأني.

سألتها ذات يوم: هل يشكوني زوجي إليها؟

ضحكت أمي وقالت:

ـ وهل تودين منه أن يفعل؟

هززت رأسي نفياً فقالت:

ـ لي عينان أرى الأشياء كلها بهما.

فقلت:

ـ ولكنك لا تنسين ماذا كنت تصنعين مع أبي.

ضحكت أمي وقالت:

ـ أوتظنينني مبسوطة مما كنت أفعل؟

ـ ولماذا تفعلين ما تفعلين إذا لم تكوني سعيدة.

سكتت أمي ولم تجب واحترمت صمتها..

وأخذت أفكر. ربما سرت على دربها أنا الصغيرة وستصبح أمي الملومة.

أيامي تمر وأبي وأمي يكبران والمشكلة تزداد تفاقماً بينهما لكنني كنت لا أتدخل في أمورهما حتى جاءني أول مولود كان أبي به سعيداً وكانت أمي كذلك وسارت أيام الفرح على ما أشتهي وأريد، وبدأت أنشغل بطفلي في بيت الزوجية ومع هذا كنت لا أزال أمارس مع زوجي الأسلوب ذاته الذي كانت تمارسه أمي مع أبي ولم أهتم.

كان المسكين ينتظر مني أن أعقل حتى جاء اليوم الذي طفح فيه الكيل معه فأفضى لأبي بكل همومه ومشاكله، وتحدث أبي معي. قال كلاماً كثيراً، حاول

من خلاله أن يثنيني عن الأسلوب الذي أمارسه.

لكنني لم أرعو. نظر أبي إلي وقال:

ـ لقد حذرتك ولكنك لم تستجيبي، على العموم سأفعل ما يجعلك تندمين على كل ما تقومين به إن لم تعودي إلى الصواب.

لكنني لم أهتم، كنت أظن أن حديث أبي مجرد كلام فأنا أعرفه، وأعرف تنازلاته لأمي لكني وبعد أن عرفت ما عرفت تحقق لي بأن أبي قد نفذ تهديده ووعيده لأنني تلقيت خبر طلاق أمي وكأن مصيبة وقعت على رأسها ورأسي بعد كل تلك السنوات.

سألت أبي عن الأسباب قال وفي هدوء:

ـ أنت السبب. إنني من أجلك تحملتها، ومن أجلك طلقتها.

وعرفت الحكاية وبدأت أغير من أسلوبي مع زوجي حتى رضي عني زوجي وأبي ويومها سألت أبي:

ـ ألا تعيدها إلى عصمتك؟

ضحك أبي وقال:

ـ أشوف.

ومر على تلك الكلمة أكثر من شهور ستة كانت أمي تتحرق للعودة إلى بيتها.

وفي يوم من أيام الجمع حدثني أبي هاتفياً وطلب مني ومن زوجي أن نحتفل جميعاً بعودة أمي إلى البيت، فقد أعادها إلى عصمته بعد أن عرف كيف يعلمني معنى أن أحترم زوجي..

وعندها عرفت كم كان أبي قوياً.. شديد البأس لكنه عندما تنازل عن حقوقه يوم كنت صغيرة كان من أجلي.. ويوم طلقها أيضاً كان من أجلي. وها هو يعيدها أيضاً إلى عصمته من أجلي أيضاً!

سنوات القحط.

سنوات القحط عند المرأة أشبه ما تكون بأنثى فرغ قلبها من الحب ونضب معين جمالها، فلم تعد تعرف كيف تستقبل الحياة أو حتى تستدبرها، لكنها وهي تواجه هذه المحنة، تجد نفسها أسيرة تفاهات ما تمارس في هذه الحياة، وهي التي استطاعت في سنوات الصحو أن تعيش حياتها بالطول وبالعرض وأن يمتلىء قلبها بالكثير الكثير من الحنان والتطلع.

فالمرأة كالتربة التي تغمرها المياه، يزيد الحنان في قلبها عندما تلاقيه من غيرها وممن يعيشون في محيطها وتفقد هذا الحنان عندما تجد نفسها أسيرة أهوائها.

لا تستغربوا مني أن أتحدث عن القحط في حياة المرأة، فلقد عاصرت بنفسي هذا القحط، وهو يشيع في قلب أمي التي أحب، فيصيبها وابله بشكل لم أستطع رغم كل ما صنعت أن أتغلب عليه. ربما كان الحق كل الحق لتلك السيدة التي أنجبتني، في أن ينالها الهلع والخوف لما أصاب قلبها من قحط، لكني وأنا الآن المطيعة كنت أحاول أن أتلمس طريقي إلى شغاف قلب تلك الأم بلا جدوى.

في القرية الصغيرة التي ولدت فيها، «وادي الصفراء»، كنا نعيش أنا وأمي وأبي في بيت من لبن صغير، تحيط به نخلات هرمة شاء أبي أن يجدد شبابها فغرس إلى جانبها نخيلات صغيرة، حتى إذا ما اشتد عود الصغيرة اقتلع الشجرة العجوز لنصطلي بجذوعها في أيام الشتاء ونتقي شره القاسي.

أبي لم يكن من ذلك النوع القاسي الذي يتهرب من بيته وأسرته،

ومع ذلك فقد فعلها ذات يوم بعد أن جرت المادة بين يديه وبعد أن انتقلنا إلى «فيلا» في جدة.

أبي يحبني وأنا أحبه، فلما طالت غيبته عن بيتنا سألته بإلحاح.

فقال لي وفي هدوء:

ـ ألا تسألين أمك؟

قلت:

ـ ما بالها؟ أو تشكو من شيء العزيزة؟

ضحك أبي وقال:

ـ لا . . لا لكن المرأة عندما تكبر يصبح من الصعب إرضاؤها ما دامت لا تستطيع هي أيضاً إرضاء الآخرين.

أبي رغم ثقافته العادية إلا أنه بفطرته الحية قادر على المناقشة . .

كان يقول:

ـ صدقيني لو لم تكن هي على ما هي عليه لما فعلتها.

قلت:

ـ فعلت ماذا؟

قال:

ـ اختلفت مع أمك، لكن كل ما في بيتنا من اختلاف فقد استطعت أن أحتويه لئلا تعرفي، لكنها كانت قاسية فأسمعتني كلاماً لا أدري كيف يمكن أن تقوله امرأة لزوجها، وعندما هددتها بأن أتزوج قالت لي وفي تبجح:

ـ ومن هي التي ستقبلك؟

ـ أتدرين أن ثلاثاً من فتيات القرية المجاورة رغب آباؤهن في تزويجهن لي، لكنني هربت واكتفيت بواحدة.

ـ وتفعلها يا أبي؟

ـ الظروف، ظروف الحياة التي أمارسها مع هذه السيدة التي صبرت عليها جعلتني أفعل.

ـ وهل أنت سعيد؟

ـ أو تدرين الحق؟

قلت:

ـ نعم.

ـ ربما كانت الأيام الثلاثة الأولى أسعد أيام حياتي، لكنني عندما تذكرتك، بدأت أحس بالهم والغم، وعرفت بأن ليس من السهل على إنسان أن يعيش مشتتاً بين بيتين.

ـ وتعرف أمي المشكلة؟

ـ نعم تعرفها، فأنا لا يمكن أن أصنع شيئاً في الظلام.

ـ والفتاة التي تزوجتها، هل هي متعلمة مثلي؟

ـ لو كانت كذلك يا بنية لرفضت، لكنها على الأقل خير من هذه التي عاشت تأكل خبزي وتقض مضجعي.

لم أستطع أن أقول شيئاً، وإن كنت أخذت أواجه المشكلة بكثير من الاستياء. حاولت أن أنساها، أولم أقل لكم بأنني أحب أبي وأحب أمي أيضاً؟ هم الأبناء تعقدهم ظروف آبائهم وأمهاتهم، لكنها هي الحقيقة التي أعتقد أنني عانيت منها ما عانيت.

كنت أفكر فيما بيني وبين نفسي حيال الزواج الجديد لأبي، حتى إذا ما تهيأت الفرصة لي لأن أتحدث لأمي عن غريمتها.

قلت وبلا مقدمات:

ـ أو تعرفينها؟

وبنظرة جانبية من أمي، أحسست بأنني أصبحت أشبه ما أكون بريشة في مهب الريح.

لكنني مع كل هذا الخوف لم أستطع أن أتراجع عندما سمعت صوت أمي وهو يقول:

ـ من تعنين؟

قلت وبشيء من الهدوء:

ـ زوجة أبي الجديدة!

وبالنظرة ذاتها التي أطلقتها أمي قالت:

ـ أو تعرفين عنها شيئاً؟

قلت:

ـ لا . .

قالت:

ـ ولكن من أخبرك؟

صمت ولم أرد أن أقول بأنه أبي، لأني أعرف معنى أن أقول إنه هو الذي أخبرني. ومضيت أفكر في كل هذا الذي قاله أبي ولم تشر أمي إلى حديثي بشيء بل فضلت أن تقفل باب المناقشة.

وبدأت سنوات القحط تدخل بيتنا، فأبي كان قد أحب زوجته الجديدة التي رأيتها، وهالني أن تكون على هذا الجمال والكمال أيضاً.

وهالني أكثر أنها كانت أشبه بوردة متفتحة تقبل على الحياة والناس وعليَّ أنا أيضاً بالحب، وشعرت بأنني قد بدأت أحبها أنا الأخرى، لدرجة جعلتني أوافق على أن أتزوج من أخيها وهي ضرة أمي.

لم تكن أمي موافقة على هذا الزواج حتى رأت العريس. . ويومها قالت لي:

ـ لا عليك مني يا ابنتي، فهو من معدن يماثل معدن أبيك، فلا تكوني أنت مثلي.

نظرت إلى أمي نظرة جانبية فرأيتها تضع صندوقاً وردي اللون فيه رسائل كثيرة، سألتها عنها، فقالت:

ـ ليس لوالدك في هذه الرسائل سوى واحدة. أما الأخريات فهي من أمي وأبي عندما كانا يسافران هنا وهناك.

والتقطت يدي رسالة أبي لأقرأها، أتدرون ماذا كانت كلمات أبي؟ تعالوا

نقرأها سوياً فقد تفهمون منها شيئاً . .

حبيبتي . .

لا تكوني جميلة كجمال الصباح، ولا رقيقة فاتنة كفتنة الورود . . وإنما أضفي إلى جمالك الرائع وفتنتك الكبيرة الوضوح، فالوضوح هو سيد جمال المرأة.

وتابعت القراءة لأجد سطوراً كثيرة لكن ما أعجبني فيها كان ما يأتي:

فمن ضياء الشمس وضوء القمر كان هناك وجهك الأبيض النبيل يمنح عيني شيئاً من الراحة أراه يطل عليَّ من وراء خطواتك الأنيقة، فأنت نسيج يغاير كل الأنسجة. أخاف عليه عندما يغيب ضوء القمر، لأنك أنت وهو على موعد.

في سويداء القلب تعيشين ألصق ما تكونين بقلبي الذي يخفق وينادي، فهذا القلب ينطق بجمال الصباح، ورقة الورود هو قلبي.

أعدت الورقة إلى أمي وقلت لنفسي أحادثها في صمت.

ـ أتظنين أنه كتب مثل هذا الكلام لامرأته الجديدة؟

ضحكت أمي وكأنها سمعت ما أقول وقالت:

ـ أعرف ما يدور في خاطرك، لكن صدقيني. لم ولن يفعل فأنا أعرفه، لقد كان أبوك على حق عندما أحب وكان على حق عندما كره.

ونظرت مرة ثانية، لأرى سنوات القحط تتجسد في وجه أمي الأبيض الذي اختار أن يظل بعيداً عن ضياء الشمس وضوء القمر، عندما كبر!

الزوجة

هذه المرأة غريبة الأطوار رغم جمال وجهها المثير وجسدها الفارع وشعرها الأشقر الغزير. في لسانها سلاطة، وفي أعماق أعماقها يعشش الشر.. ربما لأن منبعها واطي، والأرض التي عاشت فيها قاحلة، والأناس الذين اختلطت بهم أغبياء.. وربما أفسدتها المادة وأبطرتها النعمة.. جعلت منها إنسانة غير تلك الإنسانة التي كانت تخجل أن تسرح عيناها في وجه إنسان.

يوم تزوج بها أخي، كنت الوحيدة التي وقفت إلى جانبها، بينما كان جميع أفراد الأسرة ضدها. كنت أظن أنها مظلومة، أو كنت أظن بأن أفراد أسرتي يظلمونها عندما يتحدثون عن حياة أمها وحرمان وفقر أسرتها ويربطون بين قسوة تلك الأم وشظف العيش الذي جعلها تحاول أن تنتقم لابنتها من الناس، من الصديقات، من الجارات.. من كل شيء.

أمي تعرف أمها، تعرفها منذ أن كانتا طفلتين منتظمتين في كتاب البنات، عند فاطمة هانم. لم تكن حينذاك في مدينة الرسول أية مدرسة بنات. كان الكتاب بداية الطريق للفتاة لأن تتعلم شيئاً، حتى إذا ما تغيرت الأحوال اختارت نائلة أن تتزوج بأول وافد على بيتهم. قالت لأمي وهي معها في المدسة المتوسطة:

ـ أليس الزواج هو نهاية المطاف للمرأة؟

ضحكت أمي وقالت:

ـ ولكن على شرط.

استمعت نائلة الأم للشروط التي شرحتها أمي وإن لم تقتنع.

كانت أول الشروط أن يكون الزواج بين الفتى والفتاة، وهي في سن متقاربة على الأقل.

غمزت نائلة لأمي بعينها وقالت:

ـ ولكنه رجل غني!

لم ترد أمي على تساؤلها وإنما قالت بينها وبين نفسها، هي حرة تصنع ما تريد.

تزوجت نائلة وأنجبت، حتى إذا ما أصبح عمر ثريا أربع سنوات، ضاع كل شيء من يد الرجل العجوز وذهب ماله.

أمي تزوجت بعد نائلة بسنتين واحداً من شباب الأسرة، بدأت سلمها معه وأنجبت أخي قبل أن تنجب نائلة ثريا.

طوال كل هذه السنوات، سنوات الطفولة وسنوات الزفاف، كانت أمي تعرف عن نائلة وحياتها وما تمارسه من إرهاب في بيتها، وما كان يمارسه أبوها معها، حتى إذا ما ضاع مال الزوج، عادت المرأة إلى بيتها القديم وانقطع الاتصال بين أمي ونائلة صديقتها القديمة.

في المدرسة، تعرفت بثريا وأعجبني جمالها، لم أكن أعرف عنها شيئاً ما، سوى أنها جميلة.

يوم زارتني ثريا في بيتنا قالت لي أمي:

ـ احترسي يا سهى، ولا تدعي هذه الصحبة تنفذ إلى قلبك فلقد لاقيت الأمرين من أمها.

وعرفت من أمي حكايا الإساءات التي كانت تصنعها نائلة معها.

نظرت إلى وجه أمي وقلت:

ـ ولكن ربما كانت الابنة ليست من طراز الأم!

ضحكت أمي وقالت:

ـ اقلبي الجرة على فمها تطلع البنت لأمها.

عجبت للمثل الذي سمعته من أمي، وظننت بأن الكلام الذي تقوله مجرد

كلام. عندما وصفت ثريا لأخي وهو يبحث عن زوجة وجدت عنده ميلاً كبيراً لزيادة التعرف إلى هذه الأنثى.

طلبت من ثريا صورة لها وقلت لها السبب. فلم تجفل وإنما أعطتني الصورة بعد أن قالت لي:

ـ بأنها استشارت أمها في هذا الموضوع.

لم أحاول أن أسألها رأي الأم، لكنني ظننت أن أسلوب المصارحة الذي يجمع بين الأم والبنت هو أسلوب عصري متميز.

منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها أخي صورة ثريا، أحسست بميله لأن يتزوجها، فأخذت أدعوها إلى بيتنا وأحاول أن يراها أخي على الطبيعة.

لم تستنكر مني ثريا ذلك، بل تجاوبت معي وقبلت مني كل ما أصنعه. فقد كانت ملهوفة لأن تترك بيت أسرتها إلى أي بيت مثلها مثل أمها يوم تزوجت.

رآها أخي على الطبيعة، وأحسست بعدها بأنه قد أغرم بها، فاندفعت إلى أمي أطالبها بأن تصنع من أجل سعادة أخي ما يرغب.

قالت لي أمي يومها:

ـ أنت صغيرة يا بنيتي، فأنا وإن كنت لا أعرفها لكنني أعرف أمها. إنها لا تصلح لنا بالمرة.

أذكر كل ذلك، الآن وقد مضى ما مضى على هذا الحديث، لأن أمي كانت بالفعل صادقة، وكأنها ترى المستقبل بعينيها، فهذه المرأة زوجة أخي غريبة الأطوار بعيدة كل البعد عن مظهر وجهها وجمالها. كم مرة وقفت أمام أخي أحاول أن أثنيه عن عزمه في طلاقها بعد أن استولدها أخي ابنته الصغيرة التي جاءت أكثر شبهاً بأمها، ولقد حاولنا أنا وأمي أن نأخذ الصغيرة في أحضاننا فلربما استطعنا تغيير كثير من تلك العادات التي نستكثرها في أمها بدون جدوى.

كبرت الصغيرة، وفيها قسوة وسلاطة وحمق. كانت أشبه ما تكون بالنسخة الأم الصغيرة الكربون لأمها التي لاقيت منها ولقي أخي وأمي الكثير والكثير.

حتى ذلك اليوم الذي ماتت فيه الجدة التي كانت تزورها كثيراً مما جعل

زوجة أخي تعيش بضعة أيام في صدمة حقيقية، فقد كانت المسكينة تحب أمها كثيراً.

وبدأت ثريا تتغير، أخذت تجنح معنا إلى الملاطفة وتبحث عما يرضيني ويرضي أمي وأخي لتفعله.

وأحسست بأن خيطاً رفيعاً قد انقطع بعد وفاة أمها.

وبدأت أتودد إليها أكثر فأكثر، وكانت هي تفعل الشيء نفسه.

أبهجني وأبهج أخي وأمي أن يعود الهدوء إلى بيتنا بعد طول مناكفة.

وعندما سألتها عن السبب في كل هذا التغيير، أخذت تضحك وهي تقول لي:

ـ صدقيني لم أكن «وحشة» على الهيئة التي ذكرت، لكن الموضوع يحتاج إلى أن أشرحه لك. أو تذكرين زوج الطيور اللذين أحضرهما أخوك إلى البيت؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ هي السبب!

قلت:

ـ كيف؟

قالت:

ـ كان الطيران في قمة السعادة لأنهما أنثى وذكر ويوم ركبت رأسي وأتيت بأنثى إلى قفص الاثنين، تغير الحال.

بدأت أنظر إلى أنثى الطير فأجدها مهمومة وهي ترى ضرتها تعيش معها، في البيت نفسه الذي تعيش!

وأخذت أفلسف الأمر حتى جاء اليوم الذي افتقدنا فيه الأنثى فقد داهمها الموت، وكان اليوم هو يوم وفاة أمي فأحسست بأنني مخطئة في حق زوجي وحق الأسرة وأن ما أصنعه مع زوجي ومعكم قد يحمله إلى أن يأتي بأنثى

أخرى إلى بيتنا.

وعاودت ضحكتها وهي تلوك كلماتها قائلة:

ـ ورأيت أن أنسى كل تلك الأعمال الصبيانية التي تعلمتها من أمي، وآمنت بأنك كنت لي أكثر من أخت وكذلك أمك فهي أمي، واقتنعت من داخلي بضرورة إصلاح موقفي وقد كان.

نظرت إليها بشرود، لكنني في أعماق نفسي أحببتها في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى.

فهرس المحتويات


تصميم الغلاف: مصطفى جحا
للتأليف والترجمة والنشر